العلاقات بين

الأندلس الإسلامية
وإسبانيا النصرانية
في عصر بني أمية
وملوك الطوائف

تأليف

الدكتور رجب محمد عبد الحليم

معهد البحوث والدراسات الافريقية

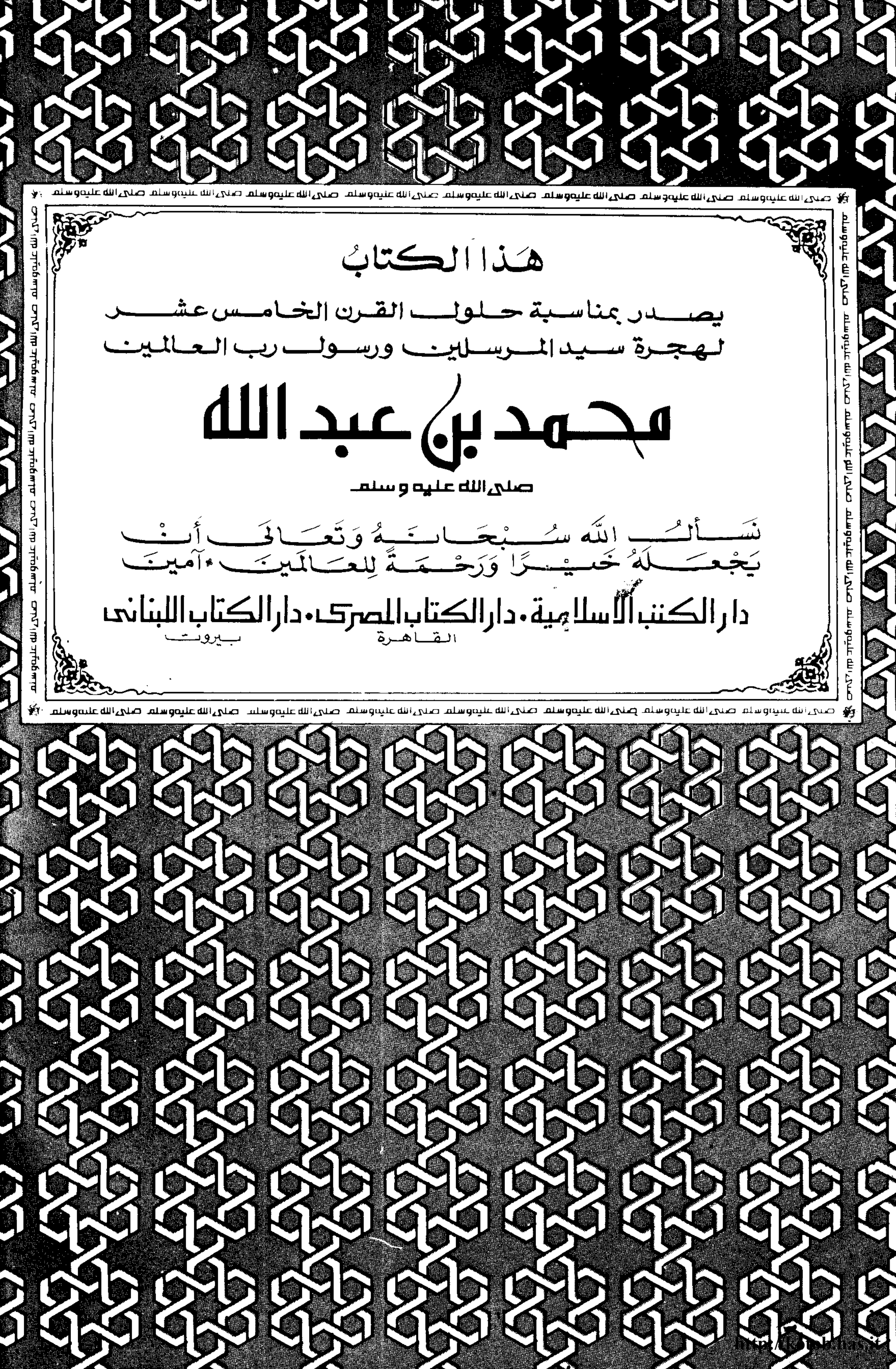
جامعة القاهرة

الناشر

دار الكتب الاسلامية

دار الكتاب المصري — القاهرة

دار الكتاب اللبناني — بيروت



هٰذا الكتابُ
يصدر بمناسبة حلول القرن الخامس عشر
لهجرة سيد المرسلين ورسول رب العالمين
محمد بن عبد الله
صلى الله عليه وسلم
نَسألُ اللَّه سُبْحانَهُ وتَعالَى أنْ
يَجْعَلهُ خَيْرًا وَرَحْمَةً لِلعالَمِينَ * آمِينَ
دار الكتب الإسلامية • دار الكتاب المصري • دار الكتاب اللبناني
القاهرة
بيروت

العلاقات بين

الأندلس الإسلامية

وإسبانيا النصرانية

في عصر بني أمية

وملوك الطوائف

تأليف

الدكتور رجب محمد عبد الحليم

معهد البحوث والدراسات الافريقية

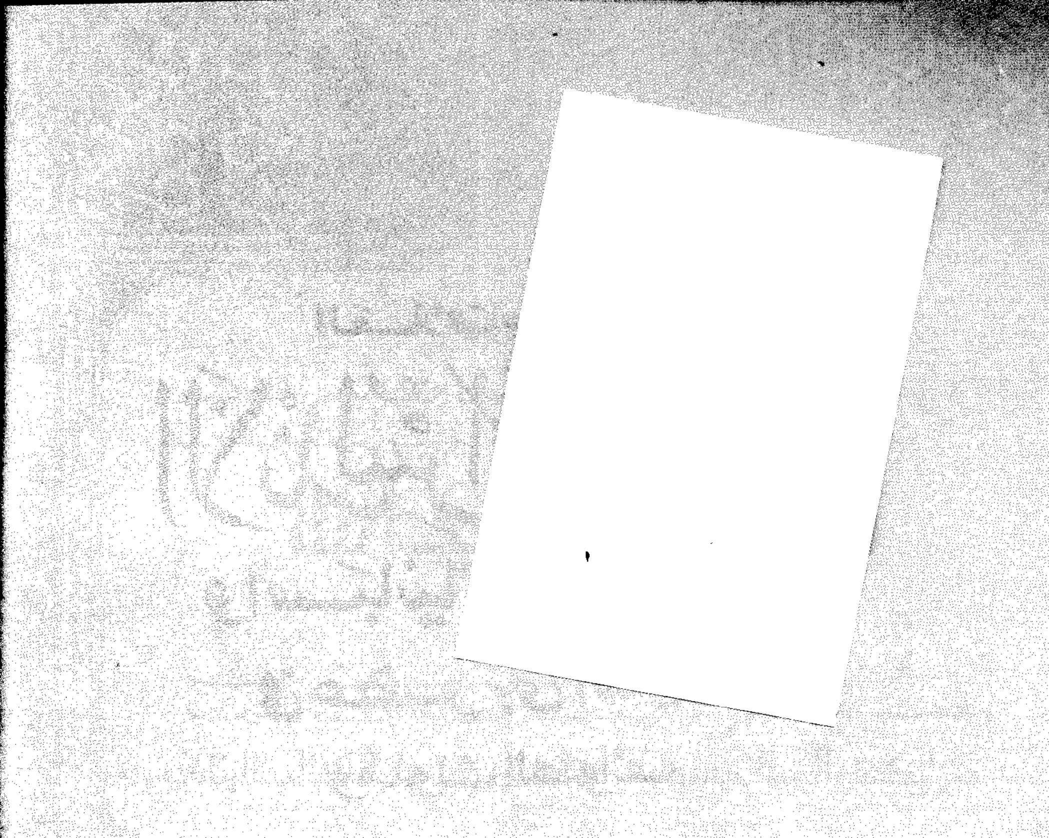
جامعة القاهرة

الناشرون

دار الكتب الاسلامية

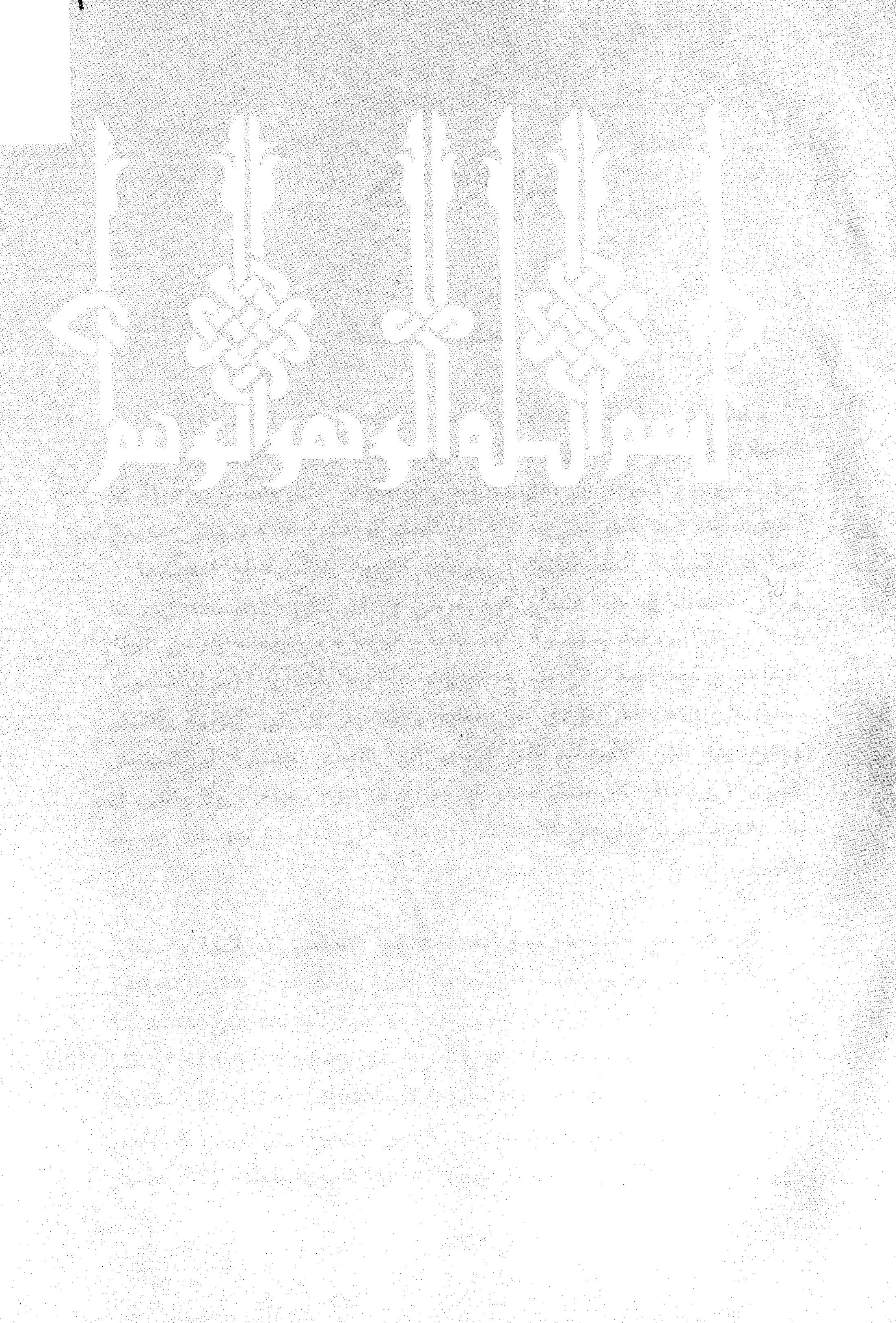
دار الكتاب المصري — القاهرة

دار الكتاب اللبناني — بيروت



دار الكتاب المصري
القاهرة ج.م.ع
٣٢ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦
ت ٧٤٢١٦٨/٧٥٤٣٠١ - برقيا (كتامصر)
TELEX: 21581
ATT:134 K.T.M CAIRO

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
تليفون ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠
TELEX: K.T.L 22865 LE
BEIRUT



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أصبحت دراسة العلاقات بمعناها الواسع ، سياسية كانت أم إقتصادية أم ثقافية ، بين دولة وأخرى ، لها أهمية كبرى فى معرفة قوة الشعوب والأمم ، وفى مدى الازدهار أو البوار الذى تتصف به دولة أو أخرى ، كما أنها دليل على صلاح أداة الحكم أو فسادها ، ومؤشر يضع يدنا على سلامة الخط السياسى ووحدة الجبهة الداخلية أو انقسامها . وعلى الباحث فى هذا الميدان أن يغوص فى أعماق المجتمعات وفيما يشكل حياتها من نظم سياسية واقتصادية وغيرها ، بل ربما يدرس البيئة الطبيعية والجغرافية ، كى يتعرف على طبيعة العلاقات بين الأمم والشعوب ويصل الى العلل التى تؤدى الى الغلبة والانتصار أو الى الهزيمة والدمار ويضع يده على الأسباب التى تؤدى الى انتصار حضارة أو انحسار أخرى ، ولماذا كان هناك سلم أو صراع فى فترة معينة ، ولا يكتفى فى ذلك كله بالسرد التاريخى للاحداث والوقائع ، والا ضاع جهده هباء منثورا .

ومن هنا تنبع أهمية دراسة العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية ، فهى تضع يدنا على مفاتيح القوة والضعف فى هاتين الدولتين وهى فى ذلك كالمرآة ، نرى فيها مجتمعات شبه الجزيرة على حقيقتها ومدى ما كان فيها من وحدة وتفرق ، وفضائل ونقائص ، وعدالة أو ظلم وغنى أو فقر ورقى الحياة أو انحطاطها ، لأن ذلك كله ينعكس على علاقات دول شبه الجزيرة الايبيرية مع بعضها البعض ، سواء فى الميدان السياسى أم فى ميدان الحضارة ، لاسيما وأن هذه العلاقات مرت بثلاثة عصور

مختلفة متمايزة : عصر الامارة الأموية ، وعصر الخلافة الأموية ، وعصر ممالك الطوائف . وكل عصر من هذه العصور ، له نظمه السياسية ومظاهره الحضارية التى تميزه عن غيره من العصور .

ودراستنا للعلاقة بين الممالك الاسلامية والنصرانية فى اسبانيا فى هذه العصور ، ما هى الا محـــاولة للوقوف على مظاهر الاحتكاك ونتائجـــه بين هذه الممالك ، سواء كان هذا الاحتكاك سياسيا أم عسكريا أم حضاريا. وتاريخ الاسلام ، فى هذه البلاد يظهره ذلك الاحتكاك الذى نشب بينه وبين النصرانية ، والذى نسميه عادة بالعلاقات ، منذ ظهرت دعوة الاسلام وحتى العصر الحـــديث . ومن هنا تبرز أهمية دراسة العلاقات بين الاســـلام والنصرانية على أرض شبه الجزيرة . اذ كانت تلك الارض ميدانا رحبا ، تصارعت فيه العقيدتان وجهـــا لوجه مدة أربعـــة قرون متصلة ، تبادلا فيهـــا النصر والهزيمة ، حتى كتب الفـــوز فى نهايتها للمسلمين بانتصارهم فى موقعـــة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م .

وليس معنى ذلك أن الصراع قد توقف وانما استمر عدة قرون اخرى كتب فى نهـــايتها النصر للنصرانية ، وتم اخراج المسلمـــين من الاندلس ، ولكننا نقصر حديثنـــا الآن على فترة الصراع الأولى التى استمرت حتى اقتربت نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، خاصة وانه لم يعن أحد حتى الآن بابراز العـــلاقات بين مسلمى الأندلس ونصارى الأسبان أو قام بدراستها فى تلك الفترة ، وذلك لغموض كثير من جوانبها السياسية ولصعوبة الخوض فى دراسة تأثيراتها الحضارية المتبادلة بين الجانبـــين ، اذ أن القوى السياسية وخاصة النصرانية ، لم تتشكل كلها فى وقت واحد ، ولم تأخذ شكلها النهائى الا بعد عصور عديدة ، وكانت دائمـــا فى تطور مستمر . ففى عصر الولاة ، كانت هناك دولة نصرانية واحـــدة فى الشمال الأسبانى هى دولة جليقية واشتريس ، وفى عصر الامارة الأمـــوية ، كانت هناك دولتان نصرانيتان ، همـــا دولة جليقيـــة السابقة ودولة نبرة (نافار) . وفى عصر الخـــلافة صـــارت ثلاثا ، هى جليقية التى تسمت باسم ليون ، ونبرة وقشـــتالة ، وفى عصر ممـــالك

الطوائف صارت أربعا ، هى الدول السابقة مضافا اليها دولة جديدة هى دولة أرغونة . هذا بخلاف امارة برشلونة التى كانت تتبع ملوك الفرنجة فى فرنسا .

وبالمثل ، كانت القوى السياسية فى الأندلس الاسلامية تتشكل وتتمايز من عصر لآخر ، فهى فى عصر الولاة ، غيرها فى عصر بنى أمية ، غيرها فى عصر ملوك الطوائف . فكل عصر له سماته الواضحة ، سواء فى أنظمة الحكم ، أو فى أسلوب الحياة كما أشرنا من قبل . ومع هذا فقد عكفنا على البحث والدراسة لابراز العلاقة السياسية بين مسلمى الأندلس ونصارى الأسبان ، منذ أن وطىء المسلمون أرض شبه الجزيرة وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، فأزلنا عنها غموضها ، وجمعنا شتاتها ، وحللنا دوافعها وعرفنا نتائجها ، بعد أن عرضنا لمظاهرها السياسية والعسكرية والحضارية .

وقد اعتنى بعض المؤرخين القدامى بالحديث عن الجانب السياسى والعسكرى من تلك العلاقات ، وغفل معظمهم عن أن الحياة هناك لم تكن كلها حربا متصلة ، ولم تكن الايام كلها معارك بين شعبين اختلطا أشد اختلاط ، ولم تكن العلاقات بينهما تقتصر على مجرد خروج الجيوش سواء من هذا الجانب أو ذاك ، للاغارة على الجانب الآخر ، بل كانت هناك مظاهر ودلائل لقيام علاقات سلمية بين الطرفين ، لكنها لم تبرز على السطح ولم تعط حقها من الاهمية والبحث ، بسبب تركيز المؤرخين القدامى على العلاقات الحربية ، وعدم التفاتهم الى غيرها من العلاقات السلمية أو الحضارية ، والتى تتمثل فى التأثيرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بين شعبين كانا فى الاصل شعبا واحدا ، وبين دولتين تسكنان على أرض واحدة هى أرض أسبانيا .

ذلك أن دوام التداخل بين شعوب شبه الجزيرة حقيقة لا يمكن انكارها ، فالأسبانى المسلم لم يكن شخصا أجنبيا أو مختلفا عن الأسبانى المسيحى ، فقد غدا له صهرا ونسيبا ، أو جارا تتصل حياته بحياته

ان سلما أو حربا . وكانت الامارات أو الممالك النصرانية فى الشمال ، تضم أعدادا من المسلمين منذ وقت مبكر ، وكانت الممالك الاسلامية فى الأندلس تضم أيضا بين رعاياها نسبة عالية جدا من المسيحيين . هـذا بالاضافة الى أن الحدود بين الممالك الاسلامية والممالك النصرانية فى شبه الجزيرة ، لم تكن حدودا ثابتة أو جامدة أو مقفلة ، لانها لم تكن حدودا طبيعية وقـد تبادل المسلمون والنصارى حكم كثير من المدن والاقاليم ، خاصة تلك التى تقع بين الطرفين والتى تسمى بالثغور ، وأدى ذلك الى احتكاك متصل ومستمر بين الاندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية .

هذا الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا سواء كان اثناء الحروب أم أثنـاء فترات السلم ، وما أكثرها وأطولهـا ، كان له تأثيره على الطرفين فى مجـال الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية . وكانت الأندلس أشد تأثيرا ، لانهـا كانت صاحبة الحضارة الاقوى ، ومن هنـا كان لهـا تأثيرها الشديد على الممالك النصرانية فى الشمال الاسبـانى . وعن هذا الطريق امتدت تلك الحضارة الى جنوب فرنسا والى كثير من أنحـاء أوروبا . ومن هنا كان لدراسة العلاقات بين الأندلس الاسـلامية وأسبانيا النصرانية أهمية كبرى من تلك الزاوية .

وتبدأ العلاقات السياسية والحضارية بين الدولتين بعد تمـام الفتح بفترة وجيزة ، ذلك أن المسلمين كانوا قد تركوا الركن الشمالى الغربى من شبه الجزيرة دون فتح ، استصغارا لشأنه ، ونظرا لبرودته الشديدة، ولطبيعته الصخرية القاحلة . وفى هذه المنطقة ظهر نبيل قبطى يدعى بلاى . استطاع هذا النبيل أن يستثير أهل اقليمه المسمى اشتريس Asturias الواقع شمالى جليقيـة ، ويقيم هناك أول مملكة نصرانيـة ، هى مملكة جليقية وأشتريس ، منذ بداية القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى .

ولم تعـد أسبانيا منذ ذلك التـاريخ قطرا اسـلاميا خالصـا ، وانقسمت الى دولة مسيحية فى أقصى الشمـال ، ودولة اسـلامية فى باقى شبه الجزيرة ، وسوف تسير كل منهما فى طريقها ، وسوف يستمر الصراع بينهمـا أثنـاء فترة الحكم الأموى ، وفى فترة حكم ملوك الطوائف . وكانت

الغلبة فى هذا الصراع للمسلمين أيام الأمويين ، ولنصارى الشمال أيام ملوك الطوائف ، ثم عادت الغلبة مرة ثانية للمسلمين فى نهاية عصر الطوائف على يد المرابطين ، عقب موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م

وقد قسمنا هذا البحث الى مقدمة تاريخية واربعة ابواب . تحدثنا فى المقدمة عن أحوال الاندلس الاسلامية فى عصر الولاة (٩٥ — ١٣٨ هـ) وعن العوامل التى أدت الى قيام المقاومة النصرانية ، ممثلة فى مملكة جليقية واشتريس ، والى انتهازها فرصة الصراع القبلى فى الأندلس الاسلامية ، فقامت بالتوسع جنوبا وطردت المسلمين الموجودين فى أطراف جليقية ، وحازت ما يقرب من ربع شبه الجزيرة ، وأصبحت حجر الزاوية للمقاومة النصرانية التى نمت وازدادت فيما يلى ذلك من عصور .

وتحدثنا فى الباب الاول ، عن العلاقات السياسية بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية فى عصر أمراء بنى أمية (١٣٨ — ٣١٦ هـ) ووضحنا سمات هذا العصر ، وبينا عوامل القوة والضعف التى شكلت العلاقات بين الدولتين فى تلك الفترة ، سواء كانت تلك العوامل تتعلق بنظم الحكم أم بظروف طبيعية وجغرافية وبشرية ، أم بأسباب دينية أو اجتماعية أو اقتصادية . ثم تناولنا تلك العلاقات ، ووضحنا طبيعتها وأهدافها ، وما ثار من معارك وصراع ، وما كان من سلام ومصالحة بين هذين الشعبين اللذين يعيشان على أرض واحدة .

وكانت النتيجة أن أمراء بنى أمية أستطاعوا أن يصدوا هجوم نصارى الأسبان ، وأن يوقفوا توسعهم ، وأن يردوهم على اعقابهم كلما حاولوا العدوان ، واستمرت الحدود ثابتة بينهما ، ولم يخسر مسلمو الأندلس شيئا ذا بال الا فى أواخر عصر الامارة ، حيث ضعفت تلك البلاد ، لما أصابها من تشتت وتمزق وحروب اهلية .

وفعلنا نفس الشىء فى « الباب الثانى » وتحدثنا فيه عن العلاقات السياسية بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية فى عصر الخلافة ، وكانت القوى السياسية قد أخذت شكلها النهائى فى ذلك العصر ، وأصبح

الشمال النصرانى يضم الاقسام السياسية التى عاشت بعد ذلك واستمرت حتى نهـــاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . كمـــا ظهرت الخلافة الأموية فى الأندلس الاسلامية منذ عام ٣١٦ هـ ، واستمرت اكثر من قرن ، ونقلت تلك البلاد الى عصر جديد تسوده الوحدة والقوه طوال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ولذلك سادت وانتصرت على ممالك اسبانيا النصرانية المشتتة المتناحرة ، ثم هوت الخـــلافة الأموية بدءا من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وانقلب ميزان القوة لصالح نصارى الشمال .

ومع ذلك فان عصر الخلافة يختلف تماما عما سبقه من عصور فى شكله السياسى وفى مظاهره الحضارية ، وفى علاقاته السياسية والعسكرية وكانت الغلبة فى معظمه للخلافة الأموية سواء فى الميدان الســـياسى أو العسكرى أم فى الميدان الحضارى ، وأصبح عبد الرحمن الناصر ســـيدا لشبه الجزيرة كلها ، مسلميها ونصاراها ، شمالها وجنوبها وأتته وفـــود ممالك اسبانيا النصرانية خاضعة راكعة ، تطلب السلام وتمد يدها بالجزية وتبايع على الطاعة والاذعان .

وفى البـــاب الثالث ، تحـــدثنا عن العلاقات السياسية بين ممالك الطوائف وبين ممالك اسبانيا النصرانية ، ووضحنا سمات ذلك العصر ، وألقينـــا نظرة عامة على أحوال ممالك الطوائف ، وبينـــا ما انتابها من ضعف سياسى واقتصادى ، وتناحر عسكرى وفساد اجتماعى ، وما كان لذلك من اثر على علاقاتها مع أسبانيا النصرانية . كما القينا نظرة عامة على احوال نصارى الشمال الاسبانى ، وبينا ما سادهم من وحـــدة داخلية تحت حكم أسرة آل شانجه الكبير ، وما نتج عن ذلك من ازدياد قوتهم وتفوقهم .

وقد بينـــا عوامل تلك القوة وذلك التفوق ، وختمنـــا بالحـــديث عن العـــلاقات السياسية بين الدولتين فى تلك الفـــترة ، ووضحنـــا ما اصطبغت به تلك العلاقـــات من صبغة صليبية ميزت هذا العصر عن غيره

من العصور السالفة ، وادت الى انقلاب ميزان القوة السياسية والعسكرية لصالح اسبانيا النصرانية ، حتى أنها اصبحت تتحكم فى مصير شبه الجزيرة ، وأصبح ملوك الطوائف مجرد ولاة يجبون لهم الضرائب ويدينون لهم بالطاعة .

وقد انحسر هذا المد الصليبى عقب فوز المسلمين على نصارى الأسبان فى موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ / ١٠٨٦ م بفضل جهود المرابطين . لكننا لم نجعل موقعة الزلاقة ختاما للحديث عن العلاقات بين اسبانيا النصرانية وممالك الطوائف ، لأن تلك الممالك لم تسقط كلها فى يد المرابطين دفعة واحدة ، أو فى وقت واحد ، اذ احتفظ بعضها باستقلالها ، وكانت لها علاقاتها مع اسبانيا النصرانية حتى نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، مما اقتضى منا مواصلة الحديث عن تلك العلاقات واستيفائها حتى سقوط تلك الممالك اما فى يد اسبانيا النصرانية أو فى يد المرابطين .

وفى الباب الرابع والأخير ، تحدثنا عن أهم التأثيرات الحضارية بين الممالك الاسلامية والنصرانية فى الاندلس ، فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف . وفى هذا الحديث تقصينا العوامل التى جعلت هذه التأثيرات بين هذين الشعبين المتلاصقين ممكنة ، وأبرزنا الدوافع والأسباب التى هيأت الفرصة لحدوثها وتفاعلها . ولابد لهذه التأثيرات سواء كانت متبادلة أم من جانب واحد ، من قنوات تسلكها لكى تصل الى الطرف الآخر فعكفنا على البحث ، وأبرزنا تلك القنوات أو السبل التى سلكتها التيارات الحضارية بين الجانبين ، وتحدثنا عن مظاهرها سواء فى ميدان الحياة الاجتماعية أم الثقافية أم الاقتصادية .

ورأينا أن الحضارة الاسلامية فى الأندلس ، كان لها السبق والتفوق بحكم أنها حضارة الدولة الغالبة ، والغالب يتبعه المغلوب بحكم العادة ، كما أنها كانت حضارة متفوقة راقية ، صقلها الاسلام ، وهذبها المسلمون ، ونثروا عليها من زهور علومهم ، وأطايب فنهم ، وفاكهة

ادبهم ، حتى صارت تلك الحضارة هى النبراس الذى أضاء ظلمات اسبانيا النصرانية وغرب أوربا فى تلك الفترة ، وهى النهر المتدفق الذى نهلت منه أوربا فى بناء نهضتها الحديثة .

وبعد ، أرجو أن أكون قد وفقنى الله فيما ذهبت اليه فى هذا البحث ، ولا أدعى الكمال فالكمال لله وحده ، وما أكون قد أصبته من توفيق فبفضل الله وبتوجيه أستاذى الجليل الدكتور أحمد السيد دراج ، أستاذ التاريخ الاسلامى بجامعة القاهرة ، فله منى ولمن قدموا لى يد المساعدة كل شكر وتقدير والله الموفق وهو المستعان .

رجب محمد عبد الحليم

بحث فى أهم المصادر والمراجع

قبل أن نسترسل فى الحديث عن العلاقات بين الممالك الاسلامية والممالك النصرانية فى أسبانيا فى عصرى بنى أمية وملوك الطوائف ، لابد أن نقول كلمة عن المصادر والمراجع التى أفادتنا فى هذه الدراسة ، لأنها تبين مدى الجهد الذى بذلناه فى جمع شتات هذا الموضوع الذى تتكرر أحداثه الآن بصورة أو بأخرى بين الاسلام والنصرانية أو بين الاسلام والشيوعية فى بقاع كثيرة من عالم اليوم .

وفى هذه الدراسة كان اعتمادنا على عدد كبير من المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة . وتتنوع هذه المصادر بحيث تشمل كتب التاريخ والأدب والجغرافيا والطبقات والحسبة ، وكتبا تقصر الحديث على دولة معينة أو فترة زمنية محددة ، أو على فن من الفنون أو مهنة من المهن .

أما كتب التاريخ فعديدة . وكان اعتمادنا على ما كان منها معاصرا للاحداث أو قريبا منها ، مثال ذلك نص عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م) ، الذى نشره الدكتور محمود على مكى بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، وهو من أقدم ما ألفه العرب فى تاريخ الأندلس . وكان اعتمادنا عليه وعلى كتاب الامامة والسياسة ، المنسوب لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) فى الحديث عن عصر الولاة الذى تضمنته المقدمة التاريخية للبحث .

ومن أشهر المؤرخين الذين عاشوا فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، اثنان ، هما الرازى (ت ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م) ، وابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) . أما الرازى ، فكان له كتاب فى أخبار ملوك الأندلس وغزواتهم ، وكتاب فى أخبار عمر بن حفصون وابن مروان الجليقى وبنى قسى والتجيبيين وبنى الطويل . وقد ضاعت هذه الكتب كلها ، ولم يبق منها الا ما اقتبسه من اتى بعده من المؤرخين والكتاب،

امثال ابن حيـــان والعذرى وابن الكردبوس وابن عـــذارى وابن الأبار وغيرهم . وتعـــد كتاباته من أدق الكتابات عن أمراء بنى أمية وخلفائهم .

أما ابن القوطية ، فله كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) وهـــو يسرد اخبـــار الأندلس منذ الفتح حتى بداية القرن الرابع الهجرى . ويمتـــاز هـــذا الكتاب بمعلوماته القيمة عن العلاقات بين العرب وبين اهل البلاد وعن أوضاعهم الاقتصادية ، وعن علاقة بنى أمية بأمراء الثغور ونصارى الشمال .

ومن اشهر المؤرخـــين الذين عاشوا فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ابن حيان ، والعذرى وابن بلقين . ويعتبر ابن حيان (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٩ م) شيخ المؤرخين الأندلسيين وعمدتهم ، نظراً لدقة كتاباته وموضوعيته الشديدة . وقـــد ضاع تاريخه المسمى المقتبس فى اخبـــار الأندلس فى الفترة الاخيرة من عصر امارة . ولحسن الحظ فقـــد نقل عنه بعض المؤرخين وحفظوا لنا بعضا من هـــذه الثروة التاريخية النادرة ، مثل ابن بسام وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون والمقرى وغيرهم .

ويعتبر كتـــاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لأحمد بن عمر العذرى (ت ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) الذى حققه الدكتور عبد العزيز الأهـــوانى ونشره فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، من أجود الكتب وأحسنها فى الحـــديث عن الثغور الاسلامية ، وعن الاسرات التى استقلت بهـــا وعلاقتها بقرطبة وبنصارى الشمال الأسبانى ، لاسيما وأنه اعتمد فى ذلك على أحمد بن موسى الرازى (ت ٣٤٤ هـ / ٩٥٥م) وعلى ابنـــه عيسى (ت ٣٧٩هـ / ٩٨٩ م) ، وأورد لنـــا عددا كبيرا من غزوات المنصور ابن أبى عامر ، وساعدنا بذلك فى القضاء على الشك الذى ساور البعض فى حقيقـــة وعدد هـــذه الغزوات التى زادت عن الخمسين .

اما مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بنى زيرى أصـــحاب غرناطة ، والتى تعرف باسم « كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بغرناطة » ، فهو وثيقـــة نادرة من أحـــد ملوك عصر الطوائف ، ومن شاهد عيـــان

على احداث عصره ، لاسيما وانه شارك فى هذه الأحداث وكان أحد اطرافها . فحكى لنا قصة مملكة غرناطة ، وعلاقاتها مع نصارى الشمال الأسبانى ، وذلك فى مجال الدفاع عن نفسه وعن علاقاته مع هؤلاء النصارى . ويلاحظ القارىء حيرته الشديدة بين الفونسو السادس ملك قشتالة وليون وبين يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وامير المسلمين، وتردده فى الولاء لهذا أو ذاك . ثم يقرر أخيرا التعاون مع الفونسو ، ويتصل به ويدفع له الجزية . وقد أفدنا منه كثيراً فى هذه المجالات .

ويأتى بعد هؤلاء ، مؤرخون لايقلون اهمية او قدرا ، وان كانوا متأخرين عمن سبقهم ، مثل ابن الكرديوس ، وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون . وابن الكردبوس عاش فى نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجريين ، فلم يبعد كثيرا عن أحداث عصر ملوك الطوائف ، وله كتاب هام يسمى الاكتفاء فى اخبار الخلفاء ، نشره الدكتور احمد مختار العبادى بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد . وهو من الكتب النادرة التى لا يستغنى عنها من يكتب فى تاريخ خلفاء بنى أمية وملوك الطوائف ، رغم احتوائه على بعض الأخطاء التاريخية واللغوية . وقد صحح لنا هذا الكتاب معلوماتنا عن عصر المنصور بن أبى عامر فيما يتعلق بعلاقاته بأسبانيا النصرانية وعرفنا لأول مرة أنه لم يكن انسانا مدمرا مخربا فى حروبه كما كان معروفا عنه من قبل .

ويعد كتاب ابن عذارى المراكشى الذى عاش فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، المسمى « البيان المغرب فى اخبار الأندلس والمغرب » الأساس الذى بنى عليه من أتى بعده من المؤرخين ، ونقلوا عنه نقلا حرفيا دون أن يكلفوا أنفسهم مجرد الاشارة اليه . وهو أهم ما لدينا من المصادر عن تاريخ المسلمين بالأندلس منذ الفتح الاسلامى حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، ويعد اشمل تاريخ لحوادث الأندلس السياسية والاجتماعية والحروب التى دارت بين العرب والفرنج ونصارى الأسبان ، وبين العرب بعضهم وبعض ، ولذلك كان اعتمادى عليه كبيرا فى جميع أبواب البحث ، وبصفة خاصة على جزئه الثانى والثالث والرابع ، لاسيما وأنه يضم مجموعة قيمة من النصوص التى لاتقدر قيمتها

أوردها ابن عذارى منسوبة الى أصحابها فى الغـــالب ، ويبدو انه فى أثناء نقله عنهم ، وقع فى بعض الأخطـــاء التاريخية أشرنا اليها فى ثنايا البحث. لكن ذلك لا يقلل من قيمة هـــذا السفر الذى لابد أن يعتمد عليه اى باحث فى تاريخ الأندلس والمغرب .

أما لســـان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) ، فله كتب عديدة ذكرتها فى قائمة المصادر ، أهمها الجزء الثانى من كتـــابه المسمى « أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » ، و « الاحاطة فى أخبار غرناطة » ، و « الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية » . أما كتاب أعمال الأعلام (الجزء الثانى) ، فهو مفيد جدا فى تاريخ الأندلس وعلاقاته بنصارى الشمال الأسبانى ، وهو ينقل عن ابن عذارى ، لكنه يخصص جزءا لأخبار ملوك قشتالة ، نقله عن أحد علمائها الذى كان سفيرا لملك قشتالة الى السلطان المرينى أبى فارس بن عبد العزيز ، لكنه يحوى كثيرا من الأخطاء عند ذكره لتواريخ تولية ملوك أسبانيا النصرانية أو وفاتهم . وكتابه الثانى « الاحاطة فى أخبار غرناطة » مفيد فى الحديث عن هذه المملكة وعن علاقاتها بغيرها من دول شبه الجزيرة ، أما كتابـــه المسمى « الحلل الموشية » ، فهو عظيم الفـــائدة ، لأنه احتوى على عدد كبير من الرسائل المتبادلة بين ملوك الطوائف ، خاصة المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، وبين الفنش (الفونسو) السادس ملك قشتالة وليون ، وأيضا بينه وبين يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين . ولذلك كان اعتمادنا عليه كبيرا فى توضيح العلاقة بين ملوك الطوائف فى أخريات أيامهم وبين ملوك أسبانيا النصرانية .

وقد اعتمدنا على ما كتبه ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) فى الجزء الرابع والسادس من كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » فى الحديث عن علاقة خلفـــاء بنى أميـــة بملوك أسبانيا النصرانية ، وان كنت قـــد لاحظت كثيرا من الاخطاء فى ذكر التواريخ والاسماء . وقـــد اعتمـــد ابن خلدون فى كثير من الاحيـــان على الرازى وابن حيان ، مما يزيد من أهمية كتابتـــه . واعتمدت أيضـــا على مقدمته ، وخاصـــة فى الحـــديث عن التاثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية .

وهنـــاك مخطوطات اعتمدنا عليها فى بعض نواحى البحث ، وهى مصادر متأخرة تاريخيا . لكن بعضها افادنا واعطانا أفكـــارا جديدة بالنسبة لبعض أمراء بنى أمية . وهى بوجه عام قليلة الأهمية بالنسبة للمصادر المطبوعة التى أشرنا اليها حتى الآن ، وهى تستقى مادتها من هذه المصادر فى الفـــالب . ومن اهم هذه المخطوطات ، مسالك الأبصار فى ممـــالك الأمصار ، لابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٣٦ م) ، ونهـــاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢٩ م) ، وعقـــد الجمان فى تاريخ اهل الزمان ، للعينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥٠ م) ، ومرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، لابن الجوزى ، (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) ، والجمان فى اخبـــار الزمان ، لمحمد الشطيبى المغربى ، وناصر الدين على القوم الكـــافرين للحجرى الذى عاش فى القرن الحادى عشر الهجرى .

كمـــا اعتمـــدنا أيضا على بعض كتب المشارقة من المؤرخين مثل ابن الأثير وابو الفـــداء وكتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) ، يعد أحسن مؤلف ظهر فى المشرق عن الأندلس ، وهو ينثر تاريخها فى دقـــة اثنـــاء حديثه عن تاريخ الدولة الاسلامية ، باعتبار ان الأندلس جزء من هذه الدولة . وقد اتبع ابن الاثير نظـــام الحوليات اى سرد الأحداث حسب السنين وكذلك فعل ابو الفدا (ت ٧٣٢هـ / ١٣٢٩ م) ١٣٢٩ م) فى تاريخه .

وهناك كتب تاريخية هامة مجهولة المؤلف ، من اهمها كتاب اخبار مجموعة فى فتح الاندلس . ويبدو انه كتب فى عهد حكم المستنصر بن الخليفة عبد الرحمن الناصر (ت ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م) . وقـــد ابدى هذا الكتـــاب اهمية خاصة لحركة المقاومة النصرانية ، وللحركات المناهضة لحركة المقاومة النصرانية ، وللحركات المناهضة لحكـــام قرطبة ، مما أفادنا كثيرا فى الحديث عن هذه النواحى . وهناك كتاب مفاخر البربر الذى نشره ليفى بروفنسال ، وكتاب شرح حال الكنيسة ، وكتاب الطبيخ فى المغرب والأندلس وهى كتب أفادتنا فى الحـــديث عن القوى الداخلية ، وفى موقف الكنيسة المسيحية من الحكم الاسلامى ، وفى التأثيرات الحضارية فى ميدان الحياة الاجتماعية .

أما الكتب الأدبية التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث فهى كثيرة أيضا ومن أشهرها حسب ترتيبها الزمنى ، كتب ابن عبد ربه وابن حزم وابن شهيد وابن بسام والمقرى . وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه (ت ٣٣٦هـ / ٩٤٨ م) مشهور ذائع الصيت ، وقد أورد المؤلف صفحات قليلة عن تاريخ أمراء بنى أمية وخلفائهم ، وقد استفدت منه فى معرفة أسماء غزوات عبد الرحمن الناصر ضد أسبانيا النصرانية ، وتواريخها ونتائجها أوردها خلال أرجوزات شعرية ، لا تفى بالغرض فى المجال التاريخى .

أما كتب ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٦ م) ، فهى كثيرة ومتنوعة وهامة جدا ، لأنه عاصر فترة الخلافة الأموية الأخيرة ، وعاصر عصر ممالك الطوائف ، فهو شاهد عيان على أحداث عصره ، كما أنه يمتاز بأنه من أشهر كتاب الأندلس وأغزرهم علما وأبعدهم صيتا ، وذلك بسبب المناظرات والمساجلات العلمية التى دارت بينه وبين علماء وفقهاء عصره ومن أهم كتبه التى اعتمدنا عليها ، كتاب « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » و « رسائل ابن حزم » و « نقط العروس فى تواريخ الخلفاء » « والفصل فى الملل والأهواء والنحل » ، « والرد على ابن النغريلة اليهودى » و « جمهرة أنساب العرب » وقد استفدنا منها كثيرا فى التعرف على أحوال البلاد فى الفترة التى عاشها ، وخاصة أحداث الفتنة البربرية ، وفى علاقة البلاد بممالك أسبانيا النصرانية فى عصر ملوك الطوائف ، وتشوب كتابته رنة حزن شديد على ما أصاب بلاده من دمار ، وما لحق بها من مهانة قومية بسبب الاستعانة بملوك الأسبان فى الصراعات الداخلية فى الأندلس.

ولجأ زميله ابن شهيد (٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م) الى أسلوب الرمز فى كتابه « رسالة التوابع والزوابع » ، وجعلها على لسان الجن ، وتعرض فيها لأحداث الأندلس ، وما الم بها من محن . وقد استفدنا منها كثيرا فى تفسير الأحداث التى أدت الى انهيار بنى أمية ، والى السيطرة النصرانية على البلاد . وكتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، لابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٦ م) من أهم الكتب الأدبية التى وردت فيها صفحات عديدة عن أحداث الأندلس بأسلوب أدبى ، قلل من قيمتها

التاريخية ، لكنه اعتمد فيها على شيخ المؤرخين الأندلسيين وهو ابن حيان، فأخذ من كتابه بالنص أو بالتلخيص ، وانبأنا بذلك فى تواضع وصراحة خليقين بالاعجاب . ولذلك استفدنا كثيرا من كتابه هذا واستقينا منه معلومات غاية فى الأهمية خاصة بعصر الخلافة وملوك الطوائف والعلاقة مع نصارى الشمال والدعوة الى الوحدة وترك الاستعانة بهؤلاء النصارى لم نجدها فى مصدر آخر .

اما كتاب المقرى (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) المسمى « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، فرغم أنه مصدر متأخر تاريخيا ، الفه صاحبه وهو بعيد عن وطنه ، الا أنه موسوعة ادبية تاريخية كبرى ، جمع كثيرا ونقل كثيرا عن كتب ضاعت أصولها مثل كتاب الرازى وابن حيان وغيرهم . ولذلك فهو كتاب جليل الفائدة لكل من يعنى بتاريخ الأندلس . وكان اعتمادنا عليه كثيرا فى أبواب الكتاب المختلفة ، وخاصة بالنسبة لما نقله عن الرازى وابن حيان .

ومن اشهر كتب الطبقات والتراجم التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث ، كتاب الخشنى وابن الفرضى وصاعد الطليطلى والحميرى وابن بشكوال وابن الأبار وابن سعيد وابن شاكر الكتبى وابن خلكان . وكتب الطبقات لها اهمية كبرى فى الحديث عن الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وربما وجدنا فيها اشارات تاريخية لانعثر عليها فى أهم الكتب التاريخية . لذلك فهى مصدر لاغنى عنه للباحث فى تاريخ الأندلس خاصة وانها تعطى تراجم لرجال السياسة بجانب رجال الأدب والفقه والعلم وغيرهم ، مما يجعلها عظيمة الفائدة .

والأربع الأول من مؤلفى كتب الطبقات الذين اشرنا اليهم معاصرون للأحداث فى عصر خلفاء بنى امية وعصر ملوك الطوائف ، لذلك فان كتابتهم هامة جدا لهذا السبب . الف أولهم وهو الخشنى (ت ٣٦١ هـ / ٩٧١ م) ، كتابا هاما فى تاريخ قضاة قرطبة ، أورد فيه اخبارا طيبة افادتنا كثيرا فى التعرف على التيارات والتأثيرات الحضارية فى مجال

الأدب والحياة الاجتماعية ، يليه ابن الفرضى (ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م) الذى الف كتابا فى تاريخ العلمـــاء والرواة للعلم بالأندلس ، أورد فيـــه أخبـــارا هامة عن الفتنــــة البربرية وسقوط دولة بنى عامر .

أما صاعد الطليطلى (ت ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م) ، فقـــد ألف كتـــابا عن طبقـــات الأمم ، أفادنا فى الحديث عن الأجناس والعنـــاصر التى تسكن شبه الجزيرة ، وألف الحميرى (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) الذى كان معـــاصرا أيضا لملوك الطوائف كتابا يسمى « جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس » حكى فى أوله تاريخ أمراء وخلفـــاء بنى أميـــة نقـــلا عن أستاذه ابن حزم . ثم نقل عنه فيما بعـــد الضبى (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م) فى كتابه « بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس » ، كمـــا نقل عنه أيضا عبد الواحد المراكشى (ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م) فى كتابه « المعجب فى تلخيص أخبـــار المغرب » ، فيما حكاه كل منهما عن تاريخ بنى أمية فى الأندلس .

ورغم أن ابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) وابن الأبار (ت ٦٥٨ / ١٢٦١ م) ، وابن سعيد (ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ ، متأخرون زمنيا عن مؤلفى كتب الطبقات السابقين ، الا انهم أغزر مادة وأكثر فائدة ، فابن الأبار مثلا ، لم ينهج فى كتابه « الحلة السيراء » ، على طريقـــة الآخرين فى ذكر التراجم حسب الحروف الأبجـــدية ، ولكنه جعلها حسب القرون، مبتدءا بالقرن الأول الهجرى ومنتيهيا بالقرن السابع الهجرى ، مما يسهل مهمة الباحث ، كمـــا أنه ينقل فيما رواه من أخبار تاريخية عن ابن حيان الذى أشرنا الى قيمته التاريخية ، وأورد ابن سعيد فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » معلومات جغرافية واقتصادية هامة افادتنا كثيرا فى الحديث، عن التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية .

ومن كتب الطبقات المشرقية كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكـــان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٤ م) وكتاب « فوات الوفيـــات » لابن شـــاكر الكتبى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٠ م) وهو ذيل على كتاب ابن خلكان ، وقـــد وردت

فيها تراجم لمشاهير الأدباء والفقهاء والسياسيين الأندلسيين ، منها ما ذكره ابن خلكان عن معركة الزلاقة بتفصيل لا نجده عند غيره من المؤرخين .

وكانت كتب الجغرافيا والرحلات ذات فائدة كبرى فى التعرف على الحياة الطبيعية والبيئة الجغرافية ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدول شبه الجزيرة ، مما ساعدنا على التعرف على التأثيرات الحضارية المتبادلة بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية خاصة وأن معظم مؤلفى الجغرافيا والرحلات الذين اعتمدنا عليهم اما أندلسيون أو زاروا الأندلس ، ورصدوا فى كتبهم ما رأوه بأنفسهم رأى العين ، أو نقلوا عمن رأى وعاصر الأحداث .

ومن أشهر هذه الكتب حسب ترتيبها الزمنى ، « كتاب المسالك والممالك » لابن حوقل الذى زار الأندلس فى عصر عبد الرحمن الناصر ، وأورد لنا أخبارا فى غاية الأهمية عن قوة الدولة الاقتصادية والسياسية . وكذلك هناك كتاب نصوص عن الأندلس ، للعذرى (ت ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) وهو كتاب تاريخى جغرافى سبقت الاشارة اليه ، وكتاب « تعليق منتقى من فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس لابن غالب الذى عاش فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى وهو من نفس طراز كتاب العذرى ، وكتاب « معجم البلدان » لياقوت (ت ٦٢ هـ / ١٢/٣٠ م) ، وكتاب « صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس » ، وهو مأخوذ عن كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للشريف الادريسى (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥٣ م) .

وهناك كتاب « بسط الأرض فى الطول والعرض » لابن سعيد المغربى (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٧٥ م) ، وكتاب « تقويم البلدان » لأبى الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢٩ م) ، وكتاب « وصف أفريقية والمغرب والأندلس » ، وهو مأخوذ من كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٣٦ م) ، وكتاب « صفة جزيرة الأندلس »

المأخوذ من كتاب « الروض المعطار فى خبر الأقطار » لمحمد بن عبد الله الحميرى المتوفى فى أواخر القرن التاسع الهجرى .

وهناك أيضا كتب الحسبة ، ومن أشهرها كتاب « ثلاث رسائل أندلسية فى الحسبة والمحتسب » ، لابن عبدون الذى عاش فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، مما يجعل لكتابته أهمية كبرى . وقد استفدنا منه كثيرا فى التعرف على الحياة الاجتماعية وما شابها من تأثيرات نصرانية ، وفيه اشارات عديدة تدل على مظاهر الضعف التى كانت تنتاب البلاد فى عصره . وهناك كتاب آخر فى الحسبة للسقطى ، نشره ليفى بروفنسال . لكنه لا يصل الى أهمية كتاب ابن عبدون لأنه يقصر الحديث على المهن وقوانينها ، ولا يتمتع صاحبه بملكة النقد والتعليق على أحداث الحياة كما فعل ابن عبدون .

أما المراجع العربية الحديثة التى استفدنا منها فكثيرة . من اهمها كتب الدكتور حسين مؤنس ، وخاصة كتابه « فجر الأندلس » و « بلاى وميلاد أشتريس » . وقد أفادا كثيرا فى مقدمة البحث . وكذلك كانت الاستفادة عظيمة مما كتبه الأستاذ / محمد عبد الله عنان عن الأندلس فى كتبه العديدة الجليلة القدر العظيمة النفع ، والتى ضمنها تاريخا لممالك أسبانيا النصرانية اعتمد فيه على كتب أسبانية وانجليزية وألمانية ، وان كانت هناك بعض الأخطار التاريخية التى أشرنا اليها فى ثنايا البحث ، وكذلك استفدنا كثيرا مما كتبه شكيب أرسلان فى كتابه « الحلل السندسية » ، عن جغرافية الأندلس وتاريخها ، خاصة وأنه ترجم كثيرا عن المستشرقين وزار الأندلس بنفسه ، ووصف ما شاهد ، فكانت كتابته دقيقة عظيمة الفائدة .

وهناك مراجع عربية حديثة مترجمة عن بعض المستشرقين الذين وقفوا حياتهم على دراسة تاريخ الأندلس ، مثل دوزى المستشرق الهولندى ، وليفى بروفنسال المستشرق الفرنسى ، ويوسف أشباخ المستشرق الألمانى . وقد ترجم كامل كيلانى كتاب دوزى عن ملوك الطوائف ، وترجم الدكتور

حسن حبشى الجزء الأول من كتاب عن تاريخ مسلمى اسبانيا . كما ترجم الدكتور السيد عبد العـزيز سالم كتاب ليفى بروفنسال عن الاسلام فى المغرب والأندلس ، وترجم الدكتور محمد عبد الهـادى شعيرة كتابه عن أدب الأندلس وتاريخهـا ، وترجم الأستاذ / محمد عبد الله عنان كتاب اشباخ عن تاريخ الأندلس فى عهـد المرابطين والموحـدين . وقد أفدت من هذه الكتب فى الحـديث عن ممالك أسبانيا النصرانية رغم ما شابها أحيانا من نظـرة تعصبية لنصارى الشـمال .

وهناك كتابان عظيما الفائدة جليـلا القدر ، كما كتاب الفن الاسلامى فى أسبانيا والبرتغال للأستاذ مانويل جوميث مورينو ، ترجمـة الدكتور لطفى عبد البديع عن الأسبانية ، وقد أفادنا كثيرا فى الحـديث عن التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية فى مجـال الصناعات والفنون والعمـارة . أما الكتاب الثانى فهو كتاب تاريخ الفكـر الأندلسى لمؤلفه آنخل جونثالث بالنثيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس عن الأسبانية ، وهو موسوعة ضخمة فى تاريخ الآداب والعلوم والفنـون الأندلسـية ، أفادنا كثيرا فى معـرفة التأثيرات الحضـارية المتبـادلة بين الأسـبان ومسلمى الأندلس .

أما المراجع الأجنبية التى قرأناها فى لغتها الأصلية ، فهى كثيرة وعديدة سواء بالانجليزية أم بالفرنسية أم بالأسبانية . وكان اعتمادنا عليها كبيرا فى الحديث عن أحوال ممالك أسبانيا النصرانية ، وعن علاقاتها بممالك الأندلس الاسلامية ، رغم ما يشوب بعضهـا من نظرة غير موضوعية فى تناول الأحداث ، ومن العطف الشديد على نصارى الأندلس أثناء الحديث عن مقاومتهم لحـكم المسلمين ، وفى اعطاء كثير من التفاصيل عن تلك المقاومة ، والتركيز على الخلافات والصراعات التى نشبت بين القـوى السياسية التى كانت تتصارع على أرض الأندلس منذ بداية الفتح وحتى نهـاية القـرن الخامس الهجـرى .

ومن الغريب أن بعض هؤلاء الكتاب مثل دوزى يمشى وراء هـــذه الخلافات حتى يصل بها الى ارض شبه الجزيرة العربية وسوريا والعراق ، ويتتبع تفاصيلها هناك ثم يعود معهـــا الى الأندلس ، ويذكر الصراعات القبلية بين مضر ويمن ، وبين العـــرب والبربر ، وبين البربر البتر والبرانس ، وخصص لذلك الجـــزء الأول من كتابه المسمى
Histoire des Musulmans d'Espagne

والذى ترجم الى الانجليزية تحت عنـــوان :
A history of the moslems in Spain.

وكان دوزى يريد أن يفسر تاريخ الاســـلام على اساس هذه الصراعات القبلية ، وربمــــا أراد أن يوحى للقارىء بأن تاريخ الاسلام ، ما هو الا تاريخ للصراع القبلى بين العناصر والقبـــائل المختلفة . ورغم ذلك فان كتـــاب دوزى هذا يعتبر مرجعا هاما بل المـــرجع الأول لدارسى تلك الفتـــرة من تاريخ الأندلس بشقيها السياسى والحضارى .

أما كتاب النقوش العربية فى أسبانيا المسمى Insclipcions Arabes D'Espagne لمؤلفه الأستاذ ليفى بروفنسال ، وكذلك كتاب النميـــات أو النقود المسمى Numismatica للمؤلف الأسبانى Codera ، وكتـــاب ملوك الطوائف ، المبنى على ذكر النقود والمسمى Los Reyes de Taifas لمؤلفه الأسبانى Prieto y Vives ، كانت افادتنا منها كبيرة فى تصحيح الأسماء والتواريخ التى وردت فى بعض كتب التاريخ .

وهناك بعض المؤلفات التاريخية الأخرى التى لا تقل أهمية ، وخاصة فى اعطائنا الرواية النصرانية للعلاقات والأحـــداث التى وقعت بين الأندلس الاســـلامية واســـبانيا النصرانية . مثال ذلك كتاب Hole المســـمى Spain : under the Moslims ويورد هـــذا المؤلف الانجليزى فى مقـــدمة كتابه ما يفيد بأنه اعتمـــد على ما كتبه الأوربيون فى فرنسا وهولندا واسبانيا فى تأليف كتابه . وعلى ذلك فهو كتاب مفيد جـــدا لا سيما وأنه يتناول التاريخ والحضارة فى دقة واختصار غير مخل .

أما كتاب Spain : the root and the flower لمؤلفه الانجليزى
المسمى فهو كتاب فى غاية الأهمية ، اذ أنه ليس سردا تاريخيا
للأحداث السياسية والحربية ، ولكنه تاريخ لحضارة أسبانيا وشعبها
منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث ، كما هو واضح من عنوان الكتاب .
ويقول المؤلف أنه لم يهتم بالتاريخ السياسى قدر اهتمامه بالغوص وراء
الأحاسيس والعوامل المحركة للأحداث . وقد زار أسبانيا عام ١٩٢٨ م ،
ثم تردد عليها عدة مرات ، وحصل منها على درجة الدكتوراه فى الفلسفة
والآداب من جامعة مدريد . وهناك تعرف شخصيا على زعماء الفكر
الأسبانى ، مما يعطى لكتابته عن الحضارة الأسبانية أهمية كبرى .

ومن المهم أن نعرف أنه تحدث فى كتابه هذا عن طبيعة الأرض
وأثرها على الشعب ، وعلى مجرى الأحداث التاريخية ، وعن الممالك
المسيحية وصراعها مع العرب ، وطبيعة هذا الصراع ونتائجه الحضارية ،
وأفرد لذلك فصلا خاصا ، أفادنا كثيرا فى نواحى البحث المختلفة . وقد
استقى المؤلف مادة كتابه من أربعة وستين مصدرا من أمهات الكتب
الأوروبية ، معظمها مؤلف باللغة الانجليزية والقليل بالأسبانية ، مما يعطينا
الرواية الأوربية بالنسبة للحضارة العربية ومدى تأثيرها على أسبانيا
فى العصور الوسطى .

وهناك كتاب A History of Spain للأستاذ Chapman
وقد اعتمدنا عليه كثيرا فى الحديث عن أحوال ممالك أسبانيا النصرانية
وعلاقاتها بعضها ببعض ، وبمسلمى الأندلس . وكذلك هناك كتاب Murphy
المسمى The history of the Mohamedan Empire in Spain وهو ينقسم
الى قسمين ، الأول يتحدث عن التاريخ السياسى والحربى للعرب فى
أسبانيا ، والثانى يتحدث عن نظمهم المدنية ، وأدبهم وعلومهم وصناعاتهم
وتجاراتهم ، فهو كتاب هام لأنه يتناول التاريخ والحضارة . وقد اعتمدنا
عليه فى بعض نواحى البحث . ويلاحظ أنه ينقل الروايات العربية ويترجمها
بنصها فى كثير من الأحيان .

وهناك كثير من المقالات التى ظهرت بالأسبانية فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، عن العمارة والفنون والنقود ، وبعض الوثائق التى ظهرت أخيرا عن الصكوك ووثائق البيع والشراء التى عثر عليها علماء الأسبان فى مكتبات المدن الأسبانية مثل وشقة وسرقسطة وطليطلة وغيرها ، فى القرون الأخيرة . وهى تلقى ضوءا جديدا على كثير من التأثيرات الحضارية المتبادلة بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية . وقد أشرت الى بعضها فى قائمة المصادر والمراجع الموجودة فى نهاية البحث .

من هذا العرض السريع نستطيع أن نتعرف على أهم المصادر والمراجع العربية والأوربية ، واهمية كل منها بالنسبة لموضوع البحث ولأبوابه المختلفة . وهناك ثبت فى نهاية البحث عرض بالتفصيل لأسماء تلك المصادر والمراجع ولغيرها مما لم نذكره فى هذه العجالة ، فليرجع اليه من يريد المزيد .

تمهيد تاريخى

تعتبر الفــترة الواقعة بين فتح الأندلس (رجب ٩٢ هـ / مايو ٧١١ م) وبين قيــام حكم بنى أمية (ذو الحجة ١٣٨ هـ / مايو ٧٥٦ م) ، من أهم فترات التاريخ الاسلامى فى الأندلس ، وذلك لمــا صحبها من أحــداث أثرت فى مجرى هذا التاريخ حتى نهايته ، وأدت الى أن يفقــد المسلمون ربع ما فتحوه من شبه الجزيرة ، والى أن تقوم هناك فى أقصى الشمال فى أشتريس وجليقية نواة لمــلكة نصرانية ، أخذت على عاتقهــا استرداد ما فتحــه المسلمون من البلاد وأعادته الى حظيرة النصرانية من جديد ، وتمكنت من دحــر قوات المسلمين فى بعض المواقع الحربية وأعلنت بدء تلك الحركة التى تسمى فى التاريخ الأسبانى بحركة الاسترداد Reconquista .

فما الذى حدث حتى أدى الى هــذه النتيجة ، وخاصة أنه لم يكن قد مر على الفتح أعوام طوال ؟ لابد أن هناك من العوامل والأحداث ما أدى الى ذلك . والغريب أن تلك العوامل فى جوهرها هى نفس العــوامل التى أدت الى سقوط دولة القوط ، وعلى ذلك لم يتعلم المسلمون الدرس من أعدائهم ، وتركوا أنفسهم نهبا للصراعات القبلية والعنصرية المقيتة ، فكــاد أمرهم يتلاشى من البلاد ، لولا الجهــود التى بذلهــا عبد الرحمن الداخل فى تثبيت أركان الدولة والتصدى لحــركة المقاومة انصرانية التى كانت قد نمت واشــتد عودها .

أما أولى العــوامل التى أدت الى فشل المسلمين فى مجال علاقاتهم مع نصارى شمال أسبانيا على ذلك النحو ، فهو أنهم لم يستكملوا فتح شبه الجــزيرة ، وتركوا بعض المناطق الوعــرة فى أقصى الشمال ، فلم يصل حكمهم الى جبال قرقشونه فى أقصى الشرق ، وجبال بنبلونة ومنطقة اشتريس

وجليقية فى الشمال والشمال الغـربى ، رغم ما قيل من أن موسى بن نصير اخترق جبال البرنات (البرانس) وغزا أربونة وغيرها من مدن سبتمانية فى جنوبى فرنسا[1] .

ووجه الخطأ فى ذلك أن بعض القوط الذين فروا أمام جيوش الفتح تحصنوا فى تلك المناطق ، وبدءوا فى لم شتاتهم استعدادا لفتح صفحة النضال مع مسلمى الأندلس . ساعدهم على ذلك سياسة الخلافة الأموية التى أسرعت فى استدعاء موسى بن نصير ، ولم يكن قد اتم الفتح بعد . ولو قدر لهذا الفاتح العظيم البقاء فى الأندلس بعض الوقت لربما اتخذت الأحداث مسارا آخر ، ولربما تمكن من اخضاع شبه الجزيرة كلها .

ولكن يبدو أن الخلافة الأموية خافت من استبداد موسى وأبنائه بهذه الأقطار النائية ، أو ربما خافت من التغرير بالمسلمين ازاء طموح موسى الذى بدا أنه كان يريد مواصلة الغزو حتى يصل الى بلاد الشام عن طريق أوربا[2] .

ولهذا تم استدعاؤه بسرعة عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م وقام الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك — على ما فى ذلك من خلاف بين المؤرخين — بتدبير مؤامرة قتل فيها عبد العزيز بن موسى بن نصير عام ٩٧ هـ / ٧١٦ م وظلت البلاد بدون وال لمدة شهور ، حتى اختار الجند أيوب بن حبيب اللخمى ، ثم عزله سليمان وولى على الأندلس الحر بن عبد الله الثقفى،

---

(١) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٧ ، ٨ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٨ ، الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٣٤ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

Livermore, A history of spain, p 66,

Murphy, The history of the Mohamedan Enpire in Spain, p. 1

(٢) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٨٠ ، ٨١ ، الغسانى ، مرحلة الوزير فى افتكاك الأسير ، ص ١١٥ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ٤٥ .

وجعلها ولاية تابعة لأفريقية ، وأتى بعده عمر بن عبد العزيز وعزل هذا الوالى ، وارسل لها السمح بن مالك الخولانى ، وجعلها ولاية تابعة للخلافة مباشرة . وقد ادى هذا التردد من جانب الخلافة الى اضطراب الأحوال الادارية بالأندلس والى كثرة عدد الولاة ، مما هيأ الفرصة لنصارى الشمال لكى يبدءوا ضد مسلمى الأندلس[٣] .

اضف الى ذلك ما بذله المسلمون من جهد عظيم فى محاولاتهم غزو جنوب فرنسا ، وانصرافهم بذلك عن القضاء على الخطر المحدق بهم فى شمال سبانيا النصرانية ولو صرف المسلمون جهودهم تلك فى القضاء على نصارى الشمال لكان ذلك أفضل بكثير ، لكنهم شتتوا جهودهم ، وخلقوا لأنفسهم عدوا جديدا ، وجعلوا الفرنجة ونصارى الشمال الأسبانى فى خندق واحد ، وصاروا بذلك قلبا واحدا على المسلمين . ويا ليت المسلمين نجحوا فى غزواتهم لجنوب فرنسا ، لكنهم منوا هناك بهزيمة ساحقة فى موقعة تور بواتييه التى يسميها المسلمون بلاط الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها من المسلمين عام ١١٤ هـ (٧٣٣) ، وقام نصارى شمال اسبانيا بمطاردة فلول الجيش الاسلامى المنهزمة وارتفعت روحهم المعنوية بعد أن رأوا أن جيوش المسلمين يمكن أن تهزم[٤] .

وشهدت هذه الفترة أيضا حدثين على جانب كبير من الأهمية . ورغم انهما حدثا بعيدا عن بلاد الأندلس ، الا انه كان لهما تأثير كبير فى تاريخ هذه البلاد . أولاهما هو سقوط الدولة الميروفنجية فى فرنسا عام ٧٥١ م ، وتولى ببين Pepen القصير حكم البلاد ثم قيامه بمد نفوذه وسلطانه جهة الجنوب الغربى ، الأمر الذى كان له انعكاسه على نصارى الشمال الأسبانى .

---

(٣) الرازى برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٢ ، مجهول ، اخبار مجموعة ص ٢٢ ، ٢٣ ، ، الحميرى جذوة المقتبس ، ١٦١ ، ٢٦٢ ، ابن قتيبة ، الامامة ، جـ ٢ ، ص ٩٥ – ٩٧ ، النويرى ، نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ورقة ١ ، ٢٢ .

(٤) رينو ، تاريخ غزوات العرب فى فرنسا ، ص ١٠٣ .

أما الحدث الثانى فهو قيام الصراع فى المشرق بين بنى أمية وبنى العباس ، ذلك الصراع الذى انتهى بسقوط دولة الأمويين عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ، وعلى هـذا لم يكـن هناك أمام بنى أمية من الوقت والجهـد ما يعطونه للعمـل على استقرار الأحوال فى بلاد الأندلس ، اذ انشغلوا بخطر بنى العباس ، واستغل ولاة الأندلس الفرصة وأطلقوا لأنفسهم العنان فى الصراع على السلطان حتى مكنوا نصارى الشمال من خوض حـرب ناجحة ضدهم . كما حاولت الخـلافة العباسية الناشئة أن تزيد النار اشتعالا ، فأرسل أبو جعفر المنصور الى عامر بن وهب بولاية الأندلس ، فقام هذا الرجل ينادى بشعار العباسيين فى سرقسطة ورفع الرايـات السوداء ، ولم ينته خطـره الا بعد أن قتله يوسف الفهرى حاكم الأندلس وآخـر ولاتهـا(٥) .

على أن أخطر ما تعرض له المسلمون فى الأندلس فى تلك الفـترة وكانت له آثار ضارة على مستقبل الصراع بينهم وبين نصارى الشمال الأسبانى هو قيام الصراع بين العرب والبربر ، ثم بين المضرية واليمنية . ولم يكن الصراع بين العرب والبربر بسبب ما قيل من استئثار العـرب بالمناطق الخصبة ، بل بسبب سوء معاملتهم للبربر واعتبارهم شعبا محكوما لا ينبغى له أن يأخـذ أى نصيب فى الحكم أو فى ادارة البـلاد . ولذلك رفع مونوسة البربرى هو وقومه من البربر علم الثـورة ضد العـرب فى جليقية ومباردة وقورية وتقـدم للهجوم على قرطبـة . لكن العرب هزموه هزيمة ساحقة عند وادى سليط قرب طليطلة عام ١٢٤هـ/٧٤١م(٦) .

كانت الحرب بين العرب والبربر حرب افنـاء ، وكان لها نتـائج خطيرة على مستقبل البـلاد . فقد خلقت فى نفوس العـرب والبربر من الكراهية ما لم تمحه الأيام ، وبددت كل أمل فى الامتزاج التام بينهما ، كمـا

---

(٥) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص ١١٧ .

(٦) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢ ، ٤٣ دوزى ، تاريخ مسلمى اسبانيا ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ١٥٩ ، لين بول ، قصـة العرب فى اسبانيا ، ص ٤٧ .

اصابت الأندلس فى مقتل . اذ خـلا الشمال النصراضى من العرب والبربر ، وانفسح المجال أمام نصارى الشمال وزادت آمالهم فى استعادة البلاد من جديد . وليس بخاف على أحد أن الأندلس انما أوتى من الشمال والغـرب حيث هاجر البربر الذين كانوا يعيشون هناك[7] .

وكان للصراع بين القيسية واليمنية أثر خطير ، اذ انه استمر طوال فترة عصر الولاة تقريبا ، وابتداء منذ عام ١١١ هـ / ٧٣٠ م عندما أرسل أبو عبدة القيسى حاكم افريقية بقريبه الهيثم القيسى واليـا على الأندلس . فانحاز هذا الوالى الى القيسية ، واضطهد اليمنية وسـجن زعماءهم وأطاح برءوس بعضهم ، مما كان له أثره فى قيام الفتنة بينهما وخاصة بعـد أن انتهوا من أمر البربر عام ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م . فتقابل القيسيون واليمنيون فى موقعتين لا تقـل الواحدة منهما عن الجمل أو صفين وهما موقعة أقوة برطورة فى شوال عام ١٢٤ هـ (أغسطس ٧٤٢ م) وموقعة شقندة عام ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) وفيهما انتصر القيسيون وصارت لهم قيـادة الأندلس منـذ ذلك الحـين[8] .

المهم فى ذلك كله أن العرب انشغلوا بالصراع القبلى المقيت حتى توقف الجهـاد ضد نصارى الشمال فى اسبانيا ، وضد الفرنجة فيما وراء البرنات بل تمكن بلاى ملك جليقية من هزيمتهم فى موقعـة كوفا دونجـا عام ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) كمـا سيأتى فى حينه وأخرجهم من جليقية كلهـا وافتتن الناس حتى تنصر كل مذبذب فى دينـه ، وتقهقـر المسلمون الى استورقة وتحالفت المجاعة التى شملت الأندلس فى ذلك الحين مع نصارى الشمال فأخلى المسلمون المنطقة الشمالية الغربية كلها ونزلوا حتى قورية

---

(٧) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٨) الرازى برواية ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٢ ، ٥٣ ، المقرى ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١١١ ، دوزى ، المرجع نفسه ، ص ١٢٤ ، ١٣٥ .

وماردة عام ١٣٦ هـ (٧٥٣ م) ، وبذلك خسر المسلمون ربع ما فتحـــوه من شـــبه الجـــزيرة(٩) .

تلك هى أهم العوامل التى اعطت الفرصة لكى تنشـــا اول مملكـــة نصرانية فى شمال أسبانيا وهى مملكة جليقية واشتريس . لكن كيف قامت هـــذه الدولة ، وما هى علاقاتهـــا بمسلمى الأندلس فى تلك الفـــترة التى نتحدث عنها والتى تسمى بعصر الولاة ؟ .

من الثابت أن فلول القـــوط الذين فروا أمام الزحف الاسلامى تجمعت فى أقصى الشمال فى أستوريا Asturias التى تسميها المراجع العربيـــة أشتريس أو اشتوريس وعند منطقة هناك تســـمى الصخرة أو صخرة بلاى وتسميها المراجع النصرانية Picos de Uropa احتمى بلاى وأصحابه من هجمات المسلمين . ولمـــا سمعوا نبأ وفاة لذريق Roderic انتخبوا بلاى خليفة له . وقام بلاى واتخذ من مدينة كانجاس دى أونيس Cangas de عاصمة له . ويعتبر هذا الامير أو الملك هو أول من اقام أول امارة نصرانية تقوم ضـــد المسلمين وتثور ضدهم(١٠) .

ويخلط كثير من المؤرخين خلطا شديدا فى بدء ثورة بلاى ، فبعضهم يجعله فى ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى الذى تولى امر الأندلس بين عامى ١٠٣ هـ ، ١٠٧ هـ ، وآخرون يجعلونه فى ولاية عقبـــة بن الحجاج السلولى الذى حكم من سنة ١١٧ هـ الى ١٢٣ هـ ، وهناك أيضـــا ايضا من يجعـــل ثورة بلاى فى أيام ولاية يوسف الفهرى (١٢٩ ــ ١٣٨ هـ)(١١) .

---

(٩) مجهول ، اخبـــار مجموعة ، ص ٦٢ ، المقرى ، المصـــدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(١٠) ابن عـــذارى ، المصـــدر نفســـه ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، مؤنس ، بلاى وميلاد اشـــتريس ، ص ٥ .

Chapman, A history of spain, p 53

(١١) الرازى ، برواية المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٥٢٢ ، مؤنس ، المرجـــع نفســـه ص ١١ .

ويمـــدنا المقرى بفقرة هامة تحدد لنا بدء قيام حركة بلاى هذا فيقول :
« قال غير واحد من المؤرخين ، أول من جمع كل النصـــارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم علج يقال له بلاى من أهل أشتوريس من أهل جليقيـــة كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحـــر بن عبد الرحمن الثقفى ، ثانى أمراء العـــرب بالأندلس ، وذلك فى السنة السادسة من فتحها وهى سنة ٩٨ هـ ، وثار النصارى معه على نائب الحـــر بن عبد الرحمن فطردوه وملكوا البـــلاد وبقى المـــلك فيهم الى الآن »(١٢) .

ونستخلص من هذه الفترة الحقائق الآتية :

اولا — ان اول من ثار ضـــد المسلمين فى الشمال النصرانى كله هو بلاى ، وربما لم يكن بلاى هذا من القوط ، وانمـــا من اهل البلاد من اهل اشتريس او جليقية أى من ســـلالة الأيبيريين الرومان الذين حكمهم القوط حتى قدوم العرب . وسواء كان بلاى قوطيا أم من اهل البلاد الأصليين فهـــو كان ابنا (لفافيـــلا) دوق كنتبرية او بنـــا لبرمود واخو لذريق . وكان قد اختلف مع عمـــه لذريق قبيل دخـــول العـــرب البلاد وذهب الى اشتريس وأقام نفســه أميرا عليها حسب ما تدعيه الروايات النصرانية(١٣) .

ثانيا — كان بلاى رهينة فى قرطبـــة لضمان طاعة اهل بلده اشتريس وجليقية ، يؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى من أن موسى بن نصير « خـــرج من طليطلة غازيا يفتح المدائن حتى دانت له الأندلس ، وجـــاء وجوه أهل جليقية يطلبون الصلح ، فصالحهم وفتح بلاد الشكنس واوغل فى بلادهم حتى أتوا قوما كالبهـــائم .. »(١٤) ، اذن صالحه أهل جليقية على أن يكون أميرهم بلاى نفســـه رهينة عنـــده فى قرطبة .

---

(١٢) المقرى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٢١ .

(١٣) لمعرفة أصل بلاى تفصيلا ، انظر د. حسين مؤنس ، بلاى وميلاد اشـــتريس ، ص ٦ — ٩ .

(١٤) ابن عـذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٤ .

ثالثا — استمر بلاى حبيس قرطبة حتى فر أيام الحـر بن عبد الرحمن الثقفى ، وهو ثانى أمراء العرب بالأندلس بعد اغتيال أول أمرائها منهم وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير عام ٩٧ هـ (٧١٦ م) ، وقد ظل الحـر حاكما للأندلس حتى عام ١٠٠ هـ ٧١٩ عندما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولانى واليا عليها من قبله(١٥) .

رابعا — هرب بلاى الى أشتريس عام ٩٨ هـ (٧١٧ م) والتف حوله أهل تلك المنطقة من النصارى وأعلنوا الثورة ضد نائب الحـر بن عبد الرحمن الثقفى ، الذى لا تذكر لنا المراجع العربية أو النصرانية اسمه ، وطردوه من البلاد ، وأعلنوا بلاى أميرا أو ملكا عليهم منذ ذلك الوقت .

والواقع أن انصراف الحـر الثقفى الى الجهاد فى بلاد الغال كان من الأسباب التى سهلت على المسيحيين اللاجئين الى جبال أشتريس (أستوريا) الاجتماع على العصيان وزرع نواة المقاومة ووضع أساس أول دولة مسيحية فى أسبانيا حلت محل دولة القوط التى قضى عليها العرب . ويضاف الى ذلك سبب آخر دفع مسيحيى تلك المنطقة دفعا الى الثورة ، هذا السبب هو سخط الناس على ادارة الحـر وتبرمهم من عسفه وظلمه ، وكان هؤلاء حديثو عهد بالخضوع للعرب ، فثقل عليهم ذلك وغلت نفوسهم بالثورة ، واستغل بلاى هذا الغليان وأعلن الثورة والتمرد والعصيان(١٦) .

من هذه الحقائق نرى أن ثورة بلاى أو دولة أشتريس انما ولدت عام ٩٨ هـ / ٧١٧ م ، ولم يكد يمضى على الفتح ست سنوات ، لكن يبدو أن بلاى ظل متقوقعا فى بلدة كانجاس دى أونيس بأشتريس ، وأخذ يجمع الأنصار من القوط الهاربين من المسلمين ، ومن الأيبيريين الرومان المقيمين فى تلك الناحية ، وأخذ يحرضهم على الوثوب على العرب

---

(١٥) ابن حيان برواية المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٦ .

(١٦) رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ٧٢ ، ٤٨ ، ٤٩ .

المقيمين هناك ، ويعيب عليهم طول الاستسلام والتراجع أمام المسلمين حتى استنهض هممهم وحملهم على الوثوب على المسلمين . ظهر هذا واضحا أيام عنبسة بن سحيم الكلبي والى الأندلس (١٠٣ — ١٠٧ هـ / ٧٢٢ — ٧٣٦ م) . ولم يكن هدف بلاى فى ذلك الوقت هو استرداد الأندلس بل « دفع المسلمين عما بقى بأيديهم من أرضهم وحماية حريمهم ، وقد كانوا لا يطمعون فى ذلك[١٧] .

اذن لم يقم بلاى بثورنه أمام عنبسة بن سحيم الكلبي ، بل قام يدعو الى الاحتفاظ بما بقى لهم من مناطق فى أشتريس وجليقية وكنتبرية ، تلك المناطق القاحلة القارصة البرد الجدباء التى لم يألفها العرب أو البربر من قبل . وليس هناك من شك ايضا فى أن مقتل السمح بن مالك الخولانى الوالى السابق على عنبسة بن سحيم ، فى أرض الغال (فرنسا) عام ١٠٢ / ٧٢١ م ، قد شجع نصارى الشمال على ذلك[١٨] .

ولم تذكر لنا المراجع أن عنبسة بن سحيم الكلبي قام بغزو نصارى الشمال ، بل انه وجه همته للانتقام لمقتل السمح بالايغال فى غزو الفرنجة حتى استشهد عام ١٠٧ هـ / ٧٢٦ م ، لكن المسلمين كانوا قد انتبهوا لحركة بلاى فقام عامل المسلمين فى نواحى أشتريس القائد البربرى (مونوسة) بمحاولة التصدى لتلك الحركة ، ووقعت بينه وبين بلاى مناوشات ، وظل مونوسة يحاربه ويطارده حتى الجأه الى التحصن بالصخرة التى عرفت باسمه (صخرة بلاى) فى عدد قليل جدا من انصاره[١٩] .

---

(١٧) الرازى برواية المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ ، ابن حيان برواية المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

(١٨) رينو ، المرجع نفسه ، ٧٢ .

(١٩) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧ ، ٥٢٢ ، ج ١ ، ص ١٠٩ ، د. حسين مؤنس ، بلاى وميلاد أشتريس ، ص ١٩ .
Murphy, The history of the Mohamdan Empire in Spain, p 79

لكن سوء الحظ لازم المسلمين فقام صراع بين مونوسة وبين عبد الرحمن الغافقي (١١٣ — ١١٤ هـ / ٧٣٢ / — ٧٣٢ م) واستطاع عبد الرحمن والي الاندلس في تلك الفترة أن يقضي على مونوسة وأن يقتله على يد قائده البربري (ابن زيان) سنة ١١٣هـ/٧٣٢م . ولم يلبث عبد الرحمن نفسه أن وقع صريعا ابان اشتباكه مع الفرنجة فى معركة بلاط الشهداء عام ١١٤ هـ / ٧٣٢ م . وبذلك خلا الجو أمام بلاى ، فتشجع وخرج من الصخرة وأخذ فى التوسع حتى استولى على جيخون Gijon التى كان مونوسه يقيم فيها ، ويبسط سلطانه على اقليمى اشتريس وكنتبريه واتسع ملكه حتى شمل جزءا من جليقية(٢٠) .

فلما تولى أمر الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي (١١٧—١٢٣هـ/ ٧٣٥—٧٤١م) وكان قائداً عظيما من طراز عبد الرحمن الغافقي ، جعل همه هو الانتقام لكارثة بلاط الشهداء باستئناف الجهاد فى غالة ثم القيام برد عادية نصارى الشمال والقضاء على دويلتهم الناشئة فى اشتريس وجليقية . وبالبته ركز جهده كله في هذه الناحية ، لكنه اتخذ من مدينة أربونة وراء البرنات قاعدة لغزو فرنسا ، وتوغل هناك حتى عاد نهر الرون رباطا للمسلمين الذين هددوا بذلك قلب فرنسا . لكن شارل مارتل هزم المسلمين ، عند اربونة هزيمة شديدة عام ١١٩ هـ/٧٣٧ م(٢١) .

وفى عام ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م زحف شارل يساعده اخوه شلدبراند وحليفه لوتبراند ملك اللمبارد على مواقع المسلمين ، واضطر عقبة أن يخلى بروفانس والارتداد الى ما وراء جبال البرنات حيث اصطدم بعصابات قوية من البشكنس والقوط الذين حرضهم الفرنج على التصدى له اثناء

(٢٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٣٨ ، حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٣٠ .

(٢١) الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ٢١ ، ابن بشكوال برواية المقرى ، نفح الطيب جـ ٢ ، ص ٥٨ .

عودته ، وبذلك فقد المسلمون فتوحاتهم فى جنوب فرنسا ، ولم يبق لهم الا مدينة اربونة ، وضاع جهدهم فى هذا الصراع الذى كان وبالا عليهم(٢٢) .

حول عقبة السلولى جهده فى نفس الوقت الى اشتريس وجليقية ، لكنه أيضا فى هذا الميدان لم يحقق نجاحا تاما ، فقد قام قائده علقمة بن عبد الرحمن اللخمى بالاشتباك مع بلاى ورجالة ، وتقدم حتى افتتح جليقية كلها وما وراءها بحيث لم يبق هناك الا الصخرة التى احتمى بها بلاى وقلة من جنده ، وظل غلقمة محاصرا لها حتى كاد هؤلاء يموتون جوعا ولم يبق لهم الا ثلاثين رجلا وعشر نساء ، ولما اعيا المسلمين امرهم تركوهم وعادوا الى استورقة فى جليقية . وهنا تدعى بعض الروايات النصرانية نصرا حققة بلاى عند مغارة دونجا بالصخرة ، وتقول ان جيش علقمة قد هزم . لكن تلك الموقعة لم يحن أوانها بعد ، اذ انها تمت عام ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م(٢٣) .

كاد أمر تلك الدولة أن ينتهى فى عهد عقبة السلولى ، لكن هذا القائد العظيم لم يستمر فى ولاية الأندلس ، اذ ثار عليه عبد الملك بن قطن الفهرى عام ١٢٣ هـ وتولى الحكم بدلا منه . وبذلك تنفس بلاى الصعداء خاصة وأن الوالى الجديد انغمس حتى أذنيه فى صراع مرير مع البربر ثم القيسية بقيادة بلج بن بشر ، واستمر هذا الصراع بعد عبد الملك ، كما سبق أن أشرنا ، حتى قامت الفتنة بين أبى الخطار حسام بن ضرار الكلبى وثوابة العاملى ، وبين الصميل ويوسف الفهرى عام ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م ، هنا فقط أصبح الجو مهيأ تماما لكى يحقق نصارى الشمال نصرا ولأل مرة بعد الفتح على مسلمى الأندلس فى موقعة كوفا دونجا(٢٤) .

---

(٢٢) ابن خلدون العبر ، ج ٤ ، ص ١١٩ . محمد عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول ، ص ١١٣ - ١١٥ .

(٢٣) ابن عذارى البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٤١ ، مجهول ، اخبار مجموعة ، ص ٢٨ ، د. حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢٤) للرازى برواية المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

ويخلط المؤرخون المسلمون والنصارى فى الزمن الذى تمت فيه هذه المعركة خلطا شديدا ، بل ويخلطون بين الثورة التى قام بها بلاى وبين تلك الموقعة ويجعلونهما شيئا واحدا . وقد تتبعنا حركة بلاى منذ منذ عام ٩٨هـ / ٧١٧ م ورأينا أنه اتبع سياسة الدفاع عما تبقى لديه من أرض فى أشتريس وجليقية مما تركه المسلمون استصغارا لشأنه . ولم يتركه المسلمون هادىء البال بل رموه بقواتهم أيام عنبسة وأيام عقبة السلولى حتى الجأوه الى الصخرة ، والان أتى دور الهجوم . اذن لا مجال للخلط بين قيام ثورة أو دولة ، وبين موقعة حربية كسبتها تلك الدولة ، وكانت عاملا كبيرا من عوامل تثبيت أوتادها وفتحت الباب أمامها للتوسع وبدء حركة الاسترداد التى قام بها نصارى الشمال ، وصارت علما على تاريخهم فى العصور الوسطى[٢٥] .

وقد اعتبر بعض المؤرخين أن النصر فى هذه المعركة التى ضخم الأسبان قيمتها ، هو البداية الحقيقية لقيام دولة أشتريس . وعلى أية حال فاننا نميل — حسب منطق الاحداث وحسب رواية صاحب اخبار مجموعة فى فتح الاندلس وهى رواية هامة — الى أن معركة كوفا دونجا Cova d'onga حدثت عام ١٣٣ هـ (٧٥٠ — ٧٥١ م) اذ أن خلافة بنى أمية فى المشرق قد انتهت ، والقوات الاسلامية فى الاندلس قد تضعضعت بفعل الصراع القبلى العنيف ، أى أن الوضع العام فى الداخل والخارج يهيىء لتلك المعركة ويكفل لها النصر ضد المسلمين . ولولا المجاعة التى شملت النصارى والمسلمين فى شبه الجزيرة على السواء لأصبح مصير المسلمين فى كفة الميزان[٢٦] .

ورغم الأهمية العظيمة التى أعطاها الاسبان لهذه المعركة الا أنها لم تخرج عن كونها مناوشات حدثت بين المسلمين وبلاى فى احدى مناطق

---

(٢٥) (3) Crow, Spain : The root and the flower, pp. 48, 49

فى تاريخ هذه المعركة وما قيل فيها من آراء ، انظر ، حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ٥ ، ١٩ .

(٢٦) مجهول ، اخبار مجموعة ، ص ٦١ ، ٦٢ .

الشمال لم تحـــدد مكانها المصادر الاسلامية ، وتسميها المراجع النصرانية بكوفا دونجـــا ، وكانت نتيجتها هزيمة المسلمين ، وترتب على ذلك أن قام بلاى واخرج المسلمين من جليقية كلهـــا ، وعاد من أسلم من أهلهـــا الى النصرانية من جـــديد ، وتقهقر المسلمونة الى أستورقة ، ولم يعودوا الى مهاجمة هذه النواحى مرة أخرى الا فى أيام المنصور بن أبى عامر فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . ولذلك فان هـــذه الواقعـــة تعتبر الميلاد الحقيقى لدوة أشتريس وتعتبر بدءا حاسما لحركة المقاومة النصرانيـــة فى شـــبه الجـــزيرة التى تعـــرف عـــادة بحـــركة الاســـترداد La Reconquista ، وهى على هـــذا الاعتبار حادث فاصل من حوادث التاريخ الأسبانى[٢٧] .

وعلى هذا الأساس نشأ وضع جديد سيكون محورا من أهم محاور التاريخ الاندلسى كله ، وهو أن اسبانيا لن تكون منذ ذلك التاريخ قطرا اسلاميا خالصا ، وانما ستكون قسمة بين الدولة الاســـلامية والـــدولة النصرانية ، وأن كلا من هاتين الدولتين ستسير فى طريقها ، وأن النزاع بينهمـــا سيستمر ويطول حتى ينتهى أخيرا وبعـــد ثمانية قرون بالقضاء على الدولة الاسلامية وعودة أسبانيا نصرانية كمـــا كانت . من هنـــا تتضح لنـــا اهمية شخصية بلاى فى التاريخ الاسلامى عامة ، فهو الذى وضع اساس الدولة الأسبانية النصرانية التى ستحمل لواء المقاومة على الجبهـــة الشمالية الغربية ، وهو أول من حقق نصرا على المسلمين جعلهم يتراجعون لأول مرة عن أرض افتتحوها واستقروا فيها لمـــدة تقرب من اربعـــين عـــاما[٢٨] .

والخطير فى الامر أن تراجع المسلمين لم يقف عند حدود أشتريس كمـــا رأينا ، بل أنه زاد فى عهد الملك الفونسو الاول Alfonso 1 (١٣٥ —

---

(٢٧) مجهول ، اخبـار مجموعة ، ص ٦٢ .

(٢٨) د. حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ٢٤ ، ٢٧ .

١٤٢ هـ / ٧٥٢ — ٧٦٠ م)، وهو ما تسميه الرواية الاسلامية عادة بأذفونش أو الفونس ، وقد حكم بعد وفاة بلاى بعامين ، ولم يكن من بيت بلاى بين انما كان ابنا لبطرة دوق كنبرية وكان الفونسو قد تزوج بنتا لبلاى تسمى أومنسندا Ermensinda وارتقى العرش بعد موت (فافلة) Fafila ابن بلاى بعامين ، مما يفهم منه أن فافلة بن بلاي مضى صغيرا دون أن يخلف عقبة ، والفونش هذا هو جد بني الفونش الذين اتصل حكمهم بعد ذلك واستطاعوا أن يستردوا بلادهم[٢٩] .

ويكاد يجمع المؤرخون على أن الفونش الاول كان زعيما واسع النشاط عالي الهمة واسع الاطماع ، تولى الامارة فى وقت ابتعد فيه خطر المسلمين عن حدود امارته أو مملكته ، بسبب ما وقعوا فيه من صراع ونزاع انتهزه الفونش واستغله أحسن استغلال ، واستفاد أيضا من تلك المجاعة التي عمت شبه الجزيرة أحسن فائدة ، حتى أنه استطاع أن « يخرج المسلمين عن أستورقة وغيرها وانضم الناس الى ما وراء الدرب الآ[٣٠] والى قورية وماردة فى عام ١٣٦ هـ (٧٥٣) واشتد الجوع وهاجر أهل الأندلس الى طنجة واصيلا من ريف البربر ، فخف سكان الأندلس وكاد يغلب عليهم العدو الا أن الجوع شملهم »[٣١] .

---

(٢٩) الرازى برواية المقرى ، نفح الطيب جـ ٢ ، ص ٥٢٢ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٣٠) الدروب هى الطرق التى كان المسلمون يسلكونها فى طريقهم من سهول الجنوب والوسط الى النواحى الساحلية العامرة فى أقصى شمال الأندلس ، ومعظمها طرق رومانية قديمة بين الهضاب والجبال ، وأهمها دربان : درب شرقى من طليطلة الى وادى الحجارة الى حوض ابرة ، ثم يسير بمحازاته مارا بقلهرة ونخرة حتى بمبلونة Pampelona ومن ثم يفضى الى ألبة Alava والقلاع Castillia وأشتريس ويسير الى ماردة ودرب غربى يبدا من الجرف ويسير الى ماردة وقورية ثم طلبيرة فطليطلة ومنها الى سلمنقة وسمورة فجليقية . انظر ، حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ٣٤٥ .

(٣١) مجهول ، اخبار مجموعة ، ص ٦٢ .

والعبارة السابقة واضحة الدلالة ، وهى تبين الى أى مدى كانت هجرة البربر والعرب من الشمال النصرانى بسبب المقاومة المسيحية وبسبب المجاعة التى كانت قد حلت بالبلاد منذ عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ، وكنتيجة لما سبق أن أشرنا اليه من صراع المسلمين مع بعضهم البعض .

استطاع المسلمون الثبات عند قورية وماردة ، بعد أن خلفوا وراءهم مراكز هامة مثل ليون Leon وسمرة Zamora ولدسما Ledesma فى الغرب ، وفى الجهة الشرقية فتداخلوا سلمنقة Salamanca وسلدانيا Saldana وسيمانقاس Simancas وشقوبية Segovia وابلة Avila وأوكة Oca وأوسمة Osma على وادى ابرة ، وكانت كلها مراكز هامة أتعب المسلمون أنفسهم فى فتحها وأضاعوها فى غمرة الصراع القبلى والعنصرى المقيت ، وأصبحت حدود الأندلس الاسلامى الشمالية قبيل مجىء عبد الرحمن الداخل تبدأ من الغرب عند مدينة قويمرة على نهر منديق Mondego ، ثم تمتد الى قورية فطلبيرة فطليطلة فوادى الحجارة فتطيلة فبهلونة فى أقصى الشمال الشرقى . اى أن الاندلس الاسلامى فقد ربع شبه الجزيرة على وجه التقريب قبيل قدوم عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨ هـ / ٧٥٨ م[٣٢] .

وليس معنى ذلك أن مملكة مشتريس الناشئة اتسعت حتى شملت هذه المناطق الهامة لان الواقع أن الفونس الاول لم يستول بالفعل الا على النواحى المحيطة بأشتريس ، أى ناحية ليبانا وبردوليلى Vardulia وساحل جليقية ، وليس من المؤكد أنه احتل ليون ، وأما الباقى وهو المساحة الواسعة الممتدة بين حوض المنهو والتاجة فكانت فى ذلك الحين أرض فضاء قاحلة بين أسبانيا الاسلامية ودولة أشتريس النصرانية . ولم يفعل بها الفونش الاول أكثر من أنه زاد فى تخريبها حتى يجعلها منطقة فاصلة بينه وبين قوات المسلمين . ورغم ذلك لم تكن الحدود بين الطرفين

---

(٣٢) شكيب أرسلان ، المرجع نفسه جـ ٢ ، ص ٥٧ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

حدودا ثابتة ، اذ كانت فى حالة صعود وهبوط حسب انتصار أحد الطرفين أو هزيمتـــه من الطرف الآخــر[٣٣] .

يؤكد ذلك ما تذكره المراجع العربة من ان المسلمين أحسوا بخطــر قيـــام هذه الدولة وتوسعها على هذا النحو الذى بات يهـــدد الثغــور الاسلامية فى الشمال والغرب ، خاصة وأن شعب اباسك والذى تذكره المصادر العربية عادة باسم البشكنس ، كان قد تشـــجع بما قام به بلاى والفونش الاول وأعلن الثورة هو الآخر . وكان البشكنس يسكنون كمـــا سبق أن أشرنا شرق أشتريس وحول خليج بسكاية ، وربمـــا اشتملت اراضيهم على نبرة (نافار) وامتدت حتى نهر الجارون فى سبتمانيا بجنوب فرنســـا[٣٤] .

وازاء ازدياد الأخطار المحدقة بالمسلمين فى الشمال الغربى (جليقية واشتريس) ، وفى الشمال خلف جبال ابرنات عند منطقة البشـــكنس ، أرسل يوسف الفهرى حملتين الى هاتين المنطقتين . أما حملته ضد جليقية فيبدو انها لم تحقق شيئا ، اذ أن المصادر لاذت بالصمت ولم تذكر لنـــا عنها شيئا ، لكنهـــا أفادتنا عن الحمـــلة الموجهـــة ضـــد البشكنس ، فقد ذكرت لنـــا أنها منيت بالفشل الذريع حيث قتل قائد الحملة عندما تقابل مع البشكنس فى وادى شرنبة أو وادى الرملة Guadarrama وقتل عامة جنـــده ، وعادت فلولهم الى سرقسطة[٣٥] .

---

(٣٣) مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٣٤) Crow, Spain : theroot and the flower, p. 79
Dozy, op. cit, p. 177
مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٧٦ .

(٣٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٦٥ ، مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٧٦ ووادى شرنبة أو وادى الرملة الذى ذكر فى المتن هو سلسلة جبال متوسطة الارتفاع تتفرع من سلسلة الجبال الوسطى El Sistema Central فى وسط شبه الجزيرة ، تمر فى مديريات مدريد وأبلة وشقوبية ، وتتصل من ناحية الشرق بسلسلة الجبال الايبيرية ، ونقطة التقائها بسلسلة الجبال الوسطى مرتفع سومو سييرا Somosierra ويصل وادى الرمل

وقد لعب التآمر والخيانة دورا كبيرا فى هزيمة المسلمين فى وادى شرنبة عام ١٣٨هـ / ٧٥٦ م اذ أن الصراع على السلطة والصراع القبلى كانا وراء هذه الهزيمة ، فقـــد أراد يوسف الفهرى أن يقضى على بعض منافسيه من أشراف العرب « فأرسلهم فى ضعف ولـــا علم بقتل ابن شهاب قائد الحمـــلة سره ذلك »(٣٦) .

[illegible]

الى هذا الحد وصلت الكراهية والاحقـــاد والتنافس على السلطان فى أواخر عصر الولاة ، لذلك لم يكن عجبا أن ينتصر الباسك وأن يقوم الفونش الأول بالاستيلاء على كثير من المـــدن والمعاقل الهامة التى لن يطأها المسلمون بعـــد ذلك الا فى عهـــد المنصور بن أبى عامر . ولم يكن عجبا أيضا أن يقـــول أحد المؤرخين أن الناس شمتوا بيوسف الفهرى عندما وصل رسول من قرطبة يخبره بأن فتى من قريش ــ يقصد عبد الرحمن الداخل ــ قد نزل بساحل المنكب بالأندلس وأن الناس اجتمعوا اليه(٣٧) .

ولم تكن شماتة الناس بيوسف الا لـــا فعله بالقرشيين من قواد حملة وادى شرنبة (أو وادى الرملة) . ومن ثم انفضوا عنه وتركوه فى قلة يواجه مصيره المحتوم ، وكأنما ارادت المقـــادير أن تتدارك المسلمين فى هذا القطر الواسع برجل عظيم مثل عبد الرحمن الداخل يعيد اليهم ما فقـــدوه فى أواخر عصر الولاة ، أو يمنع على الاقل خطر النصـــارى على الدولة الاسلامية الناشئة .

الى قرب من مدريد عند مرتفع نابا ثيرادا Nevecerrada وينبع من هـــذه الجبال نهر يسمى وادى الرمل Rio de Guadarrama أيضا يتجـــه الى الجنوب مارا بضاحية الاسكوريال ويصب فى نهر تاجـــه شرقى طليطلة . وهـــذا النهر ــ كما يدل عليه اسمه ــ جاف معظم العام تقريبا الا فى أوقات المطر الغزير . وعلى مقربة من هـــذا النهر وقـــع اللقـــاء بين المسلمين والبشكنس عام ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م .

انظر ، Diccionarlo Geografico de Espana, X, P. 434.

(٣٦) مجهول ، أخبـــار مجموعة ، ص ٧٧ .

(٣٧) ابن الابار ، الحـــلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ابن عـــذارى ، البيـــان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٦٥ ، ٦٠ ، مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٧٧ .

الباب الأول

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر أمراء بنى أمية

الفصل الأول : الظروف والعوامل التى أثرت فى العلاقات بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر أمراء بنى أمية •

الفصل الثانى : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر أمراء بنى أميــة •

الفصل الأول

الظروف والعوامل التى أثرت فى العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر أمراء بنى أمية

تشكل العلاقات بين اى دولتين وفقا لظروف معينة ، وحسب عوامل خاصة ، تلون تلك العلاقات وتدفعها فى اتجاه معين ، قد يكون اتجاها نحو سلام ، وصداقة ، وحسن جوار ، وتعايش مثمر لصالح الطرفين وقد تدفعها فى اتجاه مناقض لهذا كله فتقوم الحروب ، وينشب الصراع السياسى ، والاقتصادى ، والثقافى ، والحربى ، وينتج عن ذلك دمار قد يكون متساويا عند الجانبين وقد يكون شديدا على احدهما ، قليلا عند الآخر .

لكن المؤكد أن العلاقات بشقيها السلمى والحربى ، الودى والعدائى ، سوف تؤثر فى كل منهما ، وسوف تنقل كثيرا أو قليلا من المؤثرات الحضارية من طرف الى آخر .

وعلى هذا فحديثنا عن العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية ، لابد أن ينحو هذا المنحى ، ويتجه هذا الاتجاه ، فيأخذ منذ البداية تبيان الظروف والعوامل والأحوال التى اثرت فى العلاقات بين هاتين الدولتين، والتى طبعتهما بطابع معين فى فترة معينة ، او فى عصر معين . وسوف نلاحظ أن هناك ظروفا ، أو عوامل أدت الى طبع العلاقات بينهما فى عصر الامارة الأموية بطابع قد لانجده فى عصر الخلافة مثلا ، أو فى عصر ملوك الطوائف أيضا . ويمكن أن نعبر عن ذلك أيضا بأن هناك عوامل وظروفا أدت الى رجحان كفة أحد الجانبين فى عصر ما وظروفا أخرى أدت الى اخفاقه وتعثره وضعفه فى عصر آخر .

وعلى ذلك لابد أن نأخذ فى الحديث عن تلك الظروف والعوامل داخل كل من الدولتين على حدة ، حتى يمكننا تفسير طبيعة العلاقات بينهما فى الفترة التى حددناها للبحث وهى عصر بنى أمية وملوك الطوائف .

أولا : ظـروف الأندلس الاسـلامية وأحوالهـا المؤثرة فى علاقاتها باسبانيا النصرانية فى عصر امارة بنى أميــة

وفى هذا الصدد لابد أن نتحدث عن أربع نقاط ، فنبين أولا : سمات هذا العصر فيما يختص بعلاقة أمراء بنى أمية بأسبانيا النصرانية ، ثم نوضح عوامل القوة ، وعوامل الضعف ، التى أثرت فى علاقتهم بتلك الدولة ، ثم نختم بالحديث عن موقف النصارى من أهل الذمة داخل الأندلس الاسلامية وأثر هـذا الموقف ، فى تطور العلاقات الأندلسية الأسبانية .

الموقف فى تطـور العلاقات الأندلسية الأسبانية :

١ ـ سـمات عصر أمراء بنى أميـة :

راينا فيما سبق من حديث كيف أن المقاومة النصرانية الأسـبانية النشطة ظهرت للوجود فى أواخر عصر الولاة ، وكيف أنها استولت على بعض المناطق الاسلامية الهامة فى الشمال . وقد أسعفت المقادير بلاد الأندلس المتناحرة بقـدوم عبد الرحمن الداخل اليها عام ١٣٨ هـ / ٧٥٦م، وبوفاة عدوها النشط الفونش الأول ملك جليقية واشتريس بعـد ذلك بقليل فى عام ١٤٢هـ / ٧٥٩م .

وبقـدوم عبد الرحمن بن معـاوية بن هشام بن عبد المـلك بن مروان المعروف بالداخل ، بدأ عصر جديد فى تاريخ الأندلس يسمى : عصر الامارة وامتد هذا العصر حتى بداية القرن الرابع الهجرى ، عندما تولى عبد الرحمن الناصر حكم البلاد عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م وشمل بضع سنوات فى حكم هذا الأمير ، حتى أعلن قيام الخـلافة فى عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م ، فدخلت البلاد فى عصر **جديد هو عصر الخلافة .**

وقد درج المؤرخون المحدثون على تقسيم عصر الامارة الى عصرين : عصر القوة : ويبدأ بعبد الرحمن الداخل عام ١٣٨هـ/٧٥٦م وينتهى بوفاة عبد الرحمن الثانى عام ٢٣٨ هـ/٨٢٢ م .

وعصر الضعف : ويبـدا منـذ ذلك التاريخ وينتهى بتولى الأمـير عبد الرحمن المعـروف بالناصر حـكم البـلاد عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م .

التاريخ وينتهى بتولى الأمير عبد الرحمن المعروف بالناصر حكم البلاد عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م .

لكننا لا نستطيع أن نأخذ بهذا التقسيم فى مجال الحديث عن العلاقات السياسية بين مسلمى الأندلس وأسبانيا النصرانية فى عصر الامارة .

ذلك أن جميع أمراء بنى امية لم يتوانوا عن القيام بواجبهم فى الدفاع عن الثغور الاسلامية ، كما كانوا يقومون بالهجوم على أراضى أسبانيا النصرانية وبرشلونة الفرنجية حتى اجبروهما على طلب السلام والصلح عدة مرات ، ولم يتخلف اى أمير من أمراء بنى أمية حتى فى فترات الضعف — وهى فترات الانشغال بالفتن الداخلية — عن القيام بهذا الواجب المقدس .

ومما يؤيد ذلك أيضا أن العصر الذى يعتبره المؤرخون المحدثون عصر قوة ، ضاعت أثناءه مدن وثغور اسلامية هامة فى الشمال الشرقى من البلاد ، مثل مدينة أريونة عام ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م ومدينة جرندة عام ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ، وثغر برشلونة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م . كما ضاعت مدن هامة فى الشمال الغربى أيضا مثل مدينة لك وبرتقال ، وسمورة وقشتالة وشقوبية عام ١٤٦هـ / ٧٦٤م ، وضياع هذه المدن يعتبر علامة ضعف وليس علامة قوة ، وقد حدث هذا فى عصر القوة ، ولم يكن الا بسبب الأحوال الداخلية التى كانت تسود بلاد الأندلس فى تلك الأثناء(١) .

واتسم عصر الامارة فيما يتعلق بعلاقة مسلمى الأندلس بأسبانيا النصرانية ، بسمات واضحة ، منها : ذلك التصدى لقوة مملكة جليقية الناشئة ووقف توسعها ، وحصرها فى المناطق الشمالية التى استولت عليها أثناء عصر الولاة ، لكن انشغال أمراء بنى أمية بالقضاء على الفتن الداخلية وبالصراع على الحكم . ادى الى فرض السلام على الجانبين لفترات طويلة فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل وخلفائه على خلاف ما يظن البعض ،

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤ ، ص ١٢٢ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص٢٦٤ .
Murphy, Mohamedan Empire in Spain, p. 84

كما أدى أيضا الى ازدياد نشاط الفرنجة ، وسقوط ثغر برشلونة فى أيديهم ، وصار خنجرا فى ظهر المقاومة الاسلامية التى كان يقوم بها حكام قرطبة حينا ، وحكام سرقسطة حينا آخر(٢) .

وقد أدى عدم التفرغ تماما لمقارعة نصارى الشمال الأسبانى الى ظهور ممالك جديدة مثل مملكة نبرة (نافار) ، الى جانب مملكة جليقية واشتريس ، التى قامت فى عصر الولاة والتى تحدثنا عنها من قبل . وباتساع رقعة المقاومة النصرانية على هذا النحو ، أصبحت شبه الجزيرة الايبرية مقسمة بين الدولة الأسبانية النصرانية فى الشمال وبين الدولة الاسلامية فى بقية أنحاء شبه الجزيرة ، وبدأ الصراع بينهما ، وان تستطيع أى منهما القضاء على الأخرى تماما الا بعد صراع طويل مرير ، استمر ما يقرب من الثمانية قرون .

ولم يكن السلام الذى أشرنا اليه يعود الى انشغال أمراء بنى أمية فى هذا العصر بتوطيد الحكم والقضاء على الفتن الداخلية فقط ، بل يعود بالدرجة الأولى الى أن معظم أمراء بنى أمية كانوا أقوياء ، وكان فى استطاعتهم السيطرة على مقاليد الأمور فى أنحاء البلاد ، مما أجبر نصارى الشمال على احترامهم ، والحرص على مسالمتهم بقدر الامكان ، بل وارسال الوفود لعقد معاهدات السلام ، والصلح مع حكام قرطبة ، الذين كانوا قد نجحوا فى القضاء على الصراع على كرسى الامارة ، ونجحوا أيضا فى القضاء على الفتن الداخلية التى كان يقوم بها العرب والبربر ، وتفرغوا لممالك الشمال النصرانى منذ بداية القرن الثالث الهجرى .

ومن سمات هذا العصر أيضا : أن الحرب كانت سجالا بين الفريقين فى أحيان كثيرة ، وتبادل الفريقان النصر والهزيمة ، ونشطت الحرب بينهما بصفة خاصة فى أواخر عصر الامارة ، حيث كانت الأندلس قد تفتتت الى أقاليم أو دويلات صغيرة متناحرة ، فيما يشبه عصر ملوك الطوائف الذى ظهر بشكل سافر فيما بعد فى القرن الخامس الهجرى ، وصار نفوذ

---

(٢) العينى ، عقد الجمان ، جـ ١٣ قسم ٧ ورقة ١٩٨ ، ٢٣٥ (مخطوط) .

أمراء بنى أمية لايتعـدى مدينة قرطبة فى بعض الأحيـان ، وانتهز نصارى الشمال الأسبانى الفرصة واستولوا على بعض المراكز الاسلامية الهامة ، وتقـدم الفونش الثالث (٢٥١ ـــ ٢٩٥ هـ / ٨٦٦ هـ ـــ ٩١٠ م) ملك ليون (جليقية) فى أراضى المسلمين .

ومن سمات عصر الامارة البارزة أن حركات التمرد الداخلية شـملت هذا العصر كله ولم تقتصر على فترة معينة أو حاكم معين ، ولم يخل منها عهد أى أمير من أمراء بنى أمية ، لكنه فى النصف الأول من عصر الامارة ، كانت تقـوم الفتن بين أمراء بنى أمية ، لكنه فى النصف الأول من عصر الامارة ، كانت تقوم الفتن بين أمراء البيت الأموى بعضهم البعض بسبب الصراع على كرسى الامارة ، وبلغ من عمق هـذا الصراع أن بعضـهم استعان بالفرنجـة ضد البعض الآخر . أما فى النصف الثانى من عصر الامارة ، فقـد كانت حركات التمرد ذات طبيعـة عنصرية ، أو شعوبية ، فقـد قام المولدون الأسبان[٣] ، يؤازرهم النصـارى من أهل الذمة[٤] ويدعمهم نصارى الشمال الأسبانى والفرنجة بالثورة ضد العرب ، وضد حكم بنى أمية ، يتمثل ذلك فى ثورة ابن مروان الجليقى فى ماردة وبطليموس فى غربى الأندلس ، وثورة ابن حفصون فى رية فى الجنوب ، وتمرد بنى قسى فى سرقسطة فى الشمال الشرقى .

ولم يتوان أمراء بنى أمية فى القضاء على هذه الثورات ، لكنهـا شغلتهم كثيرا عن التصدى لأسبانيا النصرانية التى لو اتحدت ممالكها لنالت الكثير من المسلمين ، لكن الصراع كان قـد نشب بين مملكة نبرة الناشئة وبين جارتها جليقية (ليون) ، التى كانت تحاول دائما أن تفرض سلطانها على الشمال الأسبانى . وأعطى الصراع الداخلى بين نصارى الأسـبان الفرصة لأمراء بنى أمية ، لكى يقضو على الفتن الداخلية .

---

(٣) المولدون الأسبان هم أبناء الأسبانيات اللائى تزوجن من عرب أو بربر ونشأ أبناؤهن على الاسلام ، وكون بعضهم أسرا حاكمة وخاصة فى شمال بلاد الأندلس .

(٤) النصارى من أصل الذمة ، هم النصارى الذين يعيشون بين مسلمى الأندلس وأصبحوا فى ذمتهم ، فعلى المسلمين حمايتهم وتوفير الأمان لهم .

ونتج عن ذلك : تفوق الأندلس الاسلامية ، وازدياد قوتها عن جاراتها من ممـــالك اسبانيا النصرانية .

٢ ـ عوامل القوة وأثرها فى العلاقات مع ممالك أسبانيا النصرانية :

وكانت عوامل القـــوة التى كفلت التفوق فى معظم عصر الامارة على اسبانيا النصرانية كثيرة ، اهمها : توحيـــد الجبهـــة الداخلية تحت قيادة أمراء بنى أميـــة .

وكانت البلاد فى أواخر عصر الامارة نهبا للفوضى ، وسفك الدماء بين الولاة المتنازعين على كرسى الحكم ، وكانت البلاد ميدانا للصراع المقيت بين اليمنية والقيسية ، وبينهما وبين البربر ، كمـــا سبق القـــول ، فأتى عبد الرحمن الداخل وضرب تلك العناصر،واستعان ببعضها ضد البعض الآخر كما استعان فى تنفيذ سياسته تلك ، بالموالى والعبيد والبربر والمحاربين من شمال افريقية ، وأقام حكما مطلقـــا ، كان السلطان فيه للسيف وحده ، واتبع فى ذلك جميع وسائل البطش والعنف[٥] .

ويبدو أن الداخل كان مضطرا الى ذلك ، فقـــد كان اعتماده على اليمنية فى بادىء الأمر ، لكنهم لم يلبثوا أن ثاروا عليه بسبب مقتـــل زعيمهم ابى الصباح اليحصبى . وأدى ذلك الى عدم اطمئنانه الى العرب قاطبـــة، وعرف أن قلوبهم لا يمكن أن تصفو له ، «فانحرف عنهم الى اتخاذ المماليك» من الموالى والعبيد الذين اشتراهم واستكثر منهم ، حتى انه كون منهم جيشا قوامه أربعون الف مقـــاتل ، تمكن به من السيطرة على أهل الأندلس من العرب وغيرهم ، كما تمكن به من فرض السلام على جيرانه من نصـــارى الأسبان فى الشمال ، واستقامت له الأمور وتوطد حكمه فى تلك البلاد[٦] .

---

(٥) ابن سعيد ، المصدر نفســه ، جـ ١ ، ص ٦٠ ، لين بول ، قصـــة العرب فى اســـبانيا ص ٦٠ .

(٦) ابن حيان برواية المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٦٧ .

وقد تعرض عبد الرحمن الداخل فى أواخر عهده الى مؤامرة كبـــرى اشترك الفهريون (مضر) والكلبيون (يمن) ، والتمس هؤلاء الثـــوار المساعدة من شارلمان،امبراطور الفرنجة ، لكنهم لم ينفذوا الخطة التى كانوا قد اتفقوا عليها معه ، وكانت النتيجة أن اتهم بعضهم بعضا بالخيانة ، مما سهل على عبد الرحمن الداخل فرصة القضاء عليهم ، بعد أن عاد شرلمـــان خائبـــا ، حيث امتنعت عليه مدينة سرقسطة ، ومنعه أهلها من دخولها ، وتعرض أثنـــاء عودته لهجوم قبائل البشكنس (الباسك) ، وفقد عددا كبيرا من جنده قتلى ، كان من أشهرهم قائـــده المحبوب ، رولان فى عـــام ١٦١ هـ / ٧٧٧ م(٧) .

وقد بقيت ذيول هذه الحركة أيضا فى أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ ــ ١٨٠ م) والأمير الحكم بن هشام (١٨٠ ــ ٢٠٦ هـ) واستقل أحد الثوار العرب بمدينة سرقسطة ، واستقل ثائر آخر بمـــدينة برشلونة . وساعدهم على ذلك ظهور الانشقاق فى البيت الأموى ، اذ قام الصراع بين أبنـــاء عبد الرحمن الداخل على كرسى الامارة ، واستمر هذا الصراع فى عهـــد هشام وابنه الحكم ، واستعان بعضهم بشرلمـــان مرة ثانية . فجاء الى الأندلس من جـــديد ، وساعده أحد الثوار العرب فى الاستيلاء على برشلونة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، وضاعت تلك المدينـــة الهـــامة التى كانت تحمى الثغـــر الأعلى (سرقسطة) الى الأبد(٨) .

وقد تمكن حكام قرطبة من القضـاء أخيرا ، على تلك الفتن ، وعلى هؤلاء الثوار العـــرب ، الذين أضاعوا ثغـــر برشلونة الهـــام ، وتأكد لديهم أن هؤلاء العـــرب لا يمكن الاعتمـــاد عليهم ، فتوسعوا فى استخدام الصقالبة

---

(٧) العـذرى ، نصوص عن الأندلس ، ص ١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢٠ ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٢٤ .
Dozy, A History of the Moslems in Spain, pp. 204-206.

(٨) الرازى برواية ابن عـذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٩٢ ــ ٩٤ ، ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٤ ، ٩٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢٤ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٢٤ ، العينى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ورقة ١٩٨ ، ص ٢٣٥ .

والموالى منذ عهـد الحكم ، واستمر خلفـاؤه يسيرون على منواله ، فركن العرب الى الهدوء طوال حكم ابنه عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) وطوال عهـد الأمير محمـد بن عبد الرحمن الثانى (٢٣٨ — ٢٧٢ هـ) ، ولم ترفع الارستقراطية العربية رأسها الا فى أواخر عهـد الأمير محمد ، وقاموا بثوراتهم واستقلوا بمـا كان تحت يدهم من مدن وأقاليم ، حتى جـاء عبد الرحمن الناصر وقضى عليهم .

وكان لثورات البربر أيضا : أثرها فى الجبهـة الداخلية ، وعلى العلاقات بين مسلمى الأندلس ونصارى الشمال الأسبانى ، فقـد قام أحدهم ويدعى شقيا بن عبد الواحد المكناسى ، وادعى انه فاطمى ، وقام يدعو للشيعة ، واستولى على شنت برية (قرب طليطلة) وامتد نفـوذه الى المناطق التى تقع بين ماردة وقورية غربـا ، الى ثغر وادى الحجارة وكونكة شرقا ، واستمرت ثورته من عـام ١٥١ هـ حتى عام ١٦٠ هـ (٧٦٨ — ٧٧٧ م) ، ولم تنته تلك الثورة الا بعـد أن اغتاله احـد أصحابه عـام ١٦٠ هـ(٩) .

وقد شغلت تلك الثورة عبد الرحمن الداخل عن التصدى لنصارى الشمال ، الذين كانوا يحتضنون كل ثائر على بنى أميـة ، فقـد فتحـوا أبوابهم لأحـد ثوار البربر فى عهـد الأمير عبد الرحمن الثانى ، ورحب به الفونش (الفونسو) الثانى ملك جليقية واشتريس ، ولمـا حـاول هذا الثائر العودة الى بلاده ، خاف الفونش من أن ينقلب ضـده ويصـالح أمير قرطبة فقتله عام ٢٢٥ هـ(١٠) .

ورغم هذا التشجيع الذى لقيه الثوار ، سواء كانوا من العرب ، أو من البربر من نصارى الشمال ، فقد نجح أمراء بنى أمية فى القضاء على حركاتهم

---

(٩) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٧٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣ ، ١٣ ، ١٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢١ .

(١٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٣ ، ١١٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٥ .

التى ظهرت فى الصدر الأول من عصر الامارة . ولما ظهر نشاطهم مرة أخرى فى أواخر ذلك العصر ، استطاع الأمير محمد (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) أن يوجههم لمهاجمة نصارى بمبلونة بعد أن أقروا له بالطاعة والولاء . وبذلك : تمكن بنو أمية من توحيد الجبهة الداخلية ، وتفرغو للجهاد ضد نصارى الشمال الأسبانى ، ورد اعتداءاتهم على الثغور الاسلامية حتى اضطروهم الى طلب الصلح فى أحيان كثيرة[١١] .

٢ — وكان الأسلوب الذى اتبعه أمراء بنى أمية فى الحكم ، من عوامل قوتهم ، وكان له أثره فى استقرار الأمور فى الداخل ، وفى التصدى لنصارى الأسبان فى الشمال . وكان هذا الأسلوب يرتكز على ذلك التوازن الذى أوجده الأمويون بين القوات الخاصة التى أنشئوها ، من الموالى والصقالبة والبربر ، ومن قوات القبائل العربية المنتشرة فى الكور ، أو الولايات التى تعرف بالكور المجندة . وهى ولايات ينزلها « جند » من قبائل معينة ، كان أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى وزعهم عليها ، منذ عام ١٣٥ هـ / ٧٤٣ م فى عصر الولاة[١٢] .

وكان لقوة شخصية أمراء بنى أمية أثره فى نجاح سياستهم فى السيطرة على القوات الخاصة وعلى أجناد القبائل ، وتوجيهها لتحقيق مصلحة الدولة ، فاستطاعوا بذلك أن يقضوا على الثوار فى كل ناحية ، واستطاعوا أن ينازلوا نصارى الشمال الأسبانى ، وأن يلحقوا بهم الهزائم ويجبروهم على طلب الأمان والسلام .

لكن أمراء بنى امية الأواخر اشتطوا فى شراء الصقالبة والاعتماد عليهم ، فاختل التوازن وحاول هؤلاء الصقالبة السيطرة على مقاليد الأمور فى بعض الأحيان ، ونزعت القبائل العربية الى الاستقلال عن قرطبة ،

---

(١١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٩٩ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٣٤ .

(١٢) ابن حزم برواية ابن حيان ، المقتبس ، جـ ٣ ، ص ٤١ ، الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٣٩ .

فانفرط عقد البلاد وصارت أشبه ما تكون بدول الطوائف فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى .

كما كان حب أمراء بنى أمية للعدالة وانقيادهم للحق حتى ولو كان على أنفسهم أو أقرب الناس اليهم من الصفات البارزة التى اتصفوا بها ، وكانت مصدرا قويا من مصادر قوتهم ، فقد اطمأن الخاص والعام الى حكمهم ، وتفرغ الناس للعمل فى شئونهم الزراعية والصناعية والتجارية ، فزادت ثرواتهم ونمت ملكياتهم وترقت حياتهم ، وأدت تلك السياسة الرشيدة الى نتيجة واضحة فى عهد عبد الرحمن الثانى ، فقد اقترنت ايامه بالهدوء وخلت من الثورات فتفرغ الى بناء الدولة واتخذ دارا للسكة بقرطبة ، وزادت هيبة الدولة وفخامتها ، وازدهرت الحياة فى سائر مناحيها . وازداد العمران وكثر بناء المدن والقرى وشق الترع وبناء القناطر(١٣) .

٣ ـ وكان لتركيز السلطة فى بيت الأمير الحاكم فقط وانتقال الحكم الى ابنه دون بقية أفراد الأسرة الأموية ، أثر كبير فى استقرار الأمور وفى قوة قرطبة وقدرتها على مقارعة الخطوب سواء فى الداخل أم فى الخارج . فلم يحدث أن تولى اخوة الأمير الحاكم عرش الامارة من بعده الا فى حالة واحدة ، هى انتقال الحكم بعد وفاة الأمير المنذر الى أخيه الأمير عبد الله عام ٢٧٥ هـ . عدا ذلك كان الحكم ينتقل بالوراثة من الأمير الى ابنه من بعده . حدث هذا طوال عصر الامارة ، وصار قاعدة سار عليها الأمويون حتى فى عصر الخلافة حتى عام ٤٠٠ هـ .

وكان الأمويون فى الأندلس أحوج الى الوحدة وتركيز السلطة على هذا الشكل أكثر من غيرهم من الأسر الحاكمة فى الأقطار الاسلامية

---

(١٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١١٣ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٤٦ ، ٥١ ، ١٤٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، مجهول ، اخبار مجموعة ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، جـ ٢ ، ص ١٥ ، ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، جـ ١ ، ص ١٤٦ .

الأخـرى ، بسبب طبيعة البلاد وتباين الأجناس والعناصر التى تقطنها ، وبسبب ملاصقتها لعدو لا ينى ولا يمـل من التطلع الى استرداد أرضه من مسلمى الأندلس مرة اخـرى . وكان أمويو الأندلس فى ذلك على خلاف أجدادهم من أموى الشام حيث كان الاخـوة يتولون منصب الخلافة ، مثال ذلك : بنو عبد الملـك بن مروان الاربعة ، الوليد ، وسليمان ، ويزيد وهشام . وكان أمويو الأندلس على خلاف العباسيين فى بغداد أيضـا فى هذه الناحية ، فقـد تولى الخلافة بنو الرشيد الثلاثة : الأمين والمـأمون والمعتصم ، وبنـو المتوكل الثلاثة : المنتصر ، المعتز ، والمعتمد(١٤) .

٤ ــومن عوامل قـوة أمراء بنى أمية أيضا : سياستهم الناجحة فى الاستعانة بالمولدين فى حكم الثغور واصطناعهم وتوجيه نشاطهم فى رد هجمات نصارى الشمال الأسبانى ، وضربهم بالعـرب اذا ما حاولوا التمرد والعصيان ، أو اذا ما تحالفـوا مع نصارى الشمال ضـد قرطبة ، وأول من نفـذ هـذه السياسة هو الأمير الحـكم (١٨٠ ـــ ٢٠٦ هـ) عنـدما استعان بعمروس الأول ابن يوسف ، وهو من المولدين فى القضـاء على ثورة بنى جلدته من المولدين فى طليطلة عام ١٩١ هـ/٨٠٧ م . وكان بنـو عمروس يعيشون فى مدينـة تطيلة بالثغر الأعلى (سرقطسة) وتعرضوا بذلك لهجمات النافاريين عام ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م الذين تمكنوا من أسر ولده يوسف ، فقاتلهم عمروس حتى خلص ابنه من أسرهم ، كمـا ساهم أيضا فى صـد خطـر الفرنجة على ثغـر طرطوشة الذى يقـع فى شرقى الأندلس على ساحل البحـر الأبيض المتوسط عام ١٩٣ هـ/٨٠٩ م(١٥) .

وكان الثغر الأعلى الأندلسى (سرقسطة) تحيط به الممالك النصرانية من الشـمال والشرق والغـرب ، وهو اقليم غنى بموارده الزراعيـة والتجارية ، وكانت أغلبية سـكانه من المولدين والنصارى من أهل الذمة ، مثل أسرة بنى قسى وبنى عمروس وبنى الطويل (شبروط) وهى أسرات

---

(١٤) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٦٢ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٤٠ .

(١٥) السامرائى ، الثغر الأعلى الأندلسى ص ٣٤٤ .

من المولدين الأسبان . ولم يتبع هؤلاء المولدون سياسة التعصب أو الشعوبية التى كانت ملحوظة عند مولدى الجنوب الأندلسى ، وانمـــا كانت تحكمهم مصلحتهم الخاصة . وكان بعدهم عن قرطبة وقربهم من أسبانيا النصرانية يكيف أوضاعهم السياسية ويؤثر فيها تأثيرا قويا(١٦) .

فكانت العلاقة بين مولدى الشمال وبين حكومة قرطبة ، تتأرجح بين الطاعة والعصيان ، وكان هؤلاء المولدون يحاربون نصارى الشـــمال الأسبانى أحيانا ويتحالفون معهم أحيانا أخـــرى . ولم تكـــن حروبهم هذه حبا فى بنى أميـــة أو كراهية لنصارى الشمال ، وانما كان ذلك لتحقيـــق مصالحهم الذاتية ، وحماية لنفوذهم وابقـــاء لسلطانهم على تلك المناطق من بلاد الأندلس . ولذلك : كانوا يتعرضون كثيرا لهجوم جيوش الامارة الأموية لاجبارهم على العـــودة الى الطاعة . ورغم ذلك فقـــد أدوا خدمات جليـــلة للامارة فى حفظ تلك المنـــاطق النائية من الوقـــوع فى قبضـــة أسبانيا النصرانية ، وفى بنـــاء الكثير من الحصون لحمايتهـــا ، وفى رد هجمات نصارى الشمال عن الثغـــور الاسلامية(١٧) .

وعندما حاولت تلك الأسرات من المولدين أن تنفصل عن قرطبـــة وتعلى عليهـــا التمرد ، والعصيان فى أواخر عصر الامارة ، قام أمراء بنى أمية بضربهم ببعض الأسرات ذات الأصل العربى ، مثل بنى تجيب الذين مكـــن لهم الأمير محمد (٢٣٨ ــ ٢٧٣ هـ) وبنى لهم قلعـــة أيوب ، واســـكنهم بهـــا .

ولمـــا عاد بنو قسى الى التمـــرد فى عهـــد ابنـــه الأمـــير عبـــد الله عام ٢٧٦ هـ ، استعان هـــذا الأمير ببنى تجيب هؤلاء ، وتمكنوا من الاستيلاء على سرقسطة وزاحموا بنى قسى ، وفرضـــوا نفوذهم على منطقة الثغـــر الأعلى منـــذ ذلك التاريخ(١٨) .

---

(١٦) Livermors, A history of Spain, P. 78

(١٧) ابن حيان ، المقتبس ، جـ ٣ ، ص ١٦ ، ٢٠ ، العذرى ، المصدر نفسه ، ٣٦ ، ٣٧ .

(١٨) ابن حيان ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٠ ، العـذرى ، المصـــدر نفســـه ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٦٣ .

وقد مكنت عوامل القـوة التى ذكرناها حتى الآن ، أمراء بنى أميـة من اتباع سياسة نشطة وناجحة فى علاقاتها بنصارى الشمال الأسبانى ، وبنصارى برشلونة من الفرنجة ، وأصبحت بلاد الأندلس مرهوبة الجانب بفضل سياسة أمرائها وقـوة شخصيتهم ، حتى هابهم خلفاء بنى العباس الأقوياء ، وقال أحـدهم : « الحمـد لله الذى جعل بيننا وبينهم بحـرا » وهابهم نصارى الشمال الأسبانى ، وهرعوا الى قرطبة مرارا يطلبـون السلام ويمـدون يـد المودة .

٣ ــ عـوامل الضعف وأثرها فى العـلاقات مع ممالك أسبانيا النصرانية :

لكنه كانت هناك أيضا : عوامل ضعف أثرت فى العلاقات بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية فى فترات معينة طوال عصر الامارة . ويمكن ان نلحظ تلك العوامل بين ثنايا سياسات الامراء الأمويين أنفسهم ، ومنها مايمكن أن يعـود الى تلك الفرقة العنصرية والدينية وللبيئـة الطبيعية والبعثرة الجغرافية التى كان لها أثرها فى انقسام البلاد الى اقاليم منفصلة تفصل بينها حواجز طبيعية ، تساعد على التمرد وتؤيد الانفصال عن السلطة المركزية فى قرطبة ، كما كان لوجود نصـارى الشمال الاسبانى وقـربهم واتصالهم بالثغور الاسلامية ، ما ساعد على التمرد وحرض عليه ، وأدى الى ضعف الحكومة الاسلامية فى قرطبة .

١ ــ وقد سبق أن ذكـرنا أن أمراء بنى أميـة الأوائل قد اقاموا حكمهم بحـد السيف ، وأنهم اقاموا حكما مطلقـا ، واتبعـوا جميـع وسائل البطش والعنف حتى مع أقرب الناس اليهم ، حفاظا على سلطانهم وتدعيما لحكمهم وارهابا لأعدائهم ، سـواء فى الداخل أم فى الخـارج ، واستعانوا فى ذلك بالموالى والصـقالبة .

ورغم نجـاح تلك السياسة فى تحقيق وحـدة الجبهة الداخلية ، وفى رد كيـد نصارى الشمال الأسبانى وردعهم ، الا أنـه كان لهـا خطرها من ناحيتين : أولاهما : أنه سوف يبرز خطـر الاستعانة بهـذه العناصر الأجنبية فى فترات الضعف فى أواخـر عصر الامارة ، بعـد أن

اصبحت تلك العناصر هى القـوة الضاربة للدولة ، وصارت تتحـكم فى توجيـه سياستها ، بعـد أن تراخت يد الأمراء الأواخـر فى القبض على زمامهـا .

وثنايهمـا : أن تلك السياسـة لم يألفها العـرب ، ولم يتعـودوا عليها . واذا كان الأسبان الأندلسيون قد راقتهم سياسة الحكم المطلق التى سار عليها امراء بنى أميـة ، لأنهم استطابوا ذلك والفوه منـذ العهـدين القوطى والرومانى ، الا أن العـرب بالتأكيـد لم يألفـوا ذلك ولم يعتادوه ، وكان يناسبهم العيش فى أقاليمهم واقطاعاتهم داخـل ما يشبه الجمهـوريات المنفصـلة ، ولم يكن يربط بينهم الا شعورهم بالخطر المشترك الزاحف اليهم من نصارى الشمال الأسبانى ، فكانوا ينفـرون اليه جميعا يدا واحـدة وقلبا واحـدا . وكان هـذا النمط من الحكومة هو ما يناسبهم وينسجم مع ما جبلوا عليـه من حب للحرية والاستقلال والأنفـة [١٩] .

ويعزو البعض كثرة الثوار فى دولة بنى أمية الى طبيعة العـرب والبربر ، وما طبعوا عليه من « علو الهمم وشموخ الأنوف ، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، اذ كان ما يحصل بالأندلس من العـرب والبربر يجعل بعضهم يأنف من الاذعان لبعض » ، ويجعل البعض الآخر من المؤرخين ذلك قاعدة عامة ويقول : « ان العرب متنافسون فى الرياسة وقلل أن يسلم أحـد منهم الأمر لغـيره ولو كان اباه او اخـاه ، أو كبير عشيرته ، الا فى الأقل ، وعلى كـره من أجل الحياء ، فيتعـدد الحـكام منهم والأمراء ، وتختلف الأيدى على الرعيـة فى الجباية والأحـكام ، فيفسد العمران وينتقص » [٢٠] .

---

(١٩) (19) Dozy, op. cit, p. 211.

انيس زكريا النصولى ، الدولة الاموية فى قرطبة ، ص ١٠٣ .

(٢٠) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ج ٢ ، ٣٦ ، ابن خلـدون ، مقـدمته ، ج ٢ ص ٤٥٥ .

ولذلك ليس عجبا أن يكثر المتمردون والعصاة من أشراف العرب والبربر ، حتى أن بعضهم كان يلجأ الى الخارج طلبا للعون ضد سلطان بنى أمية ، وكان البعض الآخر يعمد الى التآمر . وكان تآمر أفراد البيت الأموى ضد بعضهم البعض من الظواهر البارزة منذ بداية الدولة الأموية وحتى نهايتها ، وكان هذا مشجعا للثوار فى الداخل ، ولنصارى الشمال الأسبانى ، وادى ذلك فى النهاية الى ضياع أجزاء عزيزة من الأندلس الاسلامية والى خضوعها للسيطرة النصرانية(٢١) .

وكانت بداية الانحلال وضعف الأمراء وظهور الفساد وانتشار الظلم منذ أواخر عهد عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) . وتميز عهده بسيطرة زوجته طروب وفتاه نصر الخصمى ومغنيه زرياب . وتميز عهد ابنه الأمير محمد (٢٣٨ — ٢٧٢ هـ) بسيطرة وزيره هاشم بن عبد العزيز . وكان هذا الوزير رجلا حقودا مغرورا لا يعمل الا لمصلحته الخاصة ، سىء السياسة مع الجند حتى أنهم أسلموه ذات مرة الى الأعداء ، ونتج عن سوء سياسة ذلك الوزير أن كثر الاضطراب فى الدولة ، حتى أنها صارت دويلات منفصلة عند موت الأمير محمد عام ٢٧٢ هـ(٢٢) .

أضف الى ذلك : ما حدث من صراع خفى بين الوزراء وبين مساعدى الأمير من أهل الذمة مثل ربيع القومس الذى ظهر نفوذه فى عهد الحكم الريضى ، وقومس بن أنطوينان الذى ارتفع شأنه فى عهد الأمير محمد ، وما صحب ذلك من تآمر الوزير هاشم بن عبد العزيز عليه . وصار التآمر ظاهرة بارزة فى ذلك العصر بين رجال القصر والحظايا وأمهات الأولاد ، واقترن ذلك بانتشار الظلم والبغى على الرعية ، وساعد على ذلك ما آل اليه حال بعض القضاة والفقهاء الذين أخذوا

---

(٢١) ابن حزم برواية المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٧٢ ، ٧٣ ، الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ٢٩ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه جـ ٢ ، ص ٩٢ ، ١٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ، ٤ ، ص ١٢٤ Dozy, op. cit, p 204

(٢٢) الخشنى ، قضاء قرطبة ، ص ٩٠ ، ٩١ ، ١١٠ ،ابن سعيد ، المصدر نفسه جـ ١ ، ص ٥٢ ، ٥٣ ، المقرى ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٣٢٨ .

يتنافسون على تولى مناصب القضاء ، ومد بعضهم يده لقبول الرشوة ، فاختل ميزان العدالة وضعفت سلطة الدولة وازدادت آمال أسبانيا النصرانية فى استرداد الأندلس من المسلمين ، وازداد الخطر الخارجى ، وكثر الاضطراب الداخلى ، وتطلع الناس الى منقذ لهم من هذه الحال السيئة التى المت بهم فى أواخر عصر الامارة ، ولم يكن هذا المنقذ الا عبد الرحمن الناصر(٢٣) .

٢ — وكانت كثرة عناصر السكان وتنافرها من عوامل الضعف التى اثرت فى تفكك الجبهة الداخلية فى أواخر عصر الامارة وأدت الى سوء موقفها الخارجى تجاه أسبانيا النصرانية .

فقد كان يعيش على أرض الأندلس العرب بقبائلهم من يمن ، ومضر ، والبربر بقبائلهم المتنوعة أيضا ، الى جانب أهل البلاد الأصليين سواء كانوا من طبقة المولدين الذين اعتنقوا الاسلام ونشأوا عليه ، أو من طبقة النصارى المعاهدين الذين احتفظوا بدينهم وتقاليدهم ، لكنهم استعربوا لسانا وحياة ، وسموا لذلك بالمستعربين فيما بعد (٢٤) .

وكما لم يستطع القوط والوندال أن ينصهروا فى جسم الأمة الأيبيرية كذلك لم يستطع العرب ولا البربر أن ينصهروا معا أو مع أهل البلاد الأصليين فى عصر الامارة . وكان هذا من العوامل التى أدت الى ذلك الصراع العنيف فى عصر الولاة (٩٢ — ١٣٨ هـ) بين عنصرى العرب والبربر ، أما فى عصر الامارة (١٣٨ — ٣١٦ هـ) فقد بدأ هذا الصراع خافت الصوت أثناء الصدر الأول من عصر الامارة ، نظرا لقوة الأمراء وحسن سياستهم كما سبق القول ، لكن الصراع بين عناصر السكان جميعا لم يلبث أن ازداد وانفجر منذ أواخر عهد عبد الرحمن

---

(٢٣) ابن حيان ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٤١ الخشنى ، المصدر نفسه ، ص ١٠٥ ، ١١٠ — ١٢٣ ، ١٥٥ ، الحميدى ، جذوة المقتبس ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، المقرى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٢٤) احمد أمين ، ظهر الاسلام ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

الثانى (٢٠٦ ــ ٢٣٨ هـ) ، عندما ضعف الأمراء واصبحوا عرضة لتحكم الوزراء والعناصر الأجنبية من الصقالبة والحظايا من زوجات أمراء بنى أمية[٢٥] .

وقد تميزت تلك الفترة الأخيرة من عصر الامارة بثورات المولدين الذين كانوا يشكلون غالبية السكان فى الريف والمدن . وقد تمتع هؤلاء المولدين بالأمن والطمأنينة حتى قرب نهاية عصر عبد الرحمن الثانى ، واستعان الأمراء بهم فى الادارة والجيش ، وفى حكم الثغور الاسلامية وفى التصدى لنصارى الشمال كما سبق القول . وكانت هذه الطبقة من السكان تجنح الى السلم والطاعة طالما كان الأمراء أقوياء ، ولما ضعف أمراء بنى أمية الأواخر ، كشف المولدون عن مكنون صدورهم وأعلنوا العداء لحكام قرطبة وللعرب عامة ، واستغلهم بعض الثوار أمال ابن حفصون وابن مروان الجليقى وبنى قسى وهم أصلا من المولدين فى تحقيق أهدافهم واستقلالهم عن حكومة قرطبة[٢٦] .

وكان هؤلاء المولدون يغمرهم شعور بالكراهية للسكان والأمراء من العرب ، بسبب سوء معاملتهم لهم ، وبسبب تلك الضريبة التى كانوا يدفعونها لهم منذ أن كانوا عجما اى نصارى ، ولما أصبحوا مسلمين لم يكن من العدالة بقاء تلك الضريبة ، لكن العرب أصروا على دفعها لهم فقامت الفتن بينهما فى سرقسطة فى الشمال وفى اقليم رية فى الجنوب ، وفى كثير من المدن الأخرى مثل طليطلة وأشبيلية وبطليوس وماردة وباجة ومرسية ، فقل الخراج واضطرب الأمن[٢٧] .

---

(٢٥) والمثال على هؤلاء الخطايا هى طروب ، خطية عبد الرحمن الأوسط التى كان لها نفوذ كبير فى البلاط الأموى ، وكانت تعمل فى سبيل وصول ابنها محمد الى العرش وتتنافس مع زوجاته الأخريات وتتآمر مع حراس القصر وبطانة عبد الرحمن الأوسط لتحقيق هذه الغاية .

(٢٦) ابن حيان ، المقتبس ، جـ ٣ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢٧) ابن حيان ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٣ ، حسين مؤنس ، الحلة السيراء لابن الابار ، جـ ١ ، ص ١٥١ وعن للفتنة بين العرب والمولدين ، وثورة المولدين ضد امرائتى أمية ، أنظر ، ابن حيان ، المقتبس ،

وكان السبب المباشر هو مقتل أحد الزعماء العرب على يد بعض المولدين فى اقليم البيرة ، فانتشرت الفتنة انتشار النار فى الهشيم ، وثارت الأحقاد القومية بين العنصرين العربى والأسبانى خاصة بعد أن جنح أمراء بنى أمية الأواخر الى اصطناع بعض الأمراء العرب ضد المولدين ، وانتهز نصارى الشمال الأسبانى الفرصة وأخذوا يحرضون هؤلاء المولدين ومن ينضم اليهم من النصارى من أهل الذمة ويمدونهم بالمساعدة حتى يقوضوا حكم بنى أمية وتعود البلاد الى النصرانية مرة أخرى(٢٨) .

٣ ــ وقد ساعد على ذلك ما تختص به بلاد الأندلس من عوامل طبيعية وبيئة جغرافية . ذلك أن هذه البلاد عبارة عن شبه جزيرة يقسمها من الوسط جبل الشارات ، ويتميز الجنوب عن الشمال ، فلكل منهما طابعه المناخى ، فالجنوب له مناخ الشمال الافريقى أو حوض البحر المتوسط ، والشمال له مناخ أوربا ببردها وصقيعها . وقد اثر ذلك التنوع فى المناخ فى أمزجة الناس وطباعهم حتى أنك لتجد الأسبانى الشمالى يتصف بالخشونة والقسوة والعصبية بخلاف الأسبانى الجنوبى الذى يتصف بالهدو والمسالمة . وكان هذا من العوامل التى زادت من التناقض بين سكان الأندلس ، وبينهم وبين سكان اسبانيا النصرانية ، وساعد على استمرار هؤلاء الأسبان فى مقاومتهم لمسلمى الأندلس عدة قرون(٢٩) .

جـ ٣ ، ص ٦١ ــ ٦٤ ، ٦٩ ــ ٨٥ ، ابن الابار ، الحلة السيراء جـ ١ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ــ ١٥٧ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٤ ــ ١٥٧ ، ١٧١ ــ ١٧٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٤٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،
Dozy, op. cit, pp. 355 - 366, 318 - 382

(٢٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٣٢ ، مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ١٥١ ، حتى تاريخ العرب (المطول) ، جـ ٢ ، ص ٦٧٨ .

(٢٩) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ١٣٣ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ص ٤ ، محمد كرد على ، غابر الأندلس وحاضرها ، ص ١٦٠ ،
Crow, Spain, the root and the flower, p. 6

كذلك كان لطبيعة الأرض حتمية معينة لا تظهـر الا فى أوقـات الضعف السياسى ، ذلك أنهـا تتكون من وديان طويلة توازى الأنهار الكثيرة التى تمتد من الشرق الى الغـرب أو العكس ، وتفصـل هـذه الوديان بعضها عن البعض الآخر سلاسل جبلية تسير فى نفس الاتجاه وتقطع الجزيرة بالعرض ، وقد أدى ذلك الى انقسام البـلاد الى أقاليم تتميز بشخصتيها جغرافيا ومناخيا وثقافيا واقتصاديا ونفسـيا ، حتى أنك لو سألت أسبانيا عن وطنه ، لرد على الفور Soy hijo de Galicia أو لقـال لك Soy hijo de Granada ومعنـاه أننى ابن لغاليسيا (جليقية) أو ابن لغرناطة ، أو أشتورية أو ليـون أو نافار أو بلنسـية أو الأندلس وهـكذا[30] .

وهـذه البيئـة الطبيعية والجغرافيـة ساعدت على اثارة النعرة الاقليمية ، والحركات الانفصالية قديما وحديثا ، وادت الى تنوع غريب فى العادات ، والتقاليد ، ورغم أن الاسلام قد طبـع البلاد بطابع جديد وأذاب عوامل التميز والخلاف الا أنه قد بقى منهـا ما يكفى لجعلهـا أتـونا لحرب أهلية عند أول اشارة . وكان الثـوار والمـارقون ضد قرطبة يعلنون عصيانهم لهـا ، وهم آمنون مطمئنون خلف حصونهم ، وجبالهم الشاهقة أو أنهارهم الكثيرة المتعـددة الفروع والمصادر ، مما كان يشـكل عقبة أو عائقا أمام جيـوش الامارة اذا ما حاولت أن تقضى على ثورتهـم أو تمـردهم[31] .

أما جبل الشارات الذى ورد فى هـذه الفترة ، فهو سلسلة جبال تسمى ومها جاء لفظ « شارة » وجمعها « شارات » ، وتمتـد من مدينة سـالم الى قلمرية فى البرتغال وكانت لفظة الشارات تطلق ايضا على كورة أو اقليم يسمى اقليم الشارات ، من اعماله مدن طلبيرة وطليطلة ومجريط واقليش ووادى الحجارة ، ووبذة . انظر ، القلقشندى ، صـبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٣ ، شكيب ارسلان ، الحلل السندسية ، ج ٢ ، ص ٣٤ ، محمـد الفاسى ، الاعلام الجغرافية الأندلسية ، ص ٣٤ ، دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثالث ، ص ٣٩ .

(٣٠) Crow, op. cit, p 2

(٣١) ابن غالب ، المصـدر نفسه ، ص ٣٠٧ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤ .
Crow, op. cit, p. 3
Chapman, A history of Spain, p. 5

٤ — فاذا أضيف الى هذه العوامل التى تحدثنا عنهـا حتى الآن ، قـرب الأندلس أو ،تصالها بالممالك النصرانية فى الشـمال الأسبانى لأدركنا على الفـور صعوبة الموقف أمام أى حاكم فى قرطبة . وكان على هؤلاء الحـكام أن يضعوا فى اعتبارهم دائمـا أن شبه الجزيرة لم يعـد ملكا خاصا بهم ، وأن أى ثائر يمكنه أن يلقى العـون والمساعدة من ملوك نصارى الشـمال الأسبانى . ولذلك اتبع أمراء بنى أميـة وخلفاؤهم فيمـا بعـد أسلوب اللين ، والمداراة ، مع الثـوار ، وخاصة : فى الثغور الاسلامية فى الشمال ، واتبعوا معهم أيضا أسلوب الاصطنـاع ، فكـانوا يصطنعون قوما ليضربوا بهم آخرين كما سبق القول(٣٢) .

وكان ملوك أسبانيا النصرانية يعملون دائمـا على خلق المشـاكل والفتن والأزمات لحكومة قرطبة ، وذلك بمساعدتهم لثوار المولدين وغيرهم . وكانت مساعدتهم لمولدى طليطلة الذين كانوا دائمى التمـرد ضد قرطبـة واضحة ومستمرة ، وفى احـدى ثورات مولدى طليطلة أرسل اليهم أردونيو ابن الفونسو الثانى ، ملك جليقيـة واشتريس جيشا بقيـادة أخيـه غشـون Gaton فأوقعت بهم قوات الأمير محمـد عام ٢٣٨ هـ وقتلت ثمانية آلاف(٣٣) .

كذلك استعان ابن مروان الجليقى الثائر فى ماردة وبطليوس فى عهـد الأمير محمـد (٢٣٨ — ٢٧٢ هـ) بألفونسو الثالث بن أردونيو الأول ملك جليقيـة واشتريس ، واستطاع أن يهـزم جيشا للأمير محمـد كان تحت قيادة ابنه المنذر ووزيره هاشم بن عبد العـزيز عام ٢٦٢ هـ ، وتمكـن الجليقى من أسر هذا الوزير وارساله لمـلك جليقية . ولمـا أرسل الأمير محمـد جيشا لتأديب ذلك الثائر والقضاء عليه عام ٢٦٣ هـ فـر الى الفونسو وأقام فى كنفه فى جليقية ثمانى سنوات ، ولذلك سمى : بالجليقى ،

---

(٣٢) ابن حيان ، المقتبس ، جـ ٣ ، ص ٢٠ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٦ .

(٣٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ — ١٤٤ ، ١٦٦ — ١٦٩ ، Livermore, op. cit, p. 77

ثم عـــاد الى ماردة وبطليوس عام ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م ، ولمـــا لم يتمـــكن الأمير محمـــد من هزيمته اضطر الى الاعتراف باستقلاله بتلك النواحي منـــذ ذلك التـــاريخ(٣٤) .

كذلك استعان بنو قسى المولدون وحـــكام الثغر الأعلى بملوك نبرة بعـــد أن ساءت العلاقات بينهم وبين أمراء بنى أميـــة فى أواخـــر عصر الامارة . فقـــد هاجم موسى بن موسى القسوى أرباض مدينـــة تطيلة وطرسونة وبرجة عام ٢٣٥ هـ بمساعدة ملك نبرة (نافار) بعـــد أن تم التحالف بينهما ، وتكـــررت هذه المساعدة وذلك التحالف بين بنى قسى وبين ملوك نبرة ، وخاصـــة عندما استعان أمراء بنى أميـــة الأواخـــر بأسرة بنى تجيب العربية فى قمـــع شوكة هؤلاء المولدين(٣٥) .

واستعان بنو عمروس المولدون أيضـــا بملوك نبرة عنـــدما ساءت العلاقات بينهم وبين الأمير محمد عام ٢٥٦ هـ . ولمـــا أسرت قوات الأمير محمد بعض أفراد أسرة بنى عمروس واعدمتهم فى سرقسطة ، اســـتنجد عمروس الثانى بغرسية بن ونقة ملك نبرة لكى يساعده ضـــد قـــوات الأمير محمد ، وكى يسترد مدينة وشـــقة ، مركز حكمه وسلطانه ، والتى كانت قد ضاعت منه ، واستولى عليها بنو قسى ، الذين قاموا هم الآخرون بمحالفة ملك نبرة ومصاهرته ، حتى يضمنوا سيطرتهم على المدينة(٣٦) .

وان دلّ هذا على شيء فانمـــا يدلّ على أن الاتصال والملاصـــقة بين الثغور الاسلامية وبين ممالك اسبانيا النصرانية كان عامل ضـــعف واستنزاف لقوة حـــكومة قرطبة على مدى التاريخ . وسوف يتضـــح

---

(٣٤) ابن حيان ، المقتبس ، جـ ٣ ، ص ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ابن عـــذارى ، المصـــدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ .

Livermore, op. cit, p. 77

(٣٥) العـــذرى ، المصـــدر نفسه ، ص ٣٠ ، ابن حيان ، المصـــدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٠ .

(٣٦) العـــذرى ، المصـــدر نفسه ، ص ٦٢ – ٦٤ ، ابن عـــذارى ، المصـــدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

تماما أثر عوامل القوة والضعف التى أشرنا اليهـا حتى الآن عندما نتحدث عن العـلاقات بين مسلمى الأندلس وأسبانيا النصرانية بعد قليـل .

٤ ــ المقـاومة النصرانية فى الأندلس الاسلامية وارتباطها بنصارى الشمال :

وتعتبر هـذه المقاومة من العوامل التى أضعفت حكومة قرطبة فى عهـد الامارة الأخير وشغلتهـا الى حـد كبير عن التصـدى لنصارى الشمال . وتتمثل المقـاومة النصرانية داخل الأندلس الاسلامية فى حركات الاستشهاد التى قام بهـا بعض المسيحيين فى قرطبة وعـدد من المدن الأخرى ، ودفعوا بسببها حياتهم ، اعتقادا منهم بأن ذلك يعـد نصرة للدين واستشهادا فى سبيل العقيدة ، وأنهم سوف ينالون ملكوت السموات ، وهو ما يمثل الجانب السلبى من المقاومة ضـد الحـكم الاسـلامى . أما الجانب الايجابى : فيمثله معاونتهم للمولدين فى ثوراتهم ضـد أمـراء بنى أمية وضد العرب والمسلمين بصـفة عامة ، ومساندتهم لنصـارى الشمال الأسبانى بخلق المشاكل والصعوبات أمام حكومة قرطبة ، حتى يتمكن هؤلاء النصـارى من استعادة البلاد شـيئا فشيئا .

لكن ما هى الدوافع التى دفعت نصارى أهل الذمة[٣٧] الى السـير فى هـذا الاتجاه ؟ وهل هى نفس الدوافع التى دفعت عناصر العـرب والبربر والمولدين ، والتى أشرنا اليهـا من قبل ؟ وماذا كان وضع هؤلاء النصارى بعد الفتح الاسلامى للبلاد ، وهل كان الفتح نعمـة أم نقمـة بالنسبة لهم ؟ واذا كان نعمة بشهادة معظم المؤرخين فلماذا فعلوا ذلك ؟

---

(٣٧) كان المسلمون يطلقون على أهل الأندلس جميعـا اسم العجم أو عجـم الأندلس وربمـا أطلق اسم الروم ، وأن كانت هـذه التسمية نادرة الاستعمال ، فلمـا تمكن سـلطان المسلمين ، أصبحوا يسمون عجم الذمة أو للذمة أو اهـل الذمة ، فمن كان منهم له عهـد ، سموا بالمعاهدين ، وربمـا قالوا المعاهـدة من النصارى ، أو النصارى المعاهدين . وقـد أطلق بعض المؤرخين المحدثين عليهم لفظ المستعربين وهى تسمية خاطئة ، لان هـذا اللفظ لم يرد فى الكتـابات الا فى القـرن الثانى عشر الميـلادى ، ظهر فى الكتابات اللاتينية أولا ، ثم انتقل الى كتاب الاسبان انفسهم . أنظر ، حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٢٤ ، ٤٣٧ .

اولا : سياسة بنى أمية تجـاه النصـارى المعاهدين وعوامل تمردهم :

بداية نقول : أن الفتح حسن أحـوال الناس الاقتصادية ، وأنه إحدث ثورة اجتماعية .

وأما فى الناحية الدينية : فتسامح العرب اعترف بـه كتـاب إلنصارى أنفسهم . فلم يفرض المسلمون على نصارى أهـل الذمة الا الجـزية والخـراج . والخراج هو ضريبـة الأراضى التى كانت تتفـاوت حسـب قدرة انتاج الأرض ، وقد فرضت بعـدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعـا .

أمـا الجـزية : فلم تكـن مفروضـة على جميـع المسـيحيين بل أعفى منها النساء والأطفال والرهبان والمقعـدون والمرضى ، والعبيد ، فى توجيه سياستها ، بعـد أن تراخت يد الأمراء الأواخـر فى القبض وكانت تتراوح بين ٤٨ درهم ، ١٢ درهم(٣٨) .

هذا وقد ظفر المسيحيون وغيرهم من المولدين بحق لم يكن لهـم أيام ملوك القـوط ، اذ انهم احتفظوا بالجزء الأعظم من ثرواتهم وعقاراتهم وأصبح لهم الحق فى توريثهـا أو نقلهـا لغيرهم ، مما هيأ لهم جـوا من الحـرية لم يحلموا به من قبل ، ومن ثم فقـد ازداد الانتـاج خاصـة بعـد أن قام الفاتحون الجـدد بقمع عناصر الشر والفوضى والقضـاء على طبقة النبـلاء ، وتحرير العبيد وأقنان الأرض من سيطرتهم ، وتنظيم ادارة البلاد ، ولذلك نشطت الزراعة والصناعة والتجـارة ، وهبت ريح من الرخـاء والدعة على مجتمـع أضـناه العسف والفـاقة مـدى عصـور(٣٩) .

ومن الناحية الاجتماعية ، كان الفتح ثورة اجتماعية ، فقـد خلص الأهالى من عسف طبقة النبـلاء ورجال الاكليروس الذين كانوا يحـوزون غالبية الأرض ، على شكل ضياع واسعة أو اقطاعات كبيرة يعمـل فيها

---

(٣٨) Dozy, op. cit, p. 234, 235

لين بول ، قصة العرب فى اسبانيا ، ص ٣٩ ، حتى ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٠٧ .

(٣٩) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ملحق كتاب دوزى المسمى ص ٣ – ٦
Recherches sur L'Histoire et la Litterature de L'Espagne

الرقيق وعبيد الأرض الذين كانوا يعاملون معاملة السوائم . ليس هـذا فقـط فقـد أعطاهم الفتح نصيبا من الانتاج ، وأعظم من هذا أعطاهم حق العتق من العبـودية ، ولم يكـن على العبد الا أن ينطق بالشهادتين حتى يصير حـرا ، رأسه برأس النبيل الذى كان يسومه سـوء العذاب من قبـل[٤٠] .

لذلك : كان الاقبال على الاسـلام عظيمـا بين هـذه الطبقـات الفقيرة بالذات ، ومع هـذا فقـد سمح الاسلام بوجود الديانات الأخرى ، واحتفظ النصارى بتنظيماتهم الاجتماعية وبقانونهم الخاص وبحق المحاكمة أمام قضـاة من بنى جنسهم ، ولم يرتدوا الملابس التى تميزهم عن غيرهم من طبقات الشعب ، واتخذوا الأسماء العربية بجانب الأسماء اللاتينية ، وتعلموا العربية ونبغ بعضهم فيهـا ، وبلغ استعرابهم درجة أخـذوا معها يختتنون أولادهم ويطبقون نظام الحـريم فى بيوتهم ، بل أنه لم يمض على الفتح أكثر من خمسين عاما حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم الى العربية حتى يفهمها النصارى ، لأن هؤلاء زهـدوا فى اللاتينية واقبلوا على تعلم العربية بشغف واهتمام[٤١] .

وقد ترك العرب للجماعات النصرانية أيضا نظامها المـدنى الذى كان موجودا أيام القوط ، وكان عليهم أن يختاروا من يقـوم بجمـع ضرائبهم ومن يمثلهم أمام الحـكومة الاسلامية ويدير شئونهم فى المـدن والأرياف ، وهو ما كان يعرف بالقومس Comes[٤٢] ، واكتفى العرب

---

(٤٠) Dozy, A History of the Moslems in Spain, pp. 236, 237

(٤١) حتى ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٤٦ ، محمد كرد على ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٧٧ ، Livermore, op. cit, p. 74

(٤٢) قومس كلمة لاتينية ، وهى Comes ، والقومس فى الأصـل مرافـق الملك ونديمه ، ثم صارت هـذه التسمية فى أيام القـوط بأسبانيا والافرنج بغرب أوروبا خاصـة بولاة الكور ، ومنها اشتق اللفظ الأسبانى Conde واللفظ الفرنسى Comet ، وفى بعض التواريخ الاسلامية يوجـد لفظ «قمط» عـوضا عن « قـومس » ، وجمع « قمط » « اقمـاط » ، وجمع قـومس « قـوامس » وكانت للوظيفة أو المنصب يسمى القمامة » • انظر ، ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ، ص ٢٩ ، ليفى بروفنسال ، جمهرة انساب العرب لابن حزم ، ص ٤٦٧ •

باختيار القومس الأعلى وهو الملقب بقومس الأندلس ، وكان أول من عين فى هذا المنصب هو أرطباس بن غيطشة . وبذلك وجد فى الأندلس من أول الأمر نظامان اداريان جنبا الى جنب ، واحد :: للمسلمين وآخر للنصارى كما صار النصارى يتمتعون بحق اختيار قساوستهم وهو ما لم يعرفوه أيام القوط(٤٣) .

ولم يترك المسلمون للمسيحيين فى الأندلس نظامهم المدنى والادارى فقط ، بل انهم استعملوهم أيضا فى الجهاز الادارى للدولة الاسلامية نفسها ، ووصل بعضهم الى أسمى المناصب وأخطر المراكز ، حتى ادى ذلك فى بعض الأحيان الى فتن وثورات ومشاكل واجهت أمراء بنى أمية واقضت مضاجعهم . فقد وثق الأمير الحكم (١٨٠ ــ ٢٠٦ هـ) فى أهل الذمة ، حتى أنه عين منهم ومن عنصر الصقلب ونصارى الشمال حرسه الخاص ، بل كان وصيفه المفضل اسبانيا مسيحيا ، وهو الذى قام بكشف المؤامرة التى تعرض لها الأمير الحكم عام ١٨٩ هـ(٤٤) .

كما جعل قائد حرسه أو قائد الغلمان الخاصة (ربيعا القومس) ، وكان هذا النصرانى محبوبا من الأمير الحكم حتى أنه فوضه فى فرض الضرائب على المسلمين واهل الذمة ، فكرهه الجميع ، وادى ذلك فيما أدى ، الى قيام الفقهاء وأهل الربض بقرطبة بثورتهم المشهورة ضد الأمير الحكم عام ٢٠٢ هـ ، لذلك ما أن تولى عبد الرحمن الأوسط الحكم حتى امر بصلب هذا القومس(٤٥) .

---

(٤٣) ابن القوطية ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٤٧،٤٦١ .

(٤٤) Dozy, op. cit, pp. 245

(٤٥) يجعل البعض صلب هذا القومس على يد عبد الرحمن الأوسط (أنظر ، ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٨٨) ، بينما يجعله آخرون فى عهد ابيه الأمير الحكم ، (انظر ، ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ١٤١) وتابعة على ذلك الأستاذ محمد عبد الله عنان (أنظر ، دولة الاسلام فى الاندلس ، ع ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٥) . والحقيقة ان صلب هذا القومس تم على يد الأمير عبد الرحمن الذى تولى السلطة قبيل وفاة والده الحكم ، لذلك : تم هذا الأمر وكان الحكم ما يزال حيا ، (انظر ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار ، ج ١٥ ، قسم ٢ ورقة ٣١٥) .

ورغم اشتداد حركة الاستشهاد المسيحى فى عهـد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ هـ ـ ٢٣٨ هـ) ، الا أنه لم يتخل عن سياسته فى التسامح واستخدام أهل الذمة والثقـة بهم . بل تعـدى الأمر الى أنه عـزل أحد القضاة بسبب شهادة شيخ أعجمى اللسان من نصارى أهل الذمة . وتابع ابنه الأمير محمـد (٢٣٨ ـ ٢٧٢ هـ) سياسة والده وأقر القومس جـومس Gomez ابن انطونيان فى منصبه فى القماسة ، كما استخدمه كاتبا أثيرا لديه ، حتى أنه كان المدير الفعـلى للوزارة مدة طويلة أثنـاء المرض الطويل للوزير عبد الله بن أميـة . ولمـا مات هـذا الوزير سمع الأمير محمد يقول : « لو كان جومث من أهل ديانتنا لكنت قـد عينته وزيرا بكل سرور » ، عندئذ أعلن جومث اسـلامه وحصل على أسـمى منزلة فى بلاط الأمير محمـد(٤٦) .

لم يبال الأمير محمد باعتراض الفقهـاء وسخطهم من تلك السياسة ، ولم يبال أيضـا بما كان ينعت به المشارقة بنى أميـة من استخدامهم للنصارى فى بلاطهم ، وتوليتهم أسمى المناصب ، وفاتهم أن البـلاد بهـا أقلية نصرانية كبيرة لهـا وزنها وشأنها وخطرها ، وكان على الحـاكم أن يتعاون مع أهل البلاد بصفة عامة ، خاصة وأن العرب كانوا أقليـة ، وأنهم أخذوا فى الذوبان فى هـذا المجتمـع نتيجة للزواج والاختلاط وانقطاع الهجرات العربية الى الأندلس بعـد استقلال بنى أمية بهـا ومعاداتهم لبنى العبـاس .

لكن تلك السياسة جلبت بعض المشـاكل فى الداخل لبنى أمية ، وقد سبقت الاشارة الى ما سببه ربيع القومس للأمير الحـكم . وقـد تسبب أيضا قومس بن أنطونيان (جومث بن انتنيان حسب الرواية العربية) فى ايجاد بعض المشـاكل للأمير محمـد ، اذ قام الصراع بين هذا النصرانى وبين الوزير هشام بن عبد العـزيز بعد أن « ظهر فضل أدب قومس ، وتولى الكتابة ، واضطلع بالأثقال ، وخاطب ونبه ، وعارض فى الأمور ،

---

(٤٦) الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ٨٤ . Dozy, op. cit, p. 300

ولم يرض أن يكون تابعـا لغيره ، ولا مستخذيا لسواه » . وقد خـاف قومس من بطش الوزير واعتكف فى منزله ، ولما مات حاول الوزير مصادرة أمواله لصالح بيت المـال بحجة أنه ارتد ومات على النصرانية ، لكن القاضى أنصفه بعـد مماته ، وأيده الأمير محمـد فى حكمه ، ولم يستطع الوزير أن ينـال منه أو من ورثته[٤٧] .

استخدم أمراء بنى أميـة أيضا : نصارى أهل الذمة فى الجيش ، وأشركوهم فى الغـزو بلا عطاء كمتطوعين ، وكان النصارى يطمعون فى غنائم الحرب وأسلابهـا حتى لو كانت ضد مواطنيهم من نصارى الشمال . كما كان الأمراء يؤلفون منهم قـوات احتياطية يستعينون بهـا اذا خرجت جيوشـهم للغزو[٤٨] .

كذلك كان مذهب مالك وهو المذهب المنتشر فى تلك الأنحـاء متسامحا جـدا فى نصوصه تجاه أهل الذمة ، فقـد ورد فى المدونة الكبرى لابن سحنون المستقاة من فقـه مالك نصوصا كثيرة فى هذا المعنى ، اذ كان للنصارى حق الشفعة ، وكان المرتدون لا يحكم عليهم دائمـا بالموت ، وكان يعاقب المسلم اذا كسر آنيـة الخمر لذمى دون الرجوع للحاكم[٤٩] .

اذا كانت تلك هى سياسة بنى أميـة تجاه النصـارى من أهل الذمة ، واذا كانت هـذه هى ثمـار الفتح وقطوفه الدانية ، فما الذى جعـل هؤلاء الناس يقومون فى النصف الثانى من عصر الامارة بمـا قاموا به ؟ هل كان هناك تعصب اسـلامى ضدهم ؟ هل أكرههم العرب على الاسلام ؟ هل تعرضوا لكنائسهم أو أديرتهم ؟ هل منعوهم من اقامة شعائر دينهـم ؟ الواقع يقـول : بغير ذلك ، ولو كان العرب متعصبين لمـا سمحوا لأنفسهم

---

(٤٧) الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ١١١ ـ ١١٣ .

(٤٨) ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، ص ١٠٩ ـ ١١١ ، مانويل جـوميث مورينو ، الفن الاسلامى فى أسبانيا ، ص ٧ د. حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ٦٠٢ .

(٤٩) سحنون : المدونة الكبرى ، ج ٤ ، ص ٢٣٦ ، ابن عبدون ، المصدر نفسه ، ص ٩٥ ترتون ، أهـل الذمة فى الاسلام ، ص ٢٥٦ .

باستخدام أهل الذمة فى مناصب الدولة العالية ، سـواء فى الجيش أم فى الادارة ، ولمـا ائتمنوهم على أرواحهم ، اذ كان أمراء بنى أميـة كما أسـلفنا القول يجعلون المسيحيين من بين حراسهم ، ولو كان المسلمون متعصبين لمـا كانت هناك تلك الأقلية النصرانية الكبيرة العـدد والتى ازداد غناها وثراؤها يوما بعـد يوم ، نتيجـة لحـكم المسـلمين الذى اتسم تجاههم بالعـدالة والسماحة والانصاف .

لم يكـره المسلمون أحـدا من الأسبان على الدخـول فى الاسلام ، بل تركوا لهم حرية البقـاء على دينهم مع دفـع الجزية أو الدخـول فى الاسلام ، وكان الأسبانى يعلن اسلامه وهو يعـلم تمـاما أن المرتـد عقـوبته الموت ، لذلك كان اسلامه عن اقتناع ورضى دون اكراه أو تهديد . لذلك : اعترف الأسبان مولدون ، ونصارى ، بأنهم يؤثرون حـكم العـرب على من عداهم من الافرنج أو القوط(٥٠) .

وقد بلغ تسامح العـرب حدا جعلهم يبيحون لدعاة النصرانية أن ينشروا دينهم ، بل بلغت الحـال ببعض المتحمسين منهم أن كانوا يقفون على أبواب بعض المساجد لاقناع المسـلمين بالدخول فى دينهم . وسمح المسلمون لهم أيضا بعقـد مؤتمراتهم الدينية ، كمؤتمـر أشبيلية النصرانى الذى عقـد فى سنة ١٦٦ هـ/٧٨٢ م ، ومؤتمر قرطبة النصرانى الذى عقـد فى عـام ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، كما سمحوا لهم أيضـا : ببناء الكنائس والأديرة . وتعـد بيع النصارى الكثيرة التى بنوها أيام الحـكم العربى من الأدلة على السماحة الدينية لمسلمى الأندلس(٥١) .

ورغم ذلك يحمل الأستاذ دوزى على سياسة العـرب الاسلامية فى الأندلس ، ويرجع اسلام أهالى البـلاد الى أن المسـيحية لم تكـن

---

(٥٠) Dozy, op. cit, p. 235
Chapman, op. cit, p. 40

(٥١) غويستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٢٩٦ ، محمـد كرد على ، غابر الأندلس وحاضرها ، ص ٤٢ .

متمكنة فى قولبهم ، وأن المسيحية لم تكن عميقة الجذور فى البلاد ، وأنها كانت ما تزال تتنازع البقاء والوجود مع الوثنية هناك ، ولذلك أسلم الأقنان والعبيد . أما اسلام النبلاء — فى نظره — فلكى يهربوا من ضريبة الرأس ، أى : الجزية ، أو ليحافظوا على ممتلكاتهم عندما ينقض العرب عهودهم أو لأنهم اعتقدوا باخلاص فى تعاليم الاسلام(٥٢) .

ويواصل دوزى هجومه قائلا ان الكنيسة لم تكن حرة فى عقد مؤتمراتها أو فى تعيين أساقفتها ، وأن أمراء بنى أمية كانوا يفرضون أعوانهم من الأساقفة على الكنائس ، وأن بعضا من هذه الكنائس قد اختفى أو تحول الى مساجد ... الخ(٥٣) .

ومهما كانت دوافع الناس الى اعتناق الاسلام ، الا أنهم أخلصوا فى اسلامهم وتعصبوا له أكثر من العرب أنفسهم . ولم يفرض المسلمون الأساقفة على الكنائس ، بل تركوا هذا للمسيحيين أنفسهم ، والدليل على هذا أن العرب كانوا قد أقاموا حليفهم أبه (عباس) مطرانا للبلاد ، لكن الأهالى لم يرضوا به وأقاموا مطرانا آخر يسمى أوربانو Urbano فلم يعترض المسلمون وأقروهم على ذلك(٥٤) .

أما اتخاذ الكنائس مساجد ، فان ذلك لم يتم قهرا أو اقتدارا ، بل دفعت الدولة التعويض الكافى لكى تبنى كنيسة بدل التى أخذت ، فعل ذلك عبد الرحمن الداخل ، واعترف به دوزى نفسه . كما سمح المسلمون باقامة الكراسى الكنسية فى المدن الجديدة مثل بطليوس وغيرها رغم قربها من قورية وماردة ، وكان فى كل منهما كرسى كنسى . ولم يكن اختفاء الكراسى الكنسية الا نتيجة للتعديلات الادارية التى استدعاها وضع الدولة الجديدة ، والتى أدت الى خمول بعض المدن وهجرة

---

(٥٢) Dozy, op. cit, pp. 237 - 238

(٥٣) Dozy, op. cit, pp. 238 - 239

(٥٤) د. حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٥٠٦ .

الناس منهـا الى غيرها ، فلم تعـد تستحق أن يقـوم فيها كرسى كنسى ، وكان يحـدث نفس الشيء اذا انتقلت مدينة من كورة الى أخـرى(٥٥) .

من هنا يتضح لنا تماما أن سياسة العرب الدينية كانت تقوم أساسا على مبدأ التسامح والحرية الدينية ، وعلى احـترام مشاعر النصارى . فما الذى جعـل هؤلاء يقومون بتلك الحـركات الانتحارية ؟ التى تسمى بحركات الاستشهاد الذى جعلهم أيضا يقـدمون العـون والمساعدة لأولئك المتمردين من المولدين ، ويساهمون بشـكل غير مباشر مع نصارى الشمال الأسبانى فى كفاحهم ضـد الحكومة الاسلامية فى قرطبة ؟

انه لغريب حقا أن يمتد لهيب الفتنـة الى نصارى أهل الذمة فى قرطبة ثم يمتـد الى كثير من المـدن والنواحى ، لا سـيما وأن هؤلاء النصارى لم يعانوا من اضطهاد دينى أو ظلم اجتماعى أو حيف اقتصادى . صحيح أن أعدادهم كانت كبيرة فى القـرى والمـدن رغم الأشواط البعيـدة التى قطعتهـا الحـركة الاسلامية فى عصر الولاة وعصر امارة بنى أمية ، الا أن قـوة نصارى أهل الذمة كانت تكمـن فى مقـدرتهم الاقتصادية ، اذ أنهم جنـوا ثروة كبيرة باشتغالهم فى الزراعة والصناعة وبالأعمـال التجارية ، وكان العـرب يأنفون من الاشتغال فى تلك الأعمال ، كمـا انشغلوا بالصراع فيما بينهم وبين البربر والمولدين فى عصر الامارة الأول ، فتركوا تلك الميـادين للنصارى يصولون فيها ويجولون .

اذن لم تكـن ثورة هؤلاء النصارى لزيادة ثروة أو مضاعفـة جاه ، انما كانت لتحقيق مطالب أخـرى ولعوامل يمكن توضيحهـا : وأولى هذه العوامل عامل نفسى يتعلق بتدفق الحـركة الاسلامية وانتشار حـركة الاستعراب انتشارا أفـزع المتعصبين من القسس والرهبـان ، اذ رأوا أن أعـداد المسيحيين تتناقص باستمرار حتى صاروا اقليـة فى وطـن كانوا يعتبرون أنفسهم هم أصحابه الحقيقيون ، وغاظهم فى نفس الوقت

---

(٥٥) د. حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، حتى ، المرجع نفسـه ،
Dozy, op. cit, p. 239

ارتفاع شأن مواطنيهم ، من الأسبان الـذين اعتنقوا الاسلام فامتـلات نفوسهم بالحقد ، والكراهية ضد الاسلام (٥٦) .

لقـد اندفع شباب النصارى فى حركة الاستعراب اندفاعا أفقـد المتعصبين النصارى صوابهم ، حتى جـأر أحدهم بالشـكوى من أن شباب المسيحيين صاروا يلتهمون الشعر العربى ومؤلفـات العـرب من فلسفة وأدب ، ليس بهـدف تفنيدها بل لتصحيح أسلوبها العـربى ، وأنهـم هجروا كل ما هو مكتوب باللاتينية حتى الكتاب المقدس ، لقـد نسـى المسيحيون لسانهم حتى أن الواحد منهم كان لا يجـد من يكتب له خطابا بلغة لاتينية صحيحة ، لكنهم يعبرون عن انفسهم باللغـة العربية الفصحى ، حتى أنهم يقتبسون الشعر العربى لتوضيح مراميهم فى الكتـابة أكثر من العـرب أنفسهم(٥٧) .

وكان الاستعراب يسبق عـادة التحول الى الاسلام ، لذلك قام هذا الفـريق المتعصب من النصارى بأعمـاله الانتحارية حتى يدفـع البقية الباقية الى الصـمود والمقاومة أمام ذلك التيار الاسلامى الجارف ، فكانوا يحرضون بعض الرهبان والقسس على سب الاسلام وصاحبه علنـا فى الشوارع وفى المساجد وأمام القضـاة الذين كانوا يحاولون عـلاج هؤلاء المرضى ، ويؤجلون الحـكم باعدامهم لاعطائهم فرصة للتعقـل والتروى ، لكنهم كانوا يعودون الى اصرارهم وعنفهم ، فكان القضاة يضطرون للحكم باعدامهم .

وهكذا كانوا يظنـون انهم نالوا الشـهادة تمـاما كشـهداء عصر دقلديانوس (٥٨) .

---

(٥٦) د. حسن محمود ، تاريخ المغرب الاسلامي ، ص ٨٨ .
جـ ٢ ، ص ٦١٤ .
Livermore, op. cit, p. 77

(٥٧) Dozy, op. cit, p. 268

(٥٨) Dozy, op. cit, p. 291

أما العامل الثانى : الذى دفع بعض النصارى الى ذلك التعصب الدينى ، فعامل يتعلق بالدولة الاسلامية نفسها ويعود الى ظروفها السياسية والدينية والاجتماعية . فقد بدت على الدولة مظاهر الضعف ابتداء من عصر عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) حتى بداية عصر عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ — ٣٥٠هـ) . وكان الأمراء قبل ذلك يقبضون على مقاليد الحكم بيد من حديد ، ويسيطرون على الدولة من أدناها الى أقصاها سيطرة تامة . ولما ضعفت حكومة قرطبة تجددت أطماع الرعايا المسيحيين فى الاستقلال وتخيلوا أن فى مقدورهم أن يخرجوا عن طاعة الأمير ، وحرضهم على ذلك زعماؤهم الدينيون المتعصبون[٥٩] .

وكان فى مكونات الشخصية العربية ما يساعد هؤلاء فى تخيلاتهم العريضة ويدفعهم الى الكراهية . فقد كان المسلمين المستنيرون والطبقة الأرستقراطية العربية مهذبين جدا ويحسنون معاملة المسيحيين ولا يسيئون اليهم ويحترمون مشاعرهم ، أما العامة أو الدهماء فلم يكونوا على هذا المستوى من الخلق والفهم السليم للدين ، فكانوا أحيانا يهزأون ببعض المسيحيين ويعاملونهم معاملة سيئة . يدفعهم الى ذلك بعض فقهاء قرطبة الذين كانوا يطمحون الى المشاركة فى الحكم عن طريق السيطرة على العامة ، وتحريكها ضد الأمراء ، اذا ما وسع هؤلاء من دائرة استعانتهم بالنصارى فى شئون الحكم والادارة . وقد أسلفنا القول عما حدث بسبب استخدام ربيع القومس وجومث بن أنطونيان[٦٠] .

ويبدو أن هذا التسامح العظيم الذى اشتهر به بنو أمية تجاه رعاياهم من النصارى قد أثار بعض الفقهاء المتشددين ، كما اثار بعض القسس المتعصبين أيضا ، وهذا ليس بغريب . اذ أن الفقهاء ورجال البلاد كانوا يخشون مزاحمة النصارى لهم لا سيما وقد إكثر أمراء بنى

---

(٥٩) على محمد حمودة ، تاريخ الأندلس ص ١٦٠ .

(٦٠) Dozy, op. cit, p. 271

أمية منهم فى القصر والبلاط والادارة والجيش . أما النصارى فقد أثارهم ذلك التسامح الذى كان يغرى المسيحيين على الدخول فى الاسلام ، ويدفعهم بقوة الى البعد عن الكنيسة وتعاليمها[٦١] .

هذا ما يتعلق بالدولة الاسلامية وحكومتها فى قرطبة .

وهناك ما يتعلق بالكنيسة ورجالها ايضا . وكان هؤلاء هم السبب المباشر فى اثارة الفتنة بتعصبهم الزائد ضد حكامهم المسلمين ، الذين جعلوا من مدينتهم — قرطبة — سكنا لهم ومركزا لعاصمة اسلامية زاهرة ، تحدث الناس عنها فى الشرق والغرب . وقد ازداد تعصب هؤلاء القوم حتى رموا اخوانهم من النصارى المعتدلين بالخيانة والعمالة .

وقوى من ادعائهم هذا ، اخلاص هؤلاء النصارى لمناصبهم التى كانوا يشغلونها وادانتهم لأعمال العنف التى يقوم بها أولئك النفر من المتعصبين[٦٢]

أضف الى ذلك تحامل هؤلاء المتعصبين وبغضهم للنبى العربى وتعاليمه ، تلك التعاليم التى كانوا يعتمدون فى معرفتها على طائفة من الخرافات والأباطيل المستوردة من بمبلونة عاصمة مملكة نبرة المسيحية[٦٣] . وكانوا هم أول من يعرفون كذبها ، فقد كانوا يعيشون بين المسلمين ، وكان من السهل عليهم معرفة الحقيقة ، لكنهم رفضوا ذلك وتعمدوا نشر الخرافات المضحكة عن نبى الاسلام .

ليس هذا فقط ، بل انهم كانوا يطوعون نصوص ديانتهم لتحقيق مآربهم ويعملون على اذاعة تلك النصوص التى تحض على الموت . مثال ذلك : « لا تخافوا من هؤلاء الذين يذبحون الأجساد ، لأنهم لا يستطيعون ذبح الأرواح ، ولا تخافوا الا الله وحده » ، « أن هؤلاء الذين سيدخلون

---

(٦١) بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٣ ، ٤ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٥ .

(٦٢) Chapman, op. cit, p. 47, Dozy, op. cit, p. 238

(٦٣) Dozy, op. cit, p. 269

جنة المسيح هم الذين قدموا أنفسهم طواعية كشهداء » . وقد ادخلوا فى روع البعض أن هذا الكلام يمثل الحقيقة والصدق وأن ما يقدمونه اليهم أيضا عن نبى الاسلام من أباطيل هو أيضا لا يبعد عن الحقيقة ، لدرجة أن أحد الرهبان بعد أن سب الاسلام خاطب القاضى قائلا : « قدمنى للموت ، اننى أسلم نفسى له ، الم يقل المسيح ، مبارك من ضحى أو تعذب من أجل الحقيقة والصدق ؟ ولأجلهم كانت مملكة السماء »(٦٤) .

وبلغ من استخفاف هؤلاء النصارى المتعصبين بعقول ذويهم أنهم اقنعوهم أنهم اذا قدموا للموت ، فسوف يرفعون الى السماء كمثل عيسى ، وأن المسلمين لن يقتلوا الا شبيها لهم يلبس أحد الأجساد . ويحكى لنا الخشنى قصة من هذا النوع عندما تقدم أحد النصارى الى القاضى (أسلم بن عبد العزيز) طالبا تقديمه للموت ، قائلا له عندما سأله القاضى عن السبب : « أتتوهم أنك اذا قتلتنى أنى أنا المقتول ؟ فقال له القاضى : ومن المقتول اذن ؟ فقال له النصرانى : شبهى يلقى على جسد من الاجساد فتقتله ، وأما أنا فأرفع من تلك الساعة الى السماء . فلم يجد القاضى حيلة فى اقناعه بعدم صحة ذلك الا أن أمر أعوانه بتجريد الرجل من ثيابه والهاب ظهره بالسياط ، فأخذ الرجل يصيح ، حينئذ قال له القاضى: « فى ظهر من تقع هذه السياط ؟ فقال الرجل : فى ظهرى . قال له القاضى : وكذلك السيف ، والله لايقع الا فى عنقك ، فلا تتوهم غير ذلك (٦٥) .

واذا عرفنا أن أسلم بن عبد العزيز تولى القضاء عام ٣٠٠ هـ حتى عام ٣٠٩ هـ لتاكد لدينا أن تلك الحركة الانتحارية التى قام بها نصارى قرطبة كانت لها ذيول حتى بداية عهد عبد الرحمن الناصر ، وأنه رغم الشدة التى عالجها بها الأمير محمد (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) من طرد للموظفين

---

(٦٤) Dozy, op. cit, pp. 272, 285

(٦٥) الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

المسيحيين من قصره ، ومن تـدمير لبعض الكنائس الا أن تلك الحركـة استمرت حتى بعـد حكم ابنيه المنـذر ، وعبد الله ، وأنه لم تقمعها الا شدة الناصر وحزمه (٦٦) .

ويبدو أن حركات الاستشهاد أو الانتحـار المسيحى كانت معروفة أيضـا فى غير الاندلس ، فقد حدث عام ٢٨٤ هـ فى بغداد أن شهد الناس على نصراني بأنه سب نبى الاسلام ، وطلبوا من القاضى أن يقيم عليه الحـد . وكان غضب الناس شديدا لدرجة أنهم هاجموا قصر الخليفـة المعتضد العباسى ، فردهم الخليفة الى القاضى ثانية فكادوا يقتلونه من كثرة الزحام حتى انه أغلق بينه وبينهم بابا (٦٧)

وكان طبيعيـا أن تقع مثل هذه الحوادث فى قرطبة عاصمة أمراء بنى أمية ، فالمتعصبون موجودون فى كل مكان وفى كل عصر . وكان فى امكان ثوار النصارى أن يتحولوا الى جنود وجيوش فى المدن والاقاليم البعيـدة عن قرطبة ، مركز السيطرة الاسلامية ويدها القوية ، وكان يمكنهم أن يشتبكوا فى حرب عصابات أو وجهـا لوجه مع جيوش قرطبة وحتى الموت . أما فى قرطبة وهى عاصمة الدولة ، فلم يكن للنصارى الا أن يختاروا طريقا آخر غير ذلك الطريق وهو أن يصبحوا شهداء (٦٨) .

وهناك عامل هام وأخير ساعدهم بل حرضهم على اختيار هـذا الطريق ، ذلك هو تحريض نصارى الشمال الأسبانى . ويبدو أن هؤلاء النصارى انتهزوا فرصة الضعف التى كانت تعيشها حكومة قرطبة فى ذلك الوقت ، ورأوا أن يثيروا نصارى قرطبة حتى يتمكنوا من التهام الثغور الاسلامية شمالى طليطلة وبطليوس . والروايات النصرانية لاتشير الى هذا التحريض المتعمد الا عرضا ، بينما تصمت عنه الروايات العربية ولاتشير اليه أدنى اشارة .

---

(٦٦) Dozy, op. cit, p. 299

(٦٧) ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، جـ ٥ قسم ٢ ، ص ١٧٠ .

(٦٨) Dozy, op. cit, p. 272

ثانيا ــ مظاهر حركة التمرد النصرانية داخل الأندلس الاسلامية :

بدأت هذه الفتنة بعد زيارة قام بها القس يولوجيوس Eulojlus الى بمسلونة عاصمة مملكة نبرة (نافار) عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨م ومن بمبلونة احضر معه عددا من الكتب المليئة بالاباطيل ضد الاسلام ، كما احضر معه عددا من كتب الأدب الرومانى من أعمال فرجيل Virjil وهوراس Horace وجوفينال Juxenal ، وجد فيها ذلك القس معادلة معقولة راجحة للادب العربى الذى كان القرطبيون المسيحيون يفتتنون به . وفى طريق عودته عرج على طليطلة وقضى فيها عدة أيام تمكن فيها من اثارة أهل طليطلة ضد حكومة قرطبة التى تسىء الى المسيحيين وتضطهدهم على حد زعمه (٧٠) .

ونلاحظ أن ثورات طليطلة لم تبدأ الا بعد عودته الى قرطبة واشتعال نار الفتنة فيها بين عامى ٢٣٦ ، ٢٣٨ هـ / ٨٥٠ ــ ٨٥٢ م وحدوث حركة الاستشهاد الجماعى فى تلك المدة . وعندئذ بدات الثورة فى طليطلة وتمكن النصارى من القبض على عاملها ، ثم خرج اليهم الأمير محمد عام ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م وأوقع بهم فى وادى سليط ، رغم المعاونة التى تلقتها طليطلة من اردونيو الاول ملك ليون (٧١) .

عاد الأمير محمد الى قرطبة مكللا بالنصر حيث ووجه بأعمال الاستشهاد تزداد وتعنف ، وقام يولوجيوس وصديقه الفارو Alzaro باصدار نشرات يدافعون فيها عن أعمال الاستشهاد ويحرضون فيها جماهير المسيحيين ، بينما صممت طليطلة على تعينه مطرانا لها بعد وفاة

---

(٦٩) لمعرفة دور للقس يولوجيوس فى اثارة الفتنة باستقامته ، انظر ،
Dozy, op. cit, pp. 273 - 274, 285 - 293, 206 - 307

كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٧ ، ملحق رقم ٦ من البحث .

(٧٠) Dozy, op. cit, pp. 269, 270, 293. 300

(٧١) Dozy, op. cit, pp. 33 - 301

مطرانها Wistremir ورفضت اختيار أى مطران آخر بعد أن رفض الأمير محمد ذهاب يولوجيوس اليها(٧٢) .

ورغم الهزيمة الساحقة التى منى بها نصارى طليطلة والملك أردونيو الأول ملك ليون الا أن الثورة تجددت واستمرت فى طليطلة ، مما دعا الأمير محمد الى ارسال جيوشه اليها فى أعوام ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ هـ (٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ م) ، ولم تنته ثورة هذه المدينة الا بعد موت أو استشهاد يولوجيوس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، ذلك الاستشهاد الذى أحدث ضجة كبرى ليس فى قرطبة فقط ولكن فى جميع أنحاء أسبانيا . وقام مؤرخو الشمال بتسجيل ذلك الحادث بفخر عظيم . وبعد ذلك بأربع وعشرين عاما أصر الملك الفونسو ملك ليون عند عقده معاهدة السلام بينه وبين الأمير محمد على تسليم جثمان أو رفات القديس يولوجيوس والقديسة لوكريتيا Leocritia

فالأمر واضح اذن : يولوجيوس يذهب الى بمبلونة عاصمة مملكة نبرة عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ثم يمر بطليطلة ويحرض أهلها على الثورة . ثم يعود الى قرطبة ويشعل الفتنة فيها عام ٢٣٦ هـ / ٨٥٠م ، ويدفع ببعض الفتيات — بعضهن كن مسلمات أصلا وفتنهن ذلك القس — والرجال شبانا وكهولا الى ساحة الاعدام . عندئذ تقوم طليطلة بثورتها بدءا من عام

(٧٢) Dozy, op. cit, p. 302

(٧٣) Dozy, op. cit, p. 307 ، ليفى بروفنسال ، دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثانى ، ص ٦٨٦ ليوكريتيا Leocritial فتاة قرطبية شابة مولودة من أبوين مسلمين ، لكنها اعتنقت المسيحية سرا ، وفشل والدها فى اعادتها الى حظيرة الاسلام وأخذ فى عقابها ، فهربت وختبات عند يولوجيوس وأخته Anulo . لكن الشرطة عرفت بمكانها وقبضت عليها وعلى يولوجيوس الذى اعترف أمام القاضى بتلقينها مبادىء المسيحية وطلب اعدامه ، وتم ذلك فى عام ٢٤٥ هـ / ١١ مارس ٨٥٤ م وبعد ذلك بأربعة أيام واجهت ليوكريتيا نفس المصير واعتبرتهما الكنيسة من القديسين ، وطالب برفاتهما ملك ليون بعد ذلك بعشرين عاما أثناء مفاوضات الصلح بينه وبين الأمير محمد . انظر Dozy, op. cit, p. 304 - 306

٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م ، يشجعها فى ذلك ويساندها بالجيوش ملك ليون النصرانى ولا تهدأ ثورة النصارى سواء فى قرطبة أو فى طليطلة الا بموت يولوجيوس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

هذا ولم يأت التحريض فقط من نصارى الشمال الاسبانى فى مملكة نبرة أو مملكة ليـــون التى كانت تسمى بمملكة جليقية واشتريس من قبل ، بل قام نصارى الفرنجـــة والبـــابوية بدورهم فى هـــذا الشأن . وكـــان المسيحيون فى أوروبـــا بصفة عامة يشجعون هذه الحركة ويباركونها ويرون فيها الشرر الذى قد يحيـــل جـــو الأندلس الى نار تحـــرق والمؤرخـــون يشيرون الى وفود الرهبـــان الذين قدموا من فرنسا وغيرها من ممـــالك الشمال الاسبانى ، اما للاستشهاد أو لجمع عظام شـــهداء قرطبـــة من النصارى ، لتعرض فى باريس وغيرها من عواصم أوروبا لاستثارة الحمية فى النفوس (٧٤) .

ويشير البعض بصـــفة خاصة الى قدوم هذين الراهبين الفرنسيين أدلارد Odilard وازوارد Usuard عام ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م أى : قبل استشهاد زعيم الفتنة فى قرطبة يولوجيوس فى عام واحد . وصل هذان الراهبان الى بلنسية لأخذ رفات القديس فنسنت Vincent ولمـــا سمعا بأعمـــال الاستشهاد فى قرطبة ، ذهبا اليهـــا ، وبقيـــا هناك شهرين ثم عادا الى فرنسا ومعهمـــا رسالة مختومة بخـــاتم مطران قرطبة Saul ومعنونة باسم الملك شارل الجسور ، الذى أرسل رسوله منسيو Manclo الى قرطبة ليحصل على رفـــات بعض القديسيين الشهداء (٧٥) .

وبذلك استطاعت تلك الأصابع الأجنبية أن تشعل الحريق وأن تفلح فى انبعـــاث الفتنة فى أواخر حكم الامير عبد الرحمن الاوسط منذ عام ٢٣٦هـ — ٨٥٠ م واستمرت لمـــدة عشر سنوات حتى عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م فى عهد ابنه الأمير محمد . وواجهت حكومة قرطبة هذه الفتنة الدينية فى أول الامر

---

(٧٤) د. حسن محمود ، المرجع نفسه ، ص ٨٤ ، ليفى بروفنسال ، المرجع نفسه ، المجلد الثانى ، ص ٦٨٥ .

(٧٥) Dozy, op. cit, pp. 302 - 204

بالحكمة . فدعـــا الأمير عبد الرحمن الى عقـــد مؤتمر كنسى لعلاج تلك المشكلة التى احرجت الدولة كثيرا ، واستطاع هذا المؤتمر أو هذا المجمـــع أن يصدر قرارا بمنع المسيحيين من الاستمرار فى هذه الفتنة ، والقبض على المحرضين(٧٦) .

لكن ذلك لم يفلـــح فى وقف الفتنة الا بعـــد أن قبض على زعيـــم المحرضين وهو يولوجيوس ، بعـــد أن ثبت انه يحرض الفتيات على التنصر وعلى تقـــديم أنفسهن للموت وايوائهن بعـــد فرارهن من ذويهن(٧٧) ووجد يولوجيوس نفسه مضطرا لتقـــديم نفسه للموت بالطعن فى الاسلام وسب نبيه ، حتى يلحق برفاقه الذين كان قد حرضهم من قبل . وتم ذلك واعدم يولوجيوس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .(٧٨)

وكانت حكومة قرطبة فى عهد الأمير محمد قد تخلت عن سياسة التسامح ونفذت القانون حيال هؤلاء النفر من المتعصبين وأعدمتهم ، وكان هـــذا هو الهدف الذى يهـــدف اليه زعمـــاء النصارى فى قرطبة . فبلا شك أثار هذا

---

(٧٦) وبروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٤٧ .
Dozy, op. cit, p. 289

(٧٧) من امثال الفتيات اللاتى حرضهن يولوجيوس وكن مسلمات ، ليوكريتيا وقـد سبق جميلة شابة ، انحـدرت من اب مسلم وام مسيحية لكن اباها توفى وهى صغيرة السن فلقنتها نكرها (انظر حاشية رقم ص) ، وفلورا Flora . وكانت فلورا فتـــاة قرطبية امها المسيحية ، ورفض اخـوها المسلم ذلك ، فهربت والتقى بها يولوجيوس لاول مرة ووقـــع حبها فى قلبه ، واخفاها عنده حتى ذهبت الى القاضى الذى تاثر بشبابها وادخلها السجن فربمـا اذهب بتهـورها . لكن يولوجيوس زارها وقـوى من عزيمتها رغم حبه لها . لكن تعصبـه الأعمى وهـدفه فى بث الكراهية والحقـد واثارة الناس ، وتمهيد الطريق امام نصارى الشمال ، كل ذلك اعمى بصيرته ، لدرجـة انه اعتبر يوم اعـدام فلورا عام ٢٣٧ هـ (٢٤ نوفمبر ٨٥١ م) يوم النصر عنده . هكذا بلغ تعصبه وحقـده على مسلمى الأندلس .
Dozy, op. cit, pp. 274 - 276, 291 - 293

(٧٨) انظر Dozy, op. cit, pp 304 - 306
Livernore, op. cit, p. 77

الاعدام موجة من السخط وأثار الأحقاد وزاد من الكراهية المتأججة فى نفوس المسيحيين ضد الاسلام هناك . وكما رأينا فقد ثارت طليطلة على الفور ولمدة سنوات متتالية ولم تهدأ الا بعد مقتل يولوجيوس(٧٩)

فى الواقع كانت طليطلة بمسيحييها ومولديها تعيش سلسلة متصلة من الثورات ضد حكومة قرطبة منذ الفتح وحتى عصر عبد الرحمن الناصر، ونالت استقلالا داخليا نظير دفع مبلغ معين من المال . لكنها لم تلبث بعد الناصر وبعد انهيار الخلافة الأموية أن ساهمت فى عصر ملوك الطوائف بما كان فيه من فتن وانقسامات وصراعات على السلطان ، حتى فتحت أبوابها لألفونش (الفونسو) السادس وكانت أول مملكة تسقط فى يد نصارى الشمال .

أما مسيحيو قرطبة نفسها فلم يستكينوا طويلا ، اذ انهم انتهزوا فرصة تولى الأمير عبد الله الحكم (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ — ٩١٢ م) وقاموا بالثورة بالاشتراك مع ابن حفصون — وكان ثائراً فى جنوبى الاندلس — ومحالفيه ضد أمراء بنى امية . وفى هذه المرة لم تكن أعمال الاستشهاد هى الوسيلة الوحيدة لاظهار تعصبهم الدينى وكراهيتهم للمسلمين ، بل انهم حملوا السلاح بقيادة رئيسهم الكونت سرفاندو الذى يسميه ابن حيان شرينذ بن حجاج القومس ، وخرجوا الى حصن بلى (بلاى Play) قرب طليطلة ، وأمدهم ابن حفصون بالجنود ، وصاروا يغيرون على نواحى قرطبة يحرقون القرى ويدمرون الزروع ، وأصبحت العاصمة مهددة بالخطر (٨٠) .

استطاع اذن مسيحيو قرطبة وقوات ابن حفصون الذى ارتد الى النصرانية بعد ذلك ببضع سنوات (عام ٢٨٥ هـ) ان يهددوا عرش بنى امية ، لكن الأمير محمد استطاع أن يستولى على هذا الحصن أخيرا ،

(٧٩) Hole, Spain Under the moslems, p. 50
Dozy, op. cit, pp. 300 - 302

(٨٠) ابن حيان المقتبس ، ج ٣ ، ص ٩١ ، ٩٢ ، ليفى بروفنسال ، المرجع نفسه ص ٦٨٧ .

ويقول دوزى انه أحضر اسرى الحصن أمامه وأعلن أن جميع من يقومون بتسجيل أسمائهم كمسلمين لن يعدموا بشرط ان يقسموا انهم كانوا مسلمين . أما المسيحيون فلهم الموت الا اذا اعتنقوا الاسلام ، لكنهم جميعا وكان عددهم يقرب من الألف اختاروا الموت بدل أن يتخلوا عن عقيدتهم . واحد فقط هو الذى انقذ نفسه ، أما الباقون فقد واجهوا الموت فى بطولة (٨١)

ولم تخل ثورة من ثورات المولدين التى ازدحم بها هذا العصر من اشتراك وتدعيم نصارى أهل الذمة ، وجميع الثورات التى قام بها المولدون فى بطليوس وماردة وبشتر ورية وجيان وسرقسطة وغيرها كان للنصارى دور بارز فيها خصوصا بعد أن تنصر اكبر الثوار ، واعظمهم وهو ابن حفصون . ليس هذا فقط بل أننا نسمع أن كثيرا من مولدى الشمال ومن أسرة بنى قسى زعيمة المولدين هناك ، ارتدوا الى النصرانية(٨٢)

ويبدو أن حركات النصارى ضد حكومة قرطبة كانت سابقة لفتنة الاستشهاد بكثير ، اذ نرى ثورات لمسيحيى مدينة ماردة عام ٢١٤ هـ / ٨٢٩م حيث تحالف هؤلاء مع لويس ملك الفرنجة وقتلوا عامل المدينة ، ولم يخلدوا للهدوء الا بعد أن سير اليهم الامير عبد الرحمن الاوسط جيشا كان هو على رأسه ، وضيق عليهم الحصار حتى استسلموا وسكنت الفتنة (٨٣) .

كذلك قام مسيحيو مدينة البيرة بزحف على قرطبة مطالبين برد المغارم التى كان ربيع القومس عامل الذمة قد اقتضاها منهم . وكانوا يظنون أنها يمكن أن ترد اليهم بعد أن قام الأمير عبد الرحمن الأوسط بصلبه فى بداية حكمه . فاقبلوا حينئذ الى قرطبة وانضم اليهم مسيحيوها ، وساروا جميعا

---

(٨١) Dozy, op. cit, p. 365

(٨٢) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٦٨ .

(٨٣) محمد عبد الله عنان ، تاريخ العرب فى الأندلس ، ص ٨٩ .
Chapman, op. cit, p. 44

الى القصر ، فارسل اليهم الأمير قوة من الفتيان لتهدئتهم ، فاعتدوا عليها، فبعث اليهم الجنـــد الذين التحموا معهم فى معركة فتكت بهم ، وقتل منهم الكثير « وانهزم جند البيرة ومن معهم » من اهل قرطبة وفروا على وجوهم(٨٤)

ولاشك أن هذه الانتفاضات الداخلية وحركات التمرد والثورة التى قـــام بها العرب والبربر والمولدون ونصارى اهل الذمة أضعفت حكومة قرطبة ، وأتاحت الفرصـــة لنصـــارى الشمال الأسبانى لاسترداد بعـــض أراضى أسبانيا التى كان العرب قد استولى عليها ، وأخذت بذلك الحدود الاسلامية تتراجع الى الجنوب ، وصار أمر الاســـلام مهددا بالزوال ، ولم ينقذ البلاد من الضياع الا حكم عبد الرحمن الناصر فى بداية القرن الرابع الهجرى .

---

(٨٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٤١ .

ثانيــا ــ ظروف اسبانيا النصرانية وأحوالها المؤثرة فى علاقتها بالأندلس الاسلامية فى عصر الامارة الأموية

ان العوامل التى تحكم الصراع بين مسلمى الأندلس الاسلامية وشمال أسبانيا النصرانى تنبع من داخل كل منهمــا ، فاذا أردنا أن نعرف لمــاذا هزم أولئك وانتصر هؤلاء ، أو بمعنى آخر ، اذا أردنا أن نتعرف على طبيعة العــلاقة بين الطرفين ، سواء فى السلم أم فى الحرب ، لابد لنا أن نضــع يدنا على عوامل القوة وعوامل الضعف داخل كيان كل منهما .

وكما درسنا فى الفصل السابق أحوال بلاد الأندلس فى عصر الامارة وعرفنــا مواطن القوة التى مينتها من أن تقف على قدميها بعــد أن هب نصارى الشمال وتوغلوا داخل أراضيها ، منتهزين فرصة الصراع القبلى الطاحن فى عصر الولاة ، ودرسنا كذلك مواطن الضعف التى ســهلت لنصارى الشمال الأسبانى من أن يكتسبوا أرضا جديدة ، وأن يتبــادلوا الهزائم والانتصارات مع أمراء بنى أمية ، كذلك فانه علينــا الآن أن نقوم بنفس المهمــة وننفذ الى أعمــاق تلك الامارات والممالك النصرانية التى نشأت فى الشمال ، ونرى ما فيها من عوامل قوة مكنتها من التقــدم ، ومن عوامل ضعف استغلها المسلمون ، وتمكنوا من وقف هؤلاء النصارى ورد عادياتهم .

والشمال الأسبانى النصرانى لم يكن كله يشكل دولة واحدة أو كيانا واحدا ، بل كان هناك فى عصر امارة بنى أمية ثلاثة تجمعات نصرانيــة رئيسية : أولاها : تلك المملكة التى تسمى مملكة جليقية واشتريس . وقــد نشأت على يد (بلاى) عام ٩٨ هـ / ٧١٨ م فى الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة ايبيريا . وهى أول مملكة نصرانية تقــوم بعــد انتهــاء الفتح العربى للبلاد ، وكان لهــا شرف حمل السلاح وبدء المقاومة ضــد حكومة قرطبة ولم يكد يمضى على بداية الفتح ست سنوات (٨٥) .

---

(٨٥) أنظر ، للتمهيد التاريخى ، ص

اتخـــذ بلاى من مدينة كانجاس دى أونيس Cangas de Onis على الساحل الشمالى عاصمة له ، وهزم المسلمين فى موقعة كوفا دونجـــا، وكانت أول هزيمة لهم على يد نصـــارى الأسبان . وقد اضطروا بسبب ذلك وبسبب الصراع القبلى الذى دار بين العرب والبربر الى النزوح الى الجنوب وتركوا مناطق شاسعة جنوبى جليقية أصبحت حائلا بين الجلالقة وبين المسلمين . وأمنت بذلك مملكة جليقية على نفسها من غزو مفاجىء ، قد يأتيها يوما ما من الجنوب ، بل انهـــا هى نفسها قامت بغزو ما يجاورها من ثغور المسلمين وبدأت ماعرف بعد ذلك بحركة الاسترداد (٨٦) .

وقد سبق الحـــديث عن الصراع الذى دار بين مسلمى الاندلس وبين بلاى ومن بعـــده الفونش (الفونسو) زوج ابنته ، والذى كان يحـــكم كنتبرية التى تقع الى الشرق من أشتريس (أشتورية) . وبذلك توحدت الامارتان ، كنتبرية وأشتريس ، فى مملكة واحدة تمتد من بلاد البشكنس شرقا الى شاطىء المحيط الأطلنطى غربا ، ومن خليج بسكاية شـــمالا الى نهر دويرة جنوبا . وسميت باسم مملكة جليقية لانها قامت على حـــدود الولاية الرومانية القديمة التى كانت تسمى بهذا الاسم ، وظل هذا الاسم علما عليهـــا حتى أواخر عصر امارة بنى أمية عندما نقل الملك غريسيه ابن الفونس الثالث ، العاصمة الى ليون عام ٢٩٤هـ / ٩١٠ م ، وسميت المملكة من وقتئذ مملكة ليون(٨٧) .

هذا عن التجمع النصرانى الأول . أما عن التجمع النصرانى الثانى : فيعرف بمملكة نبرة (نافار Navarra) وهى : فى غربى جبال البرنات والى الشرق من جبال كنتبرية Cantabria على أبواب غالة (فرنسا) وهى بذلك مملكة فاصلة بين امارة برشلونة التى تقع على ساحل البحـــر المتوسط فى الشرق ، وبين مملكة جليقية وأشتريس التى تسمت بعد ذلك

---

(٨٦) انظر ، التمهيد للتاريخى ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٨٧) Livermore, op. cit, pp. 69 , 70

باسم مملكة ليون ، ثم باسم مملكة ليون وقشتالة فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى (٨٨) .

كان يسكن جبال نبرة شعب شديد المراس يسمى الباسك نسبة الى منطقة بسكاية Biscaya . وكان العرب يسمونه البشكنس أو البشكونس ، وربما أطلقوا هذا الاسم على البلاد التى تقع وراء البرنات الى جهة فرنسا ، لأن أصلّ الأهالي واحد سواء فى السفح الجنوبى أو فى السفح الشمالى من البرنات . وهم أمة مستقلة بنفسها لهم لغتهم الخاصة حتي الآن ، وهم من أشد أمم الأرض استمساكا بقوميتهم واحتفاظا بعاداتهم وتقاليدهم ، وهم يسببون حتى الان كثيرا من الأزمات السياسية لحكومة أسبانيا (٨٩) .

كانت قاعدتهم مدينة بمبلونة Pamplona الحصينة التى حكمها المسلمون ردحا من الزمن ثم فقدوها فى أواخر القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى أمام غزوات الفرنجة لأسبانيا الشمالية . وكانت هذه البلاد ميدانا للجيوش الاسلامية والفرنجة عند عبور كل منهما للاخرى . وقد حاولت كل منمها غزوها ، لكن الباسك كانوا لايتوانون دائما عن الزود عن استقلالهم ، وقد قام أمراء جليقية بمحاولة غزوها غير مرة وضمها الى المملكة النصرانية ، لكنها استقلت بنفسها قرب نهاية القرن الثانى الهجرى عندما ظهر أحد زعماء الباسك المسمى أزوار عام ١٨٠ هـ / ٧٩٩ م وجعل نفسه أميرا على تلك البلاد (٩٠)

---

(٨٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٣٤ ، شكيب ارسلان ، الحلل السندسية جـ ١ ،ص ٣٢١ .

(٨٩) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٥٦ ، القلقشندى ، المصدر نفسه ، جـ ٥ ص ٢٣٤ ، رينو ، تاريخ غزوات فرنسا ، ص ١١٧ ، أرسلان ، المرجع نفسه ، جـ ١ ، ص ٣٢١ .
Chapman, op. cit, p.55
Chapman, op. cit, pp. 55 - 56

(٩٠) عنان ، المرجع نفسه ع ١ ، ص ٦٧ .

أما التجمع النصرانى الثالث ، فهو أمارة قطالونية Catalonia (برشلونة) وهى بلاد قائمة بذاتها من قديم الدهر ، وكثيرا ما كانت أمة مستقلة بنفسها عن سائر أسبانيا ، ولم تتحد مع أرغونة وقشتالة الا بعد طرد المسلمين من الأندلس . وأهلها أمة يقال لها : القطلان أو الكتالان لسانهم غير لسان الاسبان وهم أقرب فى لغتهم الى لغة بروفانس التى هى لغة جنوب فرنسا والتى تبعد عن اللاتينية بقدر ما تقرب منها اللغة الأسبانية . وشعب القطلان على وجه العموم لايحب الشعب القشتالى(٩١)

وتمتد هذه الامارة من جبال البرنات فى الشمال الى بلنسية فى الجنوب ومن منطقة الثغر الأعلى (سرقسطة) فى الغرب الى البحر المتوسط فى الشرق وكان لقطلونية على هذا البحر ساحل يمتد مسافة ٤٠٠ ك.م من رأس سربيرة Cerbira فى الشمال الى مصب نهر سينيا Cenia فى الجنوب (٩٢) .

وقد افتتح العرب قطلونية عندما دخلوا أسبانيا ، لكنهم لم يبقوا هناك طويلا ، اذ استطاع شرلمان أن يغزو تلك المنطقة ويستولى على جيرونة عام ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ، ثم على برشلونة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، ويؤسس هناك امارة سموها « المارك الأسبانى » Spanish Mark أو « الثغر القوطى » أو «امارة برشلونة » أو «الأطراف الأسبانية لملكة الفرنجة» واتخذو من برشلونة عاصمة لها . وبعد استيلاء الفرنج على برشلونة أصبحت طرطوشة التى تقع قرب التقاء نهر ابرة بالبحر المتوسط هى آخر المدن الاسلامية على ساحل ذلك البحر)(٩٣) .

وقد حكم هذه الامارة أولا عدد من الكونتات التابعين لملوك الفرنجة ، لكن خضوع قطلونيا لهؤلاء الملوك لم يستمر طويلا أثناء القرن الثالث

---

(٩١) ارسلان ، المرجع نفسه ، جـ ٢ ص ٩٩ .

(٩٢) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٩ .

(٩٣) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ٣٥ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٤٢ ، خليل السامرائى ، علاقات المرابطين ، ص ٥٢ . Chapman, op. cit, p. 56

الهجرى / التاسع الميلادى . اذ يعتقد أن ونفريدو Wifraro كونت برشلونة هو أول من أعلن استقلاله عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م ، وأصبحت هذه الامارة شوكة فى ظهر الثغر الاعلى الأندلسى (٩٤)

هذه لمحة سريعة عن مراكز تجمع نصارى الشمال الأسبانى ، فما هى حقيقة العلاقات بينها وانعكاسات ذلك على حركة الصراع ضد قرطبة ؟ وما هى الأوضاع الداخلية لكل مملكة من هذه الممالك النصرانية ؟ وهل مكنت تلك الأوضاع نصارى الشمال من استئناف حركة المقاومة التى كان قد بداها الفونش الأول ملك جليقية واشتريس فى نهاية عصر الولاة فى الأندلس ؟

وللاجابة على هذه التساؤلات سوف نتناول بالبحث نقاطا أربع : أولاها ، الاسر الحاكمة فى كل امارة أو دولة ، وما قام بين أفراد هذه الأسر من صراعات على الحكم ، وعلاقة هذه الاسر بالقوى الاجتماعية الاخرى مثل النبلاء ورجال الكنيسة والعامة ، واثر ذلك كله فى قوة الدولة أو ضعفها ، وانعكاسه على العلاقة مع دولة الاسلام فى الاندلس وثانيها ، البيئة الطبيعية والبشرية لكل مملكة أو امارة ، وهل هى عامل قوة أو ضعف ، وأثر ذلك على العلاقات مع أمراء بنى أمية فى قرطبة ، وثالثها العامل الدينى ، ومدى أثره فى الصراع مع العرب ، ومدى استغلال الممالك النصرانية له فى هذا المجال . ورابعها ، علاقة الممالك النصرانية فى الشمال الاسبانى كل منها بالاخرى وأثر ذلك فى الصراع مع العرب .

١ ـ النظام السياسى فى ممالك الشمال النصرانية وأثره فى العلاقات مع مسلمى الأندلس :

كانت مملكة جليقية واشتريس هى أول دولة قامت فى الشمال الأسبانى وكان لها السبق لسلسلة ملوكها ، كما أنها واكبت الدولة الاسلامية منذ بداية قيامها تقريبا ، ولم يقم بجانبها مملكة ذات شأن الا مملكة نبرة

---

(٩٤) Chapman, op. cit, p. 56

التى ظهرت فى وقت متاخر ، ولم يكن لهـــا دور على المسرح السياسى الا فى النصف الثانى من عصر امارة بنى امية . أما قلطونية : فكانت دوقية أو امارة تابعة للفرنجة ولم يكن لهـــا شأن كبير فى تاريخ أسبانيا فى تلك الفتـــرة .

وعلى اية حال فان نظم الحكم فى الممالك النصرانية الأسبانية فى عصر الامارة كانت مماثلة للنظم التى كانت قائمة فى أواخر عهـــد القوط . وكان الملك وراثيـــا فى جليقية وأشتريس فقط ، ولكن فى باقى الامارات مثـــل نبرة ، كان الملك ينتخب بواسطة النبلاء أو الاشراف . لكنهم كانوا ينتخبون من كان بمولده أحق الناس بالعرش اجتنابا للحرب الاهلية (٩٥) .

وكان الملك مطلق السلطان ، يقبض على زمام السلطة التشريعية والتنفيذية ، ولا يقيد النبلاء سلطته الا بالثورة ضده ، والا بأن يحاولوا جعل ارتقـــاء العرش بالانتخـــاب . ولذلك كان النبلاء دائما فى حالة شد وجذب مع الملك لنفس الاغراض التى صارعوه من أجلها أيام دولة القوط(٩٦) .

ولا عجب فى هذا فدولة جليقية ما هى الا استمرار لدولة القـــوط الزائلة ، وما الفونش وسلالته الا من نبلاء القوط الذين كانوا يقيمون فى شمال البلاد وقت فتح العرب لهـــا ، ولذلك اســـتمرت سنن المملكـــة القوطية ، واستمر الجلالقة يسمون أنفسهم قوطا ويدعون النســـبة الى القوط ، وتنهج حكومتهم منهج السياسة القوطية (٩٧) .

واذا كانت أسبانيا القوطية قد فقـــدت استقلالها ومكنت العرب من فتحهـــا بسبب ذلك النزاع الذى حدث بين البيت المـــالك وبين النبلاء من

---

(٩٥) يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٣٢ .

(٩٦) Grow, Spain, the root and the flower, p. 94
Chapman, op. cit, 45
محمد عبد الله عنان ، تاريخ العرب فى اسبانيا ، ص ١٠٨ .

(٩٧) المرجع السابق ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

القوط ، فان دولة جليقية وأشتريس قد تعرضت لنفس الشيء ، لكن النبلاء في هذه المرة لم يساعدوا العرب ضد مليكهم كما حدث في الماضي ، وانما كانوا يساعدون من يرغبونه في الجلوس على العرش وكان ذلك في بعض الاحيان لاعتبارات تعود الى ما تعوده القوط أو الجلالقة من عدم الاذعان للملك اذا كان طفلا أو كان مغتصبا للعرش . لذلك كانت مساندة النبلاء تقرر في أحيان كثيرة من يضع التاج على راسه وكان الملوك رغم ذلك في حاجة لاسترضاء أشرافهم بسبب الحروب الدائمة مع العرب ، فكانوا يغدقون عليهم المنح والعطايا والاقطاعات والمزايا التي جعلتهم مطلقي التصرف في أملاكهم ، حتى انهم كانوا لا يرون كبير فرق بينهم وبين الملك ، لدرجة أنهم لم يسمحوا لأنفسهم أن يعاملوه بالتعظيم والتبجيل الذي كان يعامل به أهالي أوروبا ملوكهم العظام(٩٨) .

ارتفعت شوكة الأشراف اذن ، ولجأ الملوك الى التماس المحالفة أو المساعدة من المدن النامية ومن رجال الكنيسة الاغنياء ، وكانوا يريدون بذلك خلق توازن سياسي بين سلطتهم وبين ازدياد نفوذ طبقة الأشراف أو النبلاء ، ومن ثم أغدقوا المزايا والعطايا على أهالي المدن فعظمت شوكتها وكثرت ثروتها ، كما أغدقوا العطايا على رجال الكنيسة بفرض الضرائب الباهظة على عامة الناس ، وتحصيلها لحساب الكنيسة ورجالها ولبناء الأديرة والكنائس ، حتى ضاق الناس ذرعا في بعض الاحيان وأعلنوا الثورة ضد ملوكهم (٩٩) .

من هنا يمكننا القول بأن سلطة الملك كانت نظريا مطلقة ، وخاصة فيما يتعلق بأراضيه والمناطق المحررة من الأندلس الاسلامية . أما فيما يختص بأراضي النبلاء والكنيسة كانت هناك قيود وحدود لسلطاته نحوها . فقد تمتع النبلاء بحقوق اقتصادية وبحقوق السيادة على

---

(٩٨) روبرتسون ، اتحاف الملوك الألبا ، ص ١٤٨ .
Crow, op. cit, p. 94

(٩٩) روبرتسون ، اتحاف الملوك الألبا ، ص ١٥٠ .
Crow, op. cit., p. 94

ممتلكاتهم ، كما كونوا قوات عسكرية وحارب كل منهم الاخر بل وحاربوا الملك فى بعض الاحيان ، كما كانوا يجمعون الضرائب لأنفسهم . واحتل رجال الأكليروس موقفا مشابها لهؤلاء النبلاء ، وحازت الكنيسة عقارات ضخمة من عطايا الأفراد وهبات الملوك (١٠٠)

وكان من نتيجة ذلك أن السلطة الملكية كانت تنهار اذا ما تحداها أولئك النبلاء ، وكانت تقوم الحرب الاهلية ، وربما انحاز الملك المعزول الى احد أقاليم الدولة القاصية ، واستمر يمارس سلطته هناك ، وربما استعان على الملك الجديد الذى يعتبره غريما له ، بالتحالف مع المسلمين أو مع الممالك النصرانية الاخرى القريبة منه . وقد حدث هذا عدة مرات فى تاريخ جليقية ، وكان من نتيجته أن تمكنت قوات أمراء بنى امية أن تدخل جليقية والبة والقلاع وسائر مدن المملكة النصرانية غازية ، تستولى على المدن وتخرب الحصون وتعود محملة بالغنائم والأسلاب .

أمام هذه الاوضاع كان يمكن للملك ان يلجأ الى قوة ثالثة يمكنه بها موازنة قوة الأشراف أو رجال الكنيسة ، الا وهم عامة الشعب ، تلك الأكثرية الفقيرة التى كانت ترزخ تحت نير الاشراف أو رجال الكنيسة على السواء . لكن هذه الأكثرية استطاعت أن تشق طريقها الى الحرية والقوة حينما اشتدت معركة الحياة والموت بين الاسلام والنصرانية فى اسبانيا واضطرت المملكة النصرانية أن تلجأ الى الأكثرية للذود عن حدودها وحياتها ، وانقلب الرقيق القديم جندا وفرسانا يثورون ضد سادتهم ويرغمونهم على احترامهم ومصانعتهم(١٠١)

وربما كان هذا عامل قوة يحتسب للاسبان فى معركتهم ضد الاسلام فالملوك لم يكونوا مطلقى السلطة ، كانت هناك قوى أخرى من أشراف وكنيسة ومدن عامة لابد من أخذها فى الاعتبار ولابد من الاستفادة منها

---

(١٠٠) Chapman, op. cit., p. 60.

(١٠١) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الاول ، القسم الاول ، ص ٢١٧ .

فى عمل توازن يمكن هؤلاء الملوك من قيـادة الصراع ضد مسلمى الاندلس بمهارة واقتدار فى أحيان كثيرة فى عصر أمراء بنى أمية .

لم يكن هناك مثل ذلك الصراع القبلى الذى مزق الاندلس سواء فى عصر الولاة أم فى عصر الامارة ، لم يكن هناك صراع بين مولدين وعـرب ولم يكن هناك صراع بين مسلمين ومسيحيين داخل المملكة الواحدة كمـا حدث فى الاندلس الاسلامية ، وانما كانت المملكة قلبا واحدا على عدوهم المشترك من المسلمين ، وكان هذا سرا من اسرار نجاح نصارى الشمال فى معركتهم الطويلة ضد قرطبة الاسلامية .

لكن كان هناك ما أضعف الملكية فى جليقية الى حد ما ، الا وهو ذلك الصراع على العرش بين أفراد الاسرة الملكية ، وهو ما شاركتهم فيـه الأسرة الأموية ، وكمـا حدث فى قرطبة من انشقاق بعض أمراء بنى أمية وانسحابهم للى أحـد الاقـاليم البعيـدة عن قرطبة واعـلان تمردهم ضـد السلطة المركزية ، بل واستعانتهم بالفرنجة أحيـانا وبنصـارى الشمال فى أحيـان أخرى ، فقـد حدث مثل ذلك أيضا فى جليقية ونبرة ، يبدو ذلك واضحـا من تاريخ هاتين المملكتين فى هذه الفترة (١٠٢) .

---

(١٠٢) عن تاريخ مملكتى جليقية ونبرة ، وعن الصراع على العرش فيهما ، انظر :
ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٧٩ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ .
ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٣ ، ١٨ .

العينى ، عقد الجمان ، ج ١٢ ، قسم ٢ ، ورقة ٢٩٦ .

حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٣٥١ .

محمد عبد الله عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٨ ـ ٢١٥ ، ج ٢ ، ص ٦٠ ـ ٦٨ .

رينو ، تاريخ غزوات العرب فى فرنسا ، ص ١٤٥ ـ ١٤٧ .

Livermore, op. cit., pp. 79, 82, 83.

Chapman, op. cit., pp. 57, 65.

٢ – الطبيعة الجغرافية والبشرية واثرها فى الاوضاع الداخلية :

هذا عن النظـــام السياسى فى ممالك الشمال النصرانية ، أما عن الطبيعة الجغرافية والبشرية ، فكما يقولون ان الارض تدافع عن أهلها ؛ وهذا حق فيمـــا يتعلق بشمال أسبانيا ، فهناك مناطق لم يدخلها المسلمون قط ومناطق أخرى دخلوها لكنهم لم يستطيعوا العيش فيها طويلا ، بل أن جنود موسى بن نصير عندما اقتحم بهم مفاوز جليقية واشتريس «استوحشوا من هذه المناطق» وطلبوا منه الا يغامر بهم فى هذه الأرض القاحلة .

وقد حاول قواد المسلمين فى عصر الولاة التوغل فى هذه المناطق مرارا، لكنهم كانوا يعودون من حيث أتوا ، ويكتفون بما حصلوا عليـــه من غنـــائم وأسلاب . وفى احـــدى المرات كادوا يقضون على حركة المقاومة النصرانية الناشئة التى نظمها بلاى فى جبـــال أشتريس فى اقصى شمال أسبانيا ، الا أن حصن الصخرة التى تسمى كوفادونجا منعهم عنه ، وظل يقاومهم حتى لم يبق معهم الا عدد قليل من الرجـــال والنساء الذين كانوا لامطعم لهم الا من عسل فى ثقـــوب الصخر كمـــا تقول الرواية العربية (١٠٣) .

كان الشماليون يعيشون على السهول الممتدة بطول خليج بسكاى وحتى المحيط الاطلسى غربا ، وكانت هناك سلاسل من الجبـــال تمتـــد بطـــول هذه السهول وهى سلاسل جبال أشتريس وجبال كنتبرية ، وتمتد هذه السلاسل فيمـــا يعرف بجبال البرنات أو البرانس أو البرينيه Pyreness وينبع من هذه الجبال عدد من الانهـــار لهـــا فروع لاحصر لهـــا ، فكانت هنـــاك أنهـــار المنيو أو المندجو Mendgo ودويره (الدورو Douro اللذان يصبان فى البحر المحيط أو المحيط الاطلسي حسب التعبير الحـــديث

---

(١٠٣) انظر ، التمهيد التاريخى ، ص

وهنـــاك نهر ابره Ebro الذى ينبع من جبال البرنات ونهر نبره ويصب فى بحـــر الروم أو البحر المتوسط .

وبين المندجوه ودوبره هضاب قفرة واسعة اصبحت حاجزا طبيعيـــا بين مسيحيى الشمال ومسلمى الجنوب . ولم يستطع المسيحيون فى عصر الامارة تعمير هذه المناطق بسبب عدم وجود من يزرعها وعدم توافـــر الأموال اللازمة لذلك ، فكـــان يكتفى ملوك الشمال بتخريب هذه المنـــاطق واخـــذ من بهـــا من المسيحيين معهم ويعودون الى الشمال . ولم يستطع الفونش الثالث وهو اعظم أمراء النصارى وملوكهم فى هذه الفترة الا أن يحتل الأقاليم الواقعـــة على حدود مملكته ، وكانت تشمل ليبانا Liebana وقشتالة القديمة المعروفة حينئذ ببردوليا Berdulia وساحل جليقية Galicia ، وربما مدينة ليون (١٠٤) .

لذلك كانت الانهار والهضاب والجبال الوعرة ملجـــأ آمنا لنصارى الشمال ، ساعدتهم كثيرا ضد العرب وضد الفرنجة ، وقصة شارلمـــان مع الباسك (البشكنس) معروفة ويكفى أن مؤخرة جيشه قد دمرت ووقع قريبه رولان صريعا ، ولم يكن ذلك الا لوعورة الجبال وضيق المســـالك أو المعابر التى كانت تسمح بمرور الجيوش بين بلاد الفرنجة وشمـــال اسبانيا فى صعوبة بالغة ، وقد راينـــا ما فعلته صـــخرة كوفادونجـــا بجيش علقمة ، وكيف أنه لم يستطع القضاء على بلاى وارتد حيث لاقى جيوش النصارى التى كبدته خسائر فادحة كما تقول الرواية النصرانية(١٠٥)

---

(١٠٤) Doay, A history of the Moslems in Spain, P. 412

(١٠٥) انظر التمهيد التاريخى ، ص ٣٤ ، ص ٢ ، ارسلان ، الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .
؛Chapman, pp. cit., p. 43.

(١٠٦) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٤ .
Crow, op. cit., p. 94

ولما كان التنوع أو الاختلاف هو القاعدة الى حد ما ، فقد اتبع الشمال الغربى التقليد القوطى فى الحياة ، بينما شمال الوسط والشمال الشرقى (نبرة وقطلونية) احتفظوا بكثير من المؤسسات القوطية ، لكنهم دخلوا فى اتصالات صريحة مع شعب الفرنجة الذى جعلهم متميزين فى النواحى الحضارية(١٠٧) .

ولذلك لم يستمر اتحاد النافاريين والجلالقة طويلا فى عهد امارة بنى أمية ، بل ثار الاولون واستقلوا بأنفسهم وكونوا لهم مملكة مستقلة ظهر كيانها واضحا فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . بل ان تنوع الأقاليم داخل الدولة الواحدة كان له خطره ، ولذلك كان أمراء جليقية من أسرة الفونش الأول يعلنون الثورة ضد الملك ، ثم يعتصمون بأحد أقاليم الدولة القاصية ويناوئونه منها . حدث هذا وانقسمت الدولة مرارا الى امارة كنتيرية والى امارة جليقية وان ظل الحكم الملكى مستمرا(١٠٨) .

ولكن لم يحدث هذا بقصد القضاء على الأسرة المالكة أو بقصد انفصال جزء من الدولة وقيام مملكة جديدة فيه ، لكنه كان صراعا على الحكم بين أفراد الأسرة الواحدة ، بعكس ما كان موجودا فى الأندلس ، حيث ظهرت الحركات الانفصالية فى النصف الأخير من عصر الامارة ، وصار أمراء بنى أمية لا يسيطرون الا على قرطبة وحدها فى بعض الأحيان(١٠٩) .

---

(١٠٧) Chapman, op. cit., p. 59.

(١٠٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ، ق ١ ، ص ٢١٧ ،

(١٠٩) عن الحركات الانفصالية فى الفترة الأخيرة من عصر الامارة الاموية ، انظر ،
ابن حيان المقتبس ، ج ٣ ، ص ٣٢ — ١٢٩ .
العذرى ، نصوص عن الأندلس ، ص ١١ ، ١٢ ، ٣٠ — ٣٦ ، ٦٢ — ٦٦ .
ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٤٤ — ١٥٧ ، ١٧١ — ١٧٨ .
Dozy, op. cit., pp. 355-356, 374-375, 381-382.

وكان هذا التنوع عاملا من عوامل الضعف الى حد ما . وأقول الى حد ما ، بسبب وجود التجانس الجنسى والوحدة الدينية بين نصارى الشمال ، فلم تكن هناك مشكلة أقليات ولم يكن هناك صراع بين دين وآخر كما حدث فى الجنوب وجعل من الطبيعة الجغرافية سلاحا من أسلحة الثوار والمتمردين . وقد قلل من خطورة عامل التنوع الجغرافى هذا ، البعد المكانى لأقاليم الشمال عن قرطبة عاصمة الدول الاسلامية . فقرطبة كما نعرف بعيدة جدا عن أشتريس وجليقية فى الغرب وعن البشكنس فى الشمال ، ولذلك لم تخضع هذه المناطق لهم أبدا ، ولم يدم سلطانهم على بعضها الا لفترات قليلة جدا ، لأنها « بلاد لا يطيب سكناها لغير أهلها »(١١٠) . ولم يستغلوا هذا التنوع الجغرافى فى ضرب هذه الأقاليم والممالك بعضها بالبعض الآخر .

انعكست هذه البيئة الطبيعية القاسية على أخلاق السكان وعاداتهم وعلى وضعهم الاجتماعى وحياتهم الاقتصادية . وكما يصفهم المؤرخون كانوا قساة جفاة ، غلبت عليهم الخشونة والقسوة والتعصب حتى أنهم لو تغلبوا على مدينة كانوا يضعون السيف فى رقاب جميع سكانها ، ولا يمكن أن تتوقع من هؤلاء القوم الذين يصفهم دوزى بالبرابرة ويصفهم أبو الفدا بأنهم « قوم كالبهائم » ، والحميرى بأنهم « أهل غدر ودناءة أخلاق » ، لا يمكن أن نتوقع منهم ذلك التسامح الدينى الذى اتبعه المسلمون تجاه المسيحيين (١١١) .

وقد جعلتهم خشونة الحياة وقسوة الطبيعة شجعانا لا يهابون الموت ، « فهم أسد فى حصونهم عقبان على خيولهم ، فيهم بأس وشدة ، لا يرون الفرار عند اللقاء ، بل يرون الموت دونه ، ان رأوا فرصة انتهزوها وان رأوا غلبة فأوعال تذهب فى الجبال ، لا يرون الهزيمة عارا » ،

---

(١١٠) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ١٣١ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٨ .

(١١١) أبو الفدا ، تاريخه ، جـ ١ ، ص ٩٨ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١١١ للحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ . Dozy, op. cit., pp. 414, 415.

ولذلك وصفهم بعض المؤرخين بأنهم كانوا كاللصوص وقطاع الطرق ، لا يفكرون الا فى مغانم الحرب وأسلابها وأن هدفهم من غزو المدن والقرى هو نهبها وليس استعادتها ، فالاستعادة لا تتم الا اذا توافر عندهم قدر من الشعور القومى يدفعهم الى ذلك . وهذا الشعور لم يكن محسوسا لديهم بدرجة كافية وخاصة فى فترة بداية حركة المقاومة النصرانية حيث كان النصارى يغيرون وينهبون ثم يعودون الى معاقلهم فى الجبال(١١٢) .

وكان فقر بيئتهم أيضا من الدوافع الرئيسية التى دفعت بهم للمغامرة ضد جيوش المسلمين القوية القادرة ، وخاصة فى الصدر الأول من عصر الامارة ، وهى فترة القوة . انظر الى أحد المؤرخين أو الجغرافيين العرب المشهورين حينما يقول عن بمبلونة عاصمة نبرة أنها « بين جبال شامخة ، وشعا بغامضة ، قليلة الخيرات ، أهلها فقراء ، جاعة لصوص ، وأكثرهم متكلمون بالبشقية — أى لغة الباسك — لايفهمون ، وخيلهم أصلب الدواب حافرا لخشونة بلادهم »(١١٣)

وصف دقيق لطبيعة المكان واثره فى السكان وحتى فى الحيوان ، لكن فقر هؤلاء الناس لم يكن نتيجة لفقر البيئة الطبيعية أو قلة مواردها فقط ، بل كان أيضا نتيجة لاستمرار خواص المجتمع القديم الذى كان موجودا أيام القوط : أقلية غنية قوية تستأثر بنعم الحياة من ثروة وجاه ، وأكثرية مستعبدة ترزح تحت جور العرش واستغلال الأشراف والسادة ، وقاسى الناس من الضرائب الباهظة التى اتبع الملوك والأشراف ورجال الكنيسة أسوأ الطرق فى جمعها . ولكن كما أشرنا من قبل ، فان الحروب مع المسلمين حسنت أحوال هؤلاء الناس وحولتهم من مستعبدين

---

(١١٢) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٦ .

(١١٣) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

الى جنود احرار ، يلجأ اليهم الأشراف والملوك للدفاع عن اراضيهم ومهاجمة المسلمين ان عن لهم الأمر(١١٤) .

ومع فقر هذا المجتمع فقد كان يتمتع بالوحدة الجنسية الى حد بعيد ، أقصد أن شمال أسبانيا النصرانى كان متجانس السكان ، لا تشغله مشكلة أقليات ، ولا تعدد أديان . وكان ملوك الشمال ومنذ البداية يحرصون على ذلك أشد الحرص ، فكانت هناك هجرات متبادلة بين المسلمين والنصارى فى مناطق الحدود ، النصارى يرحلون الى الشمال ، والمسلمون يعودون الى الجنوب . وكانت هجرة النصارى الى الشمال هامة حتى أشار اليها كثير من المؤرخين الأوربيين ، بل ان أحدهم جعل اهم ما قام به الملك الفونش الأول (١٢٢ — ١٤٠ هـ / ٧٣٩ — ٧٥٧ م) والفونش الثانى (١٧٥ — ٢٢٧ هـ / ٧٩١ — ٨٤٢ م) — من ملوك جليقية — هو استعادتهم لكثير من المسيحيين المستعمرين من المناطق التى غزاها المسلمون ، لأن هؤلاء المسيحيين ساعدوا فى ازدياد سكان الشمال وتعميره(١١٥) .

ولم تكن هجرة المسلمين الى الجنوب منذ عصر الولاة الا بسبب طبيعة الشمال القاسية التى لم يتعودوا عليها فى بلادهم الأصلية ، وبسبب الصراع المرير بين العرب والبربر الذى رأيناه فى عصر الولاة وأدى الى هجرة الطرفين من الشمال الغربى لأسبانيا ، يضاف الى ذلك ما أشرنا اليه من قسوة النصارى وسيطرة حب الانتقام عليهم اذا ما استولوا على مدينة من المدن .

---

(١١٤) عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، ع ١ ، جـ ١ ، ص ٢١٧
Chapman, op. cit., p. 63
Dozy, Op. cit., p. 412.

(١١٥) Chapman, op. cit., p. 55.
Livermore, op. cit., p. 70.

ورغم هذا التجانس السكانى الذى نعم به الشمال النصرانى الا أنه يشتم رائحـــة بقـــاء المشكلة القديمة ، وهى عدم الانصهار التـــام بين القوط وبين الســـكان الأصليين من الايبيريين الرومان . ويذكـــر بعض المؤرخين أن الجلالقة غير القوط ويفصلون بينهما قائلين أن « العرب استولوا على الأندلس وملكوها من يد القوط والجلالقة . وأن الباسك أيضـــا عنصر مميز يختلف فى أصـــله عن الأسبان ، أو أنهم ــ أى الباسك ــ كانـــوا أيبيريين أقحاح ، وأما سائر الأسبان فهم أيبيريون أمشـــاج ، أى أنهـــم اختلطوا بغيرهم من العناصر والأجناس التى طـــرأت على أسبانيا قبـــل الفتح العربى لها بزمن طويل » ورغم ذلك فقـــد صهرت المعارك المستـمرة مع المسلمين عناصر السكان فى الشمال الأسبانى ، وجعلتهم ينسون ما بينهم من فروق جنسية أو اجتماعية ازاء مكافحة العـــدو المشترك(١١٦) .

لم يستعن ملوك الجلالقة بعنصر جديد على شعبهم ، أو لم يستخدموا عنصر غريبا فى جيوشهم كما فعل أمراء بنى أمية وخلفاؤهم من بعدهم . وكما رأينا استعان أمراء بنى أمية بالصقالبة وبالموالى والنصارى من الأسبان ، وبالبربر ، وسما هؤلاء ووصلوا الى أعلى المناصب ، لكنهم لم يكونوا مخلصين للعرش الا عندما يكون قويا ، أما فى حالة الضعف فكان كل واحد من هؤلاء يعمـــل لمصلحته الخاصة ، ولو سنحت له فرصـــة ينال من ورائهـــا نفعا ، كان ينتهزها ولو أدى الأمر الى مقتل مليكه أو سيده .

خذ على سبيل المثال نصرا الخصي الصقلبى خادم الأمير عبد الرحمن الأوسط ، الذى اشترك مع طروب ، تلك الجارية الصقلبية وحظية ذلك الأمير فى مؤامرة للاطاحة به ؛ حتى تضمن عرش البـــلاد لابنهـــا دون بقية اخـــوته من الزوجات الأخريات . والاستعانة بهذا الشتات من العناصر والأجناس كانت نقطة ضعف فى جسم الأمة الاسلامية فى الأندلس ، بينمـــا

---

(١١٦) ابن خلدون ، تاريخه ، المجلد الثانى ، القسم الثالث ، ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ارسلان ، المرجع نفسه ، جـ ١ ، ص ٣٢٥

Livermore, op. cit., p. 81.

كان تجانس السكان فى الشمال وعــدم استخدام ملوكهم لعناصر اجنبيـــة فى جيوشهم أو بلاطهم عنصر قوة يحسب لهم(١١٧) .

٣ ــ العــامل الدينى وأثره :

هناك أيضا العــامل الدينى وكيف استغله ملوك الجلالقة بالذات فى اثارة الصراع ضــد أمراء بنى أميــة ومن أتى من بعــدهم . وكمــا هو معــروف كانت الكنيسة قد أعلنت مبدأ الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية اثر غزوات البرابرة لأوربا حتى تحمى نفسها وتحتفظ بحريتهــا من هؤلاء ، ثم تسرب نفــوذ الكنيسة الى السلطة الزمنية عندما انضم القسس والأساقفة الى السلك المــدنى أو أشركوا المدنيين فى مجامعهم الدينيــة ، مثل مجمع طليطلة الدينى (١١٨) .

وبذلك صار للكنيسة دورها فى حكومة ملوك الشمال النصرانى ، ولذلك أغــدق عليها هؤلاء المــلوك حتى يضمنوها الى جانبهم فى الصراع ضــد بعضهم البعض أو ضد مسلمى الأندلس ، وكما أشرنا فقــد أجبرهم هذا الاغداق على فرض كثير من الضرائب على أصحاب الضياع حتى أنهم ثاروا ضد ملوكهم لهذا السبب . وكانت الكنيســة نفسها تميــل الى ذلك وتتحــد مع المــلوك وتؤيد سلطتهم المطلقة رغبــة فى مقاسمتهم السلطة الزمنية ، وان كان هذا ضــد حرية الرعايا(١١٩) .

لم يكن هناك صراع اذن بين ملوك الجلالقة وبين رجال الكنيســة ، فاذا أضيف الى ذلك قوة ميل الأسبان للتشــدد فى الايمــان والتعصب لكل ما يؤمنون به بعــد أن تأصلت الكاثوليكية فى ربوع البلاد ، لأدركنا على الفور

---

(١١٧) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٤١ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٣٩ .

(١١٨) كيزو ، التحفــة الأدبية ، ص ١٨٦ .

(١١٩) كيزو ، التحفــة الأدبية ، ص ٧٢ .

مدى قوة ذلك الحـــدث الدينى الكبير الذى سوف يستغله ملوك اسبانيا استغلالا مفيدا جـــدا فى شحن عزائم رجالهم واثارة شعبهم ضـــد مسلمى الأندلس(١٢٠) .

ذلك أن راهبا فى قاصية جليقية الغربية زعم أنه شاهد فى احدى البقاع نورا سماويا يكشف عن مثوى رفات القديس ياقب (يعقوب) الرسول ، وحمل هذا النبأ الى الملك الفونش الثانى (١٧٥ ــ ٢٢٧ هـ / ٧٩٢ ــ ٨٤٢م) الذى أمر على الفور ببنــاء كنيسة فوق هذا المكان .

وذاعت الأسطورة فى جميع الأنحاء ، وصدقها الناس دون تردد ، وبدأت جماعات الحجاج ليس فقط من أسبانيا ولكن من جميع أنحاء العالم النصرانى ، تفد لزيارة هذا المكان المقدس الذى أصبح له أهمية تلى أهمية أورشليم وروما (١٢١) .

وسرعان ما نمت مدينة فى هــذا المكان وسميت باسم سنتياجــودى كومبوستيلا Santiago de Compostela ، وأصبحت تلك المدينــة مؤثرا دينيا وسياسيا وصناعيا وتجاريا فى الشمال الغربى المســيحى ، وكان ملوك أسبانيا من الذكاء بحيث استغلوا هذا الكشف المثير لذلك القبر ، وألهبوا حماس النصارى فى معاركهم ضــد المسلمين مما أعطى لهــذه المعارك صــفة الحرب الصليبية منذ وقت مبكــر . يتمثل ذلك فيما أدعاه المــلك ردمير ابن الملك ألفونش الثانى (٢٢٦ ــ ٢٣٤ هـ / ٨٤٢ ــ ٨٥٠ م) أنه فى احــدى المعارك رأى القديس ياقب فى نومه ليــلة المعركة ووعــده بالنصــر(١٢٢) .

---

(١٢٠) مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٩ .

(١٢١) عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ، جـ ١ ، ص ٢١٦ .
Chapman, op. ct., p. 55

(١٢٢) عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ، جـ ٢ ، ص ٦١ ،
Chapman, op. cit., p. 55

واذا كان المسلمون يعلنون الجهاد باسم الاسلام ويجعلون للصراع مع المسيحيين طابعا دينيا فلماذا لا يفعل المسيحيون ذلك . وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل عندما نتكلم عن طبيعة الحرب بين المسلمين والمسيحيين فى بداية الفصل الثالث من هذا الباب ، وما يهمنا الآن هو أن نقول أن ملوك أسبانيا استغلوا العامل الدينى أحسن استغلال لضرب المسلمين وللتخلص من خطر انقسام كانت قد بدت ظواهره فى الأفق عندما حاول مطران طليطلة Elipandus وصديقه Felix أسقف Urgel أن يعيدوا الى الأذهان فى عام ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م مذهبا لاهوتيا قديما يقول بأن المسيح كان رجلا امتلأ بالروح المقدسة وهكذا تبناه الله واختاره . وهو مما يناقض العقيدة الكاثوليكية التى تؤمن بعقيدة الثالوث المقدس وأن المسيح هو الله[١٢٣] .

ورغم أن طليطلة كانت فى هذا الوقت تحت حكم المسلمين ، الا أن مطرانها هذا كان له من التأثير بحيث كان المسيحيون سواء فى الأندلس الاسلامية أم فى أسبانيا النصرانية يعتبرونه المهيمن على شئون الكنيسة ، ولما تسربت أقواله وآراؤه تلك الى أشتريس ، تحطمت الوحدة الدينية الأسبانية ، وكانت هناك حاجة الى من يلم شمل الكنيسة من جديد ، فكانت أسطورة هذا القبر المقدس الذى نادى به أحد الرهبان وصدقه الملك الفونس الثانى لغرض فى نفس يعقوب[١٢٤] .

٤ ــ **اما عن علاقة امارات الشمال الأسبانى ببعضها** وأثر ذلك فى صراعها ضد مسلمى الأندلس ، فقد سبقت الاشارة مرارا الى تلك العلاقة التى كانت تترابط ملوك الجلالقة بأمراء نبرة ، وخاصة بعد أن استقل هؤلاء وأنشأوا مملكة نبرة المستقلة فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى . وأشرنا الى ثورات أمراء نبرة

---

(١٢٣) Livermore, op. cit., pp. 79, 80.

(١٢٤) Livermore, op. cit., pp. 79, 80.

ضد ملوك الجلالقة ، ثم أطماع هؤلاء فى أراضى نبرة مما اجبر أهلها الى الاستعانة ببنى قسى المولدين المسلمين .

وقد استعان المسلمون ومسيحيو الشمال الأسبانى بملوك الفرنجة على حد سواء . أما المسلمون فبسبب الصراع على السلطة فى قرطبة ، وأما النصارى فبسبب طلب المساعدة فى صراعهم ضد مسلمى الأندلس . وكان ملوك الفرنجة يرغبون أيضا فى فرض سيطرتهم على الأراضى الأسبانية المتاخمة لحدودهم حتى يأمنوا على أنفسهم داخل بلادهم ، بعد أن أذاقهم العرب الويل أيام عصر الولاة وتوغلوا داخل غالة (فرنسا) حتى نهر اللوار على مسافة قريبة من باريس . ولذلك كان ملوك الفرنجة يرحبون دائما بأى طلب للمساعدة ، يقدم لهم سواء من الجانب الاسلامى أم المسيحى[١٢٥] .

وقد حالف الملك الفونش الثانى (١٧٥ — ٢٢٧ هـ / ٧٩١ — ٨٤٢ م) الامبراطور شرلمان وابنه لويس التقى ، كما حالف البشكنس أيضا ، وذلك لتعزيز هجومه ضد الحكم (١٨٠ — ٢٠٦هـ / ٧٩٦ — ٨٢١م) وابنه من بعده الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ / ٨٢١ — ٨٥٢ م) وكان من نتيجة التواجد الفرنسى أن سقطت برشلونة فى يد الفرنجة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، وقامت امارة قطلونية أو المارك الأسبانى التى كان يحكمها أمراء من قبل ملوك الفرنجة مباشرة . كما استطاع هؤلاء الملوك بث نفوذهم فى تلك الامارة الصغيرة التى قامت على سفوح جبال البرنات مثل امارة سوبراب Sobrarbe وسردونيا

---

(١٢٥) عن الصراع بين مسلمى الأندلس على السلطة واستعانتهم بالفرنجة ، انظر ، الرازى برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٢ — ٩٤ ، ١٠٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢٠ ، ٢٤ .

ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٢٤ ،

Dozy, op. cit., pp. 204-206.

العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ورقة ٢٩٨ ، ٢٣٥ ،

Serdonia التى يسمى العرب أهلهـا باسم السرطانيين ومثل امـارة ارغونة وغـيرها(١٢٦) .

وكان هذا الوجود العرنسى مفيدا لنصارى الشمال الأسـبانى ، فقد أصبحت امارة قطالونية بموقعها خلف الثغر الأعلى الأندلسى من جهة الشرق مثل الشوكة فى ظهـره ، كما أصبح الوجـود الفرنسى فى الشمال ملاذا يحتمى به نصارى هذه المنطقة اذا ما حلت بهم الهزيمة أو طاردتهم قوات المسـلمين . لكن هذا لا يمنـع من القول بأن كل وحدة فى شمالى أسبانيا كانت تعمـل لحسابها الخاص . ولذلك لا نندهش اذا رأينا المسـيحيين يحاربون المسـلمين وأيضـا يحاربون المسـيحيين الآخـرين(١٢٧) .

خذ مثالا على ذلك ، نبرة النصرانية وتحالفهـا مع بنى قسى المسلمين ضد ملوك الجلالقة النصارى ، وخذ حملة شرلمـان على الثغر الأعلى الأندلسى عام ١٦١ هـ / ٧٧٨ م . وسـواء أتت تلك الحملة باستدعاء من المسلمين أم من المسيحيين ، الا أن المسلمين تخلوا عن مساعدتها ، بل وقاتلوها ولم يسمحوا لهـا بدخول سرقسطة . كمـا أن المسيحيين من شعب الباسك أغاروا على مؤخـرة جيش شرلمـان أثناء انسحابه عبر ممرات جبال البرنات الغربية قرب نبرة والبشكنس ، وكبدوه خسائر فادحة ، وقتلوا رولان الذى نشأت بسببه أنشودة رولان المشهورة(١٢٨) .

وكان هذا عاملا من عوامل الضعف أفـاد منه المسلمون وخاصة فى العصور التالية ، ولو لم يقم ملوك أقوياء فى جليقيـة من أمثال الفونش

---

(١٢٦) ابن عـذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٩٢ ـ ٩٤ ، ١٠٣ .
Chopman, op. ct., pp. 55,65.
Chapman, op. pp. 56.
(١٢٧)
(١٢٨) أرسلان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢٢ ، Chapman, op. ct., p. 43.
لين بول ، قصة العرب فى أسبانيا ص ٣٠ ، ٣١ .

الأول والثانى والثالث المعاصرين لمعظم أمراء بنى أميـــة ، واستطاعوا أن يلموا شمل النصارى بالقـــوة ويدفعوا العرب عن بلادهم ، لمـــا قامت لهم قائمة ، ولو لم ينضو نصارى الشمال تحت لواء هؤلاء المـــلوك الذين لم ينازعهم أحـــد بصفة جـــدية حيث كانت مملكة نبرة فى طور النشأة ، لكان الخطر على النصرانية نفسها عظيما(١٢٩) .

هذه لمحة سريعة عن أحوال نصارى الشمال الأسبانى وما كان فيها من عوامل قـــوة ، كفلت لهم الدفاع عما تبقى لهم من بلادهم ثم الهجوم على المسلمين واستعادة بعض أراضيهم حتى وصلت هجماتهم فى عهـــد الفونس الثالث خلف نهـــر التاجة ، وأصبحت المنطقة الواقعـــة بين نهـــر دويرة والمندجو جـــزءا من ممتلكاتهم . وهناك أيضا عوامل ضعف استغلها المسلمون واستطاعوا أن يوقفوا هـــذا الزحف النصرانى ويردوه على أعقابه ، ويستعيدوا جـــزءا مما فقـــدوه فى عصر الولاة ، ويتبادلوا الهزائم والانتصـــارات مع نصارى الشـــمال .

لكن نصارى الشمال استطاعوا فى الفترة الأخيرة من عصر الامارة الأموية أن يفرضوا أنفسهم ، وان تصل هجماتهم حتى مدينة ماردة على وادى يانة فى الجنـــوب الغربى من الأندلس ، وأن يثيروا الاضطرابات فى طليطلة وماردة وقرطبـــة ذاتها ، حتى بات أمر الاســـلام فى كفـــة الميزان ، ولم ينقـــذ تلك البلاد الا زعيم مقتـــدر هو عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م) .

والآن بعـــد أن القينا نظرة عامة على أحوال بلاد الأندلس فى عصر امارة بنى أمية ، وعلى أحـــوال بلاد الشـــمال الأسبانى وعرفنا عوامل النصر والهزيمة عند كل من الطرفين المتصارعين على أرض شبه الجزيرة أصبح الآن حديثنا عن الصراع نفسه واجبا . لكن ما هى طبيعـــة هذا الصراع ؟ وهل كان صراعا عســـكريا مستمرا ، أم تخللته فترات من السلام والهـــدوء تبادلا فيها السفارات والبعثات ؟

هذا هو ما سوف نتحدث عنه فى الفصل الثالث من هذا الباب .

---

(١٢٩) محمد كرد على ، المرجع نفسه ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

الفصل الثانى

مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر خلفاء بنى امية

منذ ان وطئت اقدام عبد الرحمن الداخل ارض الأندلس وحتى قيام خلافة عبد الرحمن الناصر (١٣٨ — ٣١٦ هـ / ٧٥٥ — ٩٢٨ م) قام صراع طويل بين مسلمى الأندلس ونصارى الشمال الأسبانى لم يتوقف الا لفترات قليلة . وما كان له أن يتوقف اذا عرفنا دواعى هذا الصراع وأهدافه . ولو وضعنا يدنا على أسباب هذا الصراع ودواعيه لعرفنا بكل بساطة طبيعته أو مدلوله ومفهومه السليم .

أ ـ طبيعة الصراع بين أمراء بنى أمية وبين نصارى الشمال الأسبانى وأسبابه :

بادىء ذى بدء ، نقول ان مسلمى الأندلس لم يكن هدفهم من هذا الصراع الذى قاموا به ضد نصارى الشمال الأسبانى ابادة هؤلاء النصارى أو تحطيم دولهم وازالتها من الوجود . وذلك لسبب بسيط هو أن معظم الحملات التى قاموا بها لم تكن الا رد فعل لاعتداءات النصارى على الثغور الاسلامية أو مناطق الحدود المجاورة لهم . صحيح أن حملات المسلمين اتخذت شكلا تقليديا وزمنيا ثابتا ، وهو ارسال صائفة كل سنة تقريبا ، وربما كانت هناك شاتية ، لكن لم يكن ذلك الا دفعا لخطر النصارى أو ارهابا لهم ، وتأمينا للحدود الاسلامية التى لم تكن حدودا ثابتة على الدوام . وهذا النوع من الحرب يسمى الآن فى المصطلح الحديث بالحرب الوقائية .

فالمسلمون اذن كانوا يريدون التعايش مع جيرانهم ولم يهدفوا الى القضاء عليهم . وهناك من العوامل التى أشرنا اليها فى تحليلنا لأحوال الدولة فى عصر الامارة ما يؤكد هذا الاتجاه ، اذ كان الأمويون مشغولين فى تثبيت أمرهم والقضاء على الفتن وحركات التمرد الداخلية التى لم يخلُ منها عصر أى أمير من أمراء بنى أمية ، زد على ذلك هذا الانقسام أو الانشقاق الخطير فى كيان المجتمع نفسه وانقسامه الى بربر وعرب ومولدين ونصارى أواخر عصر الامارة ، وقيام كل فئة من هذه الفئات أو كل قوم من هؤلاء الأقوام بتثبيت سلطانه واعلان استقلاله ، ومحاربته للسلطة المركزية فى قرطبة بهدف القضاء عليها .

واذا كان أمر هذا التعايش مع نصارى الشمال صحيحا ، فما هو هدف « الجهاد » الذى كان يعلنه أمراء بنى أمية ويصبغونه بالصبغة الدينية ؟ المعروف أن الجهاد فى سبيل الله يستهدف أمرين ،

اولاهما نشر الاسلام فى أرض لم يدخلها الاسلام ، وثانيهما هو الدفاع عن أرض دخلها الاسلام . وفيما يبدو كان الهدف الثانى هو الذى كان يشغل بال أمراء بنى أمية وخلفائهم ، أما نشر الاسلام ، فانهم داخل الأندلس نفسها ، لم يجبروا أحدا على اعتناقه ، ولم تكن هناك فرصة لقيام هجمات اسلامية ضد نصارى الشمال بهدف نشر الاسلام فيما بينهم ، خاصة بعد أن تحطمت محاولاتهم وراء جبال البرنات ولم يجنوا من وراء ذلك الا اعطاء الفرنجة الفرصة ليتدخلوا لمصلحة النصارى فى الصراع الدائر بينهم وبين المسلمين .

كانت حركة الفتوحات بقصد نشر الاسلام قد توقفت فى عصر الامارة وقنع المسلمون بما وضعوا عليه أيديهم من بلاد ، واخذوا فى تنظيم شئونهم وترتيب أوضاعهم حتى ينعموا بثمرات الفتح ويستريحوا من هذا العناء الطويل والجهد العظيم الذى بذلوه منذ الفتح . ولم يكن الاستمرار فى حركة الفتح ممكنا لدولة مثل الأندلس بالذات ، وهى دولة منقطعة عن غيرها من دول العالم الاسلامى الذى كان يعاديها ويقف لها بالمرصاد . اذ كان العباسيون والأغالبة والأدارسة والفاطميون يقفون موقف العداء من بنى أمية فى الأندلس ، وهذا أمر معروف وليس بخاف على احد(1) .

على هذا الأساس يمكن أن نقول ونحن مطمئنون تماما أن هدف مسلمى الأندلس من حملاتهم المتتابعة فى عصر الامارة وحتى الخلافة، هو توفير الحماية والأمن للمواطنين الذين يعيشون فى مناطق الثغور الاسلامية . كان هذا هو الهدف الرئيسى من حملات المسلمين ، وما عدا ذلك فهى أهداف ثانوية تدعم الهدف الأساسى ولا ترقى الى مستواه .

وهناك مثلا من يقول أن من الأهداف ، زرع هيبة المسلمين فى نفوس أعدائهم واذلال هؤلاء الأعداء واجبارهم على الاستسلام حتى يقدموا

---

(1) ابن خلدون ، مقدمته ، ج ٢ ، ص ٧٠١ .

فروض الطاعة والولاء والجزية ، وهدم حصونهم المقامة على الحدود الاسلامية ، أو الاستيلاء عليها واسكانها بالمسلمين ، وتخريب أراضى العدو والتوغل فيها ، واجباره على تنفيذ شروط الصلح المعقودة اذا حاول الاخلال بها ، وتلبية نداء ملوك النصارى الموالين لقرطبة فى حالة خلعهم من عروشهم(٢) .

كل هذا صحيح ، لكنه يدخل ضمن الهدف الأساسى ، وهو توفير الأمن والأمان لمسلمى الأندلس . ولتحقيق ذلك قام أمراء بنو أمية بحملات ضد نصارى الشمال ، لا بقصد ابادتهم ، فلم يعد ذلك ممكنا بعد أن قامت دولة جليقية ودولة نبرة ، ومن ورائهما الفرنجة يمدونهما وقت الحاجة ، كما كانوا يمدون أيضا امارة قطالونيا ، تلك الشوكة التى زرعها الفرنجة فى ظهر الثغر الأعلى الأندلسى . فكان هدف الحملات الاسلامية هو التأديب أو الارهاب واجبار هؤلاء الناس على التعايش فهم جميعا يعيشون على أرض أسبانيا .

وكان نصارى الشمال يستجيبون أحيانا ، وتتعدد مظاهر هذا التعايش من مصاهرات تتم بين ملوك الأسبان وبين ملوك الأندلس وأمرائه وجنوده وغيرهم ، ومن تبادل للبعثات والمتاجر ، وارسال الطلاب المسيحيين لتلقى العلم فى قرطبة الى غير ذلك مما سوف نتعرض له فى الباب الرابع . وعلى هذا الأساس لم يكن هناك تعصب دينى من مسلمى الأندلس ، ولم يكن هذا الطابع ملحوظا حينما كان التفوق فى جانب أسبانيا المسلمة أيام الدولة الأموية ، وكان قاصرا على جماعات الفقهاء من ناحية وعلى القساوسة والأحبار من ناحية أخرى(٣) .

كان هناك فقط حث على الجهاد وتقوية للروح المعنوية عند المسلمين . واتخذ ذلك مظاهر شتى ، لكنها جميعا لم تكن تعصبا

---

(٢) هشام أبو رميلة ، نظم الحكم فى الأندلس ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٣) عنان ، نهاية الأندلس ، العصر الرابع ، ص ٥٥ .

بقصد القضاء على النصرانية كدين ، كلا ، فان ديننا يعترف بجميع الأديان والرسل والأنبياء بل ويوصينا بأهل الكتاب . وكان من مظاهـــر الحث على الجهـــاد ، الخطب الدينية وصيحات خاصة يقولها المجاهدون اثناء القتال ، والتحدث عن قـــوة ضربات السيوف الاســـلامية لالقاء الرعب فى قلوب الأعداء(٤) .

وكان هناك من القضـــاة والفقهـــاء من يشتركون فى الجهاد والغزو بل ويعقـــد لهم اللواء على جند احـــدى الكور ، كمـــا حدث مع القاضى الفـــرج بن كنانة والقائد عبد الكـــريم بن عبد الواحد بن مغيث ، حيث عقـــد لهذا القائد على جنـــد شذنة لقتال جليقيـــة . وكان هناك ايضـــا من يأتى الى الأندلس من بلاد المشرق الاسلامى والشمال الأفريقي من العلمـــاء ممن يتطوعون للجهـــاد ، باعتبـــار أن الأندلس كانت ثغـــرا اســـلاميا(٥) .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن بعضا من علماء الأندلس استباحوا لأنفسهم وضـــع « أحاديث » ونسبوها للرسول ، فيها حض الناس على الجهـــاد والغزو والرباط ، وقـــد أشـــار الى ذلك الضبى وأورد محمـــد الشطيبى المغربى حوالى خمسة عشر حديثـــا فى هـــذا المعنى منهـــا أن « الاسلام ســـوف يبقى فى الاندلس حتى تقـــوم الساعة » ، وأن « رباط يوم وليلة فى الأندلس خير من اثنتى عشرة حجـــة بعـــد الفريضة » ، « وفى آخر الزمان يغشاهم عدوهم فيقتلهم على فراشهم وتسبى زراريهم وتخـــرب

---

(٤) احمد مختار العبـــادى ، صـــور لحيـــاة الحرب والجهاد فى المغرب والأندلس ، ص ٩٠ ـ ٩٢ .

(٥) النباهى ، تاريخ قضـــاة الأندلس ، ص ٥٤ .

الضبى ، بغية التلمس ، ص ١٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

ابن الزبير ، صلته الصلة ، ص ١٧٠ ، ابن خلـــدون ، مقـــدمته ، ج ٢ ، ص ٧٠١ .

مساجــدهم » ، الى آخر هذه الاحـــاديث التى قيلت لتشجيع أهل الاندلس على الصمود والثبـــات أمام غزوات النصـــارى (٦) .

وكان هنـــاك مجـــال تفوق فيه العرب وهو الشعر ، فكان الشعراء يصحبون الجنود ويصفون المعـــارك ويبثون الحميـــة فى قلوبهم ، ويعودون يرددنهـــا فى الطرقـــات والميادين والشـــوارع ممـــا يثير اعجـــاب الناس أما اذا دعا داعى القتـــال وهـــرع الناس للالتحـــاق بالجنـــد ، امتنع هؤلاء الذين يمشون فى الاسواق ينشدون الازجال والاشعار عن الانشاد ، الا اذا كانت تثير فى الناس الحمية ، وتزرع فيهم حب القتال .(٧) .

وبلغ من تشجيع الدولة والعلماء للجهـــاد أن الامام مالك ومذهبه كمـــا هو معروف هو السائد فى المغرب والاندلس ، أفتى بأن يكون الجهـــاد والغزو كفـــارة لحـــد القتل اذا امتنع أهل القتيل عن القصاص أو اخـــذ الدية من القـــاتل ، فمـــا عليه الا أن يتوجه للجهـــاد فيغزو فيقتل . كمـــا أن الدولة قامت من جانبها وفرضت ضريبة تسمى « الطبل العـــام » وأخرى تسمى « ضريبة الحشد » لاعانة بيت المـــال على الصرف على تلك الغزوات المتلاحقـــة ضـــد نصارى الشمال ، كمـــا كانت تخصص العشور لنفقـــات الجنـــد ، وكانت تخزن فى خزائن واسعة لوقت الحاجة (٨) .

هذه مجرد أمثلة لحب النـــاس للجهاد الذى كان هدفه هو الدفـــاع عن اخوانهم من مسلمى الثغور ، وكانت الدولة بصفة عامة تريد التعايش مع نصارى الشمال . فهل قبل هؤلاء بهذا التعايش الذى طلبه المسلمون ؟

---

(٦) الضبى ، بغية الملتمس ، ص ١٤ .
محمد الشطيبى المغربى ، الجمان فى أخبار الزمان ، ورقة ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
(٧) ابن عبدون ، ثلاث رسائل اندلسية فى الحسبة ، ص ١١٣ .
بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٣٧ .
(٨) العـذرى ، نصوص عن الأندلس ، ص ١٢٥ ، النباهى ، المصـدر نفسه ، ص ٦٢ .
ابن دحية ، المطرب من اشعار أهـل المغرب ، ص ١٣٦ .
المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢١١ ، ٢١٤ .

الجواب ، لا. لم يقبل نصارى الشمال بالتعايش جنبا الى جنب مع مسلمى الأندلس . كيف ذلك وهم يعتبرونه شعبا أجنبيا يعتنق دينا يخالف عقيدة الكاثوليكية التى يؤمنون بها ويتعصبون لها . فماذا كان هدفهم اذن ؟

منذ أن قامت دول الشمال النصرانى فى اسبانيا ، وجد معها منذ قيامها الحافز على قتال المسلمين . فقد قامت أولا للدفاع عما تبقى لها من أرض شبه الجزيرة ، وتطور الدفاع الى الهجوم المتئد فى النصف الاخير من عمر الامارة ، وصار هجوما طاغيا بعد سقوط الخلافة الاموية فى قرطبة . وكان هدف الهجوم هو الارض ، هو استعادة أرض شبه الجزيرة التى سيطر عليها المسلمون منذ أيام طارق بن زياد وموسى بن نصير

واتبع نصارى الشمال اساليب مختلفة لتحقيق هذا الغرض . اتبعوا أسلوب الحرب السافرة وجها لوجه ، وتحريض المولدين ، واثارة الفتنة بين النصارى والمسلمين ، واستعداء الفرنجة على المسلمين ، وحرب العصابات وحرب الاستنزاف والانهاك . وكانت معظم حروب النصارى من هذا النوع الأخير ، يضربون ضربة هنا ، واخرى هناك ، فيقوم الامير الاموى وينفق آلاف الدنانير ويجند آلاف الجند ، ويقود جيشه بنفسه أو بواسطة أحد أولاده أو أخوته أو أحد قواده ويسير آلاف الأميال ، حتى اذا وصل الى منطقة الثغور يجد النصارى قد هاجموا أحد الحصون ودمروه ونهبوا ما فيه وماحوله من قرى ، ثم لاذوا بالفرار

ولاشك أن هذا كان يكلف خزانة الامارة الاموية كثيرا من الاموال ويجهد مواردها أشد الجهد ، لكنها كانت مضطرة ازاء هذا السيل من الهجمات التى كان يقوم بها نصارى الشمال على ما يجاورهم من ثغور المسلمين . وكان حاكم قرطبة مسئولا عن توفير الحماية لهؤلاء ، ولو توانى لقام عليه الفقهاء والعامة واتهموه بالتفريط فى حفظ ديار الاسلام وهو اتهام دينى خطير لايتحمله اى حاكم فى ذلك الوقت . وتحكى

لنا المصادر أن أحد حكام قرطبة من بنى أمية قام باحدى غزواته انقاذا لامرأة مسلمة أسرها النصارى واستغاثت به واتهمته بالتوانى عن انقاذها من أيديهم (٩) .

وكان هذا ما يهدف اليه نصارى الشمال ، وهو اجهاد مسلمى الأندلس وخلق المشاكل أمامهم سواء داخل الاندلس نفسها أم على حدودها حتى يحين الوقت المناسب لتوجيه ضربات عاتية تقتلعهم من الارض .. أرض الأسبان . حدث هذا عدة مرات فى عصر الامارة ، وخاصة فى عهد الفونش الثانى والثالث حينما كانت حكومة قرطبة مشغولة بالقضاء على المتمردين عليها من العرب والمولدين ونصارى أهل الذمة .

كان هذا هو هدف الاسبان من حربهم ضد مسلمى الاندلس ، وهذا هو أسلوبهم . فماذا يقول المؤرخون عن هذه الحرب ؟ هناك من يقول بأن حروب الاسبان هذه كانت حربا دينية تستهدف نصرة الكنيسة وهزيمة الاسلام ، ومن يقول بأنها كانت حربا قومية تستهدف استرداد الوطن السليب ، ومن يقول بأنها جمعت بين الدين والقومية ، ومن يقول بأنها كانت حربا لاتستهدف الا الحصول على أرض الكنيسة والتاج وليس هدفها الاسترداد أو تحرير البلاد .

اما القول بأنها كانت حربا دينية أو مقدسة أو صليبية فأمر يحتاج الى وقفة . ذلك لأن المسلمين لم يعتدوا على مقدسات النصارى فى الأندلس حتى يدعو هؤلاء الى حرب صليبية كما دعا اليها نصارى الغرب فيما بعد بهدف انقاذ بيت المقدس أو قدس الاقداس من يد هؤلاء المسلمين المتعصبين الذين اعتدوا — بزعمهم — على حرية الاماكن المقدسة فى أورشليم ومنعوا زيارتها وقتلوا حماتها ... فشانت ياقب (القديس يعقوب) ، وهو المزار المقدس عند الاسبان كان فى يدهم وتحت سيطرتهم ، وحتى عندما استطاع المسلمون فى عهد المنصور بن أبى عامر

---

(٩) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

الوصول اليه عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، لم يمسوا هذا المزار بأذى ، نعم ، دمروا المدينة وهدموا الكنيسة ، لكنهم حافظوا على قبر هذا القديس المزعوم بل وعينوا هناك من يحرسه (١٠) .

وحتى قصة القديس يعقوب نفسها لم تظهر منذ أن بدأت حرب الاسترداد فى بداية عصر الامارة الاموية . ولم تأت هذه القصة الى الوجود الا فى عهد ملك جليقية (ليون) الفونش الثانى (١٧٥ — ٢٢٧ هـ / ٧٩١ — ٨٤٢ م) ، وبالتحديد فى عام ١٩٧ هـ / ٨١٣ م ، أى فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وبعد أن كان قد مر على قيام الحكم الاسلامى فى الاندلس ما يزيد على قرن من الزمان . هى قصة اخترعها الرهبان مع الفونس الثانى لكى يثيروا النصارى ويدفعوهم للاستماتة فى القتال ضد المسلمين (١١) واخترعوها ليعالجوا هذا الصدع الذى هدد المذهب الكاثوليكى بسبب ما ذهب اليه أسقف طليطلة من مذهب يخالفه ويناقضه أشد المناقضة ، واخترعوها ايضا لكى تستطيع العقيدة الكاثوليكية — بفضل الطقوس الجديدة للقديس يعقوب — الوقوف أمام عقيدة الاسلام الواضحة ، سواء فى فكرة الالوهية أم فى سائر ما احتوت عليه من مفاهيم اخلاقية أو عبادات ومعاملات . ووجد الاسبان فى قصة القديس يعقوب الملاذ الذى يلجأون اليه للخروج من هذا المأزق الذى وضعتهم فيه شريعة الاسلام الغراء (١٢) .

هذا ولم يقدم الينا التاريخ أحداثا مؤكدة نشأت بسبب هذه الطقوس الخاصة بقصة القديس يعقوب ، لكن الخطر ليس فى القصة ذاتها ، ولكن فى تصديق الناس لها واعتقادهم فيها ، ذلك الاعتقاد الذى أصبح اعتقادا حربيا لدرجة انه حرك الرجال لكى يقوموا بأعمال لايمكن تصديقها . ويبدو أن القول بأن الاساطير تحرك الانسان

---

(١٠) Crow, op. cit, p. 85

(١١) انظر ، الفصل الثانى ، الباب الاول ، ص

(١٢) Crow, op. cit, p. 83

فى التــاريخ بقــوة أكثر من الاحــداث الواقعية هو قول صحيح الى حــد كبير وخاصة فى مثل ذلك الزمن ومثل هذا الصراع الذى نتحــدث عنه[١٣].

والأسطورة تقــول بأن القديس يعقوب العظيم بن زبيدى (أو زبدى Zebedee ـ احد الحواريين الاثنى عشر ـ اتى الى اسبانيا لينشر المسيحية ، وظل هنــاك لمــدة ست سنوات ثم عاد الى أورشليم حيث صلبه الملك هيرود Herud واستطاع تلاميذه المخلصون أن يخفوا جسده وأن يضعوه فى سفينة وصلت به الى أسبانيا ، ونزلوا به هناك فى الميناء الرومانى القــديم Ira Flavia على ساحل جليقية ، ثم ذهبوا به الى موقع مدينة شنت ياقب (سنتياجو) الحــالى حيث دفنوه هناك. وكان القبر مكانا يحج اليه الناس لعــدة سنوات ، لكن عندما ازداد الاضطهــاد الرومانى للمسيحيين الاسبان ، اهملت تلك البقعة ونســيها النــاس مدة ستة قرون . [١٤]

ويستطرد صاحب الرواية قائلا انه فى عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ م ادعى راهب كان يعيش فى تلك المنطقــة بأنه راى نجما يسطع فوق شجرة بلوط عدة ليال متتالية ، وبذهابه الى هناك مع أسقف المنطقة ، وجــد مقبرة بهــا رفــات ثلاثة اشخاص ، أحدهم مقطوع الراس ، فافترضا أن هذا هو قبر القــديس يعقوب ، وأخبرا الملك الفونس الثانى (١٧٥ـ ٢٢٧هـ / ٩٧١ ـ ٨٤٢م الذى ذهب الى هنــاك مع رجــال بلاطه وأمر ببنــاء كنيسة على الموقــع . وعرف البابا ليو الثانى Leo بالحادث وقــام باعلانه فى رسالة له الى العــالم أجمع ، وكأن ذلك الامر كان مجهولا من البــابوية ولم تعرف من قبل أن احد الحواريين العظــام يرقد جدثه فى أرض أسبانيا [١٥] .

---

(١٣) Crow, op. cit, p. 83

(١٤) Crow, op. cit, p. 83

(١٥) Crow, op. cit, p. 83

ويشكك صاحب هذه الرواية فى معرفـــة أى من هذه الهياكل العظمية الثلاثة هو للقـــديس يعقوب ، لان عظامها كانت مختلطة وموضوعة معـــا فى صندوق واحـــد . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقـــد أنكـــر تلك القصة برمتهـــا مؤرخـــوا الكنيسة الرومان وعلى رأسهم يوسابيوس القيصرى الذى عاش فى العصو الاولى لانتشار المسيحية (٢٦٤ — ٣٤٥م) والذى يعتبر حجة فى تاريخ الكنيسة ، كما أنه من أقـــدم المؤرخين وأسبقهم فى هذا الموضوع واليه يرجع المؤرخون قديمـــا وحديثا .

فقـــد استعرض ذلك المؤرخ تاريخ القـــديس يعـــقوب حتى لحظـــة استشهاده بأرض فلسطين فى أورشليم ثم قال « ولمـــا استشهد دفنـــوه فى الحـــال بجـــانب الهيكل ، ولايزال قبـــره بجـــوار الهيكـــل » [١٦] ويقول مؤرخ مسيحى آخر بأنه من المرجح أن يعقوب لم يفـــارق أورشليم بل بقى فيها حتى نال الشهادة على يد هيرودس أجريباس عام ٤٤ م ، ولذلك يشك فى صحة ماتدعيه الكنيسة الاسبانية من أنـــه بشر عنـــدهم بالمسيحية [١٧] . كان هذا فى النصف الاول من القرن الرابع الميلادى ، فى حين تقـــول الاسطورة بأنه نقل الى أسبانيا فى بداية القرن الثالث الميـــلادى . فهى تقـــول بأنه نقل الى هنـــاك وظل ستة قرون منسيا ، ثم أكتشف قبره عام ٨١٣ م أى أنه نقـــل فى بـــداية القـــرن الثـــالث الميلادى[١٨] .

على أية حـــال فقـــد استغل ملوك الشمال الاسبانى تلك الاسطورة استغلالا سياسيا ، وأعلن ردمير (راميرو) الأول ابن الفونش الثـــانى (٢٢٧ — ٢٣٥ هـ / ٨٤٢ — ٨٥٠ م) أنه رأى أثنـــاء الليل القـــديس يعقوب ووعـــده بالنصر فى معركة ضد المسلمين ، وأنه كان يمتطى جوادا أبيض ويحمل علمـــا أبيض وصليبا أحمر ، وأعلن له القديس يعقوب أن

---

(١٦) يوسابيوس القيصرى ، تاريخ الكنيسة ، ص ٩٦ ـ ٩٩ .

(١٧) عيسى أسعد ، الطرفة النقية ، ص ١٣ .

(١٨) يوسابيوس القيصرى ، تاريخ الكنيسة ، ص ٩٦ ـ ٩٩ .

الدفـــاع عن العقيـــدة الكاثوليكية فى أسبانيا مسئوليته الشخصية ، وأنه حضر ليقـــود الاسبان فى ميـدان المعركة ويذهب الخيـــال بالملك حتى يقـــول أن القـــديس بين له كيف ينظم قواته [١٩] .

اذاع ردمير الاول تلك الرؤيا على جنوده وكانوا منهزمين فى اليـــوم السابق ، فاندفعوا وألقوا بأنفسهم على المسلمين مهللين بأعلى صوتهم "Eantiago Cierra Espana" أى أن القديس يعقوب هو حامى اسبانيا ، وهاجموا المسلمين فى قوة ، ففر هؤلاء تاركين الميدان غاصـــا بجثث قتـــلاهم [٢٠] .

حدثت هذه المعركة كما تدعى الرواية النصرانية عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م وتسميها معركة Clavigo ، وفيهـــا تم النصـــر للمـــلك ردمـــير الاول بفضل القديس يعقـــوب . لكن لم يشر الى تلك المعركة مصدر عربى واحـــد من مصـــادرنا القديمة ، فهى تحـــدثنا عن معـــارك بين عبـــد الرحمن الاوسط وبين موسى بن موسى بن قسى فى تطيلة بأرض الثغـــر الاعلى (سرقسطة) عام ٢٢٨ م ، وتقـــول أن عامله على أشبونة أرســـل له بظهور سفن المجوس (أى النورمان الشماليين) ثم يتحـــدث عن غزوة لعبد الرحمن الاوسط فى جليقية عام ٢٣١ هـ ٨٤٥ م ، وأنه حاصر مدينـــة ليون ، وأنه أحرقهـــا ، ولم يتمكن من هـــدم سورها بسبب عظم سمكه ، فتركه وعـــاد[٢١] .

اذن كانت الاندلس كلهـــا ــ شمالها وجنوبها ــ مشغولة فى هـــذا الوقت عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤م بدفع خطر النورمان الذين كانوا يغيرون

---

(١٩) Crow, op. cit, p. 84

(٢٠) Crow, op. cit, p. 84

(٢١) ابن عـذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٣٠ ، ١٣٢ ، ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٢٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ٩ .
المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

على اراضى النصارى والمسلمين . وكان ردمير مشغولا بالقضاء على حركة الأشراف الذين ظلوا فى ثورة ضده منذ وفاة والده عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٢ م حتى عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م .(٢٢) وعلى هذا الاساس فاننا نميل الى عدم تصديق المصادر النصرانية التى حدثت بتلك الواقعة عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤م واظهرت ما قام به القديس يعقوب حتى تم النصر فيها للمسيحيين .

ومنذ ذلك الوقت أعتبر المسيحيون أن القديس يعقوب هو نصير اسبانيا ، وانه هو الحامى الخاص للجنود المسيحيين ، وأنه قاتل المسلمين Santiago Matamores واعطى اعتقاد المسيحيين فى هذا القديس العقيدة الكاثوليكية الاسبانية وحدة متينة فى العصور الوسطى بعد أن كانت قد تعرضت للانشقاق (٢٣) .

فنصارى الشمال اخترعوا الاسطورة عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ م واخترعوا ذلك النصر المزعوم الذى تم بسبب تلك الاسطورة ، لتحقيق الاهداف التى تحدثنا عنها من قبل . وربما كان افضل من ذلك فى تحقيق تلك الأهداف ادعاء نصارى الشمال بأن النصارى من اهل الذمة المقيمين بالاندلس الاسلامية يعانون اضطهادا دينيا ، وأن كنائسهم تهدم ويمنعون من ضرب النواقيس ، ويعاملون معاملة سيئة ، وأنه صار من الواجب انقاذهم ، ولايتم ذلك الا باستعادة الارض التى كانوا يعتبرونها أرضا مغتصبة ، قال نصارى الشمال بتلك الادعاءات فعلا وشجعتهم البابوية وملوك الفرنجة على ذلك ، ومن هنا جاءت الصفة الدينية التى خلعها البعض على حروب الاسترداد(٢٤) .

---

(٢٢) محمد عبد الله عنان ، المرجع نفسه ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢٣) Crow, op. cit, p. 84

(٢٤) انظر ، الفصل الثانى من الباب الأول ، ص

وقــــد أسرف بعضهم فى القول حتى قال بأن « جميع الحروب التى نشبت فى أسبانيا لم تشتعل جذوتها الا باسم الدين ، وأن المسيحيين بدأوا حربهم المقدسة تقريبـــا منذ بداية الغزو الاسلامى وحتى سقوط غرناطة عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢ م ، وانه لم يكن رائدهم فى جهـــادهم الطـــويل لاخراج المسلمين من شبه الجزيرة سوى عواطف دينية يشوبها تعصب عميق لم تألفـــه الجماعات الاسلامية[٢٥] .

وصبغة الحروب الصليبية التى خلعهـــا هؤلاء وغيرهم على حروب الاسترداد يجبهـــا خلاف ما ذكرنا فى نقض أسطورة القـــديس يعقوب وما تبعها من أساطير — أمر فى غاية الأهمية ، وهو أن الحرب الصـــليبية لايعلنها الا البابا فهو الرئيس الأعلى للمسيحية ، فى حين أن أســـبانيا النصرانية لم تعترف بسلطة البابوية واشرافها على الكنيسة الاسبانية الا عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م ، فى حين أن أولئك المؤرخين أطلقوا صـــفة الحرب الصليبية على حروب الاسترداد منذ بدايتها فى النصف الاول من القـــرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى [٢٦] .

وهذا بالطبع غير صحيح ، وربما ينطبق هذا الوصف على تلـــك الحروب فى عصورها الاخيرة بدءا من القرن الخامس الهجرى حينمـــا صار الصراع بين مسلمى أسبانيا ونصاراها صراع حياة أو موت ، وخاصة بعد أن تدفق على شبه الجزيرة المرابطـــون والموحدون الذين اثاروا الحماس الدينى فى هذه المنطقـــة ، فى الوقت الذى أثارت فيه البابوية فى رومـــا الحماس الدينى المسيحى فى أوربا ، وقامت بأولى حملاتهـــا الصليبية فى المشرق فى أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى[٢٧] .

---

(٢٥) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٦٠٥ ،
محمد على كرد ، غابر الأندلس وحاضرها ص ١٩٦
محمد عبد الله عنـــان ، تاريخ العرب فى أسبانيا ص ٢٢
Chapman, op. cit, p. 53

(٢٦) محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى الشرق والغرب ، ص ١٣٩ .
(٢٧) Crow, op. cit, p. 88

هذا مجمل القول فى أن حروب الاسترداد كانت حربا صليبية ، أما كونهــا كانت حربـــا قومية ، فانها لم تكن كذلك على الاقل حتى بــداية حكم آل شانجه الكبير لكل اسبانيا النصرانية بــدءا من عـــام ٤٢٦ هـ . والدليل على ذلك أن نصـــارى الشمال لم يطلقوا اسم « أسبانيا » على شبه الجزيرة كلهـــا ولم يطلقوه على بلادهم التى تقع فى شمالى «أسبانيا» فكـــانوا لا يعرفون سوى أنهم يعيشون على أرض نبرة أو أشتريس أو قشتالة أو ليون أو ارغنة . أما لفظ أسبانيا فكـــان يطلقونه على الجزء الجنـــوبى الذى يقع جنوب جبل الشارات . فهذا الجبل كان يقسم شبه الجزيرة الى منطقتين : قشتالة فى الشمال وأسبانيا فى الجنوب . أما لفظ الأندلس فكـــانوا يجهلونه جهـــلا تاما(٢٨) .

وقد سبق أن أشرنا الى أن الناس كانو متعصـــبين لاقاليمهم فهـــذا قشتالى وذلك ليونى والآخر يفخر بأنه من الباسك وهـــكذا لدرجة انهم أحيانا كانوا يدخلون فى حروب ضد بعضهم البعض متحالفين مع المسلمين فلو كانت تجمعهم قومية أسبانية لمـــا حدث هذا ، لانه لم يكن هناك فعلا الهـــام قومى أو شعور بوطن اسبانى يدفعهم لقتال المسلمين ، ولم يكن هناك الا حرب النبلاء ورجال الاكليروس من أجل استعادة أراضيهم وضياعهم وحرب الملك من أجل استعادة سلطته الملكية على شبه الجزيرة(٢٩) .

لم تكن فكرة القومية ذاتها قد ظهرت فى ذلك الوقت ، وكان يحرك الناس شعورهم باسترداد مافقدوه وشعورهم ببهجة الغزو والفتح وما يأتى بعـــده من مغانم وأسلاب . ولقـــد تطرف البعض حتى قال بأن الاسبان لم يكن قصدهم بتلك الاغارات القصيرة العـــديدة الا مجرد السلب والنهب

---

(٢٨) الادريسى ، صفة المغرب ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، ياقــوت ، معجم البلـدان ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، ١٣١ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢١٣ .

ابن خلـدون ، مقـدمته ، ج ١ ، ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

دائرة المعارف الاسلامية ، المجلـد الثالث ، ص ٣٧ .

(٢٩) Chapman, op. cit, p. 54 Crow, op. cit, p. 79 Hdle, Spain under the moslems, p. 23

والانتقام ، وليس فتح بلادهم أو استعادتها . وربما بدا هذا القول صحيحا فى العصور الاولى من حركة الاسترداد وخاصة فى عصر الامارة الأموية (٣٠) .

ونحن لاننكر وجود العامل الدينى أو القومى فى حروب الاسترداد ، لكن تلك العوامل لم تظهر منذ بداية تلك الحروب وانما بدات تعلن عن نفسها بمرور الوقت ، وظهرت بشكل بين فى القرن الخامس الهجرى عندما مدت البابوية ومن ورائها أوربا يدها لنصارى الاسبان فى كفاحهم ضد مسلمى الاندلس .

هذا عن أهداف الصراع الذى اندلع بين نصارى الشمال الاسبانى وبين مسلمى الاندلس فى عصر أمراء بنى أمية ، وعن طبيعته ودواعيه عند كلا الجانبين فماذا عن الصراع نفسه ؟

---

(٣٠) روبرتسون ، اتحاف الملوك الألبا ، ص ١٣٨ .

ب ـ الصراع بين أمراء بنى أميــة وبين نصارى الشمال الأسبانى :

كان الصراع بينهما فى غالبه صراعا عسكريا ، بين الشمال النصرانى وبين الجنوب المسلم ، ولنا ملاحظات نبديها قبل الحديث عن ادوار هــذا الصراع الطويل .

اما الملاحظة الأولى ، فهى أن هذا الصدام العسكرى اختلف شــدة وضعفا حسب الاحوال الداخلية لكل من الجانبين والتى سبق الحــديث عنها فى الفصلين الأول والثانى من هذا الباب . فعندما تكون هناك مشاكل داخلية فى الشمال ، كان الجنوب ينتهز الفرصة ويشدد هجومه والعكس صحيح . وبذلك تبادل الفريــقان النصر والهزيمة ، ولم ينل أحدهمــا من الآخر بمــا يقضى عليه ويزيله من الوجود .

الملاحظة الثانية : هى أن معظم الحمــلات التى قام بهــا مســلمو الاندلس فى عصر الامارة كانت تتجه أول ماتتجه الى المنطقة الوسطى من الشمال النصرانى وهى التى تسمى البة والقلاع (قشتالة) ، وعندها يقرر القــائد اما الاتجــاه الى الشرق أى الى الثغر الاعلى (سرقسطة) للقضاء على المتمردين من بنى قسى وغيرهم من مولدى الأندلس الذين أعلنوا العصيان والتمرد بعــد عام ٢٢٧ هـ وتحالفوا مع أمراء نبرة ، واما الاتجاه شمالا الى أهل نبرة لعقابهم على ذلك ، أو الاتجاه غربا لمهاجمة مملكة جليقيــة وأشتريس .

الملاحظة الثالثة : هى أن أمراء بنى أميــة ادراكا منهم لخطــورة الوضع فى مناطق الثغــور أو الحدود مع الشمال النصرانى ، قاموا بتنظيم ارسال الحمــلات التى كانت تسمى الصوائف والشواتى ، وحفلت عهود معظم افــراد بنى أمية بارسال هذه الغزوات الى نصارى الشمال اما دفاعا أو هجوما أو ردا على هجــوم قد تم أو مرتقبــا حدوثه .

الملاحظة الرابعة : هى ان الامارة فى عصر الضعف ، وخاصة بعد وفاة الأمير محمد عام ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م وانقسام البلاد على النحو الذى أشرنا اليه فى الفصل الأول من هذا الباب ، تركت مهمة مقاومة نصارى الشمال لأمراء الثغور من بنى قسى المولدين وبنى تجيب العرب ، بل انها قامت بعقد اتفاق سلام مع الفونس الثالث عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م ، وتفرغت لقتال ابن حفصون فى الجنوب .

الملاحظة الخامسة : هى ان الأوضاع الداخلية كانت تفرض على طرفى الصراع أحيانا عقد معاهدات الصلح واقرار السلام . حدث هذا فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، والأمير عبد الرحمن الأوسط ، والأمير عبد الله بن الأوسط . لكن لا تلبث دوافع الصراع أن تتحرك عند أحد الطرفين ، فينقض العهد فتنشب الحرب من جديد ، وغالبا كان النصارى هم الناقضون للعهد .

أما الملاحظة الأخيرة : فهى أن محصلة هذا الصراع كانت لمصلحة نصارى الشمال الأسبانى . فقد أصبحت دولتهم تشمل كل ما يقع خلف نهر دويره ، ونصف المنطقة التى تقع بين نهر ابره وجبال البرنات . ولو رسمنا خطا وهميا للحدود بين الجانبين ، فانه سيكون على شكل نصف دائرة تبدأ من مصب نهر دويرة فى غرب الأندلس ويمشى خط الحدود مع النهر شرقا حتى شمال مدينة سالم ، ثم يصعد شمالا ويمر جنوب مدينة قلهرة التى تقع جنوب منطقة البة والقلاع ، ثم يصعد شمالا ويخترق نهر أبرة ويمر جنوب مدينة جاقة ثم يأخذ فى الهبوط التدريجى مرورا بشمال مدن وشقة ولاردة حتى يستقر أخيرا عند نقطة على ساحل البحر المتوسط فى منتصف المسافة بين برشلونة التى يسيطر عليها الفرنجة وبين طرطوشة آخر الثغور الاسلامية فى هذه الناحية .

بعد هذه الملاحظات السريعة يمكننا أن نتحدث عن العلاقة بين أمراء بنى أمية وبين الممالك النصرانية فى الشمال الأسبانى كل على حدة.

١ ـ علاقة أمراء بنى أمية بمملكة جليقية (ليون) :

بدأ عصر الامارة فى الأندلس بحكم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل عام ١٣٨هـ /٧٥٦م واستمر هذا الأمير يحكم مدة أربعة وثلاثين عاما ، وعاصر بذلك عهود أربعة من ملوك الجلالقة وهم فرويلا الذى بدأ حكمه عام ١٣٩ هـ / ٧٥٧ م ثم أوريليوس (١٥١ ـ ١٥٧ هـ) وشيلون (١٥٧ ـ ١٦٦ هـ) وموروقاط الذى انتهى حكمه عام ١٧٢ هـ / ٧٨٩ م ، وهى نفس السنة التى انتهى فيها حكم عبد الرحمن الداخل(٣١) .

ولم يكن الحكم مستقرا سواء فى الأندلس أو فى مملكة جليقية طوال هذه الفترة ، وذلك بسبب الفتن الداخلية وحركات التمرد والطمع فى السلطة ، وادى ذلك الى استتباب السلام على الحدود بين جليقية والأندلس ، ولم يحدث ما يعكر صفو هذا السلام الا فى الفترة من عام ١٤٦ هـ / ٧٦٤ م الى عام ١٥٠ هـ / م ثم فى عام ١٦٤ هـ . وكان هذا مدعاة لقول بعض المؤرخين المحدثين بوجود اتفاقية هدنة مدتها خمس سنوات عقدت عام ١٤١ هـ / ٧٥٩ م بين « الأمير الأكرم المعظم عبد الرحمن الأول وبين البطارقة والرهبان وأهل قشتالة » ثم قولهم أيضا بوجود اتفاق بايقاف الأعمال العدوانية من الجانبين فى المدة ١٤٨ ـ ١٧٣ هـ / ٧٦٨ ـ ٧٨٩ م ، لأن المصادر اللاتينية والعربية لم تتحدث عن اشتباك بين المسلمين والنصارى فى هذه الفترة ، وأخذ بعض الباحثين والمحدثين بالحديث عن شروط تلك الاتفاقات واستنتاج النتائج المترتبة عليها الى غير ذلك(٣٢) .

أما القول بوجود هدنة مدتها خمس سنوات فى بداية حكم عبد الرحمن الداخل فقول يعوزه الدليل ، ولم تشر اليه المصادر

---

(٣١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٦٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ، جـ ١ ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٣٢) حسن محمود ، تاريخ الغرب الاسلامى ، ص ٨١ ، السامرائى ، الثغر الأعلى ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ـ ١٩٧ .

النصرانية ولا العربية ، وكل ما هنـــاك هو أن هـــذه الفترة كانت مملوءة بالفتن ، سواء فى الأندلس حيث كان الداخل يواجه هرب عبد الرحمن الفهرى وثورته فى طليطلة وماردة ثم مقتله عام ١٤٢ هـ وثورة أبنائه من بعـــده ، ثم ان عبد الرحمن الداخل كان يعـــانى من سقوط أربونة فى يد الفرنجة عام ١٤١ هـ / ٧٥٩ م وما تبع ذلك من نتائج(٣٣) .

أما جليقية فكان الحاكم هو فرويلا (١٣٩ ـــ ١٥٠ هـ/٧٥٧ ـــ ٧٦٧ م) وكان هو الآخـــر يعانى من انتقاض الأشراف عليـــه حتى أن أخـــاه دبـــر مؤامرة ضده فقتله ، ولم يتركه الأشراف الا بعـــد أن ســـقط فرويلا نفسه قتيلا ، لكنه قبل ذلك ببضـــع سنوات كان قد انتهـــز فرصة الثـــورة التى أعلنها العـــلاء بن مغيث اليحصبى ودعـــوته للعباسيين عام ١٤٦ هـ وقام بالاستيلاء على مدينة لك وبرتقال وسمورة وقشتالة وشقوبية واخـــرج المسلمين منهـــا وصارت تابعـــة للجلالقة حتى افتتحهـــا المنصور بن ابى عامر مرة ثانية(٣٤) .

وكان هذا هو اللقـــاء الأول بين الداخل ونصارى الشمال وكان من نتيجة ضياع هذه المعاقل الهامة واستيلاء النصارى عليهـــا ، وقـــد حاول الداخل استرجاعهـــا فأرسل حملة بقيادة مولاه بدر عـــام ١٥٠هـ الى البة التى تقع شرقى منطقة ليون ، فأذعنت له وأدت اليه الجـــزية . ولم تشر الرواية الاسلامية الى شىء اكثر من هذا ، وظل الطـــرفان فى سلام حتى عـــام ١٦٤ هـ(٣٥) .

---

(٣٣) ابن عـــذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٣ ، ٨٥ السيد عبد العزيز ســـالم ، تاريخ المسلمين .

(٣٤) ابن خلـــدون ، العبر جـ ٤ ، ص ١٢٢ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٦٤ . المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٥٥ ، Murphy, op. cit, p. 84

(٣٥) ابن عـــذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٨٠ ، ٨١ .

لكن المراجع النصرانية تشير الى نبأ موقعة كبيرة وقعت بين المسلمين والنصارى فى بونتومو من أعمال جليقية ، وتقول لنا أن عبد الرحمن الداخل ارسل فى عام ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م جيشا كبيرا الى الشمال بقيادة حاجبه عامر او تمام بن علقمة على ما يظهر ، فلقيه النصارى بقيادة فرويلا فى بونتومو ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هزم فيها المسلمون وقتل منهم عدد عظيم تقدره الرواية النصرانية بأربعة وخمسين الفا ، وأسر قائدهم . أورد هذه الرواية الأستاذ محمد عبد الله عنان واكتفى فى نفيها بأن الرواية الاسلامية لم تشر الى موقعة بهذه الخطورة نشبت بين المسلمين والنصارى[٣٦] .

لقد نسى الأستاذ عنان أن الملك فرويلا نفسه كان قد مات ومر على موته حوالى خمس سنوات . كما أن ظروف جليقية نفسها لم تك تسمح بهذا النصر العظيم الذى ادعاه مؤرخو النصارى ، فقد كانت الفتنة مشتعلة فى المملكة وكانت منقسمة منذ عام ١٥٠ هـ / ٧٥٧ م الى امارتين بين أوريليوس وشيلون ، ولم تعد اليها وحدتها الا عام ١٥٦ هـ / ٧٦٧ م وكانت ظروف الداخل نفسها لا تمكنه من القيام بأى نشاط حربى فى تلك الفترة بسبب ذلك التمرد الذى قام به ذلك الدعي الفاطمى البربرى شقيا بن عبد الواحد منذ عام ١٥١ الى عام ١٦١ هـ[٣٧] .

استمر السلام اذن بين الأندلس ونصارى الشمال من عام ١٥٠ هـ حتى أواخر عهد ملك جليقية المسمى شيلون (١٥٦—١٦٦ هـ/٧٧٣—٧٨٣ م) حيث تم توقيع معاهدة الصلح بين الجانبين ، ربما فى عام ١٦٥ هـ / ٧٨٢ م . وقد أجبرت الأوضاع الداخلية الطرفين على توقيع تلك المعاهدة ، فقد كانت هناك ثورات محلية فى جليقية ضد شيلون ، وكان هناك هجوم شارلمان على سرقسطة عام ١٦١ هـ / ٧٧٨ م بسبب تمرد

---

(٣٦) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، ع ١ ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

(٣٧) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ٧٨ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٢ ، انظر الفصل الثانى ، الباب الأول .

حكام برشلونة وسرقسطه واستدعائهم له ، ثم استمرارهم فى التمرد والعصيان ضد عبد الرحمن الداخل بعد فشل حملة شرلمان ، مما اجبر الداخل على أن يزحف بنفسه على سرقسطة عام ١٦٤ هـ / ٧٨١ م . فارتدع هؤلاء وصالحوه ، فسار الداخل الى بمبلونة عاصمة نبرة ودخل قلهرة وبلاد البشكنس ، ثم عاد الى قرطبة محملا بالغنائم والأسلاب(٣٨) .

كان هذا هو اللقاء الثانى بين الداخل وبين نصارى الشمال ، ولم يكن هناك اتفاق سلام واستمر واحدا وعشرين عاما كما قال البعض ، بل ان الأوضاع الداخلية هى التى أجبرت الطرفين على العيش فى سلام ، ولم يكن هناك اتفاق سلام الا فى عام ١٦٥ هـ / ٧٨٦ م فقط قرب نهاية عهد الملك شيلون الذى أخافته حملة الداخل على بمبلونة فى العام السابق ، وبعد ذلك انقسمت مملكة الجلالقة مرة أخرى بعد موت شيلون وفى بداية عهد خليفته مورقاط (١٦٦ — ١٧٢ هـ / ٧٨٣ — ٧٨٩ م) الذى حكم جليقية بينما الفونس المطالب بالعرش تمركز فى الجزء الشرقى من الدولة فى نبرة وحكم هناك واستعان بالفرنجة ، فاستعان مورقاط ضده بالمسلمين الذين يمتون اليه بصلة القرابة ، اذ كانت أمه جارية عربية(٣٩) .

وفى الوقت نفسه كان الداخل يواجه عودة حسين الأنصارى حاكم سرقسطة الى التمرد ، وكان الداخل قد أبرم معاهدة السلام مع نصارى الشمال ، فسار اليه وقتله عام ١٦٧ هـ / ٧٨٣ م ، وقضى الداخل بقية مدة حكمه فى مصارعة أبناء يوسف الفهرى الذين كانوا قد أعلنوا الثورة ضده فى قسطلونة وطليطلة عام ١٦٨ ، ١٦٩ ، وظل يحاربهم حتى قتلهم عام ١٩٧٠ هـ ، وتوفى الداخل نفسه بعد ذلك فى عام ١٧٢ هـ (٧٨٨ م)(٤٠) .

---

(٣٨) العذرى ، نصوص عن الأندلس ، ص ١١ ، مجهول ، اخبار مجموعة ، ص ١١٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ، Dozy, op, cit, pp. 204 - 206

(٣٩) أنظر ، للفصل الثانى ، من الباب الأول ، ص

(٤٠) العذرى ، نصوص عن الأندلس ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٢ — ٩٤ .

تولى الامارة بعد الداخل ابنه هشام (١٧٢ — ١٨٠ هـ / ٧٨٨ — ٧٩٦ م) كما تولى الملك فى جليقية الملك برمند (١٧٢ — ١٧٥ هـ / ٧٨٩ — ٧٩١ م) ومن بعده الفونش الثانى (١٧٥ — ٢٢٧ هـ / ٧٩١ — ٨٤٢ م) ولم تكن أحوال الدولتين فى عهد هشام وبرمند تسمح باستئناف الصراع . ذلك أن هشام كان يواجه تمرد أخويه عبد الله وسليمان ، ذلك التمرد الذي انتهى عام ١٧٥ هـ . كما انتهى فى نفس العام تمرد حكام سرقسطة بعد قتل عاملها مطروح بن سليمان بن يقظان ، بعد أن أرسل هشام حملة اليه بقيادة قائده أبى عثمان عبيد الله بن عثمان[٤١] .

وكان هناك انقسام فى البيت المالك فى جليقية ، اذ استقل برمند بالجزء الغربى من المملكة بتأييد الأشراف ، واستقل الفونش بالجزء الشرقى ، لكنهما تصالحا بعد أن اتضحت نية الأمير هشام فى غزو الشمال النصرانى ، ولم يلبث برمند (برمودو) أن مات وتولى الفونش العرش مكانه وعادت الوحدة الى المملكة مرة أخرى .

وبعد أن استتبت الأحوال للأمير هشام تفرغ لقتال أعداء البلاد من النصارى والفرنج لا سيما وأنه قد مضى ما يقرب من عشر سنوات لم يحدث أى لقاء بين الجانبين منذ حملة الداخل عام ١٦٥ هـ على الشمال النصرانى ، حتى سرت الأقوال بأن المسلمين لا يقدرون الا على قتال بعضهم البعض ، وأفتى بعض الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج لأمراء لا يعرفون الا قتال مواطنيهم من المسلمين فقط . لذلك وضع الأمير هشام نصب عينيه أن يزيل هذا الاتهام الخطير باستئناف الجهاد ليس فى الشمال النصرانى وحده ، ولكن فى أرض الغال أيضا[٤٢] .

وقد تكتلت ضده قوى الشمال النصرانية من جلالقة ونافاريين ، لذلك كان الأمير هشام يرسل جيشين فى وقت واحد ، أحدهما لقتال النافاريين

---

(٤١) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .

(٤٢) رينو ، تاريخ غزوات العرب فى فرنسا ، ص ١٢٦ .

والثانى لقتال الجلالقة . وكان يحدث أن يلتقى الجيشان بعد ان يفرغ أحدهما من معاركه ، وتعود الجيوش رافعة أعلام النصر الى قرطبة .

حدث هذا فى أول معركة بين جيوش هشام ونصارى الشمال ، فقد ارسل فى عام ١٧٥ هـ / ٧٩١ م جيشا بقيادة أبى عثمان عبيد الله بن عثمان قضى على الثورة فى سرقسطة كما ذكرنا ثم زحف على البة والقلاع ، وتمكن من هزيمة أهل نبرة وقتل منهم تسعة آلاف .

وفى نفس العام ارسل هشام جيشا آخر بقيادة يوسف بن بخت الفارسى عن طريق الثغر الأوسط الى جليقية والتقى بالملك برمند على نهر بوربيا Burbia فهزمه جيش يوسف وقتل من جند برمند عشرة آلاف . وعلى اثر ذلك تنازل برمند عن العرش لألفونش الثانى ولجأ الى الاعتزال بأحد الأديرة كما كان شأنه قبل تولى العرش(٤٣) .

بدأ الصراع بعد ذلك بين هشام وبين الفونش الثانى عقب تولى هذا الملك عرش جليقية وأشتريس . وكان اللقاء الأول بينهما عام ١٧٦ هـ حيث أرسل هشام جيشا بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث وصل الى منطقة البة والقلاع وأثخن فى العدو وعاد الى قرطبة غانما . ثم كان الزحف الكبير الى بلاد الفرنجة عام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ، وكان بقيادة القائد السابق الذى استطاع أن يعبر جبال البرنات من ناحية قطلونية وأن يخرب جيرندة وأن يهدم سورها ، ثم يزحف على أريونة قاعدة الثغر الاسلامى القديم فى سبتمانية فى أرض الفرنجة . وكان الفرنجة قد استردوها عام ١٤١ هـ / ٧٥٨ م(٤٤) .

---

(٤٣) الرازى برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٩٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٤٤ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٢٥ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين فى الأندلس ، ص ٢١ .

(٤٤) ابن الأثير الكامل ، جـ ٦ ، ص ٤٨ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ص ١٥٨ .

وتخلط الروايات العربية القديمة والحديثة فى استسلام مدينة أربونة لجيش عبد الملك بن عبد الواحد من عدمه ، فبعضها يقول أن هذا القائد استطاع أن يفتحها وكان الفتح عظيما حتى بلغ خمس السبى خمسة وأربعين الفا من الذهب العين ، كما أن ذلك القائد بلغ من تحكمه أن اشترط على المعاهدين من أهل جليقية نقل عدد من أحمال التراب من سور أربونة حتى قرطبة للمساهمة فى بناء مسجد هناك(٤٥) .

لكن الأستاذ عنان يورد رواية نصرانية تنكر استيلاء المسلمين على أربونة ، ويقول آخرون بأنهم لم يستولوا حتى على جرندة . ويبدو أن هذا هو الرأى الصحيح ، لأن الروايات العربية لا تقطع بفتحها الا عند اثنين هما المقرى وابن فضل الله العمرى ، وهما من الرواة المتأخرين ، أما الرواة الأقرب للأحداث فلا يقولون الا أن المسلمين غنموا وبلغ السبى كذا ، وحطموا الأسوار الى آخر تلك العبارات التى يوردونها دليلا على قوة جيش المسلمين(٤٦) .

ومما يؤيد الشك فى الاستيلاء على أربونة قول ابن فضل الله العمرى نفسه أن المسلمين اشترطوا على المعاهدين من أهل جليقية نقل عدد من أحمال التراب الى قرطبة اذلالا لهم . وهذا شرط فيما يبدو غير صحيح فأين أهل جليقية الذين يعيشون فى قاصية الأندلس فى الشمال الغربى ، من أربونة التى تبعد عنها آلاف الأميال وتقع فى اقليم سبتمانيا شمالى جبال البرنات بمسافة كبيرة .

ربما كان هذا الشرط على أهل أربونة أو بالأصح على الأسرى من أهل أربونة الذين أذلهم المسلمون بأن جعلوهم ينقلون هذا العدد من

---

(٤٥) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ ١٥ ، قسم ٢ ورقة ٣١١ ، المقرى نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٥٨ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ ٢ ، ص ٩٥ .

(٤٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٩٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٤٨ ، عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ .

احمال التراب الى قرطبة ، فهـــذا هو المعقول ، يؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى من أن المسلمين غنمـــوا كثيرا من السبى الذى بلغ خمس قيمته خمســـة وأربعين الفـــا من الذهب العين . وبديهى أن هـــذا السبى هو الذى قام بحمل هذا التراب الى قرطبة . وعـــاد المسلمون من هناك بعد الاستيلاء على تلك الغنائم الوفيرة ، ولو بقى المسلمون فى أربونة وجرندة عقب هذه الغـــزوة لمـــا تمكن شرلمـــان من الاستيلاء على برشلونة بعد ذلك بعـــدة سنوات فى عام ١٨٥ هـ بمنتهى السهولة(٤٧) .

وقد عـــاد الأمير هشام الى اتباع أسلوب ارسال جيشين فى وقت واحـــد ، ففى عام ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م سير جيشا بقيـــادة عبد الكـــريم ابن عبد الواحد بن مغيث الى البـــة والقـــلاع ، فأدى مهمته بنجاح وعـــاد الجيش محملا بالغنائم والأسلاب . أما الجيش الثانى فكان بقيـــادة أخيه عبد المـــلك بن عبد الواحد بن مغيث ، وكانت وجهته جليقية ، ونجح هذا القائد فى هزيمة الملك الفونش وخرب دار مملكته (أوفيدو) التى كان قـــد انتقـــل اليها والتى يسميها المسلمون (أبيـــط) ، لكن الجيش ضل الطريق اثناء العودة « فنالتهم مشقة شـــديدة ومات منهم بشر كثير ونفقت دوابهم وتلفت آلاتهم ثم سلموا وعادوا » (٤٨) .

ويبـــدو أن كمينا للنصارى تعرض لهـــذا الجيش عند عودته ، ونال النصارى منه بعض الشىء ، وعاد الجيش بعـــد أن فقـــد بعض رجاله ، وكان لذلك رد فعل عند المسلمين . فلم يأت عام ١٧٩هـ / ٧٩٥م حتى قام عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بهجوم عنيف ضد جليقية ودخل أسترقة ، فاســـتنجد الفونش الثانى بأمـــراء نبرة وغيرهم من سكان تلك النواحى وتقهقر الى مكان بين الصخرة وجليقية فى اقصى الشمال على ساحل خليج بسكاية ، فأمر عبد الكريم أحـــد قواده وهو فرج بن كنانة باقتفاء أثره فى أربعـــة آلاف فارس (٤٩) .

---

(٤٧) ابن عـذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٤٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٢ .

(٤٩) ابن عذارى ، البيان المغرب، ج ٢ ، ص ٩٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٢ .

نجح هـذا القائد فى القضاء على فرقة مسيحية مكونة من ثلاثة آلاف فارس ، واسر قائدها المسمى غدشـارة ، وتقـدم عبد الكـريم وطارد الفونش من حصن الى حصن ، وأخرج وراءه فرج بن كنانة هذه المرة فى عشرة آلاف فارس ، فهزم الفونش الذى أسلم جميـع معـداته وذخائره وفـر هاربا . وبذلك حقق الأمير هشام نصرا كبيرا على الفونش، لكن العمر لم يطل بهشام ، اذ انه توفى فى العام التالى «١٨٠هـ/٧٩٦م»(٥٠).

كان الأمير هشام تقيا ورعا ، خيرا فاضلا ، محبا للجهاد ، محصنا لثغوره وفيـا لجنـده ، حتى انه كان يلحـق أبناء الشهـداء منهم فى الديوان ويجعل لهم رزقـا ، وبلغ من قـوة الدولة فى عهده ، أنه لم يكن هناك أسير مسلم واحد فى بلاد النصارى ، وبالغ الناس فى ذكر مناقبـه حتى قالوا بأنه كان يشبه فى سيرته عمر بن عبد العزيز رحمهم الله جميعا(٥١)

تولى الحكم بعـد وفـاة هشام ابنه الأمير الحـكم الأول المعروف بالربضى (١٨٠ـ٢٠٦ هـ/٧٩٦ـ٨٢٢ م) وكان معاصرا للملك ألفونش الثانى ملك جليقية وأشتريس . وقـد عنف الصراع بين هذين الرجلين ، حتى اضطر ألفونش أن يتحالف مع البشكنس وفرنج أكتيانيا لمواجهة الارادة الصلبة التى أبداها الأمير الحـكم تجاه القضاء على أعدائه فى الداخـل والخـارج .

وفى حين كانت الامور مستتبـة لألفونش فى الشمال النصرانى ، كانت الثورات متلاحقة فى الأندلس ضد الأمير الحكم . فقـد واجه ثورة عميه عبد الله وسليمان وقضى عليهما عام ١٨٦ هـ ، ثم مؤامرة قامت ضده عام ١٨٩ هـ وقضى عليها أيضا ، ثم ثورة البربر فى ماردة لمدة سبع سنوات

---

(٥٠) ابن عـذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٩٦ ، ٩٧ ، ابن الخطيب ، أعمـال الاعـلام ، جـ ٢ ، ص ١٢ .

(٥١) ابن عبد ربه ، العقـد الفريد ، جـ ٢ ، ص ٣٥٨ ، مجهول ، أخبـار مجموعة ، ص ١٢٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٥٣ .

من ١٩٠ الى ١٩٧ هـ وقضى عليها . ثم أخيرا ثورة اهل الريف فى قرطبة عام ٢٠٣ هـ . كل ذلك اشرنا اليه فى حديثنا عن أحوال الأندلس (٥٢) .

وما يعنينا الآن هو أن الفرنج قد انتهزوا فرصة ثورة عمى (الحكم) وتحالفوا مع الفونش الثانى ليضمنوا ولاء البشكنس ومعاونتهم ، ثم زحف لويس أمير اكتيانيا وابن الامبراطور شارلمان على برشلونة عام ١٨٥هـ/ ٨٠١ م واستولى عليها بعد حصار دام سبعة أشهر ، واتخذ الفرنج من برشلونة قاعدة للثغر القوطى الذى نما فيما بعد وغدا امارة نصرانية قوية هى امارة قطلونية ، وخسر الاسلام بذلك أمنع ثغوره فى قاصية أسبانيا ، وارتدت حدود الأندلس الى الثغر الأعلى بعد أن كانت تجاوز جبال البرنات . (٥٣) .

ويشير بعض المؤرخين الى هزيمة لجيوش الأمير الحكم عقب سقوط برشلونة ، لكن الهزيمة كانت ليوسف بن عمروس عامل تطيلة من قبل والده عمروس بن يوسف زعيم أسرة بنى عمروس المولدين بالثغر والذين استعان بهم (الحكم) مرارا فى القضاء على ثورة العرب فى سرقسطة والمولدين فى طليطلة . وكان الفرنج قد وصلوا الى تطيلة واسروا يوسف ابن عمروس وسجنوه بصخرة قيس ، لكن والده أرسل أحد أقربائه على راس جيش تمكن من انقاذه بعد هزيمة الفرنج (٥٤) .

---

(٥٢) الرازى ، برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٢ ـ ٩٤ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٢٤ .

(٥٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٥٣ ، ابو الفدا ، تاريخه ، جـ ٢ ، ص ١٦ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٢٥ ، كارل بروكلمان ، المرجع نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٤٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ، جـ ١ ، ص ٢٣١ .

(٥٤) العذرى ، نصوص عن الأندلس ، ص ٢٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٨٧ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٢٦ ، السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٥ .

وانتهز الفرنج فرصة انشغال الحكم فى القضاء على مؤامرة ١٨٩ هـ، وثورة ماردة فى نفس العام ، وأغار لويس التقى على الثغر الأعلى حتى وصل الى طرطوشة عام ١٩٣هـ/٨٠٨م فأرسل الحكم ابنه عبد الرحمن على راس جيش كبير ، وصل الى الثغر وانضمت اليه قوات عمروس وعبدون ، عمال الثغر هناك ، وتمكنوا من دحر قوات لويس وانقاذ طرطوشة . (٥٥)

ومن ناحية أخرى فقد قام الفونش الثانى وعبر نهر دويره بقواته عام ١٩٣هـ/٨١٠م وغزا الاراضى الاسلامية ، وتوغل فى سيره حتى قلمرية واشبونة فى غرب الأندلس ، فرد عليه الامير الحكم فى العام التالى (١٩٤هـ/ ٨٠٩م) وزحف عن طريق مدينة الفرج (وادى الحجارة) وهزم جيوش الفونش ، وأسر الكثير واستبدلهم بأسرى المسلمين . وقد عاد الحكم بجيشه لفك أسر امراة كانت قد أسرها النصارى وقالت « وا غوثاه ياحكم، لقد ضيعتنا » مما دفع بالحكم لكى يقود الجيش بنفسه وينقذ تلك المراة من الأسر ، ويعاقب هؤلاء النصارى على افسادهم فى منطقة الثغور هناك . (٥٦)

وقد حاول الأمير الحكم أن يسترجع برشلونة ، فأرسل عمه عبد الله البلنسى عام ١٩٩هـ/٨١٥م فى جيش الى هناك ، ورغم أن عبد الله نجح فى هزيمة حامية المدينة وقتل الكثير من جنودها ، الا أنه لم يتمكن من دخولها وعاد الى قرطبة ، وشعر الفرنج كما شعر المسلمون بعقم هذه الحملات المخربة ، وآثر الفريقان التفاهم والمهادنة ، وعقد السلم بذلك بين شارلمان والحكم واستمر معقودا حتى وفاة شارلمان بعد ذلك بأعوام قلائل فى سنة ١٩٨هـ/٨١٤م . (٥٧)

---

(٥٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ .

(٥٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٨٥ .

(٥٧) عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ .

لكنه كان لحملة عبد الله البلنسى رد فعل عند نصارى جليقية ، اذ احس الفونش بأن الصائفة المقبلة سوف تتجه الى أراضيه ، خاصة وأن (الحكم) كان قد انتهى من تمرد البربر فى ماردة عام ١٩٧هـ/٨١٢م ، « فكاتب الفونش جميع ملوك تلك النواحى مستنصرا بهم فاجتمعت اليه النصرانية من كل صوب » (٥٨)

وكان عبد الكريم بن مغيث قد وصل بقواته الى وادى نهر أرون بعد أن دمر فى طريقه جميع ماوجده ، واصبحت قوات الجانبين لايفصلها الا النهر ، وسعى كل طرف الى لقاء الآخر عبر النهر ، وتحاربوا حتى تكسرت السيوف ولجأوا للقذف بالحجارة ، الا أن كثرة الأمطار ونفاد المؤن عند قوات الفونش الثانى ، وضيق الحال بالمسلمين ، جعل توقف القتال أمرا لا مناص منه ، وعاد عبد الملك بجيشه الى قرطبة . (٥٩)

ولم يمض كثير حتى انشغل الامير الحكم بثورة أصل الربض فى قرطبة عام ٢٠٣هـ/٨١٨م ، ثم توفى بعد ذلك بقليل ، وتولى ابنه عبد الرحمن الثانى المعروف بالأوسط حكم البلاد (٢٠٦–٢٣٨هـ / ٨٢٠–٨٥٢م) . وفى عهد هذا الأمير كانت امارة نبرة قد استقلت عن مملكة جليقية واشتريس . وبدأت تظهر فيها الأسرة المالكة الجديدة ، كذلك ظهرت امارة قطلونية بعد استيلاء الفرنج على برشلونة فى عهد الحكم عام ١٨٥ هـ . ولذلك سوف نقصر حديثنا منذ الآن عن مملكة جليقية فقط . وبعدها نفصل القول عن علاقة نبرة بقرطبة وكذلك قطلونية .

كانت الامارة فى عهد عبد الرحمن الأوسط لاتزال قوية ، فقد واجه ثورات عديدة داخل الدولة ، قضى عليها ، وتفرغ للصراع مع جيرانه من

---

(٥٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١١١ ، ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٢ .

(٥٩) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١١١ ، ١١٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ١١٧ ، ١١٨ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٢٧ .

نصارى الشمال الأسبانى . وقد افتتح عهده بالقيام بغزوة تعرف بغزاة البة والقلاع عام ٢٠٨هـ / ٨٢٣م . وفيها قاد عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث جيش الأمير ، ووصل الى الثغر الأعلى ، ثم دخل جليقية من باب البة Alava من فج يقال له فج جرنيق Guernica الواقع بين سيرا دى أنثيا Sierra de Encia وجبال اتوريل Iturrieta واستولى عبد الكريم على كثير من ذخائر العدو ومؤنه ومعداته وخرب المدن والقرى التى مر بها ، مما أجبر أهل تلك الناحية على مصالحة المسلمين وعلى دفع الجزية واطلاق أسراهم . (٦٠)

وكان هذا مدعاة لأن يظن بعض المؤرخين المحدثين أن صلحا تم بين الفونش الثانى ملك جليقية ، وبين عبد الرحمن الأوسط فى ذلك الوقت عام ٢٠٨ هـ ، مدللين على ذلك بأن الاشتباك قد توقف بين الطرفين ولم يستأنف الا عام ٢٢٣هـ/٨٣٨م . والواقع أن الحرب استمرت بعد ذلك حتى عام ٢١١هـ/٨٢٦م ولم يوقفها الا ظروف عبد الرحمن نفسه ، فقد ثارت ضده ماردة . (٢١٣–٢١٨هـ) وطليطلة (٢١٩–٢٢٢هـ) .(٦١)

ولم يكن هذا الصلح بسبب اغارة الفونش على مدينة سالم ، أو بسبب قيام المسلمين بتلك الغزوة عام ٢٠٨ هـ التى خربوا فيها مدينة ليون – كما قال البعض ، لأن تخريب المسلمين لتلك المدينة لم يكن الا فى غزوة عام ٢٣١هـ / ٨٤٦ م ولم تكن اغارة الفونش الثانى على مدينة سالم الا عام ٢٢٤هـ / ٨٣٩م . وربما أتى هذا الصلح بعد عام ٢١١ هـ ، ذلك أن المسلمين قاموا بعدة حملات متعاقبة بعد عام ٢٠٨ هـ ، منها حملة عبد الله البلنسى عام ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م ضد أشتريس ، وحملة العباس ابن عبد الله القرشى ضد جليقية فى نفس العام أيضا والتى توغلت حتى

---

(٦٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٨ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦١ .

(٦١) عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ، ج ٢ ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

بازو ، كذلك غزا البلنسى جليقية والقلاع أيضا عام ٢١١هـ / ٨٢٦ م . وبعـد ذلك لم نعـد نسمع عن حملات متبادلة بين عبد الرحمن والفونش حتى عام ٢٢٣ هـ (٦٢)

فى ذلك العام كان عبد الرحمن الأوسط قـد فرغ من ثورة ماردة وطليطلة وتفرغ لاستئناف الصراع مع جليقية ، فأرسل حملات متتالية ، واحدة بقيادة أخيه الوليد عام ٢٢٣هـ/٨٣٧م دخلت جليقية من جهة الغرب، وأخرى عام ٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م بقيادة ابنه الحكم وعم أبيه عبد الله البلنسى وهزمت قوات الفونش ، مما جعله يغير على مدينة سالم . فسار اليه فرتون ابن موسى وهزمه وهـدم الحصن الذى كان قـد بناه أهل ألبـة هناك(٦٣)

ورأى الأمير عبد الرحمن أن يقود الجيش بنفسه الى جليقية عـام ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م ، ففتح حصونها ، لكن غزاته طالت وتعب كثيرا ، مما أدى الى أن يعتقـد البعـض من المؤرخين المحـدثين الى أن الأمير لم يلق فى غزواته تلك نجاحا وأنها اثبتت عـدم مقـدرة الأمير من الناحية العسكرية ، وأنه لم يعـد يكثر من الخروج للغزو بنفسه ، وأن خروج المسلمين الى بلاد جليقية أخـذ يقل منذ ذلك الحين (٦٤) .

لم يخرج الأمير بنفسه فعلا فى غزاة ضد جليقية بعـد ذلك ، وانما خرج بنفسه فى غزوتين ضد نبرة فى عامى ٢٢٨هـ ، ٢٢٩ هـ . وكان الموقف فى جليقية فى ذلك الوقت لا يستدعى خروج المسلمين للغزو ، فقـد توفى الفونش الثانى عام ٢٢٧ هـ/٨٤٢ م وتولى بعده ردمير (راميرو) الأول بعد

---

(٦٢) ابن عـذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٨ ، جـ ٧ ، ص ٩ ، ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ . Mruphy, op, cit. pp. 91, 92.

(٦٣) ابن عـذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٨٧ ، ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٦١ .

(٦٤) السيد عبد العزيز سالم ، المرجـع نفسه ، ص ٢٤٠ .

ثورة قام بها الأشراف ضده ، ثم توالت ثوراتهم ضده أيضا فى عـــامى ٢٣٠هـ/٨٤٥م ، ٢٢٣ هـ ـــ ٨٤٨ م / وتوفى هو نفسه عام ٢٣٥هـــ٨٥٠م. ولذلك كانت جليقية مشغولة بأحداثها الداخلية ، ولم يحدث منها ما يعكر الصفو ، وقد قلنا أن سياسة المسلمين كانت دفاعية فى المقام الأول(٦٥) .

ورغم ذلك فقـــد انتهز المسلمون فرصة الاضطراب الذى اصـــاب جليقية ، وأرسل الأمير عبد الرحمن ابنه محمدا فى عام ٢٣١ هـ ٨٤٦ م على رأس جيش وصل الى مدينة ليون وضربها بالمنجنيق ، وهرب أهلها الى الجبال ، وأحرق المسلمون ما فيها ، وارادوا هـــدم سورها ، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك لسمكه الكبير ، فعادـــوا الى قرطبة بعـــد أن أمعنوا فى الجلالقة قتلا وسبيا ، وبعـــد ذلك بأربع سنوات أرسل عبد الرحمن ابنه المنذر على رأس حملة أخرى الى جليقية عن طريق البـــة ، فغنم المسلمون وعادوا حيث سمعوا بوفاة الملك ردمير الأول ملك جليقية فى نفس العام . (٦٦)

توفى الأمير عبد الرحمن بعد ذلك بقليل وتولى ابنه الأمير محمد حكم البلاد (٢٣٨ــ٢٧٣هـ / ٨٥٣ ـــ ٨٨٦ م) ، وكان معاصرا له من ملوك جليقية أردون الاول (٢٣٥ــ٢٥١ هـ / ٨٥٠ــ٨٦٦ م) والفونش الثالث (٢٥٢ــ٢٩٦هـ / ٨٦٦ــ٩١٠م) . وقـــد بدأ الامير محمد حكمه بارسال حملتين عام ٢٣٩ هـ / ٨٥٣م ، احداهما بقيادة أخيه الحكم بن عبد الرحمن لاصلاح قلعة رباح ، والثانية بقيادة موسى بن موسى بن قسى عامل الثغر الأعلى الى آلبة والقلاع ، حيث أفلح فى فتح بعض الحصون . وكانت الثورة قـــد اندلعت فى طليطلة ، قام بها المتمردون من المولـــدين والنصـــارى واستعانوا فى ذلك بالملك أردون الأول ملك جليقية الذى بعث اليهم أخـــاه

---

(٦٥) العـــذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٠ ، ابن عـــذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ .

(٦٦) ابن عـــذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ١٨ .

غاتون عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ، فقاد الأمير محمد الجيش بنفسه ، واستطاع أن يهزم الحلفاء فى وادى سليط جنوبى طليطلة ، وقتل منهم عشرين الفا[٦٧]

وشغل الامير محمد بعد ذلك بظهور النورمان الذين أغاروا على جليقية والأندلس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، كما شغله أيضا ظهور قوة نبرة وتحالفها مع أمراء بنى قسى الذين عادوا الى التمرد وطلبوا من الامير محمد ألا تكون حملاته ضد جليقية عن طريق أراضيهم ، لما نالهم من النصب بسبب ذلك . [٦٨]

وتتابعت حملات الأمير محمد على جليقية فى أعوام ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ هـ ، وهزم قوات أردون أكثر من مرة ، وعاقبه لمهاجمته الثغر الاعلى عام ٢٤٨ هـ وقضائه على قوات موسى بن موسى بن فرتون القسوى ، الذى مات بعد ذلك متأثرا بجراحه ، وأعلن ابنه (لب) خضوعه لأردون وتحالف معه ضد المسلمين ، واستطاع الامير محمد رغم فتنة النصارى فى قرطبة أن يعاقب أردون وأن يطارد قواته حتى وادى نهر ابره ، وأن يهزمها هزيمة شديدة ، وأن يستولى على بعض حصونه مثل حصن جرنيق ، وأن يقتل فى احدى هذه الغزوات عشرين الفا من قوات أردون ، مما هد من قوة النصارى واضعف شوكتهم ، فركنوا الى الهدوء والسكينة [٦٩] .

توفى أردون عقب ذلك وتولى العرش ابنه الفونش الثالث (٢٥٢ — ٢٩٦ هـ / ٨٦٦ — ٩١٠ م) . وقد واجه هذا الملك فى بداية حكمه ثورة أقاربه وأخوته ضده عدة مرات ، حتى تمكن اخيرا من القبض

---

(٦٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٦٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

(٦٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٧ - ١٤٩ ، ابن الأثير ج ٧ ، ص ٤٣ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٥ .

على اخوته وسمل عيونهم . وكان الأمير محمد مشغولا فى نفس الوقت بقمع فتنة النصارى المعاهدين فى قرطبة الذين قاموا بحركة الاستشهاد واتصلوا بالنصارى فى طليطلة وماردة وغيرها لاعلان الثورة على بنى أمية . ولذلك لا نسمع عن حملات عسكرية قامت بها الامارة الأموية لمدة خمسة عشر عاما(٧٠) .

وفى خلال هذه المدة كان الفونش الثالث يشجع الثورة الداخلية ضد قرطبة ، اذ كان يمد يد العون لعبد الرحمن بن مروان الجليقى الذى أعلن الثورة باسم المولدين فى ماردة وتحالف مع الفونش الثالث . فأرسل اليه الأمير محمد جيشا بقيادة ابنه المنذر وقائده هاشم بن عبد العزيز ، تمكن الجليقى بمساعدة قوات الفونش من أسر هاشم وارساله الى ليون . وبعد فك أسره ، أرسله الأمير محمد فى حملة انتقامية الى ماردة ، لكن الجليقى هددهم بحرق بطليوس اذا تجاوزت قواتهم مدينة لبلة Liebla . فعاد هاشم من حيث أتى(٧١) .

وقد فكر الأمير محمد فى القضاء على مملكة جليقية بارسال حملة بحرية عام ٢٦٦ هـ / ٨٨٠ م بقيادة قائد الأسطول عبد الحميد بن مغيث ، وبعد أن صنع السفن وأرسلها حتى وصلت قرب جليقية من ناحية البحر المحيط (المحيط الأطلسى) هبت عليها عاصفة فحطمت معظمها ولم يعد منها الا القليل(٧٢) .

ورد الفونش الثالث على ذلك بأن قام فى العام الثانى (٢٦٧ هـ / ٨٨١ م) بغزو أراضى المسلمين ، وعبر نهر دويره والتاجه ، ووصل

---

(٧٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ ـ ١٤٥ ، ١٦٦ ـ ١٦٩ .

(٧١)
ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ١١٠ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٣١ .

(٧٢) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٥٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ١١٩ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٣١ رقم ٤ .

فى زحفه حتى أحواز ماردة ووادى آنة ، وهو مدى لم يبلغه أحد من أسلافه . وازاء ذلك أرسل الأمير محمد ابنه المنذر وقائده هاشم بن عبد العزيز فى حملة الى الثغر الأعلى ثم الى جليقية فافتتح حصن روطة ، وحصونا كثيرة فى منطقة ألبة والقلاع ، وتأهب الفونش الثالث للقائهم ، وجرت المفاوضات التى انتهت بالهدنة(٧٣) .

وقام الأمير محمد ببناء عدد من الحصون على طول الخط الممتد من سرقسطة حتى طليطلة ليمنع تقدم قوات النصارى من هذه الناحية ، فبنى حصن أشتريس لحماية مدينة سالم ، وحصون طلمنكة ومجريط وفراطة لحماية أهل طليطلة ، وحصون قنالش Canales ، ودلموش Olmos وقلعة الحلفاء Salatalifa على سفوح جبال وادى الرمل الجنوبية(٧٤) .

وكان نصارى جليقية أيضا قد بنوا أربع مدن حصينة بعد أن دفعوا حدودهم بعيدا حتى نهر الدويرة فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وهى مدن سمورة Zamora وسمينقة Simancas ، وسان أشتيبان San Steven de Gormaz وأوسمة Osma . وقد شكلت هذه المدن حدا قويا ضد المسلمين ، ولذلك فكر الطرفان فى السلام ، خاصة بعد أن اندلعت الثورات القبلية فى الأندلس الاسلامية ، وتحالف بنو قسى المولدون مع الفونش الثالث(٧٥) .

لذلك أرسل الأمير محمد ابنه المنذر عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م مع جيش بقيادة هاشم بن عبد العزيز ، استولى على سرقسطة واخترق ألبة لمقاتلة الفونش ، لكن المفاوضات جرت وانتهت بعقد الهدنة ، وأرسل الفونش القس (دولشديو) سفيرا الى قرطبة لوضع قواعد الصلح مع أمير الأندلس ، ونجحت المفاوضات وعاد السفير الى أفيدو عاصمة

---

(٧٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ، ج ٣ ، ص ١٧ ، ٦٤ .

(٧٤) محمود على مكى ، مدريد العربية ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٧٥) الرازى برواية بن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .

ليون (جليقية) ، وتفرغ الفونش لعلاج مشاكل دولته الداخلية ، وكانت الأزمات والقلاقل السياسية والاجتماعية تتعاقب هناك لبواعث تتعلق بنظم المجتمع النصرانى نفسه(٧٦) .

ويبدو أن السلام قد استتب بين أمراء بنى أمية بعد وفاة الأمير محمد وبين الفونش الثالث ، وذلك بسبب الأوضاع الداخلية فى كل من البلدين ، الأندلس وجليقية . وكان أمراء بنى أمية فى خطر داهم بسبب كثرة الثورات والفتن وخاصة ثورة عمر بن حفصون كبير الثوار وأخطرهم، والذى كان يقود الثورة فى الجنوب ، كما كان بنو قسى وبنو الطويل المولدون وبنو تجيب العرب قد استقلوا بالثغر الأعلى وتنازعوا فيما بينهم ، واستعان بعضهم على بعض بملوك نبرة وملوك جليقية . هذا بالاضافة الى الثورات الأخرى التى أشرنا اليها فى الفصل الأول من هذا الباب(٧٧) .

لذلك فان قرطبة لم ترسل حملات الى الشمال ، وقام قواد الثغور بتلك المهمة خير قيام . فقام محمد بن لب بن موسى القسوى فى أول سنة من حكم الأمير المنذر (٢٧٣ — ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ — ٨٨٨ م) بمهاجمة البة والقلاع وفتح بعض حصونها . وبعد أن قتل محمد بن لب هذا امام أسوار سرقسطة عام ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م ، بسبب محاولته الاستيلاء عليها من يد بنى تجيب ، انتهز الفونش الثالث الفرصة وحشد نصارى جليقية والبة والقلاع وبمبلونة ، وخرج للاغارة على الثغر الأعلى . لكن لب بن محمد بن لب الذى خلف أباه على تطيلة وطرسونة ، استطاع أن يدحر قوات الفونش عند طرسونة عام ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م ، وأن يقتل منها ستة آلاف ، وينقذ جميع السبى الذين كانوا موجودين بها(٧٨) .

---

(٧٦) عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ، جـ ٢ ، ص ١٨ ، كارل بروكلمان ، المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ .

(٧٧) ابن حيان ، المقتبس ، جـ ٣ ، ص ٥٠ ، ٥١ ، ٩٦ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٥٧ — ١٥٩ ، ١٧٥ — ١٧٨ .

(٧٨) للرازى برواية بن عذارى ، للبيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ ، للعذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

وفى منطقة الثغر الأوسط استطاع الفونش الثالث أن يعيد بناء سمورة عام ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م ، وأن يحصنها تحصينا قويا ويسكنها النصارى ، واتخذها قاعدة للاغارة منها على الأراضى الاسلامية المجاورة ، واشتد احساس تلك المنطقة بالخطر وقالوا « قد كان أذاهم — أذى النصارى — وطروقهم أرضنا من ليون كالمتوالى عندنا فكيف يكون من سمورة ، وقد اقتربوا منا ودبروا كيدنا ، فأصابوا مقتلنا .. مع اشتغال أهل الثغر بالخلاف حتى انقطع الجهاد وكرت الجاهلية ، وصار أهل كل بلد من الثغور وما جاورها مضطرة الى مسالمة المشركين وملاطفاتهم ، لما بينهم وبين جيرانهم من داء الفتنة »(٧٩) .

لذلك ما ان دعاهم احد الثوار الى القيام بمهاجمة تلك المدينة ، حتى استجابوا له ، وخرج معه أهل طليطلة وطلبيرة ووادى الحجارة وشنتبرية ، وكان هذا الثائر يدعى أحمد بن معاوية ويعرف بالقط ، وهو من أشراف بنى أمية وكان يريد الدولة لنفسه ، لكنه ادعى الجهاد وأعلن أنه المهدى ، وعبأ البربر المجاورين لمدينة سمورة وهاجمها عام ٢٨٨ هـ / ٩٠١ م ، واكتسح قوات ألفونش ، لكن زعماء البربر خانوه وارتدوا منهزمين لخوفهم منه اذا تم له النصر واشتدت شوكته ، فكر الفونش على أحمد بن معاوية المهدى وقتله وعلق رأسه على باب سمورة ، وصار هذا اليوم يعرف بيوم سمورة(٨٠) .

واضح اذن أن تلك الاشتباكات كانت بين أمراء الثغر الأعلى وأحمد ابن معاوية القط وبين ألفونش الثالث ، وكانت قرطبة لا سلطان لها على هؤلاء الأمراء ، ولذلك نستطيع القول بأن اتفاق السلام ظل سارى المفعول بين قرطبة وبين الفونش حتى وفاة الأمير عبد الله عام ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م وتولى عبد الرحمن الناصر الأمر من بعده . هنا تغير الموقف كما سنرى عند دراستنا فى الباب الثانى .

---

(٧٩) ابن حيان ، المقتبس ، جـ ٣ ، ص ١٣٤ .

(٨٠) ابن حيان المقتبس ، جـ ٣ ، ص ١٣٣ — ١٣٩ ، ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٨٨ .

٣ - عـلاقة أمراء بنى أمية بامارة قطلونية (برشلونة) :

ظهرت نبرة على المسرح السياسى منذ بداية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميـلادى ، وكانت قبل ذلك تسير فى فلك ملوك جليقية أو أباطرة الفرنجة ، وما لبثت أن اشتركت مع جليقية فى الهجـوم على منطقة الثغر الأعلى عام ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م ، فخـرج اليهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، والتقى مع قوات بلشك الجلشقى(٨١) ، وقوات نصارى ليون ، واستمرت المعركة بين الطـرفين ثلاثة عشر يوما ، اندحرت فيهـا قبائل البشكنس ، وقتـل أحـد زعمائهم المدعـو شانجة فارس بمبـلونة(٨٢) .

جنحت نبرة الى السلم فى بداية عهـد الأمير عبد الرحمن الثـانى بسبب قوة الامارة الأموية وقتئذ ونجاحهـا فى التصـدى لمـلوك جليقية ، هـذا فضـلا عن تعرض نبرة نفسها لهجوم الجيش الفرنسى على بمبلونة عاصمة نبرة عام ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م بقيـادة أزنار Aznar ـــ وهو من أصل نافارى ـــ وابلو الفرنسى ، فهرعت قوات موسى بن موسى بن فرتون بن قسى حاكم تطيلة ووشقة من مدن الثغـر الأعلى ، وساعدت البشكنس فى صد هذا الهجوم ، والحقت القوات المشتركة هزيمة فادحة بالجيش الفرنسى عند باب الشزرى (رونسسفال) واسرت القائدين(٨٣) .

وفى ضوء هذه المساعدة التى قدمتهـا قوات الثغر الأعلى ، أرسلت نبرة سفارة الى بلاط عبد الرحمن الثانى وأبرمت معاهدة بين الطـرفين

---

(٨١) بلشك الجلشقى تسمية المراجع الأخرى فلاسكو Velasco ويبـدو أنه أحـد زعماء البشنكنس قبل ظهور الأسرة المـالكة فى نبرة بعـد ذلك بقليل ، انظر ، خليـل السمرائى ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص ١٦٧ .

(٨٢) المرجـع السابق ، ص ١٦٧ .

(٨٣) رينـو ، المرجـع نفسه ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، Livermore, op. cit., p. 82.

تتضمن مساعدة المسلمين لنبرة فى صد اى اعتداء خارجى ، وتساعد نبرة المسلمين حين يريدون عبور جبال البرنات الى فرنسا . وكان الكونت أزنار قد استطاع العودة الى نبرة بعد أن فك أسره بمساعدة الفرنجة ، واستمر فى حكم نبرة حتى عام ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ، وجاء بعده أخوه شانجة وانتزع منه امارة نبرة غرسية بن ونقة أحد زعماء الباسك الآخرين ، ومنه جاءت الأسرة المالكة التى حكمت نبرة بعد ذلك[٨٤] .

وبظهور هذه الأسرة تغيرت العلاقات بين نبرة وبين قرطبة ، وبدأ أمراء نبرة بمهاجمة الأراضى الاسلامية معتمدين على مصاهراتهم التى أبرموها مع أسرة بنى قسى . وكان أنيجو أرسته Inigo Arista الذى تسميه المصادر الاسلامية « ونقة بن شانجة » قد تزوج أرملة موسى بن فرتون بن قسى حاكم تطيلة فى الثغر الأعلى الأندلسى ، ثم توفى حوالى عام ٢٠٥ / ٨٢٠ م واشتهر أولاده الثلاثة غرسيه بن ونقة[٨٥] ، وفرتون بن ونقة أخو موسى بن موسى لأمه ، وغرسيه أنجين وتسميه المصادر الاسلامية « غرسيه بن ونقة » . ويبدو أنه هو الذى تولى الأمر بعد وفاة أبيه ، ويظهر فى الأحداث السياسية منذ عام ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م[٨٦] .

فى ضوء هذه العلاقات بين أسرة نبرة الحاكمة وبين بنى قسى ، بدأت الأسرة الأخيرة تثير المتاعب لحكومة قرطبة بعد أن ساعدتها فى حروبها كثيرا ضد نصارى الشمال . وكان موسى بن موسى القسوى أول من أعلن الخلاف من أسرته ضد بنى أمية ، وكان ذلك عقب مشاحنة أو سوء فهم بينه وبين أحد قواد بنى أمية أثناء حملة لهم على سرطانية (سردانية) فى شمال الثغر الأعلى ، فكان ذلك سبب تمرد موسى بن موسى وخاصة بعد أن عين عبد الرحمن الثانى عبد الله بن كليب على سرقسطة ، وقام فى هذا العام بالاغارة على ممتلكات ينقة بن ونقة أخو موسى لأمه

---

(٨٤) خليل السامرائى ، المرجع نفسه ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٨ .

(٨٥) يبدو ان غرسية بن ونقة كان من زوجة اخرى لان ابن حيا يطلق عليه اذ « قرابة موسى » وليس اخوه . انظر ، بن حيان ، مجلة الأندلس ص ٢٩٨ .

(٨٦) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، السامرائى ، المرجع نفسه ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

عام ٢٢٦ هـ / ٨٤١ م . وظهـر هـذا الخلاف واضحا أثنـاء حملة للأمير عبد الرحمن الثانى على بمبلونة عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م بقيادة ابنه المطرف ، اذ تخلف موسى عن اللحاق بالمطرف ، فأرسل عبد الرحمن الثانى حارث بن بزيع وولاه سرقسطة وأمره بحـرب موسى ، لكن موسى أسره وقضى على جيشـه(٨٧) .

ازاء ذلك صمم عبد الرحمن الثانى على القضـاء على موسى بن موسى ، فلجـأ موسى الى التحالف مع نبرة ، فخـرج عبد الرحمن الثانى عبد الرحمن الثانى على بمبلونة عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م بقيادة ابنه المطرف ، بمبلونة وأثخن فيهم القتل والسبى وعـاد الى قرطبة ، ثم عـاد فى العـام التالى لعقاب موسى بن موسى بتطيلة ، وبدأ عبد الرحمن بحصار تطيـلة فأخضعهـا ، ثم زحف على بلاد البشكنس مرة أخـرى ، ولقيه غرسـية وحليفه موسى بن موسى فى جمـوع كبيرة ، فهزمهم عبد الرحمن هزيمـة شديدة ، وفـر موسى وحليفه جريحين ، ودخل موسى بمبلونة ، فاضطرت نبرة لطلب الأمان والصـلح(٨٨) .

وكان عبد الرحمن الثانى أيضـا فى حاجة الى الصـلح مع نبرة ، بعـد أن أخبره وهب الله بن حـزم عامل أشبونة على البحـر المحيـط بورود مراكب النورمان لمهاجمة البلاد . فعقـد عبد الرحمن الأمان لينقة ابن ونقة أخو موسى لأمه ، وأقـره على بلده ، على شرط أن يؤدى الجزية ومقـدارها ٧٠٠ دينـار كل عام ، كمـا عقد الأمان أيضا لكونت سردانية على شرط أن يرد هو وأمير نبرة (ينقه) جميـع ما بقى عنـدهما من سبى المسـلمين من وشـقة(٨٩) .

---

(٨٧) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ٦ .

(٨٨) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٠ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ ، Murphy, op. cit., p. 92.

(٨٩) لعذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٠ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٣٠ .

وكما قلنا لم يكن القصد من غزوات أمراء بنى أمية الا ايقاع الرعب فى قلوب نصارى الشمال حتى يلزموا السكينة والعيش فى سلام مع جيرانهم المسلمين ، لذلك لم يكن لهذه الغزوات نتائج مستقرة . وكانت تعقد المعاهدات ثم لا تلبث الحرب أن تنشب من جديد حسب الأحوال الداخلية لكل من البلدين .

اذ لم يكد الأمير محمد (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ — ٨٨٦ م) الذى تولى السلطة بعد أبيه الأمير عبد الرحمن الثانى يفرغ من القضاء على ثورة طليطلة عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ، وعلى فتنة النصارى المعاهدين فى قرطبة فى العام التالى ، وعلى خطر النورمان الذين هاجموا شبه الجزيرة عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، والتفوا مع سواحلها حتى وصلوا الى نهاية نهر أبرة ، ودخلوا نبرة وأسروا ملكها غرسيه ثم أطلقوا سراحه نظير فدية كبيرة . لم يكد يفرغ الأمير محمد من كل تلك المشاكل حتى قام بعدة حملات متتابعة على نبرة ولم تكن قد أفاقت بعد من ضربة النورمان ، فغزا بمبلونة عام ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م ، وخرب حصونها ، وافتتح منها حصون فيروس وفالحسن والقشتل ، وأسر فرتون بن غرسيه أمير نبرة ، وسجنه فى قرطبة لمدة عشرين عاما ثم أطلقه الى بلده ، وكان غرسية فى ذلك الوقت متحالفا مع الملك أردون ملك جليقية ، بينما كان موسى بن موسى القسوى فى طاعة قرطبة(٩٠) .

لم تكن طاعة موسى لقرطبة الا طاعة اسمية ، اذ كان هو وأولاده يسيطرون على الثغر الأعلى وكانت له علاقات مع ملك نبرة كما أشرنا ، وكانت علاقاته مع أردون ملك ليون ، جاره من الغرب ، تتردد بين الخصومة والتحالف وفقا للظروف . كما كانت علاقات نبرة بمملكة ليون يشوبها التوتر والخوف وعدم الثقة ، اذ كانت مملكة نبرة الصغيرة تخشى على نفسها من مطامع جارتها القوية فى ليون ، ولذلك حدث أن قام موسى بن موسى ببناء حصن يسمى حصن البلدة جنوبى لوجرونيو (Logrono)

---

(٩٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٣١ .

احـد فـروع نهـر أبرة من الجنـوب ، فتقـدم أردون ملك ليـون عام ٢٤٨ هـ / ٨٥٩ م وهـدم هذا الحصن وتقابل مع قوات موسى وصهره غرسية فى معركة حامية ، هـزم فيهـا موسى وجـرح ، وسقط صهره غرسية قتيـلا ، ثم توفى موسى متأثرا بجراحه عام ٢٥١ هـ / ٨٦٢ م(٩١) .

وكانت هذه الهزيمة ضربة شديدة أصابت بنى قسى فى الشـمال ، وأدت الى قيام (لب بن موسى) بمهـادنة أردون ومحالفته على قتـال المسلمين ، كما كانت ضربة قاسية لامارة نبرة ، اذ أنهـا عاشت فترة ضياع لمدة حوالى عشر سنوات ، لم يظهـر لهـا فيهـا أى نشاط سـياسى أو عسـكرى .

شغلت حكومة قرطبة بعد ذلك بثورة أولاد موسى بن موسى القسوى واستيلائهم على الثغر الأعلى كله واستعانتهم بنصارى الشمال وخاصة نبرة ونصارى سرطانية . فكان على قوات الأمير محمـد أن تقضى على قوات هؤلاء المتمردين ثم تواصل سيرها لقتال نصارى الشمال ، فكانت غـزوة عام ٢٥٩ هـ حيث قام الأمير محمد بنفسه وحاصر بنى موسى وأخضعهم ، ثم سار الى بلاد نبرة فخربهـا وأذل أهلهـا وعاد الى قرطبة . وتتابعت حملات الأمير محمد على سرقسطة ومنها الى نبرة فى عامى ٢٦٠هـ ـ ٨٧٣م ، / ٢٦٤ هـ ـ ٨٧٨ م ، واستطاعت حكومة قرطبة أن تسترد مدينة سرقسـطة بعـد أن اشترتهـا بالمـال من بنى قسى عام ٢٧٠ هـ وأعطت لكبيرهم محمد ابن لب بن موسى ولاية أرنيـط وطرسونة ، فاستقامت طاعته وقام بدور بارز فى مجاهـدة نبرة بعـد ذلك(٩٢) .

توفى الأمير محمـد وتولى ابنه الأمير المنـذر (٢٧٣ ـ ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ ـ ٨٨٨ م) الحـكم فى قرطبة ، لكـن لا تذكـر لنا المراجع شـيئا

---

(٩١) عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ، جـ ٢ ، ص ١٤ ،
Livermore, op. cit., p. 83.

(٩٢) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣١ ـ ٣٥ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ١١٤ .

عن جهاده ضدة نبرة ، ولعل ذلك يعود الى قصر مدة حكمه ، والى انشغاله بحركة ابن حفصون حيث مات محاصرا له عند قلعة ببشتر فى الجنوب .

اما الأمير عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ — ٩١٣ م) الذى تولى الحكم بعد اخيه الأمير المنذر ، كان أميرا على قرطبة فقط ، اذ « لم يبق له الا الاسم فوق ظهر منبر قرطبة والقليل من غيرها » كما قال بذلك ابن الخطيب . وكانت هناك محاولات أشرنا اليها عند حديثنا عن احوال الأندلس فى الفصل الأول من هذا الباب ، لتوحيد جهود مولدى الشمال والجنوب ضد امارة بنى أمية . وكانت رسل محمد بن لب قد وصلت الى جيان لمقابلة ابن حفصون للاتفاق على ذلك ، لكن محمد بن لب نفسه سقط فى ذلك الوقت قتيلا امام أسوار سرقسطة التى أراد أن وحصن مولة ، وقتل وسبى(٩٥) .

وكان التجيبيون قد اغتصبوا السلطة فى سرقسطة ، ولذلك أعطيت ولاية مدينة تطيلة وطرسونة الى (لب) بعد مقتل والده محمد بن لب على النحو الذى أشرنا اليه . وقام لب هذا بدور كبير فى رد هجوم الفونش الثالث وجيوش نبرة المتحالفة معه عند وادى برجة(٩٤) ، وهزمهم وقتل منهم الكثير ، وهاجم منطقة ألبة فى عام ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م وفتح حصن بايش ، وفر ألفونش هاربا بعد أن سمع بقرب قدومه . ثم صعد لب بن محمد نشاطه فى ناحية بليارش شمال الثغر الأعلى فى نفس العام ، وفتح هناك حصن لحرونفة وحصن ايلاس وحصن قشتيل شنت وحصن مولة ، وقتل وسبى(٩٥) .

---

(٩٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، جـ ٢ ، ص ٢٧ .

(٩٤) وادى برجة حصن يقع الى غربى مدينة طرسونة وهو غير مدينة Berga التى تقع فى شمال شرقى الثغر ، انظر الخريطة رقم ٤ .

(٩٥) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٧ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢١٢ .

ويبدو أن هذه الانتصارات قد شجعت لب بن محمـد على مواصلة النضال ضد نبرة التى دخلت فى عهـد ملك جديد هو شانجة غرسـية الأول (٢٩٣ — ٣١٤ هـ / ٩٠٥ — ٩٢٦ م) . فواصـل لب بـن محمـد نشاطه واخـذ فى بنـاء حصن هرين بالقـرب من نبرة ، فجمـع له ملك نبرة الجمـوع واستعان بالسرطانيين ونصبوا له الكمائن واستدرجوه اليها حتى قتلوه عام ٢٩٤ هـ / ٩٠٧ م(٩٦) .

وقد ظن ملك نبرة أنه تخلص من مقاومة الثغـر الأعلى بعـد قضائه على لب بن محمـد ، لكنه لم يعـلم أن هناك من يستطيع رده على أعقابه ، اذ أن محمـد بن عبد المـلك الطويل ، زعيم أسرة بنى الطويل المولدين أيضا مال الى التعاون مع أسرة بنى قسى ، وقام فى العـام التالى بغـزو بريطانية ، ثم غـزا منطقة بليارش فى عامى ٢٩٦ — ٢٩٧ هـ ، وهـدم حصونها وقتل وسبى أكثر حتى كان مبلغ الفىء ١٣ الفـا(٩٧) .

وفى عام ٢٩٨ هـ / ٩١١ م ظهـر التعاون المشترك بين بنى قسى وبنى الطويل ضد نبرة ، اذ خـرج محمـد بن عبد المـلك الطويل الى أرغونة فى طـريقه الى بمبلونة حيث يلتقى هناك مع قوات عبد الله بن محمد بن لب الذى كان قد خلف أخاه لب بن محمـد فى حكم تطيلة عـام ٢٩٤ هـ . ولمـا أحس ابن الطويل بتحرك قوات ملك نبرة تخـاذل وعـاد ادراجه . ولمـا بلغ عبد الله بن لب ذلك عـاد هو الآخر من حيث أتى ، بعـد أن كان قد حصن لوازة من حصون شانجة ملك نبرة . وبذلك لم يتمكـن ابن الطويل وابن قسى من القيام بعمـل ناجح ضـد نبرة فى تلك الغزوة ، لكنهمـا استمرا بعـد ذلك فى النضال ضد نبرة مؤيدين من حاكم قرطبة الجـديد الأمير عبد الرحمن(٩٨) ، الذى تلقب فيمـا بعـد بالخليفة عبد الرحمن النـاصر .

---

(٩٦) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢١٥ .

(٩٧) ابن عـذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ ، ٢١٩ .

(٩٨) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٢١ .

٣ ـ علاقة أمراء بنى أمية بامارة قلطونية (برشلونة) :

بعد سقوط برشلونة فى يد لويس التقى بن الامبراطور شرلمان عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، قامت امارة جديدة نصرانية فى الشمال الشرقى لشبه الجزيرة وسميت هذه الامارة باسم قطلونية وعاصمتها برشلونة ، وأصبحت مدخلا للنفوذ الفرنسى الى البلاد من ناحية الشرق ، كما كانت غسقونية مدخلا للنفوذ الفرنسى من ناحية خليج بسكاية عند أطراف جبال البرنات الغربية . وكانت هذه الامارة الصغيرة شوكة فى ظهر الثغر الأعلى ، كما أنها أصبحت عائقا للثورات الاسلامية اذا ما حاولت التسلل الى جنوب بلاد الفرنجة . ولم تنس هذه الامارة الصغيرة دورها فى مساندة نصارى الشمال الأسبانى ضد المسلمين ، فأصبحت تغير بقواتها على أطراف الثغر الأعلى ، وتتصل بنصارى سرطانية بريطانية ، وتشجعهم على غزو أراضى المسلمين فى تلك المنطقة(٩٩) .

وعبثا حاول الأمير الحكم الربضى أن يسترجع برشلونة وتبادل الهجمات عام ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م مع قوات الفرنجة ، وانتهى الأمر بعقد الصلح بين لويس بن شرلمان الذى كان قد خلف أباه على عرش فرنسا (١٩٩ ــ ٢٢٦ هـ / ٨١٤ ــ ٨٤٠ م) ، وبين الحكم الربضى عام ٢٠١ هـ / ٨١٦ م ، ولم يدم هذا الصلح الا أعواما قليلة . ذلك أن الفرنج فى قطلونية أو الثغر القوطى كما يسميه البعض أغاروا بعد ذلك بحوالى عشر سنوات وفى عهد الأمير عبد الرحمن الثانى ، على أطراف الثغر الأعلى بقيادة أميرهم برنارد بن جيوم دوق تولوز ، بعد أن ثار ضده ايزون Aison ــ وهو أحد النبلاء المنحدرين من سلالة القوط ــ فى اقليم برشلونة سنة سنة ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م واستولى على عدد من المدن والحصون مثل أوسونة ، واستنجد بالأمير عبد الرحمن الثانى ضد الفرنجة(١٠٠) .

---

(٩٩) رينو ، المرجع نفسه ، ص ١٣٢ ، الفصل الثانى ، الباب الأول

(١٠٠) عنان ، تاريخ العرب فى اسبانيا ، ص ٨٤ ، ٨٦ .

انتهزت قرطبة الفرصة ، وأرسل الأمير عبد الرحمن قريبه عبيد الله ابن عبد الله البلنسى على رأس جيش الى برشلونة عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، فاستمات حاكمها برنارد فى الدفاع عنها ولم يمكن المسلمين من فتحها ، فاضطر عبيد الله الى رفع الحصار عنها ، واجتاح ولاية قطلونية حتى وصل الى جرندة فى اقصى الشمال ، وأقام هناك شهرين ، ثم عاد الى قرطبة بعد أن فرق شمل النصارى فى تلك الأنحاء . لكن لم ينتج عن حملته هذه فتوحات ثابتة ، ولم يعاود الأمير عبد الرحمن مهاجمة برشلونة الا سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٠ م بعد وفاة الملك لويس التقى بن شرلمان بحوالى ٦ سنوات(١٠١) .

كان الصراع دائرا بين شارل الأصلع (٢٢٦—٢٦٤ هـ / ٨٤٠—٨٧٧ م) الذى تولى العرش بعد وفاة والده لويس التقى ، وبين ابن اخيه ببين الثانى ملك أكستانية على عرش البلاد ، وطلب ببين مساعدة المسلمين ، وأرسل كونت طولوزة (تولوز) المسمى غليوم الى قرطبة ، فأرسل الأمير عبد الرحمن جيشا بقيادة حاجبه عبد الكريم بن مغيث الى برشلونة تمكن من اخراج عمال شارل الأصلع من معظم مدن قطلونية ، وعين غليوم حاكما لبرشلونة ، واجتاز المسلمون جبال البرنات وحاصروا مدينة جرندة الواقعة على مدخل تلك الجبال وعاثوا فى نواحيها ، ثم عادوا الى قرطبة(١٠٢) .

ويبدو أن شارل الأصلع تمكن من انزال الهزيمة بمعارضيه ، اذ انه استطاع أن يقتل غليوم كونت برشلونة لمساعدته المسلمين وفتح ابواب برشلونة لهم ، فأرسل الأمير عبد الرحمن فى أواخر سنى حكمه جيشا لمعاقبة أهل مدينة برشلونة لعدم وقوفهم بجانب غليوم ومنعه من القتل . ومع ذلك أخذت برشلونة تنهج خطا معاديا لحكومة قرطبة ، مما جعل الأمير

---

(١٠١) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٢٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٥٠ ، السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٩ .

(١٠٢) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٦٢ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٣٠ ، رينو المرجع نفسه ، ص ١٥٦ ،

Murphy, op. cit., p. 93.

محمد الذى تولى الحكم فى قرطبة بعد عبد الرحمن الثانى يكتب الى موسى بن موسى القسوى عامله على الثغر الأعلى بأن يحشد جيشه ويغزو برشلونة . فدخلها موسى عام ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م وحارب قلاعها ، وتجاوزها الى ما وراءها حتى افتتح حصن طراجة وهو آخر حصون برشلونة ، ثم عاد الى سرقسطة غانما منتصرا[١٠٣] .

ويبدو أن فرنجة برشلونة عادوا للاغارة على أطراف الثغر الأعلى مما اجبر الأمير محمد أن يرسل جيشا آخر عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م تمكن من دخول برشلونة ، فأرسل أهلها الى ملك الفرنجة يطلبون الغوث فأمدهم بجيش جرار ، وكذلك طلب المسلمون المدد من قرطبة فوصلهم ، واقتتل الطرفان وانهزم الفرنجة واستولى المسلمون على أرياض المدينة وعلى برجين من أبراجها وقتلوا كثيرا من الفرنجة وعادوا الى قرطبة غانمين[١٠٤] .

وازاء هذه الحملات المتكررة على برشلونة ، اضطر الملك شارل الأصلع ملك فرنسا أن يوقع الصلح مع الأمير محمد عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م ، والتزم شارل فى هذا الصلح بألا يعود الى مساعدة من يخرج عن الطاعة من نصارى أسبانيا ، وتنازل الأمير محمد عن برشلونة وغيرها من مدن قطلونية ، ولم يعد المسلمون يتصدون لمحاربة ملوك فرنسا منذ ذلك الوقت محاربة مستمرة أو منتظمة . ذلك أنهم كانوا يضطرون أحيانا للاغارة على هذه المنطقة ، وأحيانا يصلون الى جبال البرنات ، حتى انه هاجر بعض الأساقفة من هناك خوفا على أنفسهم من هجمات المسلمين[١٠٥] .

---

(١٠٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ٢٠ ، الزرابى ، قرة النفوس ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٤٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ٢٨ .

(١٠٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ٣٧ .

(١٠٥) الزرابى ، المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ .

وقد حدث ما توقعه المسلمون اذ أن اسماعيل بن موسى القسوى صاحب تطيلة كان قد شرع فى بناء مدينة لاردة أو زيادة تحصينها وذلك فى عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م ، فحاول صاحب برشلونة الفرنجى أن يمنعه من ذلك وتقدم على رأس جيشه لتحقيق هذا الهدف ، لكن اسماعيل هزمه وقتل أكثر رجاله ، ومعروف أن لاردة على مسافة قريبة من برشلونة فخاف كونت برشلونة من هجمات مسلمى لاردة اذا تم لهم تحصين مدينتهم(١٠٦) .

وكانت امارة بنى أمية تعانى أشد المعاناة فى تلك الفترة من حياتها بسبب الثورات الداخلية التى أشرنا اليها من قبل ، مما أطمع أمراء تلك الامارة الصغيرة فى بلاد المسلمين ، حتى أنهم تجرءوا وأرسلوا حملة بحرية من خمسة عشر سفينة حربية ، أغارت على ساحل المرية عام ٢٧٦ هـ واحرقت كثيرا من السفن الاسلامية الراسية هناك ، فخرج أهل بجانة من رجال البحر وقاوموا الغزاة ، حتى تم الصلح على أن يقلع هؤلاء الغزاة والا يعودوا مرة أخرى(١٠٧) .

ويبدو أن قائد الأسطول الفرنجى كان ابنا لكونت برشلونة ، ذلك أن لب بن محمد القسوى صاحب الثغر الأعلى كان قد أغار بعد ذلك فى عام ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م على حصن أورة من أحواز برشلونة ، والتقى هناك بكونت برشلونة عنقديد والد شنير فهزمه وقتله . وتولى شنير حكم برشلونة . وكان شنير هذا هو صاحب الحملة البحرية السالفة الذكر(١٠٨) .

---

(١٠٦) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٣٢ .

(١٠٧) الرازى برواية ابن حيان ، المقتبس ، جـ ٣ ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(١٠٨) الرازى برواية ابن حيا ، المقتبس ، جـ ٣ ، ص ١٢٦ .

ظل شنير Sunier حاكما لبرشلونة حتى عام ٢٩٩ هـ / ٩١٢ م حينما أغار عليه محمد بن عبد الملك الطويل ، ولما وصل ابن الطويل الى وادى طراحة قرب برشلونة كان شنير قد سبقه وكمن له فى صياصى الجبال ، لكن ابن الطويل تمكن من هزيمته وقتل كثيرا من رجاله ، ثم دارت الدائرة بعد ذلك على ابن الطويل حيث قتل فى العام التالى خلال غزوة أخرى قام بها فى قطلونية ، فخلفه أولاده فى حكم أراضيه . وهكذا بقيت برشلونة وما يليها من قطلونية خارجة عن حكم المسلمين ، حتى فى زمن عبد الرحمن الناصر برغم كثرة غزواته وعظم دولته كما سنرى فيما بعد[١٠٩] .

---

(١٠٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ ، شكيب أرسلان ، الحلل السندسية ، جـ ٢ ، ص ٢١٢ ، عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، ع ١ ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .

الباب الثانى

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر خلفاء بنى أمية

الفصل الأول : الظروف والعوامل التى أثرت فى العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية فى عصر خلفاء بنى امية .

الفصل الثانى : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية فى عصر خلفاء بنى امية .

الفصل الأول

الظروف والعوامل التى أثرت فى العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر خلفاء بنى أمية

اولا ـ ظروف الأندلس الاسلامية واحوالها المؤثرة فى علاقتها باسبانيا النصرانية

انتهى عصر الأمير عبد الله عام ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م ، وكانت الأندلس الاسلامية يطبق عليها ملوك جليقية ونبرة وبرشلونة من الشمال ، وابن حفصون من الجنوب ، وابن مروان الجليقى من الغرب ، وقام الثوار الآخرون من المولدين والعرب والبربر بالسيطرة على أجزائها الباقية ، حتى كان الأمير الأموى فى بعض الاحيان لا نفوذ له الا على قرطبة وحدها . ومع ذلك جاهد أمراء بنى أمية الأواخر ما وسعهم الجهاد ، وصمدوا حتى تتاح لهم الفرصة لصد هذه الموجة العاتية من التمزق والسقوط والضياع ، وتوج كفاحهم بما قام به عبد الرحمن الناصر من لم هذا الشتات واعادة الوحدة الى البلاد مرة اخرى .

لقد انقذ الناصر الأندلس من نفسها ، كما أنقذها من براثن السيطرة النصرانية من ملوك جليقية ونبرة ، ورفعها الى مرتبة الدولة العظمى التى يخطب ودها الشرق والغرب ، وحقق لها السلام والازدهار والرفاهية فى الداخل ، والانتصار والاحترام فى الخارج . وكان الناصر منذ توليه الحكم يحارب معركتين فى وقت واحد ، معركة مع نصارى الشمال الأسبانى الذين رأوا أن يجهضوا قوة هذا الأمير الشاب وينالوا منه قبل أن يستكمل قوته ، ويتخلص من مشاكله الداخلية ويستدير لهم ، ومعركة مع ثوار الأندلس الذين ورثهم من عهود من سبقه من الأمراء . وانتصر الامير عبد الرحمن فى المعركتين ، وأعلن قيام الخلافة الأموية فى الأندلس فى ذى الحجة عام ٣١٦ هـ . (١)

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٥ .

فقـــد أحس عبد الرحمن النـــاصر بالقوة ، وأراد أن يدعم مركزه السياسى أمام أعـــدائه فى الداخل والخارج ، وخاصة بعـــد أن ترامى اليه ما نال الخلافة العباسية بالمشرق من حجر الموالى واستبدادهم بالخلفاء وقيامهم بعزلهم وقتلهم ، كما لاحظ أيضا قيام الخلافة الفاطمية فى المغرب ، وتسرب دعوتها الى الأندلس ذاتها ، مما جعله يعلن قيام الخلافة الأمـــوية فى قرطبة ، وأمر بالدعاء له على المنابر بأســـم « الامام الناصر لدين الله عبد الرحمن أمير المؤمنين » وضرب النقود بهـــذه الألقاب (٢) .

وكما فعلنا فى الباب السابق ، وألقينا نظرة عامة على أحوال بلاد الأندلس والشمال الأسبانى لنعرف عوامل القـــوة والضعف التى أثرت فى العلاقات بينهما ومكنت أولئك أو هؤلاء من احراز تقـــدم أو كسب انتصار ، علينا أن نفعل الآن نفس الشيء بالنسبة لهـــذا العصر ، عصر الخـــلافة الأموية ، لنعرف كيف تحولت الهزائم فى عصر الامارة الاخير الى انتصارات فى عصر الخلافة ، وكيف تحولت الأندلس ، من أندلس ابن حفصون وابن مروان الجليقى وبنى قسى وغيرهم ممن قطعوا أوصالها ، الى الأندلس الموحـــدة القوية ، الى أندلس عبد الرحمن النـــاصر .

١ ــ سمات عصر الخـــلافة :

وقـــد اتسم هـــذا العصر بسمات معينة بالنسبة لعلاقات مسلمى الأندلس بممالك أسبانيا النصرانية . فقـــد كان العصر عصر قـــوة فى عهـــد عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ ــ ٣٦٦ هـ) . وقـــد استخدم النـــاصر قـــوة الدولة فى ارهاب ممالك أسبانيا النصرانية وفى اجبارها على الخضوع وطلب السلام ، لكنـــه لم يعمل على القضاء عليها أو تدميرها تدميرا تاما . فقـــد كان معتـــدلا فى استخدام قوته ، مدركا أنه لا يمكن القضاء على تلك الممالك التى نشأ بعضها منذ أن تواجد المسلمون أنفسهم على أرض تلك البلاد . ومن ثم فقـــد ساد السلام بـــين الأندلس وأسبانيا النصرانية طوال السنوات الاخيرة من حكمه وطوال عهـــد ابنه الحـــكم المستنصر .

---

(٢) ابن خلـدون ، مقـدمته ، جـ ٢ ، ص ٥٨٠ ، ٥٨١ .

وقـد استمر عصر القـوة فى عهـد الدولة العامرية (٣٦٦–٣٩٩ هـ) رغم ما انتاب الخلافة نفسها من ضعف بسبب استبداد المنصور محمد بن أبى عامر بشئون الحكم وحجره على الخليفة الطفل هشام المؤيد بن الحـكم المستنصر (٣٦٦–٣٩٩ هـ) . لكن المنصور وابنه عبد الملك المظفر أسرفـا فى استخـدام قـوة الدولة ووجهاها لتحطيم ممالك أسبانيا النصرانية ، ووصلت قوات المنصور الى أماكن لم تصل اليها جيوش اسلامية من قبل ، ودك عواصم ممالك نبرة وليون وبرشلونة ، وخرب كثيرا من بلدانهم و مدنهم وقراهم ، وصار سيد الجزيرة كلها بالسيف والقهر وسفك الدماء .

وقـد تنفس نصارى الشمال الأسبانى الصعـداء عند سماعهم نبأ موته ، وانتهزوا فرصة سقوط دولة بنى عامر عام ٣٩٩ هـ ، وقيام الصراع بين خلفاء بنى أمية الأواخر ، وتدخلوا فيما بينهم ، وأعانوا فريقا ضد فريق، الليونية أو البرشلونية . واتسمت هـذه الفترة بتلك الظاهرة ، حتى استقر الأمر لبنى حمود ، وأعلنوا قيام الخلافة العلوية فى قرطبة عام ٤٠٧ هـ ، حتى صار الخليفة الأموى لا يصل الى كرسى الخلافة الا على أسنة الحراب فترك نصارى الأسبان مسلمى الأندلس يأكل بعضهم بعضا ، ويقتتل بنو حمود مع بنى أمية ، ويقتتل بنو أمية مع بعضهم البعض للوصول الى كرسى الخلافة ، حتى سقطت خلافة بنى أمية نهائيا عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م وظهر عصر جديد يعرف بعصر ممالك الطوائف .

وعصر الخلافة الأموية كما رأينا بدأ قويا فيما يتعلق بالعلاقـات مـع أسبانيا النصرانية ، واستمر كذلك طوال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ومع بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، تغيرت الاحوال بسقوط دولة بنى عامر ، وقيام الفتنة البربرية ، وبدء الصراع على كرسى الخلافة ، والتماس المساعدة من ممالك أسبانيا النصرانية التى رأت أن الفرصة مواتية لكى تأخذ بثأرهـا من أحفاد النـاصر والمستنصر والمنصور ، ونشطت للقضاء عليهم ، وتقدمت حركة الاسـترداد خطوات واسعة للأمام .

وقد كانت هناك عوامل معينة أدت الى موقف القوة فى العلاقات مع نصارى الشمال طوال القرن الرابع الهجرى ، وعوامل أخرى أدت الى موقف الضعف فى العلاقات مع هؤلاء النصارى بدءا من القرن الخامس الهجرى وحتى سقوط الخلافة عام ٤٢٢ هـ .

٢ ـ عوامل القوة وأثرها فى العلاقات مع أسبانيا النصرنية :

أما عوامل القوة ، فقد كان أهمها هو وحدة الجبهة الداخلية التى تحققت لأول مرة على يد عبد الرحمن الناصر بعد فترة من التفكك والانقسام أشرنا اليها فى حديثنا عن أحوال الاندلس فى أواخر عصر الامارة . وكان الناصر قد ورث بلادا ممزقة الاوصال مفتتة القوى ، فالثغر الاعلى (سرقسطة) تقاسمه بنو تجيب العرب ، وبنو قسى وبنو الطويل من المولدين ، وماردة وبطليوس والغرب الأندلسى كله كان تحت سيطرة ابن مروان الجليقى ، وجنوب الأندلس كان فى قبضة عمر بن حفصون . وكانت البغضاء بين عناصر السكان من عرب وبربر ومولدين وبين المسلمين والنصارى ، قد هزت كيان الدولة وزعزعت حكم بنى أمية حتى أوشك على الزوال (٣) .

وكانت هذه الاوضاع تتطلب قائدا حكيما موصوفا بالشجاعة والدهاء. وقد توافرت تلك الصفات فى عبد الرحمن الناصر الذى اتبع تجاه أعدائه فى الداخل سياسة تتسم بالاعتدال والمداراة واللين حينا ، وبالقوة والحزم والحسم حينا آخر ، فكان يحاربهم ويحاصرهم ويجبرهم على التسليم ثم يعفو عنهم ، ويسكنهم بجواره فى قرطبة ويجزل لهم العطاء ، ويوفر لهم الحياة الكريمة ، حتى لا يفكروا فى التمرد والعصيان مرة أخرى . لم يكن يقتلهم أو يسمل عيونهم أو يلقيهم فى غياهب السجون كما كان يفعل ملوك ليون ونبرة ، ولكنه كان رحيما حتى بأعدائه ، ولذلك أحبوه واحترموه ولم يفكروا فى نقض تعهداتهم معه ، ولو حدث ذلك لم يكن الا بتأثير أسبانيا النصرانية واغرائها لهم بالعودة الى العصيان والتمرد .

---

(٣) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ .

وقد ساعد الناصر أيضا فى توحيد الجبهة الداخلية ، ما اتبعه من سياسة حكيمة تجاه الشعب والجيش . فلم يتبع أسلوب الارهاب والاستبداد المطلق فى حكمه للبلاد . صحيح أنه حقق للدولة منتهى الأبهة والفخامة والقوة والسلطان ، وأصبحت مرهوبة الجانب شديدة البأس ، لكن ذلك لم يكن الا على أعدائها من نصارى الشمال الأسبانى الذين بلغت رهبة الخلافة فى نفوسهم أن ملوكهم كانوا يقبلون الارض فى مجلس الخليفة عندما كانوا يفدون عليه طلبا للسلام (٤) .

اما أفراد الشعب ، فلم يكونوا يحملون فى قلوبهم الا شعورا بالحب والهيبة والتقدير نحو خلفائهم الذين حققوا لهم الرفاهية فى الداخل ، والنصر على الاعداء فى الخارج ، واتبعوا العدالة فى حكمهم حتى أن بعض الفقهاء اشتط فى نقدهم وتأنيبهم ، لأنهم غالوا فى اقامة العمائر والقصور ، وفى الاسراف فى تزيينها ، فلم يقدم هؤلاء الخلفاء على ايذائهم أو عزلهم ، ليس خوفا منهم كما قال البعض ، ولكنها سنة أخذ بها بنو أمية أنفسهم ، لعلمهم بأن هذه البلاد المتنوعة المشارب المتعددة العناصر السكانية ، لا تجمعها القوة فقط ، ولكن العدل واحترام الشرع والعمل بأقوال الأئمة والفقهاء واحترامهم هو الذى يحقق وحدتها ، وهو السبيل لقيادتها(٥) .

وقد أدت تلك السياسة الى امتزاج عناصر السكان تدريجيا ، ووجد ما يسمى بالشعب الأندلسى الذى أصبحت له خصائصه التى تميزه عن غيره من الشعوب الأخرى ، والذى وقر فى قلبه حب بنى أمية ، واصبحو فى نظره هم الحكام الشرعيون ، وكل من حاول أن ينال منهم كان يضع هذه الحقيقة فى الحسبان . وحدث أن حاول المنصور بن أبى عامر — ذلك الزعيم القوى الذى فرض سلطانه على سكان شبه الجزيرة جميعا ،

---

(٤) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٩٩ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٨ ، ازاهر الرياض ، جـ ٢ ، ٢٧٣ .

(٥) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، جـ ٢ ، ص ١٤٦ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٩٩ أزهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ٢٧٨ ، كامل كيلانى ، نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى ، ص ٢١٧ .

مسلمين ونصارى ــ أن يقصى بنى أميـــة عن كرسى الخلافة ، لكنه لم يستطع ذلك ، لأنه خشى غضبة الشعب وتأييـــد ه لبنى أمية . وكان هـــذا هو السر فى أنه أوصى أولاده الا يمتهنوا الخليفة وأن يصونوا حقوقه فى الخلافة حتى لايصطدموا بالشعب . ولـــما خالف تلك الوصية ابنه عبد الرحمن شنجول ، وأجبر الخليفة هشام المؤيد على مبايعته بولاية عهده ، تفجرت الثورة ضده وأطاحت برأسه وبدولة بنى عامر معا[6] ،

لم يكن بنو عامر اذن طغاة مستبدين كمـــا وصفهم البعض مســـتدلين على ذلك بقتل الناصر لابنه عبد الله الـــذى تآمر عليـــه عام ٣٣٩ هـ [7] أو بموقفه من العرب الذين استراب منهم ، واستعانته بالعناصر الأجنبية من الصقالبة الذين وثق بهم وولاهم أهم الوظائف فى الجيش والحكومة . لكن فات هؤلاء جميعا أن يعرفوا طبيعة العصر وطبيعة الشعب ، ووضـــع الدولة الأندلسية التى كان يحيط بهـــا الأعداء من شمالها وجنوبها ، وفاتهم أيضا ماذا كان يحدث للاندلس لو نجح عبدالله فى مؤامرته وقتل أباه ، ذلك الخليفة العظيم الذى رأب الصدع وأعلى كلمة الاسلام ، حتى قال البعض أن هذا العـــاهل أولى به أن يكون من حكـــام هذا العصر بدلا من أن يكون من حكـــام العصور الوسطى[8] .

وكان الناصر مضطرا للاستعانة بالعناصر الاجنبية فى الجيش لكى يوازن بهم العرب من ناحية وأهل الاندلس من ناحية أخرى ، حتى يضمن ولاء الجميع له ، وحتى لا يطغى عنصر على الآخر ، ولم يخص اى حزب من

---

(٦) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨١ .

(٧) ذكر ابن الأبار أن قتل عبد الله كان عام ٣٣٨ هـ ، بينما ذكر بن سعيد المغربى أنه كان عام ٣٣٩ هـ ، وهو التـــاريخ الذى أخـــذنا به ، لأن ابن ســـعيد ينقل عن ابراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرقيق ، وهـــو من مؤرخى القرن الرابع الهجرى ، فهو معاصر لعبـــد الرحمـــن الناصر . أنظر ، ابن الابار ، الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ابن ســـعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ص ١٨٦ ، ١٨٨ .

(٨) ابن سعيد ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ابن الأبار ، المصـــدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، النصولى ، الدولة الأموية فى قرطبة ، ص ١٢١ .

هذه الاحزاب بميزة ، أو رفعه دون غيره كما قال البعض لكنه شدد الضغط على العرب بسبب ماكانوا يثيرونه من عصبية . والحقيقة أن العصبيات كانت سر بلوى الاندلس ومصيبته ، وكانت السبب فى اشعال نار الفتنة بين عناصر السكان فى عصر الامارة ، وقبله فى عصر الولاة كما سبق القول(٩) .

لم يقض الناصر على نفوذ العرب فى الجيش قضاء تاما ، وانما اقام الى جانبهم عنصر الصقالبة حتى يضمن نجاح السياسة التى أشرنا اليها ، ولم يقض الناصر على النظام القبلى فى الجيش ، ولكنه أوجد نظام الجيش الدائم ، الذى كان يرابط دائما فى العاصمة ، والذى كان يتكون اساسا من الصقالبة . اما فى الولايات والثغور ، فهناك الجيوش القبلية التى تهب وقت الحاجة عند استنفار الخليفة لها ، تحت قيادة قوادها وتتجمع عند نقطة معينة ، وتنطلق جميعا للغزو أو لرد اعتداءات النصارى . وبذلك كان لدى الناصر الجيش الثابت الدائم الذى يأخذ عطاءه رواتب شهرية ، والجيش القبلى الذى عطاءه من ريع ما تحت يده من أرض ، ويهب فقط عند استدعاء الخليفة(١٠) .

وادى هذا النظام الذى أوجده الناصر الغرض منه تماما . اذ لم يستطع العرب اثارة المشاكل أمام الناصر ، ومشوا فى ركابه مستفيدين مما يتيحه لهم من المغانم والاسلاب ، وما يحققه لهم من الانتصارات والفتوحات، وظلوا مقيمين على الطاعة ، ينهضون للغزو عند أول اشارة ، ولم يستطع الصقالبة أن يقوموا بأى تحركات قد تثير الناصر أو تدفعه الى التخلص منهم أو استبدالهم بغيرهم ، بل أقاموا على الطاعة واخلصوا الطوية ونالوا أرفع المناصب واعلاها ، مما أثار عليهم حقد العرب ، وجعلهم يتخلون عن الناصر فى واحدة من أكبر غزواته عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م ، واسلموه للهزيمة ، لانه جعل قيادة الجيش فى يد نجدة الصقلبى . وكان هذا

---

(٩) لين بول المرجع نفسه ، ص ٩٧ ، حسن محمود ، المرجع نفسه ، ص ١٣٦ .

(١٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١١٣ .

مؤشرا يدل على الحقـد الدفين بين هذين العنصرين ، ولولا قوة شخصية خلفـاء القرن الرابع الهجرى ، لتحول هذا الحقـد الى صراع دموى ، كمـا حدث فى بداية القرن الخامس الهجرى ابان الفتنة البربرية وأطـاح بالدولة وبالخـلافة فى النهـاية .

بهذه السياسة التى اتبعهـا الناصر فى معاملة أعدائه داخل الاندلس ونحـو الشعب والجيش ، استطاع أن يوحد الجبهة الداخلية (١١) ، واصبح

---

(١١) اقتضى توحيد الجبهة الداخلية أن يقوم الناصر بالقضاء على جيوب المقاومة الداخلية والحركات الانفصالية التى شملت معظم أنحاء الأندلس فى عصر الامارة .

وكان من أشهر هـذه الحركات ثورة بنى حفصون ، وقـد قضى عليها الناصر عام ٣١٥ هـ . انظر ، ابن عـذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٧١ ـ ٢٧٥ ، ٢٨٧ ، ٢٧٩ ـ ٢٩٢ ، ابن عبد ربه ، العقـد الفريد ، جـ ٢ ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

كما قضى الناصر على ثورة أهـل طليطلة التى كانت قـد استقلت بشئونها وحاولت الثورة فى عهـد الناصر بتشجيع ملوك ليون ، لكن الناصر قضى على ثورتها عام ٣٢٠ هـ . انظر ، بن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، صـ ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص٦١ .

كما قضى الناصر على ثورة ابن مروان الجليقى بغربى الأندلس عام ٣١٨ هـ . وكان الجليقى قـد استقل بمـاردة وبطليوس ، واستعان فى ذلك بملوك ليون . انظر ، ابن عبد ربه ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٧٥ ، ابن عـذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٢٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ .

أما المتمردون من المولدين والعرب الذين استقلوا بالثغر الأعلى (سرقسطة) وتقاسموه فيما بينهم ، وتحالفـوا مع ملوك نبرة وليون أحيـانا ، ودانوا بالطـاعة للامارة الأموية ثم للخلافـة احيانا اخرى ، فلم يتركهم الناصر الا بعـد ان اخضعهم .

لاخضاع بنى قسى ، انظر ، ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٨ ، العـذرى ، نصوص عن الأندلس ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ابن عـذارى ، المصدر نفسـه ، ٦٣ ـ ٦٦ ولاخضاع بنى تجيب العرب ، انظر ، ابن حزم ، المصـدر نفسه ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ جـ ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ولاخضاع بنى الطـويل ، انظر ، العـذرى ، المصـدر نفسة ، ص ٤٥ ، العـذرى ، المصـدر نفسه ، ص ٤٣ ـ ٥٢ .

فى سعة من أن يتفرغ لجهـــاده ضد ممالك اسبانيا النصرانية الذين لم يتيحوا له فرصة لالتقاط أنفاسه ، وظل يصارعهم حتى صرعهم ، وأملى ارادته عليهم وأتوا اليه خاضعين مستسلمين ، يعلنون الطـــاعة والولاء ، وصار الناصر بذلك سيد شبه الجزيرة كلهـــا ، شمالها وجنوبها ، مسلميها ونصاراهـــا وصارت الاندلس فى عهـــده قبلة الانظـــار ، ومحط السفراء من جميـــع انحـــاء العـــالم .

ومن عوامل قوة الأندلس فى عهـــد الخلافة أيضا اخضاع مناطق الثغور للخلافـــة ، واستخدامها كقواعـــد لضرب ممالك اسبانيا النصرانية حتى لا توجه الاسرات الحـــاكمة فى تلك الثغور ، نشاطها ضـــد قرطبة كمـــا حدث فى عهـــد الامارة ، وحتى لاتكون سوطا فى يد نصارى الشمال ، يلهبون به ظهر قرطبة متى أرادوا .

وكانت مناطق الثغور الاسلامية نقطة ضعف فى كيان دولة الاندلس . ففى عصور الضعف ، كان حكام تلك الثغور يستقلون بها ، كمـــا حـــدث فىأواخر عصر الامارة ، وفى بداية عصر الخلافة ، وكمـــا حدث عقب انهيار دولة بنى عامر فى القرن الخامس الهجرى فيما يسمى بممالك الطوائف . وفى عصور القوة كان حكام تلك الثغور يقفون بين حكـــام قرطبة وبين حكام ليون ونبرة وبرشلونة ، يستعينون بأحدهما ضد الاخر ، ويضربون هـــذا بذاك ، ويتحالفون مع طرف ضد الطرف الاخر ، حفاظا على مصالحهم كما سبق القـــول ، ومن هنا كانت سياسة الناصر الحكيمة فى مجاهـــدتهم واخضاعهم بالقوة ، ثم مداراتهم واسترضائهم بتعيينهم حكاما على أقاليمهم بعد أن يعلنوا له الطـــاعة والخضوع .

وقد نجحت تلك السياسة أيما نجـــاح فى تقليم أظافرهم ، ولجـــأ الناصر فى بعض الاحيـــان الى أسلوب ضربهم ببعض ، وهو أسلوب اتبعـــه أجداده فى عصر الامارة . وبذلك قضى الناصر على أسرة بنى قسى الذين كانوا يحكمون فى تطيلة ، بضربهم ببنى تجيب من العرب ، وساعده على ذلك ما تعرض له بنو قسى من هجمات ملك نبرة وملك ليون عام ٣١٠ هـ

على ممتلكاتهم ، وأسرهم لزعيم تلك الاسرة محمد بن عبد الله بن لب ، وقتله فى سجن بمبلونة (١٢) .

وكذلك فعل الناصر مع بنى الطويل الذين كانوا يحكمون فى وشقة وبربشتر ، اذ ضربهم ببنى تجيب أيضا ، وخاصة بعد مقتل زعيمهم محمد ابن عبد الملك الطويل عام ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، أثناء قتاله ضد جنود برشلونه من الفرنجة . وقام بنو تجيب بمحاولة السيطرة على أملاك بنى الطويل فى لاردة وحصن منت شون . وكذلك ضرب الناصر بنى الطويل ببنى قسى أيضا ، فولى عمرو بن الطويل مدينة لاردة التى كانت فى حوزة محمد بن لب القسوى ، فقام الصراع بين الاسرتين عام ٣٠٩ هـ وليس عام ٣١٩ هـ كما قال العذرى ، لأن محمد بن لب كان قد مات عام ٣١٧ هـ ، وانهزم عمروس فى ذلك الصراع ، واستولى محمد بن لب على لاردة عام ٣١٠ هـ وأسر عمروسا وأخاه موسى وأرسلهما الى الناصر حيث صفح عنهما ، والتزم عمروس بالطاعة ، فأعاده الناصر الى وشقة حاكما لها ، وظل بها حتى توفى عام ٣٢٣هـ / ٩٣٥ م (١٣)

وبعد اخضاع الناصر لحكام الثغر الاعلى ، أصبحوا أداة فى يده ، يضرب بهم ملوك أسبانيا النصرانية ، ويتخذ بلادهم قواعد ينطلق منها لغزو هؤلاء الملوك . فقد ساعده بنو قسى فى غزوة مويش عام ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م ، وهزموا معا ملوك نبرة وليون وحلفاءهم من بنى الطويل . ولما تم اخضاع بنى الطويل اشتركوا مع الناصر فى غزوة الخندق فى عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ ضد ملك ليون ، واشترك بنو تجيب العرب مع جيش

---

(١٢) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ٤٦٤ ، العذرى المصدر نفسه ، ص ٤٣ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

يجعل ابن عذارى ، المقتول هو عبد الله بن لب ، وهذا خطأ ، لأن عبد الله هذا مات مسموما عام ٣٠٣ هـ ، بينما العذرى يجعل المقتول هو محمد بن عبد الله بن لب ، وهو الصحيح ، لأنه معاصر للاحداث . أنظر ، المصدرين الأخيرين ونفس الصفحات .

(١٣) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ ـ ٦٨ .

الناصر لقتال بمبلونة عاصمة نبرة عام ٣١٢ هـ ، وكافأهم الناصر وولاهم حكاما لسرقسطة وتطيلة بالاضافة الى قلعة أيوب ودروقة ، وصدوا هجوما لجند نبرة عام ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ، وقتل الكثير منهم(١٤) .

من هذا يتبين لنا أن عبد الرحمن الناصر صارع أمراء الثغر الاعلى من المولدين والعرب ، واتبع معهم ومع غيرهم من الثوار الاخرين فى جنوبى الاندلس وغربها ، أسلوب القوة والحزم ، واسلوب المداراة والاصطناع والعفو والمصالحة ، فكان يزحف عليهم بجيوشه اذا ما أظهروا العصيان ثم يعفوا عنهم بعد أن يقعوا فى يده ، فيخلصون له الود ، ويصبحون أداة يضرب بها أعداءه من ممالك أسبانيا النصرانية . وبذلك أمن الناصر الجبهة الداخلية ، وانطلق يغالب نصارى الشمال الاسبانى ويصارعهم حتى صرعهم ، وأقبلوا عليه خاضعين مستسلمين يطلبون الصفح ويلتمسون سلام الناصر ورضاه ، وحقق الناصر ماكان يصبو اليه من توفير الهدوء والامن والامان لسكان شبه الجزيرة كلها ، واتاحة الفرصة للجميع كى يعيشوا فى سلام ، ويحققوا الرخاء والرفاهية لانفسهم وبلادهم .

ومن عوامل قوة الدولة الاندلسية فى عصر الخلافة ، ما قام به المنصور محمد بن أبى عامر من اصلاحات عسكرية ، كانت لها نتائجها الخطيرة على الصراع مع ممالك أسبانيا النصرانية ، وعلى كيان الدولة الاندلسية نفسها بعد زوال حكم بنى عامر عام ٣٩٩ هـ . وكان المنصور يهدف بتلك الاصلاحات الى احكام السيطرة على مقاليد الامور بعد أن حجر على الخليفة هشام المؤيد ، واستبد بشئون الدولة ولقب نفسه بالملك الكريم (١٥)

---

(١٤) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ٤٦٤ ، العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٧١ - ٧٣ .

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(١٥) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٤٠ .

وكان أهل الاندلس قد رأوا فيه « الشخص القوى الذى رأب الصدع ودافع عن البلاد ووفر لها الامن والسكينة » فوافقوا على كفالته لهشام المؤيد حتى يكبر . لكن المنصور لم يكن مستعدا للتنازل عن سلطانه . ولذلك بنى قواته على نظام جديد ، يكفل له احكام السيطرة عليها من جانب ، ويضمن له حسن استخدامها لارهاب أعدائه فى الداخل ولضرب أعداء البلاد فى شمال أسبانيا من جانب آخر (١٦)

ذلك أنه أحس بخطر صقالبة الخلفاء منذ البداية وأحس بالتنافس الموجود بينهم وبين العنصر العربى ، وعرف أن هذين العنصرين لن يفيداه كثيرا فى تنفيذ مشروعاته السياسية والحربية ، فالصقالبة عددهم قليل ، ولن يغفروا له قط حجره على ابن خليفتهم . كما أن العرب كانوا منقسمين على أنفسهم ، فاذا أيده المضريون تخلى عنه اليمنيون ، أما المسلمون من أهل البلاد ، فلم يكونوا مهتمين بغير أعمالهم فى الزراعة والتجارة . ولذلك عول المنصور على استخدام عنصر جديد ، ينفذ أوامره دون مناقشة(١٧)

كان هذا العنصر الجديد هم البربر الذين استقدمهم المنصور ثم ابنه من بعده عبد الملك المظفر من شمال افريقية ، واغدقا عليهم وبالغا فى اكرامهم ، فأخلصوا لبنى عامر ، ودافعوا عن دولتهم وحققوا لها كثيرا من الانتصارات على ممالك أسبانيا النصرانية لدرجة أن المنصور والمظفر لم تهزم لهما راية قط .

وبجانب استخدام البربر فى الجيش ، قضى المنصور على العصبيات فيه ووزع الأجناد من العرب والبربر والصقالبة على فرق الجيش بحيث كانت تحتوى كل فرقة على جند من هذه العناصر المتباينة ، ووزع جند القبيلة الواحدة على الفرق المختلفة حتى أصبح الجندى لايعرف القبيلة

---

(١٦) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٧٧ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٧ ، نيكل : مختارات من الشعر الأندلسى ، ص ٤٧ .

(١٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ ، خالد الصوفانى ، عصر المنصور الأندلسى ، ص ٨٠ .

التى كان ينتسب اليها ويقاتل معها ، وأصبح ولاؤه للقائد فقط ، وليس لرئيس قبيلته كما كان الوضع أيام خلفاء وأمراء بنى أمية ، وبذلك صار جيشه اشبه بالجيش القومى الذى يدين بالطاعة لرئيسه الاعلى وهو المنصور بن ابى عامر [١٨] .

وكان هذا الاصلاح العسكرى ذا اثر فعال فى تحقيق جميع اهدا فالمنصور بن أبى عامر ، سواء فى الداخل أم فى الخارج ، وقد ضمن له السيطرة على البلاد ، فحكمها بيد من حديد ، فكانت دولة استبدادية عسكرية من الطراز الاول ، حققت الهدوء فى الداخل والانتصارات التى تشبه الخيال فى الخارج ، سواء فى الشمال ضد ممالك أسبانيا النصرانية أم فى الجنوب ضد الفاطميين وغيرهم ممن كانوا يقاومون نفوذه فى شمالى افريقية ، ولولا هذا الجيش المنظم الذى كان لايعرف له قائدا سواه ، لما استطاع المنصور بن أبى عامر أن يصل الى اقاصى جليقية ونبرة (نافار) وبرشلونة ، وأن يدك عواصم تلك الممالك دكا لم يحدث فى أى عصر من العصور التى سبقته .

كان المنصور قائدا عسكريا من الطراز الاول ، وكانت له همة لاتضارعها همة أخرى فى الجهاد . وربما خرج الى صلاة العيد فحدثت له نية فى الجهاد ، فلا يعود الى قصره ، بل يخرج توا الى معسكره ، ويأخذ فى الزحف شمالا ولاينتظر حتى تكتمل قواته ، بل يأمر قواده أن يوافوه تباعا عند مكان معين . وكان هذا سببا من أسباب كثرة غزواته ضد ممالك اسبانيا النصرانية ، حتى قيل أنها بلغت أكثر من خمسين غزوة . ذلك أنه كان يخرج للغزو فى العام مرتين ، احداهما فى الصيف فيما يعرف بالصائفة ، والاخرى فى الشتاء فيما يعرف بالشاتية ، وربما خرج للغزو فى العام الواحد أكثر من ذلك[١٩] .

---

(١٨) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، جـ ٣ ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، النصولى ، المرجع نفسه ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، الرفاعى ، الحاجب المنصور ، ص ١١ .

(١٩) الضبى ، بغية الملتمس ، ص ١٠٦ .

ولم تقتصر عوامل القوة على النواحى السياسية أو العسكرية ، بل كان ازدهار الحيـــاة فى الأندلس وبلوغها القمة بمقاييس ذلك العصر ، من عوامل القـــوة التى أثرت على العلاقات بين الأندلس الاســـلامية وممالك اسبانيا النصرانية ، وخاصة فى النواحى الحضارية . ذلك أن النـــاصر خصص ثلث ميزانية الدولة — على عظم الجباية فى ذلك الوقت — للبناء والمشروعات العمرانية ، وكتب التاريخ تفيض بذكر ما أنفقه الناصر على بنـــاء مدينة الزهراء التى استمر العمل بهـــا منذ عام ٣٢٥ هـ حتى وفاة ابنه الحكم المستنصر عام ٣٦٦ هـ ، علمـــا بأنه كان ينفق على عمارتهـــا مبلغ ثلاثمائة الف دينار كل عام من هذه الأعوام الطـــوال . كما قام المنصور ببنـــاء مدينة أخرى تسمى الزاهرة لاتقل بهاء وشأنا عن زهراء الناصر(٢)

وما ذلك الا مجرد امثلة نذكرها للدلالة على وفرة الدخل ومتانـــة الوضع الاقتصادى الذى كان القـــاعدة الصلبة التى بنى عليهـــا حكـــام القرن الرابع الهجرى مشاريعهم العمرانية والعسكرية . وبصفة عامة بلغت الاندلس فى ذلك القرن ذروة الرخـــاء والاذدهار ، وتقـــدمت فيها الزراعة والتجـــارة والصناعة ، وازدهرت فيها العلوم والاداب والفنون حتى أصبحت قرطبة قبلة لطـــلاب العلم وتجار ممالك أسبانيا النصرانية الذين وفدوا اليها لشراء ما فاضت به حضارة الاندلس من تحف وروائع فنية وملابس قيمة ، كانت نساء الطبقـــة الارستقراطية فى الشمال الاسبانى تلح فى طلبهـــا ، وتجـــد سرورا لا حد له فى اقتنائها . ولم يقتصر هذا الامر على نصارى الشمال ، بل وصل تأثير الحضارة الاندلسية الى شتى أنحـــاء أوربا ، حتى أنهـــا وردت ضمن أشعار الراهبـــة الســـكسونية هيروسونيتا التى أشادت بهـــا فى قصائدها وأشعارها ، ووصفت قرطبة بأنهـــا زينة الدنيا(٢١) .

ومن ثم وفدت على الاندلس سفارات عديدة من امبراطور القسطنطينية وامبراطور المـــانيا وملوك ليون ونبرة وبرشلونة تعقـــد المعاهدات وتوطد العـــلاقات الدبلماسية والتجـــارية بينها وبين قرطبة . والجـــدير بالذكر

(٢٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١١٢ ، المقرى ، ازهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٧٠ .

(٢١) ابن حوقل ، المصدر نفسه ، ص ١١٢ ، المقرى ، ازهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

أن رسل البابا يوحنا الثانى عشر ، وفدت على الناصر تطلب السلم والمودة بين الاسلام والانصرانية . ولم يرسل البابا سفارته تلك ، الا لاعتقاده بأن الناصر يمثل الزعامة الاسلامية فى ذلك الوقت . فقد كانت الخلافة العباسية تسير فى طريق الضعف ، والخلافة الفاطمية لم تبلغ بعد قوة ازدهارها وتقدمها السياسى والحضارى (٢٢) .

وما من شك فى أن هذه الاحوال المستقرة وتلك السياسة الحكيمة التى اتبعها حكام قرطبة فى القرن الرابع الهجرى ، والتى وضحناها خلال دراستنا لعوامل القوة التى توفرت للاندلس فى علاقاتها مع ممالك اسبانيا النصرانية ، والتى أشرنا اليها حتى الآن ، كان لها آثارها على الصراع بين مسلمى الاندلس وبين نصارى الشمال الاسبانى ، فانقلبت الهزائم التى منيت بها البلاد أواخر عصر الامارة الى انتصارات رائعة ، وتحول تقهقر المسلمين الى الجنوب ، الى تقدم صاعد لهم نحو الشمال حتى أصبحت جميع ممالك أسبانيا النصرانية مجرد امارات تابعة لحكام قرطبة .

ورغم هذه الصورة الجميلة المشرقة للاندلس فى القرن الرابع الهجرى الا أنه كان هناك مايشير الى حدوث انقلاب أو ثورة سوف تحدث بمجرد أن ينقضى عصر هؤلاء الحكام الأقوياء من بنى أمية وبنى عامر . فقد كان لسياستهم بعض الجوانب السلبية التى لم تظهر فى عهدهم . نظرا لقوة شخصيتهم ولقدرتهم الفائقة على القيادة والسيطرة على مقاليد الامور . ولما انهارت دولة بنى عامر عام ٣٩٩ هـ ، وقام الصراع بين خلفاء بنى أمية الاواخر على كرسى الخلافة أثناء مايعرف بالفتنة البربرية عام ٤٠٠ هـ ، ظهرت تلك الجوانب السلبية ، وقادت البلاد الى ذلك المصير المحزن الذى انتهت اليه فى عصر ملوك الطوائف ، بعد أن تسببت فى سقوط الخلافة نفسها .

---

(٢٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، المقرى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، عنان ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٧ ــ ١١٤ .

٣ ـ عوامل الضعف وأثرها فى العلاقات مع ممالك أسبانيا النصرانية :

وتلك الجوانب السلبية يمكن أن نقول عنها أنها كانت عوامل ضعف ألمت بالأندلس الاسلامية وتمثلت فيما يعرف بالفتنة البربرية التى كانت ـ حقا ـ تشبه الزلزال ـ وقد وقف بعض المؤرخين طويلا عند حدوث ذلك الزلزال الذى اقتلع دولة بنى عامر ، وقضى فى النهاية على الخلافة الاموية وخلع على الاندلس عصرا جديدا يعرف بعصر ممالك الطوائف .

وكان هذا الزلزال مرآة انعكس عليها كل سلبيات ونقائص الحكم الأموى والعامرى فى الاندلس ، وقاد البلاد الى طريق الضعف والانحلال والتمزق والانقسام والسقوط ، وأعطى الفرصة كاملة لحركة الاسترداد أن تقفز خطوات وخطوات الى الامام ، وجعل مصير البلاد رهن مشيئة ملوك أسبانيا النصرانية الذين أصبحت لهم السيطرة الفعلية على شبه الجزيرة كلها بمسلميها ونصاراها ، وضاعت وحدة الجبهة الداخلية وضاع معها مئات من المعاقل والحصون والمدن الثغرية التى أضاع خلفاء القرن الرابع الهجرى عمرهم فى بنائها والحفاظ عليها ، وانقسم الوطن الواحد الى أوطان متعددة ، وانقسم الشعب الواحد الى شعوب أو طوائف ، تناحرت فيما بينها والتمست العون ضد بعضها من عدو بلادها ، وكانت فرصة لاتعوض لنصارى الشمال ، فاغتنموها على الفور ، وتدخلوا بين الفرق المتناحرة حتى أنهم وضعوا بعض أحفاد الناصر على كرسى الخلافة فى قرطبة .

هكذا بين عشية وضحاها ، تحول الغالب الى مغلوب وتحولت الانتصارات الى هزائم ، والسيطرة الاسلامية والعزة القومية الي سيطرة نصرانية فى عهد هذه الدمى من خلفاء بنى أمية الاواخر ، كل ذلك فى بضع شهور من عام ٤٠٠ هـ وهى مأساة لانجد لها تفسيرا الا أن نقول أن أسبابها لم تبرز فجأة ، وانما كانت كامنة فى جسد الامة الاندليسية قبل ذلك بزمن طويل . ومن أهم تلك الاسباب وقوع الصراع بين بنى أمية وتنازعهم على الخلافة .

وكان الناصر قد اتبع سياسة أسلافه من أمراء بنى أمية فى تنحية العنصر العربى عن ميدان الزعامة والقيادة ، وجعل البارزين منهم مجرد عمال أو ولاة لأطراف الدولة وثغورها ، مثل بنو تجيب الذين ولاهم على الثغر الأعلى . وسار على نفس الخط ايضا فى الاستعانة بالعناصر الاجنبية فى الجيش والادارة لسهولة السيطرة عليها وعدم تمردها ، وادى ذلك الى حرمان الدولة من ذوى الكفايات من العرب والبربر ، والى زرع الحقد والضغينة بينهم وبين الصقالبة الذين أصبحوا قوة يخشى بأسها . وكانت هزيمة الناصر الوحيدة عام ٣٢٧ هـ مؤشرا يدل على ذلك ابلغ الدلالة(٢٣)

وقد ظهر خطر الاستعانة بهذه العنصر الاجنبية أثناء فترات الاضطراب وقد برز هذا واضحا أثناء الفتنة البربرية . فقد أخذ الصقالبة والبربر يتحكمون فى تولية الخلفاء وعزلهم ، وقاموا بالاعتداء عليهم وقتلهم وتشريدهم واستبدوا دونهم بالحكم والسلطان ، وتحالفوا مع ممالك اسبانيا النصرانية لتحقيق أهدافهم ، وساعدوا بذلك على قيام عصر ممالك الطوائف والقضاء على الخلافة الأموية (٢٤) .

كما وقع الأمويون فى خطأ آخر عندما قام الحكم المستنصر وولى ابنه الطفل هشام ولاية عهده ، ولما مات المستنصر تولى هشام الذى لقب بالمؤيد الخلافة وهو فى سن العاشرة ، مع انه كان فى بنى امية الكثير من الشخصيات البارزة القادرة على قيادة البلاد فى حزم وكفاية لكن الحكم المستنصر نظر الى مصلحته الشخصية ، وارتكب هذا الخطأ السياسى مع أنه كان يعيبه على العباسيين فى المشرق . وربما كانت نظرية توريث الحكم فى عقب الخليفة أو الامير الحاكم وحده دون غيره من أخوته أو بنى عمومته أو أقاربه ، وهى النظرية التى سار عليها بنو أمية فى عصرى الامارة والخلافة هي المسئولة عن ذلك ، وربما استندوا

---

(٢٣) كليليا سارنيللى ، مجاهد العامرى ، ص ٥ ، ١٥ ، انظر ، الفصل الثالث ، الباب الثانى ، ص

(٢٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٩٩ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

فى تلك النظرية الى تلك النبوءة التى تقــول « لايزال ملك بنى أمية فى اقبــال ودوام ، ما توارثه الأبناء عن الآباء . فاذا انتقل الى الاخــوة وتوارثوه فيمــا بينهم ، فقــد أدبر وتولى » (٢٥)

ورغم ما حققته تلك السياسة فى استقرار أداة الحكم الا انه كان لهــا أيضا آثارها فى زرع الضغينة والحقــد فى نفوس باقى أفراد البيت الأموى ، وقد تعرض الكثير من أمراء وخلفــاء بنى أمية الى مؤامرات قام بهــا أخوتهم أو بنو عمومتهم بسبب الجلوس على العرش . وربما كان أخطرها ثورة بنى اسحاق الأمويين الذين انضموا الى ملك ليون وساعدوه على هزيمة الناصر فى موقعــة الخندق عام ٣٢٧ هـ ، كما أعطت هــذه السياسة الفرصة لرجل مثل المنصور بن أبى عامر لان يستبد بالــدولة ويحجر على الخليفة الطفــل ، ويعمل فى الأمويين سيف التشريد والقتل(٢٦)

أما الخطــأ الثالث الذى ارتكبه خلفــاء بنى أمية هو أنه عندما سقطت دولة بنى عامر عام ٣٩٩ هـ ، تهافتوا على السلطان وانقسموا فريقين ، كل منهما يحاول هزيمة الآخر ويستعين فى ذلك بنصارى الشمال الأسبانى ليساعدوه على اعتلاء كرسى الخــلافة ، نظير التنازل لهم عن كثير من المدن والحصون الاسلامية وفى غمرة هذا الصراع المقيت على الحــكم تعرضت البلاد للخراب ، والقرى والمزارع للدمار ، وقتل العلماء ونهبت المساجد والدور والقصور ، وهدمت مدن بأكملها وأزيلت وكأنها لم تكن ، وادى ذلك فى النهاية الى سقوط الخلافة وزوال حكم بنى أمية وقيــام عصر ممالك الطــوائف (٢٧)

---

(٢٥) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٦٢ ، ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٤٠ .

(٢٦) ابن حيان برواية بن بسام ، المصــدر نفسه ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ١٠٤ ، ابن عــذارى ، المصــدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٧ .

(٢٧) ابن عــذارى ، المصــدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٨٢ ــ ٩٥ ، ١٠٤ ، ١٠٧ .

ومن عوامل الضعف التى المت بالاندلس الاسلامية واثرت فى مستقبل البلاد وفى علاقتها بنصارى الشمال ، سياسة بنى عامر فى اضعاف الخلافة والاستبداد بالدولة . وكانت سياسة المنصور بن أبى عامر تقوم حسبما أشرنا من قبل على مبدأ الاستبداد بحكم الاندلس واتباع جميع الوسائل والسبل لتحقيق تلك الغاية ، وقضى بذلك على جميع العناصر المناوئة له من الصقالبة والعرب ، ومن القيادات السياسية والعسكرية مثل المصحفى الحاجب ، وغالب الناصرى ، فارس الأندلس وبطلها . كما قضى أيضا على من يخشى بأسه من بنى أمية . وكان يوصى ابنه حين حضرته الوفاة ، بالا يتوانى عن هذه الفئة ، وان يأخذها بالشدة والعنف ، مما ادى الى سقوط هيبة بني أمية فى نفوس الناس والى ضياع مجدهم ونسيان الناس لهم (٢٨) .

وكان لهذه السياسة من اضطهاد بنى أمية وتشريدهم والاستبداد بهم اثر شديد على من جاء بعد ذلك من خلفائهم ، اذ لم يحسنوا السياسة ونسوا أساليب آبائهم فى الحكم واصطناع الانصار والاعوان . فقد تعصب سليمان المستعين للبربر ، واستعان المؤيد بالصقالبة ، واستعان كلاهما بنصارى الشمال ، وبذلك تكرس انقسام الدولة الى حزبين متصارعين وهو الانقسام الذى ساعدت عليه سياسة بنى أمية فى الاستعانة بالصقالبة وسياسة العامريين فى الاستعانة بعنصر البربر (٢٩) .

ومن الأخطاء الفادحة التى ارتكبها بنو عامر وادت الى وقوع الكارثة هو تطلعهم الى منصب الخلافة ذاته . وقد راودت هذه الفكرة المنصور بن أبى عامر ، لكن مستشاريه نصحوه بالعدول عنها لانها سوف تثير

---

(٢٨) ابن حيان برواية بن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ، ١٢٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٢٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٧٥ ، ١١٣ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٥٢١ .

بني امية وتثير الشعب ضده كما سبق القول . لكن ابنه عبد الرحمن شنجول أقدم على تلك الخطوة واخذ البيعة لنفسه بولاية عهد هشام المؤيد . وكانت غلطة العمر ، اذ تخلى عنه الجميع عندما قام محمد المهدى الاموى بالثورة ضده عام ٣٩٩ هـ . ذلك لان هذا الامر كان يعنى تحويل الخلافة من المضرية (بنى امية) الى اليمنية (بنى عامر) (٣٢)

وهذا يدل على أن الصراع القبلى لم يكن قد انتهى بعد من الاندلس رغم ما قام به الناصر والمنصور من توجيه ضربات قاسية للعنصر العربى بالذات ، مما يدل على ان المجتمع القبلى القديم لم يكن قد اختفى تماما كما يقول دوزى ، وما قيام دول الطوائف الا تعبير عن هذا المجتمع الى حد كبير . فقد قامت تلك الدول ملتفة حول أسرات عربية أو بربرية هنا وهناك ، وعادت تلك الأسرات الى سياستها الاولى فى الصراع القبلى ضد بعضها البعض ، بعد أن زالت القوة المسيطرة التى كانت تتمثل فى بنى أمية ، مما أعطى الفرصة لنصارى الشمال الاسبانى للتدخل فى شئون الأندلس والسيطرة على ممالكها (٣٠) .

ومن عوامل الضعف أيضا انقسام جند الاندلس وصراعهم على السلطان وقد وضع الامويون والعامريون بذور هذا الانقسام عندما استعانوا بالموالى والصقالبة والبربر فى الجيش والادارة . واصبحت هذه العناصر تترقب فرصة ضعف أو اضطراب حتى تعمل لمصلحتها الخاصة وتصبح لها السيادة على البلاد . وفيما يبدو لم تكن هذه العناصر مخلصة تماما للامويين أو العامريين ، فكثيرا ما تآمر الصقالبة ضد بنى أمية فى عصرى الامارة والخلافة ، كما تآمروا أيضا ضد بنى عامر وانتهزوا فرصة موت

---

(٣٠) ابن حيان برواية ابن بسام ، الزخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٥٦ ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، ص ٦٧ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٦ ، ابن الخطيب : الاعمال ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٣١) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٦٦ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ ، ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٠ ، المقرى ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

المنصور بن أبى عامر وقال قائلهم « هل كتب علينا أن نبقى فى حجر آل أبى عامر الدهر الداهر ؟ » وكان واضحـا أن الفتى الصقلبى أسبق الجميع فى التخلى عن عبد الرحمن شنجول بن أبى عامر عندما ثار ضده بنـو أمية عام ٣٩٩ هـ (٣٢)

أما البربر فقد كانوا أسرع من غيرهم فى التخلى عن عبد الرحمن شنجول ، وقال له زعيمهم محمد بن يعلى الزناتى « اياك أن تغتر ، فليس والله يقاتل عنك أحـد من زناته ، والناس تبع لهم » . وأدى ذلك الى أن ظفر به محمد المهدى الاموى وقتله وقضى على دولة بنى عامر . وكان تخلى البربر عن العامريين بهذا الشكل من الأشياء الملفتة للنظر ، فالعامريون هم الذين استقدموا البربر من المغرب الاقصى أو شجعوهم على النزوح الى الاندلس ورفعوا من شأنهم حتى صاروا اكثر أجناد الاندلس وأظهرهم نعمـة واعلاهم منزلة ، وأصبحوا قوة رئيسية تعتمـد عليهـا الدولة فى حروبها وبقـائها ، فما الذى اغرى هؤلاء البربر بالتخلى عن بنى عامر ؟(٣٣)

يبدو أن البربر كانوا مثل الصقالبة غير مخلصين تماما لبنى عامر ، فصنهاجة كانت من الد أعداء بنى أمية وبنى عامر معـا ، ولم تلجأ الى الأندلس الا بسبب الصراع بين زعمائها على أرض المغرب الأقصى . وكانت تضمر الحقـد للمنصور بن أبى عامر ، لانه أخـذهم بالشدة وطبق احكام الشرع على من يستحق العقوبة منهم . أما زناتة فكـان ولاؤها للعامريين لكن سياسة بنى عامر فى قتل بعض زعمائهم قللت من اخلاصهم لهم . هذا بالاضافة الى أن البربر جنـد مرتزقة ، وهذا النوع من الجنـد لايدافعون عن وطن ينتمون اليه ، بل يدافعون — اذا دافعوا — عن حاكم يضـمن

---

(٣٢) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ص ٦٧ ، ابن عـذرى ، جـ ٣ ، ص ٢٤ — ٢٦ ، ٦٨ .

(٣٣) ابن عـذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤١٧ ، جـ ٣ ، ص ٦٨ — ٧١ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

لهم مصالحهم وأرزاقهم ، فاذا رأوا أن مصلحتهم مع شخص آخر انضموا اليه دون تردد (٣٤).

وهذا ما حدث فعلا ، فعندما رأوا عبد الرحمن شنجول يتخبط فى سياسته ، ورأوا قيام أهل قرطبة مع المهدى ضده ، تحول ولاؤهم عنه وأسلموه الى حتفه خوفا على أموالهم وأهليهم الذين يعيشون فى قرطبة وبذلك تم القضاء على دولة بنى عامر ، وانقسم جند الاندلس الى حزبين متصارعين على السلطان ، الاندلسيون وعلى رأسهم الصقالبة فى جانب ، والبربر فى جانب آخر ، وحاول كل فريق أن يصل الى السلطة مستترا وراء أحد الخلفاء من بنى أمية ، مما أوقع البلاد فى أتون حرب أهلية جرت عليها الخراب والدمار (٣٥) .

من هذا يتضح لنا مبلغ ما ارتكبه بنو أمية وبنو عامر من خطأ ، عندما اعتمدوا اعتمادا كليا على تلك العناصر الاجنبية ، وأهملوا العنصر العربى وأهل البلاد الاصليين من المولدين وغيرهم . وكانت تلك العناصر الأجنبية تلتزم الهدوء والطاعة طالما كان الحاكم قويا ، وعند الضعف أو فى فترات الاضطراب كانت تقوم بدورها المخرب وتستبد بالبلاد ، مما هيأ الفرصة للاستعانة بملوك أسبانيا النصرانية كى يتدخلوا فى شئون الأندلس الداخلية ويبسطوا سلطانهم عليها .

وكان استغلال ملوك أسبانيا النصرانية للصراعات الداخلية فى الاندلس من العوامل التى أضعفت الجبهة الداخلية فى تلك البلاد الى حد كبير . وقد حدث ذلك منذ وقت مبكر عندما غضب الناصر على أقربائه من بنى اسحاق بن أمية ، وقام بقتل زعيمهم أحمد بن اسحاق بسبب تآمره عليه ،

---

(٣٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ، المقرى ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦٤ ، كليليا سارنللى ، المرجع نفسه ص ٢٩ ، ٣١ .

(٣٥) ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦٧ .

واتصاله بالفاطميين وتحريضه لبنى تجيب على الثورة ضد الناصر . ولما تخلص الناصر من ذلك الثائر ، فر أخوه أمية بن اسحاق الى شنترين فى غرب الاندلس ، ورفع لواء الثورة ضد الناصر ، وانتهز ردمير (راميرو) الثانى ملك ليون الفرصة ، واتصل به واستقدمه وعينه وزيرا ، واشركه فى حربه ضد الناصر ، وأعطاه أمية معلومات ثمينة عن قوات الناصر قبل المعركة ، ودله على عورات المسلمين ، مما سهل له النصر على الناصر فى موقعة الخندق الشهيرة عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م [٣٦]

ولم تكن ثورات طليطلة المتكررة ضد الخلافة الأموية الا بتشجيع من نصارى الشمال ، كما حاول كونت قشتالة أن يستغل العداء الذى نشب بين المنصور بن أبى عامر وابنه عبد الله . ولما تآمر هذا الابن العاق على أبيه ، وانكشفت مؤامرته وخاف على حياته ، فر الى كونت قشتالة وفى عصر قوة الخلافة الاموية لجأ نصارى الشمال الاسبانى الى أسلوب آخر للنيل من قوة الجبهة الداخلية فى الاندلس ، وذلك عن طريق المصاهرات التى عقدوها مع الاسرات الحاكمة فى الثغور الاسلامية من المولدين من بنى قسى وبنى الطويل . وعلى سبيل المثال فقد صاهر فرتون الطويل صاحب وشقة من أعمال الثغر الاعلى ، شانجة بن غريسية ملك نبرة ، واشترك معه فى غزوة مطونية عام ٣٠٦ هـ ضد جيش الناصر [٣٧] .

وطبيعى أن هذا الرجل وأمثاله كان يتمرد على قرطبة لعلمه أن هناك من يحميه ويمد له يد العون والمساعدة من أصهاره ملوك الشمال، وأن هناك من يستقبله لاجئا اليه من هؤلاء الملوك عند الضرورة . وقد تكرر

---

(٣٦) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٥٠ ، ٥١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ص ١٢٦ .
Dozy, op. cit., pp. 426, 427.

(٣٧) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ٩٣ ، الثعالبى ، يتيمة الدهر ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ، العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٤٥ ، ٦٨ ، ٦٩ .
Dozy, op. cit., pp. 507-508

هـذا كثيرا حتى أن نهاية آخر أمراء بنى قسى حكام تطيلة فى الثغر الاعلى ، كانت عند أصهاره من أمراء أسبانيا النصرانية . وكان الامير القسوى قد لجأ الى صهره النصرانى عقب اعتداءات بنى تجيب على أملاك أسرته ، لكن صهره هـذا طمع فيما كان معـه ومع أصحابه القسويين من أموال وسلاح وحلى ، فغـدر بهم وقتلهم عام ٣١٧ هـ /٩٢٩م . (٣٨)

وكان تدخل ملوك أسبانيا النصرانية قـويا وأكثر فعالية أثناء الفتنة البربرية فى مطلع القرن الخامس الهجرى . فقـد انتهزوا فرصة الصراع بين أمراء بنى أمية الأواخر على تولى منصب الخلافة وساعدوا فريقا ضد الآخر . واستعانة ملوك بنى أميـة الأواخر بملوك أسبانيا النصرانية لا يدل الا على مدى ما وصلوا اليه من ضعف وهوان وفقـدان للحمية الدينية والعزة القومية . وكـان تدخل ملوك أسبانيا النصرانية على هذا النحو فى شئون الأندلس الداخلية ، مما أضعف الجبهـة الداخلية وجعـل مسلمى الأندلس يضرب بعضهم بعضا وأدى الى تعميق الانفصال والأحقاد بينهم ، حتى اصبحوا لقمة سهلة يستطيع نصارى الشمال التهامها فى أى وقت يريدون . (٣٩)

ومن عوامل الضعف التى أثرت فى الجبهة الداخلية وكانت لهـا آثارها علـى العلاقة بين مسلمى الأندلس ونصارى الشمال الأسبانى ، طبيعـة الأندلسيين أنفسهم وتباين أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية . فقد كان هناك ما يشبه الصراع الطبقى بسبب التفاوت الحاد فى الدخول . فهناك طبقـة أرستقراطية حاكمة مسيطرة ، لها الغنى والثروة والنفوذ ، تلتف حولهـا بعض الأسرات الثرية أمثـال أسرة بنى عبدة وبنى شهيد وجهور وفطيس . وهناك طبقة متوسطة أغتنت بفضل نشاطها فى الزراعة والتجارة والصناعة، وهناك طبقة الحرفيين والعمال والعامة ، وكانت تعيش فى مستوى منخفض. فالعامل كان يكره صاحب العمل ، والطبقة الوسطى كانت تحسد طبقـة

---

(٣٨) العـذرى المصـدر نفسه ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٣٩) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٨٢ ، ٨٦ ، ٧٨ ، ٩٤ ـ ٩٦ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ .

الأغنياء والجميع كانوا يكرهون القــواد البرابرة والصقالبة . لكن هؤلاء جميعا كانوا لا يظهرون مشاعرهم ويعيشون فى هــدوء طالمــا كان الحاكم قويا ، فلما ضعف الحكام وتنازعوا على السلطة ، لم يكن أمام هذه الفئات الا الانضمام لأى ثورة تقوم حسبما يتفق مع مصالحها (٤٠) .

من هنا يمكن القول بأن القوى الاجتماعية التى استند اليها الأمويون والعامريون كانت غير متماسكة ، ومن ثم انهارت وانهار معها بنو أمية عند أول صدمة ، وكانت هــذه الصدمة داخلية ، ولم تكن نتيجة غزو خارجى ، بل انها نبعت من تناقضات ونقائض وعيوب النظام الذى اتبعــه بنو أمية وبنو عامر فى حــكم البلاد والتى أشرنا اليها ، تلك التناقضات التى كانت كامنة ولم تظهر الا عندما تراخت قبضة الحــكام . فعبد الرحمن شنجول لم يكن فى قــدرة أبيه أو أخيــه ، وهشام المؤيــد استطاب الحياة الهادئة وعزف عن توجيه الأمور وتركها لبنى عامر ، لذا ظهرت عيوب النظام وأدت الى انهياره وقيام نظام دول الطوائف .

ومما جسم تلك العيوب الاجتماعية طبيعة الشعب الأندلسى وتكوينه العنصرى وطبيعة البلاد الجغرافية . فقــد كان هــذا الشعب يحتوى على عناصر مختلفة ، من عرب وبربر وصقــالبة وأهل البلاد الاصليين سواء كانوا مسلمين أم نصارى . صحيح أن المصاهرة والمجاورة قربت بين تلك العناصر ، الا أنه بقى من مظاهر التناقض ما يكفى لقيام الصراع فيما بينها اذا ما حانت الفرصة ، ساعدها على ذلك الطبيعة الجغرافية وتفتت البلاد الى أودية تحجز بينها جبال تزخر بالعــديد من الحصــون والقلاع ، تحمى الثوار وتساعدهم ضــد الحكومة المركزية (٤١) .

فاذا أضفنا الى ذلك طبيعة الناس أنفسهم ، لأصبح الأمر ، فقــد وصف البعض عامة قرطبة بالذات بأنهم أكثر الناس فضولا واشدهم شغبا ،

---

(٤٠) ابن خلكان ، المصــدر نفسه ، ج ٤ ص ٤٠٧ .
Dozy, op. cit., pp. 534-535, 538.

(٤١) لين بول ، المرجــع نفسه ، ص ١٤٧ .

حتى أنهم كانوا يقاتلون مع هذا ، ثم يقتتلون معه وربما فى نفس اليوم ، معرضين أنفسهم للهلاك ، ولذلك وصفهم بعض المؤرخين بصغر الاحلام ونقص العقول . ويعلل المقرى ذلك بأن أهل الاندلس يميلون الى مساندة كل شخص قوى أراد الوصول الى السلطان وانهم كانوا يجرون وراء كل ناعق ، وأن أهل المشرق أصوب رأيا منهم فى مراعاة نظام الملك ، حتى لايحدث الخلل الذى يؤدى الى اختلال الاوضاع وفساد الامور (٤٢) .

وقد أصاب المقرى عين الحقيقة ، فيذكر المؤرخون المعاصرون لتلك الأحداث أن الناس عندما علموا بنبأ الثورة ضد بنى عامر « تهافتوا على المهدى — زعيم الثورة — تهافت الفراش على النار ، ولم يتوقف عن بيعته أحد ، ولم يتخلف عن أخذ ماله واستحلال نهبه والدخول فى فتنته فقيه ولا عالم ولا عدل ولا امام ولا حاج ولا تاجر ، وقام هؤلاء جميعا لنصرته ، رغم أنهم ليسوا جندا ولا يحسنون الدفاع عن أنفسهم فضلا عن غيرهم » ولما رأى المهدى تلك الجموع الزاخرة أثبت منهم خمسين ألفا فى ديوان العطاء، وحركهم للقضاء على ما بقى من بنى عامر وشيعتهم وترك لهم نهب مدينة الزاهرة ، بما فيها من مال ومتاع . (٤٣).

ومما يلفت النظر فى هذا ، هو موقف العلماء والفقهاء ، فهم الذين كانوا قد أفتوا بطبيعة الحال بجواز ولاية عبد الرحمن شنجول العهد ، وحضروا البيعة وأيدوها ، وأذاعوا حديثا نسبوه ظلما الى الرسول عليه الصلاة والسلام ، قالوا فيه « لاتقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » . وكان عبد الرحمن شنجول قحطانيا ، وعندما رأى

---

(٤٢) ابن حزم ، مداواة النفوس ، ص ١٩ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٠٦ ، المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ، ص ٧٥ ، ٩٨ ، ١٠٠ .

(٤٣) ابن حيان برواية ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٧٠ - ٢٧٢ ، الرقيق برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ج ٣ ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ٧٥ .

هؤلاء الفقهاء انهيار بنى عامر سرعان ما انتهزوا الفرصة وأعلنوا تأييد النظام الجديد . اذن الهدف هو المصلحة الشخصية لاغير (٤٤)

وبذلك صارت الانتهازية والنفعية طابع كثير من الحكام والناس فمن يقتلونه اليوم يصيرون فى خدمة ابنه غدا وامتلأت حياتهم بقصص الغدر والغش والجبن والبخل والانحلال الخلقى ، كما تسلطت عليهم روح الأنانية والفردية حتى أن الواحد منهم كان يتخذ ازاء داره مسجدا وحماما خاصا به دون غيره من الناس . وقد لاحظ تلك الصفات السيئة قائد الجيش النصرانى الذى ساعد سليمان المستعين فى دخول قرطبة ، وهزيمة المهدى فى ربيع الاول ٤٠٠ هـ ، وقال أنه كان يظن أن الدين والشجاعة والعقل عند أهل قرطبة ، فاذا هم خلو من هذه الصفات (٤٥)

ومجتمع هذه صفاته لا يمكن أن يستمر فى المقاومة ، فقد تفتت وحدته أثناء الفتنة البربرية أو الحرب الاهلية التى استمرت منذ مطلع القرن الخامس الهجرى حتى سقطت الخلافة الأموية فى عام ٤٢٢ هـ . وأتاحت تلك الفتنة الفرصة لملوك أسبانيا النصرانية من أن يحققوا أهدافهم فى السيطرة على الاندلس الاسلامية ، مما لون العلاقة بينهم وبين الخلفاء الأمويين الأواخر بلون جديد لم تألفه الأندلس من قبل ، وقلب موازين القوى لصالح النصارى ، بطريقة لم تحدث منذ أن دخل الاسلام تلك البلاد .

---

(٤٤) ابن حيان برواية ابن الأبار ، المصدر نفسه جـ ١ ، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٦١ ، ٦٢ .

(٤٥) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٨٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٨ ، ١٩ ، ابن الخطيب ، معيار الاختيار ، ٢١ ، ٢٢ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، الضبى ، المصدر نفسه ، ص ١٨٩ - ١٩١ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٠٤ ، ٢٦١ ، جـ ٢ ، ص ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

ثانيا ـ ظروف أسبانيا النصرانية واحوالها المؤثرة فى علاقتها بالأندلس الاسـلامية فى عصر الخـلافة

تحـدثنا فى الباب الأول والقينا نظرة عامة على احـوال بلاد الأندلس وشمالى أسبانيا النصرانى وعرفنا عوامل القوة والضعف فى كل منهما ووصلنا الى انه هناك حكومة واحدة تسيطر على الأندلس ختى نهاية عصر عبد الرحمن الثانى (الأوسط) ، وفى الجانب الآخر كانت هناك ايضا دولة واحدة وهى مملكة جليقية واشتريس (ليون) .

وفى اواخر عصر الامارة الأموية تهاوت سلطة أمراء بنى أمية وانقسمت الأندلس الى امارات مستقلة فيمايشبه عصر ملوك الطوائف، وقام الصراع بين هذه الامارات بعضها البعض ، وبينها وبين حكومة قرطبة . كذلك انقسمت دولة جليقية واستقل عنها الباسك أو النافيون وكونوا دولة نبرة (نافار)، كما ظهرت امارة قطلونية فى الشمال الشرقى لأسبانيا ، وقام الصراع أيضا بين هذه الدويلات الصغيرة واستعان بعضها بالمسلمين ، واستعان البعض الأخر بالفرنجة فى صراعهم ضد بعضهم البعض .

ولهذا التماثل فى الأوضاع السياسية لكل من الأندلس الأسلامية وشمال اسبانيا النصرانى فى عصر الأمارة ، نستطيع أن نقول أنه كان هناك توازن سياسى وعسكرى طوال هذا العصر ، عدا النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، حيث اختل التوازن ومال ميزان القوة فى جانب اسبانيا النصرانية ، وحقق نصارى الشمال تقدما فى أرض المسلمين ووصلت حدودهم الى نهر دويرة .

كل هـذا رأينـاه فى عصر الامارة ، أما فى عصر الخلافة فقد مال الميزان السياسى والعسكرى طوال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، فى جانب الأندلس الاسلامية ، وذلك لعدة أسباب . أولها : أن الأنـدلس

كانت دولة واحدة ، وكان لايسيطر على أراضيها الا حكومة خلفاء بنى أمية . أما فى الشمال النصرانى ، فكانت هناك مملكتان ، هما مملكة ليون ومملكة نبرة وإمارتان هما امارة قطلونية (برشلونية) وامارة قشتالة التى لم يكن لهـا وجود فى العصر السابق .

وثانيها : أن الخلافة سيطرت على أشراف الناس ورؤسائهم ، وقضت على نفوذهم سواء كانوا من العرب أم من المولدين أم من البربر ، وجعلت من بقى منهم مجرد ولاة أو عمال ، لا تحفل كتب التاريخ بمجرد الاشارة اليهم وخاصة منذ عهـد الحكم المستنصر ، (٣٥٠–٣٦٦هـ / ٩٦١–٩٧٦م) أما فى الشمال النصرانى فكان النبلاء والاشراف لا يزالون يقومون بدورهم المعتاد الذى كانوا يقومون به فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، من مساعدة ملك أو أمير ضد آخر ، حتى يضمنوا سيطرتهم ، ويطمئنوا على مصالحهم ونفوذهم تجـاه ملوكهم .

وبذلك كانوا عاملا من عوامل الاضطراب السياسى وخاصة فى مملكة ليـون . وبلغ الأمـر بأحـدهم وهو كونت قشـتالة فـرنان جونثـالث Fernan Gonzalez أن يقيم دولة أو امارة جديدة وهى امارة قشتالة ، وظل يصارع مملكة ليون ومملكة نبرة مرة أخرى طوال القرن الرابع الهجرى ، حتى أجهدهم الصراع جميعا وخضعوا لسلطان الخـلافة .

وثالثها : فى الأندلس ، انتهت الحروب الأهلية بقضاء الخلفاء على الثوار ، بينما بدأت تلك الحروب بشدة وعنف فى الشمال النصرانى،وماكانت تهـدأ الا لكى تعود أكثر اشتعالا من جديد ، اما بسبب العرش أو بسبب التنازع على الحدود بين دول الشمال ، أو الطمع فى ضم امارة الى أخرى بالقوة ، أو انفصال امارة عن أخرى . وكانت المصاهرات عاملا قويا فى تحقيق هذه الأطماع وفى تعقيد الموقف السياسى ، واضطراب العلاقات بين دول الشمال النصرانى بعضها البعض .

ورابعها : انقطاع مساعدة ملوك الفرنجة لمسيحيى شمال اسبانيا بسبب ما أبرم بين أمراء بنى أمية الأواخر وبين ملوك فرنسا من معاهدات تنص على الا يتدخل أى منهما فى شئون الآخر ، والا يساعد الفرنجة نصارى الشمال نظير أن يتخلى المسلمون عن برشلونة ، وكذلك انقطع تحالف أمراء الثغر الأعلى الأندلسى من بنى قسى وغيرهم من نبلاء المسلمين وأمرائهم مع نصارى الشمال ، بسبب قضاء الخلافة على نفوذهم . وبذلك فقد مسيحيو الشمال العون الخارجى سواء من المولدين أم من الفرنجة، مما ساعد على ازدياد ضعفهم وازدياد قوة الخلافة (٤٦) .

كل هذه الأسباب أدت الى سيطرة الخلافة على شبه جزيرة أيبيريا كلها ، وصارت كلمة الخلفاء هى العليا ، سواء فى الاندلس أو فى دول الشمال النصرانية حتى أن كلمة من خليفة قرطبة كانت تعزل ملكا وتعين آخر ، وكان هناك وجود اسلامى فى شكل حاميات أندلسية داخل هذه الممالك لتحميها من بعضها البعض ولتراقبها فى نفس الوقت ولتضمن السيطرة عليها أولا وقبل كل شىء .

وفى الفصل السابق وضعنا أيدينا على عوامل القوة فى أندلس الخلفاء ، وعرفنا أسباب تفوقهم . وعلينا الآن أن نتعرف على أحوال ممالك أسبانيا النصرانية فى هذا العصر أى فى عصر الخلافة الأموية . وسوف نتعرض الى الأسرات الحاكمة فى كل دولة أو امارة ، لنتعرف على مدى استقرارها فى الحكم ، وعلاقتها بالقوى الداخلية وبخاصة النبلاء أو الطبقة الأرستقراطية وما ثار فيها من حروب اهلية ، وكذلك علاقاتها بجيرانها من دول الشمال الاسبانى الاخرى ، وأثر هذا كله فى علاقات هذه الدول بخلفاء بنى أمية ، باحثين عن عوامل الضعف والقوة التى أشرنا اليها فى بداية هذا الحديث .

---

(٤٦) انظر ، الفصل الثالث ، الباب الأول ، ص

١ ـــ أحوال مملكة ليون : ـــ

كان حاكم ليون هو الفونش الثالث فى نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى . وكما رأينا استفادت المملكة النصرانية مما أصاب المسلمين فى الأندلس من الفتن والانقسامات ، ولم يأت القرن الهجرى / العاشر الميلادى الا وكانت هذه الدولة تهدد وجود المملكة الاسلامية ذاته ، واستطاع الفونش الثالث أن يصل بهجماته الى نهر التاجه ، وأن يبنى مدينة سمورة أو يعيد بناءها ويسكنها بالنصارى لتصبح مركز تهديد لقلب المملكة الاسلامية (٤٧)

لكن هذا الملك القوى تعرض عام ٢٩٨هـ/٩١٠م لثورة ابنائه وزوجته الملكة خمينا النافارية ، وأجبروه على التنازل عن العرش ، وايدهم فى ذلك كثير من النبلاء ، فاضطر لتقسيم مملكته بين ابنائه الثلاثة ، وتنازل عن الملك لابنه الأكبر غرسية (٢٩٧ــ٣٠١هـ / ٩١٠ــ٩١٤م) وأخذ ابنه الثانى أردون جليقية (غاليسيا) ، وأخذ الثالث فرويلا ولاية اشتريس (أستوريا) ، وقنع أبوهم الفونش بمدينة سمورة . وما لبث أن توفى فى نفس العام ، ولم يمكث ابنه غرسية فى الملك طويلا ، اذ توفى بعده ببضع سنوات ، فتولى عرش ليون من بعده أخوه أردون الثانى (٣٠١ــ٣١٢هـ/ ٩١٤ ـــ ٩٢٤ م (٤٨) .

كان أردون الثانى ملكا نشيطا ، اذ أنه انتهز فرصة الاضطراب الذى كان لايزال يسود الأندلس فى بداية عهد الناصر ، واغار على الثغور الاسلامية ، متحالفا مع نبرة عدة مرات ، وما لبث ان توفى وخلفه اخوه فرويلا الثانى (٣١٢ــ٣١٣هـ / ٩٢٤ــ٩٢٥م) الذى توفى بعد عام من توليه العرش بسبب مرضه . وبوفاته نشبت نيران الحرب الاهلية الاولى بين شانجة والفونش ابنى أردون الثانى بسبب الصراع على العرش . وانتصر

---

(٤٧) Chapman, op. cit., p. 57 & Livermore- op. cit., p. 83.

(٤٨) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ ،
Livermore, op. cit., p. 92

الفونش على أخيه وتوج ملكا على ليون باسم الفونش الرابع (٣١٣ — ٣٢٠هـ / ٩٢٥ — ٩٣٢م) . ويرجع انتصار الفونش الرابع الى المساعدة التى أتته من صهره شانجه غرسية الاول ملك نبرة ، الذى كان قد زوج ابنته لألفونس الرابع . كما تلقى مساعدة من بعض أعضاء الاسرة المالكة الآخرين . (٤٩)

ومهما يكن من أمر ، فان شانجة أخو الملك الجديد ، والذى كان ينازعه على العرش ، لم ييأس وجمع جيشا جديدا وفر الى أطراف جليقية الشمالية ، وهناك توج نفسه ملكا فى سنتياجو دى كومبوستيلا Santiage de compostela ثم زحف على ليون وحاصرها واستولى عليها ، واقصى أخاه عن العرش،فعاد ملك نبرة الى مساعدة صهره الفونش الرابع الذى استطاع بعد سنتين أن يسترجع ليون (عام ٣١٦هـ / ٩٢٨م) لكن أخاه شانجة ظل محتفظا بولاية جليقية (٥٠)

وبذلك انقسمت مملكة ليون بين الاخوين شانجة والفونش الرابع لمدة أربع سنوات ، ولم ينته هذا الانقسام وما صحبه من حرب أهلية الا بوفاة شانجة عام ٣١٧هـ / ٩٢٩م . وكان هذا الصراع فرصة ذهبية استغلها عبد الرحمن الناصر فى تحطيم الثوار المارقين عليه فى الأندلس ، وفى القضاء على دعوة الفاطميين فى المغرب الأقصى .

ولكن الحرب الأهلية عادت من جديد وبصورة أشد عنفا مما سبق . ذلك أن الفونش الرابع غلبة الحزن الشديد على فقد زوجتة ، وتنازل عن العرش لأخية ردمير (راميرو) الثانى (٣٢٠— ٣٣٩هـ / ٩٣٢ — ٩٥١م) ودخل الدير واعتنق الرهبانية . لكنه عافها بعد قليل وترك الدير ونادى بنفسه ملكا فى سيمنقة واعتبر الرهبان هذا العمل عارا

---

(٤٩) ابن حيان برواية ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٢ .

(٥٠) Dozy, op. cit., pp. 422-423, Livermore, op. cit., p. 92.

(٥١) عنان ، تاريخ العرب فى اسبانيا ص ١٥٢ .

كبيرا وهددوه بعقـــاب الله اذا لم يعد الى الدير من جديد ، فاستسلم لهم لانه كان ضعيف الشخصية ، وعاد الى الدير مرة أخرى .(٥٢)

ما لبث الفونش أن حن الى العرش مرة أخرى ، وانتهز فرصة غياب أخيه ردمير الثانى لذهابه الى طليطلة ومساعدتها فى ثورتها ضد عبد الرحمن الناصر ، واستولى على ليون . وما أن سمع ردمير بذلك ، حتى عاد على الفور ، وبدوره حاصر ليون ، واستولى عليها . لكى يضع حدا لمحاولات أخيه الفونش فقـــد قام بسمل عينيه ، هو وثلاثة من ابناء عمه فرويلا الثانى ، الذين كانوا قـــد ساعدوه فى الثورة ضده . وبذلك خلص الحـــكم لردمير الثانى الذى كان ملكا شجاعا ، استطاع أن ينتصر على عبد الرحمن الناصر فى موقعة الخندق الشهيرة عام ٣٢٧هـ / ٩٣٩م .(٥٣)

لكن ردمير لم يستمتع بهذا النصر طويلا ، لأن الحر بالاهلية نشبت من جديد ، ليس بسبب العرش هـــذه المرة ، ولكن بسبب حركة انفصالية قادها كونت قشتالة فرنان جونثالث فى عام ٣٣١هـ/٩٤٣م . وكان اهـــل قشتالة يتحرقون شوقا للاستقلال عن ليون ، وللانتقام لمقتل زعمائهم الذى قام به والد الملك ردمير الثانى من قبل . لكن هذا الملك انتصر أيضا على قشتالة وأسر زعيمها فرنان جونثالث ، وعين لها حاكما آخر . وما لبث أهل قشتالة أن قاموا بالثورة من جديد وزحفوا على ليون ، فاضطر ردمير الى فك أسر زعيمهم ، وأن يصاهره توثيقا للعلاقات والروابط بينهما . وقد أدت الاحداث الى ضعف حكومة ليون ، اذ أن ردمير فقـــد معاونة أهم

---

(٥٢) ابن خلـدون ، العبر ، ج ٤ ص ١٤٢ .

(٥٣) يقول ابن خلـدون ان ردمير سمل عيون اخـوته وليس ابناء عمه فرويلا الثانى . لكن الصحيح هـو ما اشرنا اليه فى المتن ، لأن الرواية النصرانية لم تشر الى ذلك ، ولان ردمير لم يكن له اخـوة الا شانجـة ، وقـد مات من قبل فى عام ٣١٧ هـ/٩٢٩ مكما تقـدم ، والأخ الثانى وهـو الفـونش الرابع الذى قام اخـوه ردمير بسمل عينيه مـع ابناء عمه الثلاثة . انظر : ابن خـلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٢ .

Dozy, op cit., p. 424.

Livermore, op. cit., pp. 94-95

واشجع تابعيـــه ، ولذلك شددت الخلافة الاموية الضغط عليه ، ولم لبثه أن مات فى عام ٣٤٠هـ / ٩٥١م (٥٤)

وما أن توفى ردمير الثانى حتى نشبت الحر بالاهلية من جديد بسبب وراثة العرش . ذلك أن ردمير الثانى كان قـد انجب من زوجته الغاليسية (الجليقية) ابنه أردون ، ومن زوجته النافارية أوراكة ، أخت غرسـية ملك نبرة ، ولدا آخر هو شانجة . (٥٥)

ادعى أردون أحقيته فى العرش باعتباره أكبر الأخوين (٥٦) ولـكن شانجة نازعه معتمـدا على مساعدة اخواله النافاريين ، وعلى القشتاليين الذين وعدهم بالاستقلال . وقام هؤلاء جميعا بالزحف على ليون ، لكن أردون هزمهم وتولى العرش (٣٣٩ـ٣٤٤هـ / ٩٥٠ـ٩٥٦م) ، وفـر شانجه الى جدته طوطة (تيودا) ملكة نبرة ، كما اضطر أردون أمام هجمات الناصر الشرسة أن يعقـد معـه معاهدة اعترف له فيها بالطاعة عام ٣٤٤هـ / ٩٥٥م ، وما لبث أن مات فى العام التالى .(٥٧)

ولـما كان أردون الثالث قد ترك طفلا رضيعا ، فقـد استطاع شانجة ان يلى العرش بعـد وفاة اخيه أردون ، لكن النبلاء كرهوه لأنه كان طاغية مستبدا لا يهـدف الا لتحطيم نفوذهم . ونقض الهدنة التى كان قـد عقدها

---

(٥٤) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢١٥ ـ ٢٢٥ ، ابن الخطيب ، اعمـال الاعـلام ، جـ ٢ ، ص ٣٢٥ ، Dozy, op. cit., pp. 435-436

(٥٥) يخطىء ابن عـذارى ويقول ان اسمه غرسية ، وهـذا غير صحيح ، انظر ، ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٥٦) يقول دوزى انه لم يكن له حـق فى العرش لأنه ابن غير شرعى ، انظر ، Dozr, p. cit., p. 436

(٥٧) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٤٣ ، Dozy, p. cit.- pp. 436, 437 & Livermore, op. cit., p. 95.

اخوه مع الناصر ، فهزمته قوات الخلافة ، وانتهز كونت قشتالة الطموح فرنان جونثالث الفرصة ، وتآمر مع النبلاء الآخرين وعزلوه عن العرش ، واقاموا ابن عمه أردون الرابع (٣٤٧ـ٣٤٨هـ / ٩٥٨ـ٩٥٩م) ابن الفونش الرابع ، ملكا على ليون . وفر شانجه الى جدته طوطة فى نبرة مرة أخرى(٥٨)

اتبع اردون الرابع سياسة سيئة فى معاملة الرعية والنبلاء حتى انه سمى فى اواخر أيامه باسم أردون الشرير ، وقد اختير للعرش لأنه لم يكن هناك فى الاسرة المالكة من يمكن اختياره بدلا منه ، وقد دعم مركزه بمصاهرة كونت قشتالة بأن تزوج من ابنته أوراكة Urraca ، أرملة أردون الثالث ، التى أصبحت ملكة على ليون للمرة الثانية . لكن أردون الرابع لم يتمتع بالعرش طويلا ، اذ أن غريمه شانجة الذى لجأ الى جدته طوطة ملكة نبرة ، وفد هو وجدته هذه وابنها غرسية بن شانجة الاول ملك نبرة الى قرطبة لتقديم فروض الولاء والطاعة ، وليطلبوا مساعدة الخليفة الناصر الذى تمكن من اعادة شانجة الى عرشه نظير التخلى للخليفة عن بعض الحصون عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٩ م ، وهرب أردون الرابع الى اشتريس . (٥٩)

وكانت هذه التطورات مدعاة لكى يعلن كونت قشتالة استقلاله عن ليون ، وأصبحت قشتالة منذ بداية النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى دولة مستقلة . وكان لذلك أثره فى مملكة ليون ، اذ حاول حاكم جليقية الكونت جنزالفو Gonsalvo أن يقلده واثار الاضطرابات هناك ، وانضمت اليه لاميجو وفيزوى وقوامبرة . ونجح الملك شانجة فى السيطرة على الثورة فى المنطقة التى تقع شمال الدويرة ، لكن كونت جليقية طلب مقابلته وأعطاه فاكهة مسمومة ، ما أن تذوقها شانجة

(٥٨) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ١٨٠ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٥ ؛
Dozy, op. cit., p. 440 & Livermore, op. cit., p. 96.

(٥٩) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص١٨٠ ،
Dozy, op. cit., p. 440, 444 & Livermore, op. cit., p. 96.

حتى احس بالموت وطلب العودة الى ليون حيث مات فى اليوم الثالث من وصوله اليها عام ٣٥٦هـ / ٩٦٦ م . (٦٠)

ترك شانجة على عرش ليون طفلا لم يتعـد عمره الخمس سنوات، حكم باسم ردمير الثالث (٣٥٤–٣٧٠هـ / ٩٦٦–٩٨٢م) تحت وصاية عمته البيرة Elivira راهبة دير سان سلفادور فى ليون . وأقبلت هذه المرأة مثل طوطة من قبل الى قرطبة لطلب السلام مع الحكم المستنصر. ويبدو أن الشروط كانت مجحفة بالنسبة لملك ليون ، مما اثار نبلاء ولاية جليقية ، وخاصة انهم لم يودوا الخضوع لامرأة وطفل ، فأعلنوا استقلالهم وانقسمت المملكة بين عدد من النبلاء الصغار ، وضاعت هيبتها (٦١)

ولمـا كبر ردمير الثالث حاول غزو الثغور الاسلامية فى عهد المنصور ابن أبى عامر لكنه هزم عـدة مرات ، فتمرد أهـل ولاية جليقية وعزلوا ردمير عن العرش ، اذ اعتقدوا أن سوء الحظ ملازم له ، كما انه جـرح كبرياءهم بادعائه سلطة أوتوقراطية فنشبت الثورة ضده ، وولى النبـلاء ابن عمه برمنـد (برمودو) الثانى الذى كان مقيما عندهم فى شنت يلقب « سنتياجو » ، (٣٧٠ — ٣٨٧ هـ / ٩٨٢ — ٩٩٩ م) . (٦٢)

وقـامت الحرب بين الملكين ، وزحف ردمير على برمنـد الثائر ، وعلى الحدود بين ليون وجليقية Portilla de Arenas ، نشبت المعركة وحالف الحظ قواد برمند الذى استطاع فى عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م أن يستولى على مدينة ليون من الملك السابق ردمير ، وهرب الاخير الى مرتفعات استورقة

---

(٦٠) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، جـ ٢ ، ص ٣٢٥ ، عنان ، تاريخ العرب فى اسبانيا ، ص ١٥٦ .

Dozy, op. cit., p. 453 & Livermore, op. cit., p. 96.

(٦١) Dozy, op. cit., pp. 453, 454 & Livermore, op. cit., pp. 96,97.

(٦٢) Dozy, op. cit.- p. 500.

وطلب المساعدة من المنصور ، واعترف به كسيد أعلى له ، Astorga
لكنه مات بعد ذلك بقليل فى عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م . (٦٣)

بعد وفاة ردمير حاولت أمه أن تحكم بواسطة مساعدة اسلامية ، لكن الحامية الاسلامية انسحبت وتركتها دون تأييد أمام ازدياد قوة برمند الذى أدرك أنه اذا لم يحذ حذو ردمير ، فانه سوف يجد صعوبة كبيرة فى اجبار النبلاء المنافسين على احترامه والاعتراف بسلطانه ، ومن ثم فقد أعلن خضوعه للمنصور بن أبى عامر ، لكنه مالبث أن تمرد عليه ومات مهزوما عام ٣٨٩هـ / ٩٩٩ م ، وخلف طفلا صغيرا ارتقى العرش باسم الفونش الخامس (٣٨٩–٤١٦ هـ / ٩٩٩ — ١٠٢٨ م) . وبسبب الوصاية على هذا الطفل ، قام النزاع بين شانجه غرسية كونت قشتالة وخال الفونش الطفل ، وبين منتدو جونثالث Menando Gonzalez والتى تسميه الرواية الاسلامية مسد بن عبد شلب أو منتد بن غندشلب (٦٤)

احتكم الرجلان المتنازعان على الوصاية الى عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر والذى خلف أباه فى حجابة الخليفة هشام المؤيد فى الفترة (٣٩٢ — ٣٩٩ هـ) ، فأوفد اليهما المظفر بعض نصارى قرطبة فحكموا بالوصاية لمنتدو جونثالث الذى ظل يقوم بها حتى مصرعه عام ٣٩٨هـ / ١٠٠٨ م ، فباشر الفونش الخامس شئون الحكم بنفسه وطلب من النبلاء اعلان الطاعة له ، فأطاعوه واستتب له الامر ، وامتد به الأجل حتى سقطت دولة بنى عامر وتهاوت الخلافة الاموية ، وتوحدت ممالك الشمال الأسبانى ونشطت حركة الاسترداد نشاطا كبيرا . (٦٥)

---

(٦٣) Dozy, op. cit., p. 500

(٦٤) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٨١ ، القلقشندى ، صبح الأعشى جـ ٥ ، ص ٢٦٦ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٢٨ ،
Dozy, op. cit., p. 500 & Livermore, pp. cit., pp. 97, 98,

(٦٥) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٨١ ، ١٨٢ ، القلقشندى ، المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ٢٦٦ ،
Dozy, op. cit., p. 500 & Livermore, op. cit., pp. 97,98.

وفى هـذا الحديث الذى سقناه حتى الآن عن مملكة ليون رأينا جميع الظواهر التى أوردناها فى بداية حديثنا من قبل ، من صراع على العرش وعلى الأرض ، وتدخل النبلاء بين هـذا وذاك من الملوك والأمراء ، والمصاهرات وأثرها فى العلاقات بين مملكة ليون وغيرها من ممالك الشمال الاسبانى ، وما أدى اليه كل ذلك من ضعف ووهن فى جسم دولة ليون ، حتى أن معظم ملوكها لم يحكموا الا بعد اذعانهم لخلفاء بنى أمية ودفع الجزية لهم ، وتحكيمهم فيما نشب بينهم من خلاف ، مما جعل كلمة الخلافة هى العليا فى شئون شبه الجزيرة . وسوف يتضح هذا كثيرا عند حديثنا عن العلاقات بين مملكة ليون ودولة الخلافة .

٢ — احـوال مملكة نبرة (نافـار) :

بدأ عصر عبد الرحمن الناصر ، وكان فى حكم نبرة الملك شانجة بن غرسية الاول (٢٩٢—٣١٣هـ / ٩٠٥—٩٢٥م) ، وهو أول من أعلن انه « ملك » من أمراء نبـرة ، وبه تبـدأ مملكة نبرة الحقيقية ، ومنه خرجت الاسرة الملكية التى حكمت تلك البلاد ، ثم ضمت اليها ليون وقشتالة فى الثلث الاول من القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى ، نتيجـة للمصاهرات والحروب الاهلية .

وتتميز هـذه المملكة باستقرار الحـكم فيها ، وعـدم قيام نبلائهـا بالتمـرد ضد ملوكها خلافا لمـا رأيناه فى مملكة ليـون ، وهـذا يرجع الى طبيعة نظام الحكم الذى كان يقـوم على مبدأ الاختيار او الانتخـاب . وكما ارتبطت الأسرة المـلكية النافارية بعلاقات المصاهرة مع ملوك ليـون وكونتات قشتالة ، فانها ايضا صاهرت امراء بنى قسى المسـلمين حكام الثغر الأعلى الأندلسى (سرقسطة) منذ عصر الامارة ، وساعدها ذلك على الوقوف امام اطماع جيرانهـا من ملوك ليـون وأمراء بنى امية .

وكانت مملكة نبرة غالبـا ما تتحالف مع ملوك ليـون اذا اشـتد الخطر عليها من جانب قوات الخـلافة ، لذلك فاننا نرى سلسلة من المحالفات بين الجانبين ، بدأت منذ بداية القـرن الرابع الهجرى / العاشر

الميلادى ضد المسلمين .. ولم يكن نشاط شانجة الأول قاصرا على مهاجمة مناطق الثغور الاسلامية ، فقد تدخل فى الشئون الداخلية لمملكة ليون عندما قام الصراع على العرش بين ابنى حليفه أردون الثانى بن الفونس الثالث ، وكان أحد الأخوين وهو الفونس الرابع زوجا لابنة شانجة ملك نبرة .. ورغم هزيمة الفونس الرابع فى البداية الا أن جيوش نبرة ساعدته على الصمود أمام أخيه الذى لم يلبث أن مات عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م(٦٦) .

كان شانجة ملك نبرة قد مات اثناء الصراع بين هذين الأخوين الليونيين وترك على العرش طفلا صغيرا يدعى غرسية شانجة Garcia Sanchez (٣١٤ — ٣٥٩ هـ / ٩٢٦ — ٩٦٩ م) ، وقامت أمه الملكة طوطة بالوصاية عليه (٦٧) وتصرفت كتائب للملك . وقد حاربت هذه الملكة العنيدة الخلافة حوالى ٣٠ عاما ، تحالفت أثناءها مع ليون وزوجت ابنتها أوراكة من ملك ليون ردمير الثانى ، واشتركت معه فى هزيمته للناصر فى معركة الخندق عام ٣٢٧ هـ /٩٣٨ م(٦٨) .

وعن طريق المصاهرات مع ملوك ليون استطاعت نبرة التدخل اكثر من مرة فى فرض الملوك الذين ينتسبون اليها بالمصاهرة ، ومساعدتهم فى الجلوس على عرش ليون ، اذ أنه بعد وفاة ردمير الثانى عام ٣٣٩ هـ / ٩٥١ م ، قامت الحرب الأهلية بين ولديه حيث كان أكبرهما وهو أردون من أم من جليقية ، والثانى شانجة من أوراكة النافارية ، ابنة الملكة طوطة . الا أن الابن الأكبر أردون هزم قوات اخيه

---

(٦٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ ، ٢٨١ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٤٢ .

Livermore, op. cit., p. 94.

(٦٧) يقول Livermore, انها جدته وهذا خطأ والصحيح ما اثبتناه . ويقول ابن خلدون (العبر جـ ٤ ، ص ١٤٢) انها اخته ثم يعود الى تصحيح نفسه ويقول انها امه .

(٦٨) Livermore, op. cit., p. 95.

وعقد الصلح مع الناصر ، وفر شانجة الى جدته طوطة فى نبرة[69] .

ولما عاد شانجة الى حكم ليون بعد وفاة أخيه اردون الثالث عام ٣٤٤ هـ / ٩٥٦ م نازعه العرش ابن عمه اردون الرابع ، وطرده من ليون بمساعدة القشتالين فلجأ شانجة الى جدته مرة اخرى . ولما كانت نبرة لاتستطيع مواجهة ليون وقشتالة بمفردها فقد بحثت طوطة عن حليف قوى ، ولم يكن أمامها الا الخليفة عبد الرحمن الناصر . وكانت هذه الملكة تحكم مملكة نبرة باسم ابنها شانجة بن غرسيه الاول ، مع انه بلغ ن العمر ما يمكنه من أن يحكم بمفرده[70] .

وقد كان حبها لحفيدها شانجه الليونى مسيطرا عليها بالدرجة انها نسيت أحقادها وعداءها للمسلمين الذى يزيد عمره عن ثلاثين عاما ، ووفدت على الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وتعاقدت معه على أن يعيد حفيدها الى عرشه فى ليون . وتم ذلك عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٩ م بعد أن قامت قوات نبرة بمهاجمة قشتالة المتحالفة مع ملك ليون مغتصب العرش ، واستطاعت أن تأخذ أميرها الكونت فرنان جونثالث اسيرا ، وبعد أن تمت هزيمة أردون الرابع فر الى جبال أشتريس[71] .

خلف شانجة الثانى (٣٥٩ — ٣٨٤ هـ / ٩٦٩ — ٩٩٤ م) والده غرسيه بن شانجة الاول وصاهر المنصور بن أبى عامر ، لكنه مات وخلف ابنا يسمى غرسية (٣٨٤ — ٣٩٠ هـ / ٩٩٤ — ١٠٠٠ م) على عرش نبرة ، لكن يبدو أنه كان ضعيف الشخصية ، لان المراجع النصرانية تشير اليه وتسميه غرسية المرتجف أو المرتعش ، كما انه هزم أمام قوات المنصور الذى دمر عاصمته وخرب مملكته[72]

---

(٦٩) Livermore, op. cit., p. 95.

(٧٠)

(٧١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٣ .
Dozy, op. cit.- p. 444. & Livermore, op. cit., p. 96.

(٧٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٦٢ — ٦٥ .
Dozy, op. cit., p. 497 & Livermore, op. cit., p. 98.

على أية حـــال فقـــد مات غرسية فى سن مبكرة وترك ابنـــا صغيراً يسمى شـانجـــة كان يعيش فى بلاط قشتالة لأن أمه الملكة خمينة Ximena كانت من أصل قشتالى ، وبذلك وضع تحت رعــاية كونت قشتالة الثالث شانجة بن غرسية بن فرنان جونثالث مؤسس الامارة القشتالية ، وزوجه كونت قشتالة هذا من ابنته الكبرى التى تسمى البيرة ، وتولى شانجة هذا[1] عرش نبرة باسم شانجـــة الثالث (٣٩٠ ــ ٤٢٩ هـ / ١٠٠٠ ــ ١٠٣٩ م)

وبعد اعتلاء شانجة عرش نبرة بقليل دخلت البلاد النصرانية والاسلامية فى اسبانيا فى عصر جديد ، هو عصر ملوك الطوائف مما سنتحدث عنه فى البـــاب الثالث . لكن ما يهمنا الان هو أن نقـــول أن الاسرة المـــالكة فى نبرة كمـــا وضح من هذه الدراسة السريعة كانت فعلا متميزة عن الأسرة المـــالكة فى ليون ، اذ لم يحـــدث فيهـــا اطلاقا صراع على العرش ، ولهذا تفرغت تلك المملكة اما لمجـــاهدة المسلمين أو لمجـــاهدة ملوك ليون أو أمراء قشتالة . ولكن الصراع الذى دار بين هذه القوى أضعفها أمام هجمـــات الناصر والمنصور ولم تستطع نبرة أن تتبوأ مكانتها الا بعـــد أن انهـــارت الدولة العـــامرية والخلافة الاموية فى مطلع القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميـــلادى .

احـــوال امارة قشتالة :

كانت قشتالة احدى ولايات مملكته ليون الشرقية ، فهى بذلك تقع بينها وبين نبرة كمـــا تطل على الثغور الاسلامية من ناحية الشمال الاوسط وتضم قشتالة مدينة برغش Burgas وابله Avila وشقوبية Segovia وصورية Soria ، ولوكرونى ، وسانت أندر Santander او شنت أروم . وهى مدينة تواجه من الثغور الاسلامية قلعـــة أيوب ومدينة سالم والثغر الاوسط . وبسبب هذا الموقع كانت منطقة قشتالة معبـــراً لجنـــود الامارة والخـــلافة عند مهاجمتها لمملكـــة ليون أو لمملكة نبرة .

---

(٧٣) Livermore, op. cit., p. 98

وكانت منطقــة قشتالة تسمى فى الروايات الاسلامية بمنطقة البــة والقــلاع ، وقــد سميت بهذا الاسم نظرا لهذا العدد من القلاع Castles الذى أنشأه القشتاليون اتقــاء لهجمات القوات الاسلامية ، ومنهــا جاء اسم المنطقــة نفسها فسميت قشتالة Castilia ، وظهرت تشتالة نتيجة لتوسع مملكة ليون جنوبا وشرقــا على عهــد الملك الفونس الثالث (ت ٢٩٦ / ٩١٠ م) الذي وصل بحدود مملكته جنوبــا الى نهر الدويرة مستردا زامورة وسيمنقاس فى السنوات الاولى من القرن التاسع الميلادى .[٧٤]

وقــد عمرت هذه المنــاطق بنبلاء وأساقفة من الشمال ، واتخذت شــكلا محددا تحت قيــادة أحد زعمائها القشتالين الذى وارث السـلطة لابنائه ، وهو الكونت فرنان جونثالث . وقــد امتدت حدود قشتالة فى عهــده من حدود الباسك فى الشمال الى الثغر الاسلامى عند وادى الرملة Guadarrama فى الجنوب ، وعمرت بهؤلاء الابطــال المحاربين الجبليين الذين تركوا الامان فى بيوتهم وسكنوا هذه القــلاع مغــامرين بأنفسهم على أمل احراز المجــد والنصر ضد المسلمين [٧٥]

ولدت قشتالة فى خطر من حيث الزمان والمكان ، فبسبب موقعها بين ليون ونبرة كان لا يمكن لقشتالة آن تستمر طويلا كامارة مستقلة ، فقــد كانت مسرحــا للصراع بين هاتين المملكتين ، وعرضة لهجماتهم ضد بعضهم البعض ، كمــا كانت عرضة لهجمات الجيوش الاسلامية فى نفس الوقت . ولذلك أتبع أمراء قشتالة أسلوب المصاهرات وخاصة مع نبرة ، حتى تضمن حليفــا يشــد ازرها فى صراعها مع ليــون فى معركة نيل الاستقــلال عنها . كما تسللت قشتالة داخل الاسرة المــالكة الليونية نفسها عن طريق المصاهرات ايضــا وضمنت بذلك الحفاظ على هذا الاستقلال . وأدت هذه المصاهرات فى النهــاية الى اتحــاد قشتالة وليون ونبرة ، واصبحت هذه المنطقــة كلهــا تسمى مملكــة قشتالة .

---

(٧٤) Crow, op. cit., p. 81.
Livermore, op. ict., p. 93.

(٧٥) Crow, op. cit., p. 81, Livermore, op. cit., p. 93.

وقد تميز الحكم فى امارة قشتالة فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميـــلادى عنه فى مملكة ليون . اذ ان الحكم فى قشتالة كان وراثيـــا لايتخلله صراع على الحكم كمـــا حدث فى ليون ، فلم يكن هنـــاك نبـــلاء يتصارعون مع الأمير على السلطة . لأن تلك الفترة التى كانت تعيشها قشتالة كانت فترة تحقيق الاستقلال ، وفترة الصراع مع ليـــون ونبرة لتثبيت هذا الاستقلال والدفاع عنه ، وفترة الصراع فى نفس الوقت مع الخلافة الاسلامية الصاعدة وكان أميرها المؤسس فرنان جونثالث هو الذى كان يقودها فى هذا الصراع الطـــويل المرير ، لذلك كان القشتاليون يعتبرونه بطلا قوميا ، لدرجـــة أنهم خلدوا اسمه فى أشعارهم وأساطيرهم .(٧٦)

وهكذا كان امراء قشتالة متفرغين تماما لتحقيق هدفهم أو أملهم فى الاستقلال عن ليون ، وفى مجـــاهدة المسلمين فى نفس الوقت . ساعدها على ذلك طبيعتهـــا الجغرافية وما فيها من عدد هـــائل من القـــلاع والحصون ، وموقعهـــا المتوسط الذى يجعلها تلجـــأ الى جارها الشرقى أو الغربى اذا اعتـــدى عليهـــا واحـــد منهما (٧٧) .

وكانت بداية الاحتكـــاك بين شعب قشتالة وبين ملوك ليون عنـــدما وزع الملك الفونس الثالث المملكة بين اولاده الثلاثة فى عام ٩١٠ (٢٩٦هـ) ، وقـــد تضايق أهل قشتالة من ملوك ليون الذين كانوا يعتبرونهم من سلالة القـــوط ، ولان هؤلاء الملوك كانوا يفرضون أنفسهم كحكام على اســـاس الوراثة ، بينمـــا الجنود الاحرار من اهل قشتالة والمرابطـــون دائما على الحـــدود كانوا يختـــارون عادة قضاتهم كحكام لهم وكانوا يحـــافظون على عاداتهم وحبهم للحـــرية . وقـــد حاول الفونس الثالث ان يكسر من شوكتهم وحبهم للاستقلال بتقسيم منطقة قشتالة بين عدد من القوامس أو الكونتات كمـــا احتـــال ابنه اردون الثانى (٣٠١ ـــ ٣١٢ هـ / ٩١٤ ـــ ٩٢٤ م) على

---

(٧٦) Crow, op. cit., p. 81

(٧٧) Chapman, op. cit.- p. 57.

عدد كبير من نبــلاء قشتالة وزعمائها وقبض عليهم واعدمهم فهدأت قشتالة حينـــا لموت زعمائها ، لكنهـــا كانت تتحين الفرصة للانتقـــام من ليون[٧٨]

وقد حانت هذه الفرصة ووجدت قشتالة بطلها المنتقم فى شـــخص الكونت فرنان جونثالث Count Fernan Gonzalez الذى كانت حياته مصدرا لالهـــاب خيـــال شعراء القرون الوسطى . وقد انتهز هذا الكونت فرصة الحرب الاهلية التى نشبت فى ليـــون بين أبنـــاء أردون الثانى على العرش ، وقام بتوحيـــد قشتالة فى عام ٣١٩ هـ / ٩٣١م وجعل منهـــا امارة لها كيانها وحدودها [٧٩]

انتهت الحرب الاهلية الليونية بموت ابنى أردون أحدهما بعـــد الاخر وبقى ردمير الابن الثالث الذى اعتلى العرش عام ٣١٩ هـ / ٩٣٢ م ووجد أمامه امارة قشتالية لهـــا أميرها وهو الكونت فرنان جونثالث . لم يقدر ردمير الثانى على تجـــاهل هذا الوضع واســـتفاد منه ، اذ اســـتعان بالقشتاليين فى صـــد هجمات الناصر ، ثم فى الهجوم عليه وهزيمته فى موقعة الخنـــدق عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م . وفى نفس الوقت لم يفكر الـــكونت فى التمرد ضد ليون طالمـــا أن جيوش الخـــلافة كانه تعيث فى بلاد النصارى وتنهب الاديرة وتحرقها . ولكن عقب موقعة الخنـــدق ، راى الكونت انـــه لم يعـــد هنـــاك ما يخشاه من المسلمين ، فأعلن تمرده ضد ملك ليون [٨٠]

قامت حرب الاستقلال بين ليون وقشتالة ، لكن ردمير الثانى ملك ليون انتصر واسر عدوه فرنان جونثالث ، وسجنه فى ليون ، ومنح ولاية قشتالة لاحد رجاله ، ثم أرسل ابنه شانجه للاقامة هناك فى عاصمتها برغش

---

(٧٨) Dozy, op. cit., p. 432 & Livermore, op. cit., p. 92.

(٧٩) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، جـ ٢ ، ص ٣٢٥ .

Dozy, op. cit., p. 432 & Livermore, op. cit., p. 92.

(٨٠) Dozy, op. cit., p. 432 & Livermore, op. cit., p. 95
Chapman, op. cit., p. 57.

ورغم انه احسن معاملة القشتاليين الا أنهم ظلوا مخلصين لاميرهم المأسور ولم تخمد فى نفوسهم نيران الوطنية . ولما طال أسر زعيمهم ثاروا وزحفت قواتهم على ليون ، فخشى ردمير عاقبة هذا الامر ، واطلق سراح فرنان جونثالث بشروط فادحة ، هى أن يقسم يمين الطاعة ، وأن يتنازل عن كل أملاكه ، وأن يزوج ابنته أوراكه بأردون ابن ردمير . قبل الكونت ذلك مكرها ، وظل أهل قشتالة ناقمين على ليون ، ففقد ردمير بذلك مساعدة امهر قواده وأشجع جنوده ، واضمحلت قواه العسكرية واضطر لالتزام خطة الدفاع امام هجمات المسلمين ، وهو المنتصر عليهم فى موقعة الخندق المشهورة (٨١)

وكان للكونت فرنان امير قشتالة دور خطير فى الصراع الذى نشب بين ابنى غريمه ردمير ملك ليون ، أردون وشانجه . ورغم أن أردون كان زوجا لابنة الكونت الا أن الكونت كان لايميل الى مساعدته لان المصاهرة كانت قهرية كما تقدم ، كما أن أردون رفض مطالبه فى أن يكون مركزه فى قشتالة امرا وراثيا ، وأن يعترف بوحدة قشتالة بحيث لاتجزأ مرة اخرى . ولذلك فضل الكونت مساعدة شانجه الذى وعده برد أملاكه اليه ، وكذلك الاعتراف باستقلال قشتالة . فحشد الكونت جنده وتقدم لمساعدة شانجة . الا أن أردون هزم أعداءه وتولى حكم ليون (٣٣٩ — ٣٤٤ هـ / ٩٥٠ — ٩٥٦ م) (٨٢)

وتدخل أمير قشتالة مرة أخرى فى ليون عندما مات أردون الثالث ، وقام الصراع بين أخيه شانجة الاول وبين ابن عمه أردون الرابع ، ذلك أن أردون الرابع كان قد تزوج أرملة أردون الثالث ملك ليون السابق ، وهى كما تقدم ابنة لأمير قشتالة الكونت فرنان جونثالث ، الذى انتهز فرصة الصراع بين افراد الاسرة المالكة الليونية وحقق استقلال قشتالة بحيث لم يعد

---

(٨١) Dozy, op. cit., pp. 435 & Livermore, op. cit., p. 95

(٨٢) Dozy, op. cit., p. 436 & Livermore, op. cit., p. 95

لملك ليون أى سلطة عليهـا ، بل ان قشتالة كانت بقوتها ومصاهرتها هى التى تقرر من يحكم ليون (٨٣)

قرر أمير قشتالة التدخل على الفور فى أحداث ليون ، ووقف الى جانب زوج ابنته أردون الرابع وارسل له جيشا قشتاليا ، ففر شانجه الى جدته الملكـة طوطة ملكة نبرة التى صحبته ووفـدت على الخليفـة عبد الرحمـن الناصر ، وعقـدت معه معـاهدة اعترفت له فيهـا بالطاعة ودفع الجزية على أن يساعد حفيـدها شانجة على العودة الى عرشه . وقامت قوات نبرة بمهاجمة قشتالة ، وقامت القوات الاسلامية بمهاجمة ليون ففر أردون الرابع الى جبال أشتريس ، واسر الكونت فرنان أمير قشتالة نفسه بواسطة النافاريين وحمل الى بنبلونة ، بينمـا اتخـذ صهره المخلوع أردون الرابع طريقه الى قرطبة لطلب المساعدة(٨٤)

أطلق النفـاريون سراح أمير قشتالة بعـد ذلك بقليل ، لكنه لم يلبث أن مات وخلفه فى حكمها ، ابنه الأمير غرسية (٣٦٠ — ٣٨٥ هـ / ٩٧٠— ٩٩٥ م) والذى تسميه الروايات الاسلامية غرسيه بن فرذلند او غرسيه بن فرانه بن عبد شلب . ظل هذا الامير يعيش فى هدوء حتى قام الصراع بين القـائد غالب والمنصور بن أبى عامر على السلطة فى عصر الخليفـة هشام المؤيـد الطفـل ، وحاول غرسيه التدخل فى جانب غـالب ، لكنـه منى بالهزيمة ثم اشترك بعـد ذلك فى تحـالف مع راميرو الثالث ملك ليـون (٣٥٦ — ٣٧٢ هـ / ٩٦٦ — ٩٨٢ م) ، لكنهم هزموا ، ومات غريسيه أسيرا فى قرطبة على قـول احـدى الروايات النصرانية ، وان كانت الروايـة الاسلامية لم تشر الى ذلك (٨٥)

---

(٨٣) ابن الخطيب ، اعمال الأعمال ، جـ ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٨٤) ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٨١ ،
Dozy- op. cit., p. 444, Livermore, op. cit., p. 96.

(٨٥) ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٨١ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ١٥٥ — ١٥٦ .
Livermore, op. cit., pp. 97, 98.

ترك غريسيه ابنه شانجة فى حكم قشتالة (٣٨٥ ــ ٤٠٦ هـ / ٩٩٥ــ ١٠١٧ م) . وقــد احتفظ مع سميه غريسية شانجة ملك نبره (٣٨٤ ــ ٣٩٠ هـ / ٩٩٤ ــ ١٠٠٠ م) بعــلاقات حميمة ، وقــد فتح غريسية القشتالى باب قصره لكى ينشأ فيه شانجة ابن صديقه غريسية ملك نبرة ، لأن أمه كانت من أصل قشتالى ، ولان والده ملك نبرة كان قــد مات فى سن مبكرة . وعمل غريسية أمير قشتالة على ربط قشتالة بنبرة ، فزوج شانجة الذى صار فيمــا بعــد ملكــا على نبرة باسم شانجة الثــالث (٣٩٠ ــ ٤٢٩ هـ / ١٠٠٠ ــ ١٠٣٩ م) من ابنته الكبرى المســماة البيرة ، كمــا زوج ابنته الأخرى المسماه طريجــة من ملك ليــون برمنــد وكان من نتيجــة هذه المصاهرات أن ارتبطت البلاد الثلاثة فى وحــدة واحدة فى مطلع القــرن الخامس الهجرى / الحــادى عشر الميــلادى بينمــا كانت الأندلس تعيش عصر التفرق والانقسام والصراع فى عهــد ملوك الطوائف[٨٦]

وهكذا نرى أن الاوضاع الداخلية فى الدولة النصرانية فى شــمالى اسبانيا كانت تساعد خلفــاء بنى أميــة على القيــام بدورهم فى فــرض الســلام على جميع أجزاء شبه جزيرة ايبيريا . فقــد شغلت مملكة ليــون بالحــروب الاهلية الداخلية المتتالية بسبب الصراع على العرش ، وقــد أعاقهــا ذلك بالتأكيد عن القيــام بدور نشط ضــد خلفــاء بنى أميــة كمــا شغلت هذه الدولة من ناحية أخرى بالصراعات التى اثارتها امارة قشتالة فى سبيل تحقيق استقلالها عنها ، وشغلت قشتالة وليون ونبرة بالصراع ضد بعضها البعض تأييــدا لهذا الامير أو ذاك ممن تربطه علاقــة مصاهرة بأحــد ملوك هذه الدولة أو تلك .

وكان من نتيجــة ذلك أن قــل التعــاون بين ملوك وامراء هــذه الدول ، وكــان التعــاون لايظهر الا اذا أحست احداها بخطر الفنــاء نتيجة لهجمة شرسة من هجمــات المسلمين المتتالية ، وعندئذ تتحد وتتحــالف

---

(٨٦) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .
Livermore, op. cit., p. 98.

وما أن ينتهى الخطـــر حتى تعود تلك الدول الى محـــاربة بعضها البعض ، بل وتستعين بالخـــلافة للانتصار على خصومها وتحقيق أهدافها .

كانت الكراهيـــة بينهم موجودة لدرجة أنه عندما غزا المنصور ليون امتلا القشتاليون سرورا ، وعندما عانت قشتالة بدورها من نفس المصير كان الليونيون شامتين . وكانت هاتان المملكتـــان تتيهان فرحـــا وسرورا عنـــدما اكتسح المسلمون نبرة . وفى تلك الايام كان تعبير أو لفظ أسبانيا Espana (Spain) يستعمل فقط للاشارة الى ذلك الجزء من شبه الجزيرة الذى أقـــام فيه المسلمون دولتهم وعندما كان نصارى الشمال يشيرون الى وطنهم الخـــاص ، كانوا يقولون أسماء ممالكهم التى يعيشون فيها مثل ليون ، قشتالة ، نبرة ، أشتريس ... الخ ، وكانت هذه الروح الانفصـــالية هى التى هزمتهم أمام الأندلس الموحـــدة فى عصر الخـــلافة فى القـــرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى[٨٧] ، وسوف نرى أثر هـــذه الأوضـــاع الداخلية وأثر عوامل القـــوة والضعف فى كل من الأندلس وشمال أسبانيا واضحا فى تطور العـــلاقات بينهما ، وذلك فى حديثنـــا عن تلـــك العـــلاقات ومظـــاهرها وطبيعتها فى الفصل الثانى من هذا الباب .

---

(٨٧) Crow, op. cit., p. 82.

الفصل الثانى

مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر أمراء بنى أمية

١ ـ طبيعة العلاقات بين مسلمى الأندلس ونصارى الشمال الأسبانى

قلنا فى حديثنا عن العلاقة بين أمراء بنى أمية ونصارى الشمال الأسبانى أن هؤلاء الأمراء لم يكن هدفهم من الصراع مع نصارى الشمال هو ابادتهم أو تحطيم دولتهم ، بل كان هدفهم هو التعايش السلمى معهم ، ولم يكن ذلك ممكنا الا عن طريق سلسلة من الغزوات أو الحروب ، قد تكون رد فعل لهجمات نصرانية ، وهذا هو الاغلب الاعم أو قد تكون حربا بداها المسلمون للتخويف والارهاب ، أو درءا لخطر محتمل وهى ما تسمى بالحرب الوقائية فى عصرنا الحديث .

هذا ماكان فى عصر الامارة ، وكان لذلك دواعيه النابعة من الظروف والأوضاع الداخلية لطرفى الصراع ، لكن هذه الأوضاع تغيرت فى عصر الخلافة وتطورت لصالح المسلمين ، ومال ميزان القوة السياسى والعسكرى الى جانبهم ، وحقق خلفاء بنى أمية من أمثال الناصر والمستنصر وحجابهم من أمثال المنصور بن أبى عامر وابنه المظفر عبد الملك تفوقا ساحقا على دول الشمال النصرانى مجتمعة ، حتى أنها أتت راكعة تطلب السلم والموادعة . فهل تغيرت أهداف الصراع عند خلفاء بنى أمية عنها فى عهد الامارة ؟ وماذا كانت أهدافه أيضا عند نصارى الشمال ؟ وما هى نتيجة هذا الصراع وطبيعته بالنسبة للطرفين ؟

لم يتغير هدف الصراع سواء عند نصارى الشمال ، أو عند مسلمى الأندلس ، فالأولون وضعوا نصب أعينهم استرداد بلادهم التى استولى

عليهـا المسلمون . والمسلمون كانوا يريدون ردع هؤلاء النصـارى وكبح جماحهم وتحقيق هيبة الدولة الاسلامية ، وسحق اى محـاولة نصرانية تنـال من أراضيها . لم يكن فى ذهن خلفـاء بنى أمية التوسع فى أراضى الشمال فذلك شيء لايريدونه رغم انه كانت لديهم القـدرة عليه . فقـد احتـل الناصر بنبلونة مثلا ، وكان يستطيع الاستمرار فى ذلك والقضـاء على مملكة نبرة ، ولكن عنـدما تقـدم ملكهـا يطلب الصلح ، أخلى الناصر عاصمته وقبل محـالفته ، وكذلك فعـل مع امارة قشتالة وكانت ناشئة اذ ذاك ، وكان يستطيع القضـاء عليها فى مهـدها . ولكن نظرية الناصر كانت الاعتراف بحقـوق المـالك الاخرى لتعترف هى بحـق الخـلافة الأموية على أراضيها .

وكان ما يهم خلفـاء بنى أميـة الاقوياء هو تحقيق الأمن والأمان للمواطنين ولديار الاسلام ، هذا كان منتهى أملهم ، فهل تركهم مسيحيو الشمال يحققون هذا الهـدف ؟ (١)

الواقع انهم تصدوا للخلافة وهى ما تزال فى مهدها وحاولوا القضـاء عليهـا ، واثـارة مشاعر المسلمين بأن الخليفة غير قادر على تحقيق الأمان للرعية وهو المسئول عنها دينيا وسياسيا ، حتى أنه فى احـدى الهجمات التى شنها نصارى الشمال ونالوا فيهـا من المسلمين وقتلوا عددا كبير من زعمـاء الثغور هاجت الاندلس على الناصر ورموه بالتفريط فى تأمين حياة رعيته من المسلمين (٢) .

اذن أجبر الناصر وهو أول خلفـاء بنى امية على خوض المعارك مع شمال أسبانيا النصرانى اجبارا ، وسوف نرى أنه فى معظم حروبه لـم يكن هو البادىء بالعـدوان ، وانما نصارى الشمال بتعصبهم المقيت كانوا وراء تلك المعـارك التى استمرت حوالى أربعين عاما من خلافـة الناصر البـالغة خمسين عاما . ولم تكن حروب الناصر الا رد فعـل لهجمـات

---

(١)

(٢) ابن عـذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

الشمال ، أو كانت بسبب نقضهم لما أبرموه معه من معاهدات . هذه هى طبيعة العلاقات بينهم وبين الناصر . واستمر ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ / ٩٦١ — ٩٨٦ م) يسير على سياسة أبيه ، الا اذا نقض هؤلاء النصارى عهدا كان لهم معه أو مع أبيه الناصر . واستمرت بذلك فترة السلام من أواخر حياة الناصر حتى وفاة الحكم المستنصر فيما يقرب من حوالى عشرين عاما .

ولما تولى ابنه هشام المؤيد الخلافة (٣٦٦ — ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ — ١٠٠٩ م) كان لايزال طفلا فاستحجب رجل الدولة القوى محمد بن أبى عامر الذى انتهز الفرصة وحجر على الخليفة واستبد بالسلطة ، وتغير هدف الصراع وطبيعة العلاقات مع نصارى الشمال . فقد كان هدف هذا الرجل ذى القبضة الحديدية والعزيمة الوثابة والرغبة المتوهجة فى الجهاد هو تحطيم دول الشمال النصرانية ، وتطهير اسبانيا كلها من النصارى ودولهم لو قدر على ذلك (٣)

قرر المنصور اذن أن يقضى على دول الشمال ، وأن يخضعها جميعا لسلطة الخلافة وقد خالف فى ذلك خطة من تقدمه من خلفاء بنى أمية أو أمرائهم ، اذ كان هؤلاء جميعا يحاربون للدفاع ورد الغزوات أما هو فكان يبدأ بالحرب دائما ، تحدوه فى ذلك روح قوية فى الجهاد حتى انه كان يتوق الى الموت فى ميدان المعركة ، وكان دائما يحمل معه أكفانه كلما خرج يغزو الشمال ، فهو دائما مستعد للشهادة ، وفعلا مات وهو عائد من احدى غزواته ودفن فى مدينة سالم ، وهى أبعد ما تكون عن قرطبة ، فهى من ثغور المسلمين التى تطل على قشتالة ، وكأنه أراد أن يذكر النصارى بوجوده قريبا منهم حتى وهو ميت (٤)

---

(٣) د. حسين مؤنس ، صور من البطولة ، ص ١٦١ .

(٤) حتى ، تاريخ العرب (المطول) ج ٢ ، ص ٦٣٥ .

حطم المنصور كثيرا من بلاد الشمال ودمر عواصمهم الثلاث ، ليون ، وبنبلونة وبرشلونة ، وانزل الخراب والدمار بزراعتهم وبيوتهم وكنائسهم واديرتهم ، حتى أنه دمر فى احدى غزواته قدس اقداسهم ، وهى مدينة شانت ياقب ، ذلك المزار الدينى الكبير الذى يحيطونه بكل تقديس واجلال واراد المنصور من وراء ذلك أن يقضى على الرمز الذى يلتفون حوله والذى جعلوه حامى حمى المسيحية فى أسبانيا (٥)

وهكذا تغيرت طبيعة المعارك بين أسبانيا الاسلامية واسبانيا النصرانية ، وبدأت الحرب تأخذ صفة الحرب الدينية ، فالنصارى يحرقون المساجد ويمثلون بجثث القتلى . والمسلمون يدمرون الكنائس ويقتلون القسس والرهبان ، ويشترك هؤلاء فى المعارك لاثارة الحماس الدينى فى نفوس بنى جلدتهم من النصارى ، ويقوم الفقهاء بنفس الشىء فى جيوش المسلمين . ويحاول النصارى سواء فى الاندلس أم فى الشمال فتنة الناس واغراءهم بالارتداد عن دين الاسلام ، ويقوم المسلمون بقتل من يعرفون عنه ذلك ، ويفد على الاندلس من يفد من المسلمين الراغبين فى الجهاد ، وكذلك يفد على شمال اسبانيا من يفد لمجاهدة الاسلام أو لجمع عظام الشهداء المسيحيين (٦)

حدث كل ذلك طوال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وحدث ما هو اكثر منه ، فقد اخذت العوامل الدينية والقومية يظهر تاثيرها علي العلاقات بين ممالك الشمال النصرانية ، ورأت هذه الدول انه لابد من وحدة الكلمة حتى تستطيع مقاومة الخطر الاسلامى والقضاء عليه . اتحدت ليون ونبرة وقشتالة ، وأحيانا برشلونة ، فى كثير من المعارك ، واحرزوا نصرا فى بعضها ، وأصابتهم الهزيمة فى معظمها ،

---

(٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ ،

(٦) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٩٤ ، ٤٦٨ ، الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧١ ، ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ،

لكنهم احسوا بفائدة الكفاح المشترك ضد العدو المشترك ، وكان هذا ارهاصا لما تم فى القرن التالى حيث اصبحوا وحدة واحدة ، بينما تفرق شمل المسلمين ، وبذلك ظهرت بوادر الوحدة القومية الاسبانية منذ ذلك الحين ، وكانت أسبق من غيرها فى دول أوربا بسبب الحركة الفريدة التى تميزت بها أسبانيا ، وهى حركة الاسترداد (٧) .

هكذا تغيرت أهداف الصراع وتغيرت طبيعته فى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ولم يكن الا بتأثير المنصور بن أبى عامر الذى يعد من طراز المجاهدين الاوائل أمثال موسى بن نصير ، وعبدالرحمن الغافقى ، وكأنه أراد أن يحيى سنة الجهاد التى كانت قد فترت الى حد بعيد بعد انتهاء عصر الولاة . لكن الغريب أن المنصور رغم غزواته التى بلغت ما ينيف عن الخمسين لم يستطع ازالة هذه الدول من الوجود ، ولم يقم بحركة استيطان اسلامية لهذه الدول . فهل كانت تنقصه الامكانيات ؟ أم أن الأوضاع الداخلية كانت لاتساعده على ذلك ؟ أم أن هناك من الأخطار الخارجية ماشل يده عن تحقيق هذا الهدف ؟

يجب ان نضع فى الحسبان أن الوضع الداخلى كان فى غير مصلحة بنى عامر على المستوى البعيد ، وكان المنصور يعرف ذلك حتى انه تنبأ بخراب مدينته الزاهرة التى بناها وتجشم فى بنائها الكثير ، وكان فى وصاياه لأولاده ومواليه يحذرهم من بنى امية ويقول لهم « لا تغرنكم بوارق بنى امية فانى أعرف ذنبى اليهم » ، فهو اذن كان لديه الاحساس بما سوف تؤول اليه الأمور بعد وفاته . وصدق احساس الرجل ، اذ لم يمض على وفاته أكثر من سبع سنوات حتى زلزلت الارض زلزالها وصلب ابنه عبد الرحمن وقضى على دولته ، وأزيلت مدينته الزاهرة من الوجود فى عدة ساعات ، وقامت دولة اخرى على راسها البربر الذين كان يقيم ملكه على سواعدهم (٨) .

---

(٧) عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٥٣ .

(٨) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٥٨ .

اذن كان هنـــاك انقسام فى الجبهـــة الداخلية أيام بنى عامر لكنـــه كان انقساما مستترا كالنـــار تسرى تحت الرماد ، كان هناك حـزب بنى أمية وحزب بنى عامر . ورغم أن السيطرة السياسية كانت للحـــزب الاخير الا أن الحزبين كانا يتربص كل منهما بالاخر . لذلك كان اعتماد بنى عامر على البربر والمرتزقة فى جيوشهم التى كانت تطيعهم طاعة عميـــاء والتى حققوا بهـــا تلك الانتصارات الرائعة . كانت شخصية المنصور طاغية ، وكـــان لايمكن لحزب بنى أميـــة الذى أضناه التشريد والقتـــل والمصـــادرة على يد بنى عامر أن يرفع رأسه فى عهـــد هذا الرجل القـــاهر . تركوا له الميـــدان يسرح ويمرح فيه بمفرده ، تركوه ينبح لهم بدل أن ينبح عليهم كمـــا قال بذلك هشام المؤيد (٩)

بجـــانب ذلك يجب الا ننسى أيضا أن الخطر الخـــارجى الذى كان يتمثل فى دولة الفاطميين فى شمال افريقيا قد استنزف الكثير من جهود بنى أمية وبنى عامر ، ولو أمن الفاطميون الجبهة الجنوبية لبنى أمية لكان لصراعهم مع نصارى الشمال شأن آخر . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فان الاندلس كانت ثغرا نائيا من ثغور المسلمين ، وياليتها كانت لهـــا صلة ببقية الاقطـــار الاسلامية فى المشرق ، انما استقلت بنفسها وأقامت على أرضها خلافـــة تنافس خلافـــة بنى العبـــاس فى المشرق والفاطميين فى المغرب .

فالأندلس كانت عضوا صغيرا بتر من جسد الأمة الاسلامية المترامية الأطراف ، وكان عليه أن ينزف دماء الحيـــاة ، وأن يقف وحيدا فى هـــذا المكـــان القصى يجـــاهد النصارى ويجـــالد الثائرين ، معتمدا على قواه الذاتية حتى نضب معين هذه القـــوى ، ونالهـــا الاعيـــاء ، فاسترخت واستسلمت بدءا من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميـــلادى ، حينمـــا بدأت الخـــلافة الاموية تدخل مرحلة الضعف والسقوط . وتغـــيرت طبيعـــة العـــلاقات ومظاهرها مع نصارى الشمال ، ذلك أن خلفـــاء بنى أمية فى تلك الفترة انقســـموا على أنفسهم ودخلوا فى صراع داخـــلى عنيف على الفوز بكرسى الخـــلافة ، واستعانوا فى ذلك بنصارى الشمال

---

(٩) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

لتحقيق هذا الهـدف ودخلت قوات النصارى قرطبة تقهر فريقـا لمصلحـة الآخر وبذلك تغيرت أهـداف الصراع وانقلبت الحـال وصار الغـالب مغلوبـا ، وانعكست الاوضاع بالنسبة للعلاقـات مع نصارى الشمال عمـا كان عليه فى عصر قوة الخلفـاء فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميـلادى .

هذا عن طبيعـة الصراع وأهدافه ودواعيه سواء فى عصر قـوة الخـلافة أم فى عصر ضعفها ، لكن هل كانت العـلاقة بين الجانبين الاسلامى والمسيحى فى شبه الجـزيرة طوال عصر الخـلافة حربا وصراعا عسكريا لايخمد أواره ولا يستقر قراره ؟ وهل استبد المسلمون بنصـارى الشمال واستخدموا قواهم العسكرية الفائقة فى فرض الحرب عليهم وخاصة فى عصر قوة الخلافة ؟

لم يفعل المسلمون ذلك ، لأنه كان يتنافى مع أهـداف الصراع ومع طبيعـة العـلاقات ، ويمكننا أن نقسم عصر الخـلافة الى أربع فترات ، فترة الصراع المتوازن وتبدأ من بداية عهـد عبد الرحمن الناصر فى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م وتنتهى بعـام ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، وهو عام السلام الذى تم فيـه عقـد معاهدات السلام بين الناصر وجيرانه من نصارى الشمال والفترة الثانية ، وهى فترة السلام وتبدأ من هذا العـام وتنتهى بوفاة الحكم المستنصر عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وفيهـا استخدم النـاصر وابنـه المستنصر الأساليب الدبلوماسية فى معظم الأحيان ، لفض تحالف نصارى الشمال ، حتى أصبح هو السيد الفعلى لشبه الجزيرة كلهـا . والفترة الثالثة وهى فترة الصراع المتطرف الذى قاده المنصور بن أبى عامر فى عنف وشراسة ضد نصارى الشمال ، وحطم فيه دولهم وأذل كبرياءهم . وتأتى بعـد ذلك فترة سقوط الخـلافة بدءا من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميـلادى ، وفيها انقلب ميزان القوى لصـالح نصـارى الشـمال وأصبحوا يتدخلون فى تولية الخلفـاء وعزلهم . وسوف نتناول علاقة خلفاء بنى أمية بنصارى الشمال فى عصر قوة الخـلافة وفى عصر ضعفها كل على حـدة .

٢ ــ علاقات خلفـــاء بنى أمية بنصارى الشمال الأسبانى فى عصر القوة

(أ) علاقات خلفاء بنى أمية بمملكة ليون :

حكم ليون فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى عشرة من الملوك عاصر الناصر منهم سبعة ، وقـــد سبقت دراسة احوال كل من البلدين ، تلك الأحـــوال التى اثرت كثيرا على العلاقة بينهما ، ومكنت الناصر وخلفاءه من ان يقودوا حركة الصراع مع ملوك ليون باقتدار وكفاية وشجاعة منقطعة النظير ، جعلتهم سادة شبه الجزيرة كلها .

وتبدأ المرحلة الأولى فى العلاقات بين ليون وقرطبة بهجوم شـــنه الملك أردون (أردونيو) الثانى بن الفونش (الفونسو) الثالث (٣٠١ ــ ٣١٢ هـ / ٩١٤ ــ ٩٢٤ م) ، عام ٣٠٢ هـ / ٣١٤ م على ماردة واستولى على حصـــن الحنش ووضـــع الســـيف فى رقاب مدافعيـــه ، وامتـــد الرعب الى اهل بطليوس الذين افتدوا أنفسهم بالمـــال ، وقدموا شكواهم الى الناصر . ورغم أن ماردة كانت من المناطق الثائرة ضد الناصر الا أنه أراد أن يكسب قلوب الثوار هناك ، فجرد ضد ملك ليون جيشا بقيـــادة احمد بن محمد بن أبى عبدة عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م ، وكانت هـــذه هى الحملة الأولى ضـــد ليون فى عهـــد النـــاصر وكانت ردا على عدوان أردون وسوف يتكرر ذلك فيمـــا سيأتى من حملات (١٠)

ولم يمضى على اغارة أردون الثانى على ماردة كثير حتى فاجأ أهل الثغور بهجـــوم خاطف عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م ، أحرق فيه أرباض طلبيرة (على نهر التاجة) . فأمر الناصر قائده ابن أبى عبدة أن يخرج لاغـــاثة اهل هذه الناحية ، وحاصر قلعة شنت اشتبين أو قاشتر مورش حسب الرواية العربية وأشرف المسلمون على الظفر لولا أن أردون أقبل لانقاذها ، ففر البربر والجند المرتزقة وتركوا ابن أبى عبدة الذى صمم على الدفاع

---

(١٠) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ١٤١ .

حتى الموت هو وكثير من جنوده وضباطه . وانتهت المعركة باستشهاده وفر الباقون وعادوا سالمين حسب الرواية الاسلامية . أما الرواية النصرانية فتقول ان الهزيمة كانت ساحقة لدرجة أن المرتفعات والقلاع والسهول والغابات من الدويرة حتى أتينسة كانت مغطاة بجثث المسلمين (١١) .

ازدادت شجاعة أردون الثانى ملك ليون وتحالف مع ملك نبرة شانجة ابن غرسية ، وهاجم ناجرة وتطيلة بالثغر الاعلى ، فأرسل الناصر حاجبه بدرا عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م الى منطقة ليون للانتقام لمقتل ابن أبى عبدة وحدثت معركتان على مقربة من مكان يسمى مطونية والذى سميت الغزوة باسمه . كسب المسلمون احدى المعركتين حسب رواية دوزى بينما الرواية الاسلامية تقول ان النصر كان تاما ، وأن بدرا هزم ملكى ليون ونبرة ، وأنه أرسل الى الناصر الف رأس من قتلاهم مع كتاب الفتح الذى قرىء على جميع منابر الأندلس (١٢) .

كان بنو تجيب وبنو طويل من أمراء الثغر الاعلى الاندلسى يتحالفون مع نصارى الشمال فى ذلك الوقت ويحاربون الى جانبهم ، ولذلك رأى الناصر أنه لابد من الخروج بنفسه لتأديبهم وللانتقام بنفسه لمقتل قائده ابن أبى عبدة ، خاصة وأن ملك ليون قد أغار على حصن القلعة قرب مدينة الفرج (وادى الحجارة) فى المحرم ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م . فأسرع الناصر فى سيره حتى وصل الى طليطلة ومنها الى مدينة سالم ، وأظهر أنه يريد التوجه الى الثغر الأعلى ، لكنه مال ناحية ألبة والقلاع (قشتالة) من مملكة ليون واستولى على قلعة أوسمة التى تسميها

---

(١١) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(١٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

الروايات العربية وخشمة ، وأحرقها ، ثم تقـدم الى قلعة شنت أشتبين (قاشترمورش) ، وهى التى كانت مسرحا لهزيمة المسلمين المروعة عام ٣٠٥ هـ ففرت حاميتها واستولى عليهـا الناصر وهدمها واجتاح مدينـة تلونية وخربها ، ثم ولى وجهه شطر الثغر الاعلى ونبرة(١٣) .

أسرع ملك ليون الى نجـدة ملك نبرة والحق الملكـان بعض الخسائر بالمسلمين أثنـاء مرورهم بين ممرات الجبـال ومضايقها ، لكن الناصر استـدرجهم الى سـهول جنكـيرة وسـحق جيوشـهم مجتمعـة وقتـل أكثـر من ألف مسـيحى كانوا قـد لجـأوا الى قلعـة مويش ، وهى القلعـة التى أعطت اسمها لتلك المعركة . وبعـد هذه الهزيمة القاسية لم يجرؤ ملك ليون على التعرض للثغور الاسلامية مرة أخرى ، وما لبث ان مات عام ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م (١٤)

قامت الحرب الأهلية فى ليون بسبب وراثة العرش بعـد موت اردون الثانى حتى استقر الأمر للملك ردمير (راميرو) الثانى (٣١٩ ـــ ٣٣٩ هـ/ ٩٣١ ـــ ٩٥١ م) . وكان هذا الملك من أشجع ملوك ليون وأقدرهم وكان أكثرهم بغضـا للمسلمين ، فقـد استطاع أن يحرض طليطلة على الثورة ضد الناصر حتى يشغله عن غزو ليون ، فجرد الناصر عليهـا جيوشـه عام ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م وحاصرها ، وعبثـا حاول ردمير انقـاذها لكن جيوش الناصر صدته وهزمته قبل الوصول اليها ، فعاد الى بلاده تاركـا المدينة لمصيرها المحتوم(١٥)

---

(١٣) ابن عبد ربه ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

(١٤) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩ ، ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٤١ .

(١٥) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ - ٣١٢ ، ابن عبد ربه ، العقـد الفريد ، جـ ٢ ، ص ٣٧٥

وكان ردمير أكثر حظـا فى العـام التالى (٣٢١ هـ / ٩٣٣ م) ، اذ استطاع تابعه فرنـان جونثـالث كونت قشـتالة أن يهـزم قـوات المسلمين التى كانت تهـدد أوسـمة . وأخـذ النـاصر ثأره فى العـام التـالى (٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) ، وكانت رغبته أن تشهد السهول المحيطة بأوسمة انتصار جيوشـه كمـا شهدت هزيمتها ، وعبثا حاول اخراج ردمير من حصونها التى تحصن فيهـا ، فترك الناصر قوة لمحاصرته ، وتقدم نحو الشمال ووصل الى برغش ودمرها تدميرا رهيبا ، وقتل كل رهبـان دير سـان بيـدرو دى كاردينيـا البـالغ عددهم مائتان ، وواجهت كثير من القلاع نفس المصير(١٦) .

لجـأ ردمير الى اسلوبه فى اثارة الشقاق بين المسلمين ، وحرض بنى هاشم التجيبيين حكـام سرقسطة وقلعة أيوب على شق عصـا الطاعة على الناصر ، فقـام هؤلاء باعلان تمردهم وتحالفوا مع ردمير ، وانضمت اليهم الملكة هوطة (تيودا) ملكة نبرة ، وبذلك اتحـد الشمال كله ضد الناصر . واستطاع الناصر فى عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٧ م أن يهزم بنى تجيب ويقضى على ثورتهم ، وأن يهزم أيضا جيوش نبرة ويخرب كثيرا من حصونهم ، فأعلنت الملكـة طاعتها للناصر ودفعت له الجزية (١٧)

وبذلك أخضع الناصر الشمال الشرقى ولم يبق أمامه الا خصمه العتيد ردمير الثانى ملك ليون ، وهو محور النضال الحقيقى ، فأعـد لغزوه جيشا ضخما يبلغ عدده زهاء مائة ألف ، وعهـد بقيادته الى فتاه نجدة الصقلبى وهنـا تختلف الروايات الاسلامية فيما بينها بخصوص زمان المعركة ومكانها

---

(١٦) ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ .

(١٧) العذرى ، نصوص الأندلس ، ص ٤٥ ، ابن عبد ربه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

فالمقـــرى ينقل عن المسعودى بأنها كانت عند مدينـــة سمورة فى شوال عام ٣٢٧ هـ ويتابعه فى ذلك الحميرى [١٨] .

أما بقية الروايات الاسلامية فتشير الى أنها كانت عند مدينة شانت مانكة أو شانت مانكش أو شانت ماكس ، وهى أسماء متشابهة لمـدينة ســلمنقة (ســيمانقاس) التى تقــع على نهــر دويرة حيث حدثت المعـــركة هنـــاك بين ١١ و ١٧ من شـــوال ٣٢٧ هـ ، وقيـــها هـــزم المسلمون بسبب خيانة الضباط العرب الذين أرادوا الانتقـــام من النـــاصر الذى أسند القيادة العليـــا لنجـــدة الصقلبى ، فتقهقروا وارتدوا الى مكان يسمى الخندى جنوب سيمنقة ، حيث هزمهم النصـــارى هزيمة ساحقة ، قتـــل فيهـــا أربعون أو خمسون ألفـــا من جند النـــاصر . ولمـــا عاد الناصر الى قرطبة قبض على ثلاثمائة من الفرسان وصلبهم ونادى عليهم «هذا جزاء من غش الاسلام وكاد لأهله ، واخل بمصاف الجهاد » [١٩]

ويبدو أن رواية المسعودى والحميرى غير صحيحة ، لأن المسعودى وان كان معاصرا للمعركة الا أنه كان يعيش بعيـــدا عن مكانها ، فهو من مؤرخى المشرق ، وربمـــا نقل عمن لايعرف مكـــان المعركة الصحيح . أما الحميرى فهو مصدر متأخر لانه عاش فى القرن الثامن الهجرى ، كمـــا أن روايتـــه يبدو عليهـــا الاضطراب ، فهو يذكر مثلا أن جيش الناصر كان مائتى ألف ثم يعود وفى نفس الرواية ويقول أنه كان مائة ألف .

أما الروايات الأخرى التى أوردناها فهى صحيحة وتتفق فى ذلك مع الروايات النصرانية المتعـــددة ، كمـــا أنها صدرت من مؤرخين أندلسيين قريبى العهـــد بالأحداث ونقلوا عمن شاهدوا . ويلفت النظر فى رواية

---

(١٨) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، المقرى ، نفـح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(١٩) ابن حيان ، المقتبس ج ٣ ، ص ١٩ ، ٢٨ ، العـذرى ، المصدر نفسه ، ص ٤٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، ابن خلـدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٨٠ .

ابن حيـــان أنهـــا تذكر المعركة مرة باسم الخندق ومرة تقول انها « غزوة شنت مانكش وهى الغزوة المعروفـــة بالخندق » ويقـــول ابن خلـــدون انهـــا وقعـــة الخنـــدق القريبة من مدينة شنت ماكس (سيمنقة) . وهو تحـــديد دقيق جدا لمكـــان المعركة (٢٠) .

وقد عرض الاستاذ محمد عبد الله عنان الرواية الاولى التى أثبتنا خطأها وقال عنهـــا انهـــا تقترب من الرواية النصرانية ، وهذا ايضا خطأ ولا يقترب منها الا الروايات التى أوردناها والتى تتفق معها فى المكـــان والزمان الذى تجعله فى شوال عام ٣٢٧ هـ / يولية ٩٣٩ م . ولاعبرة فى هذا ببعض الروايات الاسلامية المتأخرة التى جعلت المعركة فى زمن غير زمانهـــا بنحو عشر سنوات أو أكثر او أقل (٢١)

وربما أتى الخلط عند بعض الكتاب المسلمين بالنسبة لاسم المعركة وقالوا انهـــا كانت عند سمورة ، بسبب أن تلك المدينة يحيط بهـــا سبعة أسوار بين كل سور والآخـــر خندق ملىء بالمـــاء زيادة فى تحصين المدينة ، ولمـــا كانت معـــركة سيمنقة اشتهرت باسم معـــركة الخندق ، فقـــد ظن هؤلاء أنه خنـــدق مدينة ســـمورة . وهنا يقول الدكتور حسين مؤنس بأن المسلمين كانوا قد حفـــروا خندقا تحت أسوار سيمنقة ، حتى يحصروا عنده قوات العـــدو الهـــاربة فى حالة الهزيمة . لكننا لا ندرى كيف وقع المسلمون فى خنـــدق حفروه بأنفسهم ، وهل لم يدر بخلدهم أنهم ربمـــا وقعـــوا فيه اذا جـــرت عليهم الهـــزيمة ؟(٢٢) .

---

(٢٠) ابن حيـــــان ، المقتبس ، جـ ٣ ، ص ١٩ : ٢٨ ، ، ابن خلـــدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٨٠ .

(٢١) محمد عبد الله عنان (تاريخ الاسلام فى الأندلس ع ١ ، جـ ٢ ، ص ٨٥ ، ٨٦) والقلقشندى (صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٦٤) يجعلان المعركة فى عام ٣٣٧ هـ ، ابن خلـــدون يجعل المعركة فى عام ٣٢٣ هـ ، انظر ، العبر ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٣٧ ، صاحب أخبـــار مجموعة يجعل المعركة عام ٣٢٦ هـ ، انظر ، ص ١٥٦ .

(٢٢) د. حسين مؤنس ، الحلة السيراء لابن الأبار ، جـ ١ ، حاشية ص ٢٧٢ .

يبدو أن هـــذا القول مغالى فيه ، فالصحيح هو أن الخندق كان اسما لمحــلة قريبة من سيمنقة ربما كان فيها خندق سبق للمسلمين او النصارى حفـــره من قبل وسميت البلدة باسمه ، وهو أمر محتمل لأن المنطقة ثغرية تقـــع على الحـــدود بين المسلمين والنصارى وهى معرضـــة للهجـــوم عليها فى أى وقت . وتحـــديد المكان بهـــذا الشكل هو ما اتفقت عليـــه الروايات الاسلامية المعتمدة وكذلك الروايات النصرانية أيضا .

ولا تختلف الروايتان الا فى نتيجة المعركة فبينما تذكر الرواية الاسلامية بأن المسلمين انسحبوا وعادوا الى قرطبة سالمين بعـــد أن قتل منهم الكثير ، تقول الرواية النصرانية ان الهزيمة كانت ساحقة وأن الخليقـــة هرب من سيوف المسيحيين وتكدست الطـــرق بالقتـــلى من المسلمين ، وكانت الهزيمة كارثة لدرجة أن الناصر قـــرر الا يغزو بنفسه بعـــد ذلك . ورأى المسيحيون فى نصرهم هذا نصرا لعقيدتهم المسيحية ، مما يشير الى ظهور الروح الصليبية بين جنـــود الممـــالك الشمالية منذ ذلك الحين[٢٣] .

ولم يكن غريبا أن يهزم الناصر هذه الهزيمة الساحقة ، فقـــد كانت الجبهة الداخلية الاسلامية مفككة فى ذلك الوقت ، فقـــد كانت ثورة التجيبيين مشتعلة قبيـــل المعركة ، ولم يمر وقت طويل على اخمادها بالسيف والنار ، ورغم اشتراك محمـــد بن هاشم التجيبى مع الناصر فى المعركة ، الا أنه فيما يبـــدو كان غير مخلص له ، فقـــد قتل الناصر ابن عمه صاحب قلعـــة أيوب قبل المعركة بعامين ، ونحن نعرف مدى عمـــق غريزة الثـــأر فى نفوس العـــرب[٢٤] .

ولم تكن ثورة بنى تجيب هى الثورة الوحيدة التى شغلت الناصر فى ذلك الوقت ، فقـــد كانت هناك ثورة أقربائه من بنى اسحاق المروانيين

---

(٢٣) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٢٦ ـ ٢٨ .

(٢٤) العـذرى ، المصدر نفسه ، ص ٥١ ، ٥٢ .

اثنـاء حصارهم لسرقسطة عام ٢٢٥ هـ ، وقام الناصر بقتل زعيمهم ، ففـر أخوه أمية بن اسحاق وانضم الى الملك ردمير ملك ليـون وقـدم له معلومات ثمينة عن خطط الناصر وأساليبه فى القتال ، وعن نقاط الضعف التى يمكـن منها مهاجمة البـلاد الاسلامية(٢٥) .

وهناك ما اشرنا اليه عند حديثنا عن الأحوال الداخلية فى قرطبـة عندما استعان الناصر بالصقالبة فى الادارة والجيش ، واهمل العـرب وابعـدهم عن المناصب العليا ، فكان تواطؤهم عليه فى هـذه المعركة . فاذا اضفنا الى هـذا كله ، ذلك التحالف الذى كان قد تم قبيل المعركة بين ملك ليون ردمير الثانى ، وبين ملكة نبرة الملكة طوطة التى نقضت عهدها مع الناصر ، وبين كونت قشتالة وجنوده الشجعان ، لأدركنا على الفور امكانية هزيمة الناصر فى هذه المعركة التى لم يهـزم فى غيرها قط(٢٦) .

ولم تكن هـذه الهزيمة بالغة الأثر فى قـوة الأندلس ، اذ سرعان ما اعاد الناصر تنظيم قواته ، وحالفه الحظ بقيام الحرب الأهلية بين ليون وقشتاله ، فانتهز تلك الفرصة الثمينة وأرسل قواته لمهاجمة اراضى ليون فى الأعوام التالية حتى وفاة ردمير عام ٣٣٩ هـ ، واستولى قواده على كثير من الحصون والأسرى والسبى ، وقام الناصر باعادة بناء مدينة سالم وشحنها بالمعـدات والرجال فى عام ٣٣٥ هـ لتكون مركزا للدفاع عما يليها من أراضى المسلمين ، واضطر ردمير المنتصر أن يأخـذ موقف الدفاع وحتى وفاته (٢٧)

---

(٢٥) العـذرى ، المصـدر نفسه ص ٥٠ ، الحميرى ، المصـدر نفسه ، ص ٩٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٢٦ ، ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٣٩ ،

(٢٦) مجهول ، اخبار مجموعة ، ص ١٥٣ ـ ١٥٦ ، حتى ، تاريخ العرب جـ ٢ ، ص ٦٢٣ ،
Dozy, op. cit., p. 431

(٢٧) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣١٥ ـ ٣٢٥ ،
Livermore, op. cit., p. 85.

انزلقت ليون بعـــد ذلك فى مهاوى الحرب الأهلية بسبب الصراع على العرش بين ولدى ردمير الثانى ، وانتهز المسلمون الفرصة وأغاروا على جليقية وطلبيرة فى عامى ٣٤١ هـ ، ٣٤٣ هـ ، وفى العام التالى أرسل النــاصر عددا كبيرا من قواده البارزين على رأس جيش ضخم فهاجموا ولاية قشتالة ، وخربوا نواحيها وقتلوا ما يقرب من عشرة آلاف من أهلها ، وكانت الهزيمة فادحة حتى أن ملك ليون أردون الثالث أرســل يطلب الصلح والسلام من عبد الرحمن النــاصر (٢٨) .

وكان الناصر يرغب هو الآخر فى السلام حتى يتفرغ للجبهة الجنوبية حيث ازدادت قوة الفاطميين فى ذلك الوقت ، وايضا لكى يوسع الهوة بين أعضاء الأسرة المــالكة الليونية التى كانت قـــد انقسمت على نفسها فى ذلك الوقت ، وكان هناك صراع على العرش بين أردون الثالث وبين اخيه شانجه الذى تسانده نبرة ، فرأى الناصر أن يدعم أردون الثالث ، ومن ثـــم وافق الناصر على ما طلبه أردون وأرسل رسوله محمد بن حسين والطبيب اليهودي حسداى بـــن شبروط الى ليون عام ٣٤٤ هـ/٩٥٥ م ، وانتهت المفاوضات بأن تنازل أردون عن حصون معينة للخليفة نظير الســلام . وفى العام التالى طلب أردون الثالث من الخليفة ادخال كونت قشتالة فى اتفاقية السلام ، فرحب الخليفة بذلك وأخـــذ يستعد بكل قوته لارسال حملة ضخمة الى المغرب لمواجهة الفاطميين فى معركة حاسمة ، لكن موت أردون الثالث فجأة أوقف كل خططه . (٢٩)

فقـــد رفض شانجة الملك الجـــديد (٣٤٥ـــ٣٥٥هـ / ٩٥٦ـــ٩٦٦م) تنفيذ المعاهدة التى كان أخوه أردون الثالث قـــد أبرمها مع الناصر فى العام السابق ، بأن رفض تسليم الحصون المتفـــق عليها فى تلك المعاهـــدة .

---

(٢٨) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ــ ٣٣٠ ، لين بول ، قصة العرب فى اسـبانيا ، ص ١١٠ .

(٢٩) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ ،
Dozy, op. cit., pp. 437-439, Nurphy, op. cit., p. 101.
Livermore, op. cit, p. 95.

فاضطر الناصر لاستخدام قواته التى كان قد أعدها لأفريقية ضد مملكة ليون ، حيث سحق جيوشها فى عام ٣٤٦هـ / ٩٥٧م ، وما لبث كونت قشتالة أن تغلب على شانجة وقام مع النبلاء الآخرين وعزلوه وأقاموا مكانه ابن عمه أردون الرابع الذى كان صهرا لكونت قشتالة ، وفر شانجه الى بلاط جدته الملكة طوطه فى نبرة (٣٠) .

قدمت الملكة طوطة مع حفيدها شانجة الى قرطبة عام ٣٤٧هـ/٩٥٩م ومعها ابنها غرسية بن شانجه الاول ملك نبرة ، تطلب المساعدة من الخليفة الناصر لاعادة حفيدها الى عرش ليون ، ولمعالجته من السمنة المفرطة على يد أطباء قرطبة الماهرين ، وذلك نظير التخلى عن عشرة حصون . وافق الناصر وأرسل قوة اسلامية أعادت شانجة الى عرش مملكته ، وهرب أردون الرابع الى أشتريس ، وقامت نبرة بمهاجمة قشتالة وأسرت حاكمها الكونت فرنان جونثالث صهر أردون . (٣١)

وبذلك أصبح الخليفة عبد الرحمن الناصر السيد الفعلى للمجتمع الأيبيرى كله ،مسلميه ومسيحيه ، فالبلاد الخارجة عن طاعته أخضعها ، والممالك المسيحية حالف بعضها وكسب صداقتهم ، وأجبر الباقين على احترامه ، وجعلهم لا يلجأون اليه كعدو ، بل كصديق ، وتخطى صيته حدود شبه الجزيرة وترامى الى بلاد غالة ، بل وصل الى المانيا والقسطنطينية ، وتوافد الناس من كل أنحاء أوربا على قرطبة التى أصبحت ليست عاصمة للاسلام فى الغرب الاسلامى كله فقط ، بل انما عاصمة للتمدن والحضارة فى أوربا كلها (٣٢)

---

(٣٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٥ ،
Dozy, op. cit., p. 439, Livermore, op. cit., p. 96

(٣١) ابن عذار ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ،
Dozy, op. cit., pp. 443,444

(٣٢) د. حسن محمود ، المرجع نفسه ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

توفى الناصر عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، وخلفه ابنــه الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ / ٩٦١-٩٧٦م) الذى تابع سياسة أبيــه ازاء نصارى الشمال ، فعمــل على الوقوف أمام سياستهم التوســعية ، واستعمل الاساليب الدبلوماسية والسيف معا . انتظر أولا حتى يعرف نوايا جيرانه. أما شانجة ملك ليون ، فقــد قــدم كثيرا من الاعتذارات لتأخير تسليم الحصون التى نصت عليها الاتفاقية بينه وبين الخليفة الراحل وقام غرسية ملك نبرة باطلاق كونت قشتالة من أسره خلافا للاتفاقية أيضا ، وانضم هــذا الكونت الى صهره أردون الرابع الملك المخلوع ، وأخذا يعيثــان فى الاراضى الاسلامية . (٣٣)

أعــد الخليفة الحكم حملة كبرى للقضاء على أردون وكونت قشتالة، فخاف أردون على مصيره ، ووفــد الى قرطبة عام ٣٥١هـ — ٩٦٢م ملقيا بنفسه الى (الحكم) ضارعا اليه أن يعيــده الى عرشه ، وأنه ليس مثل ابن عمه شانجه الذى خالف شروط الاتفاقيــة ، وأنه يضــع نفسه وأرضه وشعبه تحت أمر الخليفة . فأكرمه المستنصر ووعده باعادته الى عرشه على شرط أن يتعهــد بحفظ السلام بينه وبين الخــلافة والا يخالف كونت قشتالة وأن يترك ابنه رهينة . وبمجرد أن وقــع أردون الاتفاقية ، وضع المستنصر تحت أمرته جيشا على رأسه قائده غالب(٣٤) .

وبــدأ مركز شانجة ملك ليون حرجــا للغــاية ، وعرف النهــاية المتوقعة . فجليقية رفضت أن تعترف به حتى الآن ، وبــدا أنها ســوف تؤيد أردون لو عاد بقوة اسلامية . وحتى الامارات الاخرى التى تتبــع شانجة نفسه كانت لا تحبه ، ومن المحتمل أن تعلن تمردها عليــه حتى لا تعرض نفسها للغــزو الاسلامى . ومن ثم فقــد اتخــذ شانجة قرارا .

---

(٣٣) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٠ .

(٣٤) Dozy, op. cit., p. 448

انظر الوصف الرائع لاستقبال أردون فى قرطبة ، المقرى ، ازهار الرياض ج ٢ ، ص ٢٨٨ — ٢٩٢ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨١ — ١٨٤ .

Dozy, op. cit., pp. 449-452.

ذلك أنه أسرع على التو بالذهاب الى قرطبة وقابل الخليفة الحكم وتعهد بتنفيـــذ كل بنود الاتفاقية . فوجد (الحكم) أنه حصل على كل ما يريده والا فائدة من الوعود التى بذلها أردون الرابع اذا ما عاد الى العرش . وقـــد حلت المشكلة بأن مات أردون نفسه بعـــد ذلك بقليل (٣٥)

لكن موت أردون خلق موقفا جديدا ، فقـــد بدد مخاوف شانجه ، وجعله يطمئن على عرشه ، فقـــد مات منافسه . وقرر شانجه الاستعانة بحلفائه القـــدامى من أخواله ملوك نبرة ، ومن يليهم من كونتات قطلونية بوريل Borrell وميرون Miron ، وكذلك كونت قشتالة العدو اللدود للخلافة ، وأعلن عـــدم التزامه مرة أخرى بالاتفاقية ، فاضطر الحكم لقتالهم ، وبدأ أولا بقشتالة ، واستولى على قلعة شنت اشتبين عـــام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، واجبر حاكم قشتالة فرنان جونثالث على طلب السلام. واستطاع القائد غالب أن يهزم جيوش ليون ونبرة فى موقعة اتيقسة Atienza وكذلك هزمهم قائد الثغر يحيى بن محمد التجيبى حاكم سرقسطة واستولى على مدينة قلهرة الهامة ، وقام قائد وشقة واستولى على مطونية ، وعاثت قوات الثغور فى برشلونة . وغنم المسلمون فى هذه الغزوات من الاموال والسلاح والدواب والاطعمة والسبى مالا يحصى ، وبهذا اجبر المستنصر أعداءه على طلب السلام (٣٦)

حالف الحظ الحكم المستنصر بوفاة شانجة ملك ليون عام٣٥٥هـ/٩٦٦م، وخلفه ابنه الطفل ردمير الثالث (٣٥٥ هـــ٣٧٢هـ/٩٦٦ــ٩٨٢م) ، وتولت عمته البيرة Elvira الوصاية عليه . وكان لتولى هذا الطفل الصغير عرش ليون أثر فى انتشار الفوضى وانقسام الدولة الى امارات صغيرة ، وأخذ كل أمير من أمرائها يتوجه الى قرطبة للاستعانة بخليفتها ضد خصومه

---

(٣٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٥١ ،
Dozy, op. cit., p. 452.

(٣٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٩ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، المقرى ، النفح ، جـ ١ ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ ،
Dozy, op. cit., p. 453, Murphy, op. cit., pp. 105,106.

فيما يشبه عصر ملوك الطوائف الذى ظهر فى الاندلس بعـــد انهيار الخلافة، وتوالت السفارات المسيحية من جميع دول الشمال الاسبانى على بلاط الحكم المستنصر ، تطلب السلام وتجـــدد معاهدات الصلح منذ عام ٣٥٥هـ/ ٩٦٦ م (٣٧)

امتد السلام حتى توفى الحكم المستنصر فى عام ٣٦٦هـ / ٩٧٦ م وكانت وفاته ايذانا ببدء مرحلة جديدة من الصراع غير المتكافىء بين نصارى الشمال وبين المنصور بن أبى عامر ، حاجب هشام المؤيد (٣٦٦ـ٣٩٩هـ/ ٩٧٦ـ١٠٠٨م) الذى خلف أباه المستنصر فى الخلافة . ولمـــا كان هشام لايزال طفلا فقـــد استبد ابن أبى عامر بالسلطة وحجر على الخليفة ، وقضى على كل معارضيه ، وصار هو الحاكم بأمره ، ودخل مع نصارى الشمال فى صراع رهيب ، أجبرهم فيه على طلب السلام وجعلهم مجرد حكام تابعين لسلطانه (٣٨)

ورغم ذلك لم يكن المنصور بن أبى عامر ذلك الرجل الجبار العنيـــد الذى حطم بلاد العـــدو وخربها ، وانما كانت تحـــدوه روح اصلاحية غلبت على نفسه فى ذلك الوقت ، استمع الى حواره مع حاجبه عندما شعر بدنو أجله حيث قال عن نفسه ، أنه يستحق القتل والاحراق بالنار من المسلمين ، لأنه عندما فتح بلاد الأسبان فى الشمال عمرها بالأقوات من كل مكان ، ووفر لها المؤن ووصلها ببلاد المسلمين وحصنها غاية التحصين ، فاتصلت العمارة بين الأندلس الاسلامية وبين أسبانيا النصرانية ، ثم أخذ ينـــدم على ذلك ويتمنى لو انه كان قـــد خرب من تلك البلاد مقـــدار مسيرة عشرة أيام وجعلها فيافى قفـــارا حتى لا يصل النصارى الى بلاد المسلمين الا بمشقة كبيرة ، ومن ثم يمكن الدفاع وانقـــاذ البلاد من خطرهم(٣٩) .

---

(٣٧) ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
Dozy, op. cit., p. 453, Livermore, op. cit., p. 97.

(٣٨) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، ص ٢١٠ .

(٣٩) ابن الكردبوس ، الاكتفاء فى اخبار الخلفاء ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

وهذا بالطبع شيء جديد لايعرفه أحد عن المنصور من قبل ، واذا كان المنصور قد لجأ فى كثير من حروبه الى التدمير ، فلم يكن ذلك يقارن بما كان يفعله نصارى الشمال عندما يتغلبون على مدينة أو قرية او حصن ولم يكن التخريب والتقتيل الا أسلوبهم المفضل ، ولم يكن المنصور ليعاملهم الا بأسلوبهم ، حتى يتحقق السلام الذى لا يمكن أن يتحقق الا بالقوة . وسلك المنصور هذا السبيل فى شدة وعنف ، واكثر من الغزوات حتى بلغت ما يزيد عن الخمسين غزوة .

وقد قام الأستاذ خالد الصوفانى الأستاذ بكلية الآداب بدمشق بعمل دراسة على هذه الغزوات ولاحظ أذها تتفاوت من سنة أو من فترة الى اخرى خلال حكم المنصور وأورد الجدول الآتى للتدليل على صحة كلامه :

التاريخ	ارقام الغزوات	مجموع الغزوات
من سنة ٣٦٦ هـ - ٣٧١ هـ (٩٧٦ - ٩٨١م)	من ١ - ٤	٤ غزوات
من سنة ٣٧٩- ٣٨٧ هـ (٩٨٩ - ٩٩٧ م)	من ٤٦ - ٤٨	٣ غزوات
من سنة ٣٨٧ هـ - ٣٩٢ هـ (٩٩٧ - ١٠٠٢ م)	من ٤٨ - ٥٢ أو أكثر	٤ غزوات
ثم		
من سنة ٣٧١ - ٣٧٩ هـ (٩٨١ - ٩٨٩م)	من ٤ - ٤٥	٤١ غزوة

ويعلل الأستاذ خالد الصوفانى هذا التفاوت فى عدد الغزوات من فترة الى اخرى ، بأنه ربمـا عمد المؤرخون الى ذكر المهم من الغزوات ، وأهملوا الغزوات الثانوية ، وربما حسب بعض المؤرخين الغزوات الصغيرة الجانبية التى كانت تتفرع أحيانا عن غزوة كبرى ضمن الغزوات الخمسين ، ثم يختم مقاله بأن ذلك من « باب التخمين ، ولايزيد كونه عن فرضية ليس لها ما يدعمها أو يثبتها سوى جهلنا بعدد تلك الغزوات الأبسابية» (٤٠)

---

(٤٠) خالد الصوفانى ، عصر المنصور الأندلسى ، ص ١١٧ - ١١٩ .

ويبدو أن الأستاذ الصوفانى لم تتوافر لديه المصادر الكافية ، فأضنى نفسه فى هذا البحث الذى قدمه عن التفاوت بين غزوات المنصور من فترة لأخرى أثناء حكمه . والواقع انه ليس هناك تفاوت فى عدد الغزوات ، وانما كان المنصور يلزم نفسه بغزوتين كل عام . وكل ما هنالك أن الأستاذ الصوفانى لم تصل اليه أسماء الغزوات وتواريخها . وقد عثرنا على ثبت كامل بأسماء الغزوات بدءا من عام ٣٦٦ هـ الى ٣٧٦ هـ فقط ، فكان عددها خلال تلك السنوات العشر فقط أربعا وعشرين غزوة[٤١] .

وفى الفترة الأولى التى أشار اليها الأستا ذالصوفانى من ٣٦٦ هـ الى ٣٧١ هـ والتى جعل فيها ٤ غزوات فقط ، قام المنصور فى هذه الفترة بالذات بأربع عشرة غزوة وليس بأربع فقط . ذلك أن المنصور كان يقوم أحيانا بأكثر من غزوتين فى العام ، وفى عام ٣٧٠ هـ قام بأربع غزوات ، وفى عام ٣٧١ هـ قام بثلاث غزوات ، وفى عام ٣٧٣ هـ قام بأربع غزوات ، وهذا يفسر سر التفاوت فى عدد الغزوات فى بعض الفترات[٤٢] .

وفى هذا المقام نقول ان غزوات المنصور لم تكن موجهة كلها الى نصارى الشمال ، اذ ربما يعتقد البعض ذلك ، وانما يدخل فيها ماقام به المنصور من غزوات فى الأندلس نفسها ضد بعض المتمردين ، ومن غزوات فى شمال افريقية ضد الفاطميين . ويحتمل أن يكون المؤرخون قد أسقطوا بعضا من هذه الغزوات . ومما يؤيد ذلك أن العذرى يذكر خمس غزوات للمنصور حتى عام ٣٦٨ هـ ، بينما يقول ابن حيان وهو معاصر للعذرى أن المنصور خرج فى غزوته الثامنة عام ٣٦٨ هـ لضبط شئون جنوب الجزيرة تجاه نشاط الفاطميين هناك [٤٣] .

---

(٤١) العذرى ، المصدر نفسه ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ ـ ٧٨ .

(٤٢) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ ، ٧٥ ، مجهول نقلا عن ابن حيان ، مفاخر البربر ص ٣ .

كمـــا نلاحظ أيضا أن العذرى حينما يتحـــدث عن غزوات المنصور يقـــول عن بعضها انها كانت شاتية مفردة أو صائفة مفردة . ويقول عن أخرى أنها كانت صائفة ذات ثلاث دخلات ، جمع فيها بين بمبلونة وبسيط برشلونة ، وهذا يؤيد الفرض الذى قدمه الدكتور الصوفانى من أن الغزوة الواحـــدة ربمـــا تفرع عنها غزوة أخرى ثانوية لم تذكرها كتب التاريخ ، ومن ثم أصبح الفرض يقينـــا لدينـــا ، وأصبحنا فى غنى عن البحث مـــرة أخرى فى عدد غزوات المنصور وتوقيتاتها . وحسبما تقـــدم فقـــد قـــام المنصور بأربع وعشرين غزوة فى العشر سنوات الأولى من حكمه ، وعلى ذلك فانه قام بغزواته الباقية وهى حوالى ست وعشرين فى الســـنوات البـــاقية من حكمه ، وهى ستة عشر عاما على أساس غزوتين كل عـــام كحـــد أقصى حسبما أشار الى ذلك معظم المؤرخـــين ، فلا داعى اذن للتشكيك فى عدد الغزوات بحجة التفـــاوت فى حدوثها على النحو الذى أشار اليه الأستاذ الصوفانى (٤٤) .

وقد قام المنصور بأولى غزواته عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ضـــد مملكة ليون بعـــد أن إنتهز ملكها ردمير الثالث (٣٥٥ ــ ٣٧٢ هـ / ٩٦٦ ــ ٩٨٢) فرصة موت الحكم المستنصر ، وأغار على الثغر الجوفى أو الثغـــر الأوسط ، واستغاث هناك بالحاجب جعفر المصحفى الذى جبن عن اتخـــاذ القرار المناسب . حينئذ أعلن المنصور قيامه لمقارعة ردمير بعـــد أن زوده المسئولون فى قرطبة بالجنود والمـــال والعتـــاد اللازم . وخرج الى الحدود وحاصر حصن الحـــامة فى جليقية ، ثم عاد اليهـــا مرة أخرى فى الصائفة من نفس العـــام ، وافتتح حصن موله ، واستولى على سبى كثير ومغانم كثيرة ، وعاد الى قرطبة ، فبعـــد صيته واشتهر ذكره بين الخاصـــة والعـــامة ، وتضاءل شأن المصحفى منذ ذلك الوقت(٤٥)

---

(٤٣) العـــذرى ، المصـــدر نفسه ، ص ٧٤ ــ ٧٨ ، الحميدى ، جـــذوة المقتبس ، ص ٢٤ ، ابن سعيد ، المصـــدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٩ ، الضبى ، بغية الملتمس ، ص ١٠٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٤٥ .

(٤٤) العـــذرى ، المصـــدر نفسه ، ص ٧٤ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ج ٤ ، ص ٤٤ ،

٤٥ ، ابن عـــذارى ، المصـــدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ ــ ٣٩٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢، ص ٦١ ، Dozy, op. ict., pp. 476 - 477.

وقام ابن أبى عامر بغزوتين فى عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، افتتح فى الأولى حصن أرنيق وخرب مدينة سلمنقة من أعمال مملكة ليون ، فكافأه الخليفة بأن رفع راتبه وقلده منصب ذى الوزارتين . وأراد ابن أبى عامر أن يثبت للجميع جدارته ، فقام فى نفس العام بغزوته الثانية الى نبرة وبرشلونة ، وتوالت غزواته بعد ذلك حتى اصطدم بصهره غالب الناصرى قائد الثغر الأوسط ، والذى استعان بنصارى الشمال فى صراعه ضد ابن أبى عامر ، وتقابل الطرفان عند أنتيسة قرب مدينة سالم ، وانتصر ابن أبى عامر عام ٣٧٠ هـ ، وقرر معاقبة ليون على مساعدتها لخصمه غالب (٤٦) .

تقدمت قوات المنصور بن أبى عامر ، وعلى مقدمتها عبد الله بن عبد العزيز الذى استطاع أن يحاصر سمورة (زامورة Zamore) فى يولية عام ٩٨١ م / صفر ٣٧١ هـ . ورغم أن المسلمين لم يستطيعوا الاستيلاء على القلعة ، الا أنهم أخذوا ثأرهم تماما . فقد أحرقوا أرياف المدينة وقتلو أربعة آلاف مسيحى ، وأخذوا مثل هذا العدد أسرى ، وفى احدى جهاتها دمروا عددا كبيرا من القرى بما فيها من بيع وديارات وكنائس وعادوا الى قرطبة ظافرين (٤٧) .

وعلى الفور دخل ملك ليون ردمير الثالث الذى لم يبلغ العشرين بعد فى تحالف مع غرسية فرناندوز كونت قشتالة ، ومع ملك نبرة شانجة بن غرسية المعروف بسانشو أباركا Sancho Abarka ، ولذلك يسمى العذرى هذه الغزوة بأنها غزوة الثلاث أمم ، وزحف الحلفاء الثلاثة على ابن أبى عامر الذى قابلهم عند روطة Rueda الى الجنوب من سيمنقة Simancas قرب أحد فروع نهر دويرة ، فى صفر

---

(٤٥) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ ـ ٧٧ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٩٨ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٦٢ ـ ٦٥ .
Dozy, op. cit., p. 497.

(٤٦) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٧ ، ، ابن الأبار ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢١٦ ، Dozy, op. cit., p. 497 ويلاحظ أن العذرى يجعل المعركة فى شهر صفر عام ٣٧١ هـ ، بينما يجعلها ابن الأبار فى المحرم . والأول صحيح لانه اقرب للاحداث .

من عام ٣٧٢ هـ / يونيه ٩٨٢ م . وانتصر ابن أبى عامر واستولى المسلمون على سيمنقة واستورقة ، وعاد المنصور ومعه أحد عشر ألفا من الأسرى حيث احتفل به الخليفة وخلع عليه لقب المنصور (٤٨) .

وفى ربيع الأول من نفس العام (٣٧٢ هـ / سبتمبر ٩٨٢ م) زحف المنصور على مدينة ليون نفسها واستطاع ردمير أن يمنع تقدمه . وعندما رأى المنصور تقهقر قواته ، أعلن غضبه وألقى بنفسه على الأرض من فوق منصته التى كان يجلس عليها . وأثار هذا المنظر حماس جنده ، فألقوا بأنفسهم على الأعداء الذين أخذوا فى الهرب ، وطاردهم المسلمون حتى أبواب مدينة ليون . لكن عاصفة ثلجية شديدة هبت فى ذلك الحين ومنعت المسلمين من الاستيلاء عليها ، وعادوا الى قرطبة ظافرين (٤٩) .

ازاء هذه الهزائم المتكررة ، ساءت الأحوال فى ليون وثار النبلاء وعزلوا ردمير الثالث عن العرش ، وتوجوا ابن عمه برمند الثانى (٣٧٢ـ ٣٨٩ هـ / ٩٨٢ ـ ٩٩٩ م) على العرش ، ونشبت الحرب الأهلية بين الملكين ، ولم توقف الا بوفاة ردمير فى عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م ، وحاولت أمه أن تحكم بمساعدة من المنصور لكنه رفض ذلك ، وتقدم برمند نفسه تحت حماية المنصور الذى ساعده على مقاومة بعض النبلاء الذين لم يعترفوا بسلطته ، وعقد له المنصور على سمورة وليون ، وبذلك أصبح تابعا للمنصور وأصبحت ليون امارة تابعة له أيضا (٥٠)

---

(٤٧) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٨ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٦٧ ،
Dozy, op. cit., 497.

(٤٨) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٨ ،
Dozy, op. cit., p. 498.

(٤٩) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ، القلقشندى ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٦٥ ،
Dozy, op. cit., p. 500, Livermore, op. cit., p. 88

وانتهز المنصور فرصة الحرب الأهلية فى ليون ، وقـام بعدة حملات على سيمنقة (شنت مانكش) ، وعلى سلمنقة ، وعلى احدى نواحى شقوبية التى تسمى (شقرمنية) ، وعلى زامور (سمورة) . وكان البربر من صنهاجة قد وصلوا الى الأندلس ووجههم المنصور للغزو فى جليقية ، فذهبوا وخربوا كثيرا من النواحى ثم عادوا الى قرطبة ، ثم عادوا مع جيوش المنصور للاغارة على ليون من جديد ، وهزموا جيوشها وأصابوا من السبى ثلاثين ألفـا . ويبدو أن هذا النشاط الحربى المكثف هو الذى دفـع ملك ليون الجـديد الى وضع نفسه تحت حماية المنصور كما تقدم (٥١) .

لم يدم السلم طويلا بين ليو نوقرطبة ، اذ سرعان ماتجددت الحرب بين الجـانبين ، فيذكر العذرى أن المنصور قام بحملتين ضد ليون عام ٣٧٦ هـ ، صالح فى احداها سمورة ، وهاجم فى الأخرى قلنبرية Coimbra وهى التى تسمى عادة قلمرية . وفى نفس الوقت فقـد عامل جنـود الحامية الاسلامية فى ليون أهلها على أنها مدينة محتلة ، واشتكى برمند الثانى من ذلك للمنصور . لكنه لم يهتم بشكواه ، فنفد صبر الملك وطرد الحـامية الاسلامية واعتبر المنصور ذلك اعلانا بالحرب من جـانب ملك ليون ، وأراد أن يعطيه درسا فى الطـاعة ، فهاجم قلمرية عام ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م واستولى عليها ودمرها تدميرا شديدا لدرجة أنها ظلت مهجـورة سبع سنوات(٥٢) .

وفى العـام التالى (٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) تقـدم المنصور وعبر نهر دويره (الدورو) واستولت جنوده على استرقة ، ثم اقتحموا العاصـمة ليون كاعصار ، حاملين معهم الموت والدمار . حطموا المدن والقلاع والأديرة والكنائس والبيع . وباختصار لم يبقوا على شىء ما . وكان ردمير الثـالث قـد قذف بنفسه الى سمورة فقـد كان لايشك فى أن المسلمين سيبدأونها

---

(٥٠) العـذرى ، المصـدر نفسه ، ص ٧٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ١٢ .

(٥١) العـذرى ، المصـدر نفسه ، ص ٨٠ ، ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ ،

Dozy, op. cit., p. 505

بالهجوم لأنهـا فى طريقهم ، لكن المنصور مر بهـا وحطـم ليون أولا ، واقتحمتها قواته بعـد مقاومة دامت أربعـة أيام بسبب حصانتها ، وجرت مذبحـة قتل فيهـا الكونت الجليقى جونزالفو جونثالث ، الذى كان يتولى الدفـاع عن المدينة ، وانتهت المذبحـة ليبدأ التدمير . باختصار لم يبق حجر على حجر فى المدينة . ثم انسحب المنصور راجعـا الى سمورة فهرب منهـا الملك وقام السكان بتسليم المدينة للمنصور الذى سلمها بدوره للنهب والسلب ، واعترف جميع كونتـات مملكة ليون بالمنصور سيدا لهم(٥٣)

ظل السلام قائما على الجبهـة الليونية الأندلسية حتى قام عبد الله بالتآمر على أبيه المنصور عام ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م ، ولمـا اكتشفت المؤامرة فر عبد الله الى أمير قشتالة ، وفر زميله عبد الله بن عبد العزيز المروانى هاربا الى برمند الثالث ملك ليون . وفى هذا الوقت كانت سلطة الملـك اسمية . اذ أن النبلاء كانوا قد استقلوا بمقاطعاتهم ، وأقام الملك فى مدينة استورقة Astorga بعـد تخريب ليون فى الغزوة الاسـلامية السابقة ، وكان المنصور قد خرج على رأس قواته لمهاجمة قشتالة وليون حتى تسلم اليه المتآمرين ، وما أن شعر برمند باقتراب جيوش المنصـور حتى انهـار وتخلى عن المدينة وطلب السلام الذى حصل عليه نظير أن يسلم عبد الله المروانى ، وأن يدفع الجزية(٥٤) .

أما أشهر غزوات المنصور بن أبى عامر على الاطلاق ، فهى غزوة شنت ياقب عام ٣٨٧ — ٩٩٧م وكانت شـنت ياقب بمثـابة الكعبـة عند المسـلمين ، فبهـا يحلفـون واليهـا يحجـون من جميـع أنحـاء أسـبانيا وأوروبـا ، بل ومن قبـط النوبـة ومصر . وخرج المنصـور اليهـا فى غزوتـه الثامنة والأربعين ، ووصل الى ولاية جليقية حيث وفد اليه عدد كبير من القوامس (الكونتات) المتمسكين بطاعته . ويبدو أن

---

(٥٢) ابن الفرضى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٠ ، الضبى ، المصدر نفسه ، ص ٧٣ ، ٧٤ ؛
Dozy, op. cit., pp. 505, 506

(٥٣) ابن الأبار ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢١٨ — ٢٢٠ ،
Dozy, op. cit., p. 509.

سبب الغزوة هو أن برمند انتهز فرصة تمرد زيرى بن عطية فى بلاد المغرب وأعلن العصيان ، فأراد المنصور أن يعاقبه عقابا رهيبا بأن يدك تلك المدينة المقدسة وأن يصل الى أقصى مكان لم يصل اليه مسلم من قبل ، وأن يبرهن لأعدائه فى أفريقيا أيضا أنه قادر على القتال فى جبهتين فى وقت واحد (٥٤) .

وفى يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة من عام ٣٨٧ هـ / ٣ يونية ٩٩٧ م أقلع المنصور من قرطبة سالكا طريق قورية وبيزو Vieseu ثم الى أوبورتو Oporto حيث وجد أسطوله الذى كان قد أبحر من قصر أبى دانس على ساحل الأندلس الغربى ، وعبر المنصور المنطقة بين دويرة والمنهو Minho دون صعوبات ، لانها كانت تخص الكونتات الموالين له . وقد اكتشف المنصور وجود بعض الجواسيس بين النصارى الذين قد وفدوا اليه من قبل كمرتزقة ، فأعدمهم وانطلق وعبر نهر المنهو وحطم بعض المدن التى لاقاها فى طريقه ، حتى وصل الى مدينة شنت ياقب والتى يعرف اسمها بسنتياجودى كومبو ستيلا Santiago de Compostela فوجدها خالية من السكان وأعمل المسلمون فيها يد الهدم وتركوها قاعا صفصفا ، لكنهم لم يمسوا قبر القديس يعقوب بسوء ، بل ان المنصور عين من يحرسه (٥٥).

انسحب المنصور من مدينة شنت ياقب (سنتياجو) ومال فى طريقه الى بعضك الأراضى التى تخص الملك برمند ، فعاث فيها حتى وصل الى حصن مليقة أو لا ميجو Lamego ، حيث خلع على الكونتات الموالين له ، وانسحب عائدا الى قرطبة ومعه عدد ضخم من المسيحيين يحملون على

---

(٥٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٤١ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ ،

Dozy, op. cit., p. 516.

(٥٥) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٧ ، المقرى ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٤١ ـ ٤٤٣ ،

Dozy, op. cit., pp. 517-519.

اكتـــافهم بوابات سنتياجو واجراس الكنيسة التى عملت مشاعل لاضـــاءة المسجد الجـــامع بقرطبة ، وقام المنصور وأسكن المسلمين مدينة سمورة بعـــد ذلك بعـــامين ، وولى عليها أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبى وصار أهل جليقية جميعـــا فى طاعته ، وكان حكامهم كالعمال لديه (٥٦) .

ولم يلبث أن مات برمند ملك ليون عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م ، وتـــرك طفلا صغيرا يسمى الفونش حيث قام الصراع بين النبلاء على الوصاية عليه ، وانتقل مركز الثقل السياسى الى قشتالة التى أصبح بلاطها أقوى بلاط فى شمال أسبانيا النصرانية فى ذلك الوقت . ولم يلبث أن مات المنصور أيضـــا عام ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م فتنفس ملوك النصار... جميعا الصعداء لأنهم كانوا يكرهونه من أعماق قلوبهم لدرجة أن أحـــد كهنتهم كتب فى حولياته « مات المنصور ودفن فى الجحيم » (٥٧) .

تولى الحجـــابة بعـــد المنصور ابنه عبد الملك المظفر (٣٩٢ ــ ٣٩٩ هـ) واستغل كراهية كونت قشتالة لكونت جليقية الذى فاز بالوصاية على ملك ليـــون وعقـــد معه صلحـــا عام ٣٩٣ هـ ، وجرد عبد الملك حملة فى نفس العـــام على قلمرية المواجهة لأرض جليقية ، وبعـــد ذلك بعـــامين أعد حملة كبرى وقـــام بالهجوم على جليقية من أعمال مملكة ليون ، ومعـــه شانجـــة أمير قشتالة ، يدله على نقط الضعف التى يمكنه أن ينفذ منها الى أمنع المعـــاقل ، فدله على مدينة ليونة Luna لكنه لم يظفر بهـــا لمنعتها الشديدة ، واستطاع قائده « واضح » أن يحتل مدينة سمورة وأن يحـــرق ما يحيط بهـــا ، وعاد ومعه من السبى ألفين عدا الأموال والغنائم . وعاد المظفر دون أن يظفر بكونت جليقية . (٥٨)

---

(٥٦) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٤٣ ، ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٨١ ، المقرى ، المصـدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ ،
Dozy, op. cit., p. 520, Crow, op. cit., p. 64.
Murphy, op. cit., p 113.

(٥٧) Crow, op. cit., p. 63.

(٥٨) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١١٤ .

مات المظفر بعد ذلك ببضع سنوات (٣٩٩ هـ) وتولى أخوه عبد الرحمن المأمون المعروف بشنجول ، نسبة الى جده شانجه ملك نبره ولم يكن عبد الرحمن فى مقدرة أخيه أو كفاءة أبيه ، وارتكب غلطة العمر اذ أجبر هشام المؤيد على تعيينه وليا للعهد ، فأثار بذلك الأمويين والشعب جميعا ، ثم ذهب الى جليقية يغزوها ويوغل فيها ، ولم يقدم جيشها على لقائه وانما اعتصم كونت جليقية بالجبال ، ولم ينقذه من أيدي القوات الاسلامية الا نبأ الثورة التى قامت فى قرطبة ضد عبدالرحمن شنجول وضد الخليفة هشام المؤيد معا . فعاد عبد الرحمن الى قرطبة حيث تم صلبه على أحد أبوابها فى رجب من عام ٣٩٩ هـ . وبذلك انتهت دولة بنى عامر ، وبدأ انهيار الخلافة الأموية (٥٩)

بهذا نرى أثر الأوضاع الداخلية فى كل من الأندلس الاسلامية فى عهد الخلافة ، وفى مملكة ليون النصرانية ، على الصراع الذى دار بينهما وما انتهى اليه ذلك الصراع من اضعاف لتلك المملكة وتدمير لمعظم مدنها حتى أن جل ملوكها طلبوا السلام والأمان من حكام قرطبة ، ولم يثبت للخلافة فى عدائه الا مليكان هما أردون الثانى (٣٠١ — ٣١٢ هـ / ٩١٤ — ٩٥٤ م) وردمير الثانى (٣١٩ — ٣٣٩ هـ / سكـ — ٩٥١ م) ، حيث استطاعا أن يحرزا بعض الانتصارات على الخلافة فى مستهل قيامها . وقد تراجعت حدود ليون الى الوراء ، واستولى المسلمون على سمورة وسلمنقة وأسكنوهما بالمسلمين ، واحتلوا مدينة ليون نفسها عدة سنوات ، وبذلك كانت نتيجة الصراع فى صف الخلافة(٦٠) .

ب — علاقة خلفاء بنى أمية بمملكة نبرة (نافار) :

عاصر الناصر أول خلفاء بنى أمية (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م) ملكين من ملوك نبرة هما شانجة بن غرسية الأول (٢٩٠ —

---

(٥٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، ٩٧ ، ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار ج ١٥ ، قسم ٢ ورقة ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، الضبى ، المصدر نفسه ، ص ١٩ .
Dozy, op. cit., p. 544.

(٦٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ٢٦٦ .

٣١٤ هـ / ٥٩٠ — ٩٢٦ م) وابنه غريسيه بن شانجة (٣١٤ — ٣٥٩هـ / ٩٢٦ — ٩٦٩ م) . وكان أولهمـا من أقـدر ملوك نبرة ، اذ استطاع بالمصاهرات التى نشأت بينه وبين أمراء الثغر الأعلى (سرقسطة) من المولدين من بنى قسى وغيرهم ، أن يضرب الخلافة بهؤلاء الأمراء ويحقق بعض الانتصارات ، ولو حاول هؤلاء الأمراء أن يتمردوا عليه كان فى امكانه اخضاعهم لأن بلادهم تحت قدميه وقريبة من بلاده ، وكان فى قـدرته الاغـارة عليها فى أى وقت ، لأنها من المناطق البعيدة جدا عن مركـز الخـلافة ولذلك كانت معاناتها شديدة من هجمات ملوك نبرة .

استغل ملك نبرة انشغال الناصر فى ضرب قوى الثوار داخل الأندلس نفسها واغار على مدينة تطيلة عام ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م ، وقتل من أهلها الف فارس ، واسر أميرها عبد الله بن محمد بن لب القسوى فى أحـد الكمـائن ، فتولى حكم تطيلة أخوه مطرف ، وافتـدى عبد الله نفسـه بالتنازل لملك نبرة عن حصن البراة بفالجش وقبروش ، وارتهن ابنته وولده فرتون ، لكنه مات بعـد شهرين من اطلاق سراحه بتأثير السم الذى أطعمه له شانجة فى بمبلونه أثنـاء أسره (٦١) .

وقد اشترك ملك نبرة شانجة بن غرسية الأول مع ملك ليون أردون ابن الفونس الثالث عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م فى الهجوم على مدينـة ناجـرة Najera بالثغر الأعلى ، ثم انتقـلا الى تطيلة ، ووصلا الى رافـد كالش ووادى طرسونة جنوب نهر أبره ، ثم انفصل شانجه بقواته وعبر نهر أبره شمالا ، وقاتل حصن بلتيرة وحطم ربضه واحرق مسجـده الجـامع ، ممـا أحفظ الناصر وجعله يرسل الحملة المعروفة بحملـة مطونية Mitonia بقيـادة حاجبه بدر بن أحمد عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م ، وكتب الى أهل الثغور بضرورة الاشتراك فى هذه الحملة لأخـذ

---

(٦١) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٨ ، ابن عـذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

ثأر قائـــده ابن أبى عبده الذى استشهد هو ورفاقه فى قشتالة فى العـــام السابق ، ولرد اعتـــداء نصارى نبره وليون على منطقـــة الثغر الأعلى(٦٢)

ولم يكن تطـــاول نصارى نبرة بهـــذا الشكل الا استغلالا للظروف الداخلية التى كانت تمر بهـــا الاندلس فى ذلك الوقت ، كما تحـــالف معهم مولدو الثغر الأعلى من بنى الطويل ، وأعطوهم الفرصة لكى يستولوا على حصن منت شون عام ٣٠٧ هـ . ويبدو أن حملة بدر السابقة لم تشـــف غليله ، فقـــام بنفسه على رأس قواته عام ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م فى غزوة تعرف بغزوة مويش ، عن طريق مدينة الفرج ومدينة سالم ، ثم عطف على البة والقلاع (قشتالة) ، ودمر المسلمون حصن أوسمه (وخشمة) وحصن شنت اشتبين (قاشتر مورش) ومدينة قلونية ، ثم زحف الناصر بعد ذلك الى الثغر الأعلى لنجـــدة مدينة تطيلة من اعتداءات ملك نبرة ، وأرسل محمد بن لب القسوى على رأس فرقـــة من الفرسان ، فاستولى على حصن قلقرة ، ثم استولى الناصر على حصن قلهرة ، وفر شانجة معتصما بالجبـــال بعـــد أن هزم هزيمة ساحقة(٦٣) .

استنجد ملك نبرة باردون ملك ليون الذى هب لنجـــدته لكنهما هزما معا فى سهور جونكيرة Junquera ، وقضى المسلمون على مقاتلى حصن مويش ، وساروا الى حصن آخر اتخذه شانجة لمضايقة أهل بقيرة Vijuera واستولوا عليه ، وأخذ الناصر فى تفقـــد حصون المسلمين على حدود نبرة وزاد فى تحصينها ، وهدم حصون النصارى المجاورة لها فى مساحة تبلغ عشرة أميـــال مربعـــة ، وحاز المسلمون غنائم وأموالا لايحصيها العـــد ، حتى أن القمح كا نيعرض ستة أقفزة بدرهم ، فلا يوجد من يشتريه ، وتخلص المسلمون من الاطعمة بحرقها لكثرتها وعـــدم الحاجة اليها . وبذلك أعطى الناصر درسا قاسيا لملكة نبرة وعاد الى مدينة أنتيسة ، حيث خلع على

---

(٦٢) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٥٨ .

(٦٣) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .
Dozy, op. cit., p. 420.

حماة الثغر ورجاله ، وعاد الى قرطبة بعد أن بلغت غزواته تسعين يوما(٦٤) .

ورغم هذه الضربة القاسية التى نزلت بالنافاريين فى حملة عام ٣٠٨ هجرية / ٩٢٠ م الا انهم عادوا الى التحرش بحصون الثغر الاعلى المجاورة لهم . ففى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م هاجم ملك نبرة حصن بقيرة (فجيرة) Viguera وأسر محمد بن عبد الله بن محمد بن لب القسوى ومطرف بن موسى بن ذى النون وابن عمه محمد بن محمد ، ويحيى بن أبى الفتح وكثيرا من وجوه العرب والمولدين والبربر ، وسجنهم فى بمبلونة ثم ذبحهم عن آخرهم ، وسقط حصن فجيرة فى يده(٦٥) .

وكان قتل هؤلاء الزعماء وسقوط فجيرة مثيرا جدا لدرجة انه فجر غضب أهل الاندلس جميعا ، ورموا عبد الرحمن الناصر بالتهاون فى الدفاع عن حماة الثغور ، فصمم الناصر على الانتقام لهذه الكارثة ، وزحف بجيوشه على بمبلونة عاصمة مملكة نبرة عام ٣١٢هـ / ٩٢٤م ، وهى الغزوة المعروفة بغزوة بمبلونة ، ومر الناصر فى طريقه بكورة تدمير وبلنسية ، وقضى على الثوار الموجودين هناك ، ثم دخل تطيلة ، وخرج اليه بنو تجيب وغيرهم من عمال الثغر فى جنود وفيرة وعدة كاملة ، وقصدوا جميعا حصن قلقرة Carcer فأخلاه شانجه وانتقل الناصر الى حصن ببطرة آلته Peratla وحصن فالكجش Falces وقرقشتال Carcaseilla على وادى أرغون وحطمها وأحرق أرياضها وسبى أهلها(٦٦) .

اخترق الناصر بعد ذلك فج المركوير قاصدا العاصمة بمبلونة واستولى فى طريقه على قرية بشكونسة مسقط رأس شانجة وأسرته وأحرقها

---

(٦٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٩ .

Dozy, op. cit., p. 421.

(٦٥) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٩ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ .

Dozy, op. cit., p. 422.

(٦٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٧٧ – ٢٧٩ .

Dozy, op. cit., p. 422.

واجتاز الناصر ممرات جبلية ضيقة ، حاول فيها شانجة التصدى للمسلمين ، لكنه أصيب بهزيمة قاسية ووصل المسلمون الى بمبلونة فوجدوها خالية مقفرة ، قد فر عنها سكانها ، فأمر الناصر بهدم جميع مبانيها وتخريب كنيستها . وتلقى شانجه عند ذاك مساعدة من قشتالة وهاجم الجيش الاسلامى أثناء عودته مرتين ، مرة عند شنت اشتبين والأخرى عند قلهرة . الا أن المسلمين هزموهم واستولوا على حصن قلهرة وهدموه ، ثم دخلوا الأراضى الاسلامية عند حصن بلتيرة ، وعاد الناصر بعد أن دمر بمبلونة وسحق قواتها وأخضع حكامها(٦٧) .

لم يعمر ملك نبرة شانجة بن غرسية الأول طويلا بعد هذه الهزيمة القاسية ، اذ مات بعد عامين ، فتولى ابنه الطفل غرسيه (٣١٤ — ٣٥٩ ٩٢٦ — ٩٦٩ م) عرش نبرة تحت وصاية أمه الملكة تيودا Tueda التى تعرفها الروايات الاسلامية باسم طوطة ، واستتب السلام بين الجانبين لمدة عشر سنوات ، انشغل الناصر فيها بقمع المتمردين فى الأندلس ، وانشغلت فيها ليون بحرب أهلية بسبب التنازع على العرش ، ولم يكن أمام الملكة طوطة الا أن تستكين حتى تحين الفرصة المناسبة للانتقام من عبد الرحمن الناصر(٦٨) .

وجاءت الفرصة عندما تمرد بنو تجيب على الخلافة ، وتحالفوا مع ملك ليون ومع الملكة طوطة ، واتحد الشمال كله مسلموه ومسيحيوه ضد الناصر منذ عام ٣٢٢ هـ . فزحف الناصر عليهم فى العام التالى وقضى على تمرد بنى تجيب ، ثم زحف على بمبلونة عام ٣٢٥ هـ لعقابها ، فحاصرها وخرب مبانيها ودمر حصونها وسحق كل مقاومة للملكة طوطة ، فاضطرت الى تقديم ولائها للناصر الذى اقر ولدها غرسية ملكا على

---

(٦٧) ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ — ٢٨٣ ، ابن الفرضى ، المصدر نفسه ، ص ٣٥ ، Dozy, op. cit., p. 422, Murphy, op. cit., p. 96.

(٦٨) انظر ، الفصل الثانى من الباب الثانى ، ص

نبرة . وبذلك انهارت الجبهة الشمالية الشرقية المتحالفة ضد الناصر(٦٩)

وحانت فرصة أخرى انتهزتها تلك الملكة العنيدة عندما وقع الصدام بين عبد الرحمن الناصر وبين ردمير ملك ليون عام ٣٢٧هـ / ٩٣٩ م . حينئذ قررت الملكة طوطة اغتنام الفرصة واشتركت بقواتها مع ملك ليون ناكثة لعهودها مع الناصر . وبذلك اتحدت قوى أسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى ، واستطاعت الايقاع بجيش الناصر عام ٣٢٧ هـ فى واقعة الخندق المشهورة ، حيث منى الناصر فيها بهزيمة ساحقة جعلته يركز كل جهوده ضد مملكة ليون خلال السنوات العشر التالية . وظلت نبرة فى حالة سلام مع الناصر حتى قامت الحرب الأهلية فى ليون بسبب التنازع على العرش عام ٣٤٦ هـ / ٩٥٤م (٧٠)

هنا تخرج الروايات الاسلامية عن صمتها الذى التزمته بالنسبة لملكة نبرة ، وذكرت نشاطها فى اعادة حفيدها شانجة ملك ليون المخلوع وقررت أن تنزل عن كبريائها وتأتى مع ابنها ملك نبرة وحفيدها ملك ليون الى قرطبة عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م ، لتلتمس من عاهلها مساعدته فى اعادة حفيدها شانجة الى عرشه ، ولتعقد لنفسها عهدا بالصلح والسلام مع الناصر . ذلك أن الخلافة كانت قد أرسلت فى العام السابق القائد غالب الى نبرة ، حيث افتتح عددا من حصونها وخرب كثيرا من قراها ، وبذلك عادت نبرة للطاعة مرة أخرى(٧١)

بعد موت الناصر وجدت الملكة طوطة الفرصة سانحة لأن تشترك فى التمرد الذى أعلنه حفيدها ملك ليون ضد الحكم المستنصر ، فزحف اليها القائد غالب واستطاع أن يدمر جيشها ويستولى على حصن قلهرة عام ٣٥٤ هـ . فعادت الملكة الى صوابها وعادت تطلب السلام من جديد ،

---

(٦٩) ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ، المقرى ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٩ . Murphy, op. cit., p. 97.

(٧٠) انظر ، الفصل الثانى من الباب الثانى ،

(٧١) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٣ ، المقرى ، النفح ، ج ١ ص ١٧٠ ، Hole, Spain under the Moslems, pp. 90-39.

وأرسل ابنها غرسيه بن شانجة ملك نبرة بعثة من الاساقفة والقوامس يطلبون الصلح ويجددون معاهدة السلام ، وظل غرسيه على ولائه للمستنصر حتى مات وخلفه ابنه شانجه على عرش نبرة (٣٥٩ — ٣٨٤ هـ ٩٦٩ — ٩٩٤ م) وظل هو الآخر محافظا على عهد ابيه مع الخلافة حتى مات المستنصر عام ٣٦٦ هـ [٧٢] .

تولى الخلافة بعد المستنصر ابنه الطفل هشام المؤيد ، وقام الصراع بين الحاجب المنصور بن أبى عامر وبين القائد غالب على السلطان ، وانتهز نصارى الشمال فى ليون الفرصة واغاروا على الثغور فجرد اليهم المنصور حملة سماها غزوة الغابرة فى شوال من عام ٣٦٧ هـ ، مايو ٩٧٨ م . وكانت هذه الغزوة موجهة لضرب ليون وبمبلونة وبرشلونة اذ تفرعت عنها حملات صغيرة لضرب كل جهة من هذه الجهات على حدة . ويبدو أن هذه الغزوة كانت السبب الذى دعا شانجه ملك نبرة لأن ينقض اتفاقه مع الخليفة الراحل ، وينضم الى ملك ليون فى مساعدته للقائد غالب غريم المنصور بن أبى عامر . لكن المنصور استطاع أن يهزمهم فى ذى القعدة عام ٣٧٠ هـ عند أنتيسة قرب قلعة ايوب وأن يقتل ابن ملك نبرة . فاضطر هذا الملك لأن يرسل رسله للصلح مع المنصور وأرسل معهم احدى بناته لتكون زوجا له [٧٣] .

ورغم هذا النصر فقد صمم المنصور على عقاب ليون ونبرة . أما ليون فقد حطم جيوشها واحرق أرياض سمورة وخرب عددا كبيرا من القرى بلغ ألف قرية فى تلك الناحية ، فتحالف ملك ليون مع نبرة وقشتالة ضد المنصور عام ٣٧٢ هـ وزحفت جيوشهم للقائه ، فهزمهم جميعا عند روطة جنوب غرب سيمنقه ، وعاد ملك نبرة الى بلاده يجر

---

(٧٢) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٤٥ ؛
Livermore, op. cit., p. 97.

(٧٣) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٧ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٦٣ ، ٦٥ ؛
Livermore, op. cit., p. 98.

أذيال الخيبة والفشل ، وكان عليه أخيرا أن يأتى الى قرطبة ليقدم اعتذاره ويعلن طاعته لصهره المرعب ، المنصور بن أبى عامر ، وقضى بقية عمره فى سلام حتى توفى عام ٣٨٤هـ / ٩٩٤م (٧٤) .

لكن الأستاذ عنان يشير الى هزيمة للمنصور تمت على يد شانجة ملك نبرة عام ٣٧٦ هـ / ٩٨٧ م . ولم نجد فى مصادرنا ما يشير الى ذلك ، بل ان هناك من يقول بأن المنصور غزا نبرة عام ٣٧٩ هـ فى غزوة تسمى غزوة البياض . ويبدو أن الأستاذ عنان يشير الى حملة لم يذكر أسمها المؤرخون ، وانما أتوا بوصف لها ، ويقولون بأن المنصور غزا فى بلاد الفرنج — وكان بعضهم يسمى الأسبان فرنجا وروما وأعاجم — وأخذ ينسف ويدمر ويخرب ويتوغل فى بلادهم ، وعند عودته وجد الافرنج قد قطعوا عليه خط الرجعة وكمنوا له عند مضيق بين جبلين لابد له من اجتيازه (٧٥) .

ولما رأى المنصور ذلك ، احتال عليهم وأظهر انه ينوى الاقامة فى هذا المكان ، ففاوضوه حتى يرحل عنهم ، وانتهت المفاوضات بأن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبى ، وأن يمدوه بالميرة حتى يصل الى بلاده ، وأن يطهروا له الطريق من جثث قتلاهم ، ففعلوا ذلك وعاد المنصور الى قرطبة . ويمكن أن يكون الأستاذ عنان قد اعتبر ذلك هزيمة للمنصور ، لكن المنصور لم يخسر شيئا بل عاد وافر الكرامة بما معه من سبى وغنائم(٧٦) .

تولى عرش نبرة بعد وفاة شانجة ابنه غرسيه (٣٨٤ — ٣٩٠ هـ / ٩٩٤ — ١٠٠٠م) ، ولم يكن هذا الملك فى مقدرة أبيه ، فقد أطلقت عليه الرواية النصرانية لقب غرسيه المرتعد ، ولم يحاول هذا

---

(٧٤) Livermore, op. cit., p. 98.

(٧٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٢١ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، محمد عبد الله عنان ، تاريخ العرب فى اسبانيا ، ص ١٦٧ .

(٧٦) نفس المصادر والصفحات فى الحاشية السابقة .

الملك الضعيف أن يرفع صوته ضد المنصور وانما اكتفى بأن أقام معه ومع جيرانه من أمراء قشتالة علاقات الصداقة . ويكفى ما تشير اليه الرواية الاسلامية من رعبه وفزعه عندما سمع بقدوم المنصور لانقاذ امرأة أسيرة فى احدى كنائس نبرة ، لأن أسرها يعتبر اخلالا باتفاق السلام المعقود بين الطرفين ، ساعتها انهار ملك نبرة وأقسم بأغلظ الايمان انه لا يعرف بوجود تلك المرأة المسلمة فى البلاد ، وقام بهدم الكنيسة التى كانت تخدم فيها ، وأرسل للمنصور بذلك ، فاستحيى المنصور وعاد الى قرطبة (٧٧) .

مات ذلك الملك الضعيف وخلف ابنا صغير السن يسمى شانجه على عرش نبرة . ولما كان شانجة طفلا لم يتجاوز الرابعة من عمره ، فقد رحل مع امه الملكة خمينا ذات الأصل القشتالى الى برغش عاصمة قشتالة ، حيث تربى هناك ، وزوجه الكونت شانجه غرسية ابنته الكبرى البيرة ، وتبوأ شانجة عرش نبرة باسم شانجة الأول (٣٩٠ — ٤٢٩ هـ/ ١٠٠٠ — ١٠٣٩ م) ولم يلبث أن مات المنصور بعد ذلك بعامين وخلفه فى الحجابة ابنه عبد الملك المظفر الذى اتبع سياسة أبيه فى القاء الرعب فى قلوب نصارى الشمال ، حتى لايفكروا فى مهاجمة الثغور الاسلامية (٧٨) .

وتنفيذا لهذه السياسة قام المظفر بعدة حملات على برشلونة عام ٣٩٣ هـ ، وعلى جليقية عام ٣٩٥ هـ ، وجاء دور نبرة عام ٣٩٦ هـ ، فقد خرج اليها عبد الملك المظفر غازيا الى بمبلونة عاصمة نبرة فى شوال من هذا العام ، وعندما وصل الى ارض المملكة بدأ بالاغارة الى أرياض حصن أبنيونش ، ففر أهله عنه وهدمه المظفر ورحل عنه الى حصن شنت بوانش وأحرق أرياضه أيضا ، لكنه لم يصل الى بمبلونة وعاد الى قرطبة (٧٩)

---

(٧٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٤٤ ، المقرى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٣٩ .

(٧٨) انظر ، الفصل الثانى من الباب الثانى ،

(٧٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٣ .

ويبدو ان المظفر لم يكن موفقا تماما فى هذه الغزوة اذ أن العامة قللت من قيمتها ، لأنه لم يصبهم من ورائها سبى كثير كما عودهم المنصور من قبل ، وصاحوا « مات الجلاب .. مات الجلاب » يقصدون والده المنصور ويعلل ابن عذارى سبب الاخفاق فى هذه الغزوة بظروف طبيعية تتعلق بسوء المناخ وما حدث من عواصف رعدية وثلجية . وقد سبق أن تسببت وعورة تلك المنطقة فى تهديد المنصور بالهزيمة ، ولولا احتياله على النافاريين كما وضحنا لانتهى الى نفس النتيجة التى انتهى اليها ابنه عبد الملك .

وقد شجع هذا الاخفاق أهل نبرة فوضعوا يدهم مع أمير قشتالة الذى استطاع أن يوحد جهد أهل الشمال جميعا عام ٣٩٧ هـ ويدخل بهم فى صراع ضد عبد الملك المظفر ، الذى استطاع أن ينتصر عليهم جميعا فى غزوته التى قام بها فى ذلك العام والتى تعرف بغزوة قلونية ، وعاد منها ليخلع عليه الخليفة لقب المظفر سيف الدولة (٨٠) .

ولم يسفر هذا الصراع الطويل بين مملكة نبرة وبين اندلس القرن الرابع الهجرى الا عن تدمير شامل للعاصمة بمبلونة ولكثير من المدن والحصون النافارية ، وسقوط عدد من الحصون فى يد المسلمين مثل حصن قلهرة وغيره ، وصارت نبرة مملكة تابعة لقرطبة معظم سنى القرن الرابع الهجرى ، واذا كان هناك من يقول بقلة النتائج ، الا أن ذلك لم يكن تقصيرا من حكام الأندلس ، وانما يبرره عمق المقاومة النصرانية التى كانت تتحطم وما تلبث أن تدب فيها الحياة من جديد وترفع لواء الكفاح ، ذلك اللواء الذى تسلمته قشتالة قرب سقوط دولة بنى عامر(٨١)

---

(٨٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٤ - ١٦ .

(٨١) د. حسن محمود ، تاريخ المغرب الاسلامى ، ص ١٤٥ .

جـ – علاقات خلفـــاء بنى اميـــة بامارة قشتالة :

ظهرت قشتالة على مسرح الحياة السياسية فى النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . وكانت قبل ذلك تجاهد لتحقيق استقلالها عن مملكة ليون حسبما تقـــدم عند الحديث عن الأوضاع الداخلية لقشـــتالة . وقـــرب نهـــاية عصر عبـــد الرحمن النـــاصر كانت قشتالة هى التى تقرر من يجلس على عرش ليون . وكانت قشتالة تؤيـــد أحد الطامعين من الأسرة المالكة الليونية ، بينما تؤيد نبرة أخاه أو ابن عمه ممن ارتبط معهـــا غالبا برباط المصاهرة ، وتسعى الى قرطبة لطلب المساعدة كمـــا حدث عندما تقدمت الملكـــة طوطة ملكة نبرة مع ابنها ومع حفيدها شانجة ملك ليون المخلوع على يد كونت قشتالة القوى[٨٢] .

هنا فقط يتردد اسم كونت قشتالة فرنان جونثالث Fernan Gonzalez فى الروايات الاسلامية ، وتقول أنه بعـــد أن انتصر أردون الثالث على أخيه شانجة وتولى عرش ليون عام ٣٣٩ هـ ، تزوج من ابنة كونت قشتالة وعقـــد صلحـــا مع الناصر عام ٣٤٤ هـ ، فطلب منه الكونت أن يتوسط لدى الخليفـــة الناصر ليعقـــد مع قشـــتالة صلحا ممـــاثلا لصلحه ، ولكن موت أردون الثالث فجأة عام ٣٤٥ هـ قلب خطط الكونت ، اذ أن شانجة ارتقى عرش ليون ، ورفض تنفيذ اتفـــاق أخيه أردون الثالث مع الناصر ، فانتهز كونت قشتالة أقوى القوامس فى المملكة الليونية وقام بانقـــلاب ضـــد شانجة ، ووضع ابن عمه أردون الرابع على العرش وزوجه ابنته أرملة أردون الثالث[٨٣] .

ووفدت الملكة طوطة ملكة نبرة مع حفيـــدها المخلوع شانجة الى قرطبة وأعانته قوة اسلامية فى الرجوع الى عرشه عام ٣٤٩ هـ / ٩٥٩م

---

(٨٢) انظر الفصل الثانى من الباب الثانى ، ص

(٨٣) ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤، ص ١٤٣ ، ١٨٠ ، القلقشندى ، المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ٢٦٥ ، المقرى ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٧٠ ، انظر الفصل الثانى ، للباب الثانى ، ص

وقامت قوات نبرة بالهجوم على قشتالة حسب الخطة الموضوعة واسرت أميرها فرنان جونثالث . ولما مات الناصر وتولى الحكم المستنصر عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م حاولت ممالك الثغور أن تحرر نفسها من اسار الخلافة ، فأطلقت نبرة سراح كونت قشتالة الذى أخذ يقوم بالهجوم على ما يجاوره من الثغور الاسلامية وتحالف مع ملك ليون ، لكن المستنصر وجه اليهم حملة عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م عاثت فى قشتالة ، واستولت على قلعة شنت اشتبين ، واجبرت الكونت على طلب السلام (٨٤) .

لم يلبث أن مات كونت قشتالة فرنان جونثالث عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م وقام ابنه غرسية بحكم الامارة (٣٥٩ — ٣٨٥ هـ / ٩٧٠ — ٩٩٥ م) ، ولم تذكر عنه المصادر أى نشاط الا بعد وفاة المستنصر عام ٣٦٦ هـ وقيام الصراع بين المنصور بن أبى عامر وبين القائد غالب . هنا تدخل الكونت الجديد وقاد قواته لمساعدة غالب عام ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ، لكن المنصور هزمهم كما تقدم وقرر عقاب قشتالة . ولما أحس اميرها بذلك دخل فى حلف مع ملك ليون وملك نبرة . لكن المنصور هزمهم عند روطة جنوبى سيمنقة حسبما تقدم عام ٣٧٢ هـ ، واجبر القشتاليين ان يخلوا أتينسة Atienza وسيبولفيد Sepulveda فالتزم غرسية أمير قشتالة جانب الهدوء حتى واتته فرصة جديدة للنيل من المنصور بن أبى عامر(٨٥) .

فقد تآمر عبد الله على أبيه المنصور بن أبى عامر ، وانتهز فرصة انشغال والده فى حصار مدينة شنت أشتبين بقشتالة عام ٣٧٩ هـ ، وفر الى غريسية بن فرنان (غرسية بن فرزلند) صاحب البة (قشتالة) بعد انكشاف المؤامرة ، وحاول أمير قشتالة ان يستغل الموقف لصالحه ووعد عبد الله بالحماية من أبيه ، وحافظ على وعده لمدة عام ، لكن المنصور

---

(٨٤) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٤٥ ، انظر الفصل الثانى ، الباب الثانى ، ص
Livermore, op. cit., p. 88.

(٨٥)
انظر ، الفصل الثانى من الباب الثانى ، ص

جرد عليه الحملات وهزمه واستولى منه على حصن أوسمة (وخشمة) وأسكنه بالمسلمين . عندئذ أعلن غرسيه قبوله لكل شروط المنصور وسلم اليه ابنه عبد الله ، حيث قام رجال المنصور بقتله عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠م[٨٦]

ولم يصفح المنصور لكونت قشتالة اعانته لعبد الله ، وأراد أن يجعله يشرب من نفس الكأس ، وقام بتحريض شانجه على التمرد ضد أبيه الكونت عام ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م ، فأعلن هذا الابن العاق الثورة ضد أبيه ، وأعلن المنصور مساندته على الفور وحاصر حصون سان ستيفان (شنت أشتبين) وكلونيا . ولم يحسم الموقف على الوجه الذى أراده المنصور فعاد الى قرطبة ، ولم يلبث أن أتاه الخبر من صاحب مدينة سالم أنه تمكن من أسر غرسية كونت قشتالة فى كمين أعد له ، وأنه ساقه أسيرا الى مدينة سالم حث مات متأثرا بجراحه ، وأعطيت جثته لابنه عندما وفد على المنصور يطلب الصلح بعد ذلك[٨٧] .

مات غرسية وتولى ابنه شانجة امارة قشتالة (٣٨٥ — ٤٠٧ هـ / ٩٩٥ — ١٠١٧ م) . وقد كان لشانجة هذا شأن عظيم فيما بعد ، وتلقب بلقب الامبراطور ، لكنه أمام المنصور كان مجرد حاكم يدفع الجزية فى هذه الأثناء قام المنصور بأضخم وأشهر حملة ضد نصارى الشمال ، عندما هاجم مدينتهم المقدسة شانت ياقب (سنتياجو) فى أقصى جليقية عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ودمرها تدميرا شديدا ، ويبدو أن هذا الاعتداء على المدينة المقدسة وعلى كنيسة القديس يعقوب قد أثار فيهم روح المقاومة على أشد ما تكون ، ونجحت قشتالة فى انشاء جبهة موحدة ضد المنصور

---

(٨٦) ابن عذارى ، نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٤٢٤ ،
Dozy, op. cit., p. 508.

(٨٧) الحديدى ، جذوة المقتبس ، ص ٢٧٧ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ١٣ ، ٣٠ — ٣١ ، الضبى ، المصدر نفسه ، ص ٢١٠ ، ٢١١ ، أبو الفدا ، تاريخه ، جـ ١ ، ص ١٢٤ ،
Dozy, op. cit., p. 509.

تشمل جميع ملوك النصرانية من بمبلونة فى الشرق ، حتى استرقة فى اقصى الغرب[٨٨] .

كانت القيـادة العليا فى يد أمير قشتالة ، ذلك أن ملك نبرة كان طفـلا يعيش فى بلاط قشتالة ، والفونش الخامس ملك ليون كان أيضـا طفلا تحت وصاية أحـد كونتـات جليقية . ولذلك كانت قشتالة هى محور المقـاومة ومركز الثقل فى الصدام العسكرى مع المسلمين منذ ذلك الحين وكان شانجة قائدا ممتازا الا أنه اختار للمعركة مكانا استراتيجيا هو جبل جربيرة الذى يتوسط امارة قشتالة ويتمتع بحصانة طبيعية ، فهو شـديد الانحـدار من ناحية المسلمين ، ومتصل بسهول ونواح عامرة ، تسهل وصول الميرة من الخلف لجنود قشتالة وحلفائها . ولمـا وصل المنصور ورأى منعة هذا الجبـل ، هاله الأمر وتشاور مع أصحابه ، فاختلـفوا وعاجلهم شانجه بالهجوم ، وركز على الميمنة وأطاح بهـا ، ثم على الميسرة وضربهـا ، وأيقن الجميع بأنها الهزيمة[٨٩] .

كان ابن أبى عامر ذاهل العقل حائر اللب ، لكن وطنيته كانت صادقة، اذ دفع بابنه عبد الملك الى الميمنة بعـد أن قبله وهو يبكى ، لانه موقن باستشهاده ، ثم وجه ابنه الاخر عبد الرحمن ناحية الميسرة ، وتغير سير المعركة بعـد أن رفع المنصور مركز قيادته الى ربوة عالية يشرف منهـا على ارض المعركة ، ولمـا رأى الأعداء شخصه ظنوا أن مددا جديدا أتى المسلمين ، فانهـارت قواهم واخذوا فى الهرب نجـاة بأنفسهم ، وطاردهم المسلمون قتلا وأسرا مسافة عشرة أميال ، واستولوا على جميع ما معهم من سلاح ومتاع ، وذلك فى شعبان سنة ٣٩٠ هـ[٩٠] .

كان النصارى قد أقبلوا الى المعركة ومعهم الحبـال قد أعـدوها ليقرنوا بهـا أسرى المسلمين ، لكن ثبـات جأش المنصور وصبره وقوة

---

(٨٨) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٦٩ ،
Livermore, op. cit., p. 88.

(٨٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٦٩ ، ٧١ .

(٩٠) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧١ ـ ٧٢ .

ايمـــانه ونفاذ بصيرته وشجاعة المخلصين من جنده ، قلبت الهزيمة نصرا مؤزرا ، ومع ذلك فان المنصور لم يواجه طوال حياته حربا أشد وأقسى على نفسه من هذه الحرب التى كاد يصاب فيهـــا بالهزيمة ، والتى اشتشهد فى بدايتها حوالى الثمانمائة من فرسانه ومن رؤساء الجنـــد ووجوه الناس. وقـــد أمر المنصور عقب عودته الى قرطبة كاتب رسائله أن يكتب منشورا يتلى على كافـــة جنـــده الذين كانوا قد أخذوا فى الفرار والهرب فى بداية المعركة ، وكادوا يتسببون فى الهزيمـــة ، وفيه يلومهم ويؤنبهم ويهـــددهم باستبدالهم بغيرهم من المخلصين(٩١)

وكان المنصور عقب احراز النصر فى الموقعة السابقة التى تسمى بموقعة جربيرة نسبة الى الجبل الذى حدثت عنده ، قد توغل فى أرض قشتالة واخذ يدمر كلّ ما يجـــده حتى وصل الى سرقسطة ، ثم عاد الى قشتالة مرة أخرى وصعد منهـــا الى بمبلونة ، حيث فـــر الجنـــد والسكان رهبـــة وفزعـــا من المنصور . وأخذ المنصور يواصل هجماته بعد ذلك علي شانجة زعيم الشمالْ وأمير قشتالة حتى أذعن للطـــاعة واستأذن المنصور فىَ القدوم بنفسه الى قرطبة ، وسر المنصور لمجيئه سرورا شديدا ، واعـــد له استقبالا عظيمـــا اخـــذ بعقل شانجة ، واظهر له قوة الاسلام حتى خفق قلبه ذعرا ورهبة الى أن وصل الى مجلس المنصور ، فقبلْ الأرض بين يديه ، وعاتبه المنصور وصفح عنه وخلع عليه (٩٢) .

ويبدوأن المنصور قد أدرك بثاقب فكره وبعد نظره مدى خطورة هـــذا الزعيم النصرانى شانجة أمير قشتالة ، فقـــام بآخر غزواته ضده فىَ صفر من عام ٣٩٢هـ / ١٠٠٢ م ، وهى الغزوة التى تعرفَ بغزاة قنالش والدير ، لأن المنصور وصلَ فيهـــا الى قنالش فى مقاطعة ريوجة Rioja على مقربة من ناجرة فىَ أرض قشتالة ، أما الدير فالمرجح أنه دير القديس أمليـــان

---

(٩١) النباهى ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٢ ، ٨٤ ، ابن الخطيب ، المصـــدر نفسه ج ٢ ، ص ٦٩ - ٧٤ .

(٩٢) ابن الخطيب ، المصـــدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ .

Emillan . وقد لازمه المرض فى تلك الغزاة ، واشتدت عليه العلة ، ومات فى طريق العودة ، ودفن فى مدينة سالم (٣٩٢هـ/أغسطس ١٠٠٢م)[٩٣]

وما أن مات المنصور حتى اشتدت آمال نصارى الشمال فى غلبة المسلمين ، وانتظر عبد الملك حتى تستتب له الأمور فى قرطبة ، وأرسل فتاه « واضحا » صاحب مدينة سالم الى شانجة أمير قشتالة وعقد الصلح معه عام ٣٩٣ هـ . وفى العام التالى احتكم اليه ملوك النصرانية بشأن النزاع على الوصاية على الفونش الخامس ملك ليون الذى كان لا يزال طفلا . ويبدو ان حكم عبد الملك باسناد الوصاية الى كونت جليقية قد أغضب كونت قشتالة الذى كان يطمع فى ذلك ، فنقض الصلح الذى كان قد أبرمه معه واضح الصقلبى وأعلن عداءه لعبد الملك[٩٤] .

لم ينتظر عبد الملك طويلا حتى خرج الى قشتالة واوغل فى اراضيها ، وخاف شانجه من الهزيمة ، ولم يواجه عبد الملك فى ميدان القتال ، واخلى له القلاع والحصون ، فعاد عبد الملك الى قرطبة ، واضطر شانجة ان يأتى وراءه طلبا للسلم وأخذ على نفسه العهود بأن يساعده فى غزو قومه فى جليقية . وفعلا سار مع عبد الملك فى العام التالى (٣٩٥هـ / ١٠٠٥ م) لغزو بنى غومس الذين اخذوا الوصاية على ملك ليون والتى كان يطمع فيها أمير قشتالة . وبعد انتهاء المعركة عاد كل منهما الى وطنه ، وأخذ شانجة يستعد سرا ليحارب عبد الملك[٩٥] .

وعندما أحس عبد الملك بتدبير شانجة بادره بالخروج غازيا فى عام ٣٩٧هـ / ١٠٠٧ م فى الغزوة التى تعرف بغزوة تلونية أو غزاة النصر حيث لقى فيها شانجة وجميع زعماء النصرانية فى الشمال الأسبانى ، وهزمهم

---

(٩٣) ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٠١ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، جـ ٢ ، ص ٧١ ،

(٩٤) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٩٤ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٠ . Dozy, op. cit., p. 522.

(٩٥) ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١١ .

هزيمة شنيعة عند حصن تلونية ، وأخذ الكثير من الغنائم والأسلاب والسبى ، وعاد الى قرطبة حيث خلع عليه الخليفة كل الوان التكريم ولقبه بلقب المظفر . ولم تكن هذه آخر حروبه مع قشتالة ، فقد اضطر الى غزوها مرة أخرى فى العام التالى حيث هاجم حصن شنت مرتين على نهر دويرة ، وافتتحه وحرق أرياضه وقتل مدافعيه ، ووزع السبى على أهل الرباط والجند ، وقفل عائدا الى قرطبة[٩٦] .

قام عبد الملك المظفر بغزوته الأخيرة وهى المعروفة بغزاة « العلة » ضد قشتالة أيضا ، ولم يفصل لنا المؤرخون نتائج هذه الغزوة ، وانما تحدثوا عن علة المظفر ومرضه وموته ،و يقولون أنه قصد شانجة صاحب قشتالة ، ولكن المرض لم يمكنه من اتمام الغزوة ، وأحس الجند بدنو أجله ، فتفرق عنه أكثر المتطوعين ، وعاد به الجيش الى قرطبة حيث مات بها فى صفر من عام ٣٩٩هـ / أكتوبر ١٠٠٨ م ، وتولى الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن المعروف بشنجول ، والذى انهدمت دولة بنى عامر على يديه فى نفس العام .

د ـ علاقة خلفاء بنى امية بامارة قطلونية (برشلونة) :

كانت امارة قلطونية تتبع دولة الفرنجة ، ولذلك لم تكن على خط واحد مع ممالك الشمال النصرانية فى جهادها ضد مسلمى الأندلس . اذ أن أمراء بنى أمية الأواخر عقدوا مع أباطرة الفرنجة معاهدة تقضى بعدم مساعدتهم لنصارى الشمال ضد المسلمين مقابل اعتراف المسلمين بحكم الفرنجة فى قطلونية . وكانت هذه المعاهدة حجر الزاوية فى العلاقة بين قرطبة وبرشلونة عاصمة قطلونية[٩٧] .

ذلك أننا لم نسمع عن معارك حربية فى عنف وضراوة المعارك التى رأيناها بين دول أسبانيا النصرانية وبين مسلمى الأندلس ، سواء فى عهد

---

(٩٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢١ ـ ٢٣ .

(٩٧) انظر الفصل الثالث من الباب الأول ، ص

الامارة او فى عهد الخلافة . وكل ما هنالك هو أن أمراء الثغر الأعلى الأندلسى من المسلمين كانوا يغيرون احيانا على برشلونة فى بدء عهد الخلافة فقد اغار عبد الملك بن عبد الله الطويل صاحب وشقة وبريشتر من أعمال الثغر الأعلى ، على برشلونة عام ٣٠١هـ / ٩١٣ م ، واستشهد فى قتاله مع فرنجة برشلونة(٩٨) ولم نسمع شيئا بعد ذلك حتى عام ٣٢٨ هـ .

ويبدون ان اهل برشلونة قد أطمعتهم هزيمة المسلمين عام ٣٢٧هـ / ٩٣٩ م فى موقعة الخندق أمام جيوش ردمير الثانى ملك ليون ، فاعتدوا على الثغر الأعلى ، مما دفع الناصر الى ارسال حملة بحرية صغيرة لضرب برشلونة من البحر . أقلعت هذه الحملة من ميناء المرية وعلى رأسها محمد ابن رماحس قائد البحرية ، ووصلت الى ميناء طرطوشة حيث تم تدعيمها ببعض السفن الحربية ، ثم واصلت ابحارها حتى وصلت الى ميناء برشلونة . وهناك وجدوا كونت برشلونة قد أعد بعثة للسفر الى قرطبة لعقد الصلح مع الناصر ، ومن ثم انتفى الغرض من الحملة ، فعادت الى قواعدها ، ووصلت الرسل الى قرطبة حيث تم عقد الصلح(٩٩) .

كان أمراء أو كونتات برشلونه فى هذا الوقت مستقلين عن دولة الفرنجة وكانت اسرة بوريل تقوم بشئون الحكم فيها ، وكانت تعرف مدى بعدها عن فرنسا ، وتعرف ايضا انها قريبة من بلاد المسلمين ، وأن العصر كان عصر الخلافة القوية التى لا تألوا جهدا فى اخضاع من يرفع رأسه بالعداء او العصيان ضدها ، ولذلك حافظ أمراء برشلونة على معاهدة الصلح ونفذوها بكل دقة ، وعندما رأوا ملوك الأسبان يهرعون الى قرطبة عام ٣٤٧هـ / ٩٥٨م بغرض تجديد صلح قديم أو عقد صلح جديد ، جاء كونت برشلونة الى الناصر راغبا فى تجديد الصلح . لكن الأستاذ Hole

---

(٩٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، انظر ، الفصل الثالث من الباب الأول ، ص

(٩٩) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٨١ .

يقول ان الناصر عامل البعثة القطلانية بقسوة استثنائية على خلاف العادة ولا ندرى سببا لذلك ، وعادت البعثة بعد أن وقعت السلام وقبلت كل شروطه[100] .

وبموت الناصر عام ٣٥٠هـ / ٩٦١م تغير الموقف ، اذ ان نصارى الشمال تلكأوا فى تنفيذ معاهدات السلام التى كانوا قد عقدوها مع الخلافة . وقام ملك نبرة مخالفا شروط الصلح المعقودة معه وأطلق سراح كونت قشتالة فرنان جونثالث الذى كان قد أسره عند تنفيذ عملية اعادة شانجة الى عرش ليون عام ٣٤٩ هـ بمساعدة قوة اسلامية . وبادر هذا الكونت وتحالف مع كونت برشلونة بوريل الثانى ، وانضم اليه ملك نبرة أيضا ، ملك ليون المخلوع أردون الرابع . وظل شانجة ملك ليون بعيدا عن هذا التحالف محافظا على عهده مع الحكم المستنصر[101] .

لكن أردون الرابع خاف على مصير عاقبة هذا التحالف ووفد على الخليفة الحكم ، ووفد فى اثره شانجة ، فجدد الحكم الصلح مع شانجة ولم يأبه بما كان قو اتفق عليه مع أردون من قبل ، ووعى الأسبان الدرس جيدا وهرع ملوكهم مرة أخرى الى قرطبة يطلبون السلام وتجديد معاهدات الصلح، وكان من بينهم وفد أهل قطلونية الذين أرادوا أن يكفروا عن خطئهم فأحضروا للمستنصر هدية قيمة ، عشرون صبيا من الخصيان الصقالبة وعشرين قنطارا من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير وعشرة أذرع صقلبية ، ومائتا سيف أفرنجية . فقبل المستنصر هديتهم وجدد الصلح معهم على شرط أن يهدموا الحصون القريبة من بلاد المسلمين ، والا يتحالفوا عليه مع نصارى الشمال ، وأن يحذروه منهم اذا عرفوا نيتهم فى الهجوم عليه[102] .

استمر السلام قائما بين فرنجة برشلونة وبين مسلمى الأندلس طوال عهد الحكم المستنصر حتى مات عام ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦م وتولى ابنه هشام

---

(١٠٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٣ ،

Hole, op. cit., p. 91.

(١٠١) عنان ، تاريخ العرب فى اسبانيا ، ص ١٥٦ .

المؤيـد الخـلافة ، وكان لا يزال طفلا ، فطمعت الفرنجة ونصارى الشمال بصفة عامة فى استئناف النضال ضد الأندلس ، ونقضوا معاهدات الصلح التى كانوا قـد أبرموها مع المستنصر فى بداية حكمه . وكان المسلمون كمـا ذكرنا يحترمون اتفاقهم مع اباطرة الفرنجة ولا يغيرون على برشلونة لأنهـم اذا فعلوا فسوف تنهض القوات الفرنجية لقتالهم لأن برشلونة كانت امارة تابعة لهم (١٠٣) .

لكن المنصور بن أبى عامر حاجب هشام المؤيد لم يأخذ بهذا المنطق ، وكان هدفه هو اخضاع كل من يعيش فى شبه الجزيرة لسلطاته ، سـواء كان مسلما أم مسيحيا ، من نصارى الشمال أم من فرنجة قطلونية ، وكـان المنصور يعرف مدى الفوضى السائدة فى مملكة الفرنجة فى ذلك الوقت بسبب النظـام الاقطـاعى وقيـام النبلاء باستقلالهم فى أقاليمهم . ومن هنـا فان أمراء قطلونية لن ينجدهم أحد اذا طلبوا المساعدة(١٠٤) .

على أية حال فان العذرى يمدنا دون غيره من سائر المؤرخين القدامى بغزوة مبكرة للمنصور بن أبى عامر فى اقليم قطلونية ، تعود الى السـنة الأولى من توليه الحجـابة . اذ يذكر له غزوة تسمى بغزوة الغابرة قـام بهـا فى شوال عام ٣٦٧هـ / مايو ١٧٨م . ويبدو أن هذه الحملة كان هدفها الأساسى بمبلونة ، ثم تفرعت عنهـا حملة صغيرة الى برشلونة ، اذ يقول «انهـا صائفة ذات دخـلات ، جمع بها بين بمبلونه وبسيط برشلونة . » ولا يحـدثنـا عن نتـائج هذه الغزوة ولا عن غيرها من الغزوات الأخرى فى بلاد نبرة وليون ، اذ انه كان يكتفى بذكر اسم الغزوة وتاريخها فقط ولا يذكر اسم الدولة التى تمت فيهـا ولا نتائجها ، ومن هنا جاءت الصعوبة فى التعرف على الدولة التى وقعت فيهـا هذه الغزوة أو تلك.(١٠٥) .

---

(١٠٢) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٤٥ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .
Hole, op. cit., p. 92.

(١٠٣) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٨٤ ،
Dozy, op. cit., pp. 500-501

(١٠٤) Dozy, op. cit., pp. 500,501.

(١٠٥) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

وهكذا يذكر لنا العذرى قيام المنصور بغزوة تسمى « شنت بلبق الثانية وبسيط برشلونة » فى المحرم من عام ٣٧٤هـ / يونيه ٩٨٤ م . أما « شنت بلبق الأولى » فكانت قبل ذلك بخمس سنوات أى فى المحرم عام ٣٦٩هـ / يولية ٩٧٩م . وفى هذه الفترة كان المنصور مشغولا بصراعه مع غالب ثم مع نصارى الشمال الذين تحالفوا ضده وحاربوه عام ٣٧٢ هـ وانتصر عليهم فى موقعة سيمنقة ، ودانت له ليون ونبرة بالطاعة ، ولم يبق أمامه الا برشلونة[١٠٦] .

ويبدو أن حملة شنت ببلبق الثانية (٣٧٤ هـ) كانت لجس نبض قوات الفرنجة فى برشلونة ، اذ انه لم ينته هذا العام حتى قام المنصور فى ذى الحجة منه / مايو ٩٨٥م بحملة مدمرة على برشلونة . فقد أعد المنصور قوة ضخمة ومر بألبيرة وبسطة ومرسية ، ثم اتجه شمالا وسار بحذاء الساحل الشرقى حتى وصل برشلونة بعد شهرين تقريبا (المحرم ٣٧٥ هـ) ، وكانت هذه الغزوة الثالثة والعشرون للمنصور ، وكان يصحبه فيها حوالى أربعون من الشعراء لتسجيل انتصاراته[١٠٧] .

اقتحم المنصور اقليم قطلونية والتحم مع حاكمه بوريل الثانى فى موقعة عرفت باسم وقعة بيغش ، وقعت فى الطريق الى برشلونة ، ويبدو أن حاكم قطلونية كان قد تقدم بقواته لملاقاة المنصور ومنعه من التقدم داخل الاقليم . ويحكى بعض المؤرخين ان المنصور أمر جنده باتخاذ قرامد هندية يضعونها على سواعدهم ليحموا بها رؤسهم من سيوف الفرنج البتارة وكانت النتيجة عدة هزائم متلاحقة لحاكم قطلونية ، وتقدم المنصور وزحف على برشلونة العاصمة التى كان الفرنج قد استولوا عليها منذ عهد الحكم بن هشام عام ١٨٥هـ / ٨٠١م ، وظلت فى حوزتهم حتى ذلك العهد فاستولى عليها المنصور (٣٧٥ هـ) ودمرها ثم أضرم فيها النيران ، وقتل

---

(١٠٦) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٦ ، ٧٩ .

(١٠٧) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .
Dozy, op. cit., p. 500, Livermore, op. cit., 88.

معظم السكان والجند ، واخذ الباقين اسرى ، وعاد الى قرطبة محملا بالغنائم والأسلاب بعد أن أخضع هذا الاقليم لسلطانه[108] .

ولم تستمر برشلونة طويلا في يد المسلمين ، اذ أن الفرنجة انتهزوا فرصة انشغال المنصور في حملة له على بمبلونة عام ٣٧٦هـ ، وسار جيش من الفرنجة الى برشلونة تعاونه السفن من البحر واستولى عليها . لذلك فان أول عمل قام به عبد الملك المظفر بعد توليه الحجابة عام ٣٩٢هـ ، هو الاستعداد لحملة كانت وجهتها قطلونية ، بعد أن عقد الصلح مع شانجة زعيم نصارى الشمال وأمير قشتالة في ذلك الوقت في عام ٣٩٣هـ[109] .

استعد عبد الملك لحملة برشلونة استعدادا هائلا ، ووفد عليه المتطوعون والمجاهدون من شمال افريقيا ومن سائر أنحاء الأندلس حتى ضاقت بهم قرطبة وأرياضها ، ووزع عبد الملك عليهم المال والسلاح . ويعطينا ابن عذارى وصفا رائعا جميلا لخروجه على رأس قواده ووزرائه وغلمانه من قرطبة الى برشلونة . فقد اتخذ عبد الملك طريق الثغر الأوسط ثم الأعلى ، حتى وصل الى برشلونة مخالفا بذلك والده الذى اتخذ طريق الساحل الشرقى ، وعندما وصل عبد الملك الى مدينة سالم لحق به عدة زعماء من نصارى ليو نوقشتالة لمساعدته فى حربه حسب الاتفاق المبرم بينهم فى أول هذا العام (٣٩٣هـ)[110] .

وصلت قوات المسلمين والنصارى الى سرقسطة وأخرج عبد الملك فتاه « واضحا » الصقلبى فى نخبة من جنده وفرسانه لمقارعة حصن مدنيش القريب من حصن ممقصر ، فافتتحه « واضح » وسار الجميع الى حصن

---

(١٠٨) ابن الكردبوس ، الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، ص ٦٣ ، ابن الفرضى ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٤ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٧٤ ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ،
Dozy, op. cit., p. 501

(١٠٩) عنان ، تاريخ العرب فى الأندلس ، ص ١٦٧ .

(١١٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤ ، ٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

ممقصر من أعمال برشلونة ، وضربوا عليه الحصار .. لكن أهــل الحصن كانوا شجعانا فخرجوا الى المسلمين وقاتلوهم ، وكانت صولات وجولات بين الجـــانبين فى كر وفر حتى حجز الليل بينهم . وعند الفجر استطاع المسلمون دخول الحصن بعــد أن كانوا قد فتحوا فيه ثغرة أثنـــاء الليل ، وأخذوا من فيـــه سبيا ونهبوا أموالهم ، ولجـــأ بعض مدافعى الحصن الى مكـــان منيع ، فأحـــدق بهم المسلمون وقتلوهم عن آخرهم(١١١) .

وكان الحاجب عبد الملك قـــد أصدر أوامره أثناء القتال بالا يحـــرق المسلمون منزلا ولا يهدمون بناء ، عكس ما فعله أبوه فى حملته التى دمر فيهـــا برشلونة وأحرقها عام ٣٧٥هـ . ذلك أن عبد الملك كان يرمى الى استيطان هذا الحصن واسكانه بالمسلمين حتى تكون برشلونه تحت سيطرته. وبعـــد تمـــام الفتح أخذ فى اصلاح الحصن ونادى فى المسلمين « من أراد الاثبات فى الديوان بدينارين فى الشهرين على أن يستوطن هذا الحصن وله مع ذلك المنزل والمحرث » فرغب فى ذلك عدد كبير من المسلمين واستقروا فيـــه منذ ذلك الحين(١١٢) .

ولم يخالف عبد الملك سنة أبيه فى النسف والتخريب ، ويبدو أن اصلاح الحصن ذا الأهمية الكبرى فى السيطرة على برشلونة كان شـــيئا استثنائيا حتى لا تضيع منه برشلونة كما ضاعت من يـــد أبيه من قبـــل . فقـــد جال عبد الملك وجنـــده فى أنحـــاء اقليم قطلونية يخربون ويدمرون وينسفون حتى تركوه بلقعـــا خرابا وقفرا يبابا على حـــد تعبير ابن حيـــان وقـــد ورد فى كتـــاب الفتح الذى أرسله عبـــد الملك الى قرطبة ، أن عـــدد الحصون التى افتتحها عنوة وقتل جنودها وسبى ذراريهم وغنم أموالهم ستة حصون ، وعدد الحصون التى أخلاها أهلها فخربها ودمرها خمســـة وثمانين حصنا ، وبلغ عدد السبى الذى وفد به عبد الملك على قرطبة ٥٥٧٠ نفرا . وكان يوما مشهودا احتفلت به الدولة والخـــلافة وقام الشـــعراء

---

(١١١) ابن حيان برواية ابن عـــذرى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٦ ، ٧ .

(١١٢) ابن حيان برواية ابن عـــذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٧ .

والأدباء ، وأنشدوا الأشعار ، وخلع الخليفة على عبد الملك وبالغ فى تكريمه[113] .

كانت هذه الحملة درسا للفرنجة ولغيرهم من نصارى الشمال اذ أنهم حافظوا على عهودهم مع عبد الملك ، وأتى رسول برشلونة الى قرطبة يمد يد الطاعة ويطلب السلام . وكالعادة استعد المظفر عبد الملك لاستقباله استقبالا رائعا ، وكان هذا آخر يوم من أيام العظمة والمجد فى تاريخ بنى عامر ، اذ لم تمض بضع سنوات حتى مات المظفر وخلفه أخوه عبد الرحمن الذى كانت نهاية الدولة على يديه عام ٣٩٩هـ.[114] .

٣ ــ علاقات خلفاء بنى أمية بنصارى الشمال الأسبانى فى عصر ضعف الخلافة

وكما سبقت الاشارة عند الحديث عن أحوال الأندلس فى عصر الخلافة فى الفصل الأول من هذا الباب ، رأينا أن هناك عوامل ضعف ألمت بالبلاد وآتت أكلها بدءا من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى فيما يعرف بالفتنة البربرية . وكان ذلك عقب سقوط دولة بنى عامر عام ٣٩٩هـ ، ذلك السقوط الذى اختتم عصر القوة وأسلم البلاد لحرب أهلية تثبت مولازين الصراع بين الأندلس ونصارى الشمال رأسا على عقب ، وجعلت هؤلاء النصارى يتحكمون فى الخلافة والخلفاء الى حد كبير ، حتى أتى بنو حمود وأنقذوا كرسى الخلافة من هذا الهوان . لكن الصراع استمر بين خلفاء بنى أمية الأواخر بعضهم البعض حتى تم القضاء عليهم وعلى الخلافة نهائيا عام ٤٢٢هـ .

وتفصيل ذلك أن المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبدالرحمن الناصر استطاع أن يقود الثورة ضد بنى عامر ويقضى على دولتهم ، وبويع

(١١٣) ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٧ ، ٨ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٧ .

(١١٤) ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٦٤ .

له بالخلافة فى جمادى الآخرة عام ٣٩٩هـ / يناير ١٠٠٩م ، لكنه أساء السيرة وخاصة مع البربر الذين أعلن بغضه لهم واعرى الناس بهم ، وفتح باب الفتنة على مصراعيه ، ففر هؤلاء البربر الى الثغر والتفوا حول سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وقدموه على انفسهم وبايعوه بالخلافة وتسمى بالمستعين بالله ، وذلك فى شوال عام ٣٩٩ / مايو ١٠٠٩ م . وبذلك انقسمت الأندلس الى حزبين أو فريقين ، حزب البربر ويؤيد سليمان المستعين ، وحزب الأندلسيين ويدعو لمحمد المهدى(١١٥)

بدأت نذر الكارثة التى حاقت بالأندلس الاسلامية تلوح فى الأفق منذ ذلك الحين ، فقد قرر كل فريق أن يستعين على خصمه بنصارى الشمال ، ومهدوا الطريق لهم لكى يشفوا غليلهم من أحفاد الناصر والمنصور ، وأن يتعرفوا على مواطن الضعف ، وأن ينفذوا سياستهم فى ضرب كل فريق بالاخر ، وأن يستولوا فى النهاية على المعاقل والحصون التى كان الناصر والمنصور قد قضيا حياتهما فى بنائها وشحنها بالسلاح والرجال ، وجعلها درعا يزود عن البلاد ومنطلقا لهجماتهما ضد نصارى الشمال . كل ذلك حدث ولم يمض على آخر غزوة للمسلمين فى أرض النصارى أكثر من عام واحد .

أدرك البربر منذ البداية أنهم قلة قليلة العدد بالنسبة للاندلسيين فاتصلوا بالكونت شانجة بن غرسية بن فرنان أمير قشتالة والذى كان يعد أقوى أمراء الشمال النصرانى فى ذلك الوقت ، وطلبوا منه محالفته ضد المهدى وضد حليفه واضح الصقلبى صاحب مدينة سالم الذى كان قد حرض أهالى الثغور على مقاطعة البربر اقتصاديا حتى اضطروا الى أكل حشائش الأرض(١١٦) .

---

(١١٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، الضبى ، المصدر نفسه . ص ٢٠ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١١٢ ، ١١٣ . وبديهى أن حزب الأندلسيين يتكون من باقى سكان الأندلس ، أى من العرب وموالى بنى عامر والمولدين والصقالبة .

(١١٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، ٨٦ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٢٥ .

وكانت رسل المهدى وواضح الصقلبى تطالب فى نفس الوقت محالفة شانجة ضد البربر ، على أن يعطياه ما احب من مدن الثغر وحصونه ، وارسلا اليه هدية قيمة ، فيها من التحف والطرائف ما لا يحصى . لكن شانجة تحالف مع البربر حتى يزيد من شقة الخلاف بين هذين الفريقين من المسلمين ، وارسل لهم على الفور الف عربة محملة بالدقيق والعقاقير والأطعمة وغير ذلك من المؤن الضرورية حتى الحبال والأوتاد اللازمة لدوابهم ، فقوى البربر وانتعشت روحهم المعنوية(١١٧) .

وقام سليمان وجنوده من البربر تؤازرهم قوات شانجة أمير قشتالة وزحفوا حتى وصلوا مدينة سالم ، وهزموا واضح عند شرنبة ، فى ذى الحجة عام ٣٩٩ هـ / يولية ١٠٠٩ م ، وحازوا ما كان فى معسكره من مال وسلاح ، وزحفوا الى قرطبة وهزموا جند المهدى فى موقعة قنتيش فى ربيع الأول عام ٤٠٠ هـ / اكتوبر ١٠٠٩ م ، ووضع البربر والنصارى السيف فى رقاب اهل قرطبة فأبادوا منهم ما بين عشرين الى ثلاثين ألف رجل ، كان من بينهم عدد كبير من العلماء وائمة المساجد ، وهرب المهدى وواضح الى طليطلة ، وبويع سليمان المستعين خليفة فى قرطبة(١١٨)

وهكذا يمكننا القول بأن دولة سليمان الأولى قد أقامها نصارى قشتالة ، أما الخليفة المهزوم فقد لجأ الى فرنجة برشلونة وأميرها رامون (رايموند) وأرمقندة صاحب أورجل (أرقلة)(١١٩) لعله يجد عندهم ما يعينه على استرداد عرشه ، وكان رسوله اليهم حاجبه واضح الصقلبى الذى فاوضهم على أساس أن يسلمهم مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط . ولما اخلاها من المسلمين ووضعوا يدهم عليها ، حولوا مسجدها الى كنيسة ، وشرطوا عليه أن يلتزم بدفع مائة دينار لقائد

---

(١١٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٨٦ .

(١١٨) ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ٣٠ ، ٣١ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٨٧ ، الضبى ، المصدر نفس ، ص ٢٠ ، المراكشى ، المعجب ، ص ٤١ ، ٤٢ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١١٣ .

(١١٩) أورجل Urgel احدى كونتيات قطلونية .

الحملة النصرانية ، وديناريين لكل جندى من جنوده ، علاوة على ما يلزمهم من المؤن والأغذية ، ولهم أيضا ما يحوزونه من عسكر البربر من مال وسلاح وسبى ، الى غير ذلك من الشروط المهينة التى قبلها واضح والمهدى[120] .

قام الفرنج فى تسعة آلاف رجل وعلى رأسهم أرمقندة كونت (أورجل) مع واضح الصقلبى ووصلوا الى طليطلة حيث انضموا الى قوات المهدى ، وسار الجميع الى قرطبة وتقابلوا مع جيش سليمان المستعين عند موضع يسمى عقبة البقر ، على بعد بضعة عشر ميلا من قرطبة فى شوال عام ٤٠٠ هـ / مايو ١٠١٠ م . وكان النصر فى البداية لسليمان والبربر ، حيث هجموا بعنف على الفرنج وقتلوا أميرهم أرمقند وكثير من جنده ، لكن سليمان ظن أن الهزيمة حاقت بالبربر عندما رأى الفرنج يخترقون صفوفهم ، وكان البربر قد افسحوا لهم حتى يتقدموا فيحيطون بهم ويقضون عليهم . لم يفهم سليمان تلك الخطة ، وفر من ميدان المعركة واتجه الى شاطبة ، فعاد البربر الى الزهران وأخذوا أموالهم وأولادهم وذهبوا جنوبا الى وادى آرة ، من أحواز مربلة ناحية الجزيرة الخضراء[121] .

دخل المهدى قرطبة وبويع له بالخلافة للمرة الثانية وأعطى الفرنج أعطياتهم وصمم على ملاحقة البربر والقضاء عليهم نهائيا ، والتقى هو وحلفاؤه من الفرنج بهم عند وادى آره ، لكنهم هزموهم فى ذى القعدة عام ٤٠٠ هـ / يونية ١٠١٠ م رغم كثرتهم وقلة عدد البربر . وقتل من الفرنج أكثر من ثلاثة آلاف وغرق منهم عدد كبير ، وغنم البربر ما وجدوه معهم من مال وسلاح ودواب ، وعاد المنهزمون الى قرطبة ، حيث رحل الفرنج على الفور وعادوا الى بلادهم . وكان حزن القرطبيين على رحيلهم

---

(١٢٠) ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣١ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٤ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

(١٢١) ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٤ ـ ٩٦ ، الضبى ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ ، المراكشى ، المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

عظيمـا حتى انهم كانوا يتبادلون فيمـا بينهم عبارات العزاء أسـفا على رحيلهم وجزعا من سيطرة البربر عليهم بعد مغـادرة حمـاتهم من الفرنج[١٢٢] .

ولم يلبث أن قام واضح وقتل المهـدى بعـد أن أحس بتحرج مركزه وأظهر هشاما المؤيـد وبايعه بالخلافة ، اعتقادا منه بأن البربر سيعودون الى الطـاعة ، ولكنهم تمـادوا فى مهاجمة قرطبة ، فلجأ واضح الى شـانجة أمير قشتالة وعقـد معه باسم هشام المؤيـد اتفـاقية فى صـفر عام ٤٠١ هـ / سبتمبر ١٠١٠ م ، يسلم له بمقتضاها جميع الحصـون التى كان قد أستولى عليها الحكم المستنصر والمنصور بن أبى عامر وابنـه عبد الملك المظفر ، وكانت لا تقل عن مائتى حصن ، وكان من بينهـا سان استيفـان وجورمث Gormez واسما Osma وكرونيا دلكوندى Cruna del Conde[١٢٣] .

وكان شـانجة أمير قشتالة قد رأى أن يحـالف واضحا وهشـاما المؤيـد حتى يتمكن من استلام ما يريده من الحصون على الفور ، ذلك أنهما كانا حينئذ فى السلطة ، وتدين لهمـا منطقة الثغور بالطاعة . أما البربر فكـانوا وقتهـا ينمركزون فى جنوب الأندلس . وقـد فعل شـانجة ذلك أيضـا حتى يمنع الأندلسيين من اللجوء الى فرنجة برشلونة مرة أخرى ، وربما كان يعتقـد أن الغلبة سوف تكون فى النهاية للاندلسيين على اعتبـار أنهم تمكنوا من هزيمة البربر وأخرجوهم من قرطبة ، بعـد أن كان هؤلاء قـد سيطروا عليهـا عقب انتصارهم فى قنتيش . وكـان شـانجة يتبع أيضـا فى ذلك سياسة ضرب المسلمين بعضهم ببعض ، فمرة يتحـالف مع البربر وأخرى مع الأندلسيين ، حتى يطيل أمد الصراع فيما بينهما ، فتضعف الجبهة الاسلامية فى النهـاية وتسـقط صريـعة تحت أقـدام النصارى .

---

(١٢٢) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، المراكشى ، المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

(١٢٣) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٠٣ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١١٧ ، ٢٤٢ .
Dozy, op. cit., p. 557.

وبعـــد أن تسلم شانجة ما اراده من المدن والحصون ترك المسلمين يأكــل بعضهم بعضـــا ولم يتقــدم لنجـــدة هشـــام ، وخاصـــة بعــد أن فتك بحاجبه واضح الذى حـــاول أن يخونه وينضم لأعدائه من البربر ، بعـــد أن رأى تصميمهم على مقاتلة أهل قرطبة الذين رفض فقهاؤها الصلح مع البربر ، واستهانوا بواضح وخرج الجنـــد من تحت سيطرته ممـــا ســـاعد على الفتك به . وانتهى الصراع بين هشام وسليمان بأن دخل سليمان قرطبة فى شوال عام ٤٠٣هـ / ابريل ١٠١٣ م ، واستمر فى حكمها حتى قام عليه بنى حمود وقتلوه وأقاموا الخلافة الحمودية العلوية فى قرطبة فى المحرم عام ٤٠٧ هـ(١٢٤) .

وما لبث الصراع أن نشب من جديد بين بنى حمود وبين عبد الرحمن المرتضى الأموى الذى أقامه خيران الصقلبى صاحب المرية خليفـــة فى شرق الأندلس ، وفى هذه المرة لجـــأ المرتضى الأموى الى فرنجة برشلونة لأنه رأى غـــدر نصـــارى قشتالة بهشام المؤيـــد وتخليهم عنه رغم العـــدد الهـــائل من الحصون التى كان قد سلمها لهم . فأتى رايموند Reymond كونت برشلونة بنفسه مع منـــذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة لمساعدة المرتضى فى صراعه ضد بنى حمود وحلفائهم من البربر(١٢٥) .

ولكن الأمر انتهى بغـــدر خيران بالمرتضى وتآمر عليه مع أعـــدائه ثم قتله ، وعاد رايموند الى بلاده دون أن يشترك فى المعركة ، ولم نعد نسمع بعـــد ذلك عن تدخل لفرنجة برشلونة أو نصارى الشمال الأسبانى فى شئون خلفـــاء بنى أمية الأواخر ، حتى انتهت خلافتهم نهائيا عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م ، ونشب الصراع بعـــد ذلك بين نصارى الشمال الأسبانى وبين ممالك الطوائف التى خلفت بنى أمية فى حكم الأندلس(١٢٦)

---

(١٢٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٣ .

(١٢٥) Dozy, op. cit., pp. 567 - 569.

(١٢٦) Dozy, op. cit., pp. 567 - 569.

الباب الثالث

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف

الفصل الأول : الظروف والعوامل التى أثرت فى العلاقات بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر ملوك الطوائف

الفصل الثانى : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر ملوك الطوائف

الفصل الأول

الظروف والعوامل التى أثرت فى العلاقات بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر ملوك الطوائف

أولا ــ ظروف الأندلس الاسلامية وأحوالها المؤثرة فى علاقتها بأسبانيا النصرانيـــة

١ ــ الفتنة البربرية وأثرها فى قيام عصر ملوك الطوائف :

رأينا فيما سبق من حديث عن الفتنـــة البربرية أو الحرب الأهليـــة التى نشبت بين خلفـــاء بنى أمية الأواخـــر ، انها تسببت فى انقســـام اهل الأندلس الى حزبين متصارعين ، استعان كل منهمـــا بأحـــد ملوك اسبانيا النصرانية ضد الآخر ، كى يعينه على تولى منصب الخلافة فى قرطبة وانتهز ملوك الأسبان الفرصة حتى ينـــالوا نصيبهم من الغنيمـــة وفعل نفس الشىء . أولئك القواد الطموحون من الصقالبة والبربر ، ورؤساء الأسرات العربية ، وكونوا لأنفسهم دولا انتشرت بطـــول البلاد وعرضها . وبذلك تجزأ الوطن الواحد الى أوطان متعـــددة ، وأصبحت كل عشيرة أو كل طائفة من طوائف سكان الأندلس لهـــا حكومتها ، ولها كيانها السياسى الخـــاص بهـــا فيما يعرف بممالك الطوائف .

وسرعان ما أعلن أصحاب هذه الممالك عن حقهم فى الحكم ، وانتحلوا الألقـــاب السلطانية ، واتخذوا الحجاب والوزراء ، وصاروا ملوكا . وساعدهم على ذلك خطآن ارتكبهمـــا بنو أمية أثنـــاء الفتنة البربرية ، اشرنا الى أحدهما وهو استعانتهم بملوك اسبانيا النصرانية فى الصراع على عرش الخـــلافة ، ممـــا قضى على هيبة الخـــلافة ، ودلل على ضعف الحماس الدينى والعزة القومية لدى هؤلاء الخلفـــاء الضعاف ، فاستهان بهم الناس وأصبحوا لا ينظرون اليهم كمـــا كانوا ينظرون من قبل الى الناصر أو المستنصر . ومما زاد من هوانهم فى نظر الناس ما اتصـــف

به معظم خلفــاء بنى امية الأواخر من استهتار بالفضائل والقيم الدينيـة والخلقية ، ومن سوء سياسة وتخبط فى شئون الحكم وادارة البلاد[1] .

أما الخطأ الثانى الذى ارتكبه بنو امية فى فترة الفتنة فهو أنهم تركوا أقاليم الدولة وولاياتها تقع فى أيدى عناصر الصقالبة والبربر ، بل ان بعضهم قام بتوزيعهــا عليهم كمــا فعل سليمــان المستعين ، ولم يلبث حكــام الولايات هؤلاء ، أن استقلوا بهــا عقب مقتل سليمان المستعين على يد بنى حمود فى أوائل عام ٤٠٧ هـ ، وقال قائلهم « اقيم على ما بيــدى حتى يتعين من يستحق الخروج به اليه » ، وأعلن آخرون استقلالهم عن كل سلطة وقالوا « أحق الناس بالملك من استقل به » [2] .

وكان من نتيجة هذا الاصرار العنيد على التمسك بالحكم والسلطان أن انقسمت الدولة الاسلامية فى الأندلس الى دويلات عديدة ، بلغت فى مجموعها ستا وعشرين دولة وضاعت جهود قرن كامل فى توحيــد تلك البــلاد ، وعادت الى ما كانت عليه قبل الناصر لكنها فى هذه المرة لن تجــد من يجمع شتاتها ويرأب صدعها وينقذها من حالة الضياع الذى تعرضت له عقب سقوط الخلافة الأموية . وتكرست هذه الحــالة نتيجة للسياسة التى اتبعهــا ملوك الطوائف ، من استمرارهم فى الصراع ضد بعضهم البعض ، واستعانتهم بملوك اسبانيا النصرانية ، حتى اضطروا لدفع الجزية لهم ، وانتهى الأمر بسقوط كثير من المعــاقل والمدن الهــامة فى أيديهم مثــل بريشتر عام ٤٥٦هـ ، وطليطلة قاعــدة الثغر الأوسط عام ٤٧٨ هـ [3] .

---

(١) ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ٣٠ ، ٣٢ .
ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٨٢ ، ٩٤ .
ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٨٥ .
الضبى ، المصـدر نفسه ، ص ٢٠ .
(٢) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٧٧ ، ١١٣ .
ابن بسام ، المصـدر نفسه ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ١١١ ، ١١٢ .
ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨ .
ابن خلـدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٥١ .
(٣) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١١٤ ـ ١١٧ .

وسوف يتضح ذلك كله من دراستنا لسمات هـذا العصر ، ولأحوال تلك الممالك الصغيرة ، وعلاقاتها بعضها بالبعض الآخر ، وما حدث فيها من صراع داخلى على الحكم ، وما اتصف به ملوك هذه الممالك من فساد ، وما تفشى بين سكانها من عيوب خلقية واجتماعية واقتصادية .

ب ـ سمات عصر ملوك الطوائف ومظاهر الضعف فيه :

ويتمثل مجتمع الطوائف فى تلك الدويلات والامارات التى بلغ عددها ستا وعشرين ، وكان لكل مدينة أو منطقة أميرها المستقل متخذا لقب الملك أو الأمير أو الوالى ، أو القاضى ، أو الحاجب ، تبعا لحجم المدينة أو المنطقة التى يحكمها . وكان لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر نظرا لما يجيش به الجميع من الأطماع ، ولاختفاء المثل الأعلى الذى اوجده الأميون وهو المحافظة على وحدة البلاد . وبدا القوى يبطش بالضعيف الذى حاول بدوره أن يتحالف مع جار أقوى ، ونتج عن هذا الصراع الدامى أن تكونت من هذه الدويلات ، أربع دول رئيسية غلبت على جميع الدويلات الأخرى أو تحالفت معها[٤] .

ففى جنوب الأندلس فى غرناطة ومالقة غلب الحزب الافريقى أو البربرى المتمثل فى بنى حمود وحلفائهم من صنهاجة وزناتة من حكام غرناطة وقرمونة وبعض المدن الأخرى . وفى الجنوب الغربى ، كان هناك بنو عباد العرب أمراء اشبيلية ، وكان هؤلاء يخوضون الحرب مع الحزب الأفريقى بلا انقطاع حتى تم لهم الظفر ، كما غلبوا بالحرب والخديعة على جميع الأمراء والولاة فى جنوب غربى الأندلس ، واضطر أميرا قرطبة وبطليوس الى الانضواء تحت لوائهم حلفاء أو مغلوبين[٥] .

اما فى وسط أسبانيا المسلمة (الأندلس) فكان هناك بنو ذى النون أمراء طليطلة الأقوياء الذين وقفوا لمحاولات بنى عباد فى فرض سيطرتهم

---

(٤) يوسف اشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ٣٠ ، ٣١ .

(٥) يوسف اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٣١ .

على بلاد الأندلس ، وان كان هذا على حساب استقلالهم فقد دفعوا الجزية لملوك قشتالة ليساعدوهم ضد خصومهم من بنى عباد . وكان الفريق الرابع يحكم فى شرق الأندلس متمثلا فى بقايا العامريين وعبيدهم فى بلنسية ومرسية ودانية والمرية ، وفى أسرة بنى تجيب وبنى هود العربية فى سرقسطة وتطيلة ووشقة . وكان هؤلاء يخوضون الصراع مع بنى ذى النون البربر أمراء طليطلة ويستعينون أيضا بملوك شمال أسبانيا النصرانية(٦) .

ومن أولى السمات التى اتسم بها عصر ملوك الطوائف ان هذه التجمعات و الدويلات ، لم تسترشد سواء فى علاقاتها ببعضها البعض ، أو فى علاقاتها بشعوبها بسياسة اسلامية تقوم على رفع شأن الاسلام وتوسيع نفوذه ، ومحاربة المسيحيين فى الشمال ، والتضحية بالأهداف الثانوية تجاه هذا الهدف السامى الذى عاش له أمراء وخلفاء بنو أمية . كما ان ملوك الطوائف لم يقيموا سياستهم على أساس التعايش السلمى بين بعضهم البعض ، والاحتفاظ بالأمر الواقع والمحافظة عليه ، كما قال بذلك البعض الذين عللوا هذه السياسة بضعف بعض الدويلات ، وانه كان لهذه السياسة أنصار عديدون بين حكام المقاطعات الصغيرة والحصون المستقلة(٧) . ذلك أن التفاوت بين دول الطوائف من حيث القوة والضعف واشتداد الاثرة والأطماع الشخصية ، وحب الرياسة عند الجميع ، واشتداد الخطر النصرانى المطل عليهم من الشمال ، كل ذلك جعل الدويلات القوية تبطش بالضعيفة وتجبرها على الانضواء تحت سلطانها متحالفة أو مقهورة حسبما تقدم . ذلك أنه لم يكن هناك الا سياسة واحدة بنى عليها ملوك الطوائف سياستهم ، وهى سياسة التوسع على حساب القوى المجاورة بكل الوسائل الممكنة ، سواء كان ذلك عن طريق الحرب أو المؤامرات أو الشراء أو المعاهدات (٨) .

---

(٦) يوسف اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٣١ .

(٧) صلاح خالص ، ابن عمار الأندلسى ، ص ٧٤ .

(٨) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .
المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧٣ ، ٦٠٥ .

وكان لطبيعة دول الطوائف اثر كبير فى اتباع تلك السياسة ، فهى فى الواقع لم تكن دولا بالمعنى المعروف ، وانما كانت اقرب منها الى وحدات الاقطاع ، والى عصبية الأسرة القوية ذات العصبية أو الجماعة القبلية فى حالات الامارات البربرية ، ومن ثم فانه لم تكن بها حكومات منظمة بالمعنى الصحيح تكون مهمتها العمل لخير الشعوب التى تحكمها ، وانما كانت أسرات او زعامات تعمل قبل كل شىء لمصلحتها الخاصة ، ولرفعة شأنها ، وتنمية ثرواتها ، وتدعيم سلطانها وبذخها ، ولا يهمها بعد ذلك ان يسعد الشعب أو أن يعيش فى شقاء ، ولا يهمها ان يسمو شأن الدين أو يذل ، وانما يهمها مصلحتها فقط ، ولو انها رات تلك المصلحة فى اعتناق النصرانية لبادرت الى ذلك دون أدنى خوف أو خجل . اذن فهو عصر الأطماع والأنانية والمصالح والمؤامرات ، عصر كانت فيه الجارية ترفع الى عرش الملكات ، ويهبط الملوك الى درك العوز والفاقة والتسول (٩) .

ولذلك لم يكن الصراع صراعا حزبيا أو قائما علي أساس جنسى ، كالصراع بين العرب والبربر أو بين الأسبان المسلمين والبربر ، كما قال بذلك هنرى بيريز وناقشه فيه البعض . ولم يكن صراعا بين فريقين او حزبين كما قال بذلك ابن عذارى ، لأن الأحداث التاريخية لا تؤيد ذلك ، بل انها تقول بأن البربر حاربوا بعضهم بعضا وكان بربر زناتة لا يثقون فى بربر صنهاجة ، ولذلك انضم بربر قرمونة ورندة وتاكارنا الى بنى عباد العرب فى احيان كثيرة ضد بربر صنهاجة فى غرناطة . كما حارب العرب بعضهم بعضا كما حدث بين بنى عباد فى أشبيلية وبين بنى جهور حكام قرطبة حيث حاربوهم حتى قضوا عليهم وضموا قرطبة الى أملاكهم (١٠) .

---

(٩) ابن حيان ، برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٦٠ .
ابن حزم ، للرد على ابن النغريلة اليهودى ، ص ١٧٧ .
عنان ، دول الطوائف ، ص ٤١٨ .

(١٠) ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢١٩ .
صلاح خالص ، المعتمد بن عباد ، ص ١٠٦ .

ولما كان الصراع شخصيا فقد اتبــع الجميع فيه مبدأ الغــاية تبرر الوسيلة ، وكان الأخ يغدر بأخيه ويستعين فى ذلك بالأمراء المجاورين وربما استعان بنصــارى الشمال ، وتاريخ ملوك الطوائف حافل بذلك . وعلى سبيل المثال لم يتورع المعتضد بن عباد ملك اشبيلية من دعوة جيرانه من أمراء البربر وأولم لهم وليمة ، ثم دعاهم لدخول الحمام ، ولما دخلوه سد عليهم أبوابه ، وظلوا فيه حتى ماتوا ، بل أنه علق رءوس أعدائه الذين وصلت اليهم يده ، سواء بالحرب أم بالختل والغدر على اشجار حديقة قصره ، وسماها حديقــة الموت ، وجعلها رمزا لقوته وبطشه ، وانذارا بالموت لكل من تسول له نفسه من معارضيه بالخروج عن طاعته [١١] .

أما ابنه المعتمد فقد بلغ فى ذلك شأوا بعيدا ، ويكفى ما فعله وزيره ابن عمار من الاستيلاء على مرسية بالتآمر مع نبلائها ، ثم الاستيلاء على قرطبــة التى كان أهلها قد اســتدعوه ليحميهم من عدوان المأمون ملك طليطلة ، ثم لم يلبث أن استولى عليها بعــد أن هزم المأمون وأنزل بنى جهور من قصورهم ، وراحت كلمة آخر ملوكهم « نغص علينا كل شىء حتى الموت » دليلا وسمة لهذا العصر المضطرب [١٢] .

وهذا هو عبد العزيز بن المنصور بن أبى عامر حاكم بلنســية الذى نزل الى المرية ليضبط أمورها ، بعد قتــل أميرها الفتى العــامرى زهير عام ٤٣٩ هـ أثنــاء صراعه مع بنى زيرى أمراء غرناطة ، فحسده مجاهد العــامرى صاحب دانيــة ، وخاف من اتساع مملكته التى أصبحت تضم بلنسية والمرية ، وأغار على بلنسية أثناء غياب عبد العزيز عنها ، ولما شعر الأخير بذلك استخلف صهره ووزيره معن بن صادح التجيبى على المرية ، وعاد الى مملكته فى بلنسية ليدفع عنها خطر مجاهد العامرى . لكن هــذا

---

(١١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٥٠ ، ٥١ .
دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(١٢) المصدرين السـابقين .

الصهر لم يلبث أن انتهز الفرصة واستولى على الحكم فى المريـــة وأعلن استقلاله بها وخان الأمانة [١٣] .

والسمة الأخرى التى اتسم بها هذا العصر ، هو عدم وجود أساس شرعى معين لحكم هؤلاء الملوك والأمراء المتصارعين . فلم يكونوا من بيت امارة أو خلافة وانما هم متغلبون ، ذهب كل منهم الى ناحية عقب انهيـــار بنى عامر وبنى امية واستولى عليها واقام ملكه فيها ، أو كان حاكما لتلك المنطقة قبـــل الفتنة فاستقل بها ، وكل منهم يدعى انه حافظ لما تحت يده حتى يظهر الحاكم الشرعى فينزل له عنه طواعية ، وهم فى ذلك كاذبون ، وحسبما تقدم كان يقول قائلهم « أحق بالملك من استقل به ، ولو نازعنى فيه كبار الصحابة والخلفاء الراشدون لضربت عنقهم » [١٤] .

ولكى يصبغوا على حكمهم صـــفة الشرعية . فقـــد أقاموا لأنفسهم خلفاء ، واستتر بعضهم وراء خلفاء بنى أمية الأواخر الضعاف ، أو خلفاء بنى حمود الذين سماهم بعض ملوك الطوائف بأنهم أدعياء ولا حق لهم فى الخلافة . ففى أثناء الفتنة البربرية ، هرب الموالى العامريون أمثال خيران وزهير ومجاهد ومبارك ومظفر الى شرق الأندلس ، واستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية والمرية وغيرها . وقام أحدهم وهو مجاهد العـــامرى ، وأقام أحد أفراد أسرة بنى أمية ويدعى عبد الله بن عبد الله بن الوليـــد المعروف بالمعيطى خليفة فى دانيه ، وبايعه وسماه أمير المؤمنين ، واقلع معه غازيا الى سردانيا والجـــزائر الشرقية ففتحوها ، ثم لم يلبث أن غضب عليه مجاهد وخلعه ، ففر المعيطى الى أرض كتامة بالمغرب واستقر بها [١٥]

وقام غير مجاهد من الموالى العامريين بالدعوة الى خلفاء بنى حمود أو بنى أمية ، مثال ذلك خيران الصقلبى الذى أدت مساعدته لبنى حمود

---

(١٣) ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .
ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٣١ .

(١٤) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(١٥) ابن حزم ، الجمهرة ، ص ١٠٦ ، ابن عذارى ، المصـــــدر نفســـه ، ج ٣ ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

الى قيام خلافتهم فى قرطبة عام ٤٠٧ هـ ، ولما خاف خيران على نفسه من بنى حمود فر الى شرق الأندلس وأقام المرتضى الأموى خليفة ، ثم غدر به وقتله وقام بعد ذلك بالدعوة لهشام المعتمد آخر خلفاء بنى أمية بعد أن ساعد أهل قرطبة فى القضاء على حكم بنى حمود بها عام ٤١٧ هـ / ١٠٢٦م(١٦) .

ولما سقطت الخلافة الأموية نهائيا عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م ، قام بنو عباد ملوك اشبيلية واظهروا رجلا شبيها بهشام المؤيد ، ودعوا له بالخلافة عام ٤٢٥ هـ وبايعوه ، وأرسلوا الى الامارات والممالك الأخرى بالدخول فى دعوته وطاعته ، فاستجابت له وضربت النقود باسمه فى جميع امارات شرق الأندلس ، مثل دانية وطرطوشة وبلنسية وسرقسطة وتطيلة والمرية ولاردة وميورقة ، وهناك قطعة نقود ضربت باسمه فى سرقسطة عام ٤٤٦ هـ فى عهد الحاجب عماد الدولة أحمد ، كما اعترفت بخلافته بطليوس وطليطلة وقرمونة وما والاها من الأمراء الصغار مثل ابن نوح وابن خزون (١٧) .

ونلاحظ أنه قد اعترف بخلافة هذا الرجل الحصرى المشبه بهشام عرب وبربر وصقالية ، وكان لكل منهم هدفه الذى يسعى اليه من وراء هذا الاعتراف ، فان عباد مثلا كان يريد أن يناهض خلافة بنى حمود فى مالقة ويريد أن يستقطب أكبر عدد من ملوك الطوائف ضد بنى حمود وحلفائهم من بنى زيرى ملوك غرناطة . وكان هذا أيضا هو نفس هدف بنى جهور أمراء قرطبة . وقد استغل البعض تلك الدعوة للاستيلاء على الحكم ، مثال ذلك ما فعله عبد الله بن حكيم ابن عم منذر بن يحيى صاحب سرقسطة ، حيث قام عبد الله هذا بقتل ابن عمه منذر عام ٤٣٠ هـ واخرج راسه فوق عصا ونادى عليه « هذا جزاء من عصى أمير المؤمنين هشاما ودافع حقه » وكان (منذر) قد رفض الاعتراف بامامة هشام الحصرى متأسيا فى ذلك

---

(١٦) رجب محمد عبد الحليم ، دولة بنى حمود ، ص ٦٣ .

(١٧) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٨٣ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢١٩ .
Codera, Numismatice, pp. 136, 168, 175, 182, 254.

بوالده يحيى وبخاله اسماعيل بن ذى النـــون ملك طليطلة . وقد اعترف حفيد اسماعيل بامامته عام ٤٣٦ هـ (١٨) .

وقد اتى وقت على الأندلس وقد أصـــبح فيها أربعة خلفاء فى وقت واحد ، كلهم يتسمى بامرة المؤمنين ويخطب لهم بها فى زمن واحد ، وهم خلف الحصرى المشبه بهشام بأشبيلية ، ومحمد بن القاسم بن حمود فى الجزيرة الخضراء ، ومحمد بن ادريس بن على بن حمود فى مالقة ، وادريس ابن يحيى بن على بن حمود فى ببشتر وسبتة . وان دل هذا على شىء فانما يدل على مدى الابتذال الذى وصل اليه هذا المنصب الخطير . لكنها مصلحة الأمراء الشخصية التى فرضت هـــذه الأوضـــاع ، وما ان ينتفى الغرض منها حتى تزول بأدنى اشارة ممن اقاموها ؛ مثلما فعل المعتضد بن عباد عندما أعلن موت هشام المؤيد عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م وقطع الدعوة له بعد أن استتب له الأمر ومد سيطرته على جميع جيرانه ، وبعـــد أن زالت خـــلافة بنى حمـــود قبـــل ذلك بعـــامين على يد بنى زيرى أمراء غرناطة (١٩) .

وقد لجأ ملوك الطوائف لتدعيم نفوذهم الى الاستعانة بقوة روحيـــة أخرى ، تلك القوة التى تتمثل فى رجال الدين من الفقهاء والعلماء . وقد كان الفقهاء فى الواقع فى هذا العصر الذى ســـاد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية والسياسية أكبر عضـــد لأمراء الطوائف فى تبرير طغيانهم وظلمهم ، وتزكية تصرفاتهم وابتزازهم لأموال الرعية . وقد كانوا يأكلون على كل مائدة ، ويخدمون هذا أو ذاك من الأمراء والملوك ليحوزوا النفوذ والمال ، ويضعون فتاويهم الفقهية فى خدمة الســـلاطين ، تأييدا لظلمهم وجورهم باسم الشرع حتى ضج منهم كتاب ذلك العصر ، منهم ابن حزم وابن حيان وغيرهم ممن وصفوهم فى كتاباتهم بأبشع الصفات (٢٠) .

---

(١٨) ابن حيان برواية ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٧٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩ .

(١٩) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٩ .

(٢٠) ابن حزم ، الرد على ابن النغريلة اليهودى ، ص ١٧٤ .

ابن حيان برواية ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

المقرى ، المصـدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

فهذا ابن حزم يقول عنهم « لا يغرنكم الفساق والمنتسبون الى الفقه واللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم » وذاك ابن حيان يقول عنهم أيضا انهم سكتوا عن ظلم الحكام « وأصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط فى أهوائهم وبين مستشعر مخافتهم ، آخذ بالتقية فى صدقهم » ، أما المقرى فيتابعهم بقوله ان شر العلماء علماء السلاطين ويذكر ان علماء هذا العصر صاروا يسعون الى الحكام بعد أن كان الحكام هم الذين يسعون اليهم [21] .

لكن يبدو أن أسلوب ملوك الطوائف فى الحياة وطريقتهم فى الحكم لم تكن تعجب جميع رجال الدين ، فقد رأينا فريقا منهم من المخلصين لمبادئهم الدينية ، يفضلون العيش فى عزلة عن الحكام حتى ولو ذاقوا طعم المسغبة ، واعتبروا أن العملة المتداولة فى أيدى الناس انما نبعت من سحت ، ورفضوا تولى مناصب القضاء والمناصب الأخرى احتجاجا على الفوضى السياسية والدينية والأخلاقية التى كان يعيشها الحكام منذ الفتنة البربرية فى مستهل القرن الخامس الهجرى . وكان ابن حزم وأسرته من هؤلاء الذين « ذاقوا مرارة الحرمان وهجر الأوطان وترك الخلان » [22] .

وقد عرض قسم من هؤلاء الفقهاء أنفسهم لغضب الحكام وانتقامهم ، كما حدث للفقيه أبى الحسن الهوزنى الذى قتله المعتضد بيديه عندما تجرأ فنبهه الى الخطر الذى يتهدد البلاد نتيجة خطأ سياسة ملوك الطوائف ، كذلك قام حفيده الفتح بن محمد بن عباد بقتل الفقيه عمر بن حيان بن خلف ابن حيان بالمدور ومثل بجثته عام ٤٧٤ هـ . وكان هذا من عوامل الضعف التى ألمت بعصر ملوك الطوائف اذا قارناه بعصر خلفاء أو أمراء بنى أمية

---

(٢١) المصادر السابقة ونفس الصفحات .

(٢٢) النباهى ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ ، ٨٩ ، الحميدى ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

ابن بشكوال ، الصلة ، جـ ١ ، ص ٣٥ - ٤٣ ، جـ ٢ ص ٤٧٦ ، ٤٨٠ ، ٤٩١ .

ابن عبد البر ، القصد والأمم ، ص ٥ .

صلاح خالص ، المرجع نفسه ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

الذين كانوا يحترمون العلماء ولا يجرءون على عزلهم حتى لو بالغـوا فى تقريعهم ونصحهم . وكان لعدم رضـا هذا القسم من رجال الدين تأثيره المهم فى انهيار نظام ملوك الطوائف وتداعى دويلاتهم وفى حمل العـامة على التنكر لملوكهم وتأييد المرابطين الشديدى التعصب للدين [٢٣] .

وبذلك انهارت الدعامة الروحية التى استند اليها ملوك الطوائف فى حكمهم لرعاياهم ، فلم يكن الخلفاء الذين أقاموهم سوى دمى لم تنل احترام الناس وتقـديرهم ، وكذلك أولئـك الفقهاء الذين ظاهروهم وأيدوهم فى سياستهم ، لم يكونوا أيضا محل تقدير الناس أو رضاهم ، وظهور ذلك واضحا فى الأمثلة العامية التى انتشرت بين أفراد الشعب انتقادا لمسلكهم المشين ، مثال ذلك بعد وضعه فى صيغة عربية سليمة « اتق الله العظيم ولا تشارك فى صفقة مع فقيه » [٢٤] .

ولما كان ملوك الطوائف يعرفون حقيقة سياستهم وأنها لا يمكن أن تنال رضا الناس مهما اقاموا من خلائف أو قربوا من فقهاء وعلماء . لذلك نراهم قد ركزوا اهتمامهم على اتخاذ قوة مادية عسكرية يستطيعون بها أن يحققوا أهدافهم وتتمثل تلك القـوة فى العبيـد من جهـة وفى الجنود المرتزقة من جهة أخرى . وكان الخلفاء يعتمدون اعتمادا كبيرا على أثر الدعوة للجهاد فى نفوس الناس ، ولم يكن لملوك الطوائف أن يعلنوا الجهاد لأن جهـادهم أصبح ضد اخوانهم المسلمين فى الامارات المجاورة ، كما أنه لم تكن لهم الصفة الشرعية لاعلان تلك الدعوة رغم ما لجأوا اليه من اقامة خلافة هنا أو هناك ، ولذلك لجأوا الى استعمال الجند المرتزقة على نطاق واسع بغض النظر عن أصلهم أو دينهم . وعلى هذا تدفقت عليهم أعداد غفيرة من نصارى الشمال نظير أجور معينة ، ولم يشذ عن ذلك أى مملكة من ممالك الطوائف الرئيسية ، فكلها استعانت بهم كمأجورين أو حلفاء [٢٥] .

---

(٢٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٢٤) صلاح خالص ، المرجع نفسه ، ص ٦٤ .

(٢٥) ابن حيان ، برواية ابن عذارى ، المصدر نفسـه ، ج ٣ ، ص ١٢٥ ، ١٦٠ ، ٢٦١ .

ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٩٧ ، ص ٢٧٢ .

ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

جـ ـ عوامل الضعف واثرها فى علاقة ملوك الطوائف بأسبانيا النصرانية :

تلك هى سمات عصر ملوك الطوائف وبعض مظاهر الضعف فيه . وهناك عوامل عديدة أدت الى ذلك وساعدت عليه ، منها صراع ملوك الطوائف ضد بعضهم البعض ، وصراع حكام كل مملكة على كرسى العرش بها ، وما صاحب ذلك من فساد هؤلاء الملوك وما أدى اليه من فساد طبقة الوزراء والموظفين ، وما نتج عن ذلك كله من انتشار العيوب الخلقية والاجتماعية والاقتصادية بين افراد الشعب الأندلسى نفسه فى مختلف ممالكه واماراته العديدة المتناحرة . وكى تتضح الصورة تماما ويظهر أثر تلك العوامل العديدة على مستقبل الاسلام فى بلاد الأندلس لا بد أن نتحدث عن كل منها فى شيء من التفصيل .

١ ـ علاقة ملوك الطوائف بعضهم بالبعض الآخر وصراعهم على السلطان :

خاض ملوك الطوائف حروبا مستمرة بعضهم ضد البعض بمساعدة الجند المرتزقة من نصارى الشمال أو من البربر ، وقد بذلت محاولات للصلح وجمع الشمل ، ولدينا عدة رسائل من الكاتب أبى عبد الله البزليانى الى صاحبى شاطبة والى غيرهما من أمراء شرق الأندلس ، يدعوهما فيها الى التعاون مع المظفر أبى محمد الذى لا يبعد أن يكون هو عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، لأنه يذكر أنهما تحالفا مع الموفق أبى الجيش وهو لقب مجاهد العامرى صاحب دانية ، وان كلا من الطرفين المتحاربين استعانا بالنصارى . وكان مجاهد العامرى فى صراع مع ابن أبى عامر بسبب السباق على ملك المرية بعد مقتل زهير العامرى حسبما تقدم [٣٦] .

والكاتب فى هذه الرسائل التى احتفظ لنا ابن بسام ببعضها يعيب على هؤلاء الأمراء الاستعانة بالنصارى ويحذرهم من ذلك حتى لا يقف هؤلاء الأعداء على عورات المسلمين ولا يعرفون مواطن الضعف عندهم ، اذ لو عرفوا ذلك واستعانوا بملوك النصارى الآخرين سواء فى اسبانيا أو فى

---

(٣٦) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٤٥٤ ـ ٤٥٩ .
القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٥٣ .

غيرها واتوا لمحاربة المسلمين ، حينئذ لا يمكن مقاومتهم ، ولا بد أن ينتهى الأمر باخلاء الجزيرة من المسلمين . تنبأ كاتب القرن الخامس الهجرى بما حدث فعلا بعد عدة قرون ، ولم يكن هذا الا بسبب تلك الأحقاد والصراعات العقيمة على السلطة ، والاستعانة بنصارى الشمال ضد بعضهم البعض (٢٧) .

أما عن الصراعات والحروب التى اندلعت بين ملوك الطوائف فاننا نذكر منها ذلك الصراع الذى نشب بين بنى زيرى أمراء غرناطة وبين حكام المرية وخاصة خيران الصقلبى الذى اتى مع المرتضى وهزم عام ٤٠٩ هـ ، وزهير الذى حكم المرية بعد موت خيران عام ٤١٩ هـ . وكان زهير قد طمع فى ملك غرناطة ، لكن باديس بى حبوس أمير غرناطة هزمه وقتله عام ٤٢٩ هـ ، واستولى على المرية معن بن صمادح غدرا من يد صهره المنصور عبد العزيز بن عامر . وقام الأمير عبد الله بن بلقين أمير غرناطة ببناء بعض الحصون لمحاصرة ابن صمادح ، ولما تبين له ضعفه ، هدم تلك الحصون وصالحه واستألفه ، لأن جارا ضعيفا خير من جار قوى لا يمكن العيش بجواره حسبما اعتقد أمير غرناطة (٢٨) .

وكان هناك صراع آخر بين بنى زيرى الصنهاجيين حكام غرناطة وبين بنى عباد حكام اشبيلية ، وكان بنو عباد فى حرب مستمرة مع هؤلاء البربر من صنهاجة وقاموا بالايقاع بين بربر زناتة فى قرمونة وبين صنهاجة وذلك حتى يصمدوا لتلك القوة الكبيرة التى شكلها بنو حمود وبنى زيرى فى جنوب الأندلس . واستطاع بنو عباد قتل خليفة بنى حمود يحيى المعتلى فى كمين عام ٤٢٧ هـ ، ولما حاول بنو عباد الاستيلاء على قرمونة وأشبونة واستجه ، ارسل حكامها من لابربر الى بنى حمود وبنى زيرى الذين أسرعوا لنجدتهم ، وتمكنوا من هزيمة جيوش بنى عباد وقتل قائده اسماعيل بن عباد عام ٤٣٠ هـ (٢٩) .

---

(٢٧) ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، جـ ٢ ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .
(٢٨) ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٨٩ ، ٩٠ .
(٢٩) ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ .
ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ١٠٤ .

استمر الصراع بين الفريقين حتى استولى بنى زيرى على مالقة وقضوا على بنى حمود عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، ثم استطاع بنو عباد الاستيلاء منهم على جيان عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م ، فاضطر أمير غرناطة للاستعانة بقوات الفونش السادس ملك قشتالة . لكن المعتمد بن عباد أرسل وزيره أبا بكر بن عمار الى الفونش السادس وعقد معه حلفا ضد غرناطة نظير خمسين الف دينار . وكان ابن ذى النون أمير طليطلة قد توسط لدى الفونش حتى يرضى بمحالفة غرناطة ، ويتمكن هو من الاستيلاء على قرطبة ، وقد أراد الفونش أن يصعد الخلاف ويكرس العداوة بين المسلمين فحالف غرناطة ، وترك ابن ذى النون يستولى على قرطبة عام ٤٦٢ هـ . وكانت قرطبة فى الواقع تحت سيطرة بنى عباد (٣٠) .

ولما اسرع بنو عباد لانقاذ قرطبة من يد ابن ذى النون وكان كلاهما يستعين بالنصارى المرتزقة ، أدرك الأخير صعوبة بقائه على حصار قرطبة وعاد الى طليطلة ، وانتهز بنو عباد الفرصة واستولوا على قرطبة من يد حلفائهم بنى جهور ، وان كان ابن عذارى يقول ان ذلك تم باتفاق أهلها مع بنى عباد ، بسبب سوء سيرة عبد الرحمن الذى كان أبوه أبو الوليد بن جهور قد تنازل له عن حكم المدينة . وتم القبض على بنى جهور ، أما شيخهم أبو الوليد فقد اختبأ فى مقصورة هو وبناته ونساؤه فاقتحمها عليه قوم من النصارى وجردوهم مما معهم ، وتم نفيهم الى جزيرة شلطيش . وهكذا انتهى ملك بنى جهور فى قرطبة على يد بنى عباد عام ٤٦٧ هـ (٣١) .

وكانت علاقة أشبيلية بجيرانها من بنى الأفطس حكام بطليوس سيئة أيضا ، بسبب الصراع على مدينة لبلة التى تقع بينهما ، وقامت الدروب

---

(٣٠) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٦٩ – ٧٦ ، ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، جـ ٢ ، ص ١٢٤ .

(٣١) ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، جـ ٢ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨ . ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٥٨ – ٢٦١ . ابن سعيد ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

بسبب ذلك . واستعان بنو الأفطس ببنى جلدتهم من البربر حكـام قرمونة ، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم عام ٤٢١هـ / ١٠٣٠ م وقتل أمـير قرمونـة كمـا قتـل عبيد الله الخراز صـاحب بابرة وابن عم حاكم بطليـوس ، ونجا ابن الأفطس نفسه بصعوبة بالغة ، وبلغ عدد قتلاه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف ، وكانت الخسارة كبيرة لدرجة أن بطليوس بقيت مدة من الزمن خالية من سكانها الا من الشيوخ والأطفال والنساء (٣٢) .

وانتقم ابن الأفطس لنفسه من بنى عبـاد بطريقة غير شرعية ، لكنها تدل على روح العصر وعلى ماساده من صراع لا يحكمه أى مبدأ من مبادىء الأخلاق . ذلك أنه فى عام ٤٢٥ هـ / ١٠٣٤ م سمح عبد الله بن الأفطس أمير بطليوس لجيش بنى عباد أن يمر عبر أراضيه لقتال مملكة ليون ، وأثناء عودته هاجمه ابن الأفطس بغتة ، وقتل من جنود أشبيلية عددا كبيرا ، وفر اسماعيل بن عباد ونجا من الموت بصعوبة ، ومنذ ذلك الحين تأصلت العداوة والبغضاء بين بنى عباد وبنى الأفطس (٣٣) .

وكان هناك صراع بين بنى ذى النون البربر حكام طليطلة ، وبين بنى هود الجذاميين العرب حكام سرقسطة ، ودانية (بعد أن استولوا عليها من على ابن مجاهد العامرى) وطرطوشة (بعد أن مات صاحبها لبيب ثم مقـاتل الفتى العـامرى) . وكان الصراع بين بنى ذى النون وبنى هود بسبب تنافسهم على امتلاك مدينة وادى الحجارة ، ولما استولى عليها سليمان بن هود قامت قيامة المأمون بن ذى النون ، واستعان بنصارى الشمال ، ودعته الضرورة أيضـا الى محالفة المعتضد بن عبـاد والدخول فى دعوته لخلف الحصرى المشبه بهشام عام ٤٣٦ هـ (٣٤) .

ازاء ذلك استعان ابن هود بملك آخر من نصارى الشمال ، واستطاع أن يعيث فى طليطلة وأعمالها ، وأن يدمر زرعها ، فأرسل اليه أهلها يطلبون

---

(٣٢) ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٣٣) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٠٣ .

دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٣٤) ابن بلقـين ، مذكراته ، ص ٧٧ ، ابن عـذارى ، المصدر نفسـه ، جـ ٣ ، ص ٢٢٤ ، ٦٧٧ .

الصلح ، فتظاهر ابن هود بموافقتهم الى ما طلبوا ، ثم لم يلبث أن سار هو وحلفاؤه من النصارى ، واحتلوا مدينة سالم التابعة لبنى ذى النون ، وساعده على ذلك عبد الرحمن بن اسماعيل بن ذى النون الذى كان ينازع أخاه يحيى صاحب طليطلة فى حكمها . ودامت الفتنـة بين ابن هود وابن ذى النون من عام ٤٣٥ هـ الى آخر عام ٤٣٨ هـ ولم تنته الا بوفاة سليمان بن هود . ولما زال خطر سرقسطة عن طليطلة ، بدأ أميرها يستعد لمنـازعة ابن الأفطس صاحب بطليوس وبنى جهور أصحاب قرطبة (٣٥) .

وما أن أحس بنو جهور بذلك حتى عقـدوا حلفا مع أمراء بطليوس واشبيلية ضـد بنى ذى النـون أمراء طليطلة ، وتحالف هؤلاء بدورهم مع بلنسية ومع قشتالة النصرانى ، واستطاعوا أن يوقعوا بقوات قرطبة ، لكن العباديين أنقذوها واستولوا عليها حسبما تقـدم ، وعاد الطليطليون مهزومين عام ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م (٣٦) .

وقام الدور الثانى من الصراع بين بنى عباد فى عهد المعتمد بعد وفاة والده المعتضد عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م وبين المامون بن ذى النون ، وكانا أقوى ملكين فى الأندلس فى ذلك الوقت بعد أن حطمت الحروب الأهليـة الدويلات الاسلامية الأخرى . ولما رأى المامون أن اشبيلية مشغولة بحروبها مع بنى حمود وبنى زيرى ، وأن بنى الأفطس يقتتلون فيما بينهم على كرسى الحكم عقب وفاة محمد بن عبد الله المظفر ، وأن بنى هود حكام سرقسطة يشتبكون مع جيرانهم النصارى فى حروب دموية مستمرة ، رأى الفرصـة سانحة للعمل ، وانقض على العامريين اصحاب تدمير ومرسية وانتزعها منهم ، وكان هؤلاء حلفاء لبنى عباد (٣٧) .

وما كاد المعتمد بن عباد يقف على فعلة المامون حتى أرسل وزيره ابن عمار الى ريموند برنجار أمير قطلونية (برشلونة) ، وحالفـه على

---

(٣٥) ابن عـذارى ، المصـدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٨٠ - ٢٨٣ .

(٣٦) يوسف اشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ٤٩ ، ٥١ .

(٣٧) يوسف اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

مساعدته ضد طليطلة . وما ان وصل ريموند الى مرسية ، حتى وجد قوات طليطلة وبلنسية وقونقة ودانية ومربيطر وشاطبة وشنتمرية الشرق والسهلة ، تعاونها فرقة من المرتزقة من قشتالة وجليقية ، فأدرك استحالة الهجوم ، لكن قوات طليطلة وحلفاءها أجبرته على دخول المعركة ، وهزمته هو وحلفاءه الأشبيليين هزيمة ساحقة ، واستولى المأمون على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى (٣٨) .

ولم يضيع المأمون وقته سدى ، اذ وجه بعد ذلك عدة جيوش تجاه سرقسطة وبطليوس وجيان حتى لا يترك لها فرصة التحالف مع أشبيلية ، وانقض جيشه على قرطبة بغتة ، فسقطت دون مقاومة ، ثم واصل جيش المأمون زحفه الى أشبيلية ذاتها واقتحمها عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م ؛ منتهزا فرصة غياب المعتمد فى حربه لبنى زيرى فى غرناطة . لكن المأمون اطال البقاء فى أشبيلية حتى اختتم المعتمد حربه فى الجنوب بنجاح ، وعاد الى عاصمته واستردها منتهزا فرصة وفاة المأمون عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٦ م (٣٩) .

استمر الصراع بين ملوك الطوائف حتى سقطت طليطلة فى يد الفونش السادس ملك قشتالة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، فأتوا اليه مهنئين ، يحملون الهدايا ويعلنون الطاعة ، وبلغ من سخرية القدر أن أحدهم كافأه الفونش على هديته بقرد ، فصار يفخر به على سائر زملائه من ملوك الطوائف . وكان سقوط طليطلة بهذا الشكل المخذى دليلا واضحا على فشل حكم ملوك الطوائف ونتيجة طبيعية لذلك الصراع الذى استمر بينهم ولم يهدأ لحظة واحدة (٤٠) .

٢ ــ الصراع الداخلى فى كل مملكة على الحكم :

ولم يكن ملوك الطوائف موفقين أيضا فى علاقاتهم مع شعوبهم أو فى سياستهم الداخلية . ويبدو أنهم كانوا يقبضون على السلطان بأيد مرتعشة ،

---

(٣٨) يوسف أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٥٥ .

(٣٩) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٧٨ ، ٧٩ .
يوسف أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٤٠) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

اذ لم تنج اسرة واحدة من الأسرات الحاكمة من الصراع الداخلى بين أفرادها على كرسى الحكم ، ولذلك لم يكن هناك استقرار سياسى يمكنهم من العمل لخير شعوبهم . وقد كان هناك أمل فى أن يقوم بنو حمود بصفتهم أدارسة حسنيون من آل البيت ، أن يسدوا الفراغ السياسى الذى نجـم عن تهاوى خلافة بنى أميـة ، الا أن الصراع الداخلى بين أفراد الأسرة الحمودية لم يمكنها من تحقيق هذا الهدف .

فمن البداية وعقب مقتل اول خلفاء بنى حمود تنـازع ولداه يحيى وادريس مع عمهما على الخلافة ، وتبادلا حكم قرطبة عدة مرات ، وكان يحيى بن على بن حمود مؤيدا من البربر ، وعمه القاسم بن حمود مؤيدا من السودان . وتسبب هذا الصراع فى انفصال أشبيلية واستقلالها تحت حكم بنى عباد منذ عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، كما سقطت الخلافة الحمودية نفسها فى قرطبة ، وعادت الخلافة الأموية الهزيلة ثم اختفت ، وقام فيها حكم بنى جهور منذ عام ٤٣٢ هـ / ١٠٣٠ م . واستمر الصراع داخل الأسرة الحمودية مما اضعفها وجعلها تسقط فى أيدى حلفائها من بنى زيرى حكام غرناطة عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٨ م . وفى العام التالى قام المعتضد بن عباد باسقاط الفرع الحمودى فى الجـزيرة الخضراء . وبذلك انتهت دولة بنى حمـود نتيجة لانقسامهم على أنفسهم ولضعف خلفائهم الأواخر [٤١] .

ولم ينج بنو زيرى أمراء غرناطة من هذا المرض ايضـا ، اذ ظهر الانقسام بين أفراد الأسرة الزيرية عقب وفاة حبوس بن ماكسن الذى كان قد تولى حكم غرناطة عقب رحيل زاوى بن زيرى عنها فى عام ٤١٠ هـ . وكان حبوس قد قسم أعمال غرناطة على أقاربه وبنى عمومته من بربر صنهاجة ، حتى اصبح كل منهم سلطانا على ما يليه ، له اجناده وحكومته ، وكان حبوس يستشيرهم فى اموره ولا ينفـرد بأمر دونهم . فلما توفى قام أحدهم وهو يدير بن حباسة وحاول الاستيلاء على مقاليد الحكم فى غرناطة من يد باديس الذى تولى الحكم بعد وفاة والده حبوس ، وعرف الوزير

---

(٤١) رجب محمد عبد الحليم ، دولة بنى حمود فى مالقة الأندلس ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

اليهودى ابن النغرالة بذلك ونصح باديس بأخذ المتآمرين بالحيلة ، حتى لا ينهار حكم بنى زيرى ، فقبل النصيحة وضرب المتآمرين بعضهم ببعض ، فخلص له الحكم [٤٢] .

ورغم ذلك كان باديس محتاطا لنفسه ولابنه بلقين فبنى له قصبة مالقة بعد أن استولى عليها من بنى حمود عام ٤٤٩ هـ ، بنيانا لم يقدر على مثله احد فى زمانه ، وخبأ فيها أمواله وجميع ما ورثه ، وجعله ذخرا لابنه اذا ما ساءت الأحوال فى غرناطة ، سواء بتآمر بنى عمومته أو بمحاربة ملوك الطوائف . كما أخذ أقاربه بالشدة والعنف ، فاذا أحس من أحدهم بما يريبه ، حكم عليه بالنفى والمصادرة حتى لا يبقى لابنه بلقين من ينـاوئه بعد وفاته [٤٣] .

وقد اتت سياسة باديس بثمارها ، وحكم بلقين غرناطة بعيـدا عن الصراع الأسرى ، وترك ولدين هما تميم وعبد الله ، وحكم الأول مالقة ، وتولى الثانى حكم غرناطة نفسها ، وكالعادة قام الصراع بين الأخوين ، وحاول تميم سلب مدينة المنكب من أخيه ، وقام عبد الله بحربه وحصاره ، لكنه لم يلبث أن عقد معه الصلح حتى لا تذهب به العداوة أن يفرط فى مدينته ويسلمها لأعداء بنى زيرى ، كما فعل عمه ماكسن من قبل بجيان ، واكتفى عبد الله بتأديبه وأخلى له قلعة جطرون بدل المنكب ، لأن رعيتها نصارى ، فهم على الحياد بينه وبين أخيه تميم . ورغم ذلك فقد قام تميم هذا بدور مخجل عند قدوم المرابطين ، اذ انه شكا أخاه اليهم وتسبب فى اضعاف مركز بنى زيرى والقضاء عليهم فى النهاية [٤٤] .

ولم يكن بنو ذى النون أسـعد حظا من بنى زيرى ، اذ أن يحيى المأمون بن اسماعيل بن ذى النون (٤٣٥ ــ ٤٦٧ هـ / ١٠٤٣ / ١٠٧٤) خرج عليه أخوه عبد الرحمن وعمه (أرقم) . أما أخوه فقد حاول الاستيلاء

---

(٤٢) ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٢٦ ، ٣٤ .

(٤٣) ابن بلقين ، المصدر نفسه ص ٣٦ ، ٤٣ .

(٤٤) ابن بلقين ، المصدر نفسه ص ٩٠ ، ٩٤ .

على السلطة من المأمون واتصل بأعداء البلاد من بنى هود حكام سرقسطة والثغر الأعلى ، ودلهم على عورات البلاد . أما عمه (أرقم) فقد كان أديبا لامعا ، فحسده ابن أخيه المأمون على ذلك وأظهر له البغض ، فخاف الأمير أرقم وفر الى الثغر الأعلى ، ثم شد رحاله الى فردناند ملك جليقية وحليف بنى هود ، الذين كانوا أعداء ابن أخيه المأمون بن ذى النون ، وأتى معه لمعاقبة طليطلة والانتقام منها لما فعله حليفها شانجة ملك قشتالة بأراضى بنى هود ، ولينتقم أرقم لنفسه من ابن أخيه المأمون (٤٥) .

وكان المأمون غائبا عن طليطلة ومقيما بمدينة سالم حتى يمنع عنها هجوم بنى هود المتوقع ، وأدى الأمر الى شراء أهل طليطلة حريتهم وحياتهم من فرديناند (فرذلند حسب الرواية العربية) بالأموال . واستطاع المأمون بعد ذلك أن يتخلص من عمه بالحيلة والخديعة ، اذ أنه دس الى فرديناند من أوعز اليه بأن أرقم ما هو الا جاسوس لابن أخيه المأمون ، فقتله ، وفرح بذلك المأمون وقال « الحمد لله : هذه نعمة من جهتين ، فقد عدو ، ووجوب ثأر نطلب به » (٤٦) .

وكانت أسرة بنى هود ملوك سرقسطة والثغر الأعلى مثالا آخر للصراع الأسرى المقيت . ولم تع هذه الأسرة الدرس الذى نالت به حكم سرقسطة من يد بنى تجيب عام ٤٣٢ هـ / ١٠٣٩ م ، اذ أن صراعا نشب داخل الأسرة التجيبية عام ٤٣٠ هـ ، انتهى بقتل أميرها واستيلاء سليمان بن هود حاكم لاردة والملقب بالمستعين عليها . وارتكب سليمان المستعين خطأ سياسيا عندما قسم بلاده على أولاده الخمسة قبل موته . وما لبث الصراع أن نشب بين الاخوة بعد وفاة والدهم ، واستطاع أحدهم وهو أحمد عماد الدولة المقتدر (٤٤١ — ٤٧٤ هـ / ١٠٤٩ — ١٠٨١ م) أن يستولى على أملاك اخوته عدا يوسف عماد الدولة المظفر صاحب لاردة (٤٧) .

---

(٤٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨١ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ١٤ .

(٤٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨١ ، ابن سعيد المغرب ج ٢ ، ص ١٤ .

(٤٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ ، ج ٤ ، ص ٥٤ ، ٥٥ . أبو الفدا ، تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

وقد تسبب أسلوب أحمد المقتدر فى اغتصاب أملاك اخوته ، أن كرهه الناس ومالوا الى اخيــه يوسف المظفر . فحالف المقتــدر ملوك اسبانيا النصرانية ضد اخيه حتى انه تواطأ فى احدى المرات على قافلة تحمل الميرة والطعام نجدة لأهل تطيلة ، الذين كانوا قد أصابهم الجهد والغلاء ، وراسلوا لأميرهم يوسف المظفر يستنجدون به . وكان يوسف قد دفع الأموال لابن ردمير حتى تمر القافلة عبر أراضيه الى تطيلة ، لأنها لا يمكن أن تمر عبر أراضى اخيه المقتدر . لكن المقتدر بخسة ونذالة أرسل لابن ردمير من المال أضعاف ما أعطاه يوسف ، على أن يسمح له بمهاجمة القافلة ومن يحميها من جنــد يوسف . وانتهى الأمر بكارثة . اذ ضاعت القافلة واخذ النصارى أغلب رجالها وجنودها أسرى وفتكوا بالآخرين (٤٨) .

وازاء ذلك أحس الناس بأنه لا فائدة من بقائهم على طاعة يوسف ، ورأوا انه لا أمان لهم الا بالاعتراف بطاعة أخيــه المقتدر ، وانتهى الأمر بالقبض على يوسف وسجنه فى قلعة روطة ، وظل بها سجينا حتى مات أخوه المقتدر وتولى الامارة ابنه يوسف المؤتمن (٤٧٤ — ٤٧٨ هـ / ١٠٨١ — ١٠٨٥ م) وتمكن يوسف المظفر من الفرار من سجنه ، ولجأ الى الفونش السادس ملك قشتالة عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م واحتمى به وما لبث أن مات عنده بعد قليل ، وأتى الفونش بجيوشه الى سرقسطة زاعما أن المظفر كان قد تنازل له عن حقه المغتصب فيما كان يحكمه اثناء حياته ، لكن يوسف المؤتمن تمكن من هزيمة الفونش ، ونجا بامارته من هذا المأزق الخطير (٤٩) .

احتدم الصراع بين يوسف المؤتمن وبين أخيــه المنذر ، وكانا قد اقتسما المملكة ، ورغم هذا استمر المنذر ينازع أخاه يوسف المؤتمن ، ثم ابن أخيه أحمد المستعين بن يوسف المؤتمن (٤٧٨ — ٥٠٣ هـ / ١٠٨٥ — ١١٠٩ م) . وكان كل من الطرفين يستعين بملوك النصارى فى صراعه ضد

---

(٤٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٤٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .

د. حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص ١٠١ ، ١٠٣ .

الطرف الآخر ، مما تسبب فى ضعف حكم بنى هود لهذه المنطقة الهامة من الأندلس والتى كانت حاجزا بين المسلمين وما يليها من ممالك النصارى . وانتهز الفونش السادس فرصة الصراع بين المستعين وعمه المنذر وحاصر سرقسطة ، وكادت تسقط فى يده لولا مفاجأته بنزول المرابطين بلاد الأندلس عام ٤٧٩ هـ ، فبقيت أسرة بنى هود فى الحكم مدة اخرى حتى سقطت فى يد النصارى عام ٥١٢ هـ (٥٠) .

٣ ـ فساد ملوك الطوائف :

وفى غمرة هذا الصراع الدامى على الحكم داخل كل أسرة من الأسرات الملكية التى توزعت الأندلس فيما بينها ، وبين هذه الأسرات بعضها البعض ، ازداد فساد الحكام والأمراء والملوك ، وقاسى الشعب الأندلسى فى ظل حكمهم كثيرا من ضروب الاضطهاد والظلم ، فقد كان هؤلاء الحكام يعتبرون ممالكهم ضياعا خاصة يستغلونها كيفما يشاءون ويجعلون من شعوبهم عبيدا ليس عليهم الا الكد والكدح ودفع ما يطلب منهم من الضرائب الباهظة والغرامات الثقيلة ، حتى ساءت حال الرعية وبلغ الحال بالناس أن أكلوا البقل والحشائش ولبسوا الجلود والحصر ، وفر أكثرهم عن قراهم (٥١) .

وقد ادت هذه الحال الى أن قام الناس يبتهلون الى الله بالخلاص من هؤلاء الحكام الظلمة ، وسجلوا ذلك على لسان كتابهم المعاصرين أمثال ابن حزم وابن حيان . فهذا ابن حزم يرفع يديه الى السماء ويقول « اللهم انا نشكو اليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن اقامة دينهم ، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم فى معادهم ودار قرارهم ، وبجمع أموال ربما كانت سببا فى انقراض أعمارهم وعونا لأعدائنا عليهم عن حياطة ملتهم ... الخ » (٥٢) .

---

(٥٠) ابو الفدا ، تاريخه ، جـ ٢ ، ١٥٥ .
القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٥٥ .
د. حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ١٠٢ .
(٥١) ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٦٢ .
(٥٢) ابن حزم ، الرد على ابن النغريلة اليهودى ، ص ٤٥ .

وقد وصل انشغال الحكام بأمورهم الخاصة عن الكوارث التى كانت تصيب المسلمين على ايدى نصارى الشمال درجة تدل على أنهم لم يكونوا حكاما بالمعنى المعروف ، بل زعماء او رؤساء جماعات اعتبروا الشعب والأرض غنيمة لا تستحق حتى مجرد العناية بها والذب عنها . فقد أغار فردناند ملك ليون على بطليوس ودمرها واستباح حريمها وفعل بها الأفاعيل ، وورد الخبر على المأمون صاحب طليطلة ، ولما دخل عليه وزيره ابن مثنى وجده شديد الاطراق والضيق ، فأخذ يفرج عنه معتقدا أن ذلك لما سمعه مما أصاب المسلمين فى بطليوس ، لكن ابن مثنى ذهل عندما التفت اليه المأمون وقال له « الا ترى هذا الصانع الحقير الذى يتولى بنيان قصرى انه لا يمتثل لأمرى وينغص على لذتى ويستخف بامرتى » (٥٣) .

هكذا كان المأمون يهتم ببناء قصره ولا يهمه أن يذهب مسلمو بطليوس الى الجحيم . وقد أدى ذلك الى أن يقول ابن حزم عن هؤلاء الحكام « ان كل مدبر مدينة أو حصن فى شيء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله ، وساع فى الأرض بفساد ، والذى ترونه عيانا من شنهم الغارات على أموال المسلمين .. وضربهم المكوس والجزية على رقاب المسلمين ، وتسليطهم اليهود لتحصيلها ، كل ذلك بموافقة رجال من أهل الفقه والدين المنافقين الذين لا يهمهم الا مصلحتهم الشخصية ، ليدل دلالة مؤكدة على ضرورة التخلص من هؤلاء الحكام ، وقد أتت الفرصة عندما قدم المرابطون فطالبت الرعية فى صراحة ووضوح بضرورة عزلهم حتى يتخلصوا من هذا الظلم الذى عاشوا فيه ثمانين عاما » (٥٤) .

وقد أدى هذا الظلم فى جمع الأموال من الرعية وتحصيلها بغير الطريق الشرعى ، الى قول المعاصرين « أنه ليس فى الأندلس فى ذلك الوقت درهم حلال ولا دينار طيب يمكن القطع بأنه حلال عدا ما يستخرج من وادى لاردة من ذهب » . وكان أسلوب الحكام فى جمع تلك الأموال من القسوة

---

(٥٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٥٤) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ١٧٣ ، ابن بلقين ، مذكراته ، ص ١٢٠ ، ٢١٠ .
ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ١٥٨ .

والعنف أن فر الناس وتركوا ديارهم وقراهم حسبما تقدم . هذا فى الوقت الذى كان فيه ملوك نصارى الشمال الأسبانى يوزعون ما تصل اليه أيديهم من أموال ، سواء من الجزية المفروضة على المسلمين أو غير ذلك على رجالهم ، فكانوا يدخلون الكنيسة ويقسمها سلطانهم على رجاله بالطاس ، ويأخذ مثلما يأخذون ، وربما يتنازل عن نصيبه لهم ، وبذلك كانوا يصطنعون الرجال ، بينما كان سلاطين الأندلس يخزنون الأموال ويضيعون الرجال ، فكان للنصارى بيوت رجال وللمسلمين بيوت أموال ، وبذلك انتصروا وقهروا المسلمين وأذلوهم(٥٥) .

وكما كان التناقض بين ملوك الطوائف على الحدود وحيـازة المدن والقلاع ، كان تنافسهم شديدا فى بناء القصور ، والمتنزهات واتخاذ الألقاب ، فهذا نقش عثر عليه بمدينة قونكة سجل عليه القاب اسماعيل بن ذى النون ويصفه بأنه « حسام الدولة أبو أحمد اسماعيل بن المأمون ذى المجدين بن الظافر ذى الرئاستين » ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد تلقبوا بالقاب الخلفاء حتى قال فى ذلك بعض الشعراء : (٥٦)

مما يزهـــدنى فى أرض أندلس — تلقيب معتضـد فيها ومعتمـد

القاب مملكة فى غـير موضـعها — كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وفى الحقيقة لم تكن لهذه الألقاب قيمة ، وقد صرح بذلك المعاصرون وعابهـا عليهم ملوك الشمال ، لكنها كانت لازمة لاسـدال مظهر العـزة السلطانية والأبهة الملوكية على بلاط هؤلاء الحكام الذين غرقوا فى النعيم حتى الثمالة ، ويكفينا وصف حيـاة عبدين خصيين من عبيد آل عامر كانا يديران ساقية فى بلنسية ، ثم توليا امارة بلنسية وشاطبة زمان الفتنة ، وبلغت جبايتهما لأول ولايتهما مائة وعشرين ألف دينار سـنويا ، فاتخـذا

(٥٥) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ١٧٥ ، الطرطوشى ، سراج الملوك ص ١٠٨ .
ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١٦٢ .
(٥٦) المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٩٩ .
Levi - Provencal, Inscriptiones, pp. 190, 191.

البساتين الزاهرة ، والروض الناضرة وأجريا بها الحيـاة المتدفقة وبنيا القصور ، وانغمسا فى النعيم الى قمم رأسيهما ، وأخلدا الى الدعة ، وسارعا فى انتهاب اللذة حتى أربيا على من تقدم وتأخر . وكان موكبهما يوم خروجهما الى المسجد للصلاة يوم الجمعة ، يفوق موكب مولاهما المظفر عبد الملك بن أبى عامر (٥٧) .

وكان ملوك الطوائف لا يتركون شيئا يدعمون به ملكهم ويظهر هيبتهم ، الا حرصوا عليه واغتنموه ، من ذلك بذلهم العطاء الوافر للشعراء والأدباء واسرافهم فى ذلك اسرافا لا مثيل له ، وعلى سبيل المثال فقد منح المعتمد ابن عباد الشاعر عبد الجليل بن وهبون ألفين من الدنانير على بيتين اثنين من الشعر ، بينما منح المعتصم بن صمادح قرية بأكملها للشاعر أبى الفضل جعفر بن أبى عبد الله بن شرف البرجى ، عندما أتى اليه يشتكى من عامل تلك القرية وأنشده رائيته الشهيرة التى مطلعها :

قامت تجر ذيول العصب والحبر ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

ولما بلغ منها قوله :

لم يبـق للجـور فى أيامهم أثر الا الذى فى عيون الغيد من حور

قال له المعتصم : « لقد أعطيتك هذه القرية نظير هذا البيت الواحد ، ووقع له بها وعزل عنها نظر كل وال » (٥٨) .

وكان كثير من ملوك الطوائف يقولون الشعر ويبرعون فيـه . وقد شغلهم ذلك وشغلتهم حياتهم الخاصة عن سياسة ملكهم وادارة حكمهم على النهج السليم ، حتى قال البعض من المستشرقين أن عبقرية مسلمى أسبانيا

---

(٥٧) ابن حيان بروايته ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥٨ ـ ١٦١ .
ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ابن الكرديوس ، الاكتفاء ، ص ٨٩ .
(٥٨) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٩٢ .
بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٩٧ ، ١١١ .

كانت من الطراز الأول ، لكن نبوغهم السياسى لم يبلغ الكمال . وماذا يفيد الشعر والأدب فى رد اعتداءات النصارى أو فى رد المظالم عن الرعية ؟ ويكفى ما قاله أحد البدو حينما سمع شعرا وعرف أنه للمعتمد بن عباد فقال « أظن هذا الملك لم يكن له من الملك الا حظ يسير ، ونصيب حقير ، فمثل هذا الشعر لا يقوله من شغل بشيء دونه » (٥٩) .

اما المجون والخلاعة وشرب الخمر والاستغراق فى الملذات الجسدية والاكثار من الجوارى والنساء فكان قاسما مشتركا بين جميع ملوك الطوائف. فهذا هو المعتضد بن عباد ، يقولون عنه أنه « كان له كلف بالنساء وخلط فى أجناسهن فانتهى فى ذلك الى مدى لم يبلغه أحد نظرائه » ، وهذا ابنه المعتمد يقولون انه خلع ثمانمائة امرأة من امهات الأولاد وجوارى المتعة واماء الخدمة بالاضـــافة الى ولوعه بالخمر وانغماسه فى الملذات . أما بنو زيرى حكام غرناطة فكان الوزراء لا يرون وسيلة يشغلونهم بها حتى يستبدوا هم بالحكم والسلطان الا باغراقهم فى الملذات واشغالهم بالنســـاء اللائى كثرن وكون فرقا ، كل فرقة منهن كانت تطمح فى ولاية من تربيه من أبناء السلطان حتى يكون لها الحظوة والغلبة ، فكثرت مؤامرات البلاط لهذا السبب (٦٠) .

وهذا هو يحيى المأمون ملك طليطلة الذى اشتغل بالخلاعة والمجون وأكثر مهادنة النصارى ومصانعتهم ، حتى يكون لديه متسع للهو واللعب واقتناص أموال الرعيـــة . أما على بن مجاهد صاحب دانية فقد « طلب السلم واغمد السيف وكانت همته فى خراج يجبيه ، ومتجر ينميه » وكان بعض خلفاء بنى حمود يسيرون أيضا على هذا النهج فلم يقع يحيى بن على بن حمود قتيلا عام ٤٢٧ هـ الا لأنه نزل ميدان المعركة مخمورا لم يفق بعد من سكره . ولم يكن كل هذا التهتك الا نتيجة لضعف الوازع الدينى

---

(٥٩) بالنثيا ، المرجع نفسه ، ص ١٠٦ ، لوبون ، حضارة العرب ، ص ٢٩٠ .

(٦٠) ابن الأبار ، الحلة السيرا ، جـ ٢ ، ص ٤٣ ، ٥٤ ، ٥٥ .
ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٥٠ ، ٨٤ ، ٨٥ .

وضياع القيم الأخلاقية واستئثار أخلاق اللذة والمنفعة الشخصية بكل شيء (٦١) .

٤ ــ فساد طبقة الوزراء والموظفين :

وقد انتشرت البلوى بين الموظفين والحكام الصغار الذين أخذوا بدورهم يقلدون ملوكهم وأمراءهم ، ويدلون بدلوهم فى نهب الرعية وظلم الناس . وكانت هذه الطبقة من جامعى الضرائب ورجال الشرطة وغيرهم من الموظفين محل الشكوى ، وكثرت أوصافهم بأنهم « مرتشون أشرار ظالمون فجار لا أيمان لهم ولا دين ولا ورع ولا يقين » ، وأنه يجب على القاضى أن لا يتركهم يظلمون الناس ويجب أن يكونوا تحت سلطانه ورقابته ، وعليه أيضا أن يدبر أمور الرعية مع السلطان الذى لا يجب أن يغلق بابه ويكثر حجابه ، الى آخر تلك الآمال التى كانت تداعب عقول الناس فى هذا العصر ، والتى لم تتحقق على الاطلاق (٦٢) .

ولم يكن هذا الانحلال والفساد قاصرا على صغار الموظفين بل انه كان ممثلا فى أعلى منصب بعد منصب الملك أو الأمير ، وهو منصب الوزير ، وقد حفل هذا العصر بطائفة من الوزراء الذين يمكن أن نسميهم بالوزراء المغامرين ، أشهرهم الشاعر ابن عمار وزير المعتمد بن عباد الأشبيلى . ويكاد يجمع معظم المؤرخين على أنه كانت له صلة خاصة بالملك ألفونش السادس ملك قشتالة وليون ، وأنه كان فيما يبدو صنيعة من صنائعه وأداة من أدواته يحركه لتسهيل مشروعاته ضد ملوك الطوائف . وقد استعان به فى الايقاع بغرناطة ، واعتمد عليه ابن عمار فى حركته الانفصالية ضد المعتمد بن عباد (٦٣) .

---

(٦١) العينى ، عقد الجمان ، ق ٤ ، جـ ١٩ ورقة ٦٤٢ ، ٦٤٣ .
ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ١٠٦ .
ابن الكرديبوس . الاكتفاء فى اخبار الخلفاء . ص ٧٧ .
رجب عبد الحليم ، دولة بن حمود ، ص ١١٣ .

(٦٢) ابن عبدون ، ثلاث رسائل اندلسية فى آداب الحسبة ، ص ٣ ، ٥ ـ ص ٧ ، ١٤ ـ ١٨ ، ٣٠ .

(٦٣) صلاح خالص ، المعتمد بن عباد ، ص ١٣٥ .

كان ابن عمار لا يعمل الا لمصلحته الشخصية مقتديا فى ذلك بحكام وساسة عصره ، وقد ظهر ذلك أثناء حملته على مرسية ، وبدل أن يخضعها لحساب مليكه المعتمد ، استولى عليها لنفسه ، وأخذ يقول الشعر فى هجاء المعتمد وأسرته ، وجلس للناس كما يجلس الملوك ، وأظهر الاستخفاف بالناس ، ثم دخل طليطلة كرسول من قبل الفونش السادس ، وتآمر مع أشرافها فى عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٣ م على الثورة ضد ملكها القادر بن ذى النون ، وحرضهم على أن يحكموا أنفسهم ويعطوا الجزية لألفونش حتى يتقوا شره . ولما أحس القادر بذلك قبض على المتآمرين وفر بعضهم الى الفونش ، وفر ابن عمار وعاد الى سرقسطة (٦٤) .

ولم يتمكن من العودة الى مرسية ، لأن مساعده ابن رشيق الذى كان قد تركه فى حكمها ، عامله بأسلوبه واغتصب حكم المدينة لنفسه ، واستولى على ثروة ابن عمار وطرد أسرته من المدينة . وبذلك فشل ابن عمار سواء فى طليطلة أو فى مرسية . فاتجه حينئذ لتقديم خدماته الى بنى هود حكام سرقسطة ، فأثار فيها الفتنة أيضا ، وتمكن من اخماد ثورة فى أحد الحصون التابعة لبنى هود ، ولما حاول تكرار ذلك فى قلعة شقورة فشل وأسره صاحبها وسلمه للمعتمد بن عباد ، وباع له القلعة أيضا ، وكان نصيب ابن عمار المغامر الجرىء القتل على يدى ابن عباد نفسه (٦٥) .

وهناك من أمثال ابن عمار ، وزير يهودى يسمى اسماعيل بن نغرالة اليهودى ، وكان وزيرا لبنى زيرى الصنهاجيين حكام غرناطة . ولم يحدث فى دولة اسلامية أن صار أحد اليهود رئيسا للوزراء كما حدث فى غرناطة ، ذلك لأن التقليد الاسلامى لا يقبل ذلك مطلقا . لكن المدينة كانت غاصة باليهود وكانوا كثرة حتى سميت بأنها مدينة اليهود ، وكان هذا العنصر لا يشره الى الولاية ولا يطمع فى السلطان مثلما يفعل العرب أو البربر . زد على ذلك أن البربر أنفسهم لا يصلحون لتولى هذه المهمة فهم لا يفهمون الا فى الحرب وليسوا من أهل القلم أو من أهل الأدب ، كما أن العرب كانوا

---

(٦٤) ابن بلقين . مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٦٥) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ ، ٨١ .

يأنفون من الخدمة تحت رئاسة أمير بربرى . لذلك اتخذه بنو زيرى وزيرا ومشيرا لهم (٦٦) .

وفى عهد هذا الوزير صارت لليهود صولة واشتد نفذهم وكثرت أموالهم ، ولما أحس بقرب تغير نفس باديس بن حبوس ملك غرناطة عليه ، بادر بتدبير مؤامرة بالاشتراك مع ابن صمادح صاحب المرية على أن تكون للأخير غرناطة ، ويكون لليهود دولة بالمرية ، لكن بنى زيرى عرفوا بالمؤامرة وقتلوا الوزير اليهودى وأجروا مذبحة بشعة ضد بنى جلدته عام ٤٥٩ هـ (٦٧)

وكانت سياسة المغامرة هذه ، والاستئثار بالسلطة والعمل للمصلحة الشخصية ، وراء النهايات المفجعة التى انتهت بها حياة معظم وزراء ذلك العصر ، مثال ذلك ابن الحديدى فى طليطلة وقتله على يد القادر ، وابن جحاف فى بلنسية وقتله للقادر ثم قتله هو نفسه على يد السيد القمبيطور ، وابن السقا مدبر حكم آل جهور فى قرطبة ثم قتله ودفنه فى مسجده الذى نهب وعطلت فيه الصلاة . وسماحة وزير الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وصاحب المذكرات الرائعة التى سجل فيها أحداث عصره ، وقد شكا هذا الوزير من قيام الأمير عبد الله بتسيير دفة الأمور بنفسه ، فنصحه أقرانه باشغال الأمير بالنساء ، وانتهى الأمر بعزل هذا الوزير ونفيه الى المرية (٦٨)

وهناك أيضا ابن الريولة وزير على بن مجاهد صاحب دانية ، وقد تآمر هذا الوزير على أميره وسلم المدينة للمقتدر بن هود صاحب سرقسطة ، فكافأه ابن هود بأن عينه وزيرا له . ولما مات المقتدر (٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م) شعر ابنه يوسف المؤتمن بتآمر هذا الوزير مع الفونش السادس مقتديا فى ذلك بابن عمار ، حتى يصير له ما صار لابن عمار من نفوذ وسلطان وأموال ، فعاجله المؤتمن بالقتل ، وهناك أيضا الوزير الصقلبى نجاء وزير بنى حمود

---

(٦٦) Dozy, op. cit. p. 608.

(٦٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ .

المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٠٨ .

(٦٨) ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٩١ .

ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ابن سعيد ، المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٣ .

الذى رام أن يقضى عليهم ويستولى على الدولة ، وكان مصيره القتل على يد البربر عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م (٦٩) .

٥ ــ انتشار العيوب الخلقية والاجتماعية والاقتصادية بين أفراد الشعب :

واذا كانت هذه هى أخلاق الحكام والملوك والوزراء والموظفين فماذا نتوقع من جماهير الشعب المغلوبة على أمرها ؟ لا بد أنه ستسود فيها نفس الأخلاق والعيوب والرذائل ، والناس على دين ملوكهم كما يقولون ، فانتشرت الاباحية وشرب الخمر بين أفراد الشعب ، حتى كانت الخمريات هى أكثر فنون الشعر ذيوعا بين شعراء الأندلس ، وقد أفحش احدهم فى وصفها وذكرها حتى قطع الحاكم لسانه ، وكان كثير من الناس يقضون لياليهم أيقاظا يجتمعون على الكئوس حتى الصباح لدرجة أن بعض من وفد على الأندلس من المشارقة اشتكى من عدم استطاعتهم النوم هناك . ورغم ما فى هذا القول من مبالغة واضحة الا أنه يدل على سوء الحال (٧٠) .

أما الاباحية والرزائل الخلقية فقد انتشرت انتشارا رهيبا حتى أننا نرى ولادة القرطبية بنت المستكفى الأموى ، والتى عاشت عصر ملوك الطوائف ، وكانت أديبة لها باع طويل فى الأدب والشعر ، وتقيم ندوة يجتمع فيها مشاهير الأدب والشعراء ، كتبت بالذهب على ردائها : (٧١)

أنا والله أصلح للمعالى ... أمشى مشيتى وأتيه فيها

وأمكن عاشقى من صحن خدى ... وأعطى قبلتى من يشتهيها

وقد بلغت الاباحية والاستخفاف بالدين أو النزوع منه نهائيا ، أن عشق ابراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة فى الأندلس فتى نصرانيا

---

(٦٩) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٧٧ ، ٧٨ ، رجب عبد الحليم ، المرجع نفسه ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٧٠) ابن عبدون ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، ابن سعيد ، المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٦٩ . اميليو غرسية غومس ، الشعر الأندلسى ، ص ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ .

(٧١) نيكل ، مختارت من الشعر الأندلسى ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

ووضع له كتابا فى تفضيل التثليث على التوحيد تقربا اليه . وهناك من مات من الشعراء لأنه لم ينل محبوبه من الفتيان . وكما يقول ابن خلدون « اذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة ، حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طريقها » ، وهذا ما حدث فى الأندلس وأدى فيما أدى الى ضياعه (٧٢) .

كما انتشر الربا بين الناس الذين تحايلوا على منع الزكاة ، وقاموا باحتكار السلع والمواد الغذائية حتى يثروا على حساب الغـــير كما أثرى غيرهم من الحكام ، وجرهم هذا الى اتقان تزييف العملة حتى أن بعض الناس كان يشترط قبل البيع والشراء أن يكون التعامل بنقود طيبة غير مغشوشة ، مما يدل على انتشار هذا النوع من الجرائم الاقتصـــادية . أما الرشوة والسمسرة وأكل أموال اليتامى ، والتجسس والجبن والجهل والكذب وغش الأطعمة والأغذية ، وانتشار السرقات واللصوصية وغير ذلك من الرذائل والعيوب الاجتماعية ، فقد انتشرت بين الناس انتشارا واسعا حتى قال بعض المعاصرين « ان تلك الحال لا يصلحها الا نبى » (٧٣) .

وانعكس هذا كله فى ميادين القتال بين مسلمى الأندلس ونصـــارى الشمال ورأينا النتيجة ، وهى أن زمام الموقف أصبح فى يد قشتالة وليون ، وان المسلمين أصبحوا مجرد سجناء فى شبه الجزيرة ولن يطلق سراحهم

---

(٧٢) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١٣٠ ، ابن عبدون ، المصـــدر نفسه ، ص ٤٤٨ ، ٤٩ .
ابن بسام ، المصـــدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٨٢ ، السقطى ، آداب الحسبة ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

ابن خاقان ، مطمح الأنفس ، ص ٨٠ ، ابن خلـــدون ، مقدمته ، ج ٢ ، ص ٤٤٦ .

(٧٣) ابن حزم ، مداواة النفـوس ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

ابن عبدون ، المصـــدر نفسه ، ص ٣٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٨ ، ٦٠ .

ابن بسام ، المصـــدر نفسه ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .
ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ، السقطى ، المصـــدر نفسه ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

الا بالموت او بالفـــرار منها الى ارضٍ اخرى . وما كان هذا كله الا نتيجة لتلك العوامل وتلك السمات التى اتسم بها عصر ملوك الطوائف ، وهى سمات لا تنطوى الا على ضعف واضطراب سياسى واجتماعى واقتصادى ، شمل الأندلس من ادناها الى اقصـــاها . وبذلك فشل ملوك الطوائف فى قيادة الصراع ضد نصارى الشمال ، وكانت نتيجة فشلهم هذا هو ضياع بريشتر وطليطلة وغير ذلك من المدن والحصون الى الأبد ، وضياعهم هم أنفسهم بعد ذلك حينما قدم المرابطون عام ٤٧٩ هـ ورأوا بأعينهم مدى التفسخ الذى أصاب هذا النظام فقضوا عليه غير آسفين انقاذا للبلاد والاسلام من الضياع .

ثانيا ــ ظروف اسبانيا النصرانية وأحوالها المؤثرة

فى علاقتها بالأندلس الاسلامية فى عصر ملوك الطوائف

شهد القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى انقلابا فى ميزان القوى السياسى والعسكرى لصالح الممالك النصرانية فى شمال أسبانيا . وفى الفصل السابق وضحنا أحوال ممالك الطوائف فى الأندلس وبينا عوامل الضعف التى جعلت تلك الممالك تدفع الجزية لملوك الأسبان ، وتستعين بهم فى صراعها ضد بعضها البعض ، مما هيأ الفرصة لكن تسيطر أسبانيا النصرانية على الأندلس الاسلامية حتى وصول المرابطين عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م .

ولا بد أن أحوال ممالك اسبانيا النصرانية كانت تسمح لها بذلك التفوق ، ولا بد ن هناك عوامل أتاحت لها تلك السيطرة . وأن من يلقى نظرة عابرة على خريطة أسبانيا النصرانية ، يظن أنها كانت ممالك منقسمة على نفسها ، وأن قشتالة وليون ونبرة وأرغونة كانت تتصارع فيما بينها طوال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . لكن الواقع أن الوحدة كانت تجمعها طوال معظم ذلك القرن . فملك قشتالة كان ينجح فى الغالب فى ضم ليون الى مملكته ــ وربما يحدث العكس وتضم ليون مملكة قشتالة ــ ثم يبسط سلطانه على نبرة وأرغونة . وبذلك أصبحت تلك الممالك الأربعة جبهة واحدة أمام ممالك الطوائف المتعددة المتطاحنة . وكانت هناك مملكة قطلونية (برشلونة) الفرنجية ، وكانت تتنافس أحيانا مع ملوك قشتالة لكنها كانت تسير فى نفس الخط فيما يتعلق بالعلاقة مع ممالك الطوائف ، فالكل كان هدفه ضرب المسلمين واخراجهم من البلاد ، يتبين ذلك من دراستنا لأحوال ممالك أسبانيا النصرانية ولعوامل القوة والضعف التى أثرت فى علاقاتها بمسلمى الأندلس .

(أ) احوال ممالك اسبانيا النصرانية :

١ ـ مملكة قشتالة وليون :

كانت مملكة قشتالة من قوى دول شمال أسبانيا النصرانية فى نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وكان يعيش فى بلاطها فى برغش شانجة (سانشو) ملك نبرة (نافار) ٣٩١ ـ ٤٢٦ هـ / ١٠٠٠ ـ ١٠٣٥ م لأنه كان طفلا وكانت أمه من أصل قشتالى . ولما كبر ملك نبرة زوجه شانجه غرسيه أمير قشتالة من ابنته (البيرة) . وعن طريق تلك المصاهرة ورث شانجه ملك نبرة امارة قشتالة بعد أن تم اغتيال آخر أمرائها غرسية بن شانجه بن غرسية عام ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م دون أن يترك وريثا للعرش ، وعين شانجه الكبير ملك نبرة ابنه فرديناند (فرناندو) حاكما لها وأسبغ عليه لقب ملك ، فكان أول ملوك قشتالة (٤١٩ ـ ٤٥٨ هـ / ١٠٢٨ ـ ١٠٦٥ م) (١) .

وبذلك ولدت مملكة قشتالة ، تلك المملكة التى كان لها دور كبير فى الصراع مع الأندلس الاسلامية ، لكنه لم يتهيأ لها هذا الدور الا بسبب قوتها وكفاحها مع جاراتها من ممالك أسبانيا النصرانية طلبا لوحدة الجبهة النصرانية ضد مسلمى الأندلس . وكان أول عمل قام به فرديناند الأول ملك قشتالة هو ضم مملكة ليون بالقوة وتوحيد المملكتين فى مملكة واحدة . وكان فرديناند قد تزوج من أخت برمند (برمودو) الثالث آخر ملوك ليون وجليقية ، لعله يصل الى عرشها عن طريق هذه المصاهرة كما حدث مع قشتالة ، الا أنه لم يصبر حتى يموت برمودو ، وقام على رأس قواته بمساعدة أبيه شانجه الكبير ملك نبرة ، وافتتحها وأعلن نفسه ملكا عليها ، وفر برمند الثالث ينتظر فرصة يعود فيها الى عرشه (٢) .

---

(١) اشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١١ .

(٢) عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٧٧ .

انظر الفصل الثانى من الباب الثانى .

(٣) عنان ، المصدر نفسه ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

ولما توفى شانجه الكبير فى عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م ، استطاع برمند الثالث أن يسترد جزءا من أملاكه ، وأن يقيم فى بلاطه ، وثارت بينه وبين صهره فرديناند ملك قشتالة الحرب ، واستمرت مدى عامين . ثم تم اللقاء الحاسم بينهما فى موقعة تامارون عام ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م ، وفيها لقى برمند مصرعه ، ونظرا لوفاته دون عقب ، فقد استولى فرديناند على مملكة ليون بحكم المصاهرة والوراثة ، وغدا ملكا فى قشتالة وليون الموحدة ، وانتهى بمقتل برمند الثالث انتهاء نسل ملوك ليون وجليقية الذين استمروا يحكمون تلك المملكة منذ أن قامت فى أوائل القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى (٤)

وبذلك تمت أول وحدة فى التاريخ بين مملكة قشتالة ومملكة ليون التى كانت تشمل أيضا جليقية واشترس ، وصار الشمال الأسبانى فى منطقة الوسط والغرب تحت قيادة فرديناند . وكان هذا هو السر فى تلك السياسة الناجحة التى قادها ذلك الملك ضد أعدائه من مسلمى الأندلس ، اذ اجبرهم على دفع الجزية ، واستولى على كثير من مدنهم ، وتمكن بمساعدة القوى الصليبية الأخرى من اسقاط مدينة بريشتر التابعة لمملكة سرقسطة الاسلامية عام ٤٥٦ هـ ، مما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد (٥) .

وقد أثار اتساع مملكة قشتالة على هذا النحو الحقد فى نفس غرسيه ملك نبرة ، وحاول أن يغزو أخاه فرديناند ملك قشتالة وليون ، ولكنه هزم ايضا وقتل عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، وقام بنفس المحاولة أخوه راميرو ملك ارغونة ، لكنه هزم ايضا وقتل هو الآخر عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣ م وهكذا استطاع فرديناند أن يظفر فى جميع الحروب التى خاضها ضد اخوته من ملوك نبرة وارغونة ، وصار بذلك من اعظم ملوك أسبانيا النصرانية ، حتى أنه اتخذ لقب « القيصر » كى يظهر أنه أصبح سيدا لأسبانيا كلها ، وحتى يتمكن من معارضة دعوى القيصر هنرى الثالث امبراطور

---

(٤) عنان ، المصدر نفسه ، ص ٣٧٨ .
Levermore, op. cit., 101.

(٥) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٠ ، ٢١ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٣ — ٣٨٤ .
Hole, op. cit., p. 25 ' Livermone, op. cit., p. 103

الدولة الرومانية المقدسة فى السيطرة على كل العالم المسيحى الغربى ولذلك تدخل فى لعبة إختيار بابا رومة ، فأيد البابا اسكندر الثانى ضد منافسه هونريوس الثاني الذي كان يؤيده امبراطور الدولة الرومانية المقدسة (٦) .

وبذلك لم تكتف مملكة قشتالة وليون بمد نفوذها على جاراتها من ممالك أسبانيا النصرانية وممالك الطوائف الأندلسية ، ولكن نفوذها تخطى حدود شبه الجزيرة حتى وصل الى مدينة رومة ، وصارت بذلك اعظم قوة يحسب حسابها على أرض شبه الجزيرة الأسبانية ، ومن القوى المعدودة فى أوربا الغربية . لكن فرديناند وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه أبوه شانجه الكبير من قبل ، وعمل قبيل وفاته على تقسيم مملكته المترامية الأطراف بين أولاده الثلاثة ، مما عرضها للضعف ولفترة من الحروب الأهلية (٧) .

فقد عقد فرديناند مجلس النبلاء والأساقفة عام ٤٥٦هـ / ١٠٦٤ م وفيه قرر بموافقتهم تقسيم المملكة على أن يختص أكبر أولاده شانجه بمملكة قشتالة وحق الجزية على مملكة سرقسطة ، ويختص أدفنش (الفونش السادس فيما بعد) بمملكة ليون وأشتريس وحق الجزية على مملكة طليطلة ، واختص أصغرهم غرشية باقليم جليقية والبرتغال فى غرب ليون ، وحق الجزية على مملكتى اشبيلية وبطليوس ، وأعطى فرديناند حق الاشراف على الأديرة فى سائر المملكة لابنتيه أوراكه والبيره ، وخصت أوراكه بمدينة سمورة الحصينة وخصت البيرة بمدينة تورنو(٨) .

وكانت قشتالة على هذا النحو أصغر فى المساحة بكثير من مملكة ليون وأشتريس ، كما كان نصيب أوراكه والبيرة اقل بكثير مما كانا

---

(٦) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢١ ــ ٢٢ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٠ .
Livermone, op. cit., p. 101.

(٧) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٣ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٩ .

(٨) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٣ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٩ .
Livermone, op. cit., p. 103.

وبيستحقانه ، ومن شأن هذه القسمة الجائرة أن تفضى الى الحرب الأهلية ، كما أن تلك القسمة فصلت مملكة ليون عن مملكة قشتالة ، وكان هذا خطأ سياسيا كبيرا من فريدناند . وقد استمر الوئام الظاهرى بين الأخوة حتى مات أبوهم فى العام التالى (٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م) وحتى ماتت أمهم الملكة سانشا بعد ذلك بعامين آخرين ، ثم بدأت الحرب الأهلية بين الاخوة على نحو مريع [٩] .

وكان شانجة ملك قشتالة يضطرم سخطا لأنه وهو اكبر اخوته ، لم يضع يده على مملكة أبيه كلها ، وكان يرى أن الولايات والممالك التى اختص بها أخوته كما لو كانت قد اغتصبت منه شخصيا ، وصمم على مهاجمة مملكة ليون وضمها الى قشتالة بالقوة حتى تعود الوحدة بين قشتالة وليون مرة أخرى . ونشبت بينه وبين أخيه الفونش ملك ليون حرب ضروس ، خربت وديان ليون وقشتالة ، واستمرت ثلاثة أعوام ، التحم الفريقان أثناءها فى موقعتين دمويتين ، الأولى فى بلانتادا Plantada فى ليون (رمضان ٤٦٠هـ / ١٨ يوليه ١٠٦٨ م) ، والثانية فى جلبيارش أو جلبخيرة Golpejera الواقعة على نهر كاريون فى قشتالة (شوال ٤٦٣ هـ / ١٥ يوليه ١٠٧١) ، وتكبد شانجه خلالها خسائر فادحة وهزم القشتاليون فى المعركة الأخيرة وفروا تاركين خيامهم ، وأغضى الفونش ملك ليون عن مطاردتهم حقنا للدماء[١٠] .

ترك الفونش (الفونسو) جنوده يحتفلون بالنصر دون اتخاذ الحيطة والحذر ، ففوجئوا بهجوم شانجة من جديد حسب نصيحة قائده السيد القمبيطور ، وأوقع بهم هزيمة ساحقة ، وتمكن من أسر الفونش نفسه ، فنزل لأخيه شانجه عن عرش ليون ، وذهب يقيم فى ظلمات دير ساهاجون . وهناك استطاعت أخته أوراكه الماكرة أن تدبر أمر فراره

---

(٩) أشياخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(١٠) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ، أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٤٤ ، برفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .
Livermore, op. cit., pp. 105 ' 106.

فلجـأ الى ابن ذى النون صاحب مملكة طليطلة الاسلامية الذى استقبله بكل ترحاب وسرور ، واستضافه عنده حوالى ثمانية أشهر [11] .

لم يقنع شانجه ملك قشتالة بمـا تم له من الاستيلاء على مملكـة ليـون ، بل اراد أن ينزع أخـاه الصغير غرسيه عن ملك جليقية والبرتغال منتهزا فرصة الصراع الذى كان ناشبا بينه وبين نبلاء جليقية بسبب طغيانه وسوء سيرة وزيره . وما كاد شانجة يظهر على حدود جليقية حتى بـادر الجميع الى لقـائه والانضمام اليه ، ففر غرسيه وغادر المملكة سرا الى اشبيلية حيث لجـأ الى ابن عبـاد فى أواخر عام ٤٦٤هـ / ١٠٧١ . وهكذا تم لشانجة ملك قشتالة الاستيلاء على مملكتى أخويه الفونش وغرسيه وتوحدت قشتالة وليون وجليقية تحت لوائه[12] .

لم يبق خارجـا عن سلطـان شانجه سوى مدينتى سمورة وتورو اللتين تحكمهما اختـاه أوراكه والبيرة . وكان شانجه يحقـد على أختيه هاتين لعطفهمـا على أخيه الفونش ولأنه كان يخشى دسائسهما ومساعيهما الخفيـة لاعادته الى عرشه ، فعول على الاستيلاء على المدينتين ، وتمكن من الاستيلاء على قلعة تورو ، لكنه سقط قتيلا عنـد أسوار قلعـة سمورة الحصينة على يـد فارس طعنه بحربة وارداه قتيلا عام ٤٦٥هـ / ١٠٧٢ م ، ولم تكن هذه الجريمة بعيـدة عن تدبير أخته أوراكه[13] .

ارتـد جيش قشتالة عقب مقتل مليكه ، وبادرت أوراكه وأرسلت فى الحـال الى أخيهـا الفونش المقيم فى طليطلة تنبئه بخلو العرش وتدعوه الى العودة بأسرع ما يمكن . وفى برغش اجتمع الأشراف وكبـار رجال الدولة ، ووافقوا على تولى الفونش الحكم مكـان أخيه ، على أن يقسم أنه برىء من دم أخيه ، وأنه لم يشترك بأى حال فى تدبير مقتله . فنزل

---

(١١) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٠ .

(١٢) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٥ ، عنان المرجع نفسه ، ص ٣٩١ ، ٣٩٣ .

(١٣) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٥ ، ٣٦ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٢ .
Livermore, op. cit., p. 106.

الفونش عنـــد رغبتهم ، وقام الفارس ردريجوديات (السيد القمبيطور) قائد الملك القتيل ومستشاره بتحليفه اليمين بنفسه[14] .

وهكذا عادت المملكة الأسبانية الكبرى الى تماسكها ووحدتها ، كما كانت فى عهد أبيـــه فرديناند ، وخاصة بعد أن استطاع أن يأسر عن طريق الغـــدر والخيـــانة أخاه الثالث غرســـية ، الذى كان قد عاد الى ملكه فى جليقية ، وزج به فى حصن « لونا » فى جمادى الثانى ٤٦٤ هـ / فبراير ١٠٧٣ ، حيث قضى هنـــاك بقية عمره حتى توفى عام ٤٨١ / ١٠٩٠[15] .

وهكذا استطاع الفونش (الفونسو السادس) بالخيانة والجريمة والحرب أن يجمع الممالك الثلاث ، قشتالة وليون وجليقية تحت سلطانه ، واستطاع بعـــد أعوام قلائل أن يضم الى مملكته الشاسعة بعض أراضى مملكة نبرة الواقعة على نهر أبرة . ثم تفرغ بعـــد ذلك لاستئناف حركة الاسترداد وقتـــال المسلمين ، وتوج جهـــاد نصارى الأسبان فى هـــذا الميـــدان باستيلائه على مملكة طليطلة أول صفر ٤٧٨هـ / ١٠٨٥ م ، رغم الصداقة والكرم الذى أبداه صاحبها القـــادر بن ذى النون لذلك الملك الغـــادر ، حينما لجـــأ اليه فرارا من بطش أخيه شاذجه كما سبق القول . وحقق الفونش بذلك حلم النصارى فى استرداد عاصمتهم القـــديمة وأصبح نصف شبه الجزيرة فى أيديهم ، وصار تفوق أسبانيا النصرانية السياسى والعسكرى على الأندلس الاسلامية أمرا ثابتا ومطردا منذ ذلك الحين ، واتخـــذ هذا الملك على التو لقب الامبراطور[16] .

---

(١٤) ابن عـــذارى ، المصـــدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٥١ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ .
اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٦ ، برفنسال ، المرجع نفسه ، ص ١٧٧ – ١٧٨ .
عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٤ .
Livermore, op. cit., p. 106.

(١٥) ابن عـــذارى ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٥١ ، ٥٢ ، أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٣٦ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٤ .

(١٦) ابن الخطيب ، المصـــدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٧ ، ابن خلـــدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٨٢ .
Livermore, op. cit., p. 106, Hole, op. cit., p. 25.

وهكذانرى أن الأسرة النافارية القشتالية حكمت شمال أسبانيا كله ، وادارت الصراع ضـد المسـلمين بنجاح بعـد أن حققت وحدة الجبهة النصرانية ، ولم يكن ما قام بين أفراد تلك الأسرة من صراع على العـرش مستمرا وذا طبيعة عنصرية أو قبلية كمـا كان عنـد ملوك الطوائف ، فكـاد يختفى بمجرد سيطرة أقوى المتصارعين ، وعادت الوحـدة والقوة والرغبة فى قتـال المسلمين بأشد وأعنف ما تكون . وكانت مملكة قشتالة وليـون المتحـدة هى حجر الزاوية سواء فى الدعوة الى الوحـدة أو فى قتـال المسلمين .

٢ ــ مملكة نبرة (نافار) :

كانت مملكة نبرة من أكبر الممالك النصرانية فى شمال أسبانيا سعة ، اذ كانت تشمل فضلا عن الوطن الأصلى نبرة ، ولايات كنتبرية وسوبراب Sobrarbe وربا جورسة . وكان يحكمها فى أوائل القرن الخامس الهجرى / الحـادى عشر الميلادى ، شانجة (سانشو) الثـالث الملقب بالكبير (٣٩١ ــ ٤٢٦هـ / ١٠٠٠ ــ ١٠٣٥ م) . وقد استطاع هذا الملك أن يبسط سلطانه على أسبانيا النصرانية كلهـا عدا امارة برشلونة التى كانت تقع فى أقصى الشمال الشرقى ، والتى يسيطر عليهـا آل برنجير التابعين اسميا لملوك الفرنجـة فى فرنسا .

وكان شانجه الكبير قبيل وفاته عام ٤٢٦هـ / ١٠٣٥ م قـد قسم المملكة بين أبنائه الأربعـة . فخص أكبر أولاده غرسيه بالوطن الأصلى نبرة ، وخص فرديناند بقشتالة وضم اليه ليون وجليقية بالقوة حسبما رأينا من قبل ، وخص ولده غير الشرعى راميرو برقعة ضيقة تمتـد بحـذاء نبرة من باب شيزروا جنوبا ، وتشمل أعالى حوض أبره ، وتسمى بمملكة أرغونة ، وهى مملكة تظهر للوجود لأول مرة وسيكون لهـا شأن عظيم فيمـا بعـد ، وخص ولده الرابع كونزالو بمنطقة صغيرة أخرى فى أواسط اقليم البرنات وهى ولاية سوبراب وباجورسة(٨٧) .

---

(٨٧) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٢ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٧٨ .

وبهذه القسمة الجائرة بدأت سلسلة من الحروب الأهلية بين الأخوة الأربعة . وكان غرسيه ملك نبرة يضطرم حسداً وحقداً لرؤية أخيه الأصغر فرديناند يفوز بمملكة قشتالة وليون وجليقية الشاسعة ويطمح الى امتلاكها أو امتلاك جزء منهـا ، وعول فى ذلك على الفتك والغدر بأخيه ليرقى عرش اسبانيا النصرانية كلهـا ويوحـدها كما فعـل أبوه شانجة الكبير من قبـل ، وكانت الوحـدة هى الضمان الوحيـد لاستمرار ممالك اسبانيا النصرانية فى الكفـاح ضد مسلمى الأندلس ، خاصة وأن ممالك الطوائف كان الصراع قد بدأ فيمـا بينها ، وبدأت مظاهر انهيارها تبدو واضـحة فى الأفق ، وكانت فرصة تستحق أن يغامر ملك نبرة فى سبيل توحيد ممالك الشمال الثلاثة نبرة وقشتالة وليون تحت سلطانه ، حتى يحقق حلم آبائه واجداده فى السيطرة على كل شبه الجزيرة .

وبدأ شانجة ملك نبرة بمحاولة الغـدر بأخيه فرديناند ملك قشتالة وليون ، وأوعز اليه أنه مريض وانه على فراش الموت ويود رؤيته . لكن فرديناند اكتشف الحيلة وصمم على الانتقـام من أخيه الذى نسى روابط الدم وحقـوق الضيافة . ولم يفطن غرسيه الى أن أخـاه قد وقف على مؤامرته ، فلمـا دعاه فرديناند لزيارته بعـد ذلك بأعوام قلائل ، ووصل غرسية الى أرض قشتالة ، تم اعتقـاله وأسره ، لكنه استطاع الفرار وعاد الى نبره ، وتحـالف مع أخيه راميرو ملك أرغونة ، وزحف لمقاتلة فرديناند مرة أخرى ، ووصل داخل قشتالة الى اتاريوركا Atapuerca الذى يقع على مقربة من شرقى برغش عاصمة قشـتالة ، حيث دارت رحى معركة انتهت بمقتل غرسية عام ٤٤٦هـ / ١٠٥٤ م [١٨] .

ونتيجة لهذه الهزيمة استولى فرديناند على بعض النواحى الواقعة على ضفة نهر ابرى اليمنى فى منطقة ريوخة Rioja وبوريا Bureba لكنه أبقى على مملكة نبرة واعترف بابن أخيه شانجة بن غرسيه ملكا عليها باسم شانجه الرابع (٤٤٦ ـ ٤٦٨ هـ / ١٠٥٤ ـ ١٠٧٦ م) . وأعلن

---

(١٨) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٧ ، ١٨ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٠ .
Livremore, op. cit., p. 101.

الملك الجديد الطاعة لعمه الظافر ، ثم لم يلبث أن عقد حلفا مع عمه ردمير (راميرو) ملك أرغونة فى عام ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م ، خوفا على مملكته من أطماع عمه فرديناند ، وان كان هذا الحلف موجها فى الظاهر ضد مسلمى الأندلس ، واستطاع شانجه الرابع أن يستفيد من الصراع بين عميه ردمير وفرديناند فى الابقاء على مملكته (نبرة) ، رغم ما أبداه فرديناند من محاولة السيطرة على لقب «القيصر» للدلالة على سيادته على جميع أسبانيا النصرانية(١٩) .

ثم تعرض شانجة الرابع ملك نبرة مرة أخرى الى أطماع ابن عمه شانجة ، الذى خلف أباه فرديناند فى حكم قشتالة عقب وفاته عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م . وكان ملك قشتالة الجديد يرى أن يأخذ مكانة والده ، وأن يصير امبراطورا لكل أسبانيا النصرانية حتى تتاح له فرصة المساهمة فى الكفاح ضد ممالك الأندلس المتناحرة . ورأى هذا الملك أن يبدأ بابنى عميه شانجة الرابع ملك نبرة ، وشانجة الأول ملك أرغونة . فتحالف هذا الملكان ضده وهزماه فى موقعة فيانا عام ٤٥٩هـ / ١٠٦٧م ، واضطر ملك قشتالة أن يوجه أطماعه شطر مملكة ليون حسبما تقدم ، وبذلك نجت نبرة من أطماعه(٢٠) .

استمر شانجة الرابع ملكا على نبرة اثنين وعشرين عاما . وفى عهده توطد مركز المملكة بين جاراتها ، وأقر المقتدر بن هود ملكا لسرقسطة وأن يدفع له الجزية فى عام ٤٦١هـ / ١٠٦٩م ولم يمض على ذلك بضعة أعوام حتى قتل شانجه الرابع عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٦م فى كمين غادر دبره له أخوه ريموند وأخته أرمزندة ، أسوة بما فعله الفونش السادس وأخته أوراكه بأخيهما شانجه ملك قشتالة . وغضب الشعب لهذه الجريمة وقرر حرمان ذلك القاتل من تولى عرش نبرة ، واستدعى شانجه راميرز ملك أرغونة ليعتلى العرش بدلا منه (٢١) .

---

(١٩) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٨ ـ ٢٢ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨١ .

(٢٠) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٩ .

(٢١) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٧ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٥ .
Livermore, op. cit., p. 156.

ونتيجة لذلك استغاث ريموند بالملك الفونش السادس ملك قشتالة وليون كى يعينه على تولى عرش نبرة . فسار الفونش الى نبرة من ناحيتها الغربية ، وسار اليها شانجة راميرز من ناحيتها الشرقية ، وتفاهم الملكان على اقتسامها وحرمان القاتل وكذلك ولدى القتيل من تولى العرش . واستولى الفونش على القسم المحاذى لنهر ابره المشتمل على ولايتى ربوبا وبسكوينا ، واستولى شانجة راميرز على الجزء الواقع فى منطقة البرنات ، وفيه العاصمة بنبلونة . وفر ريموند القاتل الى أمير سرقسطة حيث قضى هناك بقية عمره فى غمرة النسيان(٢٢) .

وبذلك اختفت مملكة نبرة المستقلة الى حين بعد أن استطاعت أن تذود عن استقلالها ضد أطماع ليون وقشتالة عصورا باصرار وبسالة ولم تؤد دورها فى الصراع ضد ممالك الأندلس فى تلك الفترة كما ينبغى بسبب المنافسة التى نشبت بينهما وبين مملكة قشتالة على تبوأ مركز القيادة والزعامة لكل أنحاء اسبانيا النصرانية . وادى اختفاؤهما فى الوقت نفسه الى نمو مملكة ارغونة واتساع رقعتها اتساعا كبيرا ، مما مكنها من أن تسقط مملكة سرقسطة الاسلامية ، وأن تلعب دورها العظيم فى توحيد الجبهة النصرانية ، وقيادة الكفاح ضد مسلمى الأندلس(٢٣)

٣ ــ مملكة ارغونة Aragon :(٢٤):

ظهرت تلك المملكة لأول مرة كما اشرنا من قبل نتيجة لتقسيم المملكة الذى قام به شانجه الكبير على أولاده عام ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م وكانت تلك

---

(٢٢) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٧ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٦ .

(٢٣) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٧٧ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٦ .

(٢٤) كلمة Aragon عربها العرب على وجهين ، الأول (ارجون) ، والثانى (ارغون أو ارغونة) . وليس هناك مجال للخلط بين ارغونة الدولة وبين مدينة ارجونة لمجرد التشابه اللفظى . فان ارجونة بلد ناحية جيان بالأندلس أى فى النصف الجنوبى من اسبانيا . أما ارغونة ففى اقصى النصف الشمالى منها ، اذ تتصل حدودها الشمالية بجبال البرانس من غير فاصل . وارغونة فى الأصل اسم نهر ينحدر من تلك الجبال ويصب فى نهر ابره ،

المملكة الصغيرة من نصيب ابنه غير الشرعى ردمير (راميرو) (٤٢٦ — ٤٥٦ هـ / ١٠٣٥ — ١٠٦٣ م) . وما لبث أن اتسعت مملكة ارغونة باتحادها مع مملكة أو امارة سوبراب الصغيرة بعد اغتيال ملكها كونزالو فى كمين دبره أحد أتباعه عام ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م ، واختار اهلها ملك أرغونة ليخلفه فى حكم المملكة . وبذلك صارت سوبراب وأرغونة مملكة واحدة ، فزادت قوتها ، ولم يعارض تلك الوحدة أحد من أخوة راميرو ، اذ كانوا مشغولين بتنظيم شئون ممالكهم[٢٥] .

ولم يقنع ردمير ملك أرغونة بالاستيلاء على ولاية سوبراب ، بل اخذ يطمح الى الاستيلاء على مملكة نبرة نفسها وتحالف مع ابن هود ملك سرقسطة لكن يمده ببعض قواته ، وزحف ردمير الى نبرة واقتحم حدودها فجأة ، ولكن قلعة تافالا اعترضت سيره المظفر ، وانقض عليه أخوه غرسية بجيشه فجأة ، فانهزم جيش أرغونة ولم يتمكن ردمير من الخلاص الا بصعوبة ، وفر ناجيا بنفسه ، وأبيد معظم جيشه عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م على الأرجح[٢٦] .

ونتيجة لهذه المعركة الخاسرة فقد ردمير معظم مملكته ، واضطر الى أن يلجأ الى شعب الجبال الوعوة فى رباجورسة وسوبراب ، وقضي هناك بضعة أعوام فى تنظيم شئونه والنهوض من عثرته ، وانشأ جيشا جديدا استطاع به أن يسترد كل أراضيه ، وتحالف بعد ذلك فى عام ٤٤٦هـ / ١٠٥٤ م مع أخيه وعدوه القديم غرسية ملك نبرة حينما

فسمى واديه الأعلى باسمه الذى سرى فيما بعد على الأراضى الفسيحة والولايات الكبيرة التى انضمت الى هذا الوادى ، وتألفت منها مملكة أرغونة وامتدت من جبال البرانس شمالا الى جبال كونكة Cuenca جنوبا ، ثم الى بلنسيه شرقا ، غير انها لم تلبث على مر الأجيال أن تجزأت الى ولايات ومقاطعات ، نذكر منها مقاطعة وشقة ومقاطعة سرقسطة وغيرهما . انظر ، دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثالث ، ص ٣٧ .

(٢٥) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٣ .
عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٢٦) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٤ .
عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٧٩ .

ساءت العلاقات بين غرسية هذا وأخيه فريدناند ملك قشتالة وليون .
وانضم للحليفين ابن هود ملك سرقسطة ، لكنهم هزموا قرب برغش ،
وقتل غرسية ملك نبرة عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٦ م[٢٧] .

لم ينس ردمير هزيمته أمام أخيه فريدناند ملك قشتالة ، وصمم على
الانتقـــام منه ، وتحالف مع ابن أخيه الذى حل محل أبيه فى حكم نبرة ،
را لخـــوفه من ازدياد قوة فرديناند ، فقد عقد مؤتمرا فى مدينة جاقة
٤٥٣هـ / ١٠٦٠م ووضع نفسه تحت حماية بابا رومة ، ثم بـــدأ
حرش بأخيه وانتهز فرصة غيابه لغزو اشبيلية ، وسار لمهاجمة حلفـــائه
من المسلمين الذين كانوا يدفعون له الجزية . فأرسل فرديناند جيشـــا
قشتاليا زحف على قلعة جرادوس التى كان يحاصرها الأرغونيين ، ونشبت
بين الفريقين معركة على مقربة من تلك القلعـــة ، انتهت بهزيمة ردمير
ومقتله عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م ، فتولى ابنه شانحة عرش أرغونة (٤٥٥ —
٤٨٧ هـ / ١٠٦٣ — ١٠٩٤م) ، واستطاع بمؤازرة شعبه أن يحمى حدود
مملكته ضد النصارى والمسلمين على السواء[٢٨] .

ونتيجة لتطور الصراع بين مملكة نبرة ومملكة قشتالة وليون حسبما
تقـــدم ، استطاعت مملكة أرغونة أن تزيد من مساحتها وقوتها ، واستولت
على أجزاء من نبرة حينما تم اقتسامها بينها وبين مملكة قشتالة ، فاتسعت
مساحة أرغونة وبدأت تلعب دورها التاريخى فى تلك المنطقة ، وقـــدر لابن
شانجه وهو الفونش الأرغونى المعـــروف بالفونش المحارب ، أن يتزوج
من أوراكه ، ابنه الفونش السادس ملك قشتالة وليون ، وأن يرث تلك
الممالك الواسعة بسبب هذه المصاهرة . وبذلك تمكن من أن يحكم سائر
المـــالك الأسبانية ويوحدها تحت لوائه ، ويغدو من أعظم ملوك أسبانيا
النصرانية[٢٩] .

---

(٢٧) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٧ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .
(٢٨) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٨ — ٢٠ .
(٢٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٦ .

لكن هذا الصراع الذى نشب بين مملكة أرغونة منذ نشأتها عام ٤٢٦هـ ١٠٣٥ م ، وبين مملكة نبرة ومملكة قشتالة وليون ، لا شك أنه لم يمكنها من أن تلعب دورا مؤثرا ضد ممالك الطوائف الأندلسية ، وهذا ما يفسر سر التحالف الذى تم أحيانا بين أرغونة وبين سرقسطة ، كما يفسر سر بقاء سرقسطة رغم سقوط معظم الممالك الاسلامية المحيطة بها فى يد نصارى قشتالة وليون .

ومع هذا لم تنس مملكة أرغونة دورها كقوة نصرانية ضد مسلمى الأندلس بوجه عام ، اذ أنها اشتركت مع قشتالة وليون وسائر الممالك النصرانية فى موقعة الزلاقة ضد مسلمى الأندلس والمرابطين معا عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦ م . وهذا معناه أن الصراع بين أفراد الأسرة النافارية القشتالية على السلطان فى مختلف ممالك اسبانيا النصرانية لم يكن عائقا للكفاح ضد مسلمى الأندلس كما أشرنا من قبل ، اذ أن هذا الصراع كان لا يلبث أن ينتهى وتستقر الأمور ، وتعود الوحدة ، وتعود معها القوة والرغبة فى استئناف حركة الاسترداد من جديد .

هذا هو السر فى انتصار نصارى الشمال على مسلمى الأندلس وسقوط بربشتر فى أيديهم وفى أيدى القوى الصليبية الأخرى عام ٤٥٦هـ / ١٠٩٣م ثم سقوط طليطلة بعد ذلك فى أيديهم عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . اذ أن نصارى الشمال كانت تسودهم وحدة الصف فى تلك الأثناء . وكان من حسن حظ الأندلس الاسلامية وقوع الخلافات بين ملوك أسبانيا النصرانية بعض الوقت خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، عقب وفاة شانجة الكبير عام ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م ، وفريدناند عام ٤٥٨هـ / ١٠٦٥ م، وقيام الصراع بين أولاد كل منهما على السلطان .

وقد أطال ذلك الصراع عمر ممالك الطوائف وأعطاها الفرصة للأسف للتناحر فيما بينهما ، وليس للوحدة والتضامن كما كان يفعل ملوك أسبانيا النصرانية ، وبذلك لم يستفد ملوك الطوائف مما وقع بين ملوك أسبانيا النصرانية من نزاع . وكان ملوك الأسبان هؤلاء ، أذكى منهم بكثير اذ أنهم كانوا يتقاتلون فيما بينهم حتى ينتصر أقواهم ثم لا يلبثون جميعا أن

يسخروا قواهم لضرب المسلمين وتشتيت قواهم واستنزاف أموالهم والسيطرة على بلادهم .

٤ ـ امارة برشلونة : (قطلونية) :

كان يحكم هذه الامارة آل بوريل فى أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . ويبدو انه كان هنـــاك تنافس بين برشلونة وبين قشتالة وليون على السيادة والسيطرة على مسلمى الأندلس . اذ ان كـلا منها كانت تســاعد فريقـــا من المسلمين المتنازعين على الخـلافة الأموية فى ذلك الوقت ضد الآخــر . ولم يمنع هذا التنافس من أن تكون امارة برشلونة (قطلونية) عونا لأسبانيا النصرانية فى صراعها ضــد مسلمى الأندلس ، وخاصة فى عهــد اميرها الكونت برنجار رامور الأول (٤٠٩ ـ ٤٢٧هـ / ١٠١٨ ـ ١٠٣٥م) وابنه رامون برنجار (٤٢٧ ـ ٤٦٩هـ / ١٠٣٥ ـ ١٠٧٦ م)[٣٠] .

وقد استطاع رامون (ريموند) أن يزيد من قوة امارته ، بان ضم اليهـــا ولاية أرقلة وولاية سرطانية ، ثم ولاية قرقشونة الواقعة فى الناحية الأخرى من جبال البرنات (البرانس) عام ٤٥٩هـ / ١٠٦٧م . وكان لضم هذا الجزء الهـــام من أراضى اقليم لانجدوك الفرنسى الى قطلونية نتيجة هامة ، وهى اعادة الصلة بين فرنسا وقطلونية بعــد أن انقطعت منــذ استقلال قطلونية ، والتمهيد بذلك لنزوح الفرسان الفرنسيين المغامرين الذين تحدوهم روح صليبية الى اســبانيا ، والالتحاق بالجيوش النصرانية هنـــاك لمقـــاتلة المسلمين[٤٠] .

وقام رامون ايضـــا بعــدة اصلاحات جعلت قطلونية مثالا يحتذى فى شمال اسبانيا النصرانى ، اذ أنه عقد مجلسا من النبلاء فى برشلونة عام

---

(٣٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .
عنان ، المرجع نفسه ،ص ٤٠٧ ، اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ .
(٣١) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ و ٢٩ .
عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٧ .

٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، وأصــدر هذا المجلس أو البرلمان قانونا جديدا ينظم الحيــاة الداخلية ، يسمى « بعرف برشلونة » Usages de Barcalona ليطبق الى جانب القانون القوطى . كما عقــد مجلسا آخر اقر فيــه عــدة قرارات لصالح الكنيسة وصالح الفــلاحين وحمايتهم من ظلم الأقوياء ، ولم يلبث رامون أن توفى وخلفــه ولداه برنجار الثانى وريموند الثانى فى حكم الامارة معــا ، وفقــا لوصيته . ولكن الخــلاف ما لبث أن نشب بينهما ، وانتهى الأمر بالاتفــاق على ان يتسمى كل منهما بكونت برشــلونة وان يتناوبا الحكم كل ستة أشهر . لكنه فى عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م قتل ريموند الثانى غيلة ، وحكم أخوه برنجــار الامارة منفردا ، بالأصالة عن نفسه ، وبصفته وصيا على ابن أخيه القاصر(٤١) .

وقد لعب امراء برشلونة فى ذلك الوقت الدور الذى لعبه معظم ملوك أسبانيا النصرانية فى ضرب المسلمين بعضهم ببعض ، وفى مساعدتهم ضد أعدائهم من نصارى الشمال ، وذلك فى مجــال المنافسة الذى كان قائما بين برشلونة وغيرها من ممــالك أسبانيا النصرانية . ولكن برنجار أمير برشلونة ايمــانا منه بمعركة النصارى الكبرى ضد المسلمين ، اشترك مع قوات الفونس السادس فى موقعة الزلاقة عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ، الى جانب ملوك النصارى الآخرين فى أسبانيا ، لأن الجميع كانوا يؤمنون بأنهم يقاتلون فى معركة صليبية عامة(٤٢) .

استمر الكونت برنجــار الثانى أو (برنجر) فى حكم امارة برشلونة حتى عام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ، ثم ترك الحكم لابن أخيه الفتى ريموند الثالث (٤٨٥ — ٥٢٥هـ / ١٠٩٢ — ١١٣١م) وسافر حاجا الى المشرق . وحكم هذا الفتى تحت حماية الفونش السادس ملك قشتالة وليون ، وتزوج من ابنــة السـيد القمبيطــور وكان يلقب بالبرشــلونى وأبدى فى محــاربة مسلمى الأندلس والمرابطين مهــارة فائقة ، خلدت اسمه فى التــاريخ(٤٣) .

---

(٣٢) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٩ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٨ .

(٣٣) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٤٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٨ .

(٣٤) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

وهكذا يتبين لنا انه فى الوقت الذي كانت الممالك الاسلامية فى الأندلس غارقة حتى أذنيها فى بحار الخلافات والأحقاد والحروب كانت الممالك النصرانية فى الشمال الأسبانى تتجاوز كل خلافاتها باستثناء بعض الحروب الأسرية بسبب النزاع على العرش ، ثم لا تلبث أن توحد قواها وتلم شعثها لتحقيق الهدف الأكبر ، وهو طرد المسلمين من شبه الجزيرة .

ب - عوامل القوة والضعف :

يتضح لنا من هذا العرض السريع لأحوال ممالك أسبانيا النصرانية أن هناك عوامل قوة وعوامل ضعف اثرت كل منها فى موقفها من ممالك الطوائف وعلى علاقاتها بهذه الممالك . وكانت عوامل الضعف هى ما اشرنا اليه من صراع ملوك أسبانيا النصرانية فيما بينهم على السلطان ، لكن مسلمى الأندلس لم يستفيدوا من هذا الصراع كما سبق القول بسبب التناحر فيما بينهم ، وضعفهم واستعانتهم بنصارى الشمال لمقاتلة بعضهم البعض . وبذلك ضاعت على المسلمين فرصة كان يمكن أن ينتهزوها ليوحدوا جبهتهم ويستردوا ما فقدوه ، لكنهم للأسف لم يفعلوا .

أما عوامل القوة فى ممالك أسبانيا النصرانية فكانت أكثر فعالية وأبقى دواما واستمرارا من عوامل الضعف ، وهيات لنصارى الشمال الفرصة لفرض سيطرتهم على شبه الجزيرة كلها ، حتى قدوم المرابطين عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م . وهذه العوامل تكمن فى ازدياد قوة الملكية ، وضعف طبقة النبلاء ، ودور الكنيسة الأسبانية والبابوية فى اذكاء الحروب الصليبية على أرض شبه الجزيرة .

١ - ازدياد قوة الملكية :

نبع ازدياد قوة الملكية فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى من أن ممالك اسبانيا النصرانية أصبحت تحكمها أسرة واحدة هى أسرة شانجة الكبير ملك نبرة الذى توفى عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م ، بينما كانت

تلك الممالك فى القرن الرابع تحكمها ثلاث أسرات منفصلة ، واحدة فى نبرة ، والثانية فى قشتالة ، والثالثة فى ليون ، بالاضافة الى برشلونة التى كان يحكمها آل برنجار من قبل ملوك فرنسا . ورأينا أن هذه الأسرات كانت تعيش فى حالة من الصراع والتناحر ، فكانت قشتالة تصارع جارتيها نبرة وليون حتى تفوز باستقلالها عنهما ، مما مكن الخلافة الأموية طوال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى من الضغط بعنف على ممالك الشمال النصرانية واجبارها على الاستسلام ودفع الجزية .

اما فى هذا القرن (الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) فقد حكمت تلك الممالك ، أسرة واحدة من أصل نافارى قشتالى ، استطاعت أن توحد ممالك الشمال وتخضعها لسيطرتها وتقود الكفاح ضد دول الطوائف المتهالكة بعنف وشراسة بالغة ، حتى أخضعتها وأجبرتها على دفع الجزية ، وانقلب ميزان القوة كما قلنا لصالح أسبانيا النصرانية . وكانت وحدة الجبهة الصرانية مستمرة معظم ذلك القرن تحت حكم أشهر ملوك هذه الأسرة النافارية ، مثل شانجة الكبير (٣٩١-٤٢٦ هـ / ١٠٠٠-١٠٣٥ م) ملك نبرة ، الذى استطاع أن يوحد نبرة وقشتالة ، ويخضع ليون لسلطانه عن طريق المصاهرة . ومثل ابنه فرديناند (٤٢٦-٤٥٧ هـ/١٠٣٤-١٠٦٥ م) الذى استطاع أن يوحد بين قشتالة وليون وجليقية ، وأن يخضع نبرة وأرغونة لسلطانه بعد فترة من الحروب الأهلية . وقام الفونش بن فرديناند (٤٥٧-٥٠٢ هـ / ١٠٦٥-١١٠٩ م) بنفس العمل وأعاد الوحدة الى المملكة كما سبق القول بعد فترة من الحروب الأهلية ايضا .

هذا فى الوقت الذى كانت تحكم الأندلس الاسلامية ست وعشرون أسرة ، أبرزها أسرة بنى عباد فى اشبيلية وبنى ذى النون فى طليطلة ، وبنى هود فى سرقسطة وبنى الأفطس فى بطليوس ، وبنى حمود فى مالقة ، وبنى زيرى فى غرناطة . وكان أكثر تلك الأسر التى تعرضت لضغط مملكة أسبانيا النصرانية ، هى التى تحكم مناطق الثغور فى بطليوس وطليطلة وسرقسطة ، بحكم اشتراكها فى الحدود مع نصارى الشمال . وكانت هذه الممالك الثلاث تتنافس للأسف فيما بينها ولا تتوانى عن القتال ضد بعضها البعض وتستعين فى ذلك بنصارى الشمال ، حتى ضعفت وأصبحت تمد لهم يدا بالطاعة ، ويدا أخرى تحمل الجزية .

وليس معنى ذلك ان أسرة شانجة الكبير وأولاده وأحفاده الذين حكموا الممالك الأسبانية طوال ذلك القرن لم تقع بينهم خلافات أو حروب ، فقد شهد هذا العصر حروبا دموية نشبت بينهم لا تقل فى عنفها عما كان موجودا بين ملوك الطوائف ، واستخدمت فيها شتى الأساليب وأحط الوسائل ، من تآمر وخداع وغش وقتل ونفى واعتقال وحروب ، ويكفى أن ثلاثة من أولاد شانجة الكبير الأربعة سقطوا صرعى فى حروبهم ضد بعضهم البعض ، بينما ابنه الرابع فرديناند الذى أعاد الوحدة الى المملكة تنازع أولاده الثلاثة أيضا بعد وفاته ، فقتل أحدهم وسجن الثانى حتى مات وهو يرسف فى أغلاله .

وهذا دليل واضح على حدة الصراع بين أبناء الأسرة الواحدة ، وهم فى ذلك لا يختلفون كثيرا عن ملوك الطوائف فى صراعهم وأحقادهم ، لكن صراعات هؤلاء النصارى كانت صراعات أسرية ، معظمها ان لم تكن كلها بسبب النزاع على العرش والسلطان ، لأن هذا الأخ أخذ مملكة أكبر من أخيه ، ولأن ذلك أكبر سنا من أخيه وكان يستحق أن تكون له معظم المملكة . فكانت تنشب الحرب بين الاخوة بسبب ذلك ، لكنها لا تلبث أن تنتهى بهزيمة أحد الطرفين واستسلامه لأخيه ودخوله فى طاعته أو بقتله أو بنفيه . وعلى أى الحالات كانت السكينة تعود الى البلاد ، وتعود معها الوحدة وتعود معها القوة والرغبة فى استئناف حركة الاسترداد من جديد .

أما فى دول الطوائف فكانت الحروب مستمرة فيما بينهم ولم يكن هناك من يعمل لتوحيد الصف الاسلامى ، وانطلقت دعوة خافتة من بنى حمود العلويين وبنى جهور لاعادة الوحدة بين هذا الشتات من دول الطوائف ، لكنها لم تؤد الى نتيجة ، ولم يكلف أمراء المسلمين أنفسهم مشقة الاستماع لها ، وقال قائلهم « أحق الناس بالملك من استقل به » (٤٤) .

كان نصارى الشمال يحاربون بعضهم حتى يحققوا الوحدة لبلادهم ، ويقضوا على مظاهر الانفصال الذى كان يوقعهم فيه نظام وراثة العرش الذى كان يلزم الملك بتقسيم المملكة على أبنائه قبل وفاته ، تجنبا لأى نزاع

---

(٣٥) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١١١ ، ١١٢ .

قد يحدث فيما بينهم فى المستقبل ، وكان ذلك هو السبب الرئيسى فى النزاع كما رأينا عند دراستنا لأحوال ممالك أسبانيا النصرانية . اما فى دول الطوائف الاسلامية ، فكانوا يتقاتلون ليس لتحقيق الوحدة كهؤلاء النصارى ، ولكن بهدف التوسع على حساب الغير . كانت الأطماع والأحقاد والشهوات والتنافس والحسد تملأ نفوس الجميع ، وكل منهم كان لا يتمنى الا أن يقضى على جاره ويفوز بملكه ، ويستعين فى ذلك بنصارى الشمال .

ورغم حروبهم الكثيرة لم يصلوا الى أى نوع من أنواع الوحدة لأن عدد ممالكهم كان كبيرا (٢٦ مملكة) . ولا يمكن للقوة المحدودة لكل منهم أن تتغلب على هذا العدد الكبير من الممالك وتحقق الوحدة لهذا الشتات . فضلا عن أن معظم تلك الممالك كانت وحدات اقتصادية لها حدود طبيعية وتقع وسط مناطق زراعية مستقلة ، ويمكنها أن تعتمد على نفسها وتعيش مدة قد تطول أو تقصر حسبما تتعرض له من تهديد جاراتها . وهذا بالطبع لم يكن موجودا فى الشمال الأسبانى . صحيح أنه كان يتكون من أربع ممالك ، ليون وقشتالة ، ونبرة ، وأرغونة ، وبرشلونه ، الا أن هذه الممالك كانت تحت سيطرة أسرة واحدة ، عدا امارة برشلونة ، وكانت تقع بينهما الحروب أحيانا لكنها كانت تتحد فى جبهة واحدة ضد مسلمى الأندلس ، كما أنها لم تكن مناطق جغرافية منفصلة ، ولم تكن وحدات اقتصادية يمكن أن تعيش بذاتها مثل دول الطوائف ، وانما كانت عبارة عن أقاليم قاحلة فقيرة التربة قليلة المياه صعبة المناخ ، تجمع بينها حرفة الرعى ، ويندر فيها تنوع الغلات والمحاصيل ، ولذلك لم يكن فى امكان أى واحدة منها أن تعتمد على نفسها وأن تستقل بشئونها طويلا ، فكانت تميل الى الوحدة مع جاراتها بحكم ظروفها الطبيعية والاقتصادية . فاذا أضفنا تلك الحقيقة الى كون أن ممالك أسبانيا النصرانية كانت تحكمها اسرة واحدة لأدركنا على الفور مدى القوة التى تمتعت بها الملكية الأسبانية فى ذلك الوقت ، مما أتاح لها فرصة التفوق على ممالك الطوائف المتعددة المتناحرة (٤٥) .

---

(٣٦) Livermore, op. cit., p. 91.

٣ ـ ضعف طبقة النبلاء :

أما الدعامة الثانية التى كان يستند عليها نظام الحكم فى دول أسبانيا النصرانية بجانب الملكية فهى طبقة النبلاء ومدى خضوعهم للعرش أو تمردهم عليه . وقد رأينـــا فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميــلادى وفى ظل الأسرات الثلاث الحاكمة فى نبرة وقشتالة وليون ، مدى النفوذ الواسع الذى تمتع به النبــلاء فى ذلك العصر ، ويكفى أن أحدهم وهو الكونت فرنان جونثالث ، أقام دولة قشتالة ، واستطاع أن يفرض شخصيته ونفوذه على جاريه ملكى نبرة وليـــون ، بل انه كان بحق كما سماه ستانلى ليون بول « صانع الملوك » (٤٦) .

هذا فى ظل الأسرات الثلاث . أما فى ظل الأسرة الواحدة التى حكمت شمال أسبانيا النصرانية فى القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى ، فقد أصبح الوضع مختلفا . كان النبلاء فى السابق يستطيعون أن يضربوا الأمراء والملوك بعضهم ببعض ، ويستطيعون ان يقدموا خدماتهم لملك آخر اذا لم ينالوا ما يبتغون من ملكيهم ، وكثيرا ما تآمروا على ملوكهم وفرضوا من يرضونه للعرش . أما الآن وبعد أن أصـــبح حكم الشمال كله فى يد أسرة واحدة فقد تم القضاء على نفوذهم الى حد كبير .

ونظرا للسلطات الضخمة التى كانت فى يد النبلاء ، فقد استعان ملوك الأسبان برجال الدين الأقوياء وبالمخلصين من الشعب وأصحاب الاقطاع ، واستطاعوا الحد من هذه السلطات الى حد كبير ، كما قاموا بعدة اصلاحات مدنية وكنسية ، كان لها أثر كبير فى اضعاف نفوذ هذه الطبقة . فقد الغى الفونش (الفونسو) السادس « حق القوة » . وهو العرف الذى كان يسمح للقوى بأن يقتضى بنفسه ، وبالعنف ، ما يزعم أنه حق له ، وفرض على الدوقات والقوامس أن يعاقبوا مرتكبى الجرائم دون تمييز أو محاباة ، فقضى بذلك على نشاط بعض النبلاء الذين كانوا أحيانا يمارسون عمليات

---

(٣٧) لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٢١٥ .

اللصوصية ، كسرقة التجار والمسافرين والحجاج تحت دعوى المكوس والضرائب (٤٧) .

كما عقد ملوك الأسبان عدة مجالس Cortes تشبه المجالس النيابية الآن ، من الأشراف والأساقفة ، والزمت الأشراف أو النبلاء بتحرى العدالة وفقا لأحكام الشرائع القوطية ، وأن تطبق فى مملكة ليون قوانين الفونسو المساماة « القوانين الطيبة » Buenes Fueros وفى مملكة قشتالة تطبق لوائح الكونت سانشو المسماة Bene Factorias ، وأن يقضى على المجرمين والعصاة من النبلاء وغيرهم بفقد الشرف والمناصب وبالطرد من الكنيسة وبالنفى من البلاد (٤٨) .

وقد أدت تلك الاصلاحات والقوانين الى اضعاف شأن طبقة النبلاء ، ولم يعودوا مصدر خطر على الملوك كما كانوا فى العصور السابقة . وزاد من ضعف هذه الطبقة ما حدث بينهم من انقسام وأحقاد . ذلك أن ظروف الصراع المستمر مع المسلمين ، وصراع الأخوة من ملوك أسبانيا النصرانية على العرش ، أجبرهم على الاستعانة بأولاد المزارعين وصغار الناس ، ورفعهم الى مرتبة « الفارس » فتحولون الى نبلاء . وكان النبلاء القدامى الذين كانوا يرثون النبالة عن آبائهم وأجدادهم يحتقرون هؤلاء النبلاء الجدد ويعادونهم ، ويعملون على القضاء عليهم ، فضلا عما كان يوجد من عداء بين نبلاء كل مملكة وأخرى . فعندما يرتفع شأن مملكة ، كان يرتفع شأن نبلائها ، وينخفض شأن نبلاء الممالك الأخرى . ومن هنا كانت تثور الأحقاد والعداوات . وكان الملوك يحاولون أن يقللوا من هذه الأحقاد ، حتى لا تكون عائقا فى سبيل الوحدة وفى سبيل الكفاح ضد مسلمى الأندلس (٤٩) .

---

(٣٨) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٣٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٣ .
Livermore, op. cit., pp. 61-63.

(٣٩) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٦ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٧ .

(٤٠) د. حسين مؤنس ، السيد القمبيطور ، ص ٤١ ، ٤٢ .

وعلى سبيل المثال ، فقد حدث عند اعتلاء الفونش السادس عرش قشتالة ، أن علا نجم طبقة الأشراف الليونيين ، لأن الفونش كان ملكا على ليون قبل أن يحكم المملكة الموحدة ، وثارت الأحقاد بينهم وبين أشراف قشتالة . فبذل هذا الملك محاولة لاقامة الصلح بين أشراف ليون وقشتالة ، بأن قام بتزويج فارسه السيد القمبيطور من نبيلة قشتالية حفيدة لألفونش الخامس ملك ليون الأسبق ، وابنة عم الملك الجالس على العرش (٥) .

وهكذا تعاونت العوامل التى أشرنا اليها حتى الآن على اضعاف نفوذ طبقة النبلاء ، مما مكن الأسرة الحاكمة فى أسبانيا النصرانية من أن تسيطر عليهم الى حد كبير ، وأن توجهم الى خدمة القضية الكبرى ، وهى استرداد الأرض ، وكان ذلك عامل قوة يحتسب لأسبانيا النصرانية فى تلك الفترة ، مكنها من ادارة الصراع ضد مسلمى الأندلس بنجاح .

٣ ــ دور الكنيسة الأسبانية والبابوية فى الصراع مع مسلمى الأندلس :

وكانت الهيئة الثالثة التى كان لها وزنها فى حساب عوامل القوة فى تاريخ الشمال النصرانى فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى

---

(٥) بروفنسال ، المرجع نفسه ، ص ١٧٩ .
والسيد القمبيطور ، اسمه الأصلى ردريجودياث دى بيفار Rodrigo Diazde Vivar ، وتسميه المصادر الاسلامية لذريق أو رزريق ، ويرجع تلقيبه بلقب كمبيادور Campeador الى فروسيته التى ظهرت فى مباراة عنيفة مع فارس نافارى . وحاول دوزى أن يفسر هذا اللفظ بأنه البطل Champion ، لكن ابن عذارى يقول أن القمبيطور معناه « صاحب الفحص » واستنتج من ذلك الدكتور حسين مؤنس أن لفظ Campeador مأخوذ من Campus وهو الفحص ، ويقابل هذا اللفظ فى اللاتينية Cmapidoctus ومعناه قائد الغارات فى بلاد الاعداء بينما يقول (تلزند) أن القمبيطور معناه البطل باللغة القشتالية ، وهو فى هذا يتفق مع دوزى . ويبدو أن هذا هو الرأى السليم لأن القمبيطور لم يكن صاحب فحص أو منطقة اقطاع يحكمها ، لانه كان من النبلاء الأصاغر ، ولم يكن الا فارسا من فرسان الملك . ولما ظهر نبوغه وشجاعته جعله فارس الجيش . أما لفظ (السد أو السيد) فقد أتى من مناداة المسلمين له « يا سيدى » عندما كان يخدم فى جيوشهم ، وانتقل هذا اللفظ الى اللغة الأسبانية El Cid انظر ، حسين مؤنس ، السيد القمبيطور ، ص ٤٤ .

هى الكنيسة الأسبانية ، وتطور موقف البابوية وازدياد تدخلها فى شئون أسبانيا الدينية ، ومساعدتها لها فى حربها ضد مسلمى الأندلس .

ومن المشكوك فيه أنه كانت توجد علاقة قوية بين أسبانيا النصرانية والكرسى الرسولى بعد سقوط أسبانيا فى يد موسى بن نصير وحتى بداية القــرن الخامس الهجرى . اذ انشغلت البابوية فى روما بصراعها على السلطة الزمنية مع ملوك أوربا ، وانشغل الأسبان فى صراعهم ضد مسلمى الأندلس . لكن تغير ذلك كله فى القرن الخامس الهجرى ، اذ أن شانجة الكبير ملك نبرة وصاحب الكلمة على شمال أسبانيا كله ، أعاد فتح غربى شبه الجزيرة للتأثيرات الأوربية (٥١) .

فقد فتح أبواب مملكته للاصلاحات البندكتية ، وتدفق الآباء الكلونيون وافتتحوا كل المسالك المغلقة فى ممالك قشتالة وليون وجليقية وأشتريس ، وملأوا جميع أديرة أسبانيا ، ووصلوا الى أسمى المناصب الكنسية ، حتى أن أحدهم وهو برنارد ، صار مطرانا لطليطلة ، ورئيسا للكنيسة المسيحية فى أسبانيا كلها . ومن ثم فقد عمل هؤلاء الرهبان على توطيد الســيادة البابوية فى أسبانيا ، ودفعوا حركة الاسترداد خطوات كبيرة الى الأمام (٥٢) .

وقد استخدم ملوك أسبانيا النصرانية الكنيسة فى تدعيم هيبتهم واقرار نفوذهم على رعاياهم ، كذلك استخدموها فى صراعهم ضد بعضهم البعض ، وفى صراعهم ضد المسلمين . فقد دعا فرديناند ملك قشتالة وليون فى عام ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م الى عقد اجتماع كنسى فى جوياتسا ، شهده الأساقفة والنبلاء واقر هذا المجمع الكنسى العمل بدعوة القديس بندكت فى جميع الكنائس والأديرة ، وحصول الكنيسة على بعض الامتيازات ، كما أمر هذا المؤتمر سكان ليون وقشتالة بأن يلزموا الولاء والطاعة لفرديناند ، كما كان شأنهم من قبل مع الفونش الخامس وشانجة الكبير . وهكذا نرى أن الكنيسة كانت تعمل على توطيد هيئة السلطة الملكية على رعاياها ، وهذا

---

(٤٢) ترند ، أسبانيا والبرتغال ، ص ٧٦ . Livermore, op. cit., p. 105.

(٤٣) Chapman, op. cit., p. 66.

ما تؤيده أيضا القرارات التى صدرت فى اجتماع شانت ياقب فى عام ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م (٥٣) .

وقد لجأ ردمير (راميرو) الأول ملك أرغونة (٤٢٦ — ٤٥٥ هـ / ١٠٣٥ — ١٠٦٣ م) الى استخدام البابوية والكنيسة فى صراعه ضد أخيه فرديناند ملك قشتالة وليون . فقد عقد مؤتمرا فى جاقة عام ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م ، تقرر فيه اعتبار جاقة مركزا أسقفيا ، وارسال عشر ايراد الدولة وعشر الجزية التى يحصل عليها من مسلمى سرقسطة وتطليطلة الى رومة . والظاهر أن الذى حمل ردمير على التزامه بهذه الجزية لرومة هو تخوفه من أخيه فرديناند ، اذ تصبح أرغونة بذلك تحت حماية زعيم الكنيسة العالمية ، وهى وسيلة لجأت اليها مملكة البرتغال فيما بعد لتحمى استقلالها من عدوان قشتالة (٥٤) .

وقد زار ردمير ملك أرغونة رومة عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، وأعلن نفسه فارس القديس (بتر Peter) ، ثم أرسل البابا اسكندر الثانى سفيره الى أرغونة ، ليعمل على وضع جميع الأديرة تحت سلطة البابا ، وأن تحل الطقوس الرومانية محل الطقوس الأسبانية أو القوطية أو المستعربية . ونظير ذلك حصل ردمير من البابا على الاذن بأن يستعمل فى محاربة المسلمين دخل الكنائس الواقعة فى مناطق كانت تابعة للمسلمين . وعاد البابا جريجورى السابع وأرسل سفيره الى أسبانيا عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م ، لكى يقرر حق البابا فى تعيين الأساقفة ، وفرض الطقوس الرومانية فى الصلاة . ورغم معارضة أهالى قشتالة لهذه الاجراءات ، الا أن الفونش السادس أعلن قبولها نظير موافقة البابا على طلاقه من زوجته اجنيسيا وزواجه من الأميرة كونستانس الفرنسية الأصل (٥٥) .

---

(٤٤) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٥ ، ١٦ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٧ .

(٤٥) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٤٦) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٢٧ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٩٨ .
Livermore, op. cit., p. 106.

وبزواج الفونش السادس من الأميرة كونستانس عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٩ م ، نشطت الحركة الكلونية ، وازداد وفود الرهبان الفرنسيين على أسبانيا ازديادا كبيرا ، وأبدى دير ساهاجون فى قشتالة ورهبانه البندكتيون غيرة وحماسا شديداً فى تحقيق أهداف البابوية فى القضاء على مسلمى الأندلس . ولما حدثت هزيمة الزلاقة فى رجب ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م عقد الفونش السادس مجمع طليطلة الدينى فى رمضان ٤٧٩ هـ / ديسمبر ١٠٨٦ م ، وانتخب فيه هؤلاء الرهبان رئيسهم برنارد مطرانا لطليطلة ، وبحثوا أمر اعداد العدة لاستئناف الجهاد ضد المسلمين من جديد (٥٦) .

ومن المحقق أن الكونت هنرى والكونت ريموند البرجونيين ، قريبى الملكة كونستانس وصهرى الملك الفونش السادس ، كانا يومئذ فى أسبانيا ، واليهما والى نشاط المطران برنارد يرجع الفضل فى وفود جماعات كبيرة من المحاربين الفرنسيين الى اسبانيا ، كما وفد اليها ايضا عدد كبير من فرسان جنوبى فرنسا نتيجة لنداء البابا أوربان الثانى عام ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م ، لمساندة الأسبان فى حروبهم ضد مسلمى الأندلس . وكان هذا النشاط النصرانى امتدادا للحروب الصليبية التى كانت قد بدأت فى تلك المنطقة منذ سقوط جزيرة سردينية فى يد قوات البابا والقوى النصرانية الفرنجية والأسبانية عام ٤٠٦ هـ ، والتى استمرت طوال ذلك القرن وتمثلت فى سقوط بريشتر عام ٤٥٦ هـ ، وطليطلة عام ٤٧٨ هـ فى يد القوى الصليبية (٥٧) .

وكانت ظروف الحرب المستمرة بين النصارى والمسلمين فى أسبانيا ، قد حملت رجال الدين على أن ينزلوا هذا الميدان ، شأنهم فى ذلك شأن الأشراف والكونتات ، وكانوا يدعون عند الحرب الى مرافقة الجيش ، ولم يكن أحد من أفراد الشعب ورجال الدين يحظى بالتقدير والاحترام الا اذا

---

(٤٧) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٤٨) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٣١ .

محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، ص ١٤٠ .

أبدى شجاعة فى محاربة أعداء البلاد والدين من المسلمين . لذلك جندت الكنيسة نفسها لخدمة هذا الهدف الذى كانت تسعى اليه البابوية والملكية الأسبانية وجماهير الشعب الأسبانى . ومن ثم يمكن اعتبار الكنيسة الأسبانية كنيسة لها وضعها الخاص ، فهى كنيسة محاربة ، تخدم فى ميدان القتال كما تخدم فى ميدان الدعوة الى المسيحية (٥٨) .

ومن الأشياء التى خلعت الصفة الحربية على الكنيسة الأسبانية تلك الفرق من الفرسان التى كانت تابعة للأديرة والقلاع ، مثل فرسان سنتياجو ، وقلعة رباح Calatraba و Alcantara . وكان واجب فرسان سنتياجو « شنت ياقب) فى البداية ، هو الحفاظ على طريق الحج الى مزار القديس يعقوب خاليا من قطاع الطرق والأشرار ، ثم أصبحوا ضمن الجيوش المحاربة ضد المسلمين (٥٩) .

ولم يكن هدف جميع المحاربين هو العمل على خدمة الدين أو رفع الراية المسيحية على أرض الاسلام فى الأندلس ، فقد كان هدف المحاربين العاديين هو الاستحواز على الغنائم والتخلص من حالة الفقر التى كانوا يعيشونها فى الشمال القاحل ، بالمقارنة الى رغد العيش الذى كان يعيشه المسلمون فى الأندلس . ودليلنا على ذلك هو النداء الذى وجهه القمبيطور عند استعداده للهجوم على بلنسية عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، الى أهالى ارغونة وقشتالة ونبرة ، يدعوهم للحضور والاشتراك فى الغزو فيقول : « هؤلاء الذين يودون أن يقضوا على فقرهم ويصبحوا أغنياء ، فليأتوا معى للغزو ولتعمير تلك الأرض » (٦٠) .

وقد وردت هذه العبارة ضمن القصيدة التى قيلت فى وصف حياته ، والتى تظهر أن الدين لم يكن وحده هو العامل الرئيسى فى هذه المعارك

---

(٤٩) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٢ .

(٥٠) Crow, cit., p. 88.

(٥١) Crow, cit., p. 88.

Crow, cit., p. 91.

وهذه الانتصارات المسيحية ، وتبين لنا القصيدة فرحة المسيحيين الذين استولوا على بلنسية ، وتؤكد ما ذهبنا اليه فتقول « هؤلاء الذين أتوا على اقدامهم أصبحوا الآن يركبون الخيل ، وحازوا الذهب والفضة أكثر مما يستطيع ن يتخيله انسان ، لقد أصبح الجميع أغنياء .. » (٦١)

وهناك من المؤرخين من يشيرون الى انتشار الرذائل الخلقية بين افراد الطبقة الأرستقراطية ، والى انحطاط الكنيسة فى ذلك الوقت ، ويقولون بأن البطاركة كانوا يشتركون فى المؤامرات ضد ملوكهم ، وأن الأساقفة كانوا يقضون أوقاتهم فى العاصمة بدل أن يهتموا بادارة أبروشياتهم ، وأن الكهنة لم يهتموا ببث الروح المسيحية بين الناس ، وأن الرهبان أهملوا قوانين الرهبنة وسننها ، وأنه لم تكن هناك الا قلة من رجال الكنيسة ممن رفعوا أصواتهم بضرورة الاصلاح (٦٢) .

ومن هنا كان ضغط البابوية وقرارات المجامع الكنسية التى اشرنا اليها ، وسياسة الاصلاح التى اتبعها ملوك أسبانيا النصرانية وقيامهم باظهار التقوى والورع فى معاملتهم للناس ، وببناء الكثير من الكنائس والأديرة ، واغداقهم عليها الكثير من المنح والعطايا والهبات ، كما خصص هؤلاء الملوك قدرا كبيرا من الغنائم التى حصلوا عليها من حروبهم مع المسلمين للبر بالفقراء وتخفيف آلامهم . واهتموا أيضا بتحسين الطرق الكبرى وانشاء القناطر على الأنهار ، وغير ذلك من الاصلاحات الاقتصادية ، مما حل كثيرا من المشاكل ، وأدى الى توفير الأمن والحياة المستمرة لجماهير الشعب (٦٣) .

من هذا كله نرى أن أحوال ممالك أسبانيا النصرانية فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، كانت تساعد على قيادة الصراع ضد مسلمى الأندلس فى ثبات ونجاح ، وتساعد على التقدم المطرد للقوى النصرانية.

---

(٥٢) Crow, op. cit., pp. 90,91.

(٥٣) ابن عذارى ، البيان ج ٤ ، ص ٥١ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .
عيسى أسعد ، الطريقة النقية ، من تاريخ الكنيسة المسيحية ، ص ٢٤٣ .

(٥٤) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٢ ، ١٣٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٧ .

داخل الأراضى الاسلامية ، فالملكية الأسبانية صارت موحدة وفى يد أسرة واحدة ، وطبقة النبلاء ضعف شـأنها عن ذى قبل ، واصبحت أداة فى يد الملوك وعونا لهم على تحقيق سياستهم فى الداخل والخارج . اما الكنيسة فقد ازداد نفوذها وانفتحت أسبانيا على أوربا التى دعمتها فى صراعها ضد مسلمى الأندلس ، وأعلنت البابوية الحرب الصليبية فى الأندلس قبل اعلانها فى المشرق حتى استرد الأسبان طليطلة عاصمتهم الأولى .

وبسقوط طليطلة فى يد نصارى الشمال عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، انتقل الصراع الى قلب الأندلس ، من نهر دويرة الى نهر تاجة ، واصبحت ممالك الشمال النصرانية تحوز حوالى نصف شـبه الجزيرة الأسبانية ، وتمكنت من فرض الجزية على أقوى ملوك الطوائف . وبذلك أصبحت شبه الجزيرة كلهـا اما تحت حكمهم المباشر ، أو تحت حكم تابعيهم من ملوك الطوائف ، ابتداء من النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، ولم ينقذ أسبانيا الاسلامية من هذا الوضع المهين الا قدوم المرابطين الذى أخر سقوط الاسلام هناك الى حين .

الفصل الثانى

مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر ملوك الطوائف

رأينا فى حديثنا عن الأحوال أو الأوضاع الداخلية فى كل من الأندلس الاسلامية ، وأسبانيا النصرانية مدى ما كان فى الأولى من ضعف وما كان فى الثانية من قوة . ولم يكن ضعف الأولى ناتجا عن نقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، بل انها كانت غنيــة بكل ذلك ، وكانت تلمع فى سماء الفـن والأدب والثقافة ، لكن الضعف والوهن أتاها من انقســامها الى ممالك عديدة ، ومن تباغض زعمائها وصراعهم المقيت على السلطان ، ومن ترف حكامها وأشرافها وخلودهم لحياة الدعة والانغماس فى النعيم لدرجة أنهم كانوا يجبنون عن مواجهة النصارى ، ولذلك استقدموا المرابطين الأشداء ، الذين لم تفسدهم بعد حضارة أو ترف (١) .

ولم تكن قوة أسبانيا النصرانية ناتجة عن ازدياد الأموال أو الجيوش ، ولكنها كانت ناتجة عن روح المقاومة الصلبة والحيوية والطاقة التى لم تهن امام ضربات الناصر والمنصور . صحيح أنها استكانت فى عصر الخلافة ، لكنها ما لبثت أن خرجت كالمارد من قمقمها عقب انهيــار دولة بنى عامر مباشرة ، وفرضت نفسها على أروع ما تكون (٢) .

استطاعت أسبانيا النصرانية أن تستثمر عناصر الاضطراب والفوضى التى ألمت بالأندلس فى عصر دول الطوائف ، وأن تطيل أمد هذا الاضطراب ، وأن تضرب تلك الدول بعضها ببعض ، وأن تجعل من زعمائها مجرد تابعين يدفعون الجزية عن يد وهم صاغرون ، واستولت على الكثــير من المدن والحصون حتى أنها فى لحظة واحدة من لحظات الصراع بين خلفاء بنى أمية

---

(١) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٥٩ .

(٢) Crwo, op.cit., p. 96.

الأواخر اثناء الفتنة البربرية عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٤ م استولت على أزيد من مائتى حصن تسلمتها من يد هشام المؤيد ، نظير تأييده فى صراعه ضد غريمه سليمان المستعين فى الصراع على كرسى الخلافة فى قرطبة ، واستمر التقهقر الاسلامى حتى وصل ذروته بسقوط بربشتر وطلمنكة عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م [٣] .

وكانت النذر يرن صداها فى أذن الشعب الأندلسى ، وكان لا يفتأ يحذر ملوكه وأمراءه مغبة الاستمرار فى هذا الصراع المحزن على السلطة ، لكنهم لم يفيقوا الا على سقوط طليطلة ، اعظم قواعد الثغر الاسلامى عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . حينئذ واتتهم لحظة نبذوا فيها خلافاتهم واستعانوا بالقوة الاسلامية الناشئة ، وهم المرابطون ، وحققوا معا اضخم نصر فى ذلك القرن على ملوك أسبانيا النصرانية فى موقعة الزلاقة فى العام التالى .

لكن ملوك الطوائف لم يحسنوا استغلال هذا النصر ، ولم يخفوا خلافاتهم وانقساماتهم عن يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين وأمير المسلمين ، فصمم على القضاء عليهم ، وعلى ضم الأندلس لدولته الشاسعة . أما أسبانيا النصرانية لم تلبث أن لمت شعثها عقب الزلاقة ، ونظمت جيوشها واستأنفت النضال من جديد ، وصمدت أمام جيوش الأندلسيين والمرابطين اثناء حصارهم لحصن لبيط (أليدو) فى العام التالى لموقعة الزلاقة ، وأجبرتهم على فك الحصار والتقهقر الى بلادهم . وعلى ذلك فان هزيمة النصارى فى الزلاقة لم تزدهم الا تمسكا واتحادا ، بينما كشفت النقاب عن الخلل الكامن فى جسد الشعب الأندلسى الذى زادت خلافاته وانقساماته عن ذى قبل .

وليس معنى ذلك أن أسبانيا النصرانية لم تعرف الخلاف الداخلى . لقد حدث ذلك كما رأينا فى دراستنا لأحوالها الداخلية فى الفصل السابق

---

(٣) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ١٠٦ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١١٧ ، المقرى ، النفح ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ ، بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ١٧١ .

اكثر من مرة ، وخاصة عقب وفاة الملك الحاكم ، وقيام أبنائه من بعده وصراعهم على السلطان وتصفيتهم لبعضهم ، حتى يخلص الملك لأقواهم ، حينئذ تعود الوحدة من جديد . وبذلك فان ملوكهم كانوا يفرضون الوحدة بالقوة على اخوتهم من الملوك الآخرين ان لم يقروها بالمسالمة واعلان الطاعة . وحتى مع تعدد ملوكهم فانهم كانوا ينسون خلافاتهم الداخلية امام الشعور العام بالخطر ، أو اذا لمحوا فرصة فى أحد البلدان الاسلامية لعلهم يصيبون منها مغنما ، حينئذ كانوا يتكاتفون ويحاربون وينتصرون ، ويأخذ كل منهم نصيبه من الغنيمة ، وكانت الغنيمة أنهم حازوا حوالى نصف أرض شبه الجزيرة فى القرن الخامس الهجرى (٤) .

وبذلك فان أهداف الصراع وطبيعته قد تطورت كثيرا عما كان موجودا فى عصر الخلافة . فقد أصبح نصارى الشمال فى وضع جعلهم يصرحون علانية بطرد مسلمى الأندلس ويقولون لهم لا مقام لكم بيننا ، وأصبحت الحرب بين الطرفين حربا صليبية من الدرجة الأولى ، أما مسلمو الأندلس فلم يكن لهم هدف الا مجرد الدفاع عما فى أيديهم ريثما تتحسن الأحوال ، وكانوا يرقبون تقدم النصارى وازدياد قوتهم فى رعب وهلع ، وقصائد شعرهم تفيض حزنا وبكاء على ما أصاب المسلمين فى هذا العصر من كوارث ودمار ، وأسر وقتل ونفى وتشريد ، وضياع للبلاد والعباد ، حتى قال قائلهم :

حثوا رواحلكم يا اهل اندلس   فما المقام فيها الا من الغلط

وحتى انتشرت روح الهزيمة والرضا بالأمر الواقع ، فألف مفكروهم فى ذلك الكتب ، مثل كتاب « جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى » للوزير أبو يحيى بن عاصم (٥) .

لقد كان هذا العصر عصر التقهقر السياسى للاسلام فى نواح كثيرة ، فقد سقطت صقلية عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م ، وانتزع الروم السيادة

---

(٤) العذرى ، نصوص عن الأندلس ، ص ١٢١ .

(٥) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ .

البحرية من المسلمين ، حتى أن المعتمد صاحب اشبيلية أراد أن يستقدم أحد الشعراء المسلمين من صقلية وآخر من القيروان ، فلم يمكنه ذلك ، وكتب اليه الأول يقول :

البحر للروم لا يجرى السفين به — الا على غرر والبر للعرب

وكتب الثانى يقول :

ما أنت نوح فتنجينى سفينته — ولا المسيح انا امشى على الماء

وانتهى ذلك القرن كما نعرف بنشوب الحرب الصليبية بين الغرب المسيحى والشرق الاسلامى (٦) .

كل ذلك وما درسناه فى الأحوال الداخلية لمسلمى اسبانيا ونصاراها ، سوف نراه ، ونرى نتائجه واضحة أثناء دراستنا للعلاقة بين دول الطوائف وبين الممالك النصرانية فى أسبانيا . وفى هذا المقام لا بد أن نشير الى أننا سوف ندرس تلك العلاقة بدءا من سقوط الخلافة الأموية عام ٤٢٢ هـ ، حتى موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، ثم نتابع دراسة العلاقات بين دول الطوائف وبين أسبانيا النصرانية حتى سقوط هذه الدول فى يد المرابطين . ذلك أنها لم تسقط جميعا دفعة واحدة ، فقد استمر بعضها بعد العبور الثالث للمرابطين عام ٤٨٣ هـ وبعد قيامهم بتصفية معظم دول الطوائف والقضاء عليها فى ذلك الوقت (٧) .

١ ـ علاقات مملكة سرقسطة بالممالك النصرانية فى أسبانيا :

عندما انفرط عقد الخلافة الأموية فى بداية القرن الخامس الهجرى ، كان يحكم سرقسطة رجل من أنصار المنصور بن أبى عامر ، يسمى منذر بن

(٦) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ٨٣ ، جـ ٣ ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٧) Dozy, A History of the Moslems in Spain, pp. 567,569.

يحيى بن مطرف التجيبى ، من سلالة الأسرة التى استمرت فى حكم تلك الناحية مستقلة أو تابعة للخلافة منذ عام ٢٧٦ هـ . وقد سبق أن وضحنا موقفه من مساندة المرتضى الأموى ثم تخليه عنه هو وحليفه رامون بوريل ملك برشلونة عام ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م . وقد توثقت عرى الصداقة بين المنذر وملوك النصارى المجاورين له ولا سيما رامون وشانجة الكبير ملك نبرة ، وبالغ المنذر فى التودد الى أمراء النصارى حتى أنه نظم فى قصره بسرقسطة حفلا لعقد مصاهرة بين مليكين من ملوك النصارى ، هما شانجة ملك نبرة ورامون بوريل ملك برشلونة ، حضره الفقهاء والقساوسة وأعيان الملتين [٨] .

ورغم ما أثارته هذه العلاقة من النقد الحاد ، الا أنها فى النهاية وفرت السلام والهدوء لاقليم سرقسطة وكفت أطماع النصارى عنه ، ولم يدرك الناس أثر تلك السياسة الا بعد وفاة المنذر عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، وخلفه ابنه يحيى المظفر (٤١٤ — ٤٢٠ هـ / ١٠٢٣ — ١٠٢٩ م) فى حكم سرقسطة . ويبدو أن يحيى لم يحكم سياسة الصداقة التى كان يتبعها أبوه مع جيرانه امراء برشلونة ، حيث أغار صاحبها الكونت رامون بوريل على بعض أطراف مملكته ، واضطر أن ينزل له عن بعض القلاع الحصون [٩] .

خلف المنذر اباه يحيى المظفر فى حكم سرقسطة (٤٢٠ — ٤٣٠ هـ / ١٠٢٩ — ١٠٣٩ م) وفى عهده بدأ سلطان المسلمين فى هذا الركن القصى يتزعزع ، وبدات أطماع أمراء أرغونة وكونتات برشلونة تتجه نحو سرقسطة ونواحيها ، وكان هذا الاقليم يشمل من الحصون وكبار المدن عدا سرقسطة ، قلعة أيوب ودروقة وبربشتر ووشقة ومدينة سالم ولوجرونيؤ Logrono وصورية Soria وترويل Teruel وافراغة Frage ، وكان بذلك من أوسع امارات الطوائف امتدادا وعمرانا . لكن الخلاف دب بين أفراد إسرة بنى تجيب على السلطان ، وأدى ذلك الى القضاء عليهم وقيام

---

(٨) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ١٥٢ ـ ١٥٤ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ ٣ ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ ، عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٦٨ .

بنى هود فى حكم مملكة سرقسطة منذ عام ٤٣١ هـ ، حتى سقطت فى يد النصارى عام ٥١٣ هـ[١٠] .

وباستيلاء سليمان المستعين بن محمد بن هود على سرقسطة (٤٣١ — ٤٤١ هـ / ١٠٣٩ — ١٠٤٩ م) [١١] ، ثار نزاع بينه وبين يحيى بن اسماعيل ابن ذى النون ملك طليطلة منذ عام ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ، واستعان كل منهما بملوك النصارى ضد الآخر . وكان مثار النزاع بينهما استيلاء بنى هود على وادى الحجارة برغبة أهلها عام ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م ، فهرع المأمون بقواته حيث هزم وتحصن فى طلبيرة ، ثم فاوض فرديناند الأول ملك قشتالة ، وطلب العون منه نظير أن يؤدى له الجزية ويعترف له بالطاعة ، فاستجاب له فرديناند وأرسل قواته التى عاثت فى أرض بنى هود المجاورة لمملكته ، فاضطر ابن هود أن يسلك سبيل ابن ذى النون ، وأرسل الى فرديناند أموالا وتحفا كثيرة على أن يغير على أراضى طليطلة [١٢] .

وقام فرديناند بالمهمة خير قيام وخرب ضياع طليطلة وأريافها حتى جلا عنها الكثير من سكانها ولجأوا الى العاصمة ، واضطر أهلها الى طلب الصلح من سليمان المستعين بن هود ، لكنه مكر بهم وانتهز الفرصة واستولى على مدينة سالم التى كانت تحت سيطرة بنى ذى النون ، وكانت الأسرة النونية منقسمة على نفسها مما سهل مهمة بنى هود الى حد كبير . لكن المأمون بن ذى النون لم يستسلم وتوجه الى غرسية ملك نبرة وأخو فرديناند ملك قشتالة ، وتحالف معه ضد بنى هود ، فأغار غرسية بقواته

---

(١٠) ابن عذارى ، البيان ، جـ ٣ ، ص ١٧٧ ، ٢٢٢ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٧٠ .

(١١) تذكر المصادر العربية القديمة كلها أن سليمان المستعين مات عام ٤٣٨ هـ ، لكننا وجدنا درهما ضرب فى سرقسطة عام ٤٤٠ هـ مدونا عليه اسم « الامام هشام امير المؤمنين المؤيد الله ، والحاجب تاج الدولة سليمان » . ومعنى ذلك أن سليمان المستعين لم يمت عام ٤٣٨ هـ (البيان المغرب جـ ٣ ، ص ٢٨٢) وتابعه غيره من المؤرخين ، ولكنه حسبما قال ابن عذارى مات عام ٤٤٠ هـ أو بعده بقليل . انظر . Codera, Numismatica, p. 167.

(١٢) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٧٧ — ٢٧٩ .

على راضى بنى هود المجاورة له فيما بين تطيلة ووشقة ، وافتتح قلعة قلهرة عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، فقام فرديناند بدوره بالاغارة على أراضى طليطلة وخربها (١٣) .

وهكذا ادى التناحر بين هذين الملكين المسلمين ، المستعين بن هود والمأمون بن ذى النون ، الى اعطاء الفرصة لملوك النصارى الأسبان لكى يقوموا بتخريب اراضى المملكتين ونهب أموالهما واشعار المسلمين بالضعف ، حتى انهم صاروا جبناء لدرجة أنهم كانوا يولون الادبار بمجرد رؤية جنود النصارى . ولما ازداد اضطراب الأحوال فى طليطلة ، سعى أهلها الى فرديناند ملك قشتالة لطلب الصلح ، على أن يؤدوا له ما يريد من الأموال ويرحل عنهم ، لكنه اشترط عليهم شروطا من العسير تنفيذها ، ورفض السلم معهم وقال لهم « اننا نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فى أول أمركم ، فقد سكنتموها ما قضى لكم ، وقد نصرنا الله عليكم برداءتكم ، فارحلوا الى عدوتكم (يقصد بلاد المغرب وافريقية) ، واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم ، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم » (١٤) .

وهى عبارة على درجة كبيرة من الأهمية ، اذ ترينا سياسة النصارى وتبين لنا أهدافهم فى استرداد أراضيهم ، وأنهم كانوا يعتبرون المسلمين اجانب دخلاء مهما عمروا من السنين وأقاموا من الدول والمنشآت . واستمر فرديناند وأخوه غرسية يعيثان فى أراضى الدولتين حتى مات سليمان المستعين عام ٤٤٠ هـ أو ٤٤١ هـ ، فتنفس المأمون بن ذى النون الصعداء ، وتوجه بعدوانه الى جاره الآخر ابن الأفطس صاحب بطليوس . وقام أولاد سليمان المستعين الخمسة بالصراع فيما بينهم على عرش سرقسطة وما يتبعها من اقاليم ومدن ، وانتهى الصراع بفوز احمد المقتدر على باقى اخوته عدا يوسف المظفر حاكم لاردة (١٥) .

---

(١٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٨٠ ــ ٢٨٢ .
ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٧٨ .
(١٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٨٢ .
(١٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٢٢ .

وقد انتقم أحمد المقتدر من أخيه يوسف المظفر انتقاما غير أخلاقى حينما أرسل الأخير نجدة غذائية لمدينة طليطلة التابعة له عبر راضى شانجة ملك أرغونة ـ وليس شانجة ملك نبرة كما قال البعض ـ خوفا من مرورها عبر أراضى أخيه فى سرقسطة ، ورغم ذلك فقد رشا المقتدر ملك أرغونة وأرسل له الكثير من الأموال حتى يمكنه من قافلة أخيه ، وانتهى الأمر بضياع القافلة وأسر رجالها وقتل جنودها على يد رجال المقتدر وملك أرغونة [١٦] .

ولما هاجم ردمير الأول ملك أرغونة أراضى مملكة سرقسطة عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م استعان المقتدر بملك قشتالة فرديناند الأول واقر له بالطاعة ، فبعث اليه ولده شانجة فى بعض قواته برفقة القائد ردريجو دياز المسمى بالقمبيطور ، ودارت رحى الحرب عند أسوار حصن جرادوس ، وانهزم ردمير الأول وقتل فى هذه المعركة ، وأثار مقتله الشعور الدينى ضد مسلمى الثغر الأعلى ، وأدى ذلك بالاضافة الى صراع الأخوين الهوديين الى ضياع مدينة بربشتر على يد النصارى عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م [١٧] .

يعد سقوط بربشتر أعظم كارثة أصابت المسلمين فى عهد المقتدر بن هود ، نظرا لما صاحبها من تدمير وسفك وقتل وانتهاك للحرمات علنا أمام الناس ، ولما كانت تحمله من طابع صليبى واضح . ويؤيد البحث الحديث الصفة الصليبية لتلك الحملة التى قام بها أهل غاليس (غالة) والأردمانيون أو الروذمانون أو الأردمليش ، وكلها أسماء للنورمان الذين كان ملك فرنسا شارل البسيط سمح لهم بالاقامة فى الاقليم الذى عرف باسمهم فى فرنسا بعد ذلك باسم (نورماندى Normandie) . واشترك فى الحملة أيضا غليوم دى منترى كبير قواد البابا اسكندر الثانى ، الذى بشر لها فى ايطاليا

---

(١٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤ .
السامرائى ، علاقات المرابطين ، ص ٨١ .

(١٧) الطرطوشى ، سراج الملوك ، ص ١٥٦ ، انظر الفصل الثانى ، الباب الثالث

وفرنسا واسبانيا ، بالاضافة الى قوات شانجة راميز ملك ارغونة وابن الملك الذى قتله ابن هود عند جرادوس عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م (١٨) .

وقد اختلفت المراجع الحديثة حول شخصية قائد الحملة الذى ورد اسمه فى المصـــادر الاسلامية باسم (البيطبين أو البيطين أو البيطش) ، فالبعض يرى أنه كان النبيــل الفرنسى Elbesde Roucy أو الكونت Robert Crespin أو الكونت بلدوين دى فلاندس Palduino de Flades الذى كان وصيا على فيليب الأول ملك فرنسا ، وربما حرف الكتاب المسلمون اسم بلدوين الى (البيطين) . على أية حال وصلت تلك الحملة الصليبية التى سبقت الحملة الصليبية الأولى على المشرق بحوالى نصف قرن ، فى جمادى الأولى عام ٤٥٦ هـ / ابريل ١٠٦٤ م الى بريشتر وضربت حولها الحصار مدة اربعين يوما ، واستسلمت المدينة فى النهاية ودخلها النصارى وعاثوا فيها فسادا (١٩) .

وبلغ عدد القتلى والأسرى من أهل المدينة ما بين الخمسين والمائة الف وهذا دليل على كبر حجم الكارثة ، وقد تخير قائد الحملة خمسة آلاف من أجمل فتيات بريشتر وأرسلهن هدية الى صاحب القسطنطينية والى بابا روما اعلانا وابتهاجا بفوزه على المسلمين . وظل الصليبيون فى بريشتر لمدة عام حتى نهض المقتدر بن هود يعاونه المعتضد بن عباد واهل الثغور واعادوا المدينة الى حوزة الاسلام من جديد ، وقتلوا كل الحامية الصليبية التى كان

---

(١٨) ابن حيان برواية المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٧٤ .
ابن عـذارى ، البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٢٥ ، الحميرى ، المصـدر نفسه ، ص ٣٩ ، ٤٠ .
حسين مؤنس ، الحلة السيراء لابن الأبار ، جـ ٢ ص ٢٤٧ .
العبادى ، الاكتفاء لابن الكرديوس ، ص ٧٠ .
دوزى ، ملوك الطـوائف ، ص ١٧٧ ، Livermore, op. cit., p. 111.

(١٩) ابن حيان برواية المقرى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥ .
ابن عـذارى ، البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .
ابن الكرديوس ، المصـدر نفسه ، ص ٧٠ ، الحميرى ، المصـدر نفسه ، ص ٣٩ ، ٤١ .
أما عن أحـداث تلك الحملة ، أنظر المصادر المشار اليها أعلاه .

قد خلفها قائد الحملة عند مغادرته المدينة ، وتقدر بخمسة آلاف جندي وفارس (٢٠) .

وتصور حادثة بريشتر مدى الضعف والخلل الذى أصاب الحياة الاسلامية فى ذلك الوقت ، وخاصة فيما يتعلق بأمراء المسلمين وفقهائهم الذين يصفهم ابن حيان بأبشع الأوصاف ويتهمهم بالجهل والتقصير وتفضيل الأهواء الشخصية على المصلحة الاسلامية العليا . فلم يكن همهم حين سماعهم خبر الكارثة الا أن توقعوا قرب حلول الكارثة بينهم ، فأخذوا فى حفر الخنادق وتعلية الأسوار وسد الأركان وتوثيق البنيان ، أما عامة الناس فقد أظهروا اللامبالاة والسلبية الشديدة ، ولم يساندوا ملوكهم وأمراءهم فى درء هذا الخطر الزاحف عليهم من الشمال النصرانى ، ولم يعرفوا أن هذه الكارثة سوف تتلوها كوارث أعظم منها وأخطر (٢١) .

وقد علا نجم المقتدر بن هود بعد استرداده بريشتر من أيدى الصليبيين فى جمادى الأولى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م ، واستطاع أن يضيف الى مملكته أراضى جديدة انتزعها من جيرانه النصارى والمسلمين على السواء ، فاستولى على طرطوشة ودانية وجزء من كورة طركونة وأطراف من بمبلونة ، وطمع فى بلنسية ، استعان بملك قشتالة الفونش السادس فى الاستيلاء عليها ، وفرض على شعبه ضريبة لتحصيل الجزية ودفعها له ، وقد حاول أحد الفقهاء الصالحين الاعتراض على دفع الجزية للنصارى ، فما كان جزاؤه الا القتل على يد المقتدر بن هود نفسه (٢٢) .

ولما توفى فرديناند الأول ملك قشتالة عام ٤٥٧ هـ ، قامت الحرب الأهلية من جديد بين أولاده ، وكانت قشتالة وحقوق الجزية على سرقسطة

---

(٢٠) ابن حيان برواية المقرى ، النفح جـ ٢ ، ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢١) ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢٢) ابن عذارى ، البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٧١ ، مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ١٠١ .

من نصيب ولده الأكبر شانجة ، الذى بادر بارسال قواته الى سرقسطة بقيادة السيد القمبيطور للحصول على الجزية المطلوبة ، فاضطر ابن هود ان يرسل اليه الكثير من الأموال ، والهدايا فرفع الحصار عن المدينة ، ولما خلص عرش قشتالة لألفونش السادس بعد قتله لأخيه شانجة عاد وطالب بالجزية التى كانت لأخيه ، وكان يطالب بها أيضا شانجة وميزر ملك أرغونة الذى كان يستعين به المقتدر فى محاربة أخيه يوسف المظفر صاحب لاردة ، وظل يحاربه حتى ظفر به وسجنه فى حصن ملتشون عام ٤٧٤ هـ ، ولم يلبث أن مات المقتدر فى نفس العام أو فى العام التالى (٢٣) .

انقسمت الامارة بوفاة المقتدر من جديد بين ولديه يوسف المؤتمن الذى اختص بسرقسطة واعمالها ، والمنذر عماد الدولة الذى اختص بشرقى الامارة (لاردة وطرطوشة ودانية) . وكان من جراء هذه القسمة أن قامت الحرب الأهلية بين الأخوين ، واستعان كل منهما بالنصارى ، فاستعان يوسف المؤتمن بالسيد الطمبيطور الذى كان قد لجأ الى أبيه المقتدر من قبل بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين الفونش السادس ملك قشتالة ، واستعان المنذر الذى كان من ألد أعداء القمبيطور بشانجة راميريز ملك أرغونة ، وبراهون برنجير الثانى أمير برشلونة (٢٤) .

ووقعت أول معركة بين الأخوين عند قلعة المنار بالقرب من لاردة ، وهزم المنذر ، وأسر أمير برشلونة رامون بيرنجير عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م . وفى نفس الوقت كان عمهما يوسف المظفر سجين قلعة روطة قد فر ولجأ الى الفونش السادس وما لبث أن مات هناك ، وانتهز الفونش السادس الفرصة وهاجم سرقسطة بحجة أن المظفر قد تنازل له عن حقه المغتصب من أراضى الامارة ، لكن حملته باءت بالفشل وقتل جميع جنودها وقائدها ، فصمم الفونش على الانتقام (٢٥) .

---

(٢٣) ابن عذارى ، البيان ، جـ ٣ ، ٢٢٣ ، جـ ٤ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٧١ ، السامرائى ، المرجع نفسه ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٢٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٢٣ .

انظر ، الفصل الأول من الباب الثالث ، ص

(٢٦) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٥ ، انظر الفصل الأول من الباب الثالث ص

لم يلبث المنذر أن قام هو وحليفه ملك أرغونة وسارا فى قواتهما لمحاربة القمبيطور والتقى الطرفان عند موريلا على مقربة من طرطوشة ، فانتصر القمبيطور واستولى على ما فى معسكرهما من مال ومتـــاع وعلى كثير من الأسرى ، وعاد الى سرقسطة حيث استقبل استقبال الأبطال ، وعلا نجمه واشتد نفوذه حتى كان المؤتمن لا يبرم أمرا من أعمـــال الحرب أو السياسة دون مشاورته ، وغدا بذلك تحت حمايته مما دعا الناس الى تحميل المؤتمن مسئولية بغى القمبيطور وفساده فى نواحى شرق الأندلس (٢٦) .

لم يلبث أن مات المؤتمن عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ مم وخلفه ابنه أحمد المستعين (٤٧٨ — ٥٠٣ هـ / ١٠٨٥ — ١١٠٩ م) فى حكم سرقسطة وبقى الشق الآخر من المملكة بيد عمه المنذر الذى استأنف الصراع مع ابن أخيه ، وتحالف كل منهما مع النصارى ضد الآخر . لكن حدث أن سقطت طليطلة فى نفس العام فى يد الفونش السادس واختل ميزان القـــوى بين المسلمين والنصارى فى شبه الجزيرة اختلالا خطيرا ، وبات واضحا أن أيام الاسلام فى الأندلس معدودة ، ولم يلبث الفونش أن قام الى سرقسطة مصمما على الاستيلاء عليها مستغلا تطرفها وعزلتها عن باقى الممالك الاسلامية ، وحاول المستعين أن يرده بالمال ، لكنه أبى وأصر على أخذ المدينة ، ولم ينقذها منه الا انتشار الأنباء بنزول المرابطين أرض الأندلس ، فاضطر الفونش الى رفع الحصـــار عن سرقسطة وعاد الى قشـــتالة ليعبىء قواته استعدادا للمعركة الكبرى ضد المرابطين (٢٧) .

ثم كانت وقعة الزلاقة فى رجب ســـنة ٤٧٩ هـ / أكتوبر ١٠٨٦ م ، وفيها هزم الفونش هزيمة ساحقة وضعف أمر قشتالة ، لكن المستعين واجه خطرا آخر لا يقل خطورة عن خطر نصارى قشتالة . فقد بدأ شانجة راميرز ملك أرغونة بالاستيلاء على منتشون فى سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٩ م ، واضطر المستعين عندئذ أن ينضوى تحت حماية الفونش السادس ملك قشتالة وأن

---

(٢٦) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢٧) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٧ .

يدفع له الجزية التى كان قد أباها من قبـل . وكانت هـذه المحالفة تهم الفونش ، لأنه كان ينظر الى توسع مملكة أرغونة بعين الحسد (٢٨) .

ذلك أن شانجة ملك أرغونة زحف الى مدينة واشـقة ، وهى ثانى مدينة فى مملكة سرقسطة وضرب حولها الحصـار ، لكنه مات محاصرا لها عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م فمضى ابنه بدرو الأول (٤٨٧ — ٤٩٨ هـ / ١٠٩٤ — ١١٠٥ م) يلح عليها بالحصار حتى استولى عليها فى ذى الحجة ٤٨٩ هـ / نوفمبر ١٠٩٦ م بعد معركة حاميـة تسمى معركة الكوراز Alcoraz هزم فيها المستعين وحلفاءه القشتاليين ، وقتل من المسلمين حوالى اثنى عشر الفا ، وكان بين القتلى غرسية ردونيز قائد جند قشتالة ، واستسلمت المدينة ودخلها بدرو الأول فى موكب المنتصر ، وفى الحال حول مسجدها الى كنيسة وجعلها عاصمة لمملكته أرغونة (٢٩) .

وفى تلك الأثناء كان السيد القمبيطور الذى كان يعمل لحسابه الخاص فى تلك الفترة قد استولى على بلنسية عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، وانشغل بالحفاظ عليها أمام هجمات المرابطل وازدياد نفوذهم وقوتهم فى الجزيرة ، كذلك كان الفونش السادس مشغولا هو الآخر بدفع خطر المرابطين عن مملكته ، ومن ثم أصبح من الواضح أنه لا يمكن للمستعين بن هود أن يطلب العون منهما ضد خطر ملك أرغونة ، فولى وجهه شطر المرابطين وارسل لهم ابنـه عبد الملك عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م ومعـه هدية فاخرة لطلب محالفتهم (٣٠) .

وكان هذا يتفق مع سياسة المرابطين الذين كانوا يرون ترك الثغور المواجهة لبلاد العدو فى حكم الأندلسيين ، لكونهم أدرى بأحوالها وبأحوال

---

(٢٨) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٨ .

(٢٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .
الطرطوشى ، سراج الملوك ، ص ١٥٢ ، المقرى ، النفح ج ٤ ، ص ٢٠٦ .

(٣٠) بطرس البستانى ، معارك العرب فى الأندلس ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٨ .

العدو أكثر منهم ، ولتكون حاجزا بينهم وبين نصارى الشمال ، وخوفا من أن يقوم بنو هود بتسليم المملكة الى أعداء الاسلام اذا ما هاجمهم المرابطون ، واستغل ابن هود هذا الموقف واطمأن على بقائه فى الحكم بعد أن أخذ يهدد نصارى الشمال والمرابطين كلا منهما بالآخر [٣١] .

اطمأن المستعين الى محالفة المرابطين وأخذ يستعد لمقارعة ملوك ارغونة ، وكان بدرو قد توفى وخلفـــه فى الملك أخوه الفونسو المحارب عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م ، وكان ملكا مقداما شديد البأس ، ولم يكن قد بقى من قواعد مملكة سرقسطة الهامة فى شمال نهر ابرة بعد سقوط وشقة سوى تطيلة ، فسار اليها الفونس المحارب فى قواته ، وزحف المســتعين لنجدتها ووقعت بين الفريقين معركة شديدة عند بلدة تدعى بلتيرة (فالتيرا) ، هزم فيها المسلمون وقتل المستعين ، وذلك فى رجب سنة ٥٠٣ هـ / يناير ١١١٠ م ولم تلبث المملكة كلها أن سقطت فى يد النصارى بعد ذلك بعشر سنوات [٣٢] .

٢ ــ علاقة مملكة بلنسية بممالك اسبانيا النصرانية :

تمثل بلنسية نموذجا للفوضى السياسية التى كانت سمة من سمات هذا العصر ، اذ تعاقب على حكمها الفتيان العامريان (مبارك ومظفر) حتى عام ٤١١ هـ ثم استقل بها أحفـــاد المنصور بن أبى عامر حتى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م ، ثم صارت تابعة لبنى ذى النون ويحكمها أحد أتباعهم ، ثم صار تحت حكمهم مباشرة بعد أن طرد القادر من طليطلة وملكه الفونش السادس على بلنسية عام ٤٧٨ هـ . ولم تلبث أن استقلت المدينة تحت حكم قاضيها ابن جحاف عام ٤٨٥ هـ بعد أن قتل القادر الذى كان فى الواقع ظلا لسلطان ملك قشتالة أو لذلك القائد القشتالى المغامر المسمى القمبيطور . ولم يستمر حكم هذا القاضى طويلا فقد تمكن القمبيطور من الاستيلاء عليها

---

(٣١) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٤٥ .
ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ ، الحلل الموشية ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٣٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ .
المقرى ، النفح ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٩١ .

بعد عامين (٤٨٧ هـ) عندما لم تجد من يساعدها فى الصمود أمام حصار استمر عشرين شـــهرا كاملا ، اكل الناس فيها لحوم الموتى من البشر . واستطاع المرابطون أن يستعيدوها بعد ذلك بثمانية اعوام (٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م) .

وخلال هذه التقلبات السياسية التى مرت على تلك المدينة ، ظهرت الأطماع فى الرغبة فى السيطرة عليها سواء من جانب المسلمين (بنى هود ـــ بنو ذى النون) أو من جانب المسيحيين (ملوك أرغونة ـــ قطلونية ـــ قشتالة) . وتاريخ تلك المدينـــة خير مثال يمكن أن نضربه للتعرف على حقيقة العلاقات السياسية التى كانت موجودة على أرض شـــبه الجزيرة فى ذلك الوقت .

واول من استولى على بلنسية بعد قيـــام الفتنة البربرية فى بداية القرن الخامس الهجرى هم الفتيان العامريون ، فقد حكمها منهم مظفر ومبارك وانتهى حكمهما عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ، وتولى أمر بلنسية بعدهما الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة بموافقة أهلها ، لكنه أساء السيرة وسخط عليه اهل بلنسية للصـــداقة التى عقدها مع ملك برشلونة رامون بوريل الثالث ، مما أعطى الفرصة لهذا الملك من التدخل فى شئون بلنسية بصورة واضحة . فقام اهل بلنسية وعقدوا البيعة لأحد أحفاد المنصور بن أبى عامر ، وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول (٤١١ ـــ ٤٥٢ هـ / ١٠٢١ ـــ ١٠٦١ م) (٣٣) .

استقر عبد العزيز فى بلنسية وتلقب بالمنصور ، ووسع نفوذه واستولى على المرية بعد مقتل حاكمها زهير العامرى عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م ، وكذلك استولى على مرسية واوريولة ، وبذلك صارت مملكة مجاهد العامرى فى دانية محصورة بين أطراف مملكة بلنسية الشمالية والجنوبية ، فخرج على

---

(٣٣) ابن عـذرى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .
ابن الخطيب ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ .
خليل السامرائى ، المرجع نفسه ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

رأس قواته عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤١ م لكنـــه منى بالهزيمة على يد قوات المنصور عبد العزيز الذى ساعدته قوات مرتزقة أمده بها ملك قشـــتالة فرديناند الأول ، ولم تتعرض بلنسية فى عهد عبد العزيز لهجمات من نصارى الشمال ، ربما لصلة القرابة التى تربطهم ، جيث أن جدته كانت من نصارى نبرة أو قشتالة (٣٤) .

وفى عهد ابنه وخلفه عبد الملك المظفر (٤٥٢ ـــ ٤٥٧ هـ / ١٠٦١ ـــ ١٠٦٥ م) تعرضت مملكة بلنسية لهجمة شرسة من فرديناند ملك قشتالة عام ٤٥٧ هـ . ويبدو أن تلك الهجمة كانت رد فعل لاسترداد بريشتر على يد المقتدر بن هود من يد الصليبيين بعد أن كانوا قد استولوا عليها فى بداية عام ٤٥٦ هـ ، ونتيجة لسوء معاملة النصارى التى صحبت القضاء على آثار تلك الحملة الصليبية المدمرة التى تعرضت لها بريشتر .

وكان ابن هود قد رفض دفع الجزية لفرديناند ، فقام الأخير بمهاجمة اراضى سرقسطة ، ثم أشرف على بلنسية وضرب حولها الحصار ، وأعمل الحيلة فى القضاء على أهلها ، فتظاهر بالارتداد صوب الشمال الى قرية تسمى بطرنة ، فخرج سكان بلنسية مع ملكهم عبد الملك لمطاردتهم وهم يلبسون أفخم الثياب والزينة وكأنهم فى يوم عيد ، وهنا خرج عليهم الكمين وأخذهم قتلا وأسرا ، ولم ينج منهم الا العـــدد القليل ، وفى ذلك يقول الشاعر (٣٥) :

لبسوا الحـــديد الى الوغى ولبستم ــــ حـــلل الحـــرير عليـــــكم الوانـــا

ما كان أقبحهم وأحســـــنكم بهـــا ــــ لو لم يكـــن ببطـــــونه ما كانـــا

بعد هذا النصر الذى حققه فرديناند عاد الى محاصرة المدينـــة من جديد ، فاستغاث عبد الملك المظفر بصهره المأمون صاحب طليطلة . ورغم

---

(٣٤) عنان ، دول الطوائف ، ص ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٣٥) ابن بسام برواية ابن عـذارى ، جـ ٣ ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
ابن بسام برواية المقرى ، المصـدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٨٥ ، جـ ٢ ، ص ٥٧٤ .

ان المأمون كان يدفع الجــزية لفرديناند الا أنه هرع لانقــاذ المدينة أملا فى استخلاصها منه لنفسه ، وقد ساعدته الظروف على ذلك ، اذ أن فردينانـــد لم يلبث أن أحس بدبيب المرض والموت يسرى فى جســـده فرفع الحصـــار وعاد الى بلاده حيث مات هناك بعد فترة قصيرة ، وانتهز المأمون الفرصة ودخل بلنســـية وعزل صـــهره عن حكمها وضمها الى مملكته طليطلة فى ذى الحجة عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م (٣٦) .

ترك المأمون حكم بلنسية فى يد أحد وزرائها وهو أبو بكر أحمد بن ابى عبد الله بن عبد العزيز (٤٥٧ — ٤٧٨ هـ / ١٠٦٥ — ١٠٨٥ م) ، فأحسن ادارتها واستقل بها بعد وفاة المأمون عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م ، لكنه واجه خطر أطماع بنى هود فيها ، ذلك أن المقتـــدر بن هود كان قد استولى على دانية فى العـــام التالى (٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م) من يد اقبـــال الدولة على بن مجاهد العامرى ، وأصبحت بلنسية محصورة بين أطراف مملكته ، فتوجس أبو بكر بن عبد العزيز خفية من المقتدر بن هود ، فخاطب الفونش السادس ملك قشتالة وانضوى تحت حمايته ، وتعهـــد له بأداء الجزية ، وفى الوقت نفسه كان المؤتمن بن المقتدر يتطلع الى امتلاك بلنسية لأهمية موقعها ووفرة خيراتها ، فخاطب بدوره الفونش السادس ودفع اليه مائة الف دينار لمعاونته فى السيطرة عليها (٣٧) .

وبالفعل زحف ملك قشتالة الى بلنسية ، فخرج اليـــه ملكها أبو بكر وخاطبه برقة ولباقة وأقنعه بالرجوع ، فانصرف الفونش ووعده بحمايته . ذلك أن الفونش كان معجبا بأبى بكر ويعـــده واحدا من رجالات الأندلس الثلاثة فى نظره ، وهم أبو بكر بن عبد العزيز هذا ، وابو بكر بن عمـــار وزير المعتمد بن عبـــاد ، وششناندو أحد قواده البـــارزين . وفى نفس

---

(٣٦) ابو الفـدا ، تاريخه ، جـ ٢ ، ص ١٥٦ ، القلقشندى ، المصـدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ٢٥٣ .
عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٥ ، دوزى ، المرجع نفسه ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٣٧) القلقشندى ، المصـدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ٢٥٣ .
خليل السامرائى ، المرجع نفسه ، ص ١١٠ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٦٦ .

الوقت التمس ابو بكر حماية المؤتمن بن هود ، وقدم ابنته لتكون عروسا لابنه احمد المستعين ، واحتفل بهذا الزواج احتفالا كبيرا وذلك فى رمضان ٤٧٧ هـ / فبراير ١٠٨٥ م ، ولم يعش ابو بكر طويلا اذ ما لبث أن توفى فى صفر ٤٧٨ هـ / يونية ١٠٨٥ م ، وخلفه فى حكم المملكة ابنه أبو عمر عثمان (صفر ٤٧٨ ــ شوال ٤٧٨ هـ) (٣٨) .

وفى هذه الأثناء حدثت اكبر كارثة حاقت بالمسلمين فى ذلك العصر اذ سقطت طليطلة فى يد الفونش السادس فى صفر ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . وكان لسقوطها آثار خطيرة على مستقبل مملكة بلنسية . ذلك أن الفونش كان قد اتفق مع القادر بن ذى النون ملك طليطلة المعزول على اعطائه بلنسية ، أو مساعدته فى استردادها من يد ابن وزيرهم الذى كان بنو ذى النون قد ولوه اياها بعد القضاء على حكم العامريين بها عام ٤٥٦ هـ كما سبق القول . وانقسم شعب بلنسية على نفسه ، فكان البعض يرى الانضواء تحت حماية المستعين بن هود ، بينما الآخرون يرون أن لبنى ذى النون حقوقا فى المدينة وهم أحق بها (٣٩) .

وتحقيقا لاتفاق الفونش مع القادر ، فقد قدم الأخير مع قوة قشتالية بقيادة البارفانيس الذى تسميه الرواية الاسلامية (البرهانس) ، وتمكن من دخول بلنسية فى شوال ٤٧٨ هـ/فبراير ١٠٨٦ م ، وقامت دولة بنى ذى النون مرة أخرى فى شرقى الأندلس بعد أن كانت قد انتهت فى طليطلة ، وقامت على يد ملكها الشريد الخانع الضعيف ــ القادر بالله فى مثل الظروف التى كانت قائمة عليها من قبل فى أواخر أيامها بطليطلة ــ دولة ضعيفة تابعة ، تدين بوجودها لقشتالة ، وتعيش فى ظل الحراب النصرانية . وما لبث القادر أن أبدى صولة الضعيف اذا تحكم ، ففرض على المدينة حكم طغيان شامل ، وصادر الأغنياء وفرض عليهم الغرامات ،

---

(٣٨) القلقشندى ، نفسه ، جـ ٥ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٦ .

(٣٩) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٧ .

وعاث النصارى فى المدينة ، واصبحوا الحاكمين الحقيقيين لها ، وخاف الناس من القادر ان يسلمها لألفونش كما سلم من قبل طليطلة (٤٠) .

ولما راى المنذر بن هود صاحب طرطوشة ودانية والجزء الشرقى من مملكة سرقسطة والذى كان يناوىء ابن اخيـــه احمد المستعين اضطراب الأحوال فى بلنسية ، طمع فيها خاصة وانها تشطر مملكته ، فسار اليها فى قواته ومعه سرية من المرتزقة القطلان وحاصرها . وفكر القادر فى التسليم ، لكنه ارسل الفونش ملك قشتالة يستغيث به ، كما أرسل بنفس الصريخ الى المستعين بن هود صاحب سرقسطة وخصم المنذر الذى أراد أن يحقق حلم أبيه المؤتمن فى السيطرة على بلنسية ، وأن يعوض الأموال التى كان قد دفعها أبوه الى ملك قشـــتالة لتحقيق ذلك ، وبادر بالاستجابة لصريخ القادر ، وهرع الى بلنسية فى أربعة آلاف فارس ، ومعه حليفه القمبيطور فى ثلاثة آلاف فارس عام ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م (٤١) .

ويقال أن المستعين قد اتفق مع القمبيطور على أن تكون الأسلاب كلها من نصيب القمبيطور ورجاله ، وأن تكون المدينة ذاتها من نصيب المستعين . وكانت هذه هى النية الحقيقية فى اسراع المستعين لنجدة بلنسية . ولما اشرف على بلنسية أدرك المنذر أنه لا فائدة من الانتظار ، وكان القـــادر يعرف نوايا هؤلاء الذين هرعوا لمســـاعدته ، فحاول أن يضربهم ببعضهم وتحالف مع القمبيطور سرا ، وأرسل اليه الأموال والهدايا ، فلما وصـــل القمبيطور والمستعين الى بلنســـية ، ظهرت حقيقة القمبيطور ، وانكشف غدره بمن آواه ، وبانت خلاله الأصلية التى أباحت له أن يبيع العـــدو والصديق معا ، وأن ينتهز الفرصة بأى ثمن ، فكان يوعز للقادر والمستعين انه مساعد لكل منهما فى وقت واحد (٤٢) .

---

(٤٠) ابن عـذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ ، القلقشندى ، المصـدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥٤ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٨ . Dozy, op. cit, p 693

(٤١) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٩٨ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٤٢) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٩٨ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

وأراد القمبيطور الا يعرض نفســـه لغضب الفونش الســادس ملك قشتالة ، فأرسل اليه يخبره أنه فيما يعمله ويغنمه انما هو تابع له ، وذهب بنفسه الى قشتالة وحصل من الفونش على وثيقة تبيح له امتلاك وتوريث ما يحصل عليه من أراضى المسلمين لأولاده من بعده . ولما أدرك المستعين مدى نفاق القمبيطور وغدره وانصرافه الى العمل لصالحه وصالح قشتالة ، قطع علاقته به واتجه الى محالفة برنجير كونت برشلونة ، وكان من ألد أعداء القمبيطور ، ودفع اليه أموالا طائلة وأرسله الى محاصرة بلنسية ، ولكن القادر صمد للحصار حتى عاد القمبيطور من قشتالة وتقابل مع قوات كونت برشلونة فى معركة هزم فيها الكونت وأسر ، وأطلق القمبيطور سراحه لقاء فدية كبيرة ، وانتهى الأمر بينهما الى التفاهم وعاد الكونت بجيشه شمالا الى برشلونة (٤٣) .

استطاع القمبيطور بعد ذلك أن يفرض نفوذه وسيطرته على شرق الأندلس ، فدفع له الجزية أصحاب البونت والسهلة ومربيطر وشنتمرية الشرق علاوة على نلنسية التى تعهد صاحبها القادر أن يدفع له مائة الف دينـــار سنويا نظير حمايته له . وقد أثار ازدياد نفوذ القمبيطور على هذا النحو أعداءه فى قشتالة . فأثاروا الملك عليه ، وصوروا له تصرفات القمبيطور بصفة الغدر والخيانة ، وخاصة بعد أن كان القمبيطور قد تخلف عن مساعدته فى حصار حصن لييط ، فقبض على زوجتـــه وأولاده وعزم على مهاجمة بلنسية فى الوقت الذى كان فيه القمبيطور فى سرقسطة لينظم الدفاع عنها ازاء ازدياد خطر المرابطين ، ولعقد محالفات مع ملوك النصارى المجاورين مثل ملك أرغونة وملك نبرة (٤٤) .

وتحالف الفونش السادس مع جمهوريتى جنـــوة وبيزة على مهاجمة بلنسية بحرا ، على أن يهاجمها فى نفس الوقت من البر ، وتقدم الفونش الى بلنسية لكن السفن الحليفة لم تصـــل فى الوقت المناسب ، فرفع الفونش الحصار بعد أن أخذت المؤن فى النفاد ، وبعد أن سمع أن القمبيطور قد أغار

---

(٤٣) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٤٤) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٠ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٩ .

على اراضى قشتالة انتقاما لما فعله الفونش بمنطقة نفوذه فى بلنسية ، فعاد الفونش إلى سياسة اللين وأصدر عفوه عن القمبيطور فى أوائل عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م وعاد الى بلاده (٤٥) .

انتهز الحزب المعارض للقادر والقمبيطور ولنفوذ نصارى الأسبان بصفة عامة الفرصة ، وكان على رأس هذا الحزب قاضى المدينة أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافرى الذى تفاوض مع المرابطين على أن يمدوه بقوة تساعده على الوقوف فى وجه الأسبان والقادر بن ذى النون على أن يسلم لهم المدينة . ولما وصلت القوة المطلوبة ، قامت الثورة ضد القادر وتم قتله فى رمضان ٤٨٥ هـ / أكتوبر ١٠٩٢ م ، وآلت السلطة الى جماعة الفقهاء والأشراف وعلى رأسها ابن جحاف (٤٦) .

ولما علم القمبيطور بهذه التطورات المزعجة أسرع بالسير الى بلنسية ، واعمل الحيلة حتى ينفرد بابن جحاف ، وفاوضه على أساس أن يطرد جند المرابطين من المدينة وأن يبقيه حاكما لها مكان القادر ، على أن يؤدى الجزية المتفق عليها من قبل وهى ألف دينار فى الأسبوع . ونجحت الخطة ، لكن القمبيطور سرعان ما نقض وعوده وأخذ يضـــايق المدينـــة ويطالب أهلها بالأموال ، وطالب ابن جحاف بتسليم ابنه رهينة . عندئذ رفض ابن جحاف وأرسل يستصرخ بالمرابطين والمستعين ملك سرقسطة وألفونش السادس ملك قشتالة ، وصمد ابن جحاف لحصار القمبيطور عشرين شهرا حتى أكل الناس لحوم البشر ، وصاروا أشباحا كالموتى ، وارتفعت الأسعار بشكل لا يحتمل وانتهى الأمر باستسلام المدينـــة فى ٢٨ جمادى الأولى ٤٨٧ هـ / ١٥ يونية ١٠٩٤ (٤٧) (٤٨) .

وبذلك سقطت بلنسية فى يد القمبيطور وضاعت كما ضاعت طليطلة ، وكان لسقوطها دوى كبير فى أنحاء اسبانيا ، لا سيما بعد المذابح التى أجراها القمبيطور لزعمائها وخاصة لابن جحاف الذى أحرقه حيا ، عقـــابا له على

---

(٤٥) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٠ .

(٤٦) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٣ ، ابن عـذارى ، المغرب ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ .

(٤٧) ابن الخطيب ، المصـدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٤٨) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٣ ، ابن عـذارى ، المغرب ج ٣ ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ ابن الخطيب ، المصـدر نفسه ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

صموده الطويل ، ولاستنجاده بالمرابطين ، ولاغتياله للقادر أحد أتبـاع القمبيطور ، ولاستيلائه على أمواله وانكار ذلك عند مطالبته بها . ولبث القمبيطور يقاوم المرابطين ويدفع تقدمهم عن شرق الأندلس حتى مرض وقتل ابنه الوحيد فى معركة لألفونش مع المرابطين الذين تمكنوا ايضا من هزيمة قواته عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م ، فآلمه الخطب واشتد عليه المرض ومات غما وحزنا فى رمضان ٤٩٢ هـ / يولية ١٠٩٩ م [٤٩] .

صمدت زوجتـه خمينا لهجمات المرابطين عامين آخرين ، وأخيرا استدعت الفونش السادس الذى جاء اليها فى قواته ، ودخل بلنسية فى جمادى الثانى ٤٩٥ هـ / مارس ١١٠٢ م ، ووجد الفونش أنه لا فائدة للمقام فى هذه المدينة ، فخرج ومعه خمينا وجميع النصارى ومعهم أموالهم وأولادهم ورفات القمبيطور وأحرقوا المدينة ، ودخلها المرابطون وأعادوها الى حوزة الاسلام فى شعبان ٤٩٥ هـ / مايو ١١٠٢ م وبذلك انتهى الصراع حول هذه المملكة [٥٠] .

٣ ـ علاقة مملكة دانية والجزائر الشرقية بالممالك النصرانية فى اسبانيا :

بعـد قيـام البربرية وانتشار عقـد الخلافة فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، تغلب مجاهد بن عبد الله العامرى مولى عبد الرحمن شنجول بن أبى عامر على دانية والجزائر الشرقية (ميورقة ، منورقة ، يابسة) والتى تعرف بجزائر البليار ، وأقام المعيطى خليفة عام ٤٠٥ هـ ، وغزا معـه جزيرد سردينيا فى ربية الأول عام ٤٠٦ هـ / أغسطس ١٠١٥ م ، وكان أول فتح اسلامى لهذه الجزيرة الكبيرة ، وأخذ مجاهد ينظم شئونها وبدأ فى بناء مدينة كبيرة بها ونقل اليها أسرته ، ولما كانت تلك الجزيرة قريبة من سـواحل ايطاليا ، أعلن البـابا بندكتوس الثامن فى الحال الحرب الصليبية ضد المسلمين ، وعقد حلفا مع جنوة وبيزة على محاربتهم وطردهم من الجزيرة [٥١] .

---

(٤٩) ابن عـذارى ، البيان ، جـ ٤ ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، للضبى ، بغية الملتمس ، ص ١٨٢ .
ياقـوت ، معجم البلدان جـ ٢ ، ص ٢٧٩ ، المقرى ، النفح جـ ٢ ، ص ٥٧٧ .
(٥٠) ابن عـذارى ، البيان ، جـ ٤ ، ص ٤١ ، ٤٢ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٨ .
(٥١) للضبى ، المصـدر نفسه ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .
ابن الأثير الكامل جـ ٩ ، ص ١٠٨ ، ابن خلـدون ، المصـدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٦٤ .

ولا تعطينا المصادر الاسلامية معلومات مفصلة عن دور نصـــارى الشمال الأسبانى فى هذه الحرب الصليبية ، ولكنها تكتفى بالاشارة الى أن الروم والفرنج ساروا اليها واخرجوا المسلمين منها فى نهاية عام ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م . ولعل المقصود بالروم هنا هم جنـــود البابا ومدن ايطاليا من الرومان ، أما الفرنج فلعهم فرنجة برشلونة ومما يقوى هذا الاعتقاد موقع برشلونة المواجه لجزيرة سردينا ومهاجمة مجاهد العامرى لها اى لبرشلونة فيما بعد [٥٢] .

على أية حال فقد فشل مشروع مجاهد فى احتلال سردينيا نظرا لمقاومة اهل الجزيرة من الداخل ، وتمرد الجند المرتزقة النصارى فى أسطوله ، وتوالى العواصف العنيفة التى كانت تقذف بسفن المسلمين ناحية الأسطول البابوى ، فيغتنمها هؤلاء ويفتكون بمن فيها أو يأسرونهم . وانتهت المعركة بهروب مجاهد فى قلة من جنده بعد أن استولى العـــدو على أهله وحريمه وابنه (على) وامه النصرانية (جود) وذلك فى عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م . وقد استطاع مجاهد أن يفتدى زوجته وبناته وابنه (على) فيما بعـــد ، ورفضت امه واختها العـــودة وفضلتا العيش فى أرض نصرانية فأعرض عنهما [٥٣] .

وفى عام ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م هاجم مجاهد العامرى منطقة قطلونية ويبدو انه هزم أمام قوات قطلونية واضطر الى طلب الهدنه ودفع الجزيه ، ولو كان مجاهد قد سخر مجهوده كله لجهاد نصارى أسبانيا ولم يقم بمشروعه الفاشل فى سردينيا لكان ذلك مفيدا وذا جدوى ، ولكنه اثار البابوية أكبر زعامة مسيحية موجودة فى ذلك الوقت بغـــزوه الطائش لسردينيا وبعض المدن الايطالية . وقد قضى مجاهد بقية عمره حتى وفاته عام ٤٣٦ هـ / ١٠٤٥ م فى علاقات طيبة مع كونت برشلونة ومع فرديناند ملك قشتالة على عكس علاقاته بجيرانه المسلمين فى المرية ومرسية وبلنسية [٥٤] .

---

(٥٢) الضبى ، المصـــدر نفسه ، ص ٤٥٨ ، ابن الأثير ، الكامل ج ٩ ، ص ١٠٨ .

(٥٣) الضبى ، المصـــدر نفسه ص ٤٥٨ ، ابن خلدون ، المصدر نفسه ج ٤ ، ص ١٦٤ .

(٥٤) ابن خلدون ، المصـــدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٢ .

تولى حكم مملكة دانية والجزائر الشرقية اقبال الدولة على بن مجاهد العامرى (٤٣٦ــ٤٦٨هـ/١٠٤٤ــ١٠٧٥م) ، وتميز عصره بالعلاقة الحسنة مع ملوك النصارى والتسامح المطلق مع نصارى مملكته ، وربما كان ذلك راجعا الى نشأته بين نصارى سردينيا خلال أسره الطويل ، واعتناقه دينهم قبل أن يعود الى الاسلام ودياره . وقد اطمأن (على) على موقع مملكته الحصين والنائى عن أطماع ملوك النصارى ، وعاش فى سلام مع جيرانه ، لا يهتم الا بتنمية ثروته أو زيادة خراجه ، وصاهر ملوك الطوائف بتزويجهم من بناته الخمس الرائعات الجمال ، واللاتى كن فى الواقع عيـونا له على أزواجهن (٥٥) .

ومما يدل على علاقته الطيبة بملوك النصارى الأسبان أنه وضـع كنائس مملكته فى دانيا والجزائر تحت رعاية أسقفية برشلونة ، على أن يتولى (على) تعيين رجال الدين الذين يعملون بهذه الكنائس ، وهنـاك وثيقة بالفاتيكان تفيـد بذلك ، ووثيقة ثانية يسـمح فيهـا (على) للنصارى المعاهدين فى أعمال مملكته بأن يذكروا اسم أسقفهم فى خطبهم ومواعظهم . وقد اورد الأستاذ عنان النص العربى لهذه الوثيقة جاء فيه « أشهده اقبال الدولة أيده الله على أنه أجاب غلبرت الأسقف ببرشلونة الى أن يكون مذكورا فى خطب النصارى فى بيعهم بجميع أعماله ، وهو مما انعقد بالخط الأعلى ، وذلك فى شوال سنة تسع وأربعين وأربعمائة » ثم يلى ذلك أسماء الشهود (٥٦) .

وكان على بن مجاهد يهتم بشـئون الجزائر الشرقية ويعتبرها أهم اقسام مملكته ، وكان حاكم الجزائر على عهد والده مجاهد ، هو غالب مولاه (٤٢٨ ــ ٤٣٦ هـ) ، وكان غالب هذا جنديا وبحارا قديرا دائم الاغارة بسفنه على الشواطىء النصرانية القريبة سواء فى قطالونية أو على ساحل بروفانس . وحكم الجزائر من بعده صهر على بن مجاهد ، وهو سليمان

---

(٥٥) ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ .
عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢١٣ .
(٥٦) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٣ .

ابن مشكيان (٤٣٦ — ٤٤٢ هـ) الذى غزا جزيرة سردينيا مرة ثانية عام ٤٤١ هـ / ١٠٥٠ م وفتحها ، الا أن البابا (ليو) التاسع وجه حملة صليبية أخرى أخرجت المسلمين منها نهائيا [٥٧] .

ثم حكم الجزائر بعده عبد الله المرتضى (٤٤٢ — ٤٨٦ هـ) ، وفى عهده سقطت دانية فى يد أحمد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م ، فاستقل عبد الله المرتضى بحكم الجزائر الشرقية . وقد كان عبد الله هذا تربطه بملك برشلونة رامون بيرنجير الأول (٤٢٧ — ٤٦٩ هـ) وولديه من بعده ، برنجير ورامون ، علاقات ود وصداقة ، وترددت بينهما البعوث والسفارات ، وفى احداها تعرف رسول المرتضى على (مبشر بن سليمان) الذى كان نصارى برشلونة قد أسروه من احدى قلاع لاردة وعاش هناك وظهرت مواهبه [٥٨] .

قدر سفير المرتضى مواهب (مبشر) واستقدمه الى الجزائر الشرقية حيث تولى حكمها بعد وفاة المرتضى ، وأرسل الى دانية يطلب تسليم أهل على ابن مجاهد ، فبعثوهم اليه ، وأخذ يكرر غزواته على أرض قطلونية ، حتى جمع له كونت برشلونة جموعه وأبحر اليه ونازله بميورقة عشرة أشهر استنجد أثناءها مبشر بعلى بن يوسف بن تاشفين فلم يصل الأسطول المرابطى الا بعد فوات الأوان ، فقد استسلمت الجزيرة لكونت برشلونة ، لكن المرابطين تمكنوا من استعادتها أخيرا ، وبذلك انتهت دولة بنى مجاهد العامرى فى الجزائر الشرقية [٥٩] .

أما فى دانية فقد سبق القول بسقوطها فى يد بنى هود عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م ، وبذلك انتهى عهد بنى مجاهد العامريين على أرض اسبانيا ، وقد حاول سراج الدين بن على بن مجاهد حاكم حصن شقورة استرداد

---

(٥٧) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٦٥ .
خليل السامرائى ، المرجع نفسه ، ص ٧٤ .
(٥٨) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٦٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢١٠ .
(٥٩) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ص ١٦٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢١٠ .

عرش أبيه المقتصب ، فسار الى برشلونه واستغاث بصاحبها رامون برنجير الأول ، فاستجاب له بعد شروط اشترطها عليه ، وأمده بقوات تمكن بها سراج الدين من استرداد بعض الحصون ، لكن المقتدر بن هود تمكن من هزيمته والتخلص منه بأن دس له السم فمات سراج الدين عام ٤٦٩ هـ / ١٠٧٧ م (٦٠) .

٤ ـ علاقة شنتمرية الشرق وبعض المدن الأخرى بالممالك النصرانية فى اسبانيا :

سميت تلك المدينة بهذا الاسم تمييزا لها عن شنتمرية الغرب التى تقع على نهر تاجة وتتبع مملكة بطليوس . وكانت شنتمرية الشرق تسمى أيضا (السهلة) وهى تقع بين مملكتى سرقسطة وطليطلة ، ونظرا لهذا الموقع فقد سار حاكمها عبد الملك بن هذيل بن رزين (٤٣٦ ـ ٤٩٦ هـ / ١٠٤٤ ـ ١١٠٣ م) بعيدا عن المشاحنات والمنازعات التى حفل بها هذا العصر ، وعاش عيشة البذخ واللهو حتى أنه اشترى ذات مرة جارية بثلاثة آلاف دينار (٦١) .

بيد أنه لما سقطت طليطلة فى يد الفونش السادس ملك قشتالة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، اضطر عبد الملك أن يدفع له الجزية كسائر ملوك الطوائف وأن يذهب بنفسه مهنئا على انتصاره ، حاملا معه هدية جليلة القدر ، فكافأه الملك النصرانى عليها بقرد كان عبد الملك يفخر به ويتيه على سائر ملوك الطوائف ، لأنه الوحيد الذى نال هدية الفونش ، ولو أن هناك رواية تنسب هذه الحادثة الى ولده يحيى بن عبد الملك وان كان هذا مستبعدا لأنه لم يحكم الا بعد سقوط طليطلة بحوالى عشرين عاما (٦٢) .

وبعد هزيمة الفونش السادس فى موقعة الزلاقة على يد المرابطين امتنع عبد الملك عن أداء الجزية ، لكن القمبيطور كان يحمل الراية النصرانية

---

(٦٠) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ص ١٦٥ .

(٦١) ارسلان ، الحلل السندسية ، جـ ٢ ، ص ٩٠١ .

(٦٢) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .

ويقوم ببث الرعب والفزع فى شرقى الأندلس ، واضطر عبد الملك بن هزيل الى الخضوع له ، واتفق معه عام ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م على أن يتركه يعيش فى سلام ، على أن يؤدى الجزية للملك الفونش كما كان الشأن قبل الزلاقة ، وأن يدفع فى الحال الى القمبيطور بصفته نائبا عن الملك مبلغ عشرة آلاف دينار . عندئذ غادر القمبيطور أراضى شنتمرية عائدا الى بلنسية (٦٣) .

ولما اشتدت وطأة القمبيطور على بلنسية والأنحاء المجاورة لها ، شعر القائد أبو عيسى بن لبون صاحب حصن مربيطر أنه لا يستطيع الصمود لهذا الارهاق ، وأنف من مفاوضة القمبيطور ووضع نفسه تحت حماية أبى مروان عبد الملك بن هذيل ، وسلمه الحصن وذهب الى شنتمرية للعيش فيها فى أواخر عام ٤٨٦ هـ / نوفمبر ١٠٩٢ م . وسار عبد الملك الى القمبيطور وفاوضه فى عقد المودة والابقاء على الحصن فى يديه ، على أن تكون سائر حصونه مفتوحة لجنود القمبيطور تزودهم بالمؤن ، ويبيعون ويشترون منها ما يحتاجون اليه من لوازم الحياة (٦٤) .

لكن ابن هزيل لم يلبث أن طمع فى الاستقلال عن القمبيطور وامتنع عن أداء الجزية له ، وفاوض بدرو (بطره) ملك أرغونة لكى يعاونه فى تحقيق مشروعه ، وعرض عليه مبلغا كبيرا من المال . فلما وقف القمبيطور على هذه التطورات انقض بقواته على أرض شنتمرية (السهلة) وعاث فيها ، ونسف الزرع وساق الماشية وسبى جموعا كثيرة ، وبعث الجميع الى « جبالة » على مقربة من بلنسية حيث كان معسكره الرئيسى . عندئذ اضطر عبد الملك الى الخضوع له مرة أخرى ، اجتنابا لهذا السيل المدمر ، وصونا لأراضيه ورعيته ، وذلك عام ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ، ولم يلبث أن توفى عبد الملك بعد ذلك بحوالى عشر سنوات وخلفه ابنه يحيى الملقب بحسام الدولة (٦٥) .

وكان يحيى هذا أميرا ضعيفا مدمنا للشراب ، وكان يسعى الى مصانعة ملك قشتالة الفونش السادس ويلتمس عودته ويجتنب سطوته . والواقع أن

---

(٦٣) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٧ .

(٦٤) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٧ .

(٦٥) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٨ .

ملك بنى رزين كان يدنو حينئذ من نهايته بسرعة ، ذلك أن المرابطين كانوا منذ اجتاحوا يومئذ شرقى الأندلس كله ، وتوجوا سلطانهم فى تلك المنطقة بالاستيلاء علي بلنسية فى عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م ، ورغم أن عبد الملك قد أعلن قبيل وفاته طاعته لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين الا أن هذا الاعتراف لم يكن كافيا لتحقيق خطة المرابطين فى القضاء علي سائر ملوك الطوائف . ومن ثم فقد تابع المرابطون زحفهم نحو الشمال ، وفى اليوم الثامن من رجب عام ٤٩٧ هـ / ابريل ١١٠٤ م دخل المرابطون مدينـــة شنتمرية ، وخلعوا أميرها يحيى بن عبد الملك بن رزين ، وانتهت بذلك دولة بنى رزين بعد أن عاشت زهاء ستين عاما ، ولم يبق بعدها من دول الطوائف العديدة سوى مملكة سرقسطة التي تحدثنا عنها من قبل(٦٦) .

وتقع جنوبى شنتمرية الشرق امارة البونت ، واستمر عبد الله بن محمد ابن قاسم يحكمها لأكثر من أربعين عاما ، ولم تقع فى عهده حوادث ذات شأن الا حينما أصبحت هذه المنطقة فريسة لأطماع القمبيطور ومغامراته ، ففى عام ٤٨٥ هـ / ١٠٨٩ م زحف اليها بقواته وعاث فيها وخرب أراضيها ، واضطر صاحبها الى الدخول فى طاعته ودفع الجزية ومقدارها عشرة آلاف دينار أسوة بما فرض على جاره عبد الملك بن رزين صاحب شنتمرية الشرق. ولما استولى المرابطون على بلنسية عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م استولوا بسرعة على القواعد والحصون المجاورة لها ومن ضمنها امارة البنت ، ويبدو أن ذلك تم فى العام التالى (٦٧) .

والى الجنوب من البونت تقع امارة مرسية القريبة من حصن لبيط ، وكانت هذه الامارة تحت حكم خيران الصقلبى العامرى منـــذ عام ٤٠٧ هـ ١٠١٧ م ضمن مملكته الواسعة التى كانت تشمل بالاضافة الى مرسية جيان والمرية . ولما هلك عام ٤١٩ هـ صارت مملكته لأبى القاسم زهير الصقلبى العـــامرى ، ولما مات زهير عام ٤٢٩ هـ استقل بنو طاهر بملك مرســـية على يد أبى عبد الرحمن بن طاهر (٤٥٥ ــ ٤٧١ هـ / ١٠٦٣ ــ ١٠٧٨ م) وظلت تحت حكمهم حتى طمع فيها المعتمد بن عباد ، فأرسل اليها حملة بقيادة

---

(٦٦) ابن عـذارى ، البيان ، جـ ٣ ، ص ٣١١ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٩ .
(٦٧) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

وزيره ابن عمار الذى انقلب على مليكه واستبد بحكم مرسية ، وفرض حكمها لتابعه ابن رشيق عند ما نوى الذهاب الى سرقسطة ليقوم بمغـامرة أخرى هنـاك (٦٨) .

لكن ابن رشيق عامل ابن عمار بأسلوبه وأعلن استقلاله بالامارة ، ثم عاد وأعلن تبعيته للمعتمد بن عباد ، ولما جاء المرابطون لحصار حصن لييط القريب من حدود امارته ، انتهز ابن رشيق الفرصة وتمرد على المعتمد وتقرب الى ابن تاشفين ، وفى نفس الوقت كان يتصل بالنصارى المحاصرين فى الحصن ويزودهم بالمؤن حتى يصمدوا للحصـار ، لأنه كان يعتقد أن وجودهم أمان له ضد خطر ابن عباد والمرابطين ، ولم يكتف ابن رشيق بهذا القدر من الخيانة ، بل انه دفع جباية بلده مرسية لأنفونش مصـانعة وتقربا اليه (٦٩) .

حينئذ أفتى الفقهاء بتسليمه لابن عباد ، وكان هذا سببا فى تمرد رجاله المرسيين وعودتهم الى مرسـية وقطعهم الميرة عن المسلمين المحاصرين لحصن لييط ، فوقع الغلاء واشـتد الحال بهم حتى اضطروا أخيرا لرفع الحصار عن الحصن خصوصا عندما علموا بمجىء الفونش لانقاذه . وقد خدم موقف ابن رشيق جنود قشتالة وأدى الى تقويتهم واستمرار صمودهم ، وكانت نتيجة ذلك حدوث أول فشل يصيب الجبهة الاسلامية بعد انتصـار الزلاقة الشهير والذى لم يكن قد مضى عليه أكثر من عامين (٧٠) .

والى الجنوب من مرسية تقع امارة أو مملكة المرية ، وكانت أيضـا تحت حكم خيران الفتى العامرى بعد فراره من قرطبة عام ٤٠٧ هـ خوفا من على بن حمود ، وظل فى حكمها حتى وفاته عام ٤١٩ هـ ثم حكمهـا من بعده زهير الصقلبى العامرى حتى مقتله عام ٤٢٩ هـ أثنـاء صراعه مع بنى زيرى حكام غرناطة ، فصارت مملكته للمنصور عبد العزيز حفيـد المنصور بن أبى عامر ، فولى عليها قائده وصهره معن بن صمادح التجيبى عام ٤٣٣ هـ ، لكنه خان سيده وأعلن استقلاله وتسمى بذى الوزارتين ،

---

(٦٨) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٧٩ ، أبو الفدا ، تاريخه ، جـ ٢ ، ص ١٥٦ . القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٥٣ .

(٦٩) ابن بلقين ، مذكراته ص ١١٠ ــ ١١٢ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ ٤ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٧٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٤٢ .

وظل يحكم المرية حتى وفاته عام ٤٤٤ هـ وتولاها من بعده ابنه المعتصم أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح (٤٤٤ — ٤٨٤ هـ / ١٠٥٢ — ١٠٩١ م) (٧١) .

ورغم موقع المرية المتطرف فى جنوب الأندلس الا انها لم تنج من هجمات قوات قشتالة وخاصة بعد سقوط طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وقد قام حصن لييط الذى شحنه الفونش بالعتاد والرجال بدور خطير فى اثارة الرعب والفزع فى تلك المنطقة (مرسية ، ولورقة والمرية) فقد قام جنوده النصارى بهجمات على المرية ، والمناطق المجاورة حتى ضاق الناس بهذا الحال ولم يعودوا يأمنون على أنفسهم اذا ما حاولوا الانتقال من بلدة الى اخرى . وقد ذهب أحد شعراء مرسية البارزين وهو عبد الجليل ابن وهبون ضحية هجمة لاحدى فرق نصارى هذا الحصن أثناء انتقاله بين لورقة والمرية عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م (٧٢) .

ويبدو أن المعتصم بن صمادح قد اتصل بنصارى الشمال يطلب محالفتهم قبل سقوط طليطلة ، وذلك أثناء صراعه مع بنى زيرى أصحاب غرناطة ، اذ يشير مؤرخ بنى زيرى وهو آخر أمرائهم عبد الله بن بلقين الى أن المعتصم قد غدر بهم واستولى على وادى آش من باديس صاحب غرناطة ، وداخل الافرنج ووعدهم بالمال الكثير اذا ساعدوه فى صراعه مع بربر غرناطة ، فاضطر باديس الى ملاطفته والابقاء عليه ، حتى لا يفتح الباب لانتشار نفوذ نصارى الشمال فى هذا الركن القصى من شبه الجزيرة (٧٣) .

لكن الفونش لم يتركه هادىء البال بعد سقوط طليطلة كما قلنا ، وبالاضافة الى نشاط حصن لييط الذى أشرنا اليه فقد أرسل الفونش حملة صغيرة مكونة من ثمانين فارسا الى المرية ، فتصدى لها المعتصم على رأس أربعمائة فارس ، ورغم عدم التكافؤ بين القوتين الا أن المعتصم عاد يجر أذيال الهزيمة ، فقد جبن فرسانه عن اللقاء وولوا العدو ظهورهم ، ومع

---

(٧١) ابن حيان ، برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
القلقشندى ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٧٢) ابن دحية ، المطرب ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، الضبى المصدر نفسه ، ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(٧٣) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

ذلك لم يكن المعتصم من المتحمسين لاستقدام المرابطين الذين لم يلبثوا أن استولوا على امارته وخلعوه عنها عام ٤٨٤ هـ (٧٤) .

٥ ـ علاقة مملكة غرناطة بالممالك النصرانية فى اسبانيا :

استولى بنو زيرى الصنهاجيون على غرناطة بعد أن نجح سليمان المستعين فى تولى عرش الخلافة للمرة الثانية عام ٤٠٣ هـ ، فقد وزع على قواده ولايات الأندلس ، واختص بنو زيرى بغرناطة . ولم تزودنا المصادر الاسلامية أو النصرانية بمعلومات عن علاقة بنى زيرى بالممالك النصرانية الا ابتداء من عهد آخر ملوك أمرائها عبد الله بن بلقين (٤٦٥ ــ ٤٨٣ هـ / ١٠٧٣ ــ ١٠٩٠ م) . ويبدو أن موقع غرناطة المتطرف فى جنوبى الأندلس كان له دخل فى ذلك ، فقد ركز نصارى الشمال هجماتهم على ما يجاورهم من الثغور الاسلامية .

وقد ادى تطور الصراع بين الأمير عبد الله وبين المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، الى استنجاد الأول بألفونش السادس ملك قشتالة ، ذلك ان المعتمد استولى على مدينة جيان أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م ، ثم سار بعد ذلك فى قوات كبيرة وبنى بعض الحصون على مقربة من غرناطة حتى يجبرها على الخضوع والاستسلام ، لكن الوزير سماجة حشد قوات صنهاجة وابدى شجاعة فائقة فى الدفاع عن المدينة ، فاضطر ابن عباد أن يعود بخفى حنين (٧٥) .

وازاء تزايد اطماع المعتمد بن عباد فى غرناطة ، قرر الأمير عبد الله بتوجيه من وزيره سماجة أن يعقد حلفا مع الفونش السادس ملك قشتالة على نمط معظم ملوك الطوائف ، يتعهد له فيه بتأدية جزية قدرها عشرون الف دينار ، وبعد توقيع المعاهدة أمده الفونش ببعض قواته ، وقام الأمير عبد الله عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م بالاغارة على أراضى اشبيلية المجاورة لمملكته ، واستطاع أن يسترد حصن قبرة فى جنوب غربى جيان (٧٦) .

---

(٧٤) ابن الكردبوس ، الاكتفاء فى اخبار الخلفاء ، ص ٨٩ .
خليل السامرائى ، المرجع نفسه ، ص ١٤٨ .

(٧٥) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٦٩ ـ ٧٦ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ١٤٢ .

(٧٦) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٦٩ ـ ٧٦ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ١١٨ .

وفى العام التالى (٤٦٧ هـ /١٠٧٥ م) سار الفونش السادس الى مملكة اشبيلية وغرناطة ومعه وزيره (ششنند) مطالبا بالجزية ، فرفض ملك غرناطة دفعها ، لاستبعاد مهاجمة النصارى له لبعد بلاده وحصانتها . وانتهز المعتمد بن عباد ووزيره ابن عمار الفرصـــة ، وبعثا الى الفونش السادس وعقدا معه حلفا على أن يتعاون الطرفان فى افتتاح غرناطة ، وأن تكون المدينة للمعتمد وأن يكون سائر ما فيها من الأموال لملك قشتالة ، وأن يؤدى المعتمد اليه فوق ذلك جزية قدرها خمسون ألف دينار . هكذا بلغ التردى والنذالة بين ملوك الطوائف (٧٧) .

وقد بانت نتيجة هذا الحلف أو هذه المؤامرة على الفور ، اذ قامت قوات من النصارى وعمدت الى تخريب بسائط غرناطة ولا سيما أراضى مرجها المشهور . وساعدت الظروف غرناطة على الصمود عند ما تم توجيه ضربة قاسمة لابن عباد بسقوط قرطبة التى كانت فى حوزته فى يد المأمون بن ذى النون عام ٤٦٧ هـ ، وانتهزت غرناطة الفرصة واحتلت الحصن الذى بناه ابن عمار بمساعدة النصارى بالقرب من غرناطة (٧٨) .

ولكن ابن عمار وزير المعتمد بن عباد لم ييأس ، وحاول مرة اخرى تحريض الفونش الســـادس على غزو أراضى غرناطة وزين له ســـهولة السيطرة عليها . وعندئذ رأى عبد الله بن بلقين أمير غرناطة أن يتفاهم من جديد مع الملك النصرانى الفونش السادس ملك قشتالة ، فسار اليـــه بنفسه ، وأسفرت المفاوضات بينهما عن تعهد عبد الله بأن يؤدى جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف مثقال من الذهب ، وأن يسلم له بعض الحصون الواقعة جنوب غربى جيان ، وهذه باعها الملك النصرانى بدوره لابن عباد(٧٩) .

وقد قلنا فى حديثنا عن الأحوال الداخلية لمملكة اشبيلية أن ابن عمار وزيره المعتمد كان وزيرا مغامرا ولا يعمل الا لمصلحته الخاصة ، وانه كان

---

(٧٧) ابن بلقين ، المصـدر نفسه ، ص ٦٩ ــ ٧١ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، جـ ٢ ، ص ١٢٤ .
عنان ، المرجع نفسه ، ص ١١٨ .

(٧٨) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٦٩ ــ ٧٦ .
عنان ، المرجع نفسه ، ص ١٤٣ .

(٧٩) ابن بلقين ، المصدر نفسه . ص ٦٩ ــ ٧٦ .
عنان ، المرجع نفسه ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

على اتصال بملك قشتالة ويعمل لحسابه فى أحيان كثيرة . ولذلك فبمجرد أن تمكن المعتمد من قتل ابن عمار عقب خيانته وتمرده عليه ، تم الصلح بين مملكة غرناطة ومملكة اشبيلية وسويت جميـــع الخلافات بينهما عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، لكنهما لم يتخذا موقفا موحدا ازاء تهديد نصـــارى الشمال بسبب ضعف المملكتين ، واقتصر الأمر على مجرد التشاور وتحذير كل منهما الأخرى اذا ما أحست باقتراب النصارى (٨٠) .

ولما كانت كارثة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م بسقوط طليطلة فى يد الفونش السادس ملك قشتالة ، كان عبد الله بن بلقين من المحبذين لاســـتدعاء المرابطين ، وشارك فى الحملة الأندلسية المرابطية المشتركة التى حققت النصر فى موقعة الزلاقة فى العام التالى على الفونش السادس وهزمته هزيمة ساحقة . لكن الفونش استطاع أن يجمع شتات جنده وان ينهض من عثرته ، وساعدته دول أوروبا والبابوية على التصـــدى من جديد للمسلمين ، ولم يمض عامان حتى منى المسلمون بالفشل أمام حصن لبيط ، وهو حصن زرعه الفونش فى قلب الدولة الاسلامية جنوبى الأندلس ، وقام الفونش وهدد سرقسطة ، فقام صاحبها ومن يليـــه من حكام شرقى الأندلس بدفع الجزية له من جديد (٨١) .

بعد عودة ابن تاشفين الى بلاده عقب فشله أمام لبيط عام ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، امتد تهديد الفونش السادس الى جنوبى الأندلس وأرسل قائده (البرهانس) لقبض الجزية من غرناطة والمرية ، وكان نائبا له فى هذه المنطقة ، فخاف ابن بلقين خصوصا بعد أن هدده البرهانس بالاستيلاء على وادى أش ، فأرضـــاه ابن بلقين ببعض الأموال ، وعاد البرهانس يطلب ارضاء الفونش ، ولما امتنع ابن بلقين بحجة ضيق ذات اليـــد ، تحرك الفونش على الفور وأرسل رسوله لطلب الجزية عن ثلاثة أعوام مضت ، منذ أن امتنع المسلمون عن دفعها بعد الزلاقة عام ٤٧٩ هـ (٨٢) .

اضطر ابن بلقين أن يدفع ثلاثين ألفا من قطع الذهب من ماله الخاص حتى لا تشكوه الرعية لابن تاشفين ، وجدد مع الفونش معاهدة التحالف ، على ألا يتعرض له ولا يهدد بلاده بعد ذلك ، وأن يحميه من خطر المرابطين.

---

(٨٠) ابن بلقين ، المصـــدر نفسه ، ص ٨٢ ، أنظر ، الفصل الأول من الباب الثالث ص .

(٨١) ابن بلقين ، المصـــدر نفسه ، ص ١٢٢ .

(٨٢) ابن بلقين ، المصـــدر نفسه ، ص ١٢٣ – ١٢٥ .

وأن يقوم بالدفاع عنه ضدهم . وحاول رسول الفونش أن يضرب غرناطة بإشبيلية وأن يحرضها على غزوها ، ولما لم تنجح محاولته عزم الفونش على مهاجمتها بنفسه اذا لم تدفع الجزية . ورغم تحذير ابن بلقين للمعتمد ابن عباد حتى يحتاط لنفسه ، الا أنه أســاء الظن واعتقد أنه اتفق مع الفونش على ذلك (٨٣) .

وكان ملوك الطوائف قد أحسوا بتغير نفس يوسف بن تاشفين لما لاحظه من تدهور أحوالهم وازدياد خلافاتهم ، وظلمهم لرعيتهم وعيشهم عيشة الترف ، مع تقصيرهم فى نفس الوقت عن الدفاع عن بلادهم . لذلك سوغوا لأنفسهم الاتصال بألفونش السادس سرا واتفقوا معه على مدافعة المرابطين عن الجزيرة ، وأن يصيروهم له طعمة اذا ما عادوا اليها مرة ثالثة ، على أن يتركهم على مابأيديهم عمالا يجبون له من الرعية الأموال ويدفعون له الجزية . وما أن عبر ابن تاشفين البحر الى الأندلس فى جوازه الثالث ، حتى قاموا باغرائه بالهجوم على غرناطة ومالقة والمرية ، وشغلوه بها عن التقدم للهجوم على النصارى ، حتى يدبروا فيما بينهم وبين النصارى خطة الغدر بقوات المرابطين (٨٤) .

وكان ابن تاشفين يدرك ذلك تماما ويعرف نواياهم ، وانصاع لما يريدون وهاجم تلك البلاد حتى يكشفهم لجمهور المسلمين ، ويقيم الحجة على غدرهم وخيانتهم بما يسوغ له القضـاء عليهم جميعا . وحدد ابن تاشفين أهدافه بقوله « انما كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم واهمالهم للغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم وايثارهم الراحة ، وانما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه . ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة الى المسلمين ولأملأنها عليهم — يعنى الروم — خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برغد العيش . انما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبى دعوته » (٨٥) .

وقد بين ابن تاشفين سر مصيبة الأندلس فى هذه العبارة الموجزة ، كما بين طرق العلاج . وكان العلاج هو خلع جميع ملوك الطوائف واعادة الوحدة

---

(٨٣) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٢٥ — ١٢٨ .

(٨٤) ابن الكرديوس ، المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

(٨٥) المراكشى ، المعجب ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

السياسية والعسكرية الى البلاد من جديد ، حتى تستطيع الصمود أمام النصارى الذين نهضوا من جديد وفرضوا الجزية على مسلمى الأندلس ، وكأن الزلاقة لم تكن . وكانت النية متجهة الى غرناطة ، فوقع أميرها ابن بلقين فى حيرة كبيرة بعد أن عرف تصميم ابن تاشفين على خلعه (٨٦) .

وقد دافع ابن بلقين عن نفسه فى كتابه « مذكرات الأمير عبد الله » وقال انه لم يتصل بألفونش لأنه لا يستطيع مقاومة المرابطين حتى تصله مساعدة ألفونش ، وحتى على فرض وصول المساعدة ، فان ألفونش يمكن أن يتركه دون قوة تحميه ، حينئذ سيكون لقمة سائغة للمرابطين الذين يحل لهم قتله بالكتاب والسنة » حسب أقواله . ورغم هذا الدفاع فقد أجمع كثير من المؤرخين الموثوق بهم على خيانته وخداعه ، ويقولون انه أول من أعلن العصيان على ابن تاشفين بعد أن سجن أحد أتباعه الذى كان قد دعاه فى الحصن الذى كان يتولاه ابن تاشفين (٨٧) .

وتصرفات ابن بلقين نفسها دليل على نيته فى مقاومة المرابطين ، فقد أخذ يعمل لاختزان الأقوات ، وجدد الأسوار وأعلى الأبراج وشحنها بالرجال والسلاح ، وأودع أمواله وذخائره قصبة المنكب لمناعتها وحصانتها . ثم أرسل الى ألفونش أموالا وهدايا نفيسة ، مستصرخا به ضد المرابطين ، مرتميا تحت قدميه ، ففرح بذلك ألفونش وقبل المال والهدايا وأقسم بأوكد الايمان أنه لن يتركه يقع فريسة للمرابطين ، وأنه سيسعى اليه بنفسه ويدافع عن ملكه ، فقويت نفس ابن بلقين وزاد أمله فى بقاء ملكه . وفى ذلك يقول السمسارى أحد الشعراء : (٨٨)

صاحب غرناطة سفيه	وأعلم الناس بالأمور
صانع ألفونش والنصارى	فانظر الى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خلافا	لطاعة الله والأمير
يبنى على نفسه سفاها	كأنه دودة الحرير
دعوه يبنى فسوف يدرى	اذا أتت قدرة القدير

---

(٨٦) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

(٨٧) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٨٨) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
ابن خلكان ، المصدر نفسه ، جـ ٦ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، ابن الخطيب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٥ .

ورغم هذه التدابير التى اتخذها أمير غرناطة الا أنها لم تلبث أن سقطت فى يد المرابطين عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م وانتهت بذلك دولة بنى زيرى فى غرناطة (٨٩) .

٦ ـ علاقة مملكة بطليوس بالممالك النصرانية فى أسبانيا :

كان يحكم هذه المملكة عقب انهيار الدولة العامرية فى بداية القرن الخامس الهجرى أحد فتيان الحكم المستنصر ويسمى سابور ، وكان يدبر أمره وزير يسمى عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس ، ولما مات سابور قام ابن مسلمة بتدبير الأمر لولديه الصغيرين . وفى تلك الأثناء تعرضت المملكة الى هجمات الفونس الخامس ملك ليون (٣٨٩ ـ ٤١٨هـ / ٩٩٩ ـ ١٠٢٧ م) ، ففى عام ٤١٨ هـ ، / ١٠٢٧ م هاجم هذا الملك النصرانى أراضى المسلمين المجاورة له فى شمال بطليوس التى تعرف الآن بالبرتغال ، وافتتح بعض حصونها ، ثم حاصر مدينة بازو . فدافع عنها سكانها بشدة ، واستطاع أحد رماتها المسلمين أن يصوب سهمه المسموم الى الملك النصرانى فأصابه ومات متأثرا بجراحه(٩٠) .

أنتهز الوزير ابن مسلمة بن الأفطس الفرصة واستقل بالمملكة وخلع ابنى سابور عن العرش ، وظل يحكمها حتى توفى عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، فخلفه فى حكمها ابنه المظفر محمد (٤٣٧ ـ ٤٦١ هـ / ١٠٤٥ ـ ١٠٦٨ م) ، وهو صاحب التأليف الكبير المسمى « المظفرى » الذى يقع فى نحو خمسين مجلدا . وقد تعرض المظفر الى هجمات جاريه ، من الشمال بنو ذى النون فى طليطلة ، ومن الجنوب بنو عباد فى أشبيلية ، لكن أخطر ما تعرض له المظفر هو ما قام به فرديناند الأول ملك قشتالة وليون من هجمات (٩١) .

وكان فرديناند (فرناندو) يرقب تطور الأحداث لدى جيرانه المسلمين باهتمام وبتحين فرص العمل ، وكانت أطراف مملكة بطليوس الشمالية الواقعة بين نهر التاجة ودويرة تشمل منطقة نائية مجردة من وسائل الدفاع القوية وتكاد تكون معتمدة فى الدفاع على نفسها،فاتجهت أنظار فرديناند اليهاواخترقها

---

(٨٩) الضبى ، المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(٩٠) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .
عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٣ .

(٩١) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

بقواته عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، واستولى اولا على مدينتى لايجو (مليقة) و (بازو) الواقعتين فى شمال البرتغال الحالية ، واللتين كان المسلمون قد عمروهما منذ أيام المنصور بن ابى عامر . ولم يلق الغزاة دفاعا يذكر ، ولم يعن ابن الأفطس بنجدتها ليقينه من عقم المحاولة . واسترق فرديناند سكان المدينتين الاسلاميتين واسكنهما بالنصارى [٩٢] .

ويبدو أن تلك الكارثة لم تذهب بشجاعة المظفر الذى رفض دفع الجزية لفرديناند ، مما جعله يرسل حملة قوية من ثلاثين الف جندى منهم عشرة آلاف فارس ، وهى قوة كبيرة جدا بمقياس العصر ، واتجهت تلك الحملة الى شنترين او شنتمرية الغرب وهى من أهم وأفضل مدائن ذلك الثغر . وكان المظفر قد علم سلفا بمقدم الحملة فسبقها الى هناك ونظم الدفاع عن المدينة حتى لا تسقط مثل بازو ولاميجو من قبل . ولما وصلت قوات فرناند أسقط فى أيديهم ، واضطر قائدهم للتفاوض مع المظفر ، وانتهت المفاوضات بعقد الصلح على أن يدفع المظفر جزية مقدارها خمسة آلاف دينار كل عام [٩٣] .

على أن أعظم خطب نزل بالمسلمين وبمملكة بطليوس يومئذ ، هو ضياع مدينة قلمرية أعظم مدن البرتغال الشمالية عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، وكان قد افتتحها المنصور بن ابى عامر منذ ثمانين عاما فى سنة ٣٧٥ هـ . وكانت يومئذ تحت حكم مولى من موالى ابن الأفطس يسمى (رانده) . وكان رانده لديه من الفرسان حوالى خمسة آلاف . ولما وصل فرديناند الى المدينة وضرب حولها حصارا استمر ستة اشهر ، وتباطأ ابن الافطس عن ارسال النجدة الى المدينة ، تفاوض حاكمها رانده سرا مع فرديناند على أن يسلمه المدينة ويؤمنه على نفسه وأهله [٩٤] .

وبموجب هذا الاتفاق غادر رانده واهله المدينة ليلا واستمر اهلها فى الدفاع حتى نفدت أقواتهم فطلبوا التسليم والأمان ، فرفض فرديناند واقتحم المدينة عنوة ، فقتل الرجال وسبى النساء والذرية ، وعين مستشاره

---

(٩٢) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٨٥ .

(٩٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٣٨ .

(٩٤) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ .

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

ششنندو حاكما لها ومنحه لقب الكونت ، وعمد فرديناند بعد ذلك الى اخراج السكان المسلمين من سائر الأراضى الواقعة بين نهرى دويرة ومنيو (منديجو) ، تنفيذا لخطته فى اخلاء المسلمين من الأراضى المجاورة لملكته شيئا فشيئا (٩٥) .

وقد وقعت كارثة سقوط قلمرية فى غربى الأندلس فى نفس العام الذى سقطت فيه بريشتر فى أقصى الشمال الشرقى للأندلس على يد حملة صليبية دعا لها بابا رومة حسبما فصلنا من قبل . ولم يتم سقوط قلمرية الا بعد أن قدم رهبان دير لورفان المؤنة والميرة المخزونة عندهم لجيش فرديناند الذى نفدت ميرته نظرا لطول الحصار حتى أنه فكر فى فك الحصار عن المدينة . وهذا بالطبع يؤكد أن الحرب كانت تتسم بالصفة الدينية منذ ضياع سردينية من يد مجاهد العامرى عام ٤٠٦ هـ (٩٦) .

ازداد ضغط فرديناند على الثغور الغربية ، وضرب على أهلها الجزية حتى ضعفت ، لكن من الله عليها بفترة من الهدوء عقب وفاة فرديناند بعد ذلك بعامين فى سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م ، وقيام الحروب الأهلية بين أولاده حسبما فصلنا من قبل حول العرش ، والتى شغلتهم عن التفكير فى العدوان على أراضى المسلمين . ولما خلص عرش قشتالة وليون الى ولده ألفونش السادس اتجهت أطماعه ناحية مملكتى طليطلة وأشبيلية حسبما نفصل فيما بعد (٩٧) .

ولم يلبث المظفر بن الأفطس أن توفى هو الآخر عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م وقام الصراع بين ولديه يحيى المنصور (٤٦١ — ٤٦٤ هـ / ١٠٦٨ — ١٠٧٢ م) وعمر المتوكل (٤٦٤ — ٤٨٤ هـ / ١٠٧٢ — ١٠٩١ م) ،واستعان أولهما بالمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، واستعان الثانى بالمعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ، وخربت البلاد بسبب تلك الفتنة التى زادها ألفونش اشتعالا بضرب الأخوين كل بالآخر ، ولم تنته تلك الفتنة الا بموت يحيى ، فانفرد المتوكل بحكم المملكة التى تمتعت فى عهده بفترة من السلام والأمن والرخاء (٩٨) .

---

(٩٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٣٩ ، ابن الخطيب ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ .

(٩٦) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٩٧) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ .

(٩٨) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ١٨٤ .

وقد تدخل عم المتوكل فى شئون مملكة طليطلة حيث حكمها حوالى عشرة أشهر من عام ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ، عندما ثارت طليطلة على ملكها الضعيف القادر بن ذى النون عقب قتله لوزيرها المحبوب ابن الحديدى . غير أن القادر استعان بالفونش السادس ملك قشتالة الذى عاونه فى الرجوع الى عرشه ، وعاد المتوكل الى بطليوس بعد أن وضع يده على الكثير من أموال القادر وذخائره [٩٩] .

ويبدو أن الفونش أراد أن ينتقم من المتوكل لمساعدته أهل طليطلة على الثورة ضد القادر الذى كان يعتبره تابعا له ، فجرد حملة على مدينة قورية فى أطراف مملكة بطليوس الشمالية وحصنها المنيع على نهر تاجة ، واستولى عليها فى نفس العام (٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م) وبذلك أصبح الطريق مفتوحا أمامه لكى يجتاح أراضى بطليوس بسهولة . وجرت بينـــه وبين المتوكل مصادمات كثيرة انتهت الى ضعف بلاده واستيلاء ألفونش على بعضها . فشعر المتوكل بدنو الكارثة وكان أول من كتب الى المرابطين عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م يشكو اليهم سوء الأحوال [١٠٠] .

ولما قرب سقوط طليطلة فى يد ألفونش السادس عام ٤٧٨ هـ ، لم يذهب المتوكل اليها محاولا انقاذها من يد النصارى بناء على طلب صاحبها القادر حسبما أشار البعض [١٠١] اذ تروى أوثق المصادر أن القادر تخلى عنها عنـــدما عجز عن البقاء فى حكمها ازاء التهديد المستمر لها من قبـــل الفونش ، واتفق معه على تعويضه ببلنسية ، وحدث هذا فعلا كما فصلنا حين الحديث عن بلنسية . وكانت اغاثة المتوكل بن الأفطس لأهل طليطلة الذين أرسلوا له صريخ الاستغاثة ، فأرسل ولده الفضه والى ماردة فى جيش قوى محاولا رد النصـــارى عن مدينة طليطلة ، ولكنه لم يستطع مغالبة جيوشهم المتفوقة عليه فى العدد والعدة ، فارتدت جيوش بطليوس بعد أن خاضت بعض المعارك التى لم توفق فيها [١٠٢] .

---

(٩٩) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(١٠٠) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٣٠ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٩١ .

(١٠١) قال بذلك الأستاذ/محمد عبد الله عنان (أنظر ، دول الطوائف ، ص ٩٠) ، وتابعه على ذلك خليل ابراهيم السامرائى (انظر ، علاقات المرابطين ، ص ١١٦) .

(١٠٢) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ١١١ .

وبعد سقوط طليطلة فى يد الفونش السادس ملك قشتالة عام ٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥ م شعر انه أصبح قادرا على تحدى دول الطوائف جميعا وعلى القضاء عليها ، فأرسل الى المتوكل بن الأفطس يطلب منه تسليم بعض قلاعه وحصونه ، وأن يؤدى له الجزية ، ويتوعده بشر العواقب اذا رفض . ولم يك ثمة شك فى خطورة هذا التهديد بعد أن سقطت طليطلة حصن المسلمين الأول على نهر التاجة الذى عبره النصارى لأول مرة ، واصبحوا قاب قوسين أو أدنى من القواعد الأخرى مثل اشبيلية وبطليوس وقرطبة (١٠٣) .

ولم يخضع المتوكل ابن الأفطس لتهديد الفونش السادس ورد عليه برسالة قوية كلها اباء وشمم ، وندب قاضيه أبا الوليد الباجى ليطوف بحواضر الأندلس ويتصل بالرؤساء ويدعوهم الى لم الشعث وتوحيد الكلمة ومدافعة العدو . فقام بالمهمة لكنه لم يجد منهم أذنا صاغية ، وكان هم كل واحد منهم أن يرضى عنه ملك النصارى والا يفكر فى خلعه وازالته . وازاء ذلك اتخذ المتوكل وزميله المعتمد بن عباد كان هو الآخر عرضة للامتهان والعدوان المتصل من جانب الفونش اخطر قرار سياسى فى تاريخ البلاد فى ذلك الوقت وهو استدعاء المرابطين . وقد انتهت الينا رسالة من هذا الأمير العالم الشجاع ابن الأفطس كان قد أرسلها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين يصف له فيها محنة الأندلس ، وما هى عليه من تفرق وضعف ويستنفره فيها الى الجهاد (١٠٤) .

وقد نشبت المعركة الفاصلة بين الفونش السادس وبين الأندلسيين والمرابطين على أرض بطليوس فى مكان قريب منها يعرف بالزلاقة ، وحقق المسلمون نصرا عظيما على قوات النصارى مجتمعة ، واختفى تهديد الفونش السادس للمتوكل وغيره من ملوك الطوائف الى حين ولما فشل المسلمون فى حصار حصن لييط بعد الزلاقة بعامين (٤٨١ هـ / ١٠٨٧ م) شعر المرابطون بضرورة خلع ملوك الطوائف جميعا اذا ما أرادوا انقاذ البلاد من التهديد النصرانى ، لأن هؤلاء الملوك هم الذين مكنوا بسياساتهم الخرقاء للنصارى من السيطرة والتحكم فى مصير شبه الجزيرة (١٠٥) .

---

(١٠٣) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ ، ٢١ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٩٠ .
(١٠٤) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ص ٢١ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٩٠ ـ ٩٣ .
(١٠٥) السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

وكما أصابت الحيرة من قبل الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، فقد أصابت أيضا المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، وصار كما يقول زميله الامير عبد الله ، يخلط فى سياسته ، فطورا يخاطب أمير المسلمين ويظهر له الطاعة وتارة يرسل لألفونش يعرب له عن صداقته ويطلب مساعدته ضد المرابطين ، وكان قرب بلاده من النصارى يشجعه على ذلك . لكنه عندما رأى ما نزل بالأمير عبد الله عام ٤٨٣ هـ على يد المرابطين ، راسل الفونش وسلم له مدينة شنترين على أن يدافع معه ضد هذا الخطر الزاحف ، فانحرفت الرعية عنه وراسلوا المرابطين يطلبون منهم سرعة الحضور حتى لا يستولى النصارى على بطليوس نفسها (١٠٦) .

وصلت جيوش المرابطين الى بطليوس وقبضوا على المتوكل وأهله وعبيده ، وقتلوا ابنيه صبرا أمام عينيه ثم قتلوه هو الأخر ، وبذلك تم القضاء على دولة بنى الأفطس فى بطليوس وغربى الأندلس عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، ولم يبق منهم الا ابن للمتوكل يسمى المنصور ، وكان هو الذى نصح أباه بالارتماء فى أحضان الفونش وترك البلد واللجوء اليه ، أو الاخلاص لابن تاشفين الذى لا بد عازله عن ملكه (١٠٧) .

وكان المتوكل قد احتاط قبل قتله وأرسل ابنه المنصور بذخائره الى حصن شانجش القريب من قشتالة ، فتحصن فيه المنصور ، ولما رأى ما حل بأبيه واخويه توجه بأهله الى الفونش ، وسلم له الحصن وأقام فى قشتالة ، وصار يدا من أيادى النصارى ، يساعدهم على مهاجمة بلاد المسلمين ، وقيل انه دخل فى دينهم حنقا لما جرى لأسرته على يد المرابطين (١٠٨) .

٧ ــ علاقة مملكة طليطلة بالممالك النصرانية فى اسبانيا :

كان يحكم ملكة طليطلة بنو ذى النون من البربر ، وكانت تلك الأسرة البربرية تحكم فى مدينة شنت برية Santaver من مقاطعة كونكة جنوبى

(١٠٦) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٧٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٨٧ .
ابن حيان برواية ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، جـ ٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ .
(١٠٧) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .
ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ .
(١٠٨) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .

طليطلة . وبعد سقوط الخلافة الأموية بخمس سنوات أرسل أهل طليطلة الى عبد الرحمن بن ذى النون حاكم شنت برية يعرضون عليه ولاية بلدهم ، فأرسل اليهم ابنه اسماعيل فتولى حكم طليطلة وملحقاتها (٤٢٧ — ٤٣٥ هـ/ ١٠٣٥ — ١٠٤٣ م) وتسمى بالظافر واعتمد على أحد أعيـانها المسمى أبو بكر بن الحديدى ، وعاصر بداية الحروب الأهلية التى نشبت بين أولاد شانجة الكبير عقب وفاته عام ٤٢٦هـ / ١٠٣٥ م . وكان فرديناند ملك قشتالة يخوض الصراع ضد اخوته الثلاث الباقين ، حتى يفوز بحكم المملكة منفردا ، ولذلك لم تحدثنا المراجع والمصادر عن علاقة بين فرديناند وبين الظافر اسماعيل بن ذى النون (١٠٩) .

تولى حكم طليطلة بعد وفاة الظافر ابنه يحيى بن اسماعيل وتلقب بالمأمون (٤٣٥ — ٤٦٧ هـ / ١٠٤٣ — ١٠٧٤ م) وكان من أشهر ملوك بنى ذى النون ، وفى عهده اتسعت المملكة وبلغ الترف والنعيم أقصاه . ويتمثل ذلك فى اعذار (ختان) المـأمون لأولاده ، هـذا الاعذار الذى بلغ مضرب الأمثال فى الاسراف وشدة الاحتفال حتى سمى بالاعذار الذنوبى . أما عن علاقة المأمون بجيرانه المسلمين فقد سبق الحديث عن صدامه المستمر مع سليمان بن هود ملك سرقسطة ، ذلك الصراع الذى اشتد مدة ثلاث سنوات (٤٣٥ — ٤٣٨ هـ) وأتى على الحرث والنسل وأجبر كلا منهم على الاستعانة بملوك قشتالة ونبرة وأمراء برشلونة ودفعوا لهم الجزية (١١٠) .

وفى تلك الأثناء كان فرديناند قد استطاع أن يعيد الوحدة الى المملكة الأسبانية النصرانية ووجه اهتمامه الى جيرانه المسلمين ، وكان يطمح الى اخضاعهم جميعا لا سيما ابن عباد وابن ذى النون ، وهما يومئذ أقوى ملوك الطوائف جميعهم وأعظمهم شأنا . وكان عنده من الروح الحربية والحمية القومية والغيرة الدينية ما لم يكن عند هؤلاء الملوك (١١١) .

وقد أعد جيوشه عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وهاجم أخيرا مملكة طليطلة فى أقاليمها الشمالية والشرقية ، ولا سيما مدينة سـالم وطلنكة ووادى الحجارة وقلعة النهر (الكالا دى هنارس) ، وعاث فى نواحيها تخريبا

---

(١٠٩) ارسلان ، الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ٤٦١ .

(١١٠) أنظر ، الفصل الأول من الباب الثالث ، ص

الفصل الثالث من الباب الثالث ، ص

(١١١) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٣ ، دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ١٧٠ .

وسبيا ، فطلب أهل هذه المدن النجدة من المأمون ملك طليطلة ، فجمع بدور* مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأقمشة الفاخرة ، وسار بنفسه الى معسكر الملك النصرانى ، وقدم اليه الهدايا وأعلن اعترافه بطاعته وتعهد له بأداء الجزية [١١٢] .

وقد أثمرت هذه التبعية لملك قشتالة عند ما قام المأمون بعد ذلك بثلاثة أعوام ، واستولى على مملكة بلنسية (٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م) من يد صبهره عبد الملك بن عبد العزيز بن عامر الذى كان قد أساء معاملة ابنته ، ورفض مساعدته بالجند فى حروبه ضد ملوك الطوائف الآخرين . وتشـير بعض الروايات الى أن المأمون استعد سرا لغزو بلنسية ، واستعان بقوة من الجند النصارى أمده بها حليفه فرديناند الأول وصاحب السيادة عليه ، وأن القوات المتحالفة داهمت بلنسية فجأة وهزمت جيوشها وأهلها فى معركة بطرنة وأسرت ملكها فى ذى الحجة من ٤٥٧ هـ أكتوبر ١٠٦٥ م [١١٣] .

وهذا لا يناقض ما سبق أن أشرنا اليه من هجوم فرديناند على أطراف بلنسية بعد هجومه على سرقسطة عند امتناعها عن دفع الجزية ، واستدعاء ملك بلنسية لصهره المأمون لمساعدته فى الدفاع عن مملكته . ذلك أن المأمون نفسه كان تحت حماية فرديناند وليس هناك ما يمنع من استعانته بفرقة قشتالية لتحقيق أطماعه فى مملكة بلنسية . اذ كان الغدر والخيانة طابع العصر سواء عند مسلى الأندلس أم عند نصارى الشمال [١١٤] .

ولم يمض على وقعة بطرنة قليل حتى توفى فرديناند ملك قشـتالة (٤٥٨ هـ / ديسمبر ١٠٦٥ م) ، وثارت بين أولاده الثلاثة شانجة ملك قشتالة والفونش ملك ليون وغرسية ملك جليقية ، حرب أهلية استمرت أعواما وانتهت مرحلتها الأولى فى سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م بانتصار شانجة واغتصاب ملك أخويه ، وهرب الفونش (الفونسو السادس فيما بعد ، وهو الذى استولى طلى طليطلة عام ٤٧٨ هـ) الى طليطلة والتجأ عند ملكها المأمون بن ذى النون ، وهرب غرسية عند ملك أشبيلية وذلك عام ٤٦٣ هـ . وعاش الفونش فى بلاط المأمون زهاء تسعة أشهر حتى قتل أخوه شانجة

---

(١١٢) نفس المصدرين السابقين .

(١١٣) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٢ — ٣٨٦ .

(١١٤) انظر ، الفصل الثالث من الباب الثالث ، ص

عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م فرجع الفونش الى بلاده مزودا بكثير من التحف والهدايا ، وبعد أن قطع للمأمون عهدا باحترام مملكته ودوام علاقات الصداقة بين المملكتين ، وأن يعاونه ضد خصومه من ملوك الطوائف (١١٥) .

وتحدثنا بعض الروايات بأن الفونش السادس ما كاد يعتلي عرش ليون وقشتالة حتى أراد أن يعرب عن عرفانه للمأمون بن ذى النون ، وذلك بأن يساعده فى حربه ضد ابن عباد ، وامده ببعض قواته ، وسار معه الى قرطبة ، واستطاع المأمون بذلك أن يستولى عليها . ولكن الروايات الاسلامية توضح أن سيطرة المأمون على قرطبة كانت بتدبير مبعوثه (حكم ابن عكاشة) الذى اتصل بجندها ودبر مؤامرة تمكن فيها من قتل ابن المعتمد والاستيلاء على المدينة عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م (١١٦) .

بهذا النصر الذى حققه المأمون ضد قرطبة والذى لا يحمل فى طياته الا الغدر والسقوط السياسى ختم حياته ، فقد مات فى نفس العام (٤٦٧ هـ) وخلفه حفيده يحيى الملقب بالقادر والذى وصفته المصادر بضعف الارادة والخنوع والاستسلام ، لأنه « ربى فى أحجار النساء والدايات ونشأ بين الخصيان والغانيات ، فملك أمره العبيد ، وحكم عليه كل خصى ومولود ، كل يدبر ملكه بارادته ، وينفرد بوزارته » فطمع فى بلاده ملوك الطوائف الأقوياء ، فاستولى المعتمد بن عباد على قرطبة وسائر أعمالها ما بين طلبيرة وغافق (١١٧) ، أما المقتدر بن هود صاحب سرقسطة ، فقد استعان بالملك شانجة راميرز ملك أرغونة ونبرة وأخذ منه شنتبرية وملينة (١١٨) الواقعتان شمال شرقى طليطلة (١١٩) .

وفى نفس الوقت فقد ثار أبو بكر بن عبد العزيز فى بلنسية وأعلن استقلاله عن طليطلة ، وخلع طاعة القادر بن ذى النون ، وتحالف مع

---

(١١٥) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٣ .

(١١٦) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٤ ، دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ٢٢٥ ـ ٢٣٠ .

(١١٧) طلبيرة مدينة على نهر التاجة غربى طليطلة ، اما غافق فهو حصن من اعمال قرطبة فى شمالها على مسافة ١٠٤ ك.م ، انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(١١٨) يوجد عدة اماكن فى اسبانيا باسم (ملينة) ، ولكن المقصود هنا حصن فى مقاطعة كونكة Cuenca شمال شرقى طليطلة يعرف بملينة اراجون Momino dearagon
انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(١١٩) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

المستعين بن هود صاحب سرقسطة الذى خطب منه ابنته أملا فى ان يتملك بها بلنسية ، وقام شانجة راميرز حليف المستعين بالاغارة على حصن كونكة(١٢٠) من اعمال طليطلة ؛ وكاد يسقط فى يد شانجة لولا أن افتداه اهله منه بمال وفير ، وحاول القادر أن يرد هجمات أعدائه ، فأرسل حملة تحت قيادة بشير الفتى وأمره بمناجزة ابن هود وابن راميرز ، فانصرفا ، وعاد بشير دون قتال (١٢١) .

ومما اضعف من حكم القادر وأدى الى ثورة أهل طليطلة ضده ، وأدى ذلك فى النهاية الى سقوط طليطلة نفسها فى يد النصارى ، قيام القادر باغتيال وزير جده الفقيه أبى بكر الحديدى عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م . وقد أدى هذا العمل الآثم الى قيام الفتنة فى طليطلة وتحزب أهلها أحزابا ، وقام ابو بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية حسبما أشرنا من قبل بخلع القادر ، ولما اشتدت الفتنة والثورة فى طليطلة استدعى القادر ألفونش السادس ليعينه على قمعها فأرسل له يقول « ان كنت تريد الدفاع عن أنحائك ، وجه الى مالا ، والا سلمتك لأعدائك (١٢٢) » .

وكان هدف ألفونش هو اضعاف الحكام والرعية من المسلمين اقتصاديا حتى يسلموا بلادهم ويخربوا بيوتهم بأيديهم ، وهذا ما حدث . فقد جمع القادر أهل المدينة ، رعية وأعيانا ، أهل بدو وحضر ، وهددهم بجعلهم هم وأبناءهم رهينة عند ألفونش اذا لم يجمعوا له المال المطلوب . فلم يجد أهل طليطلة مناصا من الثورة عليه عام ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م ، ففر من المدينة ليلا وقصد حصن وبذة(١٢٣) ، فصده صاحبه ، فلجأ القادر الى مدينة كونكة وأرسل الى ألفونش وكتب اليه يستصرخه ويستعين به فى اعادته الى طليطلة . فأسرع اليه واتفقا على محاصرة طليطلة حتى يخرج عنها المتوكل

---

(١٢٠) كونكة أو قونكة Cuenca حصن من أمنع حصون منطقة الثغر الأدنى طليطلة ، شمالى السهلة حيث يحكم بنو رزين . وهى اليوم قاعدة مديرية تحمل نفس الاسم . انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨١ .

(١٢١) ابن الكردبوس المصدر نفسه ، ص ٨١ .

(١٢٢) ابن الكرديوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

(١٢٣) وبذة Huete مدينة على بعد ٥٠ ك.م غربى كونكة ، وكانت من الحصون الشمالية الشرقية لمملكة طليطلة ، واليها كان فرار القادر بأسرته مرة ثانية عام ٤٧٨ هـ . انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

ابن الافطس صاحب بطليوس والذى كان أهل طليطلة قد استدعوه لحكم المدينة بعد فرار القادر عنها (١٢٤) .

وكان اتفاق القادر مع ألفونش على أن يعطيه جميع أموال المدينة بعد استعادتها ، لكن ألفونش لم يكفه ذلك وحصل على حصون صورية وقورية ، وقام معه بحصار المدينة ، ولما لم يجد ابن الأفطس من يعينه على دفع الحصار فر هاربا ، فدخلها القادر تحت حماية الحراب القشتالية عام ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ، وقام القادر وجمع أموالا عظيمة اضافها الى أمواله الخاصة وقدمها الى الفونش ، ولما لم تف بما اتفق عليه ، أخذ منه حصن قنالش (١٢٥) رهنا ، وعاد الى بلاده محملا بأموال المسلمين التى أخذها القادر غصبا وظلما ، مما أدى الى كره الناس له ومحاولتهم قتله (١٢٦) .

حدث ذلك يوم عيد الأضحى عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨٢ م ، فقد ثار الناس ضد القادر مرة أخرى بسبب استنزافه لأموالهم واعطائها لألفونش ، حتى أنه أعطاه نظير الحصن المرتهن لديه مائة وخمسين ألف مثقال من الذهب وخمسمائة مد من الطعام ، ضيافة له كل ليلة طوال مدة بقائه فى هذا الحصن ، أخذها القادر من أموال رعيته ومؤنهم حتى ضعفوا ، ولم يكن أمامهم الا أن يزحفوا الى قصره من جديد ، فقابلهم الجنود بالسيوف فذهبوا الى الفونش يلتمسون عنده السلوى ويشكون اليه القادر ، فأهانهم وطردهم ، فيئس الناس من البقاء فى هذه المملكة ، واخذوا فى الهجرة الى سرقسطة وغيرها من البلدان المجاورة (١٢٧) .

---

(١٢٤) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٧٨ — ١٨٠ .
ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(١٢٥) قنالش Canales تطلق على عدة أماكن فى مختلف انحاء اسبانيا ومعناها واضح ، وهو جمع قناة أو قنال ، ولعل المقصود هنا هو قرية قنالش التى تقع فى شمال طليطلة فى منطقة وادى الحجارة على الحدود القشتالية . ومن المعروف أن الأمير محمد ابن الأوسط قد بنى عدة حصون ومنها حصن قنالش فى منطقة الثغر الأدنى لحماية المسلمين من جيرانهم النصارى .
أنظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(١٢٦) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ص ١٢٥ .

(١٢٧) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٧٧ ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٤٢٦ .

ازداد الاضطراب فى طليطلة وعمت البأساء وازداد الطمع فى امتلاك المدينة ، وصار ابن عباد يشن عليها هجماته من الغرب ، وابن هود يذيقها العذاب من الشرق ، فأيقن القادر انه لا طاقة له على الدفاع عن ملكه ولا سبيل أمامه الا تسليم طليطلة الى الفونش ، فكتب اليه وتخلى له عنها وعما يتبعها من مدن وحصون ، على أن يعينه على أخذ بلنسية وأقطارها عوضا عنها . لكن الفونش لم يرض الا بأن يدخل البلاد وهو سيدها ، فأخذ فى حصارها وضيق الخناق على أهلها ، فوفد اليه وفد من أشرافها ، وحاولوا مساومته واغراءه بالأموال ، لكنه أبى الا أن يبتلع المدينة كلها ، ولما هددوه بأن هناك من ملوك الطوائف من يمكنه القيام معهم ضده سخر منهم وأبرز لهم سفراء من ذكروهم من الملوك وكلهم خنوع واستسلام ، فسقط فى أيدى وفد طليطلة وعادوا وقد أيقنوا بسقوطها (١٢٨) .

وكان موقف ملوك الطوائف الآخرين لا يدل على أدنى احتمال بالمساعدة ، فالمعتمد بن عباد بدل أن يبذل عونه للقادر عقد حلفا مع ألفونش السادس ، يتعهد فيه بأداء الجزية وباطلاق يد ألفونش فى طليطلة ، على أن يساعده الأخير فى نزاعه على سائر أعدائه من المسلمين . وملك سرقسطة المقتدر بن هود ، كان مشغولا بنضاله المستمر ضد هجمات ملوك أرغونة وأمراء برشلونة الذين استولوا منه على قلاع الحدود فى ولبة وجرادوس وموزن . وكانت بلنسية قد عادت بعد وفاة أميرها أبى بكر الى ولائها لطليطلة ، ولكن شغلها أمير دانية ، أما بطليوس فقد شغلها المعتمد بن عباد بزحفه عليها ، فلم تستطع بطليوس مساعدة طليطلة مساعدة جدية ، اذ أن ابن الأفطس ارسل ولده الفضل على رأس بعض الجند ، لكنهم هزموا أمام تفوق قوات الفونش ، وعادوا الى بطليوس تاركين المدينة تنعى حظها المشئوم (١٢٩) .

ومما ساعد الفونش على اخضاع المدينة واقتحامها ، هو انشقاق أهلها الذين أضناهم الحصار الذى دام تسعة أشهر ، وبعد عودة وفدها بثلاثة أيام من مقابلتهم لألفونش دون اتفاق أو صلح معه ، عرضت المدينة التسليم بالشروط الآتية :

---

(١٢٨) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(١٢٩) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ١١١ -

١ — تأمين المسلمين على انفسهم واموالهم وعقاراتهم .

٢ — من شاء منهم الهجرة هاجر ومن شاء منهم الاقامة اقام ، على أن يدفع الجزية على عدد ما عنده من الأشخاص .

٣ — كل من يرجع بعد الهجرة الى المدينة ثانية ، فله عقاره دون ادنى معارضة .

٤ — يبقى المسجد الجامع فى حوزة المسلمين .

٥ — يتعهد الفونش للقادر بأن يكون ملكا على بلنسية بدلا من طليطلة .

تم الاتفاق على هذه الشروط وتظاهر الفونش السادس بقبولها ، وفى المحرم من عام ٤٧٨ هـ / مايو ١٠٨٥ م دخل المدينة على راس قوات قشتالة وليون ، وجنود من أرغونة ، ومتطوعين ومغامرين من فرنسا وغيرها كانوا قد أتو للاشتراك فى حملة تهم النصرانية كلها ، مما يؤكد الطابع الصليبى فى استرداد طليطلة (١٣٠) .

وبعد دخوله المدينة تسمى بالامبراطور ذى الملتين (الاسلام والنصرانية) واقسم الا يدع أحدا من ملوك الطوائف الا من أعلن خضوعه له ، وقال لرسول أحدهم — وهن ابن مشعل اليهودى ورسول المعتمد بن عباد — « كيف أترك قوما مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم ، المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون ، كل واحد منهم لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولا يرفع عن رعيته ضيما ولا حيفا ، قد أظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغانى والعبدان ؟! وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحدا ، وأن يدعها بين أيديهم سدى ؟ » (١٣١) .

لم يلبث الفونش الا قليلا حتى شن غاراته على جميع النواحى واستحوذ على جميع أعمال مملكة طليطلة من وادى الحجارة الى طلبيرة ، ثمانين حصنا سوى القرى والمدن العامرة . عند ذلك تهافت عليه رسل ملوك الطوائف مهنئين ومباركين وواضعين أنفسهم وأموالهم فى خدمته ،

---

(١٣٠) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، دوزى ، ملوك الطوائف ص ٢٧١ .

(١٣١) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

وأنهم ليسوا الا جباة لأمواله وتابعين لسلطانه ، وبلغ من تهافتهم وتخاذلهم واستسلامهم وضعف حميتهم أن أهدى أحدهم الى الفونش هدية قيمة فأعطاه بدلها قردا ، فصار يفخر بذلك على جميع ملوك الطوائف ، ويعتقد أنه حاز قبول الفونش ورضاه (١٣٢) .

أما القادر بن ذى النون ، فقد وصفه المؤرخون بما يستحقه من أبشع الصفات . فهذا أحدهم يقول : « وخرج ابن ذى النون خائبا مما تمناه ، شرقا بعقبى ما جناه » والأرض تضج من مقامه ، وتستأذن فى انتقامه .. واستقر بمحلة ادفونش (الفونسو) مخفور الذمة ، مذال الهمة ، ليس دونه باب ، ولا دون حرمه ستر ولا حجاب ، حدثنى من رآه يومئذ بتلك الحال وبيده اصطرلاب يرصد فيه أى وقت يرحل وقد أطاف به النصارى والمسلمون ، أولئك يضحكون من فعله ، وهؤلاء يتعجبون من جهله » (١٣٣) .

وفى الفونش بعهده للقادر ومكنه من السيطرة على بلنسية ، وهو على أى الحالات لن يكون الا تابعا له ، وبذلك مد الفونش سيطرته على جزء من شرق الأندلس ودخل فى صراع مع السيد التمبيطور حسبما فصلنا حين الحديث عن بلنسية . أما طليطلة نفسها فقد عين لحكمها وادارتها وزيره المستعرب ششنند Sisnando Davidis الذى كان يتبع سياسة اللين والتسامح واظهار العدل لأهلها ، « مما هون عليهم الرزية وحبب اليهم اعطاء الدنية . حتى تنصر بعضهم سواء من العامة أم من ضعاف النفوس من الفقهاء أمثال الفقيه أبى القاسم بن الخياط (١٣٤) .

وكان من رأى ششنند أن يلتزم سيده الفونش بالاعتدال فى معاملة المدينة المفتوحة ، والا يستثير اهلها لأنهم غالبية السكان ، والا يلح بالغزو على ملوك الجزيرة لأنه لن يجد عمالا أطوع منهم وحتى لا يضطرهم الى التماس المساعدة من خارج الجزيرة . ويبدو أن الفونش قد غره الظفر ، وأعماه الطمع ، فشمخ بأنفه ورفض لبس التاج الذى قدمه له

---

(١٣٢) ابن كردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

(١٣٣) ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(١٣٤) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٣١ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

اتباعه قائلا أنه لن يفعل ذلك الا بعد أن يستولى على قرطبة وعلى سائر دول المسلمين فى الأندلس(١٣٥) .

وكان موقفه من تحويل مسجد طليطلة الى كنيسة بعد شهرين من استرداد المدينة ، يدل على نقضه لاتفاقه مع اهلها فى هذا الشأن . فقد تظاهر بعقاب الملكة والمطران برنارد اللذين قاما بهذا العمل اثناء غيابه فى ليون ، لكنه لم يفعل شيئا بل أنه أعد ناقوسا تأنق فى ابداعه وتجاوز الحد فى صناعته لوضعه فى المسجد بعد تحويله الى كنيسة مما يدحض كل رواية بغير ذلك . وهذا ابن بسام وهو من ثقات المؤرخين الذين نقلوا عمن شاهدوا بالعيان أو استمعوا لهم ، يقول أن الفونش قد شرع لوقته — بعد سقوط طليطلة فى يده — فى تغيير المسجد الجامع بها » (١٣٦) .

وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية الكبرى وخرجت من قبضة الاسلام الى الأبد ، وارتدت الى النصرانية بعد أن حكمها الاسلام أربعة قرون الا قليلا ، وأصبحت حاضرة لملكة قشتالة ، وغدا قصرها منزلا للبلاط القشتالى ، وجاء سقوطها على هذا النحو ضربة عنيفة للاندلس وسلامتها ، نظرا لموقعها المتوسط فى شبه الجزيرة والذى تستطيع منه أن تهدد جميع دول الطوائف . وبذلك انقلب ميزان القوى واصبح تفوق النصرانية أمرا لا شك فيه ، وقد عبر عن ذلك شعراء المسلمين فقال احدهم شعرا يفيض بالأسى والحزن على فقد طليطلة وضياع البلاد .(١٣٧) .

ومن جهة أخرى فقد كان لتلك النكبة التى حلت بالاسلام والمسلمين عميق الأثر فى الأندلس والعالم الاسلامى ، فقد ارتاع ملوك الطوائف جميعا وادركوا بعد فوات الأوان انها نذير بالقضاء عليهم واحدا بعد الآخر ، ولأول مرة نبذوا خلافاتهم واتجهوا بأنظارهم جميعا الى ما وراء البحر

---

(١٣٥) ابن بسام ، الذخيرة ، ص ٤ ، ج ١ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(١٣٦) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

برفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(١٣٧) شكيب ارسلان . الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

يلتمسون عون اخوانهم من المرابطين الذين كان لتدخلهم فى سير الحوادث بالأندلس اعظم الآثار ، وكان رائدهم فى دعوة المرابطين لانقاذ الاسلام هو المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية [١٣٨] .

٨ ـ علاقة مملكة أشبيلية بالممالك النصرانية فى أسبانيا :

انتهت الفتنة البربرية التى قامت فى مطلع القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى بقيام الخلافة الحمودية العلوية فى قرطبة عام ٤٠٧ هـ والتى بسطت سلطانها على الجنوب الأندلسى ، وظلت اشبيلية خاضعة لها حتى استقلت عنها عام ٤١٤هـ / ١٠٢٣م اثر الصراع الذى قام بين القاسم بن حمود وابن أخيه يحيى بن على بن حمود على كرسى الخلافة فى ذلك الوقت . وكان عماد استقلالها تلك الأسرة القوية من بنى عباد اللخميين وعميدها القاضى أبو القاسم محمد بن اسماعيل ابن عباد اللخمى الذى كان وحده يملك ثلث كورة اشبيلية[١٣٩] .

وفى عهد أبى القاسم بن عباد الذى استمر حتى عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ كان الصراع محتدما بين أشبيلية وبين جيرانها فى الجنوب من بنى زيرى حكام غرناطة وبنى حمود خلفاء مالقة ، لذلك كان السلام مخيما على العلاقات بين أشبيلية وبين ممالك الشمال النصرانية الأسبانية فى هذه الفترة ، سوى ما سبق أن اشرنا اليه من قيام أبى القاسم بارسال ابنه اسماعيل على رأس حملة الى مملكة ليون النصرانية ، عبر أراضى بطليوس التى قام أميرها ابن الأفطس بضرب مؤخرة الجيش الاشبيلى ، فحوصر الجيش بين عدوين ، الليونيون من الشمال وجنود بطليوس من الجنوب ، وجرت مذبحة قتل فيها الكثير من جند اسماعيل بن عباد ، ولم ينج هو الا بأعجوبة ، وعاد مع من نجا من رجاله الى اشبيلية بصعوبة بالغة[١٤٠] .

(١٣٨) عنان ، المرجع نفسه ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، أرسلان المرجع نفسه ، ج ١ ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .
Chapman, A history of spain, p. 72.

(١٣٩) رجب عبد الحليم ، دولة بنى حمود فى مالقة بالأندلس ، ص ١٠٥ ـ ١٠٧ .
Dozy, op. cit., pp. 600, 601.

(١٤٠) انظر ، الفصل الاول من الباب الثالث ، ص

وفي عهـد خلفه المعتضد بن عبـاد (٤٣٣ ـ ٤٦٤ هـ / ١٠٤٢ ـ ١٠٧٣ م) تطورت العـلاقات بين اشبيلية وبين نصارى الأسبان ، فقد كان فرديناند الأول ملك قشتالة يطمح فى أن يبسط سيادته على اسبانيا كلها ، وتمكن من اخضاع بطليوس وسرقسطة وطليطلة لسلطانه ودفعت له الجزية ، وجاء الدور على بنى عباد حكـام اشبيلية ، ففى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م قاد جيشه وهاجم أراضى اشبيلية واحرق قراها فرأى المعتضد انه من الحكمة أن يحذو حذو المـأمون صاحب طليطلة فى اعطـاء الجـزية لفريدناند ، فمضى الى معسكره ، وقـدم اليه الهدايا الثمينة وتم الاتفاق بينهما على دفع جزية سنوية لم تقـدرها المراجع ، أو المصادر ، وعلى أن يقـوم المعتضد بتسليم رفـات القديسة « خوستا » التى استشهدت فى عصر الاضطهـاد الرومانى[١٤١] .

قـام المعتضد بتنفيذ هذين الشرطين ، ويطنب دوزى فى وصف ما اظهره المعتضد من اسى وحزن ازاء نقل رفات القديس أزيدور الذى ظهر فى المنام لرسول فرديناند الأسقف « الفينوس » اسقف برغش ، ودله على قبره حينما فشل هذا الأسقف فى العثور على جثمان القديسة خوستا . ولم يكن هذا الا دهاء ومكرا من المعتضد الذى حاول أن يستفيد من اثارة شفقة المسيحيين وعطفهم عليه ، مع انه كان يسخر من ذلك اذا ما خـلا الى نفسه . على اية حـال فقـد توفى فرديناند بعـد ذلك بثلاث سنوات وخلفه ولده شانجه فى حكم مملكة قشتالة ، وكان المعتضد يدفع له الجزية واستمر فى تأديتها حتى وفاته عام ٤٦٤هـ / ١٠٧١م .[١٤٢]

وكان المعتضد قبيل وفاته قد استقبل غرسية ملك جليقية الذى هرب من طغيـان اخيه شانجة ملك قشتالة ، اثناء الحرب الأهلية التى اندلعت بين أبنـاء فرديناند عقب وفاته عام ٤٥٨هـ / ١٠٦٥ م . ويبدو أن هذا كان من الأسباب التى ادت الى موت المعتضد مسموما عام ٤٦٤ هـ ، من ثيـات مسمومة ارسلها اليه احـد أبناء فرديناند الذين لهم مصلحة فى ذلك ،

---

(١٤١) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٨ ، دوزى ، المرجع نفسه ، ص ١٧١ .

(١٤٢) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٨ ، دوزى ، المرجع نفسه ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

اذ لم تحدد لنا الروايات الاسلامية اسم هذا الملك ، واكتفت بقولها ملك الروم أو ملك الافرنج . ولعل هذا الملك هو شانجة نفسه الذى لم يلبث أن مات مغتالا فى نفس العام على يد أخته أوراكة ، التى كانت تعمل لحساب أخيها الفونش الذى كان قد فر هو الآخر الى بلاط المأمون فى طليطلة[143] .

تولى حكم اشبيلية بعد المعتضد ابنه المعتمد (٤٦٤ — ٤٨٤ هـ / ١٠٧١ — ١٠٩١م) ، وفى نفس الوقت كان الفونش السادس الذى استطاع أن يوحد ممالك ليون وقشتالة وجليقية تحت سلطانه فى تلك الفترة ، قد عزم على اتباع سياسة أبيه فريدناند فى طرد المسلمين من بلاد الأندلس مستغلا فى ذلك الخلافات المدمرة فيما بينهم . وكان الصراع قائما بين اشبيلية وغرناطة بعد أن استولى بنو عباد على جيان التابعة لغرناطة عام ٤٦٦ هـ ، وقد سبق الحديث عن الحلف الذى عقدته غرناطة مع الفونش السادس ضد أشبيلية عام ٤٦٦ هـ

ثم قيام الفونش السادس بحملته على غرناطة واشبيلية فى العام التالى (٤٦٧ هـ) للمطالبة بدفع الجزية ، وقيام ابن عمار وزير المعتمد بن عباد بعقد حلف مع الفونش لفتح غرناطة على أن تكون أموالها له والمدينة لابن عباد . ولم يأت هذا الحلف بنتيجة لأن الأمير عبد الله بن بلقين ملك غرناطة اتفق مع الفونش على دفع الجزية وعلى دفع ما كان قد امتنع عن دفعه منها فى السنوات الماضية ، ولأنه لو تركت غرناطة تسقط فى يد بنى عباد فسوف تتضخم دولتهم وربما يخلعون يد الطاعة ويتمردون ضد الفونش حسبما نصحه صاحب غرناطة نفسه[144] .

ولما فشل ابن عمار والمعتمد بن عباد صاحب أشبيلية فى تحريض الفونش ضد غرناطة ، اتجه نشاطهما الى السيطرة على امارة مرسية

---

(١٤٣) المراكشى ، المعجب ، ص ١٠١ ، ابن شاكر الكتبى ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٩٩

(١٤٤) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، أنظر ، الفصل نفسه ، ص

(تدمير) التى كانت تحت حكم آل طاهر القيسيين (ابو عبد الرحمن بن طاهر ٤٥٥ — ٤٧١ هـ ١٠٦٣ — ١٠٧٨م) .

ورغم غنى أبى عبد الرحمن الا أنه لم يكن كثير الخيل والجند مما جعل الاستيلاء على بلاده سهلا ميسورا . وقد لاحظ ابن عمار ذلك عندما مر بمرسية فى طريقه لمقابلة الكونت ريمون بيرنجير الثانى ملك برشلونة ولم تكن مقابلة هذا الكونت الا تغطية لأهداف ابن عمار الحقيقية فى السيطرة على المدينة[١٤٥] .

وقد بدأ ابن عمار مشروعه أثناء اقامته فيها باتصاله ببعض الزعماء الناقمين على بنى طاهر ، ثم خرج منها الى برشلونة حيث عقد حلفا مع ملكها الكونت رامون عام ٤٧١هـ / ١٠٧٨ م ، على أساس أن يدفع له المعتمد مبلغ عشرة آلاف مثقال من الذهب ، نظير معاونته على فتح مرسية ، وأن يقدم كل من الطرفين الى الآخر رهينة لضمان التنفيذ ، فقدم المعتمد ولده الرشيد ، وقدم ملك برشلونة ابن أخيه . ويقول دوزى أن المعتمد كان يجهل تفاصيل هذا الاتفاق ، لكن تسلسل الأحداث نفسها لا يدل على ذلك ولا يمكن لابن عمار أن يعقد حلفا أو يقوم بمشروع كبير كهذا دون رأى المعتمد أو علمه[١٤٦] .

ولتنفيذ هذا المشروع قام ابن عباد بارسال جيش بقيادة ابن عمار تصحبه فرقة من جنود برشلونة وحاصروا المدينة ، ولكن المعتمد ترك الميعاد المتفق عليه لتسليم المبلغ المطلوب يمر دون دفعه ، فارتاب ملك برشلونة فى الأمر وظن أنه قد غرر به ، فسحب قواته من مرسية وقبض على ابن عمار والرشيد . وقام المعتمد بالقاء ابن أخى ملك برشلونة هو الآخر فى السجن ، وبعد مفاوضات ، دفع المعتمد المبلغ المطلوب ، وتم الافراج عن الرشيد وابن عمار ، وأفرج المعتمد بدوره عن الرهينة النصرانى الذى سافر الى بلاده [١٤٧] .

---

(١٤٥) بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٩١ ، ٩٢ .
(١٤٦) دوزى ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، دوزى ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٥ — ٢٤٩ .

سحب المعتمد قواته من مرسية ، لكن وزيره ابن عمار أغراه مرة ثانية بغزوها ، فجهز المعتمد حملة أخرى بقيادة ابن عمار وعينه حاكما لمرسية . وقد عاونت ابن عمار قوات من قرطبة أمده بها حاكمها الفتح بن المعتمد ، كما عاونه عبد الرحمن بن رشيق حاكم حصن بليج الذى أوكل اليه ابن عمار بمهمة فتح مرسية ، فنجح فى ذلك فى عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م وقبض على ابن طاهر ، ودخلها ابن عمـــار فى موكب فخم ، وأخذ يظهر بمظهر الأمراء ويوقع بتوقيعاتهم ، مما أثار عليه المعتمد بن عباد . ولما شعر ابن عمـــار بالخطر وأيقن بالهلاك ، لجأ الى الفونش ليحتمى به بعد أن أعلن ابن رشيق استقلاله بمرسية أثناء غيـــابه فى طليطلة لتحريضها ضد حاكمها لصـــالح الفونش (١٤٨) .

ولما فشل ابن عمار فى طليطلة لجأ الى الفونش ليحتمى به وليجد منه عونا على فتح مرسية ، لكن ابن رشيق أرسل الأموال والهـــدايا لألفونش فأعرض عن ابن عمار وقال له « أنا لا أرى فيكم الا أنكم جماعة من اللصوص ، فاللص الأول قد سرق ، وجاء الثانى فسرق من الأول ما سرقه ، وجاء الثالث فسلب من الثانى ما سرقه من الأول » . وعلى ذلك تحول ابن عمـــار الى سرقسطة حيث خدم بنى هود ، وحيث انتهى به المطاف الى القبض عليه وارساله الى المعتمد بن عباد ، فتولى قتله بنفسه (١٤٩) .

وفى العام التالى لفتح مرسية على يد ابن رشيق وابن عمار ، أى فى عام ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م ، أرسل الفونش ملك قشـــتالة الفارس القشتالى الشهير بالســـيد القمبيطور ، لاســـتلام الجزية من المعتمد ملك أشبيلية . وصادف أثناء وصوله الى بلاط المعتمد أن قوات الأمير عبد الله ملك غرناطة كانت تهاجم أراضى أشبيلية مع فرقة من الفرسان النصارى ، بموجب معاهدة الصداقة التى عقدها صاحب غرناطة مع الفونش السادس عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م ، فطلب رسول ملك قشتالة من النصارى الكف عن مهاجمة أراضى ابن عباد ، تحقيقا لمقتضيات الصداقة التى تربط الفونش بملك أشبيلية أيضا ، ولما رفض هؤلاء هذا النداء قام القمبيطور بمهاجمتهم وهزيمتهم وأسر

---

(١٤٧) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ١٤٥ .
دوزى، المرجع نفسه ، ص ٢٥٧ ، صلاح خالص ، ابن عمار الأندلسى ، ص ١٢٠ ــ ١٢٣ .
(١٤٨) دوزى ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٨ . ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ١٤٦ .

قائدهم الكونت غرسيه أوردينيز . فسر المعتمد وأعطاه عدا الجزية طائفة كبيرة من الهدايا والتحف (١٥٠) .

وهكذا حارب جنود قشتالة بعضها بعضـــا لحساب ملكى أشبيلية وغرناطة . وليس هذا بغريب اذا عرفنا أن الدولتين كانتا فى حلف وصداقة مع قشتالة ، ويبدو أن جيش غرناطة كان يضم فى ذلك الحين نسبة كبيرة من جند قشتالة ، ولعل ألفونش السادس قد وضعهم هناك رغبة منه فى إقامة توازن بين الجيوش الاسلامية المتعادية فى جنوب شبه الجزيرة ، وفى الحد من أطماع ملك أشبيلية الذى كان يرنو دائما الى توسيع رقعة مملكته على حساب جيرانه من ملوك الطوائف . وهذا لا يتمشى مع سياسة ألفونش التى تهـــدف الى اضـــعاف الجميع وضربهم ببعض واطـــالة أمد الصراع فيما بينهم (١٥١) .

ولما كانت القوة القشتالية الموجودة فى غرناطة على رأسها الكونت غرسيه أردينيز ، خصم السيد القمبيطور وأحد منافسيه فى بلاط قشتالة ، فقد تحركت الأحقاد الشخصية الدفينة فى نفس كلا القائدين القشتاليين ، ووجداها فرصة لتصفية الحساب . وتمكن القمبيطور من أسر خصمه ثم اطلاق سراحه ، فعاد الى برغش ذليلا مهانا مما كان له أثره فى علاقة ألفونش بالقمبيطور فيما بعد ، اذ لم يلبث أن نفاه بعد ذلك بعامين ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م بعد أن أوغر صـــدره عليه من ناحية نبلاء ليون الذين كانوا يكرهون نبلاء برغش الذين ينتسب اليهم السيد القمبيطور (١٥٢) .

ويبدو أن المعتمد بعد أن سقطت فى يده مرسية عام ٤٧١ هـ كما فصلناه من قبل ، أراد أن يؤكد عودته وصداقته وتبعيته لألفونش السادس خصوصا بعد أن امتدت مملكته ووصلت الى هذا المدى الشاسع من الاتساع ، حتى وصلت الى مرسية على ساحل البحر المتوسط فى شرقى الأندلس فعقد حلفا مع ألفونش السادس . ويقول الأستاذ عنان أن الرواية القشتالية تقـــدم الينا موضوع ذلك الحلف ولكنها لا تذكر تاريخه وتقول لنا أن الوزير ابن

---

(١٤٩) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٢ ، ليفى بروفنسال ، المرجع نفسه ، ص ١٨١ - خليل ابراهيم ، المرجع نفسه ، ص ١٠١ .

(١٥٠) ليفى بروفنسال ، المرجع نفسه ، ص ١٨١ .

(١٥١) ليفى بروفنسال ، المرجع نفسه ، ص ١٨٢ -

لين بول ، قصة العرب فى اسبانيا ، ص ١٦٧ -

عمار ذهب الى ليون وتولى المفاوضة فى عقبده ، وخلاصته أن يقوم ملك قشتالة بمعاونة المعتمد فى حروبه ضد أعدائه من المسلمين ، على أن يقوم المعتمد بأداء الجزية ويغزو أراضى مملكة طليطلة الجنوبية وأن يسلم منها الى ملك قشتالة الأراضى الواقعة شمال جبال سيرامورنيا (جبل الشارات حسب الرواية العربية) (١٥٣) .

وتزيد الرواية القشتالية على ذلك بأن المعتمد قدم فى هذه المناسبة احدى بناته لتكون زوجة أو حظية لملك قشتالة ، وهى التى تعرفها الرواية القشتالية باسم « زايدة » وهذا بالطبع لا يمكن أن يحدث من ملك مسلم ، والصحيح أنها كانت زوجة ابنه الفتح الذى قتله المرابطون أثناء استيلائهم على قرطبة من يده عام ٤٨٣ هـ ، فذهبت الزوجة مغضبة الى أعداء المرابطين على سبيل الانتقام ، حيث أصبحت ضمن حظايا ألفونش السادس ، والتى أنجب منها ولده الوحيد شانجة الذى قتل فى معركة اقليش عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م (١٥٤) .

أما تاريخ الحلف المذكور بين ألفونش وبين المعتمد والذى عقده ابن عمار فى ليون فيبدو انه كان فى عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م وبعد استيلاء ابن عمار على مرسية بقليل ، ذلك أن العلاقة ما لبثت أن توترت وساءت بين ابن عمار ومليكه المعتمد بن عباد ، بعد أن استولى ابن رشيق على مرسية ، ولجوء ابن عمار الى الفونش ثم هجرته الى القادر صاحب سرقسطة ، حيث عمل فى خدمته وخدمة ابنه المؤتمن الذى تولى الحكم عام ٤٧٤ هـ ، مما يؤكد لنا أن حلف ابن عمار مع الفونش كان قبل هذا التاريخ بالتأكيد . وظل ابن عمار فى سرقسطة حتى تم اعتقاله بواسطة أحد أصحاب الحصون الذين كان ابن عمار يروم خلعهم لمصلحة ابن هود ، ثم أرسل الى أشبيلية فقتله ابن عباد بيده عام ٤٧٧ هـ (١٥٥) .

ويربط البعض بين هروب ابن عمار وبين موقف المعتمد بن عباد الشجاع من سفارة ابن شاليب اليهودى التى أرسلها الفونش الى اشبيلية لاستلام

---

(١٥٢) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ .

(١٥٣) الضبى ، بغية الملتمس ، ص ٣٢ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ .

(١٥٤) أنظر الفصل الأول ، الباب الثالث ، ص

الجزية (١٥٦) ، بينما يجعل الأستاذ عنان قصة هذه السفارة تالية للحلف الذى أشرنا اليه من قبل ويحدد لها تاريخا وهو عام ٤٧٥ هـ (١٥٧) . وهذا ليس بصحيح على الاطلاق وسوف نناقشه بعد أن نأتى على موضوع السفارة نفسه .

ذلك أن الفونش السادس وجه سفارته المعتادة الى المعتمد بطلب الجزية وعلى رأسها أحد قادته ، ووزيره اليهودى ابن شاليب ، الخبير فى معرفة الزائف من الصحيح من العملة . وعسكرت البعثة بجنودها الذين يبلغون الخمسمائة فارس خارج مدينة أشبيلية ، فوجه اليهم المعتمد المال مع بعض أشياخ المدينة ، وفى مقدمتهم الوزير ابن زيدون ، فلما شاهد ابن شاليب المال والسبائك رفض تسلمها بغلظة بحجة أنها من عيار زائف ، وهدد بأنه اذا لم يقدم له المال من عيار حسن ، فسوف يحتل الفونش مدائن مملكة أشبيلية حتى يتم الدفع على الوجه المرغوب (١٥٨) . وفى بعض الروايات أنه زاد على طلبه السماح لزوجة الفونش أن تلد فى الجانب الغربى من المسجد الأعظم بقرطبة حسبما أشار بذلك القساوسة ، لأنه كان جزءا من كنيسةكانت معظمة عندهم ، على أن تنزل امرأته المذكورة بمدينة الزهراء غربى مدينة قرطبة ، وزعم أن الأطباء قد أشاروا بذلك لاعتدال مناخها . وزاد فى اثارته للمعتمد فطلب منه التخلى عن بعض الحصون التى كان الموت عنده أولى من اعطائها . ولما وقف المعتمد على كل ذلك بعث رجاله فقبضوا على ابن شاليب ومن معه من الفرسان القشتاليين ، وأمر باليهودى فصلب والقى بالفرسان فى السجن (١٥٩) .

---

(١٥٥) خليل ابراهيم السامرائى ، علاقات المرابطين ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(١٥٦) محمد عبد الله عنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ .

(١٥٧) ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ابن الخطيب ، أعمال اعلام ، ج ٢ ، ٢٤٤ ، الحلل الموشية ، ص ٢٥ ، المقرى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(١٥٨) ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ابن خلكان ، المصدر نفسه ج ٤ ، ص ١١٩ .

ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، الحلل الموشية ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

ويتفق المصدران الأولان فى ان المعتمد قتل الرسول والبعثة كلها ، بينما تذكر المصادر الباقية أنه قتل الرسول اليهودى فقط وسجن باقى أفراد بعثته .

ولما علم ملك قشتالة بما وقع لسفرائه اضطر أن يرد حصن المدور القريب من قرطبة الى المعتمد ثمنا لاطلاق سراحهم ، لكنه أقسم أن ينتقم منه أروع انتقام ، وأن يخرب أراضى مملكته كلها حتى يصل الى نهاية الأندلس عند جزيرة طريف . وبادر ألفونش وقام على رأس جيوشه من الجلالقة والقشتاليين والبشكنس وعاث فى أحواز باجة ولبلة ، ثم وصل الى أرض اشبيلية وهو يحرق القرى وينسف الزروع ، ويسبى كل من وقع فى يده من المسلمين ، وعسكر هناك على ضفة النهر الأعظم أو الوادى الكبير فى مواجهة قصر المعتمد بن عياد (١٦٠) .

مكث ألفونش فى مقامه هناك ثلاثة أيام أرسل فيها رسالة الى المعتمد ساخرا منه زاريا به مذلا له ، يقول فيها « كثر بطول مقامى فى مجلسى الذبان (الذباب) واشتد على الحر ، فالقنى من قصرك بمروحة أروح بها على نفسى ، وأطرد بها الذباب عنى » فكتب له ابن عياد فى ظهر رسالته وبخط يده « قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك واعجابك ، وسأنظر لك فى مراوح من الجلود اللمطية فى أيدى الجيوش المرابطية ، تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله » . واستمر ألفونش فى حملته حتى وصل الى جزيرة طريف على بحر الزقاق أو على مضيق جبل طارق (١٦١) .

وكان تهديد المعتمد لألفونش بالمرابطين قد انتشر فى الأندلس ، فاستبشر الناس وفتحت أمامهم أبواب الآمال ، وتم ارسال البعثة الأندلسية الى يوسف بن تاشفين تستصرخه لغوث الأندلس ونجدتها من يد هذا الطاغية اللعين ألفونش السادس ، الذى شق الأندلس من أقصاها الى أدناها ، وخاض بقوائم فرسه فى بحر الزقاق معلنا أن الأندلس كلها أصبحت طوع يمينه وتحت سلطانه . وقد احتفظ لنا ابن الخطيب بالرسائل المتبادلة بين ألفونش السادس وبين ابن تاشفين حينما وصل الأول الى بحر الزقاق وأرسل رسالة لابن تاشفين يتحداه فيها بالعبور اليه أو يقوم هو بذلك ، وبالرسائل المتبادلة بين المعتمد بن عياد وابن تاشفين يستصرخه فيها بالاسراع فى العبور ونجدة الاسلام (١٦٢) .

---

(١٥٩) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

ابن الخطيب الحلل الموشية ، ص ٣٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٨٦ .

(١٦٠) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٢٦ .

(١٦١) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٢٢ ، ٣٢ .

ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٤ .

ع١١٠

هذه هى قصة رسالة ابن شاليب وما انتهت اليه . ومن الواضح أن تسلسل الأحداث لا يدل مطلقا على انها كانت عام ٤٧٥ هـ كما يقول بذلك المقرى ومن تابعه من المؤرخين المحدثين (١٦٣) ، ولا يمكن أن نأخذ بهذا التاريخ ونرجح أن السفارة تمت عقب سقوط طليطلة . أما رفضنا التاريخ المشار اليه فللأسباب الآتية :

أولا : لأنه لا يتناسب مطلقا مع الترتيب المنطقى للأحداث حسبما اشار المقرى نفسه ، فقد سقطت طليطلة وابن عباد فى تحالف مع الفونش السادس ، ولا يمكن أن تأتى سفارة ابن شاليب التى أفسدت العلاقات بينها بدرجة خطيرة ، وجعلت ابن عباد يستصرخ بالمرابطين رسميا قبل سقوط طليطلة .

ثانيا : لو كانت أحداث سفارة ابن شاليب حدثت عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م لكان هناك متسع من الوقت لألفونش لأن يغزو اشبيلية ذاتها ، ولسقطت فى يده قبل طليطلة عام ٤٧٨ هـ . لكن كان هناك حلف بينه وبين اشبيلية عقده معها منذ عام ٤٧١ هـ ، وبموجبه أطلق المعتمد يد الفونش فى طليطلة ، فاستمر على حصارها ومضايقتها حتى سقطت فى يده .

ثالثا : لا يمكن للمعتمد بن عباد أن يقوم بقتل سفير الفونش عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م وهو يعلم تماما انه لا طاقة له بمواجهة الفونش بمفرده ، خصوصا وأن ابن تاشفين لم يكن قد استولى بعد على سبتة التى لا يمكن العبور الى الأندلس دون السيطرة عليها ، ولم يتم ذلك الا عام ٤٨٦ هـ أو عام ٤٧٧ هـ ولذلك لم يكن هناك أمل فى مساعدة المرابطين قبل هذا التاريخ . ومن هنا لا يجرؤ المعتمد على تحدى الفونش بالشكل الذى أظهرته أحداث السفارة عام ٤٧٥ هـ (١٦٤) .

---

(١٦٢) انظر المقرى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٧٠ ، السلاوى ، الاستقصاء ، جـ ١ ، ص ١١٠ .
عنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ ، دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ٢٦٧ — ٢٧٠ .
خليل ابراهيم ، المرجع نفسه ، ص ١٠٣ ، ١٠٥ .
Livermore, op. cit. pp. 122, 123.

(١٦٣) الضبى ، بغية الملتمس ، ص ٣١ .
السلاوى ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١١١ .
Livermore, op. cit, p. 123.

رابعا : الحملة التى قام بها الفونش السادس حتى وصل الى جزيرة طريف لا يمكن أن يقوم بها عام ٤٧٥ هـ ، لأنه كان مشغولا فى أحداث طليطلة وثوراتها المتعاقبة ضد القادر والسيطرة القشتالية ، وكان الفونش يضع نصب عينيه فى ذلك الوقت الاستيلاء على طليطلة ، وكان لا يمكن أن يغضب ابن عباد أو يدفعه للعداء معه حتى لا ينجد طليطلة ، بل انه على العكس من ذلك ، عقد معه حلفا يقسمان بموجبه الغنيمة عند سقوط طليطلة ، ومن ثم تنتفى أحداث سفارة ابن شاليب بالصورة التى تمت بها كلية عام ٤٧٥ هـ .

خامسا : استند الأستاذ عنان ودوزى ومن تابعهم من المؤرخين المحدثين والمستشرقين على مصدرين متأخرين جدا ، فالمقرى توفى عام ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م وهو ينقل عن ابن اللبانة الذى لا نجد له مكانا بين المؤرخين أو الأدباء المشهورين الجديرين بالثقة ، فضلا عن أنه غير معاصر للأحداث أو قريب منها . أما السلاوى فهو من مؤرخى القرن الرابع عشر الهجرى (ت ١٣١٥ هـ) ، ولا يبين المصدر الذى نقل عنه ، زد على ذلك أن روايته مضطربة ويخطىء فى ترتيب الأحداث التاريخية ويجعل اقدمها أحدثها كما أنه لم يذكر السفارة ذاتها وانما يذكر ما ترتب عليها من غزو الفونش وزحفه حتى جزيرة طريف فى جنوب الأندلس ويجعل ذلك عام ٤٧٥ هـ (١٦٥) .

والصحيح كما اشرنا أن سفارة ابن شاليب تمت عقب سقوط طليطلة بقليل عام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) للأسباب الآتية :

أولا : ان هذا التاريخ يتفق مع التسلسل التاريخى للأحداث فقد ازدادت بالطبع أطماع الفونش بعد سقوط طليطلة وأراد اسقاط جميع ملوك الطوائف كما صرح بذلك لسفير ابن عباد نفسه ، واشتط فى طلباته ، حتى يدفع المعتمد الى الرفض ، وهنا يجد الفونش نفسه فى حل من حلفه معه ، وتتهيأ له الفرصة لافتراسه . ولما أدرك المعتمد ذلك ورأى هجوم الفونش حتى وصل طريف ، ادرك الحقيقة وأرسل الى المرابطين يستصرخهم ، رغم معارضة بعض ملوك الأندلس (١٦٦) .

---

(١٦٤) السلاوى ، الاستقصا ، جـ ١ ، ص ١١٠ .

(١٦٥) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ابن خلكان ، المصدر نفسه جـ ٦ ، ص ١١٤ .

ابن أبى دينار ، المونس ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ .

ابن الأبار ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٩ .

ثانيا : كان لا يمكن لألفونش أن يقوم بالغزو حتى جزيرة طريف اذ كانت قاعدة الغزو فى مكان يبعد كثيرا ، فبرغش وليون تقعان فى أقصى شمال شبه الجزيرة ، ولا يمكن أن تقوم من أى منهما حملة تستمر فى الزحف حتى جزيرة طريف بهذه السرعة التى تمت بها حملة الفونش . ولا يمكن أن تكون القاعدة الا طليطلة التى تقع وسط شـــبه الجزيرة ، ويمكن لمن يسيطر عليها أن يرســـل جيوشه فى أى اتجاه . ويذكر بعض المؤرخين صراحة انه عاد من غزوته تلك الى طليطلة ، وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه (١٦٧) .

ثالثا : صحيح أن الحميرى وهو ممن نستند اليهم فى تدعيم رأينـــا لم يذكر تاريخا محددا للسفارة ، لكنه جعلها سببا مباشرا للزلاقة التى حدثت بعد سقوط طليطلة بعام ، وليس قبلها ، ويقول ان السفارة أفسدت الصلح والحلف المنعقد بين ألفونش والمعتمد . وبالطبع فان هذا الصلح كان قبل سقوط طليطلة حسبما فصلنا ، وليس بعدها ، اذ أننا لم نسمع عن أحـــلاف عقدت بعد سقوط طليطلة ، ولكنا سمعنا عن تحركات ملوك الطوائف واتفاق كثير منهم وخاصة كبراءهم ، مثل ابن عباد وابن الأفطس وابن بلقين ، على استدعاء المرابطين الذى تم بعد سقوط طليطلة (١٦٨) .

وهناك غير الحميرى من ذكروا بالنص وقالوا صراحة أن سفارة ابن شاليب حدثت بعد سقوط طليطلة . مثال ذلك ابن الاثير الذى قال « فلما ملك الأنفونش (الفونسو) طليطلة أرسل الى المعتمد ... الخ » . ولسان الدين ابن الخطيب الذى يذكر هو الآخر صراحة أنها كانت بعد سقوط طليطلة ، وأن الفونش « مال على جهة ابن عباد كبيرهم ، يحصل شوكته ويخطب مملكته ويطرق حماه متناهيا فى الوعد ، مترامیا الى المرمى البعيد ، ووصله رسوله اليهودى المعين لقبض الضرائب ... الخ » وأنه لما استولى على طليطلة أرسل ابن عباد يطلب منه تسليم أعماله الى رسله وعماله ، يؤيدهم فى ذلك ابن خلدون الذى يقول ان الفونش « أخذ طليطلة صلحا عام ٤٧٨ هـ ، ثم سار فى بلاد الأندلس حتى وصل بفرقته المجاز من طريف » (١٦٩) .

---

(١٦٦) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١١٩ ، ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٥٢ .

(١٦٧) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(١٦٨) ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٥٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

الحلل الموشية ، ص ٢٢ ، ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ص ١٨٦ .

وغنى عن البيان ان هذه المصادر — ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) وابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) وابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) والحميرى (عاش فى القرن التاسع الهجرى) ، أقرب الى الأحداث بكثير من المقرى (ت ١٠٤١ هـ) والسلاوى (ت ١٣١٥ هـ) كما انها أجدر بالثقة وأدعى للاطمئنان بدرجة كبيرة ، اذ أن ابن الخطيب ينقل عن مؤرخ معاصر هو ابن حيان ، بينما المقرى ينقل عن مؤلف مغمور لا يعتد به ، فضلا عن أن المقرى نفسه يتفق مع مصادرنا فى التسلسل التاريخى للأحداث ، ويجعلها تنتهى باستدعاء المرابطين ، ويتفق معنا السلاوى أيضا فى أن الفونش بعد وصوله الى طريف ارتد وحاصر سرقسطة « وأراد أن يقدمها بالفتح على غيرها » وهذا بالطبع لم يحدث الا بعد سقوط طليطلة (١٧٠) .

على أية حال فقد كان سقوط طليطلة وما تبعها من حملة الفونش السادس التى اخترق بها الأندلس من شمالها الى أقصى جنوبها من الكوارث الخطيرة التى جعلت ملوك الطوائف يعيدون حساباتهم ، وعند الشعور بالخطر تقاربت أهواؤهم واتحدت مصلحتهم فى استدعاء المرابطين . صحيح أن بعضهم رفض ذلك بدعوى خوفهم على ملكهم من المرابطين ، لكن ابن عباد حسم الموقف بقوله لهم « رعى الجمال عند ابن تاشفين خير من رعى الخنازير فى قشتالة » . ولم تكن فكرة الاستعانة بالمرابطين وليدة ذلك اليوم ، بل كانت سابقة على ذلك بعدة أعوام ، لكنها لم تأخذ الطابع الرسمى الا عندما اتفق ملوك الأندلس وأرسلوا سفارتهم الى ابن تاشفين ، وعلى رأسها أبو بكر عبيد الله بن أدهم قاضى قرطبة ، وأبو اسحاق بن بقانة قاضى بطليوس وأبو جعفر القليعى قاضى غرناطة ، وأبو بكر بن زيدون وزير المعتمد (١٧١) .

وما حدث بعد ذلك من عبور ابن تاشفين الى الأندلس فى ربيع الأول عام (٤٧٩ هـ يونية ١٠٨٦ م) ، ثم زحفه الى أشبيليه ، ثم تجمع القوات

---

(١٦٩) المقرى ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٧٠ ، السلاوى ، المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

(١٧٠) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، جـ ٦ ، ص ١١٤ ، ابن الأثير ، المصدر نفسه ، جـ ١٠ ، ص ٥٦ .

ابن الأبار ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، جـ ٢ ، ص ٤٢٥ .

الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ ، ٨٦ .

الأندلسية فى الزلاقة من أعمال بطليوس وملاقاتها لجيش ألفونش الذى ضم كثيرا من الجند الفرنسيين وغيرهم بالاضافة الى جنود قشتالة وليون ونبرة وبرشلونة ، ثم قيام المعركة فى ١٢ رجب عام ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م وانتهائها بذلك الانتصار الساحق للقوات المتحدة من الأندلسيين والمرابطين ، وفرار ألفونش الى طليطلة مع حوالى خمسمائة من فرسانه . كل ذلك معروف وتذخر به كتب التاريخ وما يعنينا هنا هو مناقشة بعض القضايا التى تتعلق بهذه المعركة الفاصلة فى تاريخ الصراع بين الاسلام والنصرانية فى شبه الجزيرة (١٧٢) .

وأول هذه القضايا أن المعتمد وغيره من ملوك الطوائف لم يكونوا باستدعائهم للمرابطين يتبنون القضية الاسلامية ، أو يتبعون سياسة اسلامية ، وانما كانت تدفعهم مصالحهم الشخصية وخوفهم على عروشهم من الزوال ، بالرغم مما اثاره استدعاء المرابطين من فورة دينية على كلا الجانبين الاسلامى والمسيحى . فقد كان طابع الحرب صليبيا بالنسبة للمسيحيين وكانت حرب جهاد مقدس من جانب المسلمين ، واستغل ملوك الطوائف تلك الفورة الدينية لمصلحتهم فاستدعوا المرابطين ، ولما تناقض ذلك مع آمالهم وخططهم ، انقلبوا على المرابطين ووضعوا يدهم مرة أخرى فى يد نصارى الشمال (١٧٣) .

فهذا هو الأمير عبد الله بن بلقين وصاحب غرناطة وأحد المعاصرين والمشتركين فى الأحداث نفسها ، يقول فى مذكراته « وجرت بين المعتمد

---

(١٧١) من استدعاء المرابطين وعبرهم وموقعة الزلاقة بتفاصيلها ، أنظر ، ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٠١ ، ١٠٦ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء فى اخبار الخلفاء ، ص ٨٩ – ٩٥ .

ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٩٩ – ١٠١ .

ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ١١٨ – ١٢٠ ، جـ ٦ ، ص ١١٢ – ١٢١ .

ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٣٢ – ٤٦ ، أعمال الاعلام ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ – ٢٤٧ .

الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨٥ ، ٩٤ .

المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٢٣ – ٥٣٢ .

Dozy, A History of the Moslems in Spain, pp. 694 - 608

Murphy, Mohamedan Empire, pp. 125 - 139.

(١٧٢) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٢ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

والفونش (الفونسو) محالفات كثيرة ، وسأله أن يتخلى له عن معاقل كان الموت عنده أولى به من اعطائها ، فوجست (خافت) نفسه منه بالجملة ، ورام كسره بطـوائف المرابطين وضرب بعضـهم ببعض » . كانت هذه استراتيجية المعتمد بن عباد وهى أن يضرب المسلمين بالنصـارى ويخوف هؤلاء بأولئك حتى يبقى له عرشه (١٧٤) .

وقد أعطى المعتمد لاستدعائه المرابطين صفة الغيرة على الدين وعلى المسلمين ، حينما أرسل لألفونش رسالة يندم على التفريط فى حق اخوانه من أهل طليطلة ومساعدته له فى أخذ بلدهم ، لكن دخيلة نفسه تنكشف تماما بعد أن عاد للتحالف مع الفونش عندما راى أن المرابطين بداوا فى خلع ملوك الطوائف ، وبرر فعلته تلك بقوله « اضطرتنى الضرورة الى ذلك للمدافعة (عن نفسى وبلدى) ولو يوما واحدا » (١٧٥) .

اذن فيم كان قوله « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » انها المصلحة الشخصية لا غير ، وتؤكد لنا بعض الروايات بأن رسوله الى ابن تاشفين مانع فى اعطائه الجزيرة الخضراء لتكون قاعدة للجيوش والمرابطين ، وحتى بعد ان وافق على اعطائها أمسك رسل ابن تاشفين عنـده فى أشبيلية مدة طويلة ، ثم أطلقهم وأرسل معهم رسالة يطلب فيها من ابن تاشفين التعهد بعدم الجواز الى الأندلس الا بعد مرور ثلاثين يوما حتى يتمكنوا من اخـلاء الجزيرة الخضراء له ، لكن هذه الحيلة لم تفت على ابن تاشفين الذى فهم أن المعتمد يريد أن يلعب على الحبلين ، فيخبر الفونش بقـدوم المرابطين ويرغبه باعطاء الجزية ومحالفته على عدم الاعتداء على مملكته ، واذا لم يتمكن من ذلك سمح للمرابطين بالجواز (١٧٦) .

ولذلك أسرع ابن تاشفين وأرسل بعضا من جنده فى الحال اثر عودة رسل ابن عباد ، واحتلوا اجزاء من الجزيرة الخضراء لوضع ابن عباد امام الأمر الواقع . ذلك ان ملوك الطـوائف كانوا يكرهون نزول المرابطـين بجزيرتهم ، ولم يكن هناك اجماع على استدعائهم ، لكنهم كرهوا ان يكونوا بين عدوين ، النصارى من شمالهم والمرابطون من جنوبهم، ولما كان لاسم

---

(١٧٣) ابن بلقين ، منكراته ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(١٧٤) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٢٥ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، ٨٦ ،

ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .

(١٧٦) ابن بلقين ، منكراته ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

ابن تاشفين دوى يلقى الرعب فى قلوب الأعداء فقد اراد ملوك الطوائف ان يرهبوا ملوك النصارى باظهار موالاتهم لملك المغرب يوسف بن تاشفين(١٧٧) .

ولما تأكد لهم أن ابن تاشفين ينوى نزول الجزيرة لمدافعة النصارى استجابة للنداءات المتكرة من الفقهاء والادباء والوفود الاهلية المتكررة التى كانت تذهب اليه باكية مستصرخة ، اجتمعوا الى زعيمهم ابن عباد وفوضوه فى مكاتبة ابن تاشفين يسألونه الابقاء عليهم ، على أن يكونوا تحت طاعته ، وقد احتفظ لنا ابن خلكان برسالة من المعتمد بهذا المعنى واحتفظ لنا أيضا برد ابن‌تاشفين ، وفيه طمأنهم بأنه حافظ لعروشهم ومبقيهم على بلادهم ، فأحبوه وعظموه وقرت أنفسهم ورأوا الوقوف معه ضد الفونش(١٧٨) .

هنا لابد أن نذكر أيضا أن ابن تاشفين مع تقواه وتدينه وحبه للجهاد ودفاعه عن المسلمين ، لم يكن أيضا هو الاخر خاليا من الاطماع الشخصية فى ملك الاندلس ، وهناك موقفان يدلان على ذلك ، أما الموقف الأول فيحكيه لنا ابن الكرديوس الذى كان معاصرا للاحداث أو على الأقل سمع ممن عاصرها ، فيقول أنه أثناء المعركة اشتد القتل فى جيوش الأندلس واستبطأ المعتمد وصول قوات المرابطين وبدأ يتراجع هو بقواته ، وتبعهم الفونش قتلا وأسرا مسافة ثمانية عشر ميلا ، وكانت خطة المعركةمرسومة على أساس أن الجيش الأندلسى فى المقدمة وأن الجيش المرابطى يتبعه بمسافة قليلة على شكل كمائن متفرقة بحيث ينقض على العدو فى الوقت المناسب(١٧٩) .

ولما بدت هزيمة الجيش الأندلسى وأحيط ابن تاشفين بذلك قال : « اتركوهم قليلا للفناء ، فكلا الفريقين من الأعداء » . وهناك من الروايات ما تذكر أن ابن تاشفين كان يتمنى عدم لقاء العدو فى أرض لا يعرمها ،

---

(١٧٧) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، جـ ٦ ، ١١٢ .

(١٧٨) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٦ .

(١٧٩) ابن الكرديوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٤ ، ابن الخطيب ، الحلل ، ص ٤١ .

ووسط اناس لا يعرف فيهم العدو من الصديق . ويبدو أنه كان محقـا فى ذلك بعـد أن رأى فرار ملوك الطوائف من المعركة وهى ما تزال فى بدايتها، عدا ابن عباد الذى صمد والذى اختصه ابن تاشفين فى رسائله بالمـدح والثنـاء(١٨٠) .

هذا هو الموقف الأول ، أما الموقف الثانى فيبرز من خـلال الخـلاف الذى نشب بين المعتمد وابن تاشفين غداة احراز النصر على الفونش فى الزلاقة ، فقـد رأى المعتمد ضرورة مطاردة الأعداء وملاحقتهم حتى ينقطع دابرهم ، لكن ابن تاشفين رفض ذلك متعللا بالخـوف على الذين انهزموا من المسلمين فى بداية المعركة ، فربما قام الفونش بالقضاء عليهم اذا رأى مطاردة المرابطين له ، وهو تعليل لا يحمل طابع الجدية ، وقـد فنـده المعتمد وقال له ان هؤلاء المنهزمين لن يعجزوا أمام الفونش الذى فـر فى شرذمة قليلة العـدد ، لكن يوسف أصر على موقفه ، وساعده على ذلك وصول نبأ موت ابنه الأكبر الذى كان قد تركه فى حكم المغرب أثنـاء غيـابه ، فأعلن العودة الى بلاده فورا(١٨١) .

وقـد تحدث المعاصرون وفنـدوا هذا الخـلاف الـذى نشب بين القـائدين : ابن تاشفين وابن عباد ، فقـال أنصار ابن عباد أن يوسف كان يعرف أن ابن عباد كان على حق ، لكنه « خاف أن يهلك العدو الذى من أجله استدعاه ، فيحـدث الاستغناء عنه » ، وقال أنصار يوسف « أن ابن عباد أراد أن يقطع حبـال يوسف من العودة الى جزيرة الأندلس » . وقال فريق ثالث أن الرجلين كانا غير مخلصين كل للآخـر ، وان كـان ابن عباد أحرى بالصواب » . (١٨٢)

وهذان الموقفـان يوضحان تماما أهداف ملوك الطـوائف وأهـداف المرابطين من تلك الحرب التى أضرموها مع نصارى أسبانيا وغيرهم من

---

(١٨٠) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٤ ، ابن بلقين ، مذكراته ، ص ١٠٥ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(١٨١) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٩٣ ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

(١٨٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩٣ ، أشباخ المرجع نفسه ، ص ٩٢ .

نصارى فرنسا والبابوية . وفى الحقيقة فان يوسف بن تاشفين لم يفعل مثلا مثلما فعل طارق بن زياد وموسى بن نصير اللذان لم يكفا عن القتال حتى أجهزا على قوة القوط ، بل ان طارق بن زياد بعد أن هزمهم فى موقعة وادى لكة (شريش) ، لم ينتظر وصول تعليمات من قائده الاعلى موسى ابن نصير ، فواصل الزحف حتى وقعت العاصمة طليطلة فى قبضته معرضا نفسه لعقاب موسى وتأنيبه .

وربما فعل ابن تاشفين مثلما فعل شارل مارتل فى موقعة بلاط الشهداء (١١٤هـ) التى هزم فيها المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقى . ورغم هزيمة المسلمين فى هذه المعركة ومقتل قائدهم فيها ، الا أن شارل لم يطاردهم واكتفى بما أحرزه من نصر وبما أصابه من الغنائم والأسلاب. ويأتى الشبه بين بلاط الشهداء وبين الزلاقة من ناحية أخرى ، فقد اتبع كل من شارل ويوسف تقريبا أسلوبا أو خطة مشابهة عادت بالنصر على كليهما ذلك أن كلا منهما كان منهزما فى البداية ، وان كانت الهزيمة فى حالة يوسف تعود على الأندلسيين وليس المرابطين . لكن شارل ويوسف فاجأ العدو من الخلف بالاغارة على معسكره ومؤنه وذخائره ، وبالضرورة فلا بد أن يرتد الجيش المهاجم ويسارع بانقاذ معسكره ومؤنه وهنا يقع بين جيوش الأعداء من أمام ومن خلف ، فتصيبه الهزيمة لا محالة .

ولذلك فان نتيجة المعركتين تكاد تكون متشابهة ، فلم يتمكن شارل وكذلك يوسف من القضاء على خصمه قضاء تاما . اذ أن المسلمين ما لبثوا أن عادوا الى الانتقاض على جنوب فرنسا ولم يكن قد مر عامان على هزيمتهم فى بلاط الشهداء . وكذلك فعل الفونش السادس فلم يكد يمر عامان أيضا حتى كان قد استرد أنفاسه ونظم جيوشه وبدأ يشن الغارات على المسلمين من جديد ، ويستلم منهم الجزية بل ويفرض عليهم وعلى المرابطين مجتمعين الانسحاب من أمام حصن صغير ، مقرين بالعجز والفشل أمامه ، وهو حصن لييط عام ٤٨١هـ .

وتأتى المشابهة بين المعركتين من ناحية أخرى ، ذلك أن المسلمين فى بلاط الشهداء ، والنصارى فى الزلاقة ، قد نقلا المعركة الى أرض الأعداء

وقد رأى الفونش السادس أن تكون المعركة بعيدة عن بلاده ، فاذا هزم لا تتعرض بلاده للتخريب والتدمير وانما يكتفى أعداؤه بما ينالوه من أسلاب المعركة وغنائمها ، واذا انتصر تكون الفرصة متاحة أمامه لتخريب بلادهم وفرض شروطه عليهم(١٨٣) .

وكان ذلك أيضا يناسب ظروف المرابطين الذين لا يعرفون الارض التى يحاربون عليها ، ولا يدرون من أمر دروبها ومسالكها وأنهارها شيئا . ولذلك اطمأنوا الى قربهم من بطليوس التى كانت حماية لظهرهم ، ويمكن أن يلجئوا اليها والى حصونها اذا ما نالتهم الهزيمة . وتقول بعض الروايات « بأن المعتمد كان يبث عيونه بين الصحراويين (المرابطين) خوفا عليهم من مكائد الفونش ، اذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وكان يتولى ذلك بنفسه » . (١٨٤) .

واذا كانت الخطة التى رسمها ابن تاشفين والمعتمد جلبت النصر ، فهناك شجاعة المعتمد وجنده ، وشجاعة المرابطين وصبرهم ، حتى أنهم كانوا يطلبون الموت والشهادة كما يقول بعض المؤرخين . وكان هناك ذكاء المعتمد وعدم انخداعه بحيلة الفونش ودهائه عندما اتفق على ميعاد محدد للمعركة ثم قام بالهجوم فى غير وقته ، فكان المعتمد مستعدا للقائه ودافع دفاع الابطال حتى أثخن بالجراح ، ولم يتقهقر الا نتيجة للخطة التى رسمها يوسف ، وتقضى بجر الاعداء داخل بلاد المسلمين مسافة كافية فيتمكن من الاجهاز عليهم جميعا(١٨٥) .

وهناك السلاح الجديد الذى ظنه الفونش منجلا ، وهو عبارة عن خناجر متوسطة لم يعهدها الأسبان من قبل ، وقد تمكن أحد المرابطين من اللحاق بألفونش وضربه بهذا السلاح الذى كانوا يسمونه « الأطاس » ضربة جعلته يعرج باقى عمره . وكان هناك أيضا ذلك الطبل

---

(١٨٣) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

(١٨٤) الحميرى ، المصدر نفسه ، ٩٠ ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٤ . ابن بلقين ، مذكراته ، ص ١٠٥ .

(١٨٥) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٩٠ ، ٩١ .

المدوى الذى فجع الأسبان وفاجأهم من خلف ظهورهم ، وكان المرابطون قد صحبوا معهم عددا وفيرا من الجمـال التى لم يكن للجزيرة بهـا عهد من قبل ، فكـانت الخيل تفر من رؤيتها ، هذا علاوة على الدروع اللمطية وسيوف الهنـد ومزاريق الزان ، التى كانت فى أيدى المرابطين ، والتى كانت ذات شهرة واسعة كسلاح ذى قيمة كبيرة فى حروب ذلك الوقت(١٨٦) .

ويذكر لنـا ابن بلقين المشارك فى المعركة سببا آخر للنصر ، وهو أن جنود الفونش بعـد أن طاردوا الجيش الأندلسى فى بداية المعركة ، انشغلوا بالاستحواذ على الغنـائم والأسلاب ، وظنوا أن ابن تاشفين من جملة المنهزمين ، واذا بهم يسمعون طبول المرابطين تدوى بعنف من خلفهم ، فاستداروا لملاقاتهم ، وعاد ابن عباد ومن معه وهاجموهم من خلف ، فكثر القتـل فى النصارى ولم ينقذهم الا حلول الظـلام ، ووقعت عليهم الهزيمة رغم تفوقهم فى العدد على جيوش المسلمين(١٨٧) .

وهكذا كسب المسلمون الجولة فى هذه المعركة الفاصلة التى غيرت من مجرى التـاريخ الأندلسى والنصرانى فى شبه الجزيرة لفترة طويلـة وحققوا نصرا أعاد أمجـاد عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبى عامر ، ويكفى أن تلك المعركة قـد أعادت الثقة والأمل الذى كاد يخبو فى نفوس الشـعب الأندلسى ، وأعادت اليه الحماس الدينى الذى كاد يقضى عليه ملوك الطوائف بسياستهم الخرقاء ، وأعفت هؤلاء الملوك من المذلة والخضوع لنصـارى الشمال وعدم دفع الجزية لهم . كمـا أن تلك المعركة قـد ردت سـيل النصرانية الجـارف أو أوقفته فى مكـانه ، وكتبت الحياة للاسلام على أرض شبه الجزيرة لمـدة أربعـة قرون أخرى وتمخضت عن نتيجة هامة ، وهى التمهيـد لضم الأندلس الى المغرب وتحقيق الوحـدة بين الدولتين الاسلاميتين العظيمتين فى ظل دولة المرابطين الكبرى(١٨٨) .

---

(١٨٦) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٥ ــ ١١٧ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٤٣ .

(١٨٧) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٧ .

(١٨٨) عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٣٢ .

استغل المعتمد الضعف الذى أصاب الفونش عقب الزلاقة وزحف فى قوة كبيرة من الفرسان على ولاية طليطلة ، واستولى على ولاية طليطلة ، واستولى على عدة مدن ، من بينها أقليش وقونقة ونبرة وغيرها ثم قفز الى أرض مرسية حيث كان السيد القمبيطور يهاجمها ، ومنى المعتمد بهزيمة ساحقة ، وتراجع الى لورقة واحتمى بقلعتها ، وغادرها الى قرطبة ثم الى اشبيلية تاركا مرسية لمصيرها ، وكان حصن لييط (اليدو) الذى سبق الحديث عنه ، شوكة فى جنب الامارات الاسلامية فى الجنوب الشرقى من الأندلس وقد شحنه الفونس من قبل بالخيول والفرسان الذين كانوا لا يتوانون عن مهاجمة مرسية ولورقة ويابسة وأوريولة(١٨٩) .

وكان الفونش قد استطاع أن يلم شعث جيشه بسرعة كبيرة ، ووفد عليه سيل من الفرسان والمحاربين الفرنسيين والنومانيين الذين كانوا يدركون أبعاد المعركة الصليبية التى تجرى على الارض ضد الاسلام ، ولم يمض عام حتى كان ملك قشتالة قد استعد لمحاربة أعدائه ، وتؤكد الرواية النصرانية أنه خرج لغزو المسلمين مرة أخرى عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، وأنه فى غزوته وصل الى قرب أشبيلية ، بينما قامت قوات حصن لييط بمؤازرة بعض الجنود القشتاليين وأغارت على المناطق المجاورة حتى المرية، التى فر جنودها الأربعمائة جبنا أمام ثمانين فارسا نصرانيا(١٩٠) .

وعاد ملوك الطوائف الى التنافس والانقسام واضطروا للاستنجاد بالمرابطين مرة أخرى ، فعبر اليهم يوسف للمرة الثانية وحاصر معهم حصن لييط لكنهم فشلوا فى فتحه بسبب أحقادهم وتآمرهم ضد بعضهم البعض ، وخيانة بعضهم بامدادهم نصارى الحصن بالمؤمن ، مما أطال أمد الحصار، وأعطى الفرصة لألفونش لكى يقوم وينقذه ، ولما عرف أمير المسلمين ابن تاشفين بكل ذلك ولمسه بنفسه ، رفع الحصار عن الحصن وعاد الى بلاده ، وقد استقر فى نفسه ضرورة خلع هؤلاء الملوك عن عروشهم(١٩١) .

---

(١٨٩) ابن خلكان ، قلائد العقبان ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

(١٩٠) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٩٣ ، انظر الفصل نفسه ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ .

(١٩١) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٢٣ ، السلاوى ، الاستقصاء ، ج ٢ ، ص ١١٩ .

ولما أحس منه ملوك الطوائف بذلك ألقوا بأيديهم الى الفونش وحالفوه ضد المرابطين فصمم ابن تاشفين على القضاء عليهم وعبرت الجيوش المرابطية اليهم للمرة الثالثة عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، حيث أخذت فى انزالهم عن عروشهم واحدا بعد الآخر ، وكانت نهاية دولة بنى عباد فى رجب عام ٤٨٤هـ ، حيث تم اعتقال المعتمد بن عباد آخر ملوكهم وارساله هو وأسرته الى اغمات بالمغرب ، لكى يموت هناك فى ذل وفاقه لم تجر على أحد غيره من ملوك الطوائيف[١٩٢] .

ولكن لا يغيب عن الذهن أن ملوك الطوائف لم يقض عليهم المرابطون جميعا فى ذلك العام وانما بقى بعضهم وخاصة فى شرقى الأندلس ، ولم يتم القضاء عليهم جميا الا قرب نهاية القرن الخامس الهجرى ، وقد تناولنا علاقاتهم مع نصارى الشمال حتى سقوطهم فى يد المرابطين . ولم تكن حروب الأندلس والمرابطين ضد هؤلاء النصارى منذ الزلاقة وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، الا اعادة للتوازن السياسى والعسكرى على أرض شبه الجزيرة ، ذلك التوازن الذى كان قد اختل بدرجة كبيرة منذ بداية ذلك القرن وحتى عام الزلاقة (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) .

ذلك أن أيا من القوتين لم تستطع القضاء على الاخرى ، ولذلك فقد استمر الصراع بينهما بعد ذلك وطال حتى سقط الاسلام صريعا أمام ضربات النصرانية المتتالية الدائبة فى صبر وثبات . تلك الضربات التى امتدت منذ موقعة كوفا دونجا التى حقق فيها نصارى الاسبان أول نصر لهم على مسلمى الأندلس فى عام ١٣٣هـ / ٧٥٠م ، والتى استمرت حتى هزيمة المسلمين فى آخر معركة لهم مع نصارى الاسبان فى عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٣م ، واستطاع النصارى أن يحققوا هدفهم فى استرداد بلادهم من أيدى المسلمين وأن يختتموا الحروب الصليبية الاسبانية بهذا النصر المبين ، رغم الكفاح والعناء الذى كابده المسلمون هناك طوال هذه القرون .

---

(١٩٢) الضبى ، المصدر نفسه ص ٣٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ٧٠ .
ابن أبى دينار ، المونس ص ١٠٥ ، ابن خلكان ، المصدر نفسه ، جـ ٦ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

الباب الرابع

أهم التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف

- العوامل التى أدت الى التأثير الحضارى بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية
- قنوات وأساليب التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانيــة ٠
- مظاهر التأثيرات الحضارية فى ميدان الحياة الاجتماعية
- مظــاهر التأثيرات الحضارية فى ميدان الحيــاة الثقافية ٠
- مظــاهر التأثيرات الحضارية فى ميدان الحياة الاقتصادية ٠

الباب الرابع

أهم التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف

١ ــ العوامل التى أدت الى التأثيرات الحضارية بين الأندلس وبين أسبانيا النصرانية :

لم يكد العرب يتمون فتح أسبانيا حتى بدأوا يقومون برسالتهم المعهودة فى بناء مجتمع جديد ، واستطاعوا فى أقل من قرن أن يقيموا دولة فتية ، وأن ينشئوا المدن والقرى ، ويقيموا أفخم المبانى ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالدول الأخرى ، ثم شرعوا يتنافسون فى تحصيل العلوم والآداب ، وفى نقل كتب اليونان والرومان الى اللغة العربية ، وينشئون المدارس والجامعات التى كانت وحدها مصدر للثقافة فى أوروبا كلها[١] .

كانت قرطبة فى ذلك العهد تجلس على عرش الحضارة فى أوربا كأكبر واغنى مدينة ، كانت شوراعها الرئيسية مضاءة ومعبدة ، وكان فيها كثير من الحمامات العامة ، وكانت المياه تجلب اليها من الجبال خلال أنابيب الرصاص . أما منازلها فكانت جميلة ، ومساجدها كثيرة رائعة ، ولا يوجد فى أوربا كلها مدينة تقارن بها الا القسطنطينية ذاتها .. كانت قرطبة هى الملاذ لملوك أسبانيا النصرانية ونبلائها وأمرائها ، اذا ما عن لهم الاستشفاء من مرض خطير ، أو أرادوا اجراء عمليات جراحية صعبة[٢] .

---

(١) عوستان لوبون ، حضارة العرب ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .
Crow, Spain, the root and the flower, p. 56.

(٢) حتى ، تاريخ العرب (المطول) ، جـ ١٢ ص ٦٢٧ ، رينو ، تاريخ غزوات العرب .

وقــد وفدالى بها شانجة ملك ليون عام ٣٤٩هـ / ٩٦٠ م طالبا الاستشفاء على يد أطبائها ، كمــا وفــد اليها الراهب جلبرت الذى أصبح فيما بعــد البابا سلفستر الثانى يطلب تعلم العلوم الطبيعية والرياضية ، فبلغ فيهمــا مبلغــا خيل لعـــامة رومة أن ذلك ضرب من السحر ، وعلى الجملة فكلما احتـــاج أحــد ملوك ليون أو نبرة أو برشلونة جراحا أو مهندسا أو مغنيا أو خياطا أو بنـــاء وجهوا طلبهم الى قرطبة عاصمة الحضارة فى شــبه الجزيرة ، وهكذا وجه شانجه (سانشو) الكبير ملك نبرة (٣٩١ ــ ٤٢٦هـ ١٠٠٠ ــ ١٠٣٥م) رسله الى قرطبة لجلب بعض علماء المسلمين لتعليم ابنه وولى عهــده ، فأرسلت له قرطبة اثنين من علمائها قاما على تربيته وتهذيبه[٣]

كان هذا فى الوقت الذى كانت تعيش فيه أسبانيا النصرانية ، بــل أوربا كلهــا فى جو قروى فقير ، غارقة فى حمأة الجهل وخشونة الحياة والأخــلاق ، ولم يكن بهــا شىء من آثار المدنية الا ما بقى من الامبراطورية الرومانية من أطيـــاف فى القسطنطينية وبعض أجزاء ايطاليا[٤] .

كان نصارى الشمال الأسبانى جفـــاة غير مثقفين ، وقليل من أمرائهم من كان له حظ من العلم ، وكانوا من الفقــر وعسر الحـــال بحيث أنهم كانوا أعجز من أن يتمتعوا بفنـــون الرفاهية التى يتمتع بهــا العرب . وفى الوقت الذى كان المسلمون يعتبرون فيه النظافة من الايمان ، وشرطا لازما لأداء الصلوات والعبادات ، كان مسيحيو الأسبان فى الشمال ينهون عن النظـــافة ويعدونها من أعمال الوثنيين ، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذارتهم حتى أن راهبة دونت فى مذكراتها فى صلف وتيه ، أنها الى ســن الستين لم يمس المـــاء منها الا أناملها عنــدما كانت تغمسها فى مــاء الكنيسة المقــدس ، وحينما عادت الأندلس الى الحكم المسيحى ، كان أول ما فعله أحــد ملوكهــا أن أصدر الأوامر بهــدم كل الحمامات العـــامة لأنهــا من آثار المسلمين[٥] .

---

(٣) فى فرنسا ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٤) لين بول ، قصة العرب فى اسبانيا ، ص ١١٦ ، امليو غرسية غومس ، الشعر الاندلسى ، ص ٣٦ .

(٥) لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٩٩ ، ١٢٠ ، ١٦٥ .

وبرغم هذا التأخر الحضارى الذى كان يعيشه نصارى شمال أسبانيا الا أنهم كانوا رجال حرب وجلاد ، لا يقل نزوعهم الى القتال عن نزوع أعدائهم المسلمين ، وقد يفوقونهم فى ذلك أحيانا ، وطالما دفعهم الفقر وحفزتهم الحاجة الى خدمة أى انسان من ملوك المسلمين ، وتاريخ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى لأسبانيا ملىء بالوقائع التى حارب فيها جنود النصارى تحت راية المسلمين ، وأشهر مثال على ذلك هو السيد القمبيطور الذى كانت أولى معاركه فى صف المسلمين وضد بنى جلدته من نصارى الأسبان(٦) .

والأسبان كأمة مغلوبة لابد أن يتطلعوا الى الأمة الغالبة ويأخذوا منها ، وخاصة أن تلك الأمة الغالبة كانت أعلى حضارة وأرقى حياة وأكثر تسامحا ممن سبقها من الأمم التى عاشت على أرض شبه الجزيرة الأسبانية ، لا سيما وأن الأسبان النصارى والمسلمين كانوا يعيشون فى الواقع على أرض واحدة ، ولا توجد بينهم حدود طبيعية عازلة أو فاصلة ، وكان الأفراد يتردد كل منهم على الآخر ويتعرف عليه(٧) .

وكانت الخصومة مع العباسيين والفاطميين تجعل الأندلس الاسلامية دائما أقرب الى التفاهم مع نصارى الشمال ، وقد رأينا فى عرضنا للعلاقات بينهم ما يؤكد أن المسلمين لم يكن هدفهم أبدا تدمير هؤلاء أو تحطيمهم ، وانما كان الهدف من غزواتهم لهم هو فرض السلام والهدور على الحدود حتى يعيش الجميع فى أمان وهدوء . وهكذا فان موقع الأندلس وانفصالها عن العالم الاسلامى معظم عصر الأمويين وملوك الطوائف واتصالها بالشعوب المسيحية جعل مجال النقل الحضارى بينهما واسعا (٨) .

ولم تكن شبه الجزيرة الا قطرا اسلاميا نصرانيا يتحالف فيه أمراء مسلمون مع نصارى ، ضد مسلمين أو نصارى آخرين ، كما حدث فى عصر

---

(٦) لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٦٥ .

(٧) ابن خلدون ، مقدمته ، ج ٢ ، ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٨) ليفى بروفنسال ، الشرق الاسلامى ، ص ٣٩ ، ٤٠ ، بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ص ٥٩ .

ملوك الطوائف ، وكانت المحالفات والمصاهرات والسفارات تتم جنبا الى جنب ، فتقوى الوشائج وتدوم المودة ويعم السلام . وحتى فى أوقات الحرب ، لم يكن هناك ما يمنع الاتصال بين الشعبين ، بسبب التجاور والملاصقة والعيش على أرض واحدة ، وبسبب التداخل السياسى والعسكرى والبشرى فى شبه الجزيرة فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى بالذات . ورغم قلة ما أخذته الأندلس عن أسبانيا النصرانية ، الا أن جميع ما ذكرناه يؤيد قيام التأثير الحضارى بينهما [٩] .

وفى هذا المضمار لا بد أن نشير الى أن هناك مؤرخى الأسبان المحدثين ممن ينكرون دور المسلمين الحضارى فى أسبانيا ، بل يرجعون تأخر أسبانيا عن دول أوربا الأخرى فى الوقت الحاضر الى وجود هؤلاء المسلمين أنفسهم على أرض شبه الجزيرة . لكن هذا الزعم يخف تأثيره اذا ما عرفت أن غيرهم من مؤرخى الأسبان أيضا قاموا بالرد على هؤلاء وقالوا ان التعلق بالحياة الاسلامية كان هو الاتجاه الغالب يومئذ فى أسبانيا ، وأن ملوكها كانوا يتوخون العادات العربية ويلبسون الثياب العربية [١٠] .

ويبدو أن هذا التأخر يعود الى نظام المجتمع النصرانى نفسه ، الذى كان قائما على سيطرة الاقطاعيين والتاج والكنيسة على الأراضى ، بينما كانت جماهير الشعب فى منزلة الخدم والعبيد . على أى حال كانت هذه الأوضاع من العوامل الداعية لحدوث ذلك التأثير الحضارى وانتقاله من الجنوب المسلم الى الشمال النصرانى ، لكن ما هى القنوات التى سلكها هذا التأثير ؟ هذا ما سوف نتناوله بالبحث الآن .

---

(٩) بروفنسال ، المرجع نفسه ، ص ٤٠ .
لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٦٤ .
شكيب ارسلان ، الحلل السندسية ، جـ ١ ص ٢٦ .
حسين مؤنس ، تطور العمارة ، ص ٢١٨ ــ ٢٢٢ .

(١٠) بيدال ، أسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والاسلام ، ص ١٦ ، ١٧ ، ترند ، أسبانيا والبرتغال ، ص ٣ ، ٤ .

٢ ـ قنوات التاثيرات الحضارية بين الأندلس وأسبانيا النصرانية :

أهم هذه القنوات هم اليهود والمستعربون والمدجنون والزواج المختلط والتجارة وأسواق الرقيق والحروب ذاتها وما ينتج عنها من الأسرى والرهائن والسبى ، ثم المحالفات السياسية والعسكرية ، ومعاهدات السلام ، واللجوء السياسى ، والمرتزقة .

(أ) أما اليهود فكان نشاطهم مؤثرا وعظيما فى نقل التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية فى جميع مجالات الحياة سواء كانت اجتماعية أم ثقافية أم اقتصادية ، وذلك لأنهم كانوا يجيدون اللغتين العربية واللاتينية ، فكانوا لهذا السبب هم وسيلة من أهم وسائل الاتصال بين الدولتين الاسلامية والنصرانية فى شبه الجزيرة .

كان اليهود تجارا ومترجمين وسفراء ووزراء وحرفيين ، ينقلون التجارة بين الدولتين وخاصة الرقيق ، ويترجمون الكتب الاسلامية العربية الى اللاتينية والعبرية ، وينشرونها فى شمال أسبانيا وأوربا ، نبغ منهم الكثير فى الطب والفلسفة والفلك والكيمياء ، أمثال حسداى بن شبروط طبيب عبد الرحمن الناصر ووزيره وسفيره الى الملكة طوطة ملكة نبرة [١١] .

وفى هذا المجال لا بد أن نشير الى الدور السياسى الذى لعبه اليهود بين الدولة الاسلامية والنصرانية فى الأندلس ، فقد قاموا بدور السفراء والوزراء والمستشارين فى كليهما . وقد سبق القول عن سفارة ابن شاليب اليهودى الذى أوفده الفونش السادس ملك قشتالة وليون الى المعتمد بن عباد ملك اشبيلية لاستلام الجزيرة ، وما نتج عن وقاحته من قتله وقيام النزاع بين الملكين مما أدى الى استدعاء المرابطين وما نتج عن ذلك من آثار غيرت تاريخ شبه الجزيرة كلها [١٢] .

وكان اليهود يعملون فى أسبانيا النصرانية وزراء وسفراء وكتابا وخدما للعسكر ، وفى جميع الحرف من نساجين وناسخين للكتب ، وصاغة ومجلدى كتب ، وخياطين الى غير ذلك من المهن بسبب أن القشتاليين وأهل

---

(١١) انظر ، الفصل الثالث ، الباب الثانى ، ص .

(١٢) انظر ، الفصل الثالث الباب الثالث ، ص .

الشمال بصفة عامة كانوا يأنفون من الأعمال اليدوية ، ويسعون لأن يكونوا جندا أو حكاما فقط ، أما فى الأندلس الاسلامية فقد كان حال اليهود أحسن ونفوذهم أوسع وثروتهم أكبر من ذلك بكثير (١٣) .

ذلك أنهم وصلوا الى منصب الوزارة والكتابة فى كثير من دول الطوائف ، فقد كان وزير المعتصم صاحب ألمرية يهوديا ، وكذلك بنو هود أصحاب سرقسطة وبنو رزين أصحاب السهلة (شنتمرية الشرق) يستعينون باليهود فى مناصب الوزارة . أما فى غرناطة فقد تمتع اليهود فيها بنفوذ كبير ، فقد كان رئيس الوزراء أو الحاجب هو اسماعيل بن نغزالة اليهودى الذى استمر فى هذا المنصب طوال عهد دولة بنى زيرى فى غرناطة تقريبا (١٤) .

وقد سبق القول عن الأسباب التى دعت حكام المسلمين للاستعانة بهذا العنصر ، وكانت الاستعانة بهم منذ الفتح ذاته اذ اتخذهم المسلمون حراسا للمدن التى يتم فتحها ، ووثقوا فيهم ثقة مطلقة لأنهم أعانوهم على الفتح وساعدوهم عليه ، بسبب ما تعرضوا له من اضطهاد على أيدى الدولة البائدة (القوط) . لكن عند ما انقلب ميزان القوى لصالح نصارى الشمال فى القرن الخامس الهجرى ، نراهم ينحازون اليهم ضد المسلمين ويساعدونهم على استعادة البلاد . ولا ندرى لذلك سببا ، اللهم الا الخيانة التى تجرى فى عروقهم ، والا جريا وراء المصالح التى رأوا أنها تتحقق مع المنتصرين الأقوياء من حكام شمال أسبانيا (١٥) .

كان اليهود يصاحبون جيوش نبرة وقشتالة وليون تجارا ، يبيعون ويشترون فيما تصل اليه يد الجند من مغانم الحرب وأسلابها ، وما أكثرها فى ذلك الحين ، خصوصا وأن الحرب كانت لا تكاد تنقطع بين المسلمين بعضهم وبعض ، وبينهم وبين النصارى منذ الفتح وحتى نهاية القرون الخامس الهجرى الا لفترات قليلة ، وكانت لهم مدن أو مراكز تجارية يتمركزون فيها ،

---

(١٣) المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٤ .

Crow, op; cit, p. 111.

(١٤) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٣٣ ، ٣٢ .

ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب جـ ٢ ، ص ٤٤١ ، ٤٤٤ .

الضبى ، بغية الملتمس ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(١٥) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٥٢٣ ، ٥٢٦ .

ففى الشرق وعلى ساحل البحر المتوسط كانت مدينة طركونة مدينة اليهود ، وفى الجنوب كانت مدينة غرناطة أيضـا مدينة اليهود بسبب كثرتهم فيها ، وهناك مدينة اليسانة التى كان يشكل اليهود غالبية سكانها وكانوا من أغنى يهود شبه الجزيرة (١٦) .

وبسبب نفوذهم وكثرة ثروتهم وخيانتهم للمسلمين فى نفس الوقت ، قامت بعض الانتفاضات ضدهم فى أشبيلية ، لكن المعتمد بن عباد تمكن من اخمادها على الفور ، وفى غرناطة قامت مذبحة هلك فيها منهم الآلاف وتم قتل زعيمهم اسماعيل بن نغرالة اليهودى ، وفر ابنه يوسف الى افريقية ومن هناك أرسل شعرا لا يدل الا على العداء والكراهية المتأصلة فى نفوس اليهود ضد المسلمين والمسيحيين على السواء (١٧) .

ورغم ذلك فقد أدى اليهود دورهم فى نقـل التأثيرات الحضارية بين مسلمى الأندلس ونصارى شمال أسبانيا ، وكانوا حلقة من حلقات الاتصال بين الجانبين ، اذ كانوا كثيرى التنقل بينهما بحجة الأعمال ، وكانوا كثـيرا ما يتجاوزون شمال أسبانيا الى فرنسا ، حيث كان يجذبهم هنـاك وجود طوائف يهودية كبيرة فى مقاطعتى اللانجدوك والبروفانس (١٨) .

(ب) ولقد لعب النصـارى المعاهدون أو ما أطلق عليهم فيما بعـد المستعربون (١٩) دورا مشابها لدور اليهود ، وان كان هذا الدور لم يظهر الا ابتداء من القرن الخامس الهجرى ، حيث نشطت حركة الاسترداد نشاطا كبيرا ، واستطاع ملوك قشتالة ونبرة وأرغونة وقطلونية أن يستردوا عددا كبيرا من الحصون والمدن الاسلامية ، مثل طلمنكة وطليطلة ومجريط (مدريد) ووشقة ، وجميع مدن الثغر الأوسط مثل مدينة سالم ووادى الحجارة وسمورة وغيرها . وكانت هناك أقلية كبيرة العـدد فى تلك المدن من النصـارى

---

(١٦) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٣٢ ، الادريسى ، صفة المغرب ، ص ٢٩١ ، ٢٠٥ ، حيدر بامات ، مجالى الاسلام ، ص ٢٩٧ .

(١٧) ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ١١٥ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٠٨ .

(١٨) ليفى بروفنسال ، تراث الاندلس ، ص ٦٢٢ .

(١٩) المستعربون هم نصارى الاسبان الذين أقاموا فى دولة الاندلس الاسلامية وتعلموا لغة العرب وقلدوهم فى اسلوب معيشتهم فاستعربوا لسانا وأسلوب حياة .

المعاهدين (المستعربين) ، فكانوا بذلك حلقة من حلقات الاتصال ووسيلة لنقل الحضارة الأندلسية الى دول شمال أسبانيا النصرانية .

وقد سبق الحديث عن المعاملة الطيبة التى لاقاها نصارى الأندلس من الحكام المسلمين ، لذلك أقبل مسيحيو البلاد على مناصرتهم والعيش معهم فى هدوء ، واستعربوا لسانا وأسلوب حياة ، عدا ما قام به بعض متعصبيهم أحيانا من فتن دينية وطائفية ، كما حدث أيام عبد الرحمن الأوسط من فتنة يولوجيوس . وفى نفس الوقت حرص نصارى الأندلس أو المستعربون حرصا شديدا على استمرار علاقاتهم مع اخوانهم فى الشمال ، وساعدوهم أثناء حكم ملوك الطوائف بدرجة متزايدة فى حروب الاسترداد ، ولذلك كان ملوك الشمال يأخذونهم معهم عند ما يعودون من غزواتهم ، لا لأن بقاءهم فى الأراضى الاسلامية كان يؤدى الى معاملتهم بطريقة فظة كما يقول (تشابمان) ، ولكن لأن ملوك الشمال كانوا فى حاجة الى تعمير المدن المستردة بمزيد من النصارى ، سواء من أسبانيا النصرانية أم من الأندلس الاسلامية (٢٠) .

وقد سبقت الاشارة الى استعانة أمراء بنى أمية وخلفائهم ومن أتى بعدهم من ملوك الطوائف بنصارى المعاهدين (المستعربين) فى المناصب الادارية والجيش ووظائف القصر والبلاط ، بل انهم استخدموهم كسفراء منذ عصر مبكر وعقب الفتح بحوالى عشرين عاما فقط ، وهناك رواية تقول بأن علقمة عند ما قام بغزو جليقية وأشتريس ووصل الى كوفادونجا ، وهو الكهف الذى اتخذه الأشتوريون مأوى لهم بقيادة زعيمهم بلاى ، أرسل أحد القساوسة الى هذا الزعيم كى ينصحه بعدم جدوى المقاومة . كذلك كانت سفارة عبد الرحمن الثانى والثالث والحكم المستنصر الى شمال أسبانيا وبقية دول أوربا تتكون من نصارى الأندلس المعاهدين (٢١) .

وأبرز مثال يمكن أن نضربه على ذلك هو المستعرب ششنندو دافيدس Sisnando Davides الذى كان من وزراء المعتضد بن عباد صاحب أشبيلية ، وكان قد أسر حدثا فى غارة قام بها القاضى ابن عباد والد المعتضد فى منطقة قلمرية عام ٤٢٠ هـ ، ثم أخذه الى أشبيلية وربى مع فتيان القصر ، ولما برزت مواهبه نال ثقة المعتضد ، وجعله ضمن وزرائه أو معاونيه ،

---

(٢٠) Chapman, A History of Spain, pp. 84, 85.

(٢١) Crow, Spain, p. 49.

وقد اثار ذلك حقد بعض رجال البلاط ، فخشى ششنندو على نفسه وفر الى بلاط فرناندو ملك قشتالة حيث رحب به واتخذه مستشارا له ، وكان له دور كبير فيما بعد فى تكييف سياسة ابنه الملك الفونش السادس تجاه مسلمى الأندلس حسبما وضحنا من قبل (٢٢) .

كان هذا الرجل نصرانيا مستعربا تربى فى بلاط حاكم مسلم ، ولا شك أنه نقل الكثير مما ألفـــه ورآه الى بلاط الفونش السادس ، ويقول بعض المؤرخين أنه التزم سياسة المهادنة واللين والمودة تجاه مسلمى طليطلة ، ونصح مليكه بعدم التطرف فى معاملتهم مما جعل المسلمين يطمئنون ، وأدى ببعضهم الى الارتداد الى النصرانية (٢٣) .

ولم تكن الاستعانة بهـــؤلاء المستعربين الا لأنهم يعرفون لغـــة بنى جلدتهم ، وكانوا بذلك أقدر من غيرهم على التفاهم معهم ، كما أن الحدود كانت مفتوحة بين الثغور الاسلامية وبين نصارى الشمال ، ولم يكن هنـــاك ما يمنـــع من انتقال السكان الى كلا الجانبين ، فكانت الفرصـــة متاحة للمستعربين للاتصال باخوانهم من نصـــارى الشمال ، فاذا عرفنـــا أن المستعربين كانوا يحملون فى مظهرهم ولباسهم وعاداتهم ولسانهم وثقافتهم ما تعلموه فى الأندلس الاسلامية ، لأدركنا على الفور عمق الصلة وقوة التأثير الذى وصـــل المدن النصرانية فى ممالك الشمال النصرانى على أيدى هؤلاء المستعربين .

وكنتيجة لحروب الاسترداد التى بدأت فى وقت مبكر وعقب موقعـــة كوفا دونجا عام ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م واستمرت حتى نهـــاية القرن الخامس الهجرى وما بعده ، وجدت طبقة أو فئة أخرى من فئات السكان على أرض المملكة الأسبانية النصرانية ، وهم المدجنون لكنهم لم يظهروا كعامل اجتماعى حضارى الا فى القرن الخامس الهجرى اذ تزايدت أعدادهم نتيجة لسقوط عدد كبير من المدن الاسلامية فى يد نصارى الشمال كما سبق القول (٢٤) .

---

(٢٢) عنان ، دول الطوائف ، ص ٥٨ .

(٢٣) أنظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص .

(٢٤) بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٧٣ .

(جـ) والمدجنون Mudejares هم المسلمون الذين دجنوا أى أقاموا فى الأراضى المستردة نتيجة لحروب الاسترداد المستمرة . وقد عومل هؤلاء فى البداية معاملة جيدة بصفة عامة حسب معاهدات الاستيلاء ، مراعاة للظروف السياسية والاقتصادية التى جعلت من الأفضل عمل حساب لهؤلاء المسلمين المدجنين بسبب الحاجة الى السكان والى العمال الزراعيين ، ولم يبدا التضييق عليهم بشكل واضح الا عقب موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وبعد أن أصبح الصراع بين الأندلس الاسلامية وبين نصارى أسبانيا الشمالية صراع حياة أو موت وأصبحت الحرب حرب افناء (٢٥) .

فقد تدخل رجال الدين من كلا الجانبين وأصبحت الحرب حربا صليبية من الدرجة الأولى ، سابقة بذلك الحروب الصليبية فى الشرق ، ووفد كثير من الرهبان والمتعصبين من شتى أنحاء أوربا وأثاروها حربا صليبية ضد الاسلام لا هوادة فيها ، ويكفى أن تعرف أن تحويل مسجد طليطلة الى كنيسة تم رغم معاهدة الاسترداد على يد نفر من ؤلاء المتعصبين بمساعدة كونستانس ملكة قشتالة الفرنسية الأصل . ومنذ ذلك الحين بدأ التضييق على المسلمين واضطهادهم والزامهم بلبس لباس مميز ، والعيش فى أقسام معينة فى المدينة ، والزامهم بدفع ضرائب ثقيلة جدا لمصلحة الكنيسة (٢٦) .

ورغم تلك المعاملة فقد بقى فى تلك المدن المستردة آلاف من المسلمين المدجنين ، يدل على ذلك صكوك البيع والشراء التى وجدت فى كتدرائية وشقة وبرشلونة وسرقسطة وطليطلة وغيرها ، اذ أنها تدل على ذيوع استعمال اللغة العربية فى الوثائق والعقود لا بين المدجنين بعضهم وبعض أو بينهم وبين النصارى فقط ، بل كان اليهود يستعملونها أيضا فى وثائقهم ، وربما كتبوها بحروف عبرية ، كما أشار بذلك (خثنتو بوسك بيلا) (٢٧) .

وتثبت هذه النصوص بقاء كثير من جماعات المسلمين المدجنين فى طليطلة وغيرها من المدن المستردة الى وقت طويل جدا ، ثم أخذت فى الاضمحلال شيئا فشيئا حتى تلاشت اما بالموت واما بالتنصر واما بالطرد من بلاد الأندلس . ولم يكن اضمحلالها كما قال الدكتور حسين مؤنس بسبب

---

(٢٥) Champan, op. cit, pp. 86 - 87.

(٢٦) Chapman, op. cit, p. 87.

(٢٧) Vila, Los Documants arabes, pp. 24, 307.

فتوى الونشريشى او غيره ممن أفتوا بتكفير من استمر فى الاقامة فى المدن المستردة من المسلمين ، خوفا من غلبة عادات النصارى ولغتهم ولباسهم عليهم ، كما حدث لأهل أبلة Avila (٢٨) وغيرهم ممن فقدوا اللسان العربى جملة ، بل ربما أعان هؤلاء المدجنون حكامهم النصارى فى حروبهم ضد المسلمين ، كما حدث من مسلمى برشلونة بعد أن عادت الى بوريل الثانى بعد عام من غزو المنصور بن أبى عامر لها عام ٣٩٠ هـ/١٠٠٠ م (٢٩).

لم تكن فتوى الونشريشى وحدها كافية فى اضمحلال جماعات المدجنين ، بل ان السبب الرئيسى فى ذلك كما أعتقد ، هو عدم وجود تنظيمات دينية اسلامية أو مؤسسات اسلامية على غرار المؤسسات الكنسية المسيحية ، فالاسلام لا يعرف الكهنوت أو رجال الاكليروس أو نظام الرهبنة والديرية . فقد التف النصارى المعاهدون فى الأندلس حول هذه المؤسسات التى صارت هى الملاذ الذى يحميهم ويدافع عنهم ، بل تبوأ رئيسهم منصبا فى الحكومة الاسلامية ، ثم وصل صوتهم الى أعلى سلطة فى الدولة مما ساعدهم على البقاء وعدم الذوبان كلية فى جسم الأمة الاسلامية الأندلسية كما حدث لجماعات المدجنين .

فاذا أضفنا الى عدم وجود مؤسسات اسلامية تدافع عن المدجنين وتحميهم من تلك المعاملة السيئة ، والاضطهاد الذى تعرضوا له خاصة بعد الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، انهم لم يجدوا من يشد أزرهم ، سواء من داخل الجزيرة أم من خارجها من الدول الاسلامية فى الشرق والغرب ، بل ان فقهاء الأندلس لم يرحموهم وأفتوا بتحريم اقامتهم فى المدن المستردة ، لعرفنا العلة فى اضمحلال جماعات المدجنين الذين لم يفعلوا فعل النصارى المستعربين الذين ضحى بعضهم بحياته فيما يعرف بحركة الاستشهاد ، دفعا للآخرين على الثبات والصمود .

على اى حال فقد كان هؤلاء المدجنون سواء طالت اقامتهم أم قصرت ، من قنوات الاتصال بين الحضارة الاسلامية الزاهرة فى الأندلس وبين أسبانيا

---

(٢٨) مدينة ابلة فتحها المسلمون عام ١٤٥ هـ ثم انتزعها الفونش الثالث عام ٢٥٠ هـ ، ثم عادت للاسلام بعد فترة قصيرة حتى استردها الفونش السادس عام ٤٨١ هـ ، ١٠٨٨ م انظر ، حسين مؤنس ، أسنى المتاجر للونشريشى ، ص ١٩٠ .

(٢٩) الونشريشى ، أسنى المتاجر ، ١٤٣ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ـ ١٨٧ ، ١٩٠ .

النصرانية المتخلفة ، وكان لهم تأثير كبير فى الحياة هناك منذ نهاية القرن الثالث الهجرى ، عندما استولى الفونش الثالث على المدن الاسلامية التى تقع شمال وادى دويرة مثل سمورة وشقوبية وسيمنقة وأبلة وأوسمة واسترقة وغيرها ، واستمر بعض مسلمى تلك المدن فى الاقامة بها ، وكانوا يؤلفون اليد العاملة فيها ، وازداد نشاطهم وضوحا فى القرن الخامس الهجرى ووفد على علمائهم وخاصة فى طليطلة طلاب العلم من أنحاء أسبانيا وأوربا ، لينهلوا من الثقافة الاسلامية التى ترجمت الى اللاتينية وما تفرع عنها من اللهجات الأسبانية (٣٠) .

ويشير بعض المؤرخين المحدثين الى أن جماعات من المسلمين وخاصة من البربر قد بقيت فى أقاصى جليقية وأشتريس عقب حركة الهجرة التى قاموا بها فى عصر الولاة من تلك المناطق بسبب الحرب الأهلية العربية البربرية وبسبب القحط الذى أصاب شبه الجزيرة فى ذلك الوقت . وقد تكاثرت تلك الجماعات وتركت أسماءها على بعض المواضع فى تلك الجهات النائية ، وهذا يدل على أن تاريخ المدجنين لم يبدأ منذ سقوط طليطلة فى يد النصارى عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وانما بدأ منذ بداية حرب الاسترداد فى عصر الولاة (٩٥ ــ ١٣٨ م) (٣١) .

(د) الزواج المختلط :

أما القناة الثالثة من قنوات الاتصال بين نصارى الشمال ومسلمى الجنوب ، فهى الزواج المختلط ليس بين مسلمى الأندلس ونصاراها ولكن بين مسلمى الأندلس ونصارى الممالك النصرانية فى شمال أسبانيا ، وقد بدأ بذلك ملوك الأندلس وأمراؤهم ، وكان زواجهم بالأسبانيات والبرتغاليات أجمل صلة لامتزاج الفاتحين بخصومهم ، والتحام القرابة بينهم على نحو لا تنفصم عراه ، وأصبح ذلك الوافد جديرا بأن يسمى بين عشية وضحاها صهرا ونسيبا (٣٢) .

---

(٣٠) Crow, op. cit, pp. 97 - 98.

السيد عبد العزيز سالم ، مسجد المدجنين فى طليطلة ، ص ٨٠ .

(٣١) مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٣٥٠ .

انيس زكريا النصولى ، الدولة الاموية فى قرطبة ، ص ١٠٨ .

(٣٢) مورينو ، الفن الاسلامى فى أسبانيا ، ص ٦ ، محمد كرد على ، غابر الاندلس وحاضرها ، ص ٣٩ .

وكان أول ولاة الأندلس صـــهرا للبيت المالك السابق ، فقد تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير من ايلونا Egilona أرملة ردريك (لزريق) ملك القــوط عند الفتــح ، وهى التى يسميها العرب « بأم عاصم » وكان نفوذها وتأثيرها على زوجها وتحايلها عليه بأن يتخذ التاج ، من الأسباب التى ادت الى مقتله عام ٩٧هـ (٧١٦م).وكانت هناك أيضا لامبيجا Lampegie الفرنسية الحسناء ، ابنة الدوق (أودو) أمير أكوتين ، التى تزوجها عثمان ابن أبى نسعة ، واثرت عليه وجعلته يتحالف مع أبيها ، لكن عبد الرحمن الغافقى قاتله وقتله عام ١١٣ هـ (٣٣) .

أما أمراء بنى أمية وخلفاؤهم فلم يكن منهم من كانت أمه حرة أصلا ، اذ كانت أمهاتهم من نصارى الشمال الأسبانى أو من البربر أو من رقيق الصقلب . وقد سبقت الاشـــارة الى طروب ، الجارية الصـــقلبية زوجة عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) وما كان لها من سلطان وتأثير عليه ، كذلك كانت أم عبد الرحمن الثالث الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) نافارية تدعى ماريا وتسميها الرواية العربية (مزنة) وهنـــاك رواية أخرى تقول ان اسمها أونيكا Oneca وهى ابنة الكونت الثالث لبمبلونة المسمى فرتون بن غرسية والمعروف بالأنقر . وقد كان هذا الأمير أسيرا فى قرطبة لمدة طويلة ، ثم رحل الى بلاده فى أواخر عهد الأمير عبد الله جد الناصر ، ويبدو أنه اتفق معه على المحالفة والمصاهرة بأن تتزوج ابنته من ابنه محمد والد الناصر (٣٤).

كذلك كانت زوجة ابنه وخليفته الحكم المستنصر (٣٥٠—٣٦٦ هـ) أرورا Aurora والتى تسميها الرواية العربية باسم (صبح) نافارية الأصل او بشكنسية ، وكانت ذات نفوذ وسلطان كبير فى عهد زوجها ثم بداية عهد ابنها هشام المؤيد ، حتى استبد المنصور بن أبى عامر بالسلطة دونهما . وتزوج هذا الحاجب المنصور أيضا بفتاة نافارية كانت ابنة لشانجة الثانى

---

(٣٣) الرازى برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ .
الرازى برواية المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٣٢ .
عنان ، تراجم اسلامية ، ص ١٧٢ ، حيدر بامات ، مجالى الاسلام ، ص ١٠٤ .
Levi-Prevencal, La Civisatoin Arabe en Espagne, p. 109.

(٣٤) عنان ، دولة الاسلام فى الاندلس ، العصر الاول ، جـ ٢ ، ص ٧٠ .
Livermore, A History of Spain, p. 84.

ملك نبرة ، وانجب منها ابنه عبـــد الرحمن المأمون الذى كانت أمه تسميه شنجول نسبة الى جده الذى كان يشبهه تماما (٣٥) .

وقد كانت المصاهرات كثيرة بين أمراء الثغور الاسلامية مثل بنى قسى وبنى الطويل المولدين وحكام سرقسطة ، وبين ملوك أسبانيا النصرانية فى مملكة نبرة وقشتالة ، حتى أن بعض ملوك نبرة كانوا اخوة لبعض أمراء بنى قسى المولدين من جهة الأمهات ، وبذلك كان هؤلاء الأصهار يقفون يدا واحدة ضد أعدائهم سواء كانوا من المسلمين أم من النصارى . وقد سار بعض ملوك الطوائف على هذا النمط وتزوجوا من أميرات الشمال النصرانيات، فكانت زوجة مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية هى الأميرة (جود) النصرانية الاســـبانية، وكانت لها خمس بنات تزوجن من ملوك الطوائف وكن جواسيس لأبيهن على أزواجهن (٣٦) .

ولم يقتصر الأمر على الزواج من أميرات الشمال النصرانيات ، فقد كان التسرى بفتيات الشمال الأسبانى الواردات ضمن السبى أو الجزية عادة مألوفة فى بيوت حكام الأندلس الاسلامية طوال الفترة محل البحث ، وكان كثير من الأمراء والخلفاء الأمويين يشترطون أن تحتوى الجزية على بعض فتيات الجاليجاز gallegas الغاليسيات الشقراوات وكان الطلب على هذا النوع من الفتيات عظيما ، وأدى ذلك الى وجود العيون الزرقاء والشعر الأحمر والبشرة البيضاء فى بعض الخلفاء مثل عبد الرحمن الناصر . وكان فى قصر أشبيلية رواق يدعى رواق الصبايا ، كان يستقبل الفتيات اللاتى كان على نصارى الشمال أن يقدموا مائة منهن كل عام الى بعض ملوك العرب (٣٧) .

---

(٣٥) Dozy, A History of the Moslems in Spain, p. 400
Provencal, op. cit, p. 110.
Livermore, op. cit, p. 86.

(٣٦) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٦٨ ، العذرى ، نصوص عن الاندلس ص ٣٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، جـ ٢ ، ص ٢١٩ ، ٢٢١ .

(٣٧) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٢٨٩ .
Crow, op. cit, p. 61.

ولم ينفرد الأمراء والخلفاء والحكام بهذا الزواج المختلط ، بل فعل فعلهم كبار العرب وغيرهم من الموسرين ، لأن هؤلاء جميعـا وفدوا الى الأندلس دون أن يصحبوا معهم نساءهم ، فقد دخلوها جيوشا منظمة ، ولم يدخلوها دخول البرابرة افواجا وقبائل بنسائهم وأطفالهم ، ومن ثم لم يكن هناك بد من اتخاذ النساء من أهل البلاد ، وأصـبح الزواج المختلط أمرا لا مفر منه ، وادى ذلك الى أن الجيل الثانى من مسلمى الأندلس كان هجينا ، بل ربما جاز اعتبارهم مولدين ، حيث أن البيت الأموى نفسه كان بيتا مولدا ، وانما كانوا عربا بالاحساس والاتجاه واللغة ، واخذ الدم العربى الصريح يتلاشى فى هذا القطر شيئا فشيئا (٣٨) .

وكان لهذا الزواج المختلط أثر كبير عند الجانبين ، فقد كان الأطفـال يتكلمون لغة أمهاتهم بجانب اللغة العربية ، ولا شك فقد نشر هؤلاء النسوة عاداتهن وتقاليدهن واسلوب حياتهن داخل قصور الملوك والأمراء وغيرهم من الناس ، وادى ذلك الى انتشار لغة شعبية تسمى عجمية اهل الأندلس ، أو اللطينية ، وهى مزيج من اللاتينية والعربية والبربرية ، يتكلمها الناس فى حياتهم العادية . وقد تعجب ابن حزم من أهل دار (بلى) بشمال قرطبة لأن نساءهم ورجالهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربيـة فقط ، مما نفهم منه ان تلك اللغة كانت منتشرة بين أهل الأندلس ، بل هنـاك من يقول بأن اللهجة التى كانت تسمع فى القصور الملكية ، هى لهجة غالسيا (جليقية) (٣٩) .

وقد لعبت هؤلاء الزوجات والسرائر من الجـوارى المسـيحيات الأسبانيات وغير الأسبانيات دورا خطيرا فى الحياة الاجتماعية والسياسية فى الأندلس ، فقد كن ينقلن افكار نصارى الشمال الأسبانى ، ومن تعلمت العربية منهن كانت تنقل الأفكار والأقاصيص الأسبانية والأوربية الى اللغة العربية . وانقسمت البيوت العربية الى قسمين ، قسم من أولاد السرارى ، وقسم من أولاد الحرائر ، والأولاد تبع لأمهاتهم ، ينقسمن بدورهم ويتعصبون

---

(٣٨) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ، ص ١ ، حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٣٧٦ ، ٥٠٢ .

(٣٩) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٥ ، مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٣٧٧ .
Crow, op. cit, p. 61.
Hole, Spain under the Moslems, p. 23.

لأمهاتهم ، وكثيرا ما دبرت المؤامرات بسبب ذلك ، ورغم ما كن يتظاهرن به من حب العروبة والاسلام الا أن كثيرا منهن كن جاسوسات على حكام الأندلس ، اذ لم ينسين نصرانيتهن ولا أسبانيتهن (٤٠) .

وقد انتقل نظام الحريم هذا الى بلاط ملوك أسبانيا النصرانية ، فعلى عهد ملوك الطوائف كان هناك ثلاثة أنواع من الزواج فى الشمال الأسبانى ، أولاها ، هو الزواج المعترف به من الكنيسة ويسمى Bendicion وكان زواجا مباركا تعقبه حفلة دينية ، والثانى يسمى Yuras وهو زواج يتم باتفاق بسيط بين طرفين ، وكانت لا تمنعه الكنيسة ، أما الثالث فهو مشابه للنوع الأخير لكنه غير معترف به كارتباط قانونى ، وكان يسمى Barragania أى التسرى أو الزواج بالسرائر ، وكلا الطرفين فى هذا الزواج يعتبران غير مرتبطين . وقد يمتد هذا النوع من الزواج ليشمل الرجال المتزوجين زواجا شرعيا ، والى كثير من رجال الاكليروس بالرغم من منعهم لهذا النوع من الزواج . والنوعان الأخيران من هذا الزواج يمكن أن نعتبرهما تقليدا مسيحيا للتقاليد الاسلامية فى اتخاذ السرايا والحظايا (٤١).

وبذلك فان تقاليد المسلمين وأساليب حياتهم وان تبرأ منها النصارى كان لها تأثير فى حياة أمراء الشمال النصرانى ، فقد كان عدد من ملوك ليون وقشتالة فضلا عن الزوجة الشرعية يحتفظون بسرب من الحظايا (الحريم) . ومع أن هؤلاء الحظايا لم يبلغن من الكثرة مبلغهن عند أمراء المسلمين فى الأندلس ، فقد كن يعاملن معاملة الزوجات تقريبا ، وكان أولادهن بالرغم من حرمانهم من الارث الشرعى ، يرثون أحيانا بعض الأراضى (٤٢) .

وقد تعدي الأمر أن تزوج بعض ملوك قشتالة وليون من مسلمات ، مثال ذلك مورجات بن الفونس الأول (مورقاط عند العرب) ملك ليون (١٦٦ — ١٧١ هـ / ٧٨٤ — ٧٨٩ م) والذى كانت امه مسلمة ، وتحالف مع المسلمين ضد أعدائه من نبلاء النصارى . كما تزوج أشهر ملوك قشتالة وليون فى القرن الخامس الهجرى وهو الفونش السادس من كنة المعتمد بن عباد ملك أشبيلية وتسمى (زايدة) أو (سيدة) ، وذلك بعد أن قتل المرابطون زوجها المأمون بن المعتمد بن عباد ، ثم ساروا الى أشبيلية وأسروا

---

(٤٠) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، جـ ٣ ، ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٠٣ .

(٤١) Chapman, op. cit, p. 88.

(٤٢) يوسف أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤٠ .

المعتمد نفسه ، فامتلأت نفسها حقدا على قاتلى زوجها وسجانى أبيه ، ولم تلبث أن رحلت باحثة عن ملاذ لها فى مملكة الفونس السادس العدو اللدود للمرابطين ، وهناك أصبحت زوجة شرعية له بعد أن ارتدت الى النصرانية وانجبت له ابنه الوحيد شانجة [43] .

ولا شك أن المدن المستردة قد تحول جانب من سكانها الى النصرانية ، ولا بد أن تكون المصاهرات قد عقدت بين هؤلاء النصـــارى الجدد وبين النصارى القدامى ، وغنى عن القول ما ينتج عن ذلك من نشر للحضارة الاسلامية ، بل ان بعض ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى كانوا يتوددون الى ملوك أسبانيا النصرانية ، بأن يجعلوا من بلادهم مكانا للاحتفال بمصاهرة ملوك النصارى الأسبان بعضهم من بعض .

فقد حدث أن وفد شانجة غرسية أمير قشتالة (٣٨٥ — ٤٠٧ هـ / ٩٩٥ — ١٠١٧ م) وريموند صاحب برشلونة الى سرقسطة فى عهد ملكها منذر بن يحيى (٤٠٠ — ٤١٤ هـ) ، وتصاهر الأميران المسيحيان على يديه ، وكتب عقد النكاح بينهما بمدينة سرقسطة فى حفل من أهل الملتين . ويخطىء ابن حيان فى جعل هذا الزواج يتم فى عهد المنذر (الثانى) ابن يحيى الذى تولى حكم سرقسطة عام ٤٢٠ هـ ، والصحيح أنه تم فى عهد المنذر (الأول) ابن يحيى الذى استقل بسرقسطة فى بداية عهد الفتنة البربرية واستمر فى حكمها حتى عام ٤١٤ هـ ، لأنه هو الذى كان معاصرا لشانجة غرسية كونت قشتالة الذى توفى عام ٤٠٦ هـ [44] .

وان دل هذا الزواج الذى تم فى سرقسطة على شىء فانما يدل على التداخل بين الشعبين المسلم والمسيحى على أرض شبه الجزيرة ، فلم تكن حروب الاسترداد مستمرة ومتصلة ، ولم يكن الناس يقدرون على ذلك كثيرا ، بل كانت هناك فترات أو سنوات ربما تطول أو تقصر حسب الأوضـــاع الداخلية لكل من البلدين ، تهدأ فيها الحروب ويسود الســلام ، وتمثل انصهارا فى النواحى الثقافية والاجتماعية بين الجانبين المسيحى والاسلامى ، اللذان كانا يعيشان حياة الحرب والحب معا وفى وقت واحد ، رغم التناقض

---

(٤٣) الونشريشى ، أسنى المتاجر ، ص ١٨٩ .
ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٤٤) انظر ، الباب الثانى ، الفصل الثانى ، ص .

الموجود بينهما . فالحرب تمثلها تلك الغزوات والهجمات التى لا تنتهى بين الجانبين ، والحب يمثله هذا الزواج المختلط ، وتلك القرابة والمصاهرة الدائبة ، والجوار والتلاحم الذى لا ينتهى أيضا (٤٥) .

حقيقة أن البيت الاسلامى كانت تديره سيدة نصرانية أسبانية أو فرنجية، ربما تعتنق الاسلام أو تبقى على دينها القديم ، وانك لو تخيلت ربة القصر من هذا النوع ، فماذا تتوقع ؟ لا بد أنه كان هناك خدم وحشم وجوارى وعبيد من نفس النوع ، وخاصة من هؤلاء النسوة البيض الجميلات من الشمال النصرانى ، اللائى كن يوصفن دائما بأنهن جليقيات (غاليسيات) ، ولا يأنفن من العمل فى قصور أمراء وخلفاء مسلمى الأندلس ، بهدف الحصول على الثروة والغنى وربما المركز السامى ، فقد وصلت بعضهن الى منصب الملكات كما سبق القول (٤٦) .

(هـ) سوق الرقيق :

ولذلك نشطت سوق الرقيق نشاطا كبيرا ، وكان تجار اليهود هم الذين يقومون بتلك التجارة الرابحة ويجلبون الى الأندلس أعدادا هائلة من الفتيان والفتيات الأسبانيات والفرنجيات . وتشير كثير من الروايات الى استخدام المسلمين للفتيان الخرس الذينلا يفصحون فى منازلهم ، وكان كثير منهم ذا كلف بالفتيات أو الفتيان من النصارى هؤلاء ، وربما وقعوا فى حبهن حتى قالوا فيهن الكثير من الشعر ، بل ان عبد الرحمن الناصر بنى مدينة وسماها على اسم حظيته المحبوبة الزهراء ، فكانت مدينة الزهراء الجميلة . وبذلك كانت سوق الرقيق سبيلا من سبل الاتصال الحضارى بين نصارى ومسلمى شبه الجزيرة (٤٧) .

---

(٤٥) Crow, op. cit, p. 80.

(٤٦) ابن خلدون ، مقدمته ، جـ ٢ ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ ٣ ص ١٠٤ . Hole, op. cit, p. 114.

(٤٧) ابن حيان برواية ابن بسام ، ق ١ ، جـ ٢ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٤٠٣ ، ق ٤ ، جـ ١ ص ٦٠ ، ابن حيان برواية المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٣٦٢ .

ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٩٥ ، ٩٦ ، مطمح الانفس ، ص ٨٠ .

ابن غالب ، تعليق منتقى من فرحة الانفس ، ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ .

ابن الخطيب ، الاحاطة ، جـ ٢ ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(و) الحرب المستمرة :

وكانت الحرب المستمرة بين الطرفين سبيلا من سبل التأثير الحضارى أيضا اذ كانت المعارك تسفر دائما عن أسرى وسبى كثير سواء من هـذا الجانب أو ذاك . ينتقل هؤلاء الأسرى وذاك السبى الى الشمال أو الجنوب ، ويمارسون حياتهم وأساليبهم فى الحياة ، وفى الغالب كانوا يتعلمون لغـة البلد الذى أجبروا على العيش فيه ، وربما اعتنقوا ديانته ، وربما تحرر هؤلاء الأسرى وعادوا الى بلادهم ، فقد كانت هناك جمعيات فى أسـبانيا النصرانية والأندلس الاسلامية مهمتها العمل على تحريرهم (٤٨) .

ولما كان المسلمون هم الفائزون فى معظم المعارك الحربية فى عصرى الامارة والخـلافة ، فقد كان معظم الأسرى والسبى من أهل الشـمال النصرانى ، وقد سبقت الاشارة الى أنه فى عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ — ١٨٠ هـ) بحثوا عن أسرى يمكن افتداؤهم بالمال فلم يجدوا أسيرا مسلما ، وهناك رواية تقول بأن الأمير الحكم الربضى (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) ، وأن الحاجب المنصور بن أبى عامر (٣٦٦ — ٣٩٢ هـ) قاما بحرب لأن كلا منهما سمع بأن نصارى الشمال احتجزوا عندهم امرأة مسلمة أسيرة دون أن يعيدوها الى ديار الاسلام حسب اتفاقيات الصلح (٤٩) .

لذلك فقد كثر الأسرى المسيحيون فى عصرى الامارة والخلافة (١٣٨ — ٤٢٢ هـ) ، وكان كثير منهم يفك أسره ويعود الى وطنه ، سواء بواسطة أهله أو بواسطة أغنياء المسلمين أنفسهم الذين كانوا يحررونهم ويطلقون سراحهم شكرا لله على توفيقه لهم فى شىء ما . وقد حدث عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م أن علم المنصور بن أبى عامر بانتصـار جنوده فى واقعة كبيرة فى افريقية ، فأسرع بتحرير نحو ١٨٠٠ أسير مسيحى من ذكور واناث تقربا الى الله وشكرا على نعمة النصر (٥٠) .

واذا ما عاد هؤلاء الى أوطانهم وقد تعلموا العربية وعاشوا حيـاة المسلمين الأكثر منهم حضارة ومدنية ، نشروا ما عرفوه من أساليب الحياة والمعيشة الاسـلامية بين مواطنيهم ، وزاد على ذلك اثر الأسرى المسلمين

---

(٤٨) رينو ، تاريخ غزوات العرب فى فرنسا ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٤٩) أنظر ، للفصل الثالث ، الباب الاول ، ص .

(٥٠) رينو ، المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

الذين كانوا يقعون فى أيدى النصارى فى أواخر عصر الامارة وفى عصر دول الطوائف ، وكان هؤلاء بالطبع يزيدون فى عملية النقل الحضارى بين الأندلس الاسلامية وبين أسبانيا النصرانية .

وفى الأندلس كان أسرى نصارى الأسبان يتحولون الى موالى وعبيد اذا لم يجدوا من يحررهم أو اذا لم يعتنقوا الاسلام ، وكانوا يخدمون فى القصور ، وكان منهم الحرس الخاص للخلفاء والملوك الذين كانوا يعولون عليهم فى الحروب ، حتى أن عددا كبيرا من جنــود المنصور كان من سبى الشمال . أما الرقيق من النساء فكن يشتغلن فى قصور الأمراء والأغنياء ، ويتثقفن ويتعلمن الغناء ، ومن تنبغ منهن كانت تباع بثمن مرتفع ، أو يهديها صاحبها الى الأمير ، أو يتزوجها فتصير حرة وتسمى أم ولد . وكانت قصور قرطبة وبقية حواضر الأندلس ملأى بأمهات الأولاد (٥١) .

وكانت تساء معاملة الأسرى أحيانا ويكلفون بالأعمال الشاقة ، وقد سبقت الاشارة الى أسرى قطلونية (برشلونة) الذين كلفوا بنقل عدد معين من أحمال التراب الى قرطبة ، وهناك رواية تقول بأن المنصور بن أبى عامر كان يستخدمهم أيضا فى بناء مدينة الزاهرة بدلا من البنائين المسلمين ، وهم مقيدون فى الأصفاد ، اذلالا للشرك واظهارا لقوة الاســلام . وخلا هذين الحادثين لم نعثر على ما يدل على الاساءة الى أسرى النصــارى فى بلاد الأندلس ، وواضح أن ذلك تم فى عهد المنصور بن أبى عامر الذى خرج عن سياسة الاعتدال فى علاقته بنصارى الشمال حسبما تقدم (٥٢) .

أما الأسرى المسلمون الذين كانوا يقعون فى يد نصــارى أسبانيا النصرانية ، فلم يتمتعوا بما تمتع به أقرانهم النصارى فى الأندلس الاسلامية ، اذ كانت تساء معاملتهم ولا يمشون الا فى الأصــفاد خوفا من هروبهم ، ولا يتحررون من العبودية الا اذا تنصروا ، وكانوا يكلفون بأعمال الزراعة والحراثة ، وحتى لو تنصروا وتحرروا فانهم يبقون فى درجة اجتماعية اقل من سائر المواطنين . ولم يكن يحق لهم التزوج من المسيحيات ولو كن من

---

(٥١) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٢٧٦ .

ابن سعيد ، المغرب ، جـ ٢ ، ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، المقرى ، النفح ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٥٢) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

الخوادم ، ولم يكن يؤذن للعبد بالزواج من الأمة ولو كانا من ملة واحدة ، وانما يسمح لهما بالسكن فى مكان واحد على أن يكون الأولاد ملكا لسيدهما (٥٣).

وكان للحرب فى ذاتها تأثيرات اجتماعية واقتصادية على نصارى أسبانيا النصرانية ، وخاصة المقيمين منهم فى مناطق الحدود ، فقد أدت الى رفع مكانة العامة من الشعب النصرانى نظرا لاحتياج الملوك اليهم فى كفاحهم ضد مسلمى الأندلس ، وقد كانت ممالك أسبانيا النصرانية تعيش اجتماعيا وسياسيا عصر سيادة الاقطاع وينقسم الناس فيها الى طبقات ، وكانت طبقة النبلاء تستعبد بقية أفراد الشعب سواء كانوا زراعا فى الحقول أم عمالا فى المصانع الحرفية أم خدما فى القصور . وقد صار هؤلاء الخدم والعبيد سادة احرارا بفضل حروب الاسترداد التى هيأت لهم تلك الفرصـــة الذهبية ، وهكذا اصبحوا جنودا يمتطون الخيل ، وأصبحوا فرسانا ونبلاء صغارا او رؤساء قرى صغيرة ، دون أن يكون عندهم أراضى واسعة أو ثروة كبيرة ، اذ كانت ثروتهم تكمن فى قوة سواعدهم (٥٤) .

وفى بعض الفترات كانت تهدأ الحروب ويعم السلام وتعقد معاهدات الصلح والسلام ، كما حدث عام ٢٧٠ هـ فى عهد الأمير محمد (٢٣٨ — ٢٧٢ هـ) ، وكما حدث فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤ هـ ، وفى عهد ابنه وخلفه الحكم المستنصر عام ٣٥١ — ٣٥٥ هـ ، وقد سبقت الاشارة الى هذه المعاهدات فى مكانها من الدراسة ، وما نود أن نقوله هو أن تلك المعاهدات كان يتبعها أخذ للرهائن من نصـــارى الشمال فى عصر الخلافة ، تبادل الرهائن فى عصر ملوك الطوائف . وبديهى أن هؤلاء الرهائن كانوا يتعلمون العربية ويعيشون حياة المسلمين ، فاذا عادوا نقلوا ونشروا ما تعلموه فى بلاط ملوكهم وأهليهم وأضيفوا الى جملة الأسبان الذين يعرفون العربية ويعيشون حياة أهلها (٥٥) .

وكان أول زعيم من زعماء جليقية وأشتريس وهو بلاى فيما تقول بعض الروايات رهينة فى قرطبة ، ثم هرب منها وفر الى الشمال وبدأ حرب الدفاع

---

(٥٣) الضبى ، بقية الملتمس ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٥٤) رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
Chapman, op. cit, p. 122.

(٥٥) رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٣ .

والمقاومة ضد مسلمي الأندلس منذ عام ٩٨ هـ ، تلك الحرب التى تحولت فيما بعد الى ما يسمى بحرب الاسترداد . وقد انتشر أسلوب تبادل الرهائن فى عصر ملوك الطوائف بالذات بسبب كثرة عدد الدول الاسلامية وتهافتها على محالفة ملوك أسبانيا النصرانية ، وقد سبقت الاشارة الى ما قام به ابن عمار نيابة عن مليكه المعتمد بن عباد من تبادل للرهائن مع أمير برشلونة حتى يتم تنفيذ المعاهدة التى عقدها معه بخصوص الاستيلاء على مرسية (٥٦) .

وغير الرهائن فقد كانت معاهدات السلام تتيح الفرصة لتبادل السفارات الدبلوماسية والتجارة والطلاب والأطباء ، وتمكن أصحاب المصالح من الانتقال بين طرفى شبه الجزيرة . وقد عرفنا أن يولوجيوس زعيم الفتنة الدينية فى قرطبة فى منتصف القرن الثالث الهجرى قد ذهب الى بمبلونة عاصمة نبرة عدة مرات ، ثم عاد محملا بكتب الأدب اللاتينى ، علاوة على الكتب الدينيـــة المسيحية وبعض الكتب التى تحتوى على خرافات كثيرة ملفقة تحط من شأن الدين الاسلامى . وسبقت الاشارة أيضا الى وفود كثير من الرهبان الى قرطبة للدراسة والعلم ، منهم من صار أحد بابوات روما (٥٧) .

كما سبقت الاشـــارة أيضـــا الى البعثـــات التى كان يوفدها ملوك أسبانيا النصرانية الى ملوك الطوائف لجمع رفات القديسين النصارى فى بلاد الأندلس أو لأخذ الجزية أو لتجديد معاهدة . وكانت السفارات الاسلامية تذهب الى ليون أو برغش أو بمبلونة أو برشلونة تعقد معاهدات التحالف ضد ملوك الطوائف الآخرين ، أو لتحديد ما يلزم دفعه من الجزية أو لتجديد الصداقة والتحالف (٥٨) .

كل هذا النشاط الدبلوماسى ، لا بد أنه كان عظيم الأثر فى دفع عملية المزج الحضارى والتقريب المادى والفكرى بين الأندلس الاسلامية المتحضرة وبين الشمال النصرانى المتخلف . ومما ساعد على ذلك أيضا عملية اللجوء السياسى . واستخدام الجند المرتزقة عند الجانبين .

---

(٥٦) أنظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص .

(٥٧) أنظر ، الفصل الاول ، الباب الاول ، ص .

(٥٨) أنظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص .

(ز) اللجـوء السياسي :

أما اللجوء السياسى فقد كان ذائعا ومنتشرا ، وسبقت الاشارة الى ما قام به أفراد من البيت المالك سواء فى الأندلس الاسلامية أم فى الممالك النصرانية فى شمال أسبانيا ، من اللجوء الى الجانب الآخر طلبا للمساعدة ضد الحاكم أو هربا من استبداده وظلمه . فقد اتصل اخوة هشـام بن عبد الرحمن الداخل بشرلمان امبراطور الفرنجة ، طالبين منه العون ضـد هشام ، ثم ضد ابنه الحكم فيما بعد . ولجأ ابن لعبد الرحمن الناصر الى ملك ليون ، ولجأ ابن للحاجب المنصور بن أبى عامر الى ملك قشتالة (٥٩) ، وكثر ذلك بين حكام الثغور الاسلامية سواء فى عصر الامارة أو الخلافة ، فقد لجأ ابن مروان الجليقى الى الفونش الثالث ، كما لجأ أفراد من أسرة بنى قس وبنى الطويل فى عهد الامارة الى ملوك نبرة وليون . ولجأ أفراد من بنى تجيب الى ملوك ليون وتحالفوا معهم ضد عبد الرحمن الناصر . كثر ذلك فى عهد ملوك الطوائف أيضا ، فقد لجأ أفراد من أسرة بنى ذى النون أصحاب طليطلة ، ومن أسرة بنى هود أصحاب سرقسـطة وكذلك بعض الوزراء مثل ابن عمار وغيره الى ملوك أسبانيا النصرانية . وكان هؤلاء فى الغالب يعيشون فى ممالك الشمال هم وأنصارهم آمادا طويلة ، وربما ماتوا هناك ، ولا شك أنه كان لهم تأثيرهم الحضارى (٦٠) .

وكان هناك أيضا اللاجئون من ممالك الشمال الأسـبانى الى الأندلس الاسلامية فقد لجأ شانجة (سانشو) ملك ليون الى حماية عبد الرحمن الناصر حينما استأثر أخوه أردون (اردونيو) بالحكم واتى أردونيو الى قرطبة يلتمس حمايتها وتأييدها ضـد الفونسو فى عصر الحكم المستنصر ، ولجأ الفونسو السادس الى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، فأكرمه ورعاه حتى عاد الى ليون عقب مقتل أخيه سانشو الثانى ، وتولى ملك ليون وقشتاله ورد الجميل للمسلمين فأستولى منهم على طليلطة ذاتها ، وقضى على ملك بنى ذى النون أنفسهم .

---

(٥٩) الرازى برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٤ .
ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ٢٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .
أنظر الفصل الثالث ، الباب الثانى ، ص .

(٦٠) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ١٠ ، ٢٢ ، ٤٥ ، ٥١ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ٤٨ .

كذلك لجأ أخوه الى بلاط بنى عبـــاد فى اشبيلية [٦١] ، ومما هو جدير بالملاحظة ما تقوله بعض الروايات من أن الفونسو السادس عنـــد ما كان لاجئا فى طليطلة سمع أمراءها يتجـــادلون فى كيفية الدفاع عن المدينة وعن كيفية استسلامها ، فادخر الفونسو هذا الحديث فى نفســـه وانتفع به عنـــد استيلائه على المدينـــة ، وما نود أن نقوله هو أن الفونسو لا بد أنه كان يعرف العربية حتى يفهم كلام الأمراء ، اذ تقول الرواية انه كـــان راقـــدا متظاهرا بالنـــوم وانه استرق السمع ، فلم يكن هنـــاك مترجم ، ولم يكن هناك من يشرح لـــه معنى الكلام ، أو ربما كان هؤلاء يتكلمون بالعجمية التى أشرنا اليها من قبـــل ، وهى قريبة من اللاتينية ، فاستطاع الفونسو أن يفهم ما فهم[٦٢] .

(ح) أما **الجنود المرتزقة** من نصارى الشمال الأسبانى وان كان بدأ استخدامهم منـــذ عصر عبد الرحمن الداخلى (١٣٨ — ١٧٢ هـ) ثم فى عهود من تلاه من أمراء وخلفاء بنى أمية ، الا انه كثر استخدامها فى عصر دول الطوائف ، وابتداء من القرن الخامس الهجرى على يد خلفـــاء بنى أميـــة الأواخر كمـــا سبقت دراســـته فى الأبواب السابقة ، وكان هؤلاء الجنـــد لا شك يعيشون بين ظهرانى المسلمين ويقتبسون من أساليبهم فى الحيـــاة ويعودون الى بلادهم وينشرون ما تعلموه أو عرفوه . وأبرز مثال على ذلك هو السيد القمبيطور وجنـــده المرتزقة الذين خدموا أمراء المسلمين أكثر ما خدموا أمراء النصارى . ولو لم يمت القمبيطور وهو فى خدمة الجـــانب النصرانى ، لمـــا حفلت به الأساطير الأسبانية ورفعته الى مرتبة الأبطـــال القـــديسين[٦٣] .

وبالمثل كانت جنود الممالك الاسلامية تعمل أيضا متحالفة فى خـــدمة ملوك نبرة وقشتالة كى تعين هذا على ذاك ، أو تساعد أحـــدهم فى الهجوم على دولة اسلامية معـــادية . وقـــد سبقت دراسة ذلك فى الأبواب السابقة، مما يدل على أنه كان هناك تداخل سياسى وعسكرى واجتماعى بين ممالك

---

(٦١) Dozy, op. cit, pp. 422 - 426

انظر الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص .

(٦٢) انظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص .

(٦٣) انظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص .

أسبانيا النصرانية وبين حكـام الأندلس الاسلامية ، ممـا أتاح الفرصـة لنقل التأثيرات الحضارية بين الجـانبين بطريقة طبيعية ومؤثرة .

هذا عن قنوات الاتصال بين نصارى شمال أسبانيا وبين مسلمى الأندلس وهى قنوات كما رأينـا متعددة ومؤثرة وفعـالة ، ولا بد أنها نقلت الكثير والكثير من المؤثرات الحضارية سواء كانت أجتماعية أو ثقـافية أو اقتصادية الى الممالك الأسبانية النصرانية . كمـا نقلت أيضا بعض التأثيرات الى الحيـاة الاسلامية فى الأندلس . وقد تعددت المجـالات والميادين التى تـم فيهـا هذا التأثير أو ذاك ، سواء فى ميدان الحياة الاجتماعية أم الثقـافية أم الاقتصادية .

٣ ـ مظـاهر التأثيرات الحضارية فى ميدان الحياة الاجتماعية :

وفى هذا الميدان ظهر التأثير فى نواح عديدة ، فى روح التسامح التى تحلى بهـا المسلمون تجـاه أصحاب الأديان الأخرى فى شبه الجزيرة ، وفى الأخـلاق والعادات والتقاليد ، وفى الموسيقى والحفلات والأعياد ، وفى الملبس والمـأكل والمشرب والمسكن ، أو فى ميدان العمارة وفن البناء .

أما روح التسامح فقـد ظهرت عند مسلمى الأندلس بشكل واضح ، وقـد وفينـا الحـديث عن هذا الموضوع أثنـاء الكـلام عن الفتنة الدينية التي سميت بحركة الاستشهاد المسيحى التى حدثت فى منتصف القـرن الثالث الهجرى ، وما نود أن نقوله هنـا هو أن الكنائس كانت مفتحـة الأبواب للمارة سواء من النصـارى والمسلمين ، تغـدق عليهم من كرمها وأطايب طعامها وشرابهـا حتى أن بعض المسلمين كانوا يبيتون بها[٦٤] .

وقد بلغ التسامح الى حـد أن كان المسلمون يزورون كنـائس النصارى ويزور النصارى قبور أوليـاء المسلمين لنيل البركة ، كما أنهم

---

(٦٤) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ، ١٩٢ .
ابن خاقان ، مطمح الانفس ، ص ٢١ .
الادريسى ، صفة المغرب ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .
انظر الفصل الاول ، الباب الاول ، ص .

امتنعوا عن أكل لحم الخنزير وقاموا بختان أطفالهم تقليدا للمسلمين، بل كانت أسماؤهم فى غالبها أسماء عربية . كما تلقب بعض المسلمين بألقاب النصارى ، فهناك الأديب أبو جعفر بن عبد الله ، وكان يعرف بابن شانجة . ولا شك أن روح السماحة هذه قد انتقلت الى نصارى الشمال وأخذوها عن المسلمين(٦٥) .

فقد كان ملوك قشتالة وليون يحيطون أنفسهم بعلماء المسلمين ويستخدمون مهندسيهم ، ويستمعون الى موسيقييهم ، وينتفعون بخير ما فى الثقافة الاسلامية دون أدنى لوم أو حرج ، ولم يتحول شعورهم الا عند ما اتخذت الحرب الصفة الدينية الصليبية فى عصر ملوك الطوائف . ورغم تحقيق نصر حاسم على المسلمين بعد سقوط طليطلة فى يد الفونسو عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٦م ، فقد قرر هذا الملك فى البداية الا يتعرض لمقدسات المسلمين وان يظلوا مشرفين على مسجدهم وأن يقيموا فيه شعائرهم دون أن يتعرض لهم احد (٦٦) .

لكن المتعصبين من رهبان الأديرة مع مطران طليطلة بمساعدة الملكة كونستانس — وكان هؤلاء جميعا من الفرنسيين — تمكنوا فى غيبة الفونسو السادس فى ليون من تحويل مسجد طليطلة الى كنيسة ، ولما عاد الفونسو وعرف بالامر غضب غضبا شديدا واعتزم عقاب هؤلاء المعتدين بالموت حرقا ، لكن مسلمى طليطلة تشفعوا لديه حتى لا ينفذ وعيده اعتقادا منهم بأن هذا غير مفيد ، وربما اثار عليهم المسيحيين الآخرين وأتى بنتيجة عكسية . وكان تدخل البابوية وأتباعها من الرهبان الفرنسيين هو الذى ساعد فى احداث موجات التعصب ، كما أدى الى اشتداد ساعد رجال الدين المسيحيين فى أسبانيا ، بدرجة فاقت غيرها من البلاد

---

(٦٥) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٣٦١ .
ابن عذارى ، البيان ، ص ٢٣ ، ص ٢٣ .
ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ١٩٦ .
رينو ، المرجع نفسه ، ص ١٨٠ .
(٦٦) أنظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص .

الأوربية الأخرى حتى قيل « ان أسبانيا ضحت بحريتها وبعظمتها كشعب في سبيل الكاثوليكية » (٦٧) .

وقد أخذ نصارى الشمال الأسباني عن المسلمين الكرم وحسن الخلق وتخلصوا من همجيتهم بفضل اتصالهم بالمسلمين واقتباسهم منهم طباعهم النبيلة ، ومبادىء فروسيتهم التي منها مراعاة النساء والشيوخ والاطفال واحترام العهود والوفاء بالوعود ، ورقة العواطف ولين الطباع ، حتى قال بعض مؤرخي النصارى ومتدينيهم انه « يشك في أن المسيحية كانت تستطيع وحدها أن تأتي بمثل ذلك التأثير مهما بولغ في كرمها وتأثيرها ، فلم يكن المسلم مدمرا أو مخربا ، وانما كان مبدعا منشئا للمدن والقصور والبساتين ، ورغم أصله البدوي القاسي ، الا أنه كان يحب اللين والترف ويستطرف الجمال في شتى صوره ويستطيب الحياة الناعمة(٦٨) .

ولذلك رأينا ان اشد المسلمين غزواً وايغالا في بلاد النصرانية في شمال أسبانيا وهو المنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك المظفر (٣٦٦ — ٣٩٩ هـ) رأيناه ينصح بعدم احراق الدور وعدم هدم المنازل ، بل انه كان يصل بلاد الشمال ببلاده بالعمل على تعميرها وتوفير الاقوات والمدن لها ، حتى أنه ندم في أواخر أيامه على ذلك ، لأنه لم يخرب ويدمر من البلاد الأسبانية مسافة تجعل غزو النصارى لمسلمي الأندلس أمرا صعبا(٦٩) .

وكان مسلمو الأندلس أصحاب فضل في انتشار الغناء والموسيقى بين الشعب النصراني في شمال أسبانيا . فقد كان البيت الأموي يرعى هذه الفنون رعاية عظيمة لدرجة أن بعضا من أمراء بني أمية أنفسهم كانوا يعرفون الغناء ، فضلا عن أن معظمهم كانوا شعراء . وكانوا يستقدمون الفتيات

---

(٦٧) ترند ، اسبانيا والبرتغال ، ص ٨ ، ٩ .

(٦٨) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٥٩٧ .

حيدر بامات ، مجالي الاسلام ، ص ٣١١ ، ٣١٢ .

حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٤١٩ .

(٦٩) انظر الفصل الثالث ، الباب الثاني ، ص .

والمغنين من بغـداد والمدينـة المنورة ، وقصـة زرياب المغنى ووصـوله الى الأندلس فى عهـد عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) واثره الكبير فى رقى هذا الفن وفى الحيـاة الاجتماعية عامة ، تغنى عن البيـان(٧٠) .

وتقول بعض الروايات انه قدم الى الأندلس أيضا فى عهـد هذا الأمير ثلاث مغنيات هن ، فضل وعلم وقلم المدنيات . وكانت احداهن وهى (قلم) رومية نافارية الأصل ، أسرت وهى صغيرة ، وأرسلت الى المدينة ثم اتت مع فضل وعلم الى قرطبة بعد أن اشتراهن الأمير عبد الرحمن الثانى ، ويزيد ليفى بروفنسال بانه تزوجهن ورزق من كل واحـدة منهن بولد واصبحن أمهات أولاد . ولم تأت هؤلاء المغنيات الى الأندلس فى عهد عبـد الرحمن الناصر كما قال بذلك الاسـتاذ عبـد الرحمن البرقوقى صـاحب « حضارة العرب » فى الأندلس « اذ أن المقرى يذكر أن (فضـل) المدنية كانت أصـلا لاحدى بنات هارون الرشيد ، ولم يكن الرشيد معاصرا لعبد الرحمن الناصر(٧١) .

ما يهمنا هنـا هو أن بعض الفتيات من سبى نصـارى شمال الأندلس كن يذهبن الى المشرق الاسلامى ، ويتعلمن الغنـاء والموسيقى ويبرعن فيه ، ثم يعـدن الى الاندلس وربما عدن الى بلاط ملوك نصارى شـمال أسبانيا أيضا ، وهو شىء معقـول اذا عرفنـا أن كثـيرا من المغنين والموسيقيين المسلمين كانوا يذهبون الى نبرة وقشتالة وليون وأرغون ابتداء من عصر دول الطوائف بعـد أن تجـزأت الدولة الأموية ، واصبحت بدل قرطبة عدة قرطبـات ، وتهافت ملوكها على الشعراء والموسيقيين والمغنين الذين كان يوجـد من بينهم بعض النصارى والمستعربين ، أى أن التأثير كان متبادلا . ولدينا شواهد كثيرة تدل على ميل نصارى الشمال الى اغانى العرب وموسيقاهم(٧٢) .

---

(٧٠) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٩١ .

(٧١) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١١٨ .

ليفى بروفنسال ، الشرق الاسلامى ، ص ٢٤ .

البرقوقى ، حضارة العرب فى الاندلس ، ص ٧٠ ، ٧١ .

ترند ، اسبانيا والبرتغال ، ص ٣١ .

فمعظم أسماء الآلات الموسيقية عند نصارى الأسبان مشتق من اسمه العربى هو الاسم العربى نفسه منطوقا فى صورة اسبانية ، فالعود كانوا ينطقونه Laud والقيثارة Guitarra والربـاب Rabel والنفير Anafil والبندير Pandera والصنج Sonajas والبـوق Elboque والطبل Atambal

ولازالت العـادات التى ورثوها عن المسلمين كطريقة العزف المعروفة عند الموسيقيين باسم Zambra (وبالعربية زمر) ، وسلوك السامعين اثنـاء العـزف ومقاطعتهم له بصياحهم Ole Ole (الله .. الله) لازالت هذه باقيـة تدل على ما كان يحـدث أيام المسلمين ، حتى أن كلمة يا ليل Leli Leli اخذها الأسبان عن مسلمى الأندلس[٧٣] .

وهنـاك أيضا ما يدل على تفهم نصارى شمال اسبانيا لموسيقى الأندلس وغنائها . فقـد حدث حينما سقطت مدينة بريشتر الاسلامية فى يـد النصارى عام ٤٥٦ هـ واستولوا على ديارها بمـا فيها من متـاع وخـدم وعبيـد وجوارى ، أن جلس أحدهم وطلب من احـدى الجاريات العربيـات أن تمسك عودها وتسمعه هو وضيفه اليهودى المستعرب بعض ما عنـدها . فقامت وعزفت وغنت ، ورغم أن اليهودى يقـول أنه لم يفهم من أشعارها شيئا ، الا أنه استغرب ما قام به ذلك النصرانى من حثـه الشرب ، واظهـاره الطرب لسماع تلك الأشعار وهذه الموسيقى[٧٤]

وربما لم يفهم ذلك النصرانى ما قالته الجـارية ، لكنه بالطبع قـد فهم اللحن الموسيقى ، فالموسيقى لغة عالمية ، زد على ذلك أنه كان هناك شعر أندلسى يسمى بالزجل ، قـد انتشر فى شبه الجزيرة فى ذلك الوقت ، وكانت موسيقاه شعبية ، والزجل نفسه كان خليطـا من العربيـة والأسبانية مما سنتناوله بالدراسة فى الصفحات التالية ، وربما كان غنـاء الجارية من هذا النوع من الشعر ، ففهمه النصرانى وطرب منه .

---

(٧٣) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .
حتى ، المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧١٣ .
(٧٤) ابن حيان برواية المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٧٥ .

وكان من الطبيعى وقد تفوق مسلمو الأندلس فى أساليب الحياة والحضارة ان يأخذ عنهم الأسبان وغير الأسبان ، ليس فى الموسيقى والغناء فقط بل فى مجالات اللهو الأخرى ، مثال ذلك ، الشطرنج الذى أخذه نصارى شمال اسبانيا عن مسلمى الأندلس ، وجاء ذكره للمرة الأولى فى وصيتين لفردين من أسرة نبلاء برشلونة ، يرجع عهدهما الى ما بين سنتى ٣٩٨ هـ ، ٤٠٧ هـ (١٠٠٨ م ، ١٠١٧ م) يهبان فيهما ما لهما من شطرنج الى أشخاص معينين(٧٥) .

وكان لابن عمار وزير المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية مع الفونسو السادس قصة طريفة تتعلق بالشطرنج ، فقد جاء ذلك الملك مهددا اشبيلية وعسكر بجيوشه خارج حدودها ، فأرسل المعتمد وزيره لمفاوضته ومنع هجومه على البلاد . واحتال ابن عمار على الفونسو واستغل اعجابه بما كان معه من شطرنج كان فى غاية الجمال والابداع والاتقان ، ودس الى بعض نبلائه بعد أن رشاهم أن يقنعوا الملك باللعب مع ابن عمار ، بشرط اذا فاز الملك كان له الشطرنج ، واذا فاز ابن عمار كان له ما يريد(٧٦) .

ولما فاز ابن عمار أظهر شرطه ، ولم يكن الا عودة الفونسو الى بلاده دون هجوم على أشبيلية ، فغضب الفونسو ، ولم يرجع الا بعد أن أخذ جزية عامين مقدما . وان كانت القصة فيها شىء من الخيال الا أننا لا نستبعد حدوثها خاصة وقد أجمع المؤرخون المعاصرون على أنه كان لابن عمار علاقة خاصة بالملك الفونسو السادس ، وقد سبق الحديث عن ذلك بالتفصيل ، لكن القصة تدل على تلك الروح الودية وعلى العلاقات الاجتماعية التى كانت تسود الحياة بين مسلمى شبه الجزيرة ونصاراهم رغم ما كان بينهما من حروب شبه دائمة(٧٧) .

---

(٧٥) ترند ، المصدر نفسه ، ص ٦٢ ـ ٦٤ .
محمد كرد على ، الاسلام والحضارة العربية ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ .
(٧٦) المراكشى ، المعجب ، ص ، ١١٩ ، ١٢٠ .
(٧٧) المراكشى ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .
دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ٢٣٨ ـ ٢٤٢ .

أما الأعياد والاحتفال بها فقد كان معروفا عن مسلمى الأندلس أنهم كانوا يحتفلون بالأعياد غير الاسلامية ، خاصة وأنها تأتى فى نفس الفصل من السنة ، لانها تتبع التقويم الشمسى . ولذلك كانت أعياد ثابتة فأخذت صفة الشعبية لدرجة أن بعض الأمراء كان يتزوجون فى هذه المناسبات الدينية المسيحية . فقد احتفل بزواج المنصور بن أبى عامر من أسماء بنت غالب الناصرى فى أول أيام السنة الميلادية الجديدة ، وهو العيدالسنوى الذى كان المسلمون يشاركون فيه وفى غيره على أية صورة[78] .

وتذكر بعض الروايات أن بعض أكابر المسلمين واغنيائهم كانوا يصنعون ما يشبه (التورتة) فى عصرنا الحاضر ، فى عيد النيروز ، اذ كانوا يصنون فى مثل هذا اليوم « مدائن من العجين لها صور مستحسنة » صورها أحد الشعراء فقال[79] :

مدينة مسورة	تحار فيها السحرة
لم تبنها الا يد	عذراء أو مخدرة
بدت عروسا تجتلى	من درمك[80] مزعفرة
وما لها مفاتح	الا لبنان العشرة

كذلك كان التأثير متبادلا فيما يختص **بالزى والملابس** . أما المسلمون فقد كانوا فى أوائل أيام الفتح يتقلدون السيوف ويتأبطون الرماح ويتنكبون القسى ، وكانوا يلبسون العمائم ، وبمضى الوقت صاروا يتشبهون

---

(٧٨) بالنشيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ، ص ٢١ .

Dozy, op. cit, p. 483.

Hole, op. cit, p. 141.

(٧٩) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٨٠) الدرمك ، نوع من انواع الدقيق ، يستعمل فى صنع الخبز وخلافه . انظر ، الطبيخ فى المغرب والاندلس ، ص ٨٢ .

بالنصارى فى أزيائهم وأسلحتهم ، يلبسن الدروع ويغوصون فى الزرد ، ويقتنون سيوف « بوردو» وقسى الافرنجة التى كانوا يتدربون عليهـا طوال الوقت وتركوا العمائم وصاروا يلبسون الكمة الهندية . أما أمراء المسلمين وشيوخهم وقضاتهم فكانوا يلبسون القلانس ويتجنبون العمائم ، ولا يلبسها الا ما شذ منهم (٨١) .

وكان تأثير المسلمين على نصارى الشمال الأسبانى كبيرا فى هذا المجال ، ذلك أنه اعتبارا من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى على الأقل ، دخلت أزياء قرطبة واشبيلية وطليطلة وسرقسطة الاسلامية فى دور أمراء المسيحيين فى شمال البلاد ، وكانت سفارات ملوك نبرة وليون وقشتالة وبرشلونة تفد الى بلاط قرطبة أيام الناصر والمستنصر وابن أبى عامر وابنه عبد الملك ، وتعود محملة بأفخر الملابس والأزياء والهدايا والتحف التى كان نساء البلاط فى ممالك الشمال يتلهفن عليها وينظرن اليها على أنها « موضة » العصر ، وكن يكثرن من الأسئلة عن الأقمشة والألوان والأزياء ، وعن التحف من العاج والكهرمان والزجاج الملون التى كان يعرضها الباعة والتجار فى أسواق قرطبة(٨٢) .

ويحكى لنا ابن حيان عن شاهد عيان أن ملوك أسبانيا فى القرن الخامس الهجرى كانوا يرتدون من ثياب المسلمين ويقلدونهم فى اتخاذ الفرش المستخدمة للجلوس ، وقد حدث عندما فتح التابوت الذى كان يحتوى على رفات السيد القمبيطور بعد ذلك بمدة طويلة وفى أيام الامبراطور شارلكان ، وفى سنة ١٥٤١ م على وجه التحديد ، أن وجدت

---

(٨١) النباهى ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص ٣٣ ، ٣٥ .
ابن فضل الله العمرى ، وصف أفريقية والمغرب والاندلس ، ص ٤٢ .
ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٤٢ .
رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢١٦ .
عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٣٣٠ .
(٨٢) ليفى بروفنسال ، تراث الاندلس ، ص ٦٢١ .
Levi - Provencal, La civilisation Arabe en Espagne pp. 127-129

جثته ملفوفة فى رداء عربى ومعها سيف ورمح ، وقد عاش القمبيطور فى القرن الخامس الهجرى وكان يعيش مع المسلمين والنصارى ، فلا غرابة فى اتخاذه الملابس العربية عندما كان حيا أو تكفينه بها بعد وفاته(٨٣).

أما الطعام والشراب ، فقد تفنن مسلمو الأندلس فى الاكثار من انواعه ، حتى أن النوع الواحد كان يطهى بطرق مختلفة . واشتهرت فئات السكان بأطعمة خاصة بها . فلليهود لون خاص بهم يسمى « حجلة يهودية » ونوع آخر يسمى « لون من فروخ يهودى » ، وللصقالبة لون يسمى « صنعة مسلوق الصقالبة » وانتقل الى الأندلس أكلات عديدة من مختلف البلدان ، من مصر وبغداد واليمن والمغرب وفارس ، ومن نصارى شمال أسبانيا ، فقد أخذوا من أسبانيا النصرانية أكلة « الحوت المروج » أو « صفة لون من الحوت الكبير الجرم » وكذلك ذر الفلفل المسحوق على الطعام(٨٤) .

وقد انتقل الى المطبخ المسيحى فى شمال أسبانيا العديد من الأكلات عن المطبخ الأندلسى لا سيما فى عصر ملوك الطوائف ، حيث زاد الاختلاط بين الجانبين ، وحيث كان التفوق الحضارى لمسلمى الأندلس فى القمة فى ذلك الوقت . وقد انتقلت عادة الشرب الى المسلمين والاستغراق فيها من مجاورتهم واختلاطهم سواء بنصارى المستعربين أم بنصارى الشمال الأسبانى .

وقد تأثر الجانبان أيضا بما كان عند كل منهما من نظم البناء وفن العمارة . وهنا لابدأن نشير الى أن الأديرة والكنائس التى بناها الرهبان المستعربون الذين فروا من الأندلس الاسلامية ، أو كانوا يعيشون فى المدن المستردة كانت مركزا يشع بالثقافة والحياة الاجتماعية التى عاشها

---

(٨٣) ابن حيان برواية ابن بسام ، ذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .
عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٤٩ .
Levi, Provencal op. cit, pp. 130, 137.

(٨٤) مجهول ، الطبيخ فى المغرب والاندلس ، ص ٣٥ ، ٤٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨١ ، ١١٩ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٧٦ .

أولئك الرهبان داخل المجتمع الاسلامى ، ومن ثم فقـــد كانت تلك الأديرة عاملا من عوامل التقرب بين الشعبين المسيحى والمسلم ، وعاملا من عوامل المزج بين الحضارتين الاسلامية والنصرانية على أرض شبه الجزيرة .

وقـــد نشأ فن العمارة الاسلامية فى الأندلس وتطور فى احضان الفن المسيحى الأسبانى ، أخذ عنه صورته الأولى من أعمـــدة الكنائس وأقواسها وأحجـــارها المنحوتة ، ثم أفاض عليه الطـــابع الاسلامى شيئا فشيئا . ومر هذا الفن خـــلال العصور الاسلامية فى أدوار مختلفة ، لكل منهـــا طابعه الأصيل وخصائصه المميزة ، وما يهمنـــا منها هو الدور الأول الذى يسمى بالطراز المستعرب ، والذى ساد فى عصر بنى أمية ، والدور الأندلسى الذى ساد فى عصر دول الطوائف والمرابطين والموحدين[٨٥] .

ولم يطلق اسم الطراز المستعرب على الدور الأول الا لأن الذين قاموا بالبنـــاء والانشاء والزخرفة كانوا من الأسبان الذين أسلموا أو من النصارى المعـــاهدين (المستعربين) أو من غيرهم من نصارى ليون وقشتالة ونبرة وبرشلونة . ولذلك فان المؤثرات الاسبانية النصرانية تبرز فى العمـــارة الاسلامية فى الأندلس فى عصر بنى أميـــة ، خذ على ذلك ما يقوله الغسانى أن المنصور بن أبى عامر زاد فى المسجد الجامع فى قرطبة عام ٣٨١ هـ ، واستخدم فى البنـــاء الأعلاج (نصارى الشمال) ووجـــوه فرسان الخلافة والفرنج (نصارى برشلونة) ، وما يقوله ابن فضل الله العمرى ثم نقـل عنه الحميرى انه كان « على وجه المحراب ســـبع قسى قائمة على عمد ، طول كل قوس أزيد من قامة ، وكل هذه القسى مزججة بصبغة القوط (اى بأسلوبهم فى الفن) ، قد أعجزت المسلمين والروم بغريب أعمالها ودقيق تكوينها ورصفها »[٨٦] .

---

(٨٥) مؤنس ، تطور العمارة الاندلسية ، ص ١٨٦ .

(٨٦) الغسانى ، رحلة الوزير فى افتكاك الاسير ، ص ٢٢ .
ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، ج ١ ، ص ٣١٣ .
الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٥٤ .

وهذه النصوص واضحة الدلالة على تأثير الفن القوطى فى الفن المعمارى الأندلسى ، نتيجة لاشتراك الفرنج والقوط من نصارى شمال اسبانيا فى أعمال البناء والزخرفة ، وكان من الطبيعى أن يتركوا بصماتهم على هذا اللون من أعمال الحضارة . يزيد ذلك وضوحا ما يقوله ابن الوردى من أن لهذا المسجد ثلاثة أعمدة حمراء اللون مكتوب على أحدها اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح ، وهى اشارات صريحة الى استعانة المزخرفين بالرسوم والصور مما يخالف التقليد الاسلامى الذى اقتصر على الزخرفة النباتية فقط ، مما يدل على أن (النصارى) الذين كانوا يعملون فى زخرفة المسجد أضافوها جريا على عادتهم فى زخرفة الكنائس النصرانية ، ولم يسمح لهم باضافتها الا لأنها وردت فى القرآن الكريم (٨٧) .

ولم يلبث مسلمو الأندلس أن تحرروا من النفوذ البيزنطى فى فن العمارة أو من الأساليب القوطية واستبدلوا النقوش العربية المزوجة بالكتابة بالزخرفة الذهبية ، وأكثروا من الأقواس الصغيرة البارزة التى يعلو بعضها بعضا ، واستخدموا العقود المستديرة على صورة نعل الفرس (حدوة الفرس) والتى تربط الأعمدة بعضها ببعض بواسطة أقواس ، فيما سمى بالفن المستعرب الذى شاع فى الأندلس الاسلامية طوال عصر بنى أمية ، وخاصة فى عصر الخلافة(٨٨) .

انتقل الفن المستعرب الى اسبانيا النصرانية فى الشمال ، فى غاليسية (جليقية) على يد الرهبان المستعربين بدءا من القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، وفى أشتورية (أشتريس) وليون فى عهد الفونش الثالث (٢٥٠ — ٢٩٤ هـ / ٨٦٦ — ٩١٠م) وكانت أشتريس قد تخلصت من الوصاية الكارولنجية فى ذلك الوقت ، ولم تجد مناصا من التغذى بحركة المستعربين ، خصوصا وأن تيار الخلافة الثقافى كان يحدث تأثيره

---

(٨٧) ابن الوردى ، خريدة العجائب ص ٤١ ، مؤنس ، تطور العمارة ، ص ٢٠٣ .

(٨٨) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٠٠ ، جميل نخلة المدور ، حضارة الاسلام فى دار السلام ، ص ٣٦ .

القــوى فى منطقة جبــال البرنات (البرانس) بحيث طغى على الفن الكارونجى ، وعقد حدوة الفرس رمز لهذه التفاعلات (٨٩) .

وكذلك تأثرت قطلونية (برشلونة) والتى كانت منطقة نفوذ فرنسية بالفن المستعرب فى العمارة والبناء ، وأكثر الابنية من حيث الضخامة فى قطلونية هو بازيليكـــا سان ميجل دى كوشة San Miguel de Cuxa وهى ذات طابع مستعرب وعلى النحو القرطبى ، ذلك أن عقودها على شكل حدوة الفرس ، وتتداخل فى بنـــاء حنياتها مع امتداد يبلغ ثلاثة ارباع القطر على النحو القرطبى ايضا . وقد تم بنـــاء هـــذه البازيليكا عام ٤٢٧هـ / ١٠٣٥ على أيدى القس أوليفـــا Oliva (٩٠) .

وفى ليون وهى المركز الرئيسى لحركة الاسترداد نجــد أنفسنا فى أكثر مناطق المستعربين ازدهارا ، حيث أقام الرهبـــان الأندلسيون منشآتهم فى كنف الفونسو العظيم وأبنائه ، فنمـــا الطـــابع المستعرب المتكامل وضم روائع معمـــارية ، بحيث كان القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى يمثل ذروة التفـــوق الاسلامى النصرانى الأسبانى على العـــالم الغربى كافة(٩١) .

وفى قشتـــالة ، اصطبغ أسلوب عهد الخلافة بصـــبغة الطبيعة دون أن يفقـــد أصالته ، وشيد الكثير من الكنائس على يد قسس ورهبان قدموا من قرطبة وسائر أحواض الأندلس الاسلامية ، مثل كنيسة اسكالادا التى يرجع تشييدها فى نقش تاريخى الى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م على يد القس الفونسو وأصحابه الذين قدموا من قرطبة ، وكذلك هناك نقش يتصـــل بدير سان مارتن دى كاستنيدا San Martin de Castaneda

---

(٨٩) مانويل جوميث مورينو ، الفن الاسلامى فى أسبانيا ، ص ٤٢٤ .

(٩٠) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٣٢ .

(٩١) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٣٩ .

يتضمن انه من انشاء القس خوان الذى جاء ايضـــا من قرطبة بتاريخ عام ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م (٩٢) .

وفى عصر دول الطـــوائف ، أى الدور الأندلسى وهو الدور الـــذى اكتمل فيه نضج الطراز المستعرب فى الأندلس الاسلامى وبعض نواحى اسبانيا النصرانية ، كان طراز العمارة المعروف بالرومانى قد وجـــد طريقه الى امارات أسبانيا النصرانية الشمالية الشرقية ، ثم تسرب منهـــا الى امارات الشمال الغربى فى ليـــون وقشتالة وجليقية ، ونشأت كنائس ازدانت بالتماثيل الرومانية البدائية بدلا من الزخارف المستعربة ذات العناصر النباتية أو الهندسية ، مثل كنيسة شانت ياقب ، وكنيسة جاقة(٩٣) .

ولم يلبث هذا الطراز الرومانى فى أسبانيا النصرانية أن تأثر بمؤثرات مستعربة اسلامية ، يتجلى ذلك فى الزخـــارف العربية الباقية على الجدران وعلى الصناديق التى تحفظ فيهـــا بقـــايا القديسين ، بل ان بعض هذه الصناديق يحمل كتابات عربية كوفيـــة ، كمـــا نجد فى صـــندوق البقايا فى كنيسة ابيط « أوفيدو Oviedo ، بل نراها فى العقود ، كمـــا نرى فى دير سانتو دو منجو دى سيلوس Santo Domingo de Silos (٩٤)

ولما انتثر عقـــد الخـــلافة الأموية وتفـــرق الأندلسيين فى امارات الطوائف ، وكثر اختلاط المسلمين بالنصارى ، وتداخل بعضهم فى بعض على النحـــو الذى عرفنـــاه طوال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميـــلادى ، استعمل المسلمون طراز الفن الرومانى فى منشآتهم الى جانب الطراز المستعرب ومزجوا الطرازين مزجا كاملا . ويظهر هذا المزج بوضوح فى القصور الزاهرة التى انشأها ملوك الطوائف فى أشبيلية وبطليوس وسرقسطة وقد كشفت الحفـــائر عن أجزاء من عقـــد فى قصر الجعفـــرية الذى بنـــاه

---

(٩٢) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٤٠ ــ ٤٤٢ ، ترند ، المرجع نفسه ، ص ٢٣ . مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٩٣) مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٩٤) مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٢١٦ .

المستعين بن هود ذات طراز مستعرب ، وأجزاء أخرى ذات طراز رومانى ، أما الزخـــارف كلهـــا فمستعربة[٩٥] .

كذلك كانت القصور التى بناها ملوك نصارى الشمال فى قشتالة وليون تقـــوم على طراز تلك القصور العربية فى دول الطوائف ومن أمثلة ذلك قصر شقوبية الذى أمر بانشائه الفونسو السادس على نمط قصر طليطلة العربى الذى كان قد عاش فيه لاجئا سياسيا حوالى تسعة أشهر من عام ٤٦٤ هـ/١٠٧١ م . ومما يزيد فى قيمة ذلك القصر امكان اعتباره مثالا للقصور العربية المحصنة التى أقيمت فى بلاد أسبانيا النصرانية ثم عفارسمها [٩٦] .

وكان لفن العمـــارة الأندلسى اثره ايضا فى الأبنية الأخرى مثل الكبارى والجسور والقنوات المـــائية المعلقة والحمامات التى تقـــول بعض الروايات النصرانية انهـــا لم تعـــد مقصورة على أسبانيا الاسلامية ، بل تعدتها الى المدن الاخرى فى أسبانيا النصرانية ، مثل برغش ، وثيوداد ، وصورية وغيرها . وقد تلاشت هذه الحمامات مع اشتداد حروب الاسترداد وتعصب الكنيسة التى قامت بمحو كل أثر للمسلمين من البلاد[٩٧] .

على أن أعظم ما ابتكرته قرطبة وقدمته لفن العمارة هو طريقة عمـــل الأقبيـــة التى تقـــوم على عقود متقاطعة وأضلاع متعارضة ظاهرة ، وهذه الطريقة تحل المعضـــلة الأساسية فى فن العمارة ، ونعنى بذلك معضـــلة عمل الأسقف ، وذلك بنفس الطريقة التى اتبعت فى العمارة القوطية التى ازدهرت بعد ذلك التاريخ بقرنين من الزمان [٩٨] .

وبرغم أن حركة الاسترداد فى ذاتها كانت تمثل مظهـــرا لتعـــارض الثقافتين الاسلامية والنصرانية فى شبه الجزيرة ، اكثر منهـــا كفاحا دينيا

---

(٩٥) مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٢١٦ .

(٩٦) غوستان لوبون ، المرجع نفسه ، ص ٩٦ .

(٩٧) Levi Provencal, op. cit, p. 136.
Balbas, Los edifios, pp. 110, 111.

(٩٨) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

اقليميا ، وأدت الى اتجاه البــلاط الأشتورى أو القشتالى فى بعض الأحيــان نحو أوربــا باحثا عن حلفــاء له غير المستعربين ، وبالتالى الى عــدم الاستقرار فى الفن الأسبانى ، فمرة يكون غربيا ومرة يكون عربيا ، الا ان قشتالة وارغونة كانتا ميالتين للاساليب الفنية العربية لاسباب عدة ، أولاها الجنس ، فيكاد يكون سكان شبه الجزيرة الايبيرية كلهم من جنس واحد ، وثانيهما ذلك الانسجام بين الشعبين نتيجة هجرة كثير من جماعات المستعربين اليهمــا ، الأمر الذى كان له اثره فى حيــاة كثير من النــاس والشخصيات البارزة حتى الملوك ، وفى تطور العمارة وغيرها من أساليب الحضارة(٩٩) .

(٩٩) Aznar, Los constants de arte espanol, pp. 4 - 8.

٤ – مظاهرات التأثيرات الحضارية

فى ميدان الحياة الثقافية

كان أهم ماتركه مسلمو الأندلس من اثر فى شبه الجزيرة هو الأثر الثقافى ، فمنذ عصر الخلافة الأموية امتدت شعلة النور التى أضاءت سماء الأندلس الاسلامية الى شمال البلاد فى أسبانيا النصرانية ، ومنها الى بقيـــة أنحاء أوربا ، كانت الأندلس اذن هى الجسر او المعبر الذى عبرت عليه حضــــارة الاسلام الزاهرة الى شمال اسبانيا وأوربا ، فعملت على ارســـــاء أسس حضارتهم وتخليصهم من حالة الســـقوط الشنيع الذى أصابهم ابان القرن العاشر الميلادى ، وأعطتهم قطوفها الدانية فى علوم الطب والفلسفة والفلك والكيمياء والرياضيات ، الى غير ذلك من العلوم التى لم تكن تعرفها أسبانيا النصرانية ولا أوربا فى ذلك الوقت الذى كان لا يعرف القراءة والكتابة فيه هناك الا قليل من الرهبان والقسس والنبلاء [١] .

ولقد كان لهذا السمو الثقافى للأندلس الاسلامية رد فعل عند رجال الدين المسيحيين سواء فى قرطبة أم فى شمال أســـبانيا النصرانية ، وان اختلفت طبيعة رد الفعل هذا عند الجانبين . أما فى قرطبة ، فقد دار الصراع الفـــكرى بين رجال الدين المســـلمين والمسيحيين واليهود ، وكانت حركة الاستشهاد المسيحى فى قرطبة فى منتصف القرن الثالث الهجرى / رفضـــا للثقافة الاسلامية الزاحفة ، يتضح ذلك من شكوى ألفارو وغيره من القسس من اقبال مسيحيى الأندلس على الأدب والثقافة العربية واهمالهم الثقافة والأدب اللاتينى ، حتى أن الواحد منهم لا يستطيع أن يكتب رسالة بتلك اللغة ، بينما كان يتبحر فى دراسة العربية وآدابها [٢] .

---

(١) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٧ ، ٨ ، بالنثيا ، المرجع نفسه ، ص ١٠ ، ٩٥ ، حتى المرجع نفسه ، ص ٢ ، ٦٣١ ، رينو ، المرجع نفسه ، ص ٣٣٥ .

(٢) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ، ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، دوزى ، ملوك الطـــوائف ، ص ٨ – ٩ .

كذلك كانت هناك أيضا شكوى من أدباء اليهود ، من انصراف أهل ملتهم عن اللغة العبرية فقد جأر ابن جبيرول (٤١١ — ٤٦٢ هـ — ١٠٢١ — ١٠٧٠ م) بالشكوى من ذلك ، وأخذ يتحسر على انصراف اخوانه فى الدين من أهل سرقطة عن لغتهم المقدسة ويسميهم الجماعة العمياء ، اذ كان بعضهم يتكلم — على حد تعبيره — لغة ايدوم (Edom = عجمية أهل الأندلس) ، وبعضهم الآخر يستعمل لغة كيدار (Kedar = اللغــة العربيــة) . وقد حاول غيره من كتاب اليهود الذين أسخطهم تكلم اليهود بالعربية وتفضيلهم لها على العبرية ، أن يثبت أن هذه الأخيرة لا تقل عن العربية ثروة وجمالا ، فأقبل على مقامات الحريرى وترجمها الى العبرية (٣) .

وقام اليهود والنصارى بعمل دراسات تستهدف النيل من الاســلام والحط من شأنه فقام ابن حزم وغيره ، وهو من أعظم مفكرى الأندلس الاسلامية واثراهم وأغناهم فكرا وتأليفا وخاصة فى الأديان والمقارنة بينها ، والف فى ذلك كتابا مشهورا يسمى « الفصل فى اختلاف الملل والأهواء والنحل » ، وقام هذا المفكر العظيم بخوض المعركة الفكرية الدائرة على أرض الأندلس مع اليهود والنصارى ، واستخدم معرفته للغة اللاتينية فى التعمق فى قراءة الانجيل والتوراة حتى أن خصومه انتقدوا عليه دراســته لهما ومناظرته لأصحابهما ، لكنه لم يعبأ بذلك وألف الكتب للرد على النصارى واليهود ، من اشهرها كتاب « الرد على ابن النغريلة اليهودى » كما الف قصيدة طويلة يفند فيها دعاوى النصرانية (٤) .

هذا فى الأندلس الاسلامية ، أما فى أسبانيا النصرانية فقد اخذ أهلها عن العرب واليهود — كما يقــول كتاب النصارى المحدثين — الشــعور الحساس بالديانة ، وأصبح الدين عاطفة وفنا ، يدل على ذلك تلك الطقوس الكنسية فى أى مكان فى أسبانيا ، والحماس الدينى لكثير من المفكرين الدينيين الأسبان . وأعطى المسلم واليهودى للأسبان ايضــا فكرة الاهتمام بالدين كطريق للقومية ، ولم يكن هناك رابط قبل ذلك بين الدين والقومية ، ومن

---

(٣) بالنثيا ، المرجع نفسه ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٠١ .

(٤) محمد ابراهيم الكنانى ، اثر ابن حزم فى الفكر المسيحى ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨٠ .

ثم فان دول أسبانيا النصرانية جعلت من هيئة الصليب علامتها الحربية ودليلها القومى ، وخاضت حربا صليبية ناجحة ضد مسلمى الأندلس (٥) .

وفى الواقع فان البابوية والكنيسة الأسبانية ، لا المسلمين ، هما اللتان أعطتا هذا الشعور لنصارى الأسبان ، وهما اللتان دفعتاهم دفعا لخوض غمار حرب صليبية ضد مسلمى الأندلس ، وحرمتا عليهم الاشتراك فى الحروب الصليبية بالشرق الاسلامى حتى ينتهوا من أمر مسلمى الاندلس ، لأن حربهم معهم لا تقل شأنا عن الحروب الصليبية بالمشرق . حدث هذا عقب موقعة الزلاقة مباشرة وأثناء استعداد أوربا للحروب الصليبية .

وقد ظهر تأثير الاسلام فيما يختص **بفكرة التوحيد** فى دول أسبانيا النصرانية بطريقة أخرى ، اذ قامت هناك بعض الحركات التجديدية فى تعاليم الدين المسيحى وطقوسه ، وقد اعتبرها البعض حركات الحادية فيها آثار اسلامية ، ففى القرن الثامن قامت حركة الحادية — حسب تعبيرهم — فى سبتمانية وبلاد الغالة القوطية تنكر فكرة الاعتراف المسيحية ، وتنادى بأن الاعتراف لا يكون الا لله وحده وليس للقس . ومن المعروف جيدا أن الاسلام ليست فيه هذه الفكرة ولم تكن المناداة بالغائها عند مسيحيى الشمال الا نتيجة للتأثر بالأفكار الاسلامية المنتشرة ، وقد اعتبر ذلك عداء للكاثوليكية التى تجعل الاعتراف أحد أركانها (٦) .

وبالاضافة لهذه الحركة الهامة قام ميجيتوس Migetus وبث فكرا ينكر التثليث ويقترب بذلك من الاسلام ، وأهم من ذلك هو الحركة الخاصة بالتبنى والتى تقول بأن المسيح فيما يختص بناسوته انما هو ابن الله بالتبنى . وكان الهدف من هذه النظرية هو الحط من شخصية المسيح لتمهيد الطريق للاتحاد بين المسيحيين والمسلمين بزعمهم . وربما تعود هذه الحركة الى آراء مطران طليطلة اليباندوس Elipandus وصديق فيلكس Felix أسقف مدينة أورجل Urgel التابعة لامارة قطلونية ، التى نادى بها

---

(٥) Crow, op. cit, pp. 14, 15.

(٦) فون كريمر ، الحضارة الاسلامية ، ص ٢٨ .

عام ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م وقال أن المسيح كان رجلا امتلأ بالروح المقدسة ، وهكذا تبناه الله واختاره ، مما تسبب فى حدوث انشـــقاق داخل الكنيسة الأسبانية ، بسبب مناقضة تلك الفكرة للعقيدة الكاثوليكية التى تؤمن بعقيدة الثالوث المقدس وبأن المسيح هو الله (٧) .

وقد ذهب تأثير الفكرة الاسلامية فى التوحيد الى نواح بعيدة فى أوربا ، فلم تكن حركة تحطيم الأصنام بما حوته من أشأم النتائج — هكذا يقول أحد كتاب المسيحية — على الامبراطورية البيزنطية خالية كل الخلو من الأثر الاسلامى ويمكن أن نذكر بهذا الصدد أن كلوديوس الذى عين أسقفا لتورين عام ٢٢٠ هـ / ٨٢٨ م والذى قام بطمس واحراق وازالة جميع التماثيل والصلبان فى أسقفيته قد ولد وتربى فى أسبانيا الاسلامية (٨) .

ولم تتأثر العقيدة الاسلامية فى جوهرها بالعقيدة المسيحية وان كانت هناك بعض الأفكار التى تسربت الى المسلمين فى الأندلس نتيجة مجاورتهم للمسيحيين وعيشهم معا فى مكان واحد وعلى أرض واحدة . فيردد أحد كتاب المسلمين فكرة « الخلاص » — وهى فكرة مسيحية — فى كتاباته ، اذ يقول حينما يتحدث عن فساد الأديان ، ان حال الناس لا يصلحه الا نبى ، فان لم يكن زمن نبى ، فالقاضى مسئول عن ذلك كله « فعليه أن يصرح بالحق ، ويجرى الى الصلاح والعدل والتخلص ، وينظر لنفسه فعسى يتخلص » مما يشير على الأرجح الى فكرة الخلاص المسيحية (٩) .

كما أثرت حركة الاستعراب فى ذلك الصراع الذى قام بين النصـــارى المستعربين والنصارى غير المستعربين من قشتاليين وافرنج بخصوص مسألة الصلوات فى القرن الحادى عشر الميلادى . وكان الأخيرون يريدون حمل الأولين على استعمال الطقوس الرومانية فى الصلاة بدلا من المستعربة ذات

---

(٧) فـون كريمر ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

Livermore, op. cit, pp. 79, 80.

انظر ، الفصل الثانى ، الباب الاول ، ص .

(٨) فـون كريمر ، المرجع نفسه ، ص ٢٩ .

(٩) ابن عبدون ، ثلاث رسائل أندلسية فى الحسبة ، ص ٦٠ .

الطابع القوطى ، ولجأوا الى التحكيم ، ورغم أن النتيجة كانت فى صالح المذهب المستعرب ، الا أن الملكة كونستانس زوجة الفونس السادس ملك قشتالة وليون ، وما يحيط بها من رهبان فرنسيو الأصل ، أصروا على استعمال الطقوس الرومانية ، انتصارا لارادة بابا رومة . وقام النصارى المستعربون مدافعين عن طقوسهم فيما يشبه الثورة ، ونادوا بعزل الفونسو السادس الذى لا يحمى طقوسهم ، فأبقى الفونسو على الطقسين معا ، وان كانت هناك رواية أخرى تقول بأنه استجاب لطلب البابا وقرر العمل بالطقوس الرومانية فقط (١٠) .

وكان الفونسو السادس قد اتخذ طليطلة عاصمة لمملكة ليون وقشتالة بعد أن سقطت فى يده عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . وكانت تلك المدينة الهامة وعاصمة القوط القدامى قد أصبحت شيئا فشيئا مركزا للثقافة الاسلامية فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، بعد أن ضرب البربر قرطبة فى أوائل ذلك القرن ، وبقى لها هذا المقام بعد الغزو المسيحى لها عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، فكان بلاط الفونسو السادس مصطبغا بالثقافة الاسلامية ، بل ان الفونسو هذا أعلن نفسه « امبراطور الملتين » أو العقيدتين ، وأصبحت طليطلة محجة يفد اليها طلاب العلم من شمال أسبانيا ومن كل أنحاء أوربا (١١) .

وكان كثير من أذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافاريين يتعلمون العربية ويقصدون حكام الأندلس ليعملوا فى الادارات المختلفة ويختلطون بأشراف العرب ، وتجرى عليهم أحكام الاسلام ، ومن ظل منهم محتفظا بدينه نسى مبادئه وصار يحجب نساءه كالمسلمين ويقتدى بأزيائهم وألسنتهم وعاداتهم فى مآدبهم ورفاهيتهم وأنسهم ولهوهم ، وقد نبغ نفر منهم ووصلوا الى منصب الوزارة (١٢) .

---

(١٠) روبرتسون ، اتحاف الملوك ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
شكيب أرسلان ، الحلل ، حـ ١ ، ص ٣٨٨ .
(١١) ابن صاعد ، طبقات الامم ، ص ١٧ ، ترند ، المرجع نفسه ، ص ٥٤ ، ٥٥ .
(١٢) محمد كرد على ، المرجع نفسه ، ص ٣٩ .

ولم يقتصر الأمر على قدوم نصارى الشمال الأسبانى الى قرطبة لتلقى العلم أو للعمل فيها ، بل وفد اليها كثير من ابنــاء أوربا كما اشرنا من قبل ، وكان من أوائل هؤلاء الوافدين جربرت (البابا سلفستر الثـانى) عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م ، وقد ظل فى قرطبة مدة ثلاث سنوات (٣٥٦ — ٣٥٩ هـ / ٩٦٧ — ٩٧٠ م) يستقى العلم والمعرفة ، ولما عاد الى أوربا كأول سفير للعلم العربى أدهش الناس بما حمله اليهم من عجائب الفلك والرياضيات والحساب وعدوا ذلك من أعمال السحر والشعوذة (١٣) .

وقد سبقت الاشارة الى استعراب الســيد القمبيطور ، وقيـامه بالاستيلاء على بلنسية العربية عام ٤٨٧ هـ . ومن المرجح جدا أن السيد كان يتكلم العربية بطلاقة فى حفــلات القصر فى بلنسية ، وأن الســفراء المسلمين والنصارى كانوا يتنافسون بين يديه — كل بلغته — فى انشاد أشعارهم . وهناك ملك آخر من ملوك الشمال الأسبانى ، وهو بدور الأول ابن الفونسو ملك أرغونة المتوفى عام ١١٠٤ م ، وكان هذا الملك من دعاة العلوم العربيــة ، وكان لا يحسن الا العربيــة كتابة ولا يوقع رسائله الا بها (١٤) .

وسبقت الاشارة أيضا الى طلب الفونسو بايفــاد اثنين من علماء قرطبة لتأديب ابنه وولى عهده شانجة (سانشو) ، وكان بلاط الملك يحتوى على أدباء من المسلمين واليهود المستعربين يكتبون له خطاباته الى ملوك دول الطوائف ويتخذ منهم سفراء اليهم ، بل انه كان يصحب فى جيشه عددا منهم جريا على عادة الملوك فى الأندلس . وقد قام بعضهم يمدحه فى قصائد

---

(١٣) Pidal, Espanay la introduccion de la cincia arabe en Occidente, p. 13.

Vellicrosa, El quebacer astronomico de la Espana Arabe, p. 312.

غوستان لوبون ، المرجع نفسه ، ص ٥٩٠ .

(١٤) Pidal, op. cit, p. 14.

من الشعر . وان دل هذا على شىء فانما يدل على تفوق الثقافة الإسلامية وانتشارها فى جميع أرجاء شبه الجزيرة (١٥) .

وكانت هناك حركة للترجمة نشأت فى عدة مدن اسلامية ، ولكن أهم هذه المدن كانت طليطلة وخاصة بعد سقوطها فى يد الفونسو السادس عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . كانت هذه المدينة عامرة بالمكتبات العربية ، وكان يقطنها جماعات ثلاث : المسيحيون والعرب واليهود . وقد قام الأخيرون بدور الوساطة بين المسيحيين والعرب ، ثم بدأت حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية ثم الى الأسبانية ، وذلك بدءا من أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (١٦) .

وكان مسلمو الأندلس قد نشطوا قبل ذلك فى ترجمة الكتب الاغريقية واللاتينية الى العربية ، ومن أمثلة ذلك كتاب ديو ستوريدس فى الطب الذى أرسله الامبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وقام نفر من عجم الأندلس بنقله الى العربية ، كما قاموا أيضا بنقل كتاب هورشيوس Horasius الرومانى فى التاريخ الى العربية فى عهد الحكم المستنصر بن الناصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) على يد أحد فقهاء قرطبة وأحد قساوستها المستعربين ، وبنى عليه أحمد بن محمد الرازى ما كتبه فى الجغرافية التاريخية فيما بعد (١٧) .

ومما ساعد على رواج حركة الترجمة الى العربية ومنها الى اللغات الأخرى ، وجود عدد وافر من العلماء والأدباء المسلمين كانوا على معرفة باللغات الأجنبية ، وخاصة فى القرن الخامس الهجرى الذى ازدهرت فيه العلوم والآداب الاسلامية ازدهارا كبيرا . من هؤلاء عبد الدايم بن مروان ابن جبر اللغوى نزيل المرية (ت ٤٢٦ هـ) وعاصم بن أيوب الأديب ، من

---

(١٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٦ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(١٦) Pidal, op. cit, p. 14, Crow, op. cit, p. 96.

(١٧) Vallicrosa op. cit, 310.

مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون فى الاندلس ، ص ٢١٦ ، ٢٣٤ ، ٢٥١ .

أهل بطليوس (ت ٤٩٤ هـ) ومحمد بن موسى بن فتح الأنصاري من أهل بطليوس (ت ٤٦٠ هـ) ، هشام بن محمد بن هشام بن محمد القيسي المعروف بابن الصحفى ، من أهل قرطبة ، (ت ٤٤٠ هـ) ، ويوسف بن عيسى بن سليمان النحوى من أهل شنتمرية الغرب (ت ٤٧٦ هـ) [١٨] .

وليس بغريب أن يعرف أدباء قرطبـــة وغيرها من حواضر الأندلس الأخرى اللغة اللاتينية أو لهجاتها الأخرى التى عرفت بالقشتالية أو البرتغالية أو القطلونية ، والتى دخلت فيها آلاف وآلاف من الكلمات العربية ، فقد كانت بلاد الأندلس وطنا تتعايش على أرضه اللغة العربية واللاتينية ، وأصبح الناس هناك يتكلمون الى جانب العربية التى كانت لغة رسمية ، رطانة لاتينية دارجة يسميها ابن حزم اللطينية ، ويصفها البعض بعجمية أهـــل الأندلس ، كانوا يستخدمونها فى شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم ، بل انها كانت شائعة حتى فى بلاط الخلفاء [١٩] .

وكان بعض القضاة يعرفون تلك اللغة ويتكلمون بها ، كما تلقب كثير من الناس بألقاب أعجمية مثل البطرة شـــقه أو البطرشك ، وهى كلمة مأخوذة من Petra Sica ومعناها الحجر اليابس باللاتينية أو Piedra Seca بالأسبانية ، وهناك من تلقب بابن البانش أو البينش . وقال ابن الأبار أن معنـــاها بالعربيـــة الرجلان لكننـــا وجدنا أن الكلمة مأخوذة من لفظ Pensionario الأسبانية ومعناها الأديب ، يؤيد ذلك أن لفظ البانش كان لقبا لعلى بن أحمد بن خلف الأنصارى ، وكان نحويا أديبـــا ، مات بغرناطة ٥٢٨ هـ [٢٠] .

---

(١٨) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ ١ ، ص ٣٧٢ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ ، ٥١٣ ، ٦١٣ ، ٦٤٣ .

(١٩) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٥ ، بالنثيا ، المرجع نفسه ، ص ٥٩ . مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٦ ، ترند ، المرجع نفسه ، ص ١٣ ، ١٤ .

(٢٠) ابن حزم المصـدر نفسه ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ٩٦ ، ١١٨ . ابن الآبار ، الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٢١٥ ، المعجم فى أصحاب أبى على الصيرفى ، ص ٢٧٤ ، ٢٢ ، ٣٤ ، ٦٢ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٦٦ ، ٢٣٦ ، المقرى ، المصـدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

Diccionario Espanol Arabic, p. 352.

وقد بلغت معرفة الناس باللغـــة العجمية الأندلســـية مبلغا جعلهم يستخدمونها فى الاحتيال لكسب المال أو فى الحرب ، فقد كان بعض تجار الرقيق الغشاشين يستخدمون بعض النسوة الأندلسيات اللائى يجدن الكلام بالعجمية ويلبسوهن ملابس سبايا الروم ويبيعونهن على أنهن كذلك . كما حدث فى أحد حروب المقتدر بن هود مع راميرو ملك أرغونة أن تعرض للهزيمة فى احدى المواقع لكن فتاه المسمى سعداره ، وكان رجلا شجاعا ، لبس زى الروم واستخدم مهـــارته اللغوية فى الرومية والعجمية ، اذ كان يتكلم نفس لغتهم لمجاورتهم وكثرة مخالطتهم واحتال حتى دخل بين جنود راميرو ، واقترب منه حتى تمكن من طعنه ، وصاح بالرومية : قتل السلطان يا معشر الروم . فتخاذل عسكره وولوا منهزمين ، وانتصر المقتـــدر بتلك الحيلة اللغوية (٢١) .

وكما اشتكى اليهود والنصارى من أهل ملتهم أنهم قد تركوا لغتهم وانكبوا على العربية ، كذلك كان لبعض كتاب المسلمين نفس الشكوى ، فقد رفع ابن شهيد (ت ٤٢٦ هـ) عقيرته لائما على المسلمين عيهم فى الكلام بالعربية وأن لغتهم « ليس لسيبويه فيها عمل ، ولا للفراهيـــدى اليها طريق ، ولا للبيان عليها سمة ، انما هى لكنة أعجمية يؤدون بها المعـــانى تأدية المجوس والنبط ، وأنهم تحولوا الى العامية الصريحة وغلبت عليهم العجمة » (٢٢) .

ورغم أن علم النحو كان من العلوم الهامة فى الأندلس الا أن كلام أهلها الشائع سواء عند العامة أو الخاصة ، كان كثير البعد عما يقتضيه الأسلوب العربى السليم ، حتى لو أن أحدا سمع كلام الشلوبينى الذى كان يشهد له بتفوقه فى علم النحو فى مشارق الأرض ومغاربها ، لضحك بملء فيه لمـــا فى كلامه من شدة التحريف . ولذلك اقتصر استعمال العربية الفصحى على الأدب والمكاتبات الرسمية ، ولم يعـــد من الناس من يتكلمها الا استثقلوه

---

(٢١) الطرطوشى ، سراج الملوك ، ص ١٥٦ ، السقطى ، آداب الحسبة ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢٢) ابن شهيد برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، حـ ١ ، ص ٢٢٩ ، ابن حيـــان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، حـ ١ ، ص ٥٠ .

واستبردوه ، ولم يكن ذلك الا بسبب مجاورتهم ومخالطتهم للفرنج والأسبان الذين اثروا فى لغتهم وفى طريقة أدائها ، فقد كانوا يكثرون من الأمالة والترقيق والتفخيم ، ولا يعقدون حرف القاف وانما ينطقونه « كافا » (٢٣) .

وقد أشار ابن حزم الى ذلك وقال عن اهل (بلى) شمال قرطبة أنهم لا يحسنون الكلام باللطينية ، وكأن الكلام بها كان شيئا عاديا . كما قال عن أهل فحص البلوط ، وهم على بعد ليلة واحدة من قرطبة أن « من سمع لغتهم يقول انها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة » ويعلل ذلك قائلا : « وهكذا فى كثير من البلاد ، فانه بمجاورة أهل تلك البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله » مما يؤيد ما ذهبنا اليه من اثر الجوار والاختلاط فى اللغة والأدب (٢٤) .

وقد ظهر تأثير عجمية أهل الأندلس أو الأسبانية المحلية فى فنين أدبيين عظيمين قاما على يد اهل الأندلس وأولهما وهو **الموشحات** التى ابتكرها مقدم بن معافر القبرى الضرير (٢٢٥ — ٢٩٩ هـ / ٨٤٠ — ٨١٢ م) ، وثانيهما الزجل الذى ظهر على يد ابن عبد ربه (ت ٣٥٦) والرمادى (ت ٤١٢ هـ) ، لكنه ذاع وانتشر على يد ابن قزمان (٤٦٠ — ٥٥٤ هـ / ١٠٦٨ — ١١٦٠ م) . ورغم أن الموشحات كانت الفاظها عربية فصيحة الا أنها تخلصت من القافية الموحدة للقصيدة ، وكان القبرى « يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة » (٢٥) .

والمركز هذا كان يسمى الخرجة أو (القفل) وهى اهم جزء فى الموشح ، وواضح أن الخرجة كانت تكتب فى لغة عامية أو عجمية . ووجود الخرجات الأعجمية فى مخطوطات الموشحات الأندلسية دون شرح لمعانى الفاظها ، دليل على أن هذه اللغة الأعجمية كانت معروفة لدى قراء الموشحات ، وهى تساوى فى الدلالة الخرجات العامية ، مما دعا البعض الى القول بوجود أصل مشترك بنيت عليه الموشحات ، وهذا الأصل يعود

---

(٢٣) المقرى ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٠٣ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٢٤) ابن حزم ، الاحكام ، جـ ١ ، ص ٣١ ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٥ .

(٢٥) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، جـ ٢ ، ص ١ ، ٢ .

الى اغانى فى العامية العربية وفى العامية الأعجمية ، لأن اللغتين عاشتا فى البيئة الأندلسية جنبا الى جنب ، وواضح أن تلك الخرجات أخذت من تلك الأغانى العجمية التى امتد تأثيرها الى العامية العربية فى أغانيها ، ثم الى العربية الفصيحة فى موشحاتها (٢٦) .

اما الزجل فقد كان كله باللغة العامية المختلطة باللغة الأعجمية أو الأسبانية ، وكان تطورا نتج عن الموشحات التى شاع استعمالها فى الأندلس فى ذلك الوقت ، فقد نسج العامة على منوالها واستحدثوا فن الزجل الذى لم يلتزموا فيه بالقافية ، وانما التزموا فيه بالنظم على مناحيهم وحسب لغتهم المستعجمة (٢٧) .

ومن المحقق — أخيرا — أن الزجل أسبانى ، لأنه يتحدث عن اعياد ومواسم لاتوجد الا فى التقويم اللاتينى ، ولاستعماله الفاظا وعبارات من عجمية الأندلس مختلطة بلغته العربية الدراجة ، الى جانب اهماله للموضوعات الأدبية العربية التقليدية كوصف الرحلات فى القفار المهجورة وحياة البداوة والتنقل والارتحال والبكاء على الأطلال الى غير ذلك ، واهتمامه بتصوير الحياة اليومية لمسلمى الأندلس والتى فيها ذكر كثير لعادات المستعربين وحياتهم(٢٨) .

وكما تأثر أدب الأندلس فى لغته وزجله ومشحاته باللغة الأعجمية أو الرومانية أو الأسبانية وهى لغة مشتقة من اللاتينية كما سبق القول ، فقد أثر الأدب الأندلسى نفسه ولغته العربية فى لغة الممالك النصرانية فى شمال أسبانيا وآدابها أيضا .

ذلك أنه عقب ظهور الموشحات والأزجال فى الأندلس ، ظهر شعر يشبهه عند الأسبان فى الشمال وفى مقاطعة بروفانى فى جنوب فرنسا ،

---

(٢٦) عبد العزيز الاهوانى ، الزجل فى الاندلس ، ص ٦ ، ٧ ، ٤٧ ، ٥١ .
(٢٧) المقرى ، نفح الطيب ، حـ ٤ ، ص ٢٠٠ ، أزهار الرياض ، حـ ٢ ، ص ٢١٦ .
(٢٨) بالنثيا ، المرجع نفسه ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

وسمى هذا الشعر عندهم باسم شعر التروبادور أو التروفير حسب اللهجات الفرنسية ، وباسم الجو جلاديس حسب لغة أهل قشتالة من الأسبان . ويمتاز هذا الشعر بأنه شعر عاطفى يوقع على الآلات الموسيقية مثل الزجل ، ويقصدون به البيوت الأرستقراطية والبلاط الملكى(٢٩) .

وقد اختلف المستشرقون والباحثون كثيرا فى منشأ هذا الشعر ، هل هم أخذوه عن مسلمى الأندلس ، أم أنه تطور طبيعى للشعر عندهم ؟ والأرجح عند كثير منهم أنه مأخوذ عن مسلمى الأندلس ، أو أن هناك قرابة بينهما على الأقل . ذلك أن هناك تشابه فى موضوعات هذا الشعر وشعر الزجل الأندلسى ، كما أن بعض أوزان هذا الشعر الأفرنجى قشتالى يساوى أوزان الموشحات والأزجال الأندلسية ، أضف الى ذلك ، التماثل فى ترتيب الأبيات وتعاقب القوافى ، مما يدل على التأثر الذى لا شك فيه بين هذين النوعين من الشعر(٣٠) .

وقد لعبت سرقسطة فى هذا المجال دورا كبيرا ، ذلك أنها كانت مهبطا لفرسان النصارى من كل جنس ، يجدون فى بنى هود وفى بلاطهم الباذخ ساحة رحبة ، فى الوقت الذى كانت فيه سرقسطة مركزا لأشعار الفروسية والشعر الغنائى الذى كان ينشر يومئذ فى أرجاء قلطونية وأرغونة ونيرة ، ومنها كانت تنتقل المقطوعات الغنائية الأندلسية الى المجتمعات النصرانية المجاورة ، فتؤثر فى الملاحم والاناشيد القومية ، وقد انتقلت هذه المؤثرات فيما بعد بمضى الزمن عبر جبال البرنات الى جنوبى فرنسا ثم الى غيرها من المجتمعات النصرانية(٣١) .

كذلك يرجع ظهور فن شعر الحب العذرى فى اللغة الاسبانية منذ القرن الثانى الهجرى / القرن الثامن الميلادى الى تأثير الشعر العربى ، كما أن

---

(٢٩) ليفى بروفنسال ، أدب الاندلس وتاريخها ، ص ٢٤ ، ٤٥ ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢٨٣ .

Pidal, Espana coma Elebon entre el cristianismo el Islam, pp7-10

(٣٠) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٣١) عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٩٦ ، لين بول ، قصة العرب فى أسبانيا ، ص ١٢٧ .

الشعر القصصى الأسبانى الذي يتمثل فى قصيدة السيد القمبيطور ذو أثر اسلامى واضح ، فمن المحتمل أن قائلها كان راهبا اسبانيا يعيش فى مملكة سرقسطة الاسلامية او مستعربا من بلدة مدينة سالم ، وقد فرغ منها عام ٥٣٥هـ / ١١٤٠م أى بعد وفاة القمبيطور بأربعين عاما . وهى تدور حول حياة ذلك الفارس المغامر الذى كان يتقلب بين ملوك أسبانيا النصرانية وملوك الأندلس الاسلامية وأصبحت بطولته ومغامراته مادة خصبة تثير خيال الشعراء والأدباء منذ ذلك الحين(٣٢) .

أما فى ميدان اللغة والمفردات اللغوية ، فيقول بعض الباحثين المحدثين أن المفردات العربية التى دخلت الى الأسبانية تقدر بربع محتويات القاموس الأسبانى ، بينما دخلت الى البرتغالية حوالى ثلاثة آلاف كلمة عربية ، واللغة القطلانية أيضا فيها الكثير من الألفاظ العربية ، ولم يكن ذلك الا بسبب أن طوائف من المسلمين أنفسهم اتخذوها فى لغتهم وأطلقوها على أشياء سموها بها ، وانتقلت هذه الأشياء بمسمياتها الى نصارى الشمال ودخلت فى لغتهم(٣٣) .

وعلى سبيل المثال وليس على سبيل الحصر ، فان كلمة فندق هى Fonda وطاحونة Tahona وتعريف Tarifa والأرز El Erros والسكر El Azucar والساقية Acequia والخزانة Alacena والمخدة Almohada والدكان Adoqurin والكرى (الايجار) Alquiler والقاضى Alcalde والقبة Alcoba والبناء Albanil والقطران Alquitran وفلان Fulano . ومن الكلمات التى دخلت البرتغالية ولم تستعمل أصلا فى الأسبانية الحديثة ، القطيفة A lcatifa الفندق Alfandaga الخياط Alfaiate وصحراء Safara والرطل Arretel الى غير ذلك(٣٤)

---

(٣٢) حتى ، المرجع نفسه ، حـ ٢ ، ص ٦٦٨ ، بالنثيا ، المرجع نفسه ، ص ٥٣ .

(٣٣) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، محمد كرد على ، المرجع نفسه حـ ١ ص ٢٣٤ ، الرسلان ، المرجع نفسه ، حـ ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٣٤) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ .

وبشكل عام فان أسماء الجبال والتلال والجزر والشواطىء الرملية والأنهار والبحيرات والينابيع الحارة ، والسهول والحقول ، والغابات والحدائقوالأزهار والأشجار ثم الكهوف والمناجم ، والألوان ومنشآت الانسان كالمزارع والقرى والمدن رالأسواق والمساجد ، والطرق المرصوفة والقناطر والقلاع والحصون والمطاحن والأبراج ، كل هذه أصبحت أعلاما جغرافية مأخوذة عن العربية(٣٥) .

فلفظة جبل تظهر فى جبلكون Jabalcon وجبرالين Gibralbin وجبل الفارو Gibralfaro وكلمة المدور أصبحت اسما للمدينة المسماة Aimoda var del Rio وتظهر كلمة وادى فى معظم أسماء الاودية مثل الوادى الكبير Guadalquivir ووادى الحجارة Guadalajara ووادى المدينة Guadelmedina ووادى الرملة Guadarrama ، ومجموعة مصطلحات الرى والهندسة المعمارية والحلى كلها ذات أسماء عربية وعلى الجملة فقد أخذت الأسبانية من العربية الكثير ، واذا كان التأثير الأسبانى والرومانى على اللغة العربية عميقا فقد كان تأثير العربية على الاسبانية لا يقل عمقا بل كان أعمق منه بكثير(٣٦) .

واذا كان المستعربون واليهود هم اداة الاتصال بين الثقافة الاسلامية والثقافة المسيحية الاسبانية ، أو بتعبير آخر كانوا هم الذين دفعوا حركة الاستعراب دفعا الى الشمال الاسبانى ، فان المدن التى سقطت فى يد نصارى الاسبان مثل طلمنكة وطليطلة وبرشلونة وغيرها بقيت مدنا تعيش فيها العربية التى كان يتكلمها المدجنون والمستعربون لعدة قرون بعد سقوط تلك المدن ، وكان هناك من علمائها وأدبائها المسلمين من فضلوا البقاء فيها ، ربما لمغنم قد يصيبونه من العلاقة الجديدة

---

(٣٥) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٤٧ ، ٥٠ .

(٣٦) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٤٧ ، ٥٠ ، محمد الفاسى ، الاعلام الجغرافية الاندلسية ، ص ١٤ ، عبد العزيز بن عبد الله ، العربية لغة العلم والحضارة ، ص ٢٦١ .

التى يمكن أن تنشأ بينهم وبين الحكام الجدد ، أو حفاظا على أملاكهم وعقاراتهم وعدم التخلى عنها[٣٧] .

وقد التزمت كتب الطبقات بالصمت عن ذكر هؤلاء العلماء والأدباء الا فى القليل النادر جدا ، لأن تلك المدن لم تعد ديار اسلام حسب تعبير أحد أصحاب الطبقات، ولم نعثر فى طليطلة مثلا الا على ترجمة لاثنين من علمائها بعد سقوطها فى يد الفونسو السادس عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥ م أولهما هو أحمد بن عبد الرحمن بن مطاهر الأنصارى ، وله كتاب فى تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها أخبر به الحاكم أبو الحسن بن بقى وغيره ، ونقل عنه ابن بشكوال فى كتاب « الصلة » كل ما نسبه اليه ، ويقول عنه انه كان ثقة فيما رواه ونقله ، وتوفى ابن مطاهر هذا فى طليطلة عام ٤٨٩ هـ ؛ أى بعد سقوطها فى يد النصارى باحدى عشرة سنة[٣٨] .

أما الثانى فهو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن جماهر الحجرى ، من أهل طليطلة وكان من أهل العلم والفكر ، رحل الى الحج عام ٤٥٢ هـ وسمع العلم بمكة ومصر ثم عاد الى وطنه وبقى فى طليطلة حتى توفى بها عام ٤٨٨ هـ أيام حكم النصارى لها . من هذا نفهم ، أنه لم يكن هناك مانع من عودة المسلمين الى البلاد التى استردها نصارى الشمال اذا ما خرجوا منها للحج أو خلافه ، وظل هؤلاء يعيشون بين ظهرانى النصارى وسموا بالمدجنين ، وكانوا عاملا أو رافدا أو قناة من قنوات الاتصال بين الثقافة الاسلامية المتفوقة وبين الثقافة المسيحية الاسبانية الناشئة[٣٩] .

لم يقتصر التأثير والتأثر على مجالات اللغة والأدب والأفكار والمعتقدات الدينية كما سبق القول ، بل كان هناك تأثير فى مجال العلوم الأخرى مثل الطب والرياضيات والفلك . فالأسقف Recisnundo والذى

---

(٣٧) بالنثيا ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٨ .
(٣٨) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ ١ ص ٧٢ ، ٧٣ .
(٣٩) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ ٢ ص ٥٣١ ، ٥٣٢ .

يسميه العرب بربيع بن زيد والذى كان فى خدمة عبد الرحمن الناصر وكان سفيره الى الامبراطور أوتو امبراطور ألمانيا ، وضع كتابا فى التقويم الفلكى نشره دوزى ، ووجد أن هذا التقويم الذى كتبه ربيع باللاتينية ما هو الا ترجمة لتقويم عريب بن سعد مع بعض الزيادات ، ولاشك أن هذا الكتاب الفلكى اللاتينى قد وجد طريقه الى اسبانيا النصرانية (٤٠)

وكانت الثقافة اللاتينية حتى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، بعيدة عن ذلك النشاط العلمى ، ولم يكن لأصحابها علم واسع بالحساب أو الرياضة كالعرب ، وما كانوا يعرفونه فى هذا المجال لا يعدو الا أن يكون جهودا أولية بجانب ما ظهر عند مسلمى الأندلس فى ذلك الوقت . ولذلك فليس من الغريب أن يحمل مستعربو الأندلس هذا العلم الى ممالك أرغونة وليون وكونتية برشلونة(٤١) .

وقد عثر الأستاذ بييكروسا على مخطوط هو الآن أحد مخطوطات مكتبة ريبول فى محافظة برشلونة ، ويحمل رقم ٢٢٥ ، وهو مجموع عظيم من المقالات فى الفلك والرياضيات مترجمة من العربية الى اللاتينية والترجمة اللاتينية نفسها حافلة بالمصطلحات العربية واستنتج هذا الباحث من دراسة ذلك المخطوط أن الفلك والرياضيات كانت مزدهرة فى الأندلس قبل أيام الحكم المستنصر ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ ، وازداد هذا الازدهار بعد ذلك على يد مسلمة المجريطى ومدرسته التى ازدهرت على يدها تلك العلوم فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، كما ظهر أيضا فى ذلك الوقت فى طليطلة الزرقالى الطليطلى والذى يعد أعظم فلكى عرفته أوربا قبل يوحنا كبلر(٤٢) .

أما الطب فقد نبغ فيه كثير من الأطباء النصارى واليهود فى الأندلس الاسلامية ، وكانوا فى البداية يعتمدون على بعض الكتب النصرانية المؤلفة

---

(٤٠) بالنثيا ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ .
Villicrosa, op. cit., p. 312

(٤١) Villicrosa, op. cit., p. 312

(٤٢) Villicrosa, op. cit., pp. 312,313

فى فروع الطب وليس فى أصوله ، الى ان ظهر بينهم من اعتمد على الأصول مثل كتب أبقراط وجالينوس وغيرهم . ومن أشهر الأطبـاء فى الأندلس حسداى بن اسحاق ، الذى كان وزيرا وسفيرا لعبد الرحمن النـاصر ، ولازلنـا نذكر سفارته الى الملكة طوطة ملكة (نبرة) وعلاجه لحفيدهـا سانشو ملك ليـون ، بعـد أن عجز أطبـاء الشمال النصرانى عن ذلك(٤٣)

وهنـاك مجـال ظهر فيه مسلمو الأندلس الاسلامية وهو الفنون الزخرفية من نحت ورسم وتصوير وزخرفة على العـاج والمعـادن وقد تأثروا فيها بالفن النصرانى ، فقـد اقتبسوا من فنون القوط والفـرنج والبيزنطيين والبنادقة لكنهم كانوا مبتكرين منشئين لفن اسلامى زخرفى محض أثر فى غيرهم سواء فى دول أسبانيا النصرانية أم فى غيرها من دول أوربا . وكان الاحتكـاك مستمرا فى هذا المجـال بين الفنانين الأندلسيين وبين الفنـانين البيزنطيين الذين أوفدهم أباطرة بيزنطة للاشتراك فى تزيين ونقش المساجد والقصور والحمامات الأندلسية على عهد الخـلافة ، ونتج عن ذلك أن بلغ الفن الاسلامى الأندلسى أوج ازدهـاره فى القـرن الرابع الهجرى (٤٤) .

وكان عرب الأندلس أسبق الأمم الاسلامية فى صنع التماثيل والصور ، وقـد زينوا قصورهم ومعاهدهم منذ القرن الثالث الهجرى بالتماثيل والصور والنقوش التى تمثل الحيوان والنبـات والطير ، أما التماثيل والصور البشرية فكانت تلقى نوعا من التحـريم العـام . لكنـه فى عصر عبـد الرحمن النـاصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) خطـا الفن الأندلسى خطـوة أخرى ، اذ صنعت التمـاثيل والصور البشرية ، فقـد أمر الناصر برسم صورة جاريته وحظيته « الزهـراء » على باب قصر المدينة التى سماها باسمها ، كمـا زينت أبهـاء قصورها بتماثيل وصور بشرية فكانت ظاهرة فنية جديدة(٤٥) .

---

(٤٣) ابن صاعـد ، طبقات الامم ، ص ٧٨ ، انظر الفصل الثالث ، الباب الثانى ص

(٤٤) عنان ، نهاية الاندلس ، العصر الرابع ، ص ٣٨٣ ، أحمـد أمين ، ظهر الاسـلام ، جـ ٣ ، ص ٣٢ .

(٤٥) عنان ، المرجع نفسه ، العصر الرابع ، ص ٣٧٨ ، أحمد أمين ، المرجع نفسـه ، جـ ٣ ، ص ٣٠٠ .

وفى ميدان التصوير ، يمكن أن نميز بين ثلاثة أساليب ، الأول الأندلسى الطليطلى ذو الصفات الاسلامية الشرقية ، والثانى القطونى ، وهو صدى للاوربى والثالث القشتالى الليونى ، وهو مزيج من الاثنين مع احتفاظه ببعض خصائصه . والمقصود بالتصوير هنا هو « صور المخطوطات » وقد ظهر فى هذا الفن أثر المستعربين بصورة قوية جدا على يد ماخيو الذى ترك اسمه مدونا فى خاتمة تفسير الكتاب االأخير من العهد الجديد المعروف بكتاب الرؤيا الذى أتمه فى عام ٣١٤هـ / ٩٢٦ م .

وقد أصاب هذا الفنان نجاحا عظيما حتى أن مصورى ليون وقشتالة ظلوا يسيرون على منواله حتى أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى[٤٦] .

وبتحليل فن (ماخيو) نلاحظ أن كل ما يتعلق بهمن أساليب فنية فى العمارة والزخرفة قد ورد كاملا من الأندلس وهو مستعرب ، ولعله تعلم طريقة التلوين بالماء من هناك ، كما يستدل على ذلك من اشار تاريخيةفىالانجيلالاشبيلى ، ولم يأخذ شيئا من الزخارف الشمالية ، ولا من تلك التكوينات الموجودة فى البوابات والأشكال ذات الأثر الأوربى ، وانما استوحى فنه من الفن المستعرب[٤٧] .

واذا كان ماخيو قد أحدث ثورة فى تنسيق المخطوطات بأراضى ليون ، فان هناك راهبا آخر فى قشتالة أضفى على الخط المستعرب رشاقة وجمالا يجعل من خطوطه ألمع خط فى عصر الخلافة ذلك هو « فلورنثيو » الذى ولد عام ٣٠٦هـ / ٩١٨ م واخذت تظهر براعته منذ عام ٣٣١هـ / ٩٤٣م ، وكان فنه الزخرفى مشرب بالروح المستعربة خاصة فى استخدام عقود حدوة الفرس والتوريقات والنقوش العربية الكوفية[٤٨].

---

(٤٦) موريتو ، المرجع نفسه ، ص ٤٧٠ ، ٤٧٦ .

Aznar, Los constants del arte espanol, pp. 3-7.

(٤٧) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٣ .

(٤٨) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٦ .

وكان الخزف المزخرف فى عصر الخلافة قد ازدهر ازدهارا كبيرا ، بحيث تجاوز فى قيمته الفن المسيحى الأوربى بما فى ذلك الفن البيزنطى . وقد أدى ذلك الى نشاط تجارة الصادرات من هذا النوع من الصناعات الفنية الى شمال أسبانيا والى دول حوض البحر المتوسط كما أدى الى ظهور مصانع للخزف فى أسبانيا النصرانية فى ترويل Teruel وقطلونية Paterna وكذلك فى بروفانس بجنوب فرنسا(٤٩) .

وكانت هناك بعض التحف الفنية التى تصنع من العاج ، وتوجد منها اثنتان محفوظتان بسان ميان دى لاكوجيا San Millan de la cogolla تمثل تغلغل الطابع الأندلسى بشكل واسع وتتسم بتأثير من قرطبة ، ومن الممكن ارجاع صناعتهما الى عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٨ م وهو تاريخ تدشين هذه الكنيسة . والتحفة الأولى عبارة عن صليب للاحتفالات الدينية ذى حجم كبير ، والثانية مذبح متنقل عليه نقش بلغة مستعربة ورسوم حيوانات صغيرة الحجم بين توريقات مثلما كان موجودا فى الآثار الماضية التى ترجع الى عصر الخلافة (٥٠) ولا يزال فى الفن الرومانى الاسبانى ما يدل على صلته بالفن الأندلسى ممثلا فى المعادن الثمينة المزخرفة بالميناء السوداء ، والذى ظهر فى بقايا نقش مضغوط لكتابات كوفية كما فى الصندوق المقدس ، وثمة قطع أخرى مماثلة يصعب قراءة ما بها من نقوش مثل العلبة الصغيرة المنسوبة الى المطران أريانو Ariano ، وكلاهما محفوظ فى أبيط Oviedo وترجعان الى حوالى سنة ١٠٧٥م / ٤٦٩ هـ ، ومن الملاحظ أن الاتجاه العربى فى تلك الفنون كان محببا ولم يثر نفور المسيحيين ، فقد هذب الذوق الفنى فى دول أسبانيا النصرانية فى ذلك الوقت (٥١) .

---

(٤٩) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٣٦٩ .

(٥٠) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

(٥١) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٧ .

٥ ـ التأثيرات الحضارية فى ميدان الحياة الاقتصادية

ا ـ الزراعة :

بلغت الزراعة والصناعة والتجارة فى الأندلس الاسلامية ، وخاصة فى عصر الخلافة الأموية شأوا عظيما من التقدم والازدهار ، نظرا لعامل الاستقرار والأمان الذى حققه عبد الرحمن الناصر وخلفاؤه من بعده بعد أن أخضعوا نصارى الشمال وعقدوا معهم معاهدات السلام .

والأندلس بطبيعتها قطر يمكن أن يحقق الاكتفاء الذاتى لسكانه ، بسبب تنوع موارده وتباين اقاليمه المناخية واختلاف مواسم سقوط المطر فى شرق الأندلس عن غربه ، لذلك تنوعت المحاصيل الزراعية واستمر ظهور الفاكهة على مدار العام ، وكثرت محاصيله وفاكهته حتى صدرت الى ممالك اسبانيا النصرانية وغيرها من دول العالم الأخرى .

وقد عبر عن هذه النظرية فى الاكتفاء الذاتى الذى تتمتع به الأندلس الخليفة المنصور بالله العباسى عندما قال عن عبد الرحمن الداخل « ماذا يقال فى رجل يركب من انتاجه ويلبس من ديباجه ، وينفق من خراجه (١) .

وكان هذا الاكتفاء أمرا ضروريا لمن يقيم سياسته على الاستقلال بتلك البلاد ، وعلى جهاد أعدائها سواء من نصارى الشمال أم مسلمى المغرب وافريقية من الفاطميين والعباسيين . ولهذا فقد عمل حكام الأندلس اقصى ما فى وسعهم لاستغلال ثروات البلاد ، فاستصلحوا الأراضى وأقاموا المصانع وتبادلوا التجارة مع أقطار اسبانيا النصرانية ومع بلاد أوربا ودل حوض البحر المتوسط الأخرى ، حتى أن أحد كتاب

---

(١) الرازى برواية المقرى ، نفح الطيب ، حـ ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، حـ ٢ ، ص ٥ . Chapman, A history of spain, p. 3

المغرب وهو ابو على بن الربيب القروى ، أرسل الى أحد وزراء الأندلس أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم رسالة يشير فيها الى رواج الحالة الاقتصادية بالأندلس ويقول « انها مقصد كل طرفة ومورد كل تحفة ، ان بارت تجارة أو صناعة فاليها تجلب ، وان كسدت بضاعة ففيها تنفق »(٢) .

وقد اقام مسلمو الأندلس زراعتهم لأراضيهم وضياعهم على أساس من القوانين الزراعية التى اختصت بها دون غيرها من البلاد ، وعلى أساس نظام جيد للرى ، من شق للترع والقنوات وبناء للنواعير أو السواقى التى نقلها عنهم نصارى اسبانيا الشمالية ، يدل على ذلك أن اللفظ المستخدم فى الأسبانية للتعبير عن هذه الآلة وهو Noria مأخوذ عن اللفظ العربى (ناعورة) و acequia من لفظ (الساقية) العربى ، و accadus هو القادوس الذى يستخدم لنقل الماء من جوف الأرض وصبه على سطحها(٣) .

وقد أدخل العرب أيضا الى الأندلس زراعة الأرز والقطن وقصب السكر والتوت والنخيل ، وانواع الزهور التى انتشرت زراعتها أيضا فى شمال اسبانيا النصرانية بل فى أوربا كلها ، يدل على ذلك أسماء تلك الزهور وغيرها مما استعارته اللغة الأسبانية ، وكذلك الحال فى الفاكهة ، فقد أدخل العرب أيضا كثيرا من الأشجار المثمرة الى البلاد ، مثل البرتقال والتفاح والبرقوق والمشمش ، وانتقلت زراعتها الى اسبانيا النصرانية وعرفتها بأسمائها العربية فالبرقوق albaricoque والليمون limon وهكذا(٤) .

---

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، حـ ١ ، ص ١١١ ، ١١٢ ، حيدر بامات ، مجالى الاسلام ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) محمود على مكى ، مدريد العربية ، ص ٤٨ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، حـ ١ ، ص ٢٥٤ ، حتى ، المرجع نفسه ، حـ ٢ ، ص ٤٣٠ ، حيدر بامات ، مجالى الاسلام ، ص ١٠٧ . Livermore, op. cit, pp. 118, 119.

وفى الوقت الذى ازدهرت فيه الزراعة فى الأندلس الاسلامية كانت أسبانيا النصرانية تعيش على ما تستورده منها من محاصيل ، أو على ما تستنبته من زروعات ونباتات أخذت زراعتها عن الأندلس أيضا . ذلك انها كانت بلاد تميل الى رعى الأغنام ، بسبب طبيعتها الجبلية ، وتربتها الفقيرة ، وجوها الشحيح بالأمطار الكافية للزراعة ، وبسبب نظامها الاقطاعى العتيق الذى يقوم على أساس استعباد الفلاحين والعمال ، أضف الى ذلك طبيعة الأسبانى نفسه الذى كان يأنف من العمل اليدوى فى الأرض ، واذا عمل فانما يعمل فى الرعى فقط ، وأدى ذلك الى فقر البلاد والى اتجاهها دائما نحو الجنوب فى الأندلس ، اما للاقتباس الحضارى سواء فى مجال الزراعة أم فى غيره من المجالات ، واما لشراء ما يلزمها من محاصيل بواسطة تجار اليهود ، أو للاغارة ونهب ما تصل اليه أيديهم من محاصيل ومؤن (٥) .

ب ـ الصناعة :

أما الصناعة فقد بلغ مسلمو الأندلس فيها شأوا عظيما ، ويكفى انهم عرفوا فكرة استخدام قوة سقوط الماء فى ادارة الأرحية والطواحين وهى فكرة علمية حديثة تستخدم الآن لادارة التوربينات لتوليد الكهرباء ويصف الادريسى ذلك بقوله أنه « كان فى مدينة المنكب فى شرقى الأندلس بناء مربع مرتفع كالصنم أو المنار ، أسفله واسع وأعلاه ضيق ، وبه حفرتان على جانبيه متصلتان من أسفله الى أعلاه ، وبازائه من احدى جوانبه حوض كبير يصب فيه الماء بعد أن يكون قد أتى من بعيد الى أعلى المنار ، ثم يهبط الى الحوض فيدير رحى صغيرة»(٦) .

ويبدو أن هذه الرحى المائية قد اندثرت أيام الادريسى الذى الف كتابه بعد سقوط هذه الناحية فى أيدى النصارى ، وكان هؤلاء يدمرون كل أثر للمسلمين كما هو معروف . وهناك من يقول أيضا أن مسلمى الأندلس قد

---

(٥) Crow, op. cit, pp. 13, 111, 124, 125.

(٦) الادريسى ، صفة المغرب ، ص ١٩٩ .

عرفوا فكرة رفـــع المـــاء من الآبار ، وانهم اخترعوا آلة لذلك ، ويبدو أنه يقصد « الشادوف » أو الساقية مما لم تعرفه الأندلس من قبل ، بل انهم بنوا القنوات المعلقة واخترعوا انابيب الرصاص لجلب المـــاء الى المدن من أعـــالى الجبـــال ، ممـــا يدل على نهضة صناعية عظيمة توافرت للأندلس فى عهد بنى أميـــة ، ودول الطوائف(٧) .

وقد توافرت المواد الخام وخاصـــة المعـــادن اللازمة لتلك الصـــناعة فى معظم أنحـــاء شـــبه الجـــزيرة ، فمعـــدن الحـــديد يوجد فى المرية فى شمال شرقى شرطبة وفى مربيطر قرب بلنسية ، والذهب فى لاردة وساحل أشبونة ، والفضة والزئبق فى قرطبة وتدمير وبجانة وفحص البلوط ، والنحاس فى شمال الأندلس ، والملح الاندرانى فى سرقسطة ، والرخام فى المرية ، والعنبر والكهرمان فى بحـــر شذونة ، وحجـــر اللازورد والمغناطيس فى تدمير ، والمرجـــان فى ساحل بيرة من عمل المرية ، والقصدير فى أشكونية وحجر التوتيا والكحل فى البيرة وطرطوشة والزعفران فى طليطلة(٨) .

ونظرا لتوافر هذه المواد الخـــام الكثيرة فقـــد قامت صناعات كثيرة فى الأندلس الاسلامية ، منها صناعة آلات الحرب من التراس والرمـــاح والدروع والسروج والألجم والمغـــافر فى قرطبة وطليطلة ومجريط (مدريد) وكان أهل الأندلس وكذلك نصـــارى الشمال يهتمون بهذه الصناعات اهتماما كبيرا نظرا لكثرة الحروب التى كانت تنشب بينهم . كما قامت صناعة السفن الحربية والتجارية فى مدينـــة المرية ولقنت وطركونة على عهـــد عبد الرحمن الثانى والثالث ، وفى جزيرة يابسة شمال ميورقة(٩) .

وقد امتـــازت المرية بالاضافة الىصناعة السفن بأقوى صناعة نسيج فى الأندلس ، فقـــد كان يوجد بهـــا ٨٠٠ نول لصناعة الملابس الحريرية ،

---

(٧) المقرى ، ازهار الرياض ، حـ ٢ ، ص ٣٦٦ ، حيدر بامات ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٦ .

(٨) للرازى برواية المقرى ، النفح حـ ١ ، ص ٧٠ ، ٩٣ ، مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون فى الاندلس ، ص ٢١٥ .

(٩) الادريسى ، المصدر نفسه ، ص ١٩٣ ، ابن سعيد برواية المقرى النفح ، حـ ١ ، ص ٩٤ ، ياقوت ، المصدر نفسه ، حـ ٨ ، ص ٤٩٠ ، المقرى ، النفح حـ ١ ، ص ٩٢ ، ٩٣ .
Levi - Provencal, Inscriptions, p. 83.

والف نول لصناعة الحلل النفيسة والديباج الفاخر ، والف نول للاسقلاطون والف نول للثيـــاب الجرجانية ، ومثلها للثياب الأصفهانية والعنابى والستور المكللة . وقـــامت صناعة النسيج أيضا فى قرطبة حيث كان بهـــا ثلاثة عشر الف حائك ، وفى غرناطة وبسطة ومالقة وصناعة الكاغد (الورق) فى شاطبة وبلنسية ، واستخراج الزئبق فى حصن أبال شمال قرطبـــة ، وصناعة البسط فى فنتالة بمرسية ، وصناعة الأدوات المنزلية مثل السكاكين والمقصات المذهبة من النحـــاس والحـــديد فى مرسية ، والفخـــار العجيب والزجاج البللورى فى مالقـــة وطليطلة[10] .

هذا عن الصناعة وتقـــدمها فى الأندلس الاسلامية أما فى ممالك أسبانيا النصرانية ، فقـــد كان هنـــاك أيضـــا الكثير من المعـــادن مثل الذهب فى شنت ياقب ، والحـــديد والنحاس والمعادن الأخرى فى جليقية واشتريس وليـــون وقشتالة . ولذلك نهضت بهـــا صناعة الأسلحة وخاصة فى برغش عاصمة مملكة قشتالة ، وكانت هنـــاك صناعة أقمشة فى مدن عديدة مثل سورة وافيلا (آبلة) وشقوبية وصورية والقلعة ودريد وطليطلة وكنكة ، لكنها لم تصل الى مستوى منسوجات الأندلس الاسلامية ، ولذا كانت نســـاء الطبقة الأرستقراطية هناك يستوردن ما يحتجنه من اقمشة حريرية وغيرها من قرطبة وغيرها وكن ينتظرن وصول تجار اليهود بفارغ الصبر [11] .

وقد كانت صناعة الصوف والحرير مزدهرة فى طليطلة ، ولم يكن ذلك الا بفعل الصناع المسلمين الذين بقوا فيهـــا عقب سقوطها عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م حتى بلغ عددهم عشرة آلاف صانع ، وكان قربهـــا من جبل الشارات

---

(١٠) الادريسى ، المصـــدر نفسه ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، المقرى ، المصـــدر نفسه ، حـ ١ ، ص ٧٤ ، ٧٨ ، محمـــد العروسى المطـــوى ، الحروب الصليبية فى الشرق والمغرب ، ص ١٧٤ ، مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون ، ص ٢١٥ ، ص ٢١٦ ، ترند ، المرجع نفســـه ، ص ٢٨ ، لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٢٩ . Livermore, op. cit., p. 119.

(١١) الرازى برواية المقرى ، النفح ، حـ ١ ، ص ٧ ، ابن سعيد برواية المقرى ، النفح ، حـ ١ ، ص ٩٣ ، ٩٤ ، ابن سعيد ، بسط الارض ، ص ١١٤ . Crow, op. cit., p. 125.

الذى يمتاز بكثرة المراعى ووفرة الأغنام التى تربى عليها مما هيأ موردا هاما من مادة الصوف الخام اللازم لتلك الصناعة . وبقيت فى طليطلة ايضا صناعة الأسلحة وكثير من الصناعات الأخرى ، يدل على ذلك شوارعها وأزقتها التى ظلت تحمل أسماء تدل على الصناعات الموجودة بها مثل شارع النحاسين والدباغين والقزازين والصباغين والعطارين والجزارين الى غير ذلك من الصناعات الأخرى[١٢] .

وقد تأثرت صناعة النسيج فى أسبانيا النصرانية بمثيلتها فى الأندلس الاسلامية ، يدل على ذلك قطع النسيج التى عثر عليها فى الكنائس . فهناك البطانة الموجودة فى صندوق العاج الذى أهداه فرديناندو الأول لكنيسة سان أيسيدور لحفظ مخلفات سان خوان باتستا وسان بلامون سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، والنسيج قطعة به صور طيور وحيوانات ذات أصل عربى ، وعليه كتابة عربية لعل قراءتها كالآتى : « النفع ذخرا لمن اراد العالم الآخر » مما يدل على أنها نسجت صراحة لغرض كنسى بأيدى خلفاء أولئك المستعربين من نساجى الملك الذين كان آواهم الفونسو الخامس عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٤ م [١٣] .

وقد ظهرت مصانع للخزف والقيشانى فى قطلونية وبطرنة وترويل بتأثير من المصانع الاسلامية ، لأن الأسبان كانوا متأخرين فى المصانع الدقيقة . وكذلك قامت فى طليطلة صناعد الفخار الأسبانى ذى البريق المعدنى الذى يعتبره الهواة بعد الخزف الصينى مباشرة فى الجمال والقيمة الفنية ، وكان اول ورود لذكر هذه الصناعة فى طليطلة عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م اى أيام ان كانت فى يد المسلمين وبقيت بها بعد سقوطها فى يد النصارى . وكانت تنقش عليها نقوش أسبانية وترسم عليها الرنوك ، مما يدل على ان الفخار العربى كان يصنع للبابوات والكرادلة أيضا . وقد أشار أحدهم الى هؤلاء

---

(١٢) الادريسى ، المصدر نفسه ، ص ١٨٨ ، روبرتسون ، المرجع نفسه ، ص ٣٢٥ ؛ محمود على مكى ، المرجع نفسه ، ص ٨٤ .

(١٣) مورينو ، الفن الاسلامى فى أسبانيا ، ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

الصناع العرب بقوله « انهم فقراء الى ما لدينا من ايمان ونحن فقراء الى ما لديهم من صناعة » [١٤] .

كذلك كانت صناعة علب الحلى المصنوعة من العاج فى كونكة وقشتالة ذات طابع اسلامى . ويظهر هذا الطابع أيضا فى صناعة المصوغات والأوانى الزجاجية والفخار والأبسطة والكئوس والصلبان والتيجان الملكية فى قشتالة ، وملابس القسس التى كانت تحمل غالبا زخرفة اسلامية . وهكذا نرى أن الصناعة الاسلامية أثرت فى الصناعة النصرانية فى شمال اسبانيا ، ويعلل بعض كتاب النصارى ضعف الصناعة الأسبانية بسبب وجود المسلمين الذين حاصروها بصناعاتهم وتجاراتهم التى كانت حكرا عليهم وعلى اليهود ، كما أنهم فرضوا عليهم عملتهم العربية ، مما جعل نصارى الشمال لا يشعرون بميل الى النشاط الاقتصادى [١٥] .

ويبدو أن هذا القول مغالى فيه كثيرا ، لأن سبب تأخر الصناعة فى شمال اسبانيا لم يكن مرده الى المسلمين ، فقد كان هؤلاء مصدرا من مصادر النهضة الصناعية التى امتدت لتشمل الشمال الأسبانى وجنوب فرنسا . وكان النظام الاقطاعى الذى كانت تعيشه دول أسبانيا النصرانية هو المسئول عن ذلك ، فقد كان التاج والكنيسة والنبلاء يملكون الأرض ويفرضون الضرائب الباهظة على السلع ، بسبب احتياجهم الشديد للأموال اللازمة للانفاق على حروبهم الكثيرة مع مسلمى الأندلس ، أضف الى ذلك احتكار بيع سلع معينة وقصر التجارة فيها على الرهبان ، فقد كان رهبان دير ساها جون مثلا يتمتعون بحق احتكار بيع النبيذ والأقمشة والأسماك والأخشاب ، فلا ينافسهم فيها أحد والا تعرض للمصادرة والغرامة ، وهذا أدى الى تأخير النشاط التجارى الذى أدى بدوره الى ضعف النشاط الاقتصادى بوجه عام [١٦] .

---

(١٤) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٣٦٩ ، محمد كرد على ، المرجع نفسه ، ص ١١ .

(١٥) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٥ ، ٦ .

Levi - provencal, la civilisation en Espagne, pp. 136, 137.

(١٦) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٣٩ . Crow, op. cit., p. 126.

جـ ـ التجارة :

ونتيجة لتأخر دول أسبانيا النصرانية فى الصناعة والزراعة فقد قامت تجارة رائجة بينها وبين الأندلس الاسلامية وخاصة فى أوقات السلم . ومن الغريب أن الحروب كان يعقبها نشاط تجارى عظيم . ذلك أن التجار من اليهود وغيرهم كانوا يصاحبون الجيوش ويمشون خلفها ، انتظارا لما يقع فى أيديها من السبى والغنائم وما كان أكثره فى تلك الأيام . وقد حدث ذلك أثناء الصراع الذى دار بين المرتضى الأموى وبين صنهاجة عام ٤٠٩ هـ / ١٠٢٠ م ، وحدث أيضا عقب سقوط مدينة بريشتر شمال سرقسطة فى يد الحملة الصليبية الأوربية الأسبانية عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، وكانت هذه عادة تتمشى تماما مع طبيعة الحروب وما يتبعها من نهب وسلب لابد أن يجد سوقا تستوعب ما زاد عن حاجة الجنود والغزاة (١٧) .

ولا بد أنه كان يصاحب السفارات أو البعثات الدبلوماسية التى كانت تأخذ الجزية من ملوك الطوائف ، والسفارات التى كانت تأتى قبل ذلك أيام الخلافة لطلب السلام ، نشاط تجارى واسع . فقد كانت العطايا والهبات من الملابس الفاخرة والأدوات والحلى والتحف الفنية التى كان يقدمها الخليفة لأفراد تلك السفارات ، لا بد أنها كانت تجذبهم الى شراء ما يلزمهم قبل الرحيل الى بلادهم ، وكانت تجعل نساء القصور فى ليون وقشتالة يحثون تجار اليهود على جلب المزيد منها من أسواق قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية (١٨) .

وقد وردت اشارات عديدة على لسان المؤرخين والجغرافيين العرب الأندلسيين على أن هذه الصناعة أو تلك قد عمت جميع بلاد الأندلس أو بلاد الأندلس والكفر ، يقصدون بذلك جميع شبه جزيرة ايبيرية كلها ، خاصة

---

(١٧) ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ٣٩٨ ، ابن حيان برواية المقرى ، النفح ، جـ ٢ ، ص ٥٧٥ ، رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢١٧ .

(١٨) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٣٠٢ .
Levi - Provencal, op. cit., pp. 127 - 129.

وأن الصناعة الأندلسية كانت متفوقة ، حتى أن نصارى قشتالة كانوا يفضلون سيوف أشبيلية على سيوف مدينة بوردو التى تسميها الرواية العربية برديل والسيوف البردليات . فقد جاء فى وصية أحد قادتهم « أوصى أيضا لابنى بسيفى القشتالى الذى صنع فى أشبيلية ورصع مقبضه بالذهب ونفيس الجواهر » وكانوا يفضلون أيضا الملابس العربية التى كانوا يستوردونها من الأندلس الاسلامية (١٩) .

المراكز التجارية :

وازدهرت هذه التجارة عند مناطق الحدود مع الثغور الاسلامية وعند المدن الساحلية الاسلامية ، مثل ألمرية وطرطوشة وطركونة ، والمدن النصرانية مثل برشلونة وأشبونة وشنت ياقب . فقد كانت برشلونة بموقعها الجغرافى بين دول أسبانيا النصرانية والاسلامية سوقا رائجا للسلع الأندلسية والأسبانية ، فكان يأتيها من الأندلس الحرير والصوف والأقمشة والجلد وتصدرها الى نصارى الأسبان أو الى بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط الأخرى (٢٠) .

وكذلك كانت المرية « محطا لسفن النصارى ومجتمعا لديوانهم » ومنها كانت تصدر سلعهم الى سائر بلاد الأندلس ، ومنها أيضا كانوا يشترون ما يحتاجونه من السلع الأندلسية ، فكانت هذه المدينة اذن تقوم بتجارة الصادر والوارد بين الأندلس وبين أسبانيا النصرانية ، أو بينهما وبين سائر دول البحر المتوسط (٢١) .

وكانت ميورقة بموقعها كجزيرة تقع قرب السواحل الاسلامية والنصرانية ، مركزا من مراكز تبادل التجارة الأندلسية والأسبانية . وأما

---

(١٩) الرازى برواية المقرى ، النفح ، حـ ١ ، ص ٧١ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ١٦٥ ، لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٣٠ ، مورينو ، الفن الاسلامى ، ص ٤١٥ .

(٢٠) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٧٨ .

(٢١) المقرى ، المصدر نفسه ، حـ ٢ ، ص ١٥٤ .

سرقسطة فقد ضربت بسهم وافر فى هذا الميـــدان ، نظرا لمجاورتها لجميع ممالك أسبانيا النصرانية ، واستغلت نهر ابره الذى كان يربطها بتلك الممالك فى الوصـــول اليها بسهولة ، كمـــا استغلت ميناءيها الكبيرين على البحر المتوسط ، وهما طركونة وطرطوشة لاستقبال تجارة الشرق وتصديرها الى قشـــتالة ونبرة وارغونة ، وجنت من وراء ذلك ثروة طائلة جذبت اليـــها الفرسان والمرتزقة النصارى الأسبان ، ومكنتها ايضا من دفع الاتاوات التى فرضها عليهم ملوك قشتالة ، فعاشت عصرا طويلا بمنجاة من غزواتهم المخربة التى ابتليت بها دول الطوائف الأخرى ، كما ساعد على رواج تجارتها أيضا تلك المصاهرات التى عقدها بنو قسى وبنو الطويل المولدون مع ملوك نبرة وقشتالة [٢٢] .

وكانت أعظم تجارة بين الأندلس وبين أســـبانيا النصرانية هى تجارة الرقيق ، وقد تخصص فيها تجار اليهود الذين كانوا يقومون بجلب هذا النوع من التجارة من جليقية وسائر ممالك اسبانيا النصرانية ، ومن سبى الفرنجة الى قرطبة وغيرها من المدن الرئيسية ، فيأخذ الخلفاء والأمراء وأفراد الطبقة الأرستقراطية حاجتهم منه ، وما بقى يسير به تجار اليهود الى سائر بلاد العالم ، وربما وصلوا به الى خراسان وغيرها من أقاصى البلاد [٢٣] .

وكان افراد الطبقة الأرستقراطية من وزراء وقواد يهـــدون للخلفاء الكثير من هؤلاء العبيد الصقالبة على سبيل التقرب اليهم . فقد جاء ضمن هدية عبد الملك بن شهيد للخليفة الناصر عبد الرحمن عددا كبيرا من العبيد الصقالبة من الجنسين ، كذلك جاء فى هدية الحاجب جعفر المصحفى للحكم المستنصر يوم ولايتـــه للخلافة ، مائة مملوك من الفرنج على خيولهم كاملى العدة والسلاح ، وعددا كبيرا من أسلحة الفرنجة وحرابهم . ولا يمكن أن

---

(٢٢) ابن حـوقل ، صرة الارض ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، المقرى ، المصـدر نفسه ، حـ ١ ، ص ٥٩٨ ، عنان ، دول الطـوائف ، ص ٢٩٦ .

(٢٣) ابن حـوقل ، المصـدر نفسه ، ص ١١٠ ، النباهى ، المصـدر نفسه ، ص ٣٦ ، ابن سعيد ، المصـدر نفسه ، حـ ١ ، ص ١٥١ .

يتيسر اهداء هذا العدد الكبير من العبيد أو الرقيق ، الا بسبب رواج هذا النوع من التجارة[٢٤] .

وبخلاف تجارة الرقيق كان أمراء بنى أمية وخلفاؤهم يستوردون بعض المواد اللازمة لبناء المساجد والقصور من بلاد أسبانيا النصرانية وغيرها ، مثل الرخام والسوارى والفسيفساء . اذ كان الناصر يستورد السوارى وهى الجزء الاسطوانى من الأعمدة من افريقية وبلاد الفرنج وأسبانيا النصرانية ، والفسيفساء من القسطنطينية ، كما كان يستقدم المهندسين والبنائين من كل قطر ، وكانت النهضة العظيمة والعمارة الوافرة التى اشتهر بها عصر بنى أمية ، تستدعى مثل هذا النشاط التجارى الواسع[٢٥] .

الطرق التجارية :

أما الطرق التجارية التى كانت تسلكها التجارة بين الأندلس وبين ممالك أسبانيا النصرانية فقد كانت عديدة ، منها ما يتم عن طريق الأنهار الكثيرة المنتشرة فى شبه الجزيرة ، والتى تربط بين شرق الأندلس وغربها ، وبينها وبين شمال أسبانيا النصرانى . ذلك أن منابع نهر تاجة وروافد نهر شقر ووادى مرسية تتصل بروافد نهر الوادى الكبير ووادى آنه . وهذه الأنهار كلها منها ما يصب فى البحر المتوسط ومنها ما يصب فى المحيط الأطلسى، لكنها تنبع جميعا من جبال وسط الأندلس فتتقابل روافدها وتتصل ، ويمكن للمسافر أن يأخذ احداها فيتجه شرقا أو غربا حسبما يريد[٢٦] .

وكانت سفن الأندلس وسفن الفرنج ونصارى أسبانيا الشمالية تفد الى هذه الأنهار بالبضائع ، وتعود منها محملة ببضائع الأندلس ، يساعدها فى ذلك عملية المد والجزر التى تبلغ فى نهر الوادى الكبير اثنين وسبعين ميلا ، وفى نهر يانه ستين ميلا . ولذلك ليس من الغريب أن نسمع أن حيوان السمور (حيوان صغير يشبه الأرنب) الذى يوجد على ساحل جليقية وعلى الساحل

---

(٢٤) ابن حيان ، برواية ابن خلدون ، العبر ، حـ ٤ ، ص ١٤٤ .

(٢٥) ابن حيان ، برواية المقرى ، المصدر نفسه ، حـ ١ ، ص ٢٦٦ ، ٢٧٠ .

(٢٦) انظر الخريطة رقم ٣ .

الغربى للأندلس ، ويصنع من وبره فراء جميل رفيع فى مصانع سرقسطة فى أقصى الشمال الشرقى للأندلس ، كان من السهل على التجار أن ينقلوه عبر نهر دوبره حتى مدينة (لارا) قرب برغش ، ثم يسيرون به الى مدينة تطيلة على نهر أبره ، ثم ينزلون مع النهر حتى مدينة سرقسطة ، فيصنع هناك ثم يصدر الى الأندلس واسبانيا النصرانية (٢٧)

بالاضافة الى الطرق النهرية كانت هناك **طرق برية** كثيرة ، ونكتفى منها بما يربط قرطبة بممالك اسبانيا النصرانية فى الشمال . وكانت هذه الطرق تقابل على وجه التقريب الطرق الرومانية التى كانت موجودة قبل الفتح الاسلامى للأندلس ، واهمها طريق يبدأ من قرطبة الى طليطلة ، ثم يسير الى وادى الحجارة الى حوض نهــر أبره ، ثم يتفرع الى طريقين ، أحدهما يسير بمحاذاة النهر مارا بقلهرة ونخرة حتى بمبلونة عاصمة نبرة ، ثم يسير الى البة والقلاع (قشتالة) واشتريس . والفرع الثــانى يسير جنوبا الى سرقسطة فلاردة حيث تنتهى اليه التجارة مع امارة برشلونة (٢٨).

والطريق الثانى يبدأ من قرطبة الى المعدن Maden الى قورية فسلمنقة وسمورة ، ثم يواصل سيره داخل جليقية ، ويتفرع من هذا الطريق فرع آخر يبدأ من عند قورية ويتجه شرقا الى جلبيرة فطليطلة ، ومنها الى سلمنقة حيث يتصل بالطريق الرئيسى مرة أخرى . وهناك طريق ثالث يبدأ من قرطبة وينزل جنوبا فيمر بغرناطة ثم يصعد شرقا بشمال ، فيمر بمرسية فبلنسية فطرطوشة فلاردة فى أقصى شمال سرقسطة (٢٩) .

وهناك أيضا **الطرق البحرية** التى تربط ثغور الأندلس ومدنه الساحلية بثغور برشلونة فى الشرق وجليقية فى الغرب . فميناء المرية وقرطاجنة ولقنت

---

(٢٧) ابن سعيد ، بسط الارض ، ص ١٠٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، المقرى ، المصدر نفسه ، حـ ١ ، ص ٩٢ .

(٢٨) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٤٦ ، مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٣٤٦ ، الجغرافية والجغرافيون ، ص ١٤ .

(٢٩) ابن حوقل ، المصدر نفسه ، ص ٤٦ ، مؤنس ، الجغرافيون والجغرافيون ، ص ١٤ .

ودانية كانت تتصل بثغر برشلونة عاصمة امارة قطلونية بخط بحرى ، وثغور اشبيلية ولبلة وشنترين تتصل بثغور مملكة جليقية ، مثل برتغـال وبراجه وشانت ياقب أيضـا بخط بحرى كانت تصـعد فيه السفن التجارية وقت السلم ، والسفن الحربية أيام القتال (٣٠) .

السـكة :

وكان لا بد لهذا النشاط التجارى ألواسع بين الأندلس الاسـلامية واسبانيا النصرانية من عملة يتم على أساسها التداول وعملية البيع والشراء ، وقد تأثرت العملة التى صكها المسلمون الأوائل بالعملة المحلية التى وجدوها فى البلاد من حيث الشكل والنقوش ، ثم استقلت عنها شيئا فشيئا وصارت بعد ذلك اساس التعامل الاقتصادى على أرض شبه الجزيرة كلها ، كما هو الحال فى التعامل بالدولار او الاسترلينى فى الوقت الحاضر .

ففى بداية عصر الولاة ، كان يكتب على العملة نصوص لاتينية اسلامية الطابع فى الفترة من عام ٩٦ الى ٩٧ هـ ، ثم تظهر اللغة اللاتينية مع العربية منذ عام ٩٨ هـ ، ثم اللغة العربية فقط منذ عام ١٠٢ هـ ، ويمكن أن نعزو ظهور اللغة العربية الى سبب سياسى ، وهو أنه بعد عام ٩٨ هـ ، اى بعد اغتيال عبد العزيز بن موسى بن نصير وبعـد نقل ايوب لمقـر الحكم الى اشبيلية ، رؤى ادخال اللغة العربية كرد فعل لسياسة التسامح التى كان يسير عليها عبد العزيز ، كما يمكن ارجاع اختفاء اللغة اللاتينية الى سبب سياسى أيضـا ، الا وهو قيام حركة المعارضة التى قام بها امير اشتريس وجليقية فى هذا الوقت كما سبق القول (٣١) .

وقد قام أمراء بنى أمية (١٣٨ — ٣١٦ هـ) بضرب عملة ذهبية مشابهة لعملة اسلافهم فى بلاد الشام ، كما ضربوا أيضا الدراهم والفلوس ، وبذلك

---

(٣٠) انظر الخريطة رقم ٢ .

(٣١) Gullon, Los monayoges latino arabes, pp. 55 - 62
Trois Mannois, p. 60.

كان نشاط دار السكة عظيما فى قرطبة . وقد عثر على نقود من هذا العصر فى منطقة استيا Estella فى مملكة نبرة ، مما يدل على قيام تبادل تجارى فى ذلك الوقت مع هذه الدولة ، وبصفة عامة فقد كان أثر النقود الاسلامية على أسبانيا المسيحية فى تلك الفترة كبيرا ، ولنا أن نؤكد أن الحياة الاقتصادية فى الممالك النصرانية بأسبانيا لا سيما الشرقية منها كانت تقوم على أساس هذه النقود ، ومن المحتمل انها كانت تصل الى الشمال وتستعمل هناك بعد فترة قصيرة من ضربها فى عاصمة الأندلس الاسلامية (٣٢) .

اما فى عهد الخلافة الأموية (٣١٦ — ٤٢٢ هـ) ، فقد كان ذلك العهد هو عهد الاستقلال السياسى والدينى الكامل عن الشرق ، ولذلك قام الخليفة عبد الرحمن الناصر بضرب عملة ذهبية كان لها تأثير كبير على اقتصاديات أسبانيا المسيحية ، حتى أنه ورد ذكرها فى بعض دساتير مملكة ليون تحت اسم Cathimi أو Kasimi نسبة الى الدراهم القاسمية الأندلسية (٣٣) ، مما يدل على رواجها فى أسبانيا النصرانية فى تلك الفترة . وقد وصلت النقود التى تضرب فى دار سكة مدينة سبتة التابعة للأمويين فى ذلك الوقت ، الى امارة قطلونية (برشلونة) ، وكان لها أثر كبير فى الحياة الاقتصادية هناك ، مما تشهد به الوثائق القطلونية التى ترجع الى ذلك العصر (٣٤) .

وفى عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ — ٤٨٤ هـ) ، لم يكن النشاط النقدى فى الأندلس الا امتدادا له فى عصر الخلافة ، وبقى النقد موحدا باسم هشام المؤيد وان كان ملوك الطوائف قد أضافوا أسماءهم أيضا ، ورغم

---

(٣٢) Jaime Lluis, Observaciones sobre la amonedacion legal de los musulmanes.

د. عبد الرحمن فهمى : دراسة لبعض التحف الاسلامية ، مجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ٢٢ ، العدد الاول ، عام ١٩٦٠ .

(٣٣) سميت الدراهم القاسمية بذلك نسبة الى اسم عامل دار ضربها . انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٢ .

(٣٤) ابن الكردبوس ، الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، ص ٥٩ .
Jaime Lluis, op. cit., pp. 95 - 60.

ازدياد قوة اسبانيا النصرانية السياسية والعسكرية فى تلك الفترة ، الا أنها ظلت تتعامل بالنقود الاسلامية ، وساعد على انتشار تلك العملة فى ممالك اسبانيا النصرانية المختلفة ، أن تلك الممالك كانت تأخذ الجـــزية من دول الطوائف بتلك العملة ، وظلت تتعامل بها لفترة طويلة بعد زوال ذلك العصر. ولما عزم ملوك الأسبان على صك عملة خاصـــة بهم تسربت اليهم بعض الكلمات العربية الخاصة بعملية السكة ، مثل كلمة Ceda المأخوذة من الكلمة العربية (السكة) ، كما مضى الفونسو السادس على غرار أسلافه ، فكتب بالعربية على النقود التى سكها (٣٥) .

وان دل هذا على شىء ، فانما يدل على أن الحضـــارة العربية فى الأندلس قد فرضت نفسها على شبه الجزيرة كلها فى عصر بنى أمية وعصر دول الطوائف ، وما زالت آثار ذلك باقية حتى الآن ، سواء فى الخرائب المعمارية أم فى المدن التى لا زالت باقية أم فى قطع النقود والتحف الفنية التى تملأ متاحف أسبانيا ، أم فى تلك الآثار الثقافية من كتب ومخطوطات تحمل الكثير من علوم الأندلس وآدابها وفنونها ، مما لا يمكن للجاحدين من الأسبان أن ينكروه مهما حاولوا ، ولو نظروا الى لغتهم التى يتكلمون بها اليوم ، لرأوا أن حوالى ربع مفرداتها مأخوذة من اللغة العربية ، وهذا انصع دليل واقوى برهان على تفوق الحضارة العربية الاسلامية فى الأندلس على حضارة ممالك أسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف .

---

(٣٥) Jaime Lluis, op. cit., pp. 65 - 69.

حتى ، تاريخ العرب (المطول) جـ ٢ ، ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ .

خاتمة

بعد هذه الدراسة التى قمنا بها عن العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، نستطيع أن نقول بادىء ذى بدء ان مقاومة الأسبان للفاتحين لم تندحر بشكل نهائى ، بل انها تقوقعت فى اقاصى الشمال الغربى للبلاد ، فى منطقة جليقية وأشتريس ، حيث قامت أول مملكة نصرانية عقب الفتح ببضع سنوات ، ممثلة فى حركة النبيل القوطى بلاى ، وصمدت لهجمات المسلمين فى عصر الولاة حتى التقطت أنفاسها ، وانتهزت الفرقة والصراع القبلى فى ذلك العصر وتمكنت من طرد المسلمين من الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة ، وخسر المسلمون ربع ما فتحوه ولم يكن قد مضى على الفتح أكثر من أربعين عاما .

ونستنتج من ذلك ان العرب لم يعوا الأسباب التى ادت الى سقوط اسبانيا فى أيديهم ، ونسوا أن ذلك لم يكن الا بسبب تنازع أمرائها وملوكها وانشقاقهم وتحالفهم مع أعداء بلادهم ضد بعضهم البعض . وبذلك دل الرب على قصر نظر سياسى واضح ، وانغمسوا فى الصراعات الحزبية والقبلية ، حتى مكنوا للمقاومة النصرانية أن تنشىء دولا تقتسم معهم شبه الجزيرة ، وتعمل على استرداد الأندلس من يد المسلمين مرة أخرى .

وثارت الحروب والصراعات بين الطرفين أجيالا وقرونا ، لكن حكام الأندلس لم يكن هدفهم من حروبهم مع نصارى الأسبان ، هو القضاء عليهم ، وانما كان هدفهم هو تأمين حدودهم وفرض السلام بالقوة أمام تلك المقاومة المسلحة لنصارى الشمال ، حتى تتهيأ الظروف البناء والعمران والتقدم الحضارى . ولم يكن يدفع نصارى الشمال على الهجوم على مسلمى الأندلس الا حالة الفقر التى كانوا يعيشونها ، فكان بعضهم يأتى الى الأندلس للعمل فى ادارتها والخدمة فى مشروعاتها وفى جيشها ، ومن لم يأت منهم ، كان يقوم بالاغارة على الحدود بهدف النهب والسلب . وكانت هذه هى الصفة البارزة لحروبهم أيام الامارة الأموية .

وفى عهد الخلافة الأموية ، حاول عبد الرحمن الناصر ومن أتى بعده من حكام القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، أن يردعوا الممالك النصرانية التى نشأت فى الشمال الأسبانى ، ونجح هؤلاء الحكام فى ذلك كل النجاح ، وصارت شبه الجزيرة الأسبانية تحت سيطرتهم وحققوا الوحدة بين دولها . ومع ذلك لم يتغير هدف الجهاد ضد نصارى الشمال الأسبانى فى فترة الخلافة عنه فى فترة الامارة الا فى أن الخلافة كانت حملاتها اقوى واعنف ، واشد تأثيرا وأوضح نتيجة من حملات الامارة .

وقد نبهت حملات الخلافة القوية المتتابعة على شمال أسبانيا نصارى أوربا الى خطورة هذه الدولة الاسلامية ، فحاولوا التصدى لها من جديد كما حدث أيام شارل مارتل وشرلمان ، وانتهزوا فرصة الحرب الأهلية التى بدأت عقب سقوط دولة بنى عامر عام ٣٩٩ هـ وجعلوا نصارى شمال اسبانيا رأس الحربة أو رأس جسر ، وتتابعت الغزوات الصليبية . وكان أولها ما قامت به البابوية وفرسان الفرنجة والأسبان من تصفية للسيطرة الاسلامية على جزيرة سردينية عام ٤٠٦ هـ ، ثم حملتهم البشعة المدمرة على بربشتر عام ٤٥٦ هـ ، ثم مساعدتهم لأذفنش (الفونسو) السادس فى الاستيلاء على طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، ثم مساندتهم له بعد هزيمته فى الزلاقة فى العام التالى ، وتحريم الخروج لنصارى الأسبان للاشتراك فى الحروب الصليبية فى المشرق الا بعد الانتهاء من الحرب الصليبية فى الأندلس .

ونستنتج من ذلك أن الحروب الصليبية انما نشأت أول ما نشأت على أرض شبه الجزيرة الأسبانية ، ابتداء من حملة سردينية ومرورا بحملة بربشتر ، وانتهاء بسقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس . وعلى هذا فان الحرب بين مسلمى الأندلس ونصارى الأسبان ، انما أخذت الصفة الصليبية ابتداء من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وسبقت فى ذلك الحروب الصليبية فى الشرق الاسلامى بحوالى قرن كامل .

ورغم هذه الحروب المطردة ، كانت العلاقات السلمية بين مسلمى الأندلس ونصارى الأسبان ، تتدفق عبر قنوات الاتصال التى أشرنا اليها فى الباب الرابع ، وكان هذا أمرا طبيعيا ، اذ لم تكن هناك حدود طبيعية

فاصلة وكانت الحدود فى شد وجذب ، فى ارتفاع وانخفاض . كان مسلمو اليوم يصيرون نصارى فى الغد ، وكانت الأرض التى تتبع السيادة الاسلامية الآن ، تصير تحت سيادة نصارى الشمال غدا ، ويحدث العكس ، ويأخذ المسلمون أرضا من ممالك الشمال ، ويحدث الاختلاط والتداخل بين الشعبين، حتى توحدت أساليب الحياة بينهما الى حد كبير ، وحتى رأينا أن ملوكهم يلبسون الملابس العربية ، ويطلبون مؤدبين مسلمين من قرطبة لأولادهم ، ويستعينون بالمهندسين والأطباء والعمال والحرفيين من مسلمى الأندلس . وكانت النتيجة أن انتشرت حضارة الاسلام فى الممالك النصرانية فى أسبانيا ، ثم عبرتها الى أوربا حيث بددت ظلمات الجهالة التى كانت تعيش فيها تلك البلاد فى ذلك الحين ، وساعدت على نشأة الحضارة الأوربية فى العصور الحديثة .

لم يكن مسلمو الأندلس مخربين مدمرين فى حروبهم لنصارى الشمال الأسبانى بالصورة البشعة التى صورهم بها بعض المستشرقين أو بعض المغرضين ، فلم يكن هدفهم هو التخريب ، وانما القمع وارغام سكان أسبانيا النصرانية على التزام حسن الجوار ، يؤيد ذلك أن أكثر حكام الأندلس غزوا ، وهو المنصور محمد بن أبى عامر ، قد اعترف فى أخريات أيامه بخطئه فى تعمير بلاد الشمال الأسبانى وشحنها بالمؤن ، ووصلها ببلاد المسلمين ، وعدم تخريب مسافة كافية منها لتكون فاصلا بين الأعداء وبين بلاده ، حتى لا يفاجأ قومه من المسلمين بهجوم النصارى عليهم ذات يوم دون أن يأخذوا حذرهم ، بسبب ملاصقتهم لهم على النحو الذى أشار اليه المنصور .

وبذلك ينتفى كلام ابن خلدون الذى راعه ما فعله عرب الهلالية بتونس ، ووصف العرب بأنهم قوم مخربون ، لا يدخلون بلدا الا ويطمسون فيه معالم الحضارة بسبب طبيعتهم البدوية . فقد ترك العرب فى الأندلس حضارة ما زالت آثارها تشهد لهم حتى اليوم ، ويكفى أن أوربا لم تنهل من حضارة أكثر مما نهلت من الحضارة العربية فى الأندلس .

ومما أثر فى علاقات مسلمى الأندلس بأسبانيا النصرانية وأضعف الجبهة الاسلامية ، خصومة العباسيين والفاطميين للأمويين فى الأندلس .

فعندما كانت تلك البلاد تابعة للخلافة الأموية فى المشرق ، استطاع ولاتها ان يصلوا فى فتوحاتهم حتى قرب باريس . أما فى عهد بنى أمية الذين استقلوا بالأندلس عن الخلافة العباسية ثم أخذوا يتصارعون معها ومع الخلافة الفاطمية على أرض المغرب الأقصى ، فقد شغلهم هذا عن تأمين دولتهم الإسلامية الناشئة فى تلك البلاد النائية ، اى فى الأندلس ، ضد تلك الشوكة التى أصبحت ذات شعب وما تفرع عنها من دول فى شمال أسبانيا أخذت تقف للمسلمين بالمرصاد .

ولو أمن العباسيون والفاطميون ظهور أمويى الأندلس ، لكان لصراع هؤلاء مع أعدائهم من الأسبان شأن آخر ، ولتغير مصير البلاد عما انتهى اليه بكل تأكيد . لكن الصراع بين الخلافات الثلاثة ، العباسية والفاطمية والأموية ، جاء بتلك النتيجة المحزنة ، وهى ضياع الأندلس فى النهاية ، وانحسار المد الاسلامى وعودته مهزوما الى شمال افريقيا من جديد .

كما ساهمت الصراعات المقيتة بين ملوك الطوائف فى اضعاف البلاد ووقوعها لقمة سائغة فى يد نصارى الشمال الأسبانى . وقد كان بين هؤلاء النصارى ، صراعات وانقسامات لا تقل عنفا عما كان موجودا بين ملوك الطوائف ، لكنها اختلفت فى طبيعتها ونتائجها وهدفها . اذ انها كانت صراعات اسرية تقوم بين أفراد الأسرة المالكة على السلطان ، وما أن يستقر أقواهم على العرش حتى تتوحد البلاد وتستقر الأمور ، ويقوم الجميع لاستئناف الكفاح ضد مسلمى الأندلس من جديد .

وكان هذا هو الهدف النهائى من الصراع الداخلى بين ملوك الأسبان فى تلك الفترة . أما ملوك الطوائف ، فقد كان صراعهم من لون آخر ، اذ أن شهوة الحكم استولت عليهم جميعا ، وصار بعضهم يرتقى العرش على أسنة رماح الأسبان أو الفرنجة ولا يستمرون فى حكمهم الا بتأييد من هؤلاء ، يدفعون لهم الجزية ويقرون لهم بالطاعة . وهكذا كانت بداية النهاية فى ضياع البلاد . وكان أول ما ضاع فى عهدهم هى مملكة طليطلة الاسلامية ، عاصمة القوط القدامى والعاصمة الدينية والسياسية لأسبانيا قبل الفتح الاسلامى لها ، وبذلك فقد المسلمون نصف شبه الجزيرة .

ومما وصلنا اليه أيضا من نتائج أن أهل الذمة فى الأندلس سواء كانوا من النصارى أم اليهود ، لم يكونوا مخلصين للحكم الاسلامى لتلك البلاد ، رغم السماحة الدينية التى امتاز بها عصر بنى أمية ، ورغم الثروات الهائلة التى كونوها فى عهدهم ، ورغم النفوذ الهائل الذى وصل اليه كثير منهم ، حتى أنهم وصلوا الى مراتب الوزارة والكتابة وقيادة الجيوش والعمل فى القصور الخلافية ، والقيام بوظيفة الحرس الخاص للأمراء والخلفاء .

فقد زرع النصارى من أهل الذمة الحقد فى نفوس الأسبان المسلمين الذين يعرفون بالمولدين ، وكانوا عونا لهم فى اثارة القلاقل والفتن والثورات لمناهضة حكم المسلمين للبلاد ، وقاموا بفتنة دينية طائفية فى قرطبة أيام أمراء بنى أمية ، تعرف بحركة الاستشهاد المسيحية ، لاثارة النصارى فى كل مكان ضد مسلمى الأندلس ، وكانوا دائمى الاتصال بممالك اسبانيا النصرانية وبالقرى النصرانية فى البلاد الأخرى ، لاستعدائها على مسلمى الأندلس ، وتسهيل الطريق أمامهم لاستعادة البلاد من أيديهم .

أما يهود الأندلس ، فرغم العلاقات الحسنة التى كانت تربطهم بالمسلمين هناك ، ورغم تمتعهم بأكثر مما تمتع به نصارى الأندلس من امتيازات ، الا انهم تآمروا على سادتهم من الحكام المسلمين ، وحاول بعضهم اقامة دولة منفصلة لهم فى جنوبى البلاد ، لولا بطش المسلمين بهم والقضاء على مشروعهم . ولما رأى اليهود بثاقب فكرهم أن ميزان القوى أصبح فى صالح نصارى الشمال الأسبانى فى عصر ملوك الطوائف خدموا عندهم وعملوا لهم سفراء ووزراء ، ودلوهم على عورات المسلمين وانقلبوا عليهم . وكان اليهود دائما يمشون فى ركاب من غلب ، لتأمين مصالحهم وخدمة أهدافهم .

كذلك كانت العناصر الأجنبية التى استعان بها حكام الأندلس والتى تتمثل فى البربر والصقالبة ، من الأسباب الرئيسية فى اضعاف الحكم الاسلامى فى البلاد . ذلك أن هذين العنصرين كانا يعملان أيضا لمصلحتهما الخاصة ، وظهر ذلك بشكل واضح أيام ضعف الأمراء والخلفاء من بنى أمية ، وفى عصر ملوك الطوائف بالذات ، وكانوا بذلك معول هدم فى غالب

الأيام . صحيح انهم ساعدوا الامارة والخلافة فى تنفيذ مشروعاتها الحربية ضد نصارى الشمال الأسبانى ، لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على هؤلاء النصارى ولم يجتثوا الخطر من جذوره ، بل أنهم تحالفوا معهم فى بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى لضرب الخلفاء الأواخر بعضهم ببعض ، حتى يقتسموا البلاد فيما بينهم ، وساعدوا بذلك على اضعاف البلاد وخضوعها لأسبانيا النصرانية .

وقد أدت الكراهية المترسبة بين العرب والبربر الصقالبة وبين العرب وبين مسلمى الأسبان المعروفين بالمولدين ، وبين المسلمين وبين النصارى من أهل الذمة ، الى أن القوى الاجتماعية التى كان يستند اليها الأمويون ، كانت مفككة وضعيفة ، بسبب الأحقاد التى تراكمت جيلا بعد جيل بين فئات الشعب والجيش المختلفة ، والتى تنخر فى جسد الدولة ، كما ينخر السوس فى الحطب . وهذا هوالسر فى ذلك الانهيار السريع الذى أصاب دولة بنى أمية وبشكل فجائى ، عقب عصر ازدهار وقوة لم تشهد له البلاد مثيلا من قبل . وبذلك فان انهيارها كان من الداخل ، ولم يكن بسبب عوامل خارجية كتهديد جيرانها أو غزوهم لها ، اذ أنها كانت أقوى منهم ، وكانت قد أخضعتهم لسلطانها ، سواء فى الشمال الأسبانى أم فى الشمال الافريقى .

وكان اسراف بنى أمية وبنى عامر فى مشروعاتهم الحربية والعمرانية من العوامل التى اثرت فى علاقاتهم مع نصارى الأسبان وأدت الى انهيار دولتهم فى النهاية . وقد قام بعض الفقهاء بدق ناقوس الخطر للتحذير من هذا الاسراف ، لكن حكام ذلك العصر لم يلتفتوا الى ذلك ، وقاموا ببناء مدن وقصور ارضاء لحظية من الحظايا أو تخليدا لاسم محبوب ، كما استنفذت حروبهم العديدة المستمرة فى اسبانيا وفى شمال افريقيا معظم دخل الدولة واجهدت قواها ، وترتب على ذلك نتيجة فى منتهى الخطورة . ذلك انه فى عصر ملوك الطوائف ، كان لا يمكن لهؤلاء الملوك أن يحصلوا على مثل تلك الأموال الطائلة للقيام بمشروعات حربية مماثلة ضد نصارى الشمال الأسبانى ، بسبب تفتت البلاد وتعدد الخزائن التى تجبى اليها الأموال ، بتعدد الملوك والحكام . ومن هنا أتى العجز الشامل الدائم والضعف المستمر أمام القوى النصرانية الناهضة فى قشتالة وليون ونبرة وارغونة وبرشلونة .

وهذا الضعف الاقتصادى والعجز المالى يفسر لنا سرا من أسرار سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م .

واخيرا فان دراسة العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية كشفت لنا نواحى الضعف والقوة فى دول شبه الجزيرة ، ووضعت يدنا على هذه النتائج التى اشرنا اليها حتى الآن ، وكانت فى ذلك كالمرآة التى رأينا فيها مجتمع شبه الجزيرة سواء كان مسلما أم نصرانيا على حقيقته ، وكشفت لنا عن سر أفراحه وأتراحه ، وعن فترات سلمه وهنائه ، وفترات صراعه وآلامه . وكان السر فى ذلك كله ، هو وحدة الجبهة الداخلية ، فاذا تواجدت ، كان النجاح والتوفيق والقوة فى العلاقات مع دول أسبانيا النصرانية ، واذا غابت ، كان الفشل والاحباط والذلة والمهانة القومية .

كانت الجبهة الداخلية موحدة فى عهد معظم أمراء بنى أمية وخلفائهم ، فكان النصر للمسلمين على أعدائهم من نصارى الأسبان . وكانت الجبهة الداخلية مفتتة فى عهد ملوك الطوائف ، فكانت الهزيمة والخسران للمسلمين، وتحققت فيهم نبوءة أحد ملوك الفرنجة حينما أشار على مسيحيى الشمال الأسبانى بأن يتريثوا فى مقاومة المسلمين ويتركوهم حتى « تمتلىء أيديهم بالغنائم ويتنافسوا فى الرياسة » ، حينئذ يتمكن المسيحيون منهم ، وهذا ما حدث بالضبط منذ بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، حينما تنافس الحكام المسلمون على الرياسة والسلطان . وكان سقوط طليطلة فى يد القوى النصرانية عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، هو بداية النهاية للمسلمين فى الأندلس ، تلك النهاية التى تأخرت طويلا ، بسبب جهود المرابطين والموحدين ، لكنها أتت وعادت الأندلس الى النصرانية من جديد .

ملاحق البحث

ملحق رقم (١)

وصف استقبال الحكم المستنصر لأحد ملوك ليون (جليقية) [1]

ورد هذا الوصف عند المقرى وهو يبين الى أى مدى وصلت الخلافة الأموية ومدى الضعف الذى وصلت اليه ممالك أسبانيا النصرانية ، حتى أن ملوكها لجأوا الى الخلافة يستصرخونها ضد بعضهم البعض ، كما يبين أيضا المراسيم الدبلوماسية فى استقبال الملوك والأمراء والسفراء التى شاعت فى هـذا العصر . واليك نص وصف استقبال الحكم المستنصر لأحد ملوك ليون كمـا ورد عنـد المقرى :

فى آخر صفر سنة احدى وخمسين وثلاثمائة ، أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله موليه محمدا وزيادا ابنى افلح الناصرى ، فى كتيبة من الحشم والخدم ، لتلقى غالب الناصرى ، صاحب مدينة سالم ، المورد للطاغية أردون ابن ادفونس (اردونيو بن الفونسو) الخبيث فى الدولة ، المتملك على طوائف من أمم الجلالقة ، والمنازع لابن عمـه الملك قبله شانجة بن ردمير (سانشو بن راميرو) وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير الى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير طالب اذن ، ولا مستظهر بعهد ، وذلك عند ما بلغه من اعتزام المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو اليه ، وأخذه فى التأهب له .

فأحتال فى تأميل المستنصر بالله ، والانتماء اليه وخرج قبل أمان يعتقد له ، أو ذمة تعصمه ، فى عشرين رجـلا من وجوه أصحـابه ، تكفلهم غالب النـاصرى الذى خـرج اليـه ، فجـاء بهم نحو مولاه الحـكم ،

---

(١) المقرى : ازهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ٢٨٨ – ٢٩٤ .

وتلقاهم ابنا افلح بالجيش المذكور ، فأنزلاهم ، ثم تحركا بهم ثانى يوم نزولهم الى قرطبة ، فأخرج المستنصر بالله اليهم هشام بن محمد بن عثمان المصحفى ، فى جيش عظيم كامل التعبيـــة ، وقدموا الى باب قرطبـــة ، فمروا بباب قصرها . فلما انتهى أردون الى ما بين السدة وباب الجنان ، سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله ، فأشير الى ما يوازى موضعه من داخل القصر فى الروضة ، فخلع قلنسوته وخضع نحو مكان القبر ودعا ، ثم رد قلنسوته الى رأسه .

وأمر المستنصر با نزال أردون في دار الناعورة ، وقد كان تقدم فرشها بأنواع الغطاء والوطاء وانتهى من ذلك الى الغاية ، ويوسع له فى الكرامة ولأصحابه ، فأقام الخميس والجمعة ، فلما كان يوم السبت ، تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه ، بعد اقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال فى ذلك من العدد والأسلحة والزينة ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح ، وقعد الاخوة وبنوهم ، والوزراء ونظراؤهم صـــفا فى المجلس ، فيهم القـــاضى منذر بن سعيد ، والحكام والفقهاء ، فأتى محمد بن القاسم بن طملس بالملك أردون وأصحابه ، وعالى لبوسه ثوب ديباجى رومى أبيض ، وبليوال من جنسه وفى لونه ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر ، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس ، يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرها .

فدخل بين صفى الترتيب ، يقلب الطرف فى نظم الصفوف ويجيل النظر فى كثرتها وتظاهر أسلحتها ، ورائق حليتها ، فراعهم ما أبصروه ، وصلبوا على وجوههم ، وتأملوا ناكسى رؤوسهم ، غاضين من جفونهم ، قد سكرت أبصارهم ، حتى وصلوا الى باب الأقباء ، أول باب قصر الزهراء ، فترجل جميع من كان خرج الى لقائه ، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه (أى أمرائه) ، على دوابهم ، حتى انتهوا الى باب الســـدة ، فأمر القواميس بالترجل هناك ، والمشى على الأقدام ، فترجلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طملس ، فأنزل فى برطل [٢] البهو الأوسط من الأبهـــاء

---

(٢) برطل ، كلمة اسبانية ومعناها سقيفة عند باب البيت ، أو فى احدى جـــوانب للفناء ، ولا تزال تستعمل فى المغرب ، راجع تكملة المعاجم العربية لدوزى ، ص ٧٥ج .

القبلية ، التى بدار الجند على كرسى مرتفع مكسو الأوصال بالفضل ، وفى هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجة بن رادمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى .

فقعد أردون على الكرسى ، وقعد أصحابه بين يديه ، وخرج الاذن لأردون الملك من المستنصر بالله ، بالدخول عليه ، فتقدم يمشى وأصحابه يتبعونه الى أن وصل الى السطح ، فلما قابل المجلس الشرقى الذى فيه المستنصر بالله ، وقف وكشف رأسه ، وخلع برنسه ، وبقى حاسرا اعظاما لما بان له من الدنو الى السرير ، واستنهض ، فمضى بين الصفين المرتبين فى ساحة القصر الى أن قطع السطح وانتهى الى باب البهو ، فلما قابل السرير ، خر ساجدا سويعة ، ثم استوى قائما ثم نهض خطوات ، وعاد الى السجود ، ووالى ذلك مرارا ، الى أن قدم بين يدى الخليفة واهوى الى يده فناوله اياها ، وكر راجعا متقهقرا على عقبه ، الى وساد ديباج مثقل بالذهب ، جعل له هناك ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير ، فجلس عليه والبهرقد علاه .

وانهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممتثلين فعله فى تكرير الخنوع ، وناولهم الخليفة يده ، فقبلوها وانصرفوا مقهقرين ، فوقفوا على رأس ملكهم ، ووصل بوصولهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة ، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم وأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك أردون اثر قعوده أمامه وقتا ريثما يفرغ روعه ، فلما رأى أن خفف عليه ، افتتح تكليمه ، فقال : « ليسرك اقبالك ويغبطك تأميلك فلدينا لك من حسن رأينا فوق ما قد طلبته » . « فلما ترجم له كلامه اياه ، تطلق وجه أردون وانحط عن رتبته فقبل البساط ، وقال « انا عبد أمير المؤمنين مولاى ، المتورك على فضله ، القاصد الى مجده ، المحكم فى نفسه ورجاله ، فحيث وضعنى من فضله ، وعوضنى من خدمته ، روجت أن أتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة » .

فقال له الخليفة « أنت عندنا بمحل من يستحقه حسن رأينا وينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على أهل ملتك ، ما يغبطك ، وتتعرف به

فضل جنوحك الينا ، واستظلالك بظل سلطاننا » ، فعاد أردون الى السجود عند فهمه مقالة الخليفة وابتهل داعيا وقال « ان شانجة بن عمى تقدم الى الخليفة الماضى مستجيرا به منى ، فكان من اعزازه اياه ما يكون من مثله من اعاظم الملوك ، وأكارم الخلفاء ، لمن قصدهم وأملهم ، وكان قصده قصد مضطر ، فقد شنأته رعيته ، وأنكرت سيرته ، واختارتنى لمكانه ، من غير سعى منى — علم الله ذلك — ولا دعاء اليه ، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا ، فتطــول عليه رحمه الله بأن صرفه الى ملكه وقوى سلطانه وأعز نصره . ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التى أسديت اليه ، وقصر فى أداء الفروض عليه وحقه وحق أمير المؤمنين مولاى من بعده . وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة ، من قرارة سلطانى وموضع احتكامى ، محكما له فى نفسى ورجالى ومعاقلى ومن تحويه من رعيتى ، فشتان ما بيننا من قوة الثقة ، ومطرح الهمة » .

فقال الخليفة « قد سمعنا قولك ، وفهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من اقراضنا اياك على الخصوصية فوق شأنه ، ويترادف من احساننا اليك به أضعاف ما كان من أبينا رضى الله عنه الى ندك ، وان كان له فضل التقدم بالجنوح الينا ، والقصد الى سلطاننا ، فليس ذلك مما يؤخرك عنـــه ، ولا ينقصك مما أنلناه وسنصرفك مغبوطا الى بلدك ، ونشد أواخى ملكك ، ونملك جميع من انحاش اليك من أمتك ، ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك ، نقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك ونقبضه عن كل ما يصرفه من البلاد الى يدك ، وسيرادف عليك من أفضالنا فوق ما احتسبته . والله على ما نقول وكيل » .

فكرر أردون الخضوع وأسهب فى الشكر وقام للانصراف متهقرا ، لا يولى الخليفة ظهره ، وقد تكنفه الحفدة من جلة الفتيان ، فأخرجه الى المجلس الغربى فى السطح وقد علاه البهر وأذهله الروع ، من هول ما باشره وجلالة ما عاينه ، من فخامة الخليفة وبهاء العـــزة . فلما دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه ، انحط ساجدا اعظاما له ، ثم تقدم الفتيان به الى البهو الذى بجوفى هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب وأقبــل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بصر به قام

اليه ، وخضع له واوما الى تقبيل يده ، فقبضها الحاجب عنه ، وانحنى اليه فعانقه ، وجلس معه فغبطه ، ووعده بانجاز عدات (وعود) الخليفة له بما ضاعف سروره ، ثم أمر الحاجب جعفر فصبت عليه الخلع التى أمر بها الخليفة ، وكانت دراعة منسوجة بالذهب ، وبرنسا مثلها ، له لوزة مفرغة من خالص التبر ، مرصعة بالجواهر والياقوت ، ملأت عين العلج تجلة ، فخر ساجدا وأعلن بالدعاء .

ثم دعا الحاجب أصحابه رجلا رجلا فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فكمل ذلك بحسب ما يصلح لهم وخر جميعهم خاضعين شاكرين ، ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقدم لركابه فى أول اليهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب ، عليه سرج جلى ، ولجام حلى مفرغ وانصرف مع ابن طملس الى قصر الرصافة مكان تضييفه ، وقد أعد له فيـــه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون ، واستقر الملك أردون وأصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وأرغاد المعاش ، واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الاسلام فيه ما أفاضوا فى التبجح به ، والتحدث عنه أياما .

وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة فى هذا اليـــوم مقامات حسان ، وانشادات لأشعار محكمة متان ، يطول القول فى اختيارها .

ملحق رقم (٢)

الدعوة للوحدة وعدم الاستعانة بالنصارى [1]

هذه رسالة من أحد ملوك الطوائف فى بداية القرن الخامس الهجرى ، جاءت على لسان كاتبه أبى عبد الله البزلياتى الى صاحبى شـــاطبة [2] يدعوهما فيها الى السلم وترك الخـــلاف والصراع مع المظفر أبى محمد ، ذلك الصراع الذى أدى بهما الى الاستعانة بنصارى الشمال الأسبانى .. والرسالة تبين خطر هذا الاتجاه ، كما تصف حالة البلاد فى ذلك الوقت ، فهى رسالة هامة ، وهاك نصها :

« كتبت يا ســـيدى ، ومشارب الآمال قد تكدرت ، ووجوه المحاسن قد تغيرت ، وأيدى التوازر [3] قد قصرت ، وسبيل التناصر قد توعرت الا أن يتلافى الله الخلل بتسديد نظركما وينعش الأمل بحميد أثركما ، فينظم الشمل ويصل الحبل ، ويسد الثلم ويشد الحزم ويرفع المنخرق ، ويجمع المفترق ، ويضع الأصر ، ويرفع الوزر ، ويعيد الكلمة متفقة ، والأمة متسقة والأيدى متأيدة ، والنفوس متوددة والأهواء متعاضدة ، والأنحاء واحدة والدماء محقونة والعاقبة مأمونة ، والله تعالى يعين كلا على الصلاح ويفضى بنا الى النجاح بعزته .

واتصل بى ما وقع بينكما وبين المظفر أبى محمد من التنازع الذى أخاف أن يفضى بكم الى التقـــاطع ، وورد على كتابكما الـــكريم فى ذلك مما ترقبت انعدام أجله وتنظرت [4] انحسام علله ، حتى خشيت أن يتمادى بكم اللجاج ، ويتعاصى [5] فى أموركم الصلاح ، واشفقت من اذلال الشيطان

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٤٥٤ _ ٤٥٦ .

(٢) صاحبى شاطبة هما مبارك ومظفر العامريين .

(٣) التوازر : التـــآزر .

(٤) تنظرت : انتظرت

(٥) يتعاصى : يستعصى .

بمخاتله ، واطلال الخزلان بحبائله ، فيقرع الثكلان سنه من الندم ، وينطوى الجران على يده من الألم . وحالى يا سيدى فى الأخذ من أحوالكما بأوفر نصيب ، والنزع فى أموركما بأكبر ذنوب ، حال من أعدكما لحوادث الزمن وكوارث المحن ، واعتقد كمال العدة الكافية والعصمة الواقية فيما استتر وعان ، وظهر وبطن ، فلم أر نفسى فى سعة من اهمال التذكرة واغفال التبصرة ، والله يعيذ الكل من الشتات والشمات ويعيدكم الى المواساة والمواتاه .

ولم يخف عليكما ما فى صلاح ذات البين من الفوز بخير الدارين وأمن العباد وخصب البلاد واعزاز الدين واذلال القاسطين وتوهين المشركين ، وقوة العضد ووفور العدد ، ودعة الأجسام والدعة من الآثام وستر العورات وحفظ الحرمات والانتهاء الى حدود الله والازدجار بزجره والتأدب بأدبه والائتمار بأمره ، فانه يقول عز من قائل « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » (٦) . وقال « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » (٧) وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقاطعوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا وعلى طاعته أعوانا » .

وقد علمتم أنه لم يهلك من هلك من الأمم الماضية والقرون الخالية الا بتقاطعهم وتحاسدهم وتدابرهم وتخاذلهم ، وأن اللجاج مطية الجهل ، والهوى آفة العقل ، والحمية من أسباب الجاهلية والعصبية من العنجهية ، والحرب مشتقة المعنى من الحرب ، مع ظنك المتغلب وكأنه المنغلب . تيتم الأطفال وتلتهم الرجال ، سوق لا ينفق حاضرها غير النفوس والأرواح ، وشرب يتعاطون المنايا بظبا السيوف وأطراف الرماح ، مصرعهم دائر وصارعهم خاسر ، وماضيهم نادم وباقيهم واهم .

والذى يحملون من أوزارهم وأوزار مع أوزارهم ، ويحتقبون من أعمارهم ، تسليط النصارى على المسلمين ، وعبثهم فى بلادهم يقتلون

---

(٦) سورة الأنفال ، آية رقم ١ .

(٧) سورة آل عمران ، آية ١٠٣ .

ويأسرون ، فالأموال مستهلكة ، والحرمات منتهكة والدماء مهراقة ، والنساء مستاقة ، وعقد الدين مفسوخ ، وعهد الاسلام منسوخ ، والكفر عال على الايمان ، والسوء غالب على الاحسان ، فقد بلغنى أن مذهبكم الاستجاشة بالنصـــارى الى بلاد المسلمين ، يطئون ديارهم ويعفون آثارهم ويجتاحون أموالهم ، ويسفكون دماءهم ، ويستعبدون أبناءهم ويستخدمون نساءهم . وان نفذ هذا — وأعوذ بالله — فهى حال مؤذن بالذهاب ، وجريرة تؤذن بالخراب ، ولم نأمن أن يظهر لهم من الخلل فى بلادنا والقلة فى أعدائنا ، ما يجرئهم علينا ويجرهم الينا ، بما لا نقدر على مكاثرتهم فيه ، ولا نقوى على مصابرتهم به ، فتلك الواقعة التى لا ينتعش عثورها والقـــارعة التى لا ينجبر كسرها .

ولم أجد يا سيدى وعدتى دواء أنجع ولا سعيا أنفع ، من صلة يدى بيد الفتى الكبير فلان ، فى توسطه هذه الأحوال بينكم ، والتأنى لاصـــلاح ما فسد منها عليكم ، ولم نلف (٨) سببا الى كشف هذه الغايات وفتح هذه المبهمات ، أقوى فى النجاح وأهدى الى الصـــلاح من بعث أعلام بلدنا ووجوه رجالنا .

---

(٨) لعلهـــا : نلـــق .

ملحق رقم (٣)

رسالة الفونش السادس الى المعتمد بن عباد

قبل موقعة الزلاقة (١) عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م

هى رسالة هامة ارسلها الفونش السادس ملك قشتالة وليون وأقوى ملوك أسبانيا النصرانية الى المعتمد بن عباد ملك اشبيلية . وأهمية هذه الرسالة تكمن فى اشارتها الى خيانة المعتمد وتواطئه مع الفونش السادس فى استيلائه على طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م من يد بنى ذى النون . وهاك نص الرسالة :

من الأنبيطور ذى الملتين ، الملك المفضل الأدفنش ابن شانجة الى المعتمد بالله ، سدد الله رأيه وبصره مقاصد الرشاد وسلام عليك من مشيد شرفه الغنى وثبت فى المنى فاهتز اهتزاز الرمح بعامله والسيف بساعد حامله ، وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها ، وما صار بأهلها حين حاصرها بما صار فى هذه السنين ، فأسلمتم اخوانكم وعطلتكم بالرعاية زمانكم ، والحذر من أيقظ الله قبل الوقوع فى الحبالة ، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ زمامه ونسعى بنور الوفاء أمامه لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورايده ، ووصل رسول العدو واردة ، لكن انذار يقطع الاعذار ، ولا يجعل الأمر خوف الفوت فيما يرومه ، أو خشى العاقبة على من يسومه ، وقد حملنا الرسالة اليك القرمط البرهانس وعنده من التجريد الذى يلقى به أمثالك والعقل الذى يدبر به بلادك ورجالك ، فيما وجب استنابته فيما يدق ويجل ، وفيما يعلم لا فيما يحل ، وانت عندما تأتى به من ورائك والنظر بعد هذا من ورائك والسلام عليك يسعى بينك وبين يديك .

---

(١) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ص ٢٢ ـ ٢٣ .

رد المعتمد بن عباد على رسالة الفونش السادس (٢)

ولما وصلت رسالة الفونش السادس المشار اليها الى المعتمد بن عباد ، كتب الأخير الرد عليه بخطه فيما يلى :

« من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله أبى عمر بن عباد الى الطاغية الباغية أدفونش بن شانجة الذى لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذى الملتين ، قطع الله بدعواه سلام على من اتبع الهدى . (أما بعد) ، فانه أول ما نبدأ به من دعواه أنه ذو الملتين والمسلمون أحق بهذا الاسم ، لأن الذى يملك من امصار البلاد وعظيم الاستعداد ومحيى المملكة ، لا تبغله قدرتكم ، ولا تعرفه ملتكم ، وانما كانت سنة أيقظ منها مناديكم ، وأغفل عن النظر السديد فركبنا مركبا عجز نسخه الكيس وعاطيناك دمعة كؤوس قلت فى أثنائها ليس مباديك تعلم أنا فى العدد العديد والنظر السديد .

ولدينا من كمات الفرسان وحيل الانسان وحماة الشجعان يوم يلتقى الجمعان ، رجال تدرعوا الصبر وكرهوا الفقر ، تسيل نفوسهم على حد الشفار ، وتناهم السهام فى القفار ، يديرون رحى الفنون بحركة العزايم ، ويشفون عن خطب الجنون بخواتم العزائم ، ولما تستجبر (٣) أن تأمر باسلام البلاد فى ارجالك ، وانا لنعجب من استعجالك برأى لم تحكم انجازه ، ولا حسن انتخابه ، واعجابك بصنع رافقتك فيه الأقدار ، واغتررت بنفسك أسوأ اغترار ، قد أعدوا لك ولقومك جلادا أزلية الاتفاق ، وشفارا حدادا شحدمه (٤) الاصفاق ، وقد يأتى المحبوب من المكروه ، والندم من الشهورة (٥) ، نبهت من غفلة طال زمانها ، وأيقظت من نومة عاد ايمانها .

---

(٢) ابن الخطيب ، الحلل ، ص ٢٣ ـ ٢٥ .

(٣) تتجرأ .

(٤) لعلها : شديدة .

(٥) لعلها : التهور .

ومتى كان لأسلافك الأقدمين مع اسلافك الأكرمين يد صامدة او رفلة مساعدة الأذل تعلم مقداره وتحقق شاره ، والذى جرك على طلب ما لا تدركه ، قوم كالحمر لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ، ظن العاقل تعقل ، والدول لا تنتقل ، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجب القعود على نصرتهم وتدبير أمورهم ، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما أتيناه فى أنفسنا وفيهم من ترك الحزم ، واسلامهم لأعاديهم ، والحمد لله الذى جعل عقوبتنا توبيخك وتقريبك (٦) بما أطارت من دونه ، وبالله نستعين عليك ، ولا تستبطى مسيرتنا اليك ، والله ينصر دينه الكريم ولو كره الكافرون ، والسلام على من علم الحق فاتبعه ، واجتنب الباطل وخدعه » .

---

(٦) لعلها : تقريعك .

ملحق رقم (٤)

رسالة المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين يستصرخه فيها ضد الفونش السادس [١]

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، الى حضرة الامام أمير المؤمنين [٢] وناصر الدين محيى دعوة الخليفة الامام أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين القائم بعظيم اكبارها ، الشاكر لاجلالها ، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها ، اللائذ بحرمها المنقطع الى سمو مجدها من المستجير بالله محمد بن عباد ، سلام كريم يخص بالحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتب المنقطع الى كريم سلطانها من أشبيلية فى غرة جمادى الأولى سنة ٤٧٩ هـ وانه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين ، فانا نحن العرب فى هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا ، وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من صنيعتنا ، فصرنا فيها شعوبا لا قبائل ، وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر ، فقل نصرنا وكثر شامتنا ، وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين أدفونش ، وأناخ بطليطلة ووطئها بقدمه ، وأسر المسلمين ، وأخذ البلاد والقلاع والحصون .

ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة داره ولا أخيه ، ولو شاءوا لفعلوا ، الا أن الهواء والماء منعهم عن ذلك ، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال ، وأنت أيدك الله سيد حمير وملكها الأكبر ، وأميرها وزعيمها ، نزعت بهمتى اليك ، واستنصرت بالله ثم بك ، واستغثت بحرمكم لتجوز لجهاد هذا العدو الكافر ، وتحيون شريعة الاسلام وتدينون على دين محمد عليه الصلاة والسلام ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم ، والأجر العظيم والسلام الكريم على حضرتكم السامية ورحمة الله وبركاته ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » .

---

(١) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) لم يتخذ يوسف بن تاشفين لقب أمير المؤمنين وانما اتخذ لقب أمير المسلمين بدليل ما يقوله بعد ذلك فى نفس الرسالة « انه أيد الله أمير المسلمين ... الخ » .

رد ابن تاشفين على رسالة المعتمد السابقة (٣)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، من أمير المؤمنين (٤) وناصر الدين ، معين دعوة أمير المؤمنين ، الى الأمير الأكرم المعتمد على الله أبى القاسم محمد بن عباد ، أدام الله كرامته بتقواه ، ووفقه لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(أما بعد) فانه لما وصل خطابكم الكريم ، وقفت على ما تضمنه ، من استدعائنا لنصرتك وما ذكرته من كربتك ، وما كان من قلة حماية جيرانك ، فنحن يمين اشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك ، وواجب علينا ذلك من الشرع وكتاب الله تعالى ، وانه لا يمكننا الجواز الا ان تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكى يكون جوازنا اليك على أيدينا متى شئنا ، فان رأيت ذلك ، فاشهد على نفسك بذلك وابعث الينا بعقودها ونحن فى اثر خطابك ان شاء الله » .

(٣) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٤) سبقت الاشارة الى خطأ هذا اللقب والصحيح انه اتخذ لقب امير المسلمين بدليل ما يقوله فى نفس العبارة « معين دعوة أمير المؤمنين » والمقصود بذلك هو الخليفة العباسى .

ملحق رقم (٥)

خطاب النصر فى موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م [1]

كتب المعتمد بن عباد ملك أشبيلية رسالة أرسلها بالحمام الى ولده الرشيد عقب الفراغ من وقعة الزلاقة قال فيها « يا ابنى أبقاه الله وسلمه ووقاه الأسواء وعصمه واسبغ عليـــه آلاءه وأنعمه . كتبته وقد أعز الله الدين ، وظهر المسلمون وفتح لهم على يدى الفتح المبين ، بما يسره الله تعالى وشاء ، وقدره سبحانه وقضاه ، من هزيمة أدفونش بن فرذلند ، لعنه الله واصلاه نكال الجحيم ، ولا أعدمه العيش الذميم ، كما قنعه الخزى العظيم . واتى القتل على أكثر رجاله ، واتصل النهب سائر اليوم والليـــل المتصلة به جميع محلاته وجمع من رؤوسهم بين يدى من مشهورى رجالهم ومذكورى ابطالهم ، ولم يختر منهم الا من شهر وجرب ، وامتلأت الأيدى مما سلب ونهب .

والذى لا مرية فيه أن الناجى منهم قليل ، والمفلت بسيوف الجـــزع والبعد قليل ، ولم يصبنى بفضل الله الا جرح أشوى ، وحسن الحال عندنا والله وزكا . ولا يشغل بذلك بال ، ولا يتوهم غير الحال التى أشرت اليها حال . والأذفونش بن فرذلند ان لم يصبح تحت السيوف فسيموت كمدا ، وان كان لم تعلقه أشراك الحمام اليـــوم فغدا ، فاذا ورد كتابى هذا فمر بجمع الخاص والعام من أهل أشبيلية وجيرانها الأقربين وأصفيائها المحبين ، فى المسجد الجامع اعزهم الله ، وليقـــرأ عليهم فيـــه ، ليأخذوا من المسرة نصيبهم ، ويضيفوا شكر الله الى صالح دعائهم والسلام » .

---

(١) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

ملحق رقم (٦)

القس القرطبى ودوره فى اثارة الفتنة الدينية فى عهد امارة بنى أمية فى الفترة (٢٣٤ ـ ٢٤٥ هـ / ٨٤٨ ـ ٨٥٨ م)

كان يولوجيوس Eulogious قسيس ينتمى الى أسرة قرطبية عريقة ومعروفة بولائها للمسيحية وكراهيتها للاسلام . درس فى كنيسة القديس زيلوس ـ أحد شهداء المسيحية ربما أيام دقلديانوس ـ وتفوق حتى على اساتذته ، وتأثر كثيرا بأحدهم من المتعصبين ، وهو Abbet Spera - in De الذى ألف كتابا فى تفنيد العقيدة الاسلامية وفى أهمية موت الاستشهاد . وهذا الأستاذ الغيور المتعصب هو الذى أثر فى نفس يولوجيوس كثيرا وعندئذ تقابل مع الفارو Alvaro ذلك الشاب القرطبى الغنى النبيل والذى كان يشارك يولوجيوس مشاعره رغم أنه لم يكن قسيسا . وهكذا نشأت صداقة وطيدة بين الفارو ويولوجيوس الذى أصبح قسيسا لكنيسة القديس زيولوس . ثم زار بمبلونة عاصمة مملكة نبرة (نافار) عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م وعاد الى قرطبة ليشعل فيها حريق التعصب والفتنة الدينية ، وشجع الفتيان والفتيات ـ حتى المسلمات بعد اغرائهن وتنصرهن ـ على سب الاسلام وصاحب الدعوة .

ولما اشتدت الفتنة وشعرت الحكومة بالحرج رأت أن تعالجها أول الأمر بالحكمة فدعا الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ / ٨٢٠ ـ ٨٥٢ م) الى عقد مؤتمر كنسى لمعالجة هذا الأمر . فقام ريكافريد RReccafred مطران أشبيلية بالدعوة لعقد المجتمع الكنسى ، ومثل الأمير عبد الرحمن فى هذا المجمع القومس Gomez الذى أسلم فيما بعد وصار من كتاب الأمير محمد (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ ـ ٨٨٧ م) .

ورغم اصدار المجمع قرارا بمنع أعمال الاستشهاد وبسجن من يحرض عليها من جديد ، الا أن يولوجيوس شهر بقرارات المجمع وانها لم تدن أعمال

الاستشهاد ، واتهم أعضـــاء المجمع بالخوف والجبن والعمالة ، بل انه رمى المعارضين له من الأساقفة بأنهم كانوا يبطنون الاسلام ويظهرون المسيحية .
هكذا بلغ تعصبه ، ولم يدر أن كثيرا من المسيحيين كانوا معتدلين ، ويعللون أعمال الاستشهاد بأن الشهداء قد أثارهم الكبرياء والعجب وحب البطولة ، لذلك وصف هؤلاء المعتدلون الاستشهاد بأنه عمل انتحارى وليس استشهادا دينيا ، لأنه ليس هناك ما يدعو اليه . فالأمراء الأمويون يســيرون على سياسة التسامح ، والقضاة أنفسهم لا يحكمون بالاعدام على الفور بل انهم كانوا يلتمسون مساعدة هؤلاء المتهورين ويحاولون اقناعهم بانكار ادعاءاتهم ضد الاسلام ، لكنهم كانوا يصرون على أقوالهم تحت تأثير يولوجيوس وأمثاله من المتعصبين . واعترف يولوجيوس نفسه بسماحة المسلمين بعد أن امتنع القاضى عن اصدار حكم عليه بالموت ، وأمر بارســاله الى القصر ليرى الوزراء رأيهم فيه .

وهناك قابله أحد الضباط الذى كان يعرفه جيدا ونصحه بالا يستهويه عمل هؤلاء الجهلاء وهو الرجل المتعلم المستنير . هنا فقط شعر يولوجيوس بأن المسلمين أقل وحشية مما كان يعتقد . وكان هناك شعور بحب الحياة فى نفسه ونفس غيره ، وعاد الى الاسلام كثير من النصـــارى بعد قرار المجمع الكنسى ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م وغير كثير من العلمانيين والأساقفة ممن كانوا يؤيدون أعمال الاستشهاد رأيهم . هنا نهض يولوجيوس للرد على هؤلاء وألف الكتب فى ذلك مثل كتابه Memorial of thhe Saints (ذكر القديسيين) وفيه رد على معارضيه ، وساق حججا من الانجيل تؤيد أعمال الاستشهاد .

وظل يولوجيوس يثير النصارى ويبث الكراهية فى نفوسهم ويحرضهم حتى انتشرت الفتنة فى طول البلاد وعرضها ، وسقط الكثير من القتلى بسبب هذه الأعمـــال الطائشة ، منهم على سبيل المثـــال أسقف قرمونة المسمى Theodemir . وظلت الفتنة تستشرى حتى سقط يولوجيوس نفسه فى المصيدة بعد أن أخفى احدى الفتيات واسمها (ليوكرتيا) واعترف أمام القاضى أنه هو الذى لقنها تعاليم المسيحية . ولم يعد هناك مناص من أن يسير الى النهاية التى قاد زملاءه ومواطنيه اليها . ولذلك قدم نفســه للموت بطريقة الشهداء ، وأعدم فى عام ٣٤٥ هـ / ١١ مارس ٨٥٩ م .

ورغم ما قام به هذا القس المتعصب من اثارة للفتنـــة الا أنه كان السبب فى احضار بعض كتب الأدب اللاتينية من بمبلونة الى قرطبة ، ولا بد أنه أخذ الى بمبلونة كتب المسلمين الدينيـــة ليقوموا هنـــاك بتفنيدها ثم يرسلونها اليه . وقد أحضر هو نفسه كتبا من هذا القبيل مليئة بالأباطيل والخرافات ضـــد الاسلام وصاحب الدعوة ، وظل دائم الاتصـــال بأسقف بمبلونة المسمى وليسند Wiliesind عن طريق الرسائل المتبادلة . وربما ما قام به يولوجيوس فى هـــذا المجال قد أثار جدلا فكريا فيما بعد ، ودفع ببعض الكتاب المسلمين مثل ابن حزم لأن يؤلف كتابه الشهير « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » كما ألف كتابا آخر للرد على افتراءات اليهود ضـــد الاسلام وسماه « الرد على ابن النغريلة اليهودى » .

انظر :

Dozy, A history of the moslems in Spain, pp. 273 - 274 , 285 - 2923 , 206 - 307.

بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٤٧ .

جداول البحث

جداول البحث

جدول رقم (١)

أمراء وخلفاء بنى أمية

١- عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل
(١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٦-٧٨٨م)

٢- هشام الأول
(١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م)

٣- الحكم الأول
(١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م)

٤- عبد الرحمن الثانى
(٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م)

٥- محمد الأول
(٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م)

٦- المنذر
(٢٧٣-٢٧٥هـ
٨٨٦-٨٨٨م)

٧- عبد الله
(٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م)

محمد

٨- عبد الرحمن الثالث الناصر
(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م)

أبناء عبد الرحمن الثالث:

- عبد الجبار ← هشام ← ١١- محمد المهدى (٣٩٩-٤٠٠هـ / ١٠٠٩م)؛ ١٤- عبد الرحمن المستظهر (٤١٤هـ/١٠٢٣م)
- سليمان ← الحكم ← ١٢- سليمان المستعين (٤٠٠هـ/١٠١٠م)، (٤٠٣-٤٠٧هـ / ١٠١٠-١٠١٦م)
- عبد الملك ← محمد ← ١٣- عبد الرحمن المرتضى (٤٠٧-٤٠٨هـ / ١٠١٦-١٠١٧م)؛ ١٦- هشام المعتمد (٤١٨-٤٢٢هـ / ١٠٢٧-١٠٣١م)
- عبد الله ← عبد الرحمن ← ١٥- محمد المستكفى (٤١٤-٤١٦هـ / ١٠٢٣-١٠٢٥م)
- ٩- الحكم الثانى المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م) ← ١٠- هشام الثانى المؤيد (٣٦٦-٣٩٩هـ / ٩٧٦-١٠٠٩م)، (٤٠٠-٤٠٣هـ / ١٠١٠-١٠١٣م)

جدول رقم (٢)

ملوك ليون (جليقية وأشتريس)

١ - بلاي ملك جليقية وأشتريس (٩٨ - ١٣٣ هـ / ٧١٧ - ٧٥١ م)
- ٢ - فافيلا (١٣٣ - ١٣٥ هـ / ٧٥١ - ٧٥٣ م)
- هرموزنده

بتروس دوق كنتبرية
- ٣ - الفونش الأول (١٣٥ - ١٤٠ هـ / ٧٥٣ - ٧٥٧ م)
- فرويلا
  - ٥ - أورالبيوس (١٥١ - ١٥٧ هـ / ٧٦٨ - ٧٧٤ م)
  - ٨ - برمند (١٧٣ - ١٧٥ هـ / ٧٨٩ - ٧٩١ م)

أبناء الفونش الأول:
- أردزنده تزوجت ٦ - شيلون (١٥٧ - ١٦٦ هـ / ٧٧٤ - ٧٨٣ م)
- ٤ - فرويلا الأول (١٤٠ - ١٥١ هـ / ٧٥٧ - ٧٦٨ م)
- ٧ - مورفقاط (١٦٦ - ١٧٣ هـ / ٧٨٣ - ٧٨٩ م)

٩ - الفونش الثاني (١٧٥ - ٢٢٧ هـ / ٧٩١ - ٨٤٢ م)

١٠ - ردمير الأول (٢٢٧ - ٢٣٥ هـ / ٨٤٢ - ٨٥٠ م)

١١ - أردون الأول (٢٣٥ - ٢٥١ هـ / ٨٥٠ - ٨٦٦ م)

١٢ - الفونش الثالث (الكبير) (٢٥١ - ٢٩٥ هـ / ٨٦٦ - ٩١٠ م)
- ١٣ - غرسية ملك ليون (٢٩٥ - ٣٠١ هـ / ٩١٠ - ٩١٤ م)
- ١٤ - أردون الثاني (ملك جليقية) (٣٠١ - ٣١٢ هـ / ٩١٤ - ٩٢٤ م)
- ١٥ - فرويلا الثاني (ملك أشتريس) (٣١٢ - ٣١٣ هـ / ٩٢٤ - ٩٢٥ م)

أبناء أردون الثاني:
- شانجة ت ٩١٩ م
- ١٧ - ردمير الثاني (٣٢٠ - ٣٣٩ هـ / ٩٣١ - ٩٥١ م)
  - ١٩ - شانجة (٣٤٤ - ٣٥٤ هـ / ٩٥٦ - ٩٦٦ م)
    - ٢١ - ردمير الثالث (٣٥٤ - ٣٧٠ هـ / ٩٦٦ - ٩٨٢ م)
  - ١٨ - أردون الثالث (٣٣٩ - ٣٤٤ هـ / ٩٥١ - ٩٥٦ م)
    - ٢٢ - برمند الثاني (٣٧٠ - ٣٨٧ هـ / ٩٨٢ - ٩٩٩ م)
      - ٢٣ - الفونش الخامس (٣٨٧ - ٤١٦ هـ / ٩٩٩ - ١٠٢٨ م)
        - ٢٤ - برمند الثالث (٤١٦ - ٤٢٦ هـ / ١٠٢٨ - ١٠٣٨ م)
- ١٦ - الفونش الرابع (٣١٣ - ٣٢٠ هـ / ٩٢٥ - ٩٣١ م)
  - ٢٠ - أردون الرابع (٣٤٦ - ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ - ٩٥٩ م)

جدول رقم (٣)

ملوك نبره (نافار)

ونقة بن شانجة (أنيجو آرستا)

- ٢ - ينقة بن ونقة (أخو موسى بن موسى بن قسي لأمه) (٢٢٩-٢٣٧هـ / ٨٤٣-٨٥١م)
- ١ - غرسية بن ونقة (قرابة موسى) (قتل عام ٢٢٩هـ)
- فرتون بن ونقة (أخو موسى بن موسى بن قسي - قتل عام ٢٢٨هـ)

أبناء غرسية بن ونقة:

- يلشك
- ٤ - شانجه بن غرسية (أول ملوك نافار) (٢٩٠-٣٤٤هـ / ٩٠٥-٩٢٦م)
- غلند
- ٣ - فرتون الأنقر (أسير قرطبة) (٢٦٦-٢٩٠هـ / ٨٧٩-٩٠٥م)

أبناء شانجه بن غرسية:

- أوراكة
- ٥ - غرسية (٣١٤-٣٥٩هـ / ٩٢٦-٩٦٩م)

٦ - شانجة الثاني (٣٥٩-٣٨٤هـ / ٩٦٩-٩٩٤م)

٧ - غرسية (٣٨٤-٣٩١هـ / ٩٩٤-١٠٠٠م)

٨ - شانجة الثالث (٣٩١-٤٢٦هـ / ١٠٠٠-١٠٣٥م)

أبناء شانجة الثالث:

- جونثالو (ملك سوبراب) (٤٢٦-٤٢٩هـ / ١٠٣٥-١٠٣٨م)
- ردمير الأول (ملك أرغونة) (٤٢٦-٤٥٦هـ / ١٠٣٠-١٠٦٣م)
- فرديناند (ملك قشتالة وليون) (٤٢٦-٤٥٨هـ / ١٠٣٥-١٠٦٥م)
- غرسية (ملك نبرة) (٤٢٦-٤٤٦هـ / ١٠٣٥-١٠٥٤م)

أبناء ردمير الأول:

- بدرو الأول (٤٨٧-٤٩٨هـ / ١٠٩٤-١١٠٥م)
- الفونش المحارب (٤٩٨-٥٢٩هـ / ١١٠٥-١١٣٤م)

أبناء غرسية (ملك نبرة):

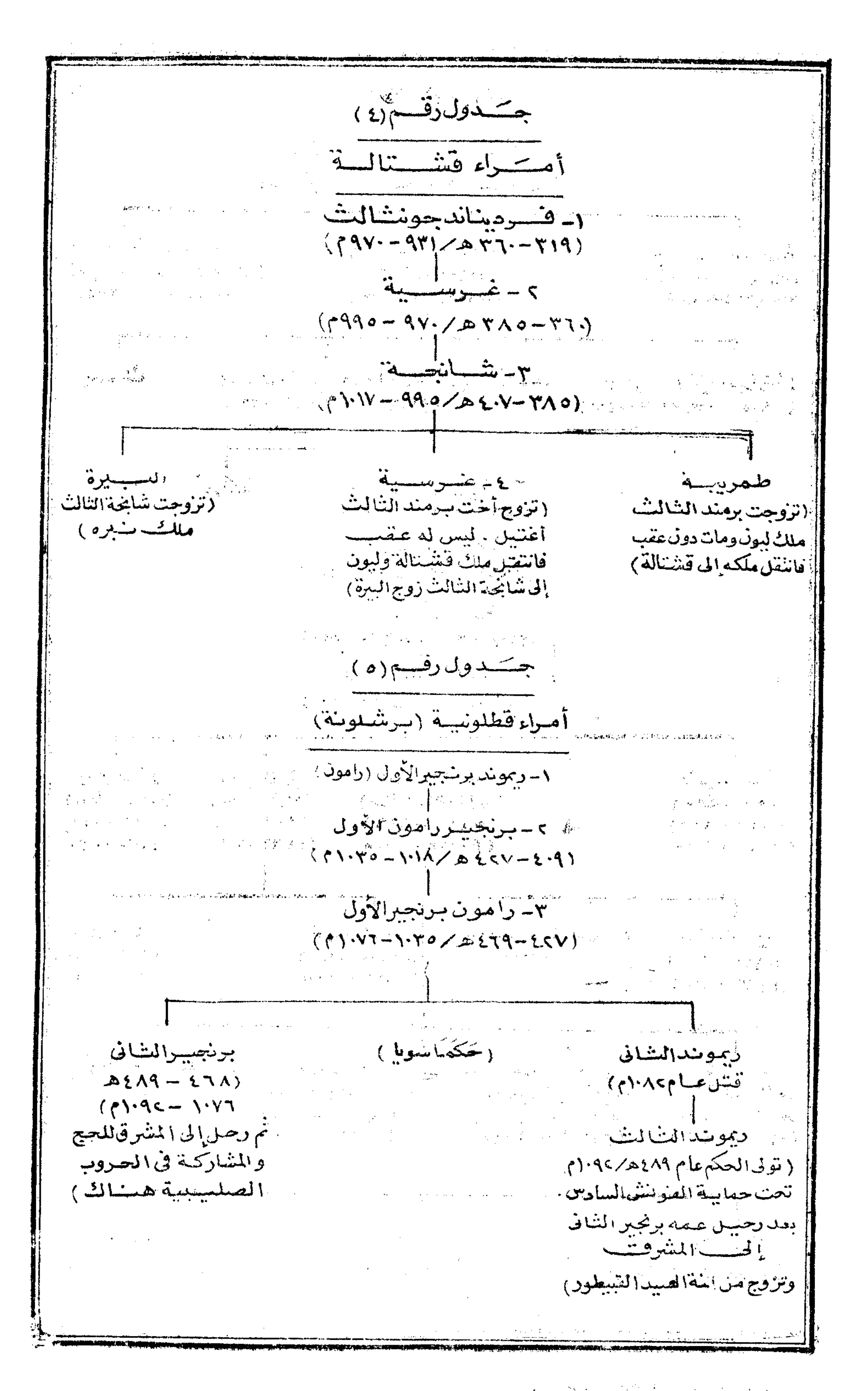
- ريموند
- أرمزندة
- شانجة الرابع (٤٤٦-٤٦٨هـ / ١٠٥٤-١٠٧٦م)

أبناء فرديناند:

- أوراكه (أميرة سمورة)
- البيرة
- غرسية (ملك جليقية والبرتغال) (٤٥٨-٤٦٤هـ / ١٠٦٥-١٠٧١م)
- الفونش السادس (ملك ليون واشتريس) (٤٥٨-٥٠٢هـ / ١٠٦٥-١١٠٩م)
- شانجة (ملك قشتالة) (٤٥٨-٤٦٣هـ / ١٠٦٥-١٠٧١م)

أبناء الفونش السادس:

- أوراكة تزوجت من الفونش المحارب
- شانجة قتيل أقليش ٥٠٢هـ
- تيريزا تزوجت من هنري البرجوني


جدول رقم (٤)
أمراء قشتالة
١- فرديناند جونثالث
(٣١٩-٣٦٠هـ/٩٣١-٩٧٠م)
٢- غرسية
(٣٦٠-٣٨٥هـ/٩٧٠-٩٩٥م)
٣- شانجة
(٣٨٥-٤٠٧هـ/٩٩٥-١٠١٧م)
طمريبة
(تزوجت برمند الثالث
ملك ليون ومات دون عقب
فانتقل ملكه إلى قشتالة)
٤- غرسية
(تزوج أخت برمند الثالث
أغتيل. ليس له عقب
فانتقل ملك قشتالة وليون
إلى شانجة الثالث زوج البيرة)
البيرة
(تزوجت شانجة الثالث
ملك نبره)
جدول رقم (٥)
أمراء قطلونية (برشلونة)
١- ريموند برنجير الأول (رامون)
٢- برنجير رامون الأول
(٤٠٩-٤٢٧هـ/١٠١٨-١٠٣٥م)
٣- رامون برنجير الأول
(٤٢٧-٤٦٩هـ/١٠٣٥-١٠٧٦م)
ريموند الثاني
قتل عام ١٠٨٢م)
(حكما سويا)
برنجير الثاني
(٤٦٨ - ٤٨٩هـ
(١٠٧٦ - ١٠٩٢م)
ثم رحل إلى المشرق للحج
والمشاركة في الحروب
الصليبية هنالك)
ريموند الثالث
(تولى الحكم عام ٤٨٩هـ/١٠٩٢م
تحت حماية الفونش السادس.
بعد رحيل عمه برنجير الثاني
إلى المشرق
وتزوج من ابنة السيد الكنبيطور)

خريطة ١٠



سلاسل جبلية رئيسية

مدن هامة

حدود الأندلس الإسلامية عقب الفتح عام ٩٢هـ/ ٧١١م

الحدود بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في بداية عصر الإمارة الأموية

الحدود بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في نهاية عصر الإمارة الأموية

خريطة رقم ٢

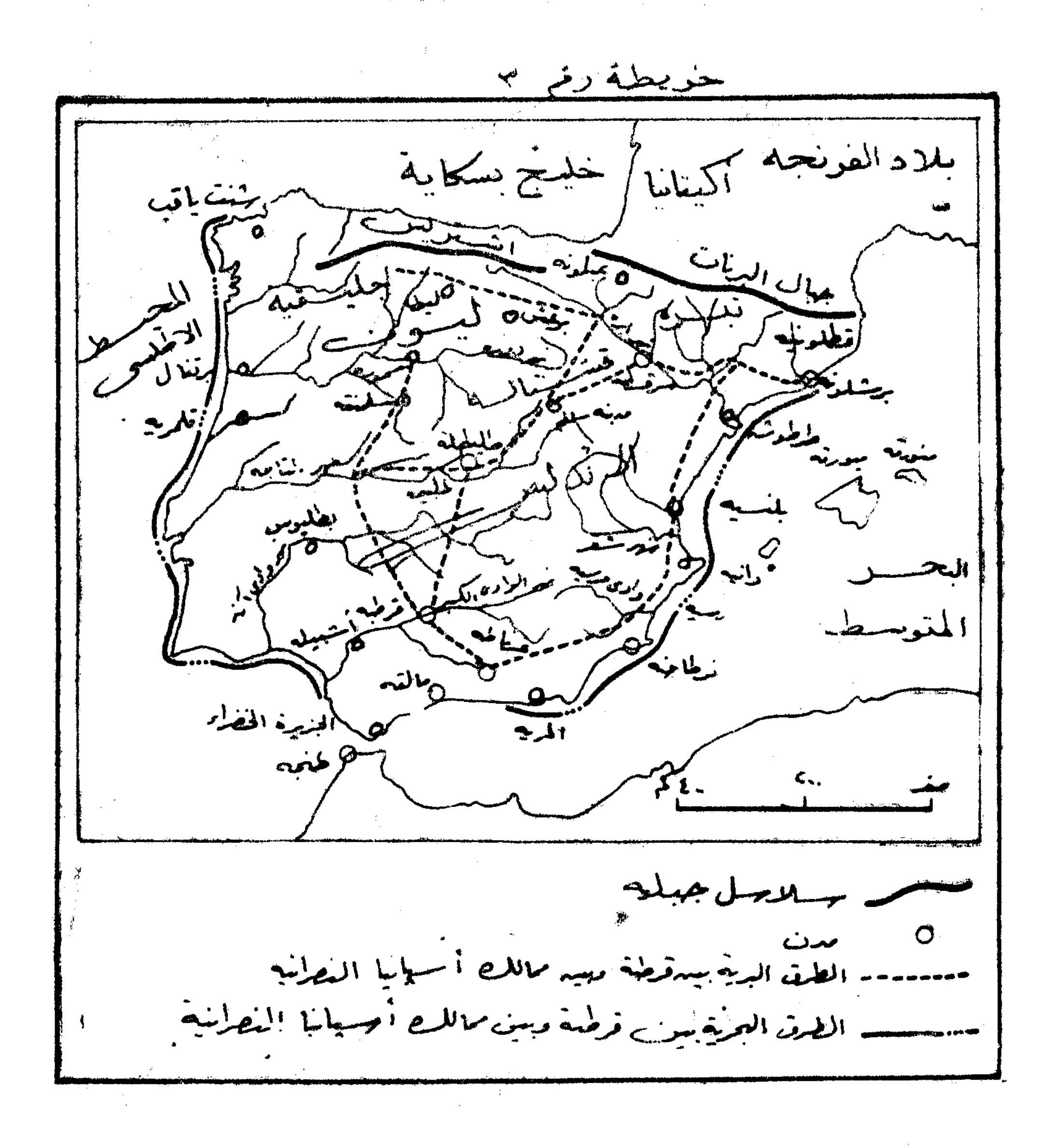
بلاد الفرنجة
خليج بسكاية
جبال البرنات
بنبلونة
برغش
ليون وقشتالة
سرقسطة
طركونة
برشلونة
منورقة
ميورقة
يابسة
دانية
بلنسية
طليطلة
شنترين
بطليوس
الزلاقة
قرطبة
أشبيلية
مرسية
لبيط
لورقة
غرناطة
قرطاجنة
مالقة
المرية
سبتة
طنجة
صفر ٢٠٠ ٤٠٠ كم

سلاسل جبال

مدن هامة

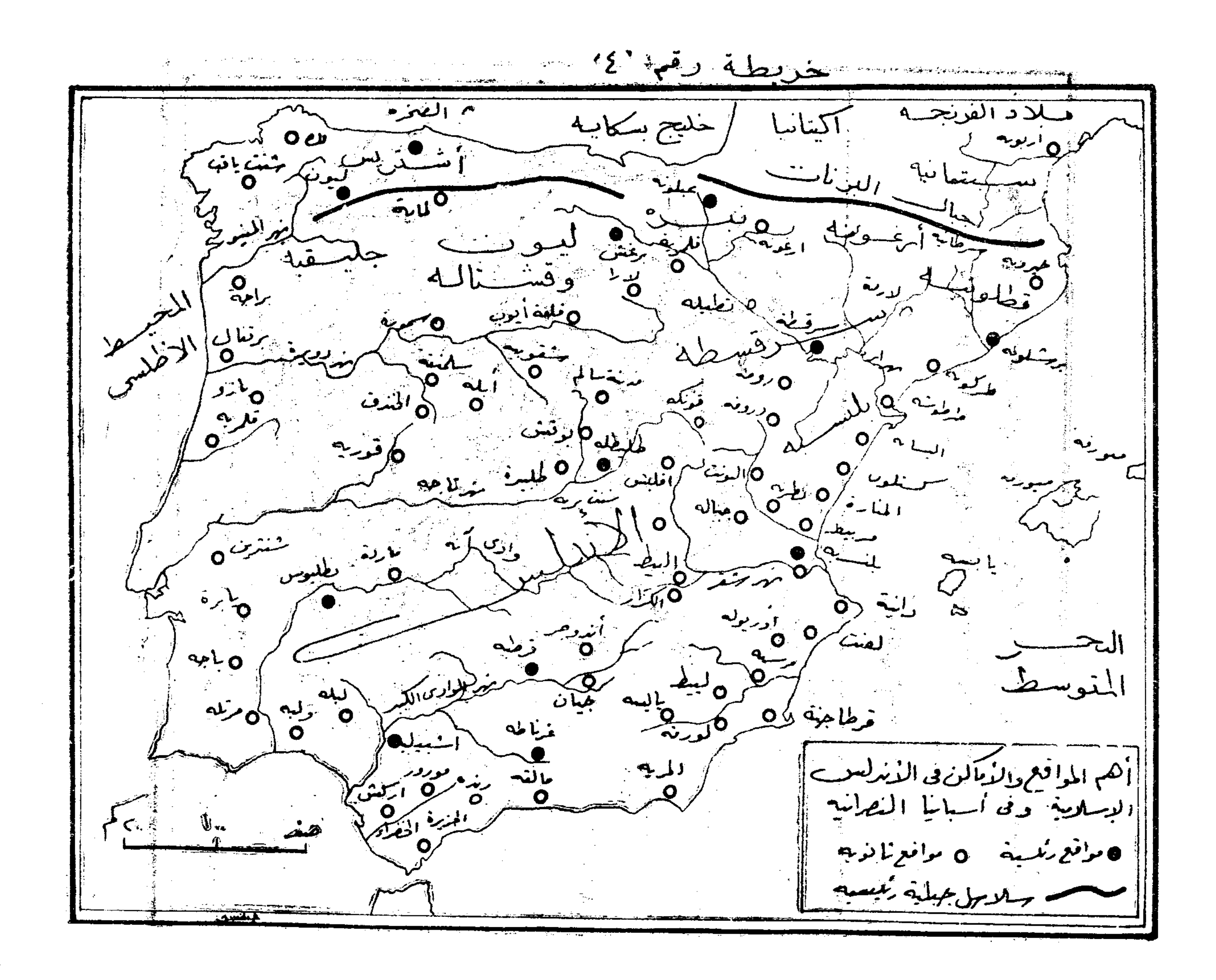
الحدود بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى نهاية عصر الخلافة الأموية

الحدود بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى نهاية عصر ملوك الطوائف



خريطة رقم ٣
بلاد الفرنجة
أكيتانيا
خليج بسكاية
شنت ياقب
المحيط الأطلسي
جليقية
ليون
برتغال
قلمرية
قشتالة
طليطلة
الأندلس
بطليوس
قرطبة
إشبيلية
مالقة
المرية
الجزيرة الخضراء
طنجة
قرطاجنة
دانية
بلنسية
برشلونة
البحر المتوسط
سلاسل جبلية
مدن
الطرق البرية بين قرطبة وبين ممالك أسبانيا النصرانية
الطرق البحرية بين قرطبة وبين ممالك أسبانيا النصرانية

خريطة رقم ٤٢



أهم المواقع والأماكن فى الأندلس الإسلامية وفى أسبانيا النصرانية
مواقع رئيسية
مواقع ثانوية
سلاسل جبلية رئيسية
خليج بسكاية
أكيتانيا
بلاد الفرنجة
أربونة
المحيط الأطلسى
البحر المتوسط
ليون وقشتالة
جليقية
قطلونية
سرقسطة
بلنسية
الأندلس
أشتريس
ليون
الصخرة
بنبلونة
نبرة
جبال البرتات
برشلونة
طركونة
طليطلة
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
مالقة
المرية
مرسية
قرطاجنة
لقنت
دانية
يابسة
ميورقة
منورقة
نهر الوادى الكبير
نهر تاجه
نهر شقر
باجة
بطليوس
ماردة
شنترين
قلمرية
برتقال
الجزيرة الخضراء

المصـــادر والمراجع

أولا ــ المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة

ابن الآبار (٥٩٥ ــ ٦٥٨ هـ / ١١١٩ ــ ١٢٦٠م)

١ ــ الحلة السيراء ، جا ، ٢ ، تحقيق د. حســـين مؤنس ، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر بمصر ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٦٣م .

٢ ــ المعجم فى أصحاب القــاضى الامام أبى على الصدفى ، مدريد ١٨٨٥

ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م)

٣ ــ الكامل فى التاريخ جـ٤ ــ ٩ ، طبع القاهرة ، ١٢٩٠ هـ

ابن ابى دينـــار (ت ١١١٠هـ)

٤ ــ المونس فى أخبار أفريقية وتونس ، الطبعة الأولى ، تونس ٢٣٨٦هـ

ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٦م)

٥ ــ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول والثـــانى .

٦ ــ الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، طبع القـــاهرة .

ابن بشكوال (٤٩٤ ــ ٥٧٨هـ / ١١٠١ ــ ١١٨٢م)

٧ ــ الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ، جا نشر السيد عزت العطـــار الحسينى ، طبع القـــاهرة ، ١٩٥٥ م

ابن بلقين (ت ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م)

٨ ــ مذكرات الأمير عبد الله ، تحقيق ليفى بروفنسال ، طبع دار المعـــارف بمصر .

ابن الجـــوزى (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٧م)

٩ ـــ مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥١ تاريخ .

ابن حبيب (ت ٢٣٨هـ / ٨٥٢ م)

١٠ ـــ تاريخه ، جزء خاص بالأندلس نشره محمود على مكى بصحيفة معهـــد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧ م

ابن حـــزم (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٦م)

١١ ـــ جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليفى بروفنســال ، دار المعارف بمصر ١٩٤٨م

١٢ ـــ طوق الحمامة فى الألفة والألاف ، تحقيق حسن كامل الصيرفى طبع القـــاهرة .

١٣ ـــ الرد على ابن النغريلة اليهودى ، تحقيق احسان عباس ـــ طبع القـــاهرة ١٩٦٠.

١٤ ـــ نقط العروس فى تواريخ الخلفـــاء برواية الحميدى ، تحقيـــق شوقى ضيف ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلـــد ١٣ الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٥١ م

١٥ ـــ رسائل ابن حزم الأندلسى ، المجموعـــة الأولى ، تحقيـــق احسان عباس ، القـــاهرة ١٩٥٥ م .

١٦ ـــ الاحكام فى اصول الأحكام ، جـ١ ، طبع القـــاهرة ١٩٦٣ م

١٧ ـــ جوامع السيرة ، تحقيق احسان عباس ، دار المعارف بمصر .

١٨ ـــ شذرات من كتـــاب السياسة لابن حزم ، نشر محمد ابراهيم الكتانى ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠ م .

١٩ ـــ مداواة النفوس ، طبع مصر .

ابن حوقل (القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى)

٢٠ ـــ كتاب صورة الأرض ، جـ١ ، طبع ليدن ١٩٦٧م

ابن حيان (ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٩م)

٢١ ــ المقتبس فى تاريخ أهل الأندلس ، جـ٣ نشر الأب طشور أنطونية، طبع باريس ١٩٣٧م

ابن خلقـــان (ت ٥٣٥هـ / ١١٣٦م)

٢٢ ــ قلائـــد العقيـــان ، طبع مصر ١٢٧٧ هـ

٢٣ ــ مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس ، طبع مصر

ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤هـ)

٢٤ ــ أعمال الاعلام ، جـ٢ تحقيق ليفى بروفنسـال ، طبع بيروت ١٩٥٦م

٢٥ ــ الاحاطة فى أخبار غرناطة ، جـ ١ ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، دار المعارف بمصر (سلسلة ذخائر العرب رقم ١٧)

٢٦ ــ الاحاطة فى أخبـــار غرناطة ، جـ٢ الطبعة الأولى ، مطبعـــة الموسـمات بمصر ، عام ١٣١٩هـ

٢٧ ــ رقم الحلل فى نظم الدول ، طبع تونس ١٣١٦ هـ

٢٨ ــ الحلل الموشية فى ذكر الأخبـــار المراكشية ، الطبعة الأولى ، تونس ١٩٢٩ م

٢٩ ــ معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار ، طبع فاس ، ١٣٢٥هـ

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)

٣٠ ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٤ ، جـ٦ طبع بولاق ١٨٨٤م

٣١ ــ مقدمة ابن خلدون ، جـ١ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥١م

٣٢ ــ مقدمة ابن خلدون ، جـ٢ ، جـ٣ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٨م

ابن خلكان (٦٠٨ ــ ٦٨١هـ / ١٢١٠ ــ ١٢٨٤م)

٣٣ ــ وفيات الاعيان ، جـ١ ــ ٦ ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد نشر مكتبة النهضة المصرية بالقـــاهرة .

ابن دحيـــة (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥ م)

٣٤ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الابيــارى وآخرين ، طبع القــاهرة ، ١٩٥٤م

ابن سعيد المغربى (ت ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م)

٣٥ ـ المغرب فى حلى المغرب جا ، ٢ تحقيق شوقى ضيف ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٥ م

٣٦ ـ بسط الأرض فى الطــول والعرض ، تحقيق خوان خونيس ، طبع تطوان بالمغرب ١٩٥٨م

ابن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٠م)

٣٧ ـ فوات الوفيــات ـ جا ، طبع بولاق ١٢٨٣هـ

ابن شهيد الأندلسى (ت ٤١٩ هـ / ١٠٢٨م)

٣٨ ـ رسالة التوابع والزوابع ، طبع بيروت .

ابن عبد ربه الأندلسى (ت ٣٣٦ هـ / ٩٤٨م)

٣٩ ـ العقــد الفريد ، ج٢ ، طبع مصر ١٢٩٣ هـ

ابن عبــدون (القرن الخامس الهجرى / الحــادى عشر الميلادى)

٤٠ ـ ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيــق ليفى بروفنسال ، القــاهرة ١٩٥٥ م

ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٥م)

٤١ ـ القصد والأمم فى التعريف بأصول أنساب العرب والعجم ، طبع القــاهرة ١٣٥٠هـ

ابن عذارى (القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى)

٤٢ ـ البيان المغرب ، ج ٢ ، تحقيق دوزى ، طبع بيروت .

٤٣ ــ البيان المغرب ، جـ٣ ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ، ١٩٦٩ م

٤٤ ــ البيان المغرب ، جـ٤ ، الطبعة الرابعة ، تحقيق احسان عباس ، طبع بيروت ١٩٦٧م

ابن غالب الأندلسى (القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى)

٤٥ ــ تعليق منتقى من فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الأول جـ١ ، مايو ١٩٥٥ م

ابن الفرضى (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٣م)

٤٦ ــ تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، جـ١ ، ٢ ، نشر السيد عزت العطار الحسينى ، طبع القاهرة ١٩٥٤ م

ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٣٦ م)

٤٧ ــ مسالك الابصار فى ممالك الأمصار ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥٩ معارف عامة قسم ١ ، جـ ١٦ ، قسم ٢ ، جـ ١٥ .

٤٩ ــ وصف افريقية والمغرب والأندلس ، مقتطف من كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب ، طبع تونس ١٩٢٣ م

ابن قتيبة الدينورى (٢١٣ ــ ٢٧٦ هـ / ٨٢٧ ــ ٨٠٩م)

٥٠ ــ الامامة والسياسة ، جـ٢ ، الطبعة الثانية ، طبع مصر ١٩٥٧م

ابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧م)

٥١ ــ تاريخ افتتاح الأندلس ، الطبعة الأولى ، طبع مصر .

ابن الكرديوس (القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى)

٥٢ ــ الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، نشر أحمد مختار العبادى ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، مجلد ١٣ عام ١٩٦٦/٦٥م

ابن هــذيل :

٥٣ ــ تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٩ فروسية تيمور .

ابن الوردى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٣٦م)

٥٤ ــ خريدة الجائب وفريدة الغرائب ، طبع القاهرة ١٢٧٦ هـ

ابو الفــدا (ت ٧٣٢هـ / ١٣٢٩م)

٥٥ ــ تاريخه ، جا ، ٢ ، طبع القسطنطينية ١٢٨٦ هـ

الادريسى (ت ٦٤٩هـ / ١٢٥٣م)

٥٦ ــ صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس ، ماخوذ من كتـاب نزهة المشتاق ، طبع ليدن عام ٨٦٦ م .

الاصطخرى (ت ٣٥٠هـ / ٩٦٢م)

٥٧ ــ المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسينى ، دار القلم بالقـاهرة ١٩٦١م .

الأنصــارى (٨٠١ ــ ٨١٤هـ / ١٣٩٩ ــ ١٤١١م)

٥٨ ــ تفريج الكروب فى تدبير الحروب ، تحقيق جورج اسكاتلون ، القـاهرة ١٩٦١م

البــاجى (ت ٤٧٤هـ / ١٠٨١م)

٥٩ ــ وصية الشيخ أبى الوليـد الباجى لولديه ، نشر جودة هلال ، صحيفة معهـد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثالث ، ١٩٥٥م

البلاذرى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)

٦٠ ــ فتوح البلدان ، الطبعة الأولى ، طبع مصر ١٩٠١م .

التطيلى (ت ٥٢٥هـ / ١١٢٩م)

٦١ ــ ديوانه ، تحقيق احسان عباس ، طبع بيروت .

الثعالبى (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م)

٦٢ ــ يتيمة الدهر ، جـ١ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، القــاهرة ١٩٤٧م .

٦٣ ــ يتيمة الدهر ، جـ٢ ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٣٤ م .

الحجــرى (القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى)

٦٤ ــ ناصر الدين على القوم الكافرين ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٦٣٤ ط

الحميــدى (ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م)

٦٥ ــ جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأنــدلس ، نشر مكتب الثقــافة بالقــاهرة .

الحميرى (جمعه عام ٨٦٦هـ / ١٤٦٣م)

٦٦ ــ صفة جزيرة الأندلس ، منتخب من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار للحميرى ، نشر ليفى بروفنســال ، القاهرة ١٩٣٧م

الخشنى (ت ٣٦١هـ / ٩٧١م)

٦٧ ــ قضاة قرطبة وعلماء افريقية ، نشر السيد عطار الحسينى ، القــاهرة ١٣٧٢هـ .

الزبيدى (ت ٣٧٩ هـ / ٩٩١ م)

٦٨ ــ طبقــات النحويين واللغويين ، الطبعة الأولى ، تحقيــق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مصر ١٩٥٤م .

السقطى (القرن السابع الهجرى / الثالث العشر الميلادى)

٦٩ ــ آداب الحسبة ، نشر ليفى بروفنســال وكولان ، المطبعة الدولية باريس ١٩٣١م .

ســـــحنون :

٧٠ ــ المدونة الكبرى ، جـ٤

السلاوى (ت ١٣١٥هـ / ١٨٩٥م)

٧١ ـ الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى جـ١ ، طبع مصر .

صاعد الأندلسى (ت ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م)

٧٢ ـ طبقات الأمم ، نشر الأب لويس شيخو ، نشر وطبع بيروت ١٩١٢م .

الضبى (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م)

٧٣ ـ بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، طبع مدريد ١٨٨٤م

الطرطوشى (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٤م)

٧٤ ـ سراج الملوك ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ١٣١٩ هـ .

العذرى (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥م)

٧٥ ـ نصوص عن الأندلس ، مأخوذ من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك الى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهوانى ، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٦٥م .

العينى (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥٠م)

٧٦ ـ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ ، قسم ٢ ، جـ١٢ ، قسم ٣ ، جـ١٣ ، قسم ٤ جـ١٩ .

الغرناطى (ت ٥٦١هـ / ١١٦٥م)

٧٧ ـ تحفة الألباب ، نشر فى Journal Astiatque, Sep. 1925.

الغسانى (ت ١١١٩ هـ / ١٧٠٦ م)

٧٨ ـ رحلة الوزير فى افتكاك الأسير ، طبع طنجة ١٩٤٠م .

القلقشندى (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

٧٩ ــ صبح الأعشى ، جـ٥ ، طبع القــاهرة ١٩١٥م .

٨٠ ــ مآثر الانافة فى معــالم الخــلافة ، جـ٣ ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، طبع الكويت ١٩٦٤م .

المراكشى (ت ٦٦٩هـ / ١٢٧١م)

٨١ ــ المعجب فى تلخيص أخبــار المغرب ، نشر محمد سعيد العريان ، مطبعة الاستقامة بالقــاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٤٩م .

المغربى : محمد الشطيبى

٨٢ ــ الجمــان فى أخبــار الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٤١٦ تاريخ .

المقــرى (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م)

٨٣ ــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، جـ١ ــ ٤ ، الطبعة الأولى ، المطبعــة الأزهرية بمصر ١٣٠٢هـ .

٨٤ ــ أزهــار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، جـ١ ، ٢ تحقيــق مصطفى السقا وآخرون ، طبع القــاهرة ١٩٣٩ م .

مجهــول :

٨٥ ــ أخبــار مجموعة فى فتح الأندلس ، طبع مدريد ١٨٦٧ م

٨٦ ــ شرح حال الكنيسة ، طبع فالنه بمالطة ١٨٤١ م .

٨٧ ــ الطبيخ فى المغرب والأندلس ، تحقيق امبروزيو أويثى ميراندا، صحيفة معهــد الدراسات الاسلامية بمدريد ، مجلد ٩ ــ ١٠ عام ١٩٦٢/٦١

٨٨ ــ مفــاخر البربر ، نشر ليفى بروفنسال ، طبع الرباط ١٩٣٤م

النباهى (٧١٣ ــ ٧٧٦ هـ / ١٣٠٩ ــ ١٣٧٤ م)

٨٩ ــ تاريخ قضاة الأندلس ، نشر ليفى بروفنسال ، دار الكاتب المصرى بالقــاهرة عام ١٩٤٨م .

النويرى (٧٣٢هـ / ١٣٢٩م)

٩٠ ــ نهــاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٢٢ ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

الهمـــدانى :
٩١ ــ مختصر كتـــاب البلدان ، طبع ليدن ١٩٦٧م .

الونشريشى (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م)
٩٢ ــ أسنى المتاجر فى بيـــان من غلب على وطنه النصارى ولـــم يهاجر ، نشر د. حسين مؤنس ، صحيفة معهد الدراســـات الاسلامية بمدريد المجلـــد الخامس ، عدد ١ ، ٢ عام ١٩٥٧م .

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٣٠م)
٩٣ ــ معجم البلدان ، ج ١ ــ ١٠ ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٠٦ م .

اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)
٩٤ ــ صفة المغرب ، مأخوذ من كتـــاب البلدان ، طبع ليدن ١٨٥٠ م

يوسا بيوس القيصرى (٢٦٤ ــ ٣٤٠م)
٩٥ ــ تاريخ الكنيسة ، ترجمة القس مرقص داود ، نشر دار الكرنك القـــاهرة ١٩٦٠ م .

ثانيا ـ المراجع العربية والدوريات

احمد امين :

١ ـ ظهور الاسلام ، جـ ٣ ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، ١٩٦٩ م .

احمد زكى باشا :

٢ ـ السفر الى المؤتمر ، الطبعة الأولى ، بولاق ١٨٩٣م

٣ ـ أربعة عشر يوما سعيدا فى خلافة عبد الرحمن الناصر ، طبع القاهرة ١٨٨٦م .

احمد الشنتناوى وآخرون :

٤ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثانى .

احمد مختار العبادى :

٥ ـ صورة لحياة الحرب والجهاد فى المغرب والأندلس ، مجلة البينة ، السنة الأولى ، العدد التاسع ، يناير ١٩٦٣ م

اميليو غرسية غومس :

٦ ـ الشعر الأندلسى ، تعريب د. حسين مؤنس ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ .

انيس وزكريا النصولى :

٧ ـ الدولة الأموية فى قرطبة ، جـ١ ، طبع بغداد ، ١٩٢٦م

آنخل جونثالث بالنثيا :

٨ ـ تاريخ الفكر الأندلسى ، تعريب د. حسين مؤنس ، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٥م

بروكلمان :

٩ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ، جـ٢ ، تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٤٩م .

بطرس البستانى :

١٠ ــ معارك العرب فى الأندلس ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٥٠م

تــرند :

١١ ــ أسبانيا والبرتغال ، تعريب د. حسين مؤنس ، من كتاب The Leagcy of Islam طبع القاهرة ١٩٣٦ م

حسن أحمد محمود :

١٢ ــ تاريخ الغرب الاسلامى ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٨ م .

حسين مؤنس :

١٣ ــ فجر الأندلس ، الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة عام ١٩٥٩ م .

١٤ ــ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، مجلد ٧ ، ٨ لعام ٥٩/١٩٦٠م ، مجلد ١١ ، ١٢ لعام ٦٣/١٩٦٤ .

١٥ ــ سبع وثائق جديدة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ، ١٩٥٤م .

١٦ ــ بلاى وميلاد اشتريس وقيام حركة المقاومة النصرانية فى شمال اسبانيا ، مجلة كلية الآداب ، القاهرة ، المجلد ١١ ، جـ١ مايو ١٩٤٩م .

١٧ ــ الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين ، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة ، مجلد ١١ ، جـ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ .

١٨ ــ تطور العمارة الاسلامية فى الآندلس ، مجلة كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، ١٩٥١ م .

١٩ ــ السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، مايو ١٩٥٠ م .

٢٠ ــ أثر ظهور الاسلام فى الأوضاع السياسية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو ١٩٥١ م .

حيــدر بامات :

٢١ — مجالى الاسلام ، تعريب عادل زعيتر ، طبع القاهرة ١٩٥٦مم

خالد الصــوفانى :

٢٢ — تاريخ العرب فى أسبانيا ، عصر المنصور ، دار الكتــاب العربى .

خليل ابراهيم السامرائى :

٢٣ — الثغر الأعلى الأندلسى ، رسالة ماجستير غير منشــورة ، بغداد ١٩٧٦م .

٢٤ — علاقات المرابطين بالممالك النصرانية وبالدول الاسلامية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، القــاهرة ، ١٩٧٩ م .

دوزى :

٢٥ — ملوك الطوائف ، تعريف كامل كيلانى ، الطبعة الأولى القاهرة ، عام ١٩٣٣ م .

٢٦ — تاريخ مسلمى أسبانيا جـ١ ، تعريب حسن حبشى ، دار المعارف ، القــاهرة ، من كتــاب

Histiore Des Musulmans D'Espagne

روبرتسون الانجليزى :

٢٧ — اتحاف الملوك الألبــا بتقــدم الجمعيات فى بلاد أوربا ، تعريب خليفة محمود ، طبع بولاق ، مصر ١٣٥٨هـ .

رجب محمد عبد الحليم :

٢٨ — دولة بنى حمود فى مالقــة بالأندلس . رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ م

رينــو :

٢٩ — تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليــا ، تعريب شكيب أرسلان ، طبع مصر ١٩٣٢ م .

ستانلى لين بول :

٣٠ ــ قصة العرب فى اسبانيا ، تعريب على الجارم ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٠م .

السيد عبد العزيز سالم :

٣١ ــ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، لبنان ١٩٦٣ م

شكيب أرسلان :

٣٢ ــ الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ، جـ ١ ، ٢ ، الطبة الأولى ، مصر ، ١٩٣٦ م .

صــلاح خالص :

٣٣ ــ ابن عمار الأندلسى ، طبع بغداد ، ١٩٥٧ م .

عباس محمود وآخرون :

٣٤ ــ دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثالث .

عبد الرحمن فهمى :

٣٥ ــ دراسة لبعض التحف الاسلامية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القــاهرة ، مجلد ٢٢ العدد الأول عام ١٩٦٠ .

عبد العزيز الأهوانى :

٣٦ ــ الزجل فى الأندلس ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٥٧ م .

عبد العزيز بن عبد الله :

٣٧ ــ العربية لغة العلم والحضارة .

عبد السلا مأحمد الرفاعى

٣٨ ــ الحاجب المنصور ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٣٦ م .

عيسى اســعد :

٣٩ ــ الطرفة النقية من تاريخ الكنيسة المسيحية ، طبــع سوريا ١٩٢٢ م .

غوستاف لوبون :

٤٠ — حضارة العرب ، تعريب محمد عادل زعيتر ، مصر ١٩٤٥ م .

فـون كريمر :

٤١ — الحضارة الاسلامية ومدى تاثرها بالمؤثرات الأجنبية ، تعريب مصطفى بدر ، مصر ١٩٦٧ م .

فيليب حتى :

٤٢ — تاريخ العرب (المطول) ، ج ١ ، ٢ ، الطبعة الرابعة ، مصر ١٩٦٥م .

كليليـا سارنلى :

٤٣ — مجاهد العامرى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

كامل كيـلانى :

٤٤ — نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى ، الطبعة الأولى ، القـاهرة ١٩٢٤ م .

كيـزو :

٤٥ — التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوربية ، تعريب حنين نعمة الله الخورى ، الاسكندرية ١٨٧٧ م .

ليفى فروفنسال :

٤٦ — الاسلام فى المغرب والأندلس ، تعريب السيد عبد العزيز سالم وآخرون ، القـاهرة .

٤٧ — أدب الأندلس وتاريخها ، تعريب حمد عبد الهادى شعيرة ، القـاهرة ١٩٥١ م .

٤٨ — الشرق الاسـلامى والحضارة العربية الأندلسية ، تطـوان بالمغرب ، ١٩٥١ م .

٤٩ — تراث الأندلس ، مجلة الكاتب المصرى ، يناير ١٩٤٧ م .

محمد عبد الله عنـان :

٥٠ — دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول ، القسم الثـانى ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٥٢ م .

٥١ ــ دولة الطوائف ، العصر الثانى ، القاهرة ١٩٦٩ م .
٥٢ ــ عصر المرابطين ، العصر الثالث ، الطبة الأولى ، القاهرة ١٩٦٤ م .
٥٣ ــ نهاية الأندلس ، العصر الرابع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٩
٥٤ ــ تاريخ العرب فى أسبانيا ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٢٤ م .

محمد الفاسى :
٥٥ ــ الأعلام الجغرافية الأندلسية ، مجلة البينة ، مجلة السنة الأولى ، العدد الثالث ، يولية ١٩٦٢ م .

محمد كرد على :
٥٦ ــ غابر الأندلس وحاضرها ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٢٣ م .

محمد العروسى المطوى :
٥٧ ــ الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، تونس ١٩٥٤ م .

محمود على مكى :
٥٨ ــ مدريد العربية ، القاهرة .

مصطفى الزرابى :
٥٩ ــ قوة النفوس والعيون بسبر ما توسط من القرون ، معرب عن الفرنسية ، طبع مصر ١٨٦٢ م .

مانويل جوميث مورينو :
٦٠ ــ الفن الاسلامى فى أسبانيا ، تعريب لطفى عبد البديع ، طبع القاهرة .

نيكل :
٦١ ــ مختارات من الشعر الأندلسى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٤٩ م

هشام سليم ابو رميلة :
٦٢ ــ نظم الحكم فى الأندلس فى عصر الخلافة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة .
٦٣ ــ تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، تعريب محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٤٠م

ثالثـا ـ المراجع الأجنبية

Americo Castro :

1. The structure of spanish History, New Jersey 1954.

Allen (W. E. D) :

2. An attempt tↄ reconstrant Al-Ghazal's embassy to the vikings, London 1960.

Aznar (Jase Cemon) ,

3. Las constantes de arte espanol, Revista del Instituto Egipicio de Estudios Islamicos de Madrid V. 3 1965.

Balbas (Leopoldo Tores),

4. Las edificios hispeno - Musulmanus, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid. V. I 1953.

Cantar, (Sanchez)

5. Viajeros espanoles en Oriente, en Revista del instituto Egiptio de Madrid, V. 4 1956.

Chapman (charles, E.),

6. A history of spain, founded on The Historia de Espanay de la civiligacion Espanala of Altamira U.S.A. 1931.

Codera (Don Francisoo),

7. Numismatica, Madrid 1879.

Conde,

8. History of the Domination of the Arabs in spain, London.

Crow (John A.) :

9. Spain : The root and the flowers, New York 1963.

Dozy :

10. Recherches sur L'Histoire et la litterature De L'Espagne Leyde 1881.
1. A history of the Moslems in Spain London 1913.

Guillon :

12. Trois Monnais Lation - Arabes, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V., 1 1953.
13. Les monnayages latino-Arabes. en Plevista del Instituto Egipcio de Madrid, V., 3, 1955.

Hole (Edwyn),

14. Spain under the Muslims, London 1958.

Livermore (Harold),

15. A history of spain, London 1958.

Lluis (Jaime y Navas Brusi)

16. Observaciones sobre la amonidacion, en Revista del

Mones (Hussain)

17. De nuevo sobre los fuentes arabes de la historia del cid, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid V., 2, 1954.
18. Abd Al - Rahman III, en Revista de Instituto Egipcio de Madrid, V., 9 - 10, 1961 - 1962.

Murphy (James Cavanah)

19. The history of the Mohamed Empire in spain, London 1916.

Pidal (Ramon Menendez) ,

20. The Cid and his spain, London 1934.
21. Espana como eslabon, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V., 1, 1953.
22. Espana y la introduccion de la ciencia arabe, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V., 3, 1955.

Prieto y Vives :

23. Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926.

Provencal (Levi) ,

24. Inscriptions Arabes D'Espagne, Leyde, 1931.

Vila (Jacinto Bosch) ,

25. Los Documentos Arabes, en Revista de Instituto Egypcio de Madrid, V., 5, 1957.

Vallicrosa (Jose Millas),

26. El quebacer astronomico de la Espana Arabe, en Revista del Instituo Egipcio de Madrid, V., 5. 1957.

Diccionario Espamol Aradic.

Diccionario Geografico de Espana.

محتويات الكتاب

فهرس الموضـــــوعات

الباب الثانى

العلاقات السياسية بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية فى عصر خلفاء بنى أمية

رقم الصفحة

الباب الثالث

العلاقات السياسية بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية فى عصر ملوك الطوائف

رقم الصفحة

الباب الرابع

اهم التاثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية فى عصر بنى امية وملوك الطوائف

٨٥/٤٤٦٥

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

شركة دار الاشعاع للطباعة
١٤ ش عبد الحميد السيدة زينب القاهرة

AL-ÁLĀQĀT BAIN AL-ANDALUS

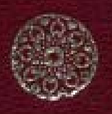
AL-ISLĀMIYA WA ISPĀNIĀ AL-NASRĀNIYA

FI ÅHD BANĪ UMAYYA

WA MŪLUK AL-TAWĀ'IF

By

DR - R.M. ABD EL HALIM



PUBLISHERS

DAR AL-KUTOUB AL-ISLAMIYA

DAR AL-KITAB ALLUBNANI

BEIRUT

DAR AL-KITAB AL-MASRI

CAIRO